كنوز رياض الصالحين

رئيس الفريق العلمي
أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم
صاحب السمو الملكي
الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود
أجزل الله مثوبته

المجلد الثالث

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

كنوز رياض الصالحين

رئيس الفريق العلمي
أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم
صاحب السمو الملكي
الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود
أجزل الله مثوبته

المجلد الثالث

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦٦٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٩٥-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٩٥-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

الطَبْعَةُ الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨- ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

١٣- باب في بيان كثرة طرق الخير

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾[الجاثية: ١٥] والآيات في الباب كثيرة.

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا وهي غيرُ منحصرةٍ فنذكرُ طرفًا مِنْهَا:

الحديث رقم (١١٧)

١١٧- **الأوَّل:** عن أَبي ذرٍّ جُنْدَبِ بنِ جُنَادَةَ ﷺ قال: قلت يا رسولَ اللّه، أيُّ الأعْمالِ أفضَلُ؟ قال: «**الإيمانُ باللَّهِ، وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ**». قُلْتُ: أيُّ الرِّقَابِ أفْضَلُ؟ قال: «**أنْفَسُهَا عِنْد أهْلِهَا، وأكثَرُهَا ثَمَنًا**». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أفْعلْ؟ قال: «**تُعينُ صَانِعًا أوْ تَصْنَعُ لأخْرَقَ**» قُلْتُ: يا رسول اللّه أرَأَيتَ إنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعملِ؟ قال: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عَن النَّاسِ فَإِنَّها صدقةٌ مِنْكَ على نَفسِكَ**» متفقٌ عليه[1].

«**الصانِعُ**» بالصَّاد المهملة هذا هو المشهور، ورُوِي «ضَائعًا» بالمعجمة: أيْ ذَا ضَيَاعٍ مِنْ فقْرٍ أوْ عِيالٍ، ونْحو ذلكَ «والأخْرَقُ»: الَّذي لا يُتقنُ ما يُحاوِلُ فِعْلَهُ.

ترجمة الراوي:

ابو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

أَنْفَسُهَا: الأنفس: الأعظم قيمة[2].

صانعًا: بالصاد المهملة هذا هو المشهور وروي ضائعًا بالمعجمة: أي ذا ضياع من فقر أو عيال ونحو ذلك[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (١٣٦/٨٤) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (١٢٨٩).

(٢) الوسيط ٩٤٠، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٧/٥.

(٣) رياض الصالحين ٩٨.

الأخرق: الذي لا يتقن ما يحاول فعله[(١)].

الشرح الأدبي

إن منهج الحوار والجدال بالتي هي أحسن: هو المنهج الإسلامي السديد، وهو منهج تربوي رشيد؛ والمسلم من واجباته الشرعية طلب العلم، والتفقه في الدين، والقاعدة الإسلامية التي تحكم هذا المنهج تتمثل في قوله ﷺ "خيركم من تعلم العلم وعلمه"[(٢)].

ونقتبس من هذا الحديث ومضاتٍ إيمانية، وقضايا حياتية حَرَصَ أبو ذر رضي الله عنه على تعلمها من رسول الله ﷺ وهو خير معلم لأنه لا ينطق عن الهوى.

وهذا الدرس التعليمي جاء في قَالَبٍ حواري واقعي بين المصطفى ﷺ وأبي ذر رضي الله عنه، وهو يطرح عدة قضايا ترتبط بعقيدة المسلم وحياته العملية وطبيعة حركته في المجتمع، ويبدأ الحوار بسؤال عقب نداء حميم يفيض بأدب الصحابة رضي الله عنهم مع الحبيب المصطفى ﷺ حيث يتوجه أبو ذر إلى الرسول ﷺ قائلاً: "يا رسول الله"، ثم يسأل عن أفضل الأعمال، وصيغة السؤال تفصح عن أهمية العمل في الإسلام، وجاءت الأعمال جَمْعًا دلالة على تنويع العمل والإكثار منه، وتجيء إجابة المصطفى ﷺ، جامعة بين قمتين من قمم المنهج الإسلامي، قمة يعلو ذُرَاها الإيمان، وهو العقيدة الصحيحة النابعة من القلب التي لا يشوبها رياء ولا تصنّع ولا غلو ولا شطط، وقمة تعْلو بالحياة إلى آفاق العزة والشموخ والإباء، وهي قمة الجهاد في سبيل الله تعالى، والجهاد بالأنفس، والأموال، وإعداد العدة التي ترهب أعداء الله تعالى وأعداء الأمة والمنافقين والمتآمرين، والمشككين في ثوابت العقيدة ومعالمها.

وأداة العطف "الواو" وهي لمطلق الجمع ترشد إلى أن الإيمان والجهاد متلازمان، كل منهما يُقَوَّى بالآخر، فلا جهاد يُقبل وهو بمنأى عن دائرة الإيمان، ولا إيمان يُعز أصحابه

---

(١) رياض الصالحين ٩٨.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠٢٧ بلفظ "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

ويجعلهم في منعة من غير دفاع عن العقيدة، وجهاد في سبيل الله تعالى لتقوية شوكة الإسلام.

والسؤال الثاني: يأتي متناسقًا مع الأول في صياغته وموازيًا له: حيث قال أبو ذر رضي الله عنه: أي الرقاب أفضل؟ وهذا السؤال يثير قضية: العتق وتحرير الرقيق في الإسلام.

والإسلام دين الحرية والمساواة، وكثير من تعاليمه شرعت لتحرير الرقاب، وإعطاء الحرية لكل إنسان، وجاءت إجابة المصطفى صلى الله عليه وسلم لترسي قاعدة من قواعد المنهج الإسلامي في الإنفاق، وهى تنبع من قول الله عز وجل: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[1].

فالمؤمن لا ينفق إلا أحسن ما عنده؛ ولذلك صيغت هذه الأفضلية في قَالَب،أفعل التفضيل؛ فقال: "أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمنًا" وقد حذف صدر الجواب اكتفاءً بمجيئه في السؤال، والتقدير: أفضل الرقاب، ولذلك جاء بثلاثة ضمائر تعود على الرقاب، لتذكير السامع والقارئ مع كل ضمير عائد بهذا النفيس المعتق، والتعبير بقوله: أنفسها، يدل على دقة الاختيار والحرص على عتق الأرفع قدرًا وثمنًا والأجود في الطبيعة والهيئة والقدرات والخبرات، والمال النفيس هو: المرغوب فيه.

ويستمر هذا الحوار التعليمي الإيماني لأنه ليس حوارًا خاصًا.. بل هو حوار يضيء لكل مسلم طريق الحياة، ويرشده إلى أفضل الأعمال وإلى كيفية تقديم الأجود والأعلى، ويأتي السؤال الثالث في صورة الشرط الذي حذف جوابه؛ اكتفاء بمنطوق الشرط، حيث قال: فإن لم أفعل...؟ وبلاغة الحذف هنا تتضح في عدم تصريح أبي ذر رضي الله عنه بأنه لا يعتق الرقاب، حيث عدل عن قوله: فإن لم أعتق... إلى قوله: فإن لم أفعل؟ حتى لا يظن أن يعزف عن عتق الرقاب.

والمراد إذا لم يكن لديَّ قدرة على العتق، أو لم يكن عندي رقاب، فما الطريق إلى تحصيل الثواب ومضاعفة الأجر، وتأتي إجابة المصطفى صلى الله عليه وسلم، لتفتح الطريق أمام

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

كل من يعقد النية لإنجاز العمل الصالح؛ فالأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، وأرشد الرسول ﷺ أبا ذر رضي الله عنه إلى أحد طريقين... نافع في الحياة، ومن شأنه تقوية الصلات بين أفراد الأمة، والعمل على تماسك بنية المجتمع الإسلامي، قال له: تعين صانعًا أو تصنع لأخرق، وهذا منهج اجتماعي يقوم على التعاون على البر والتقوى، ويُقَوِّي دعائم الكيان الإسلامي، ويجعل المجتمع كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا.

والصناعة: هي العمل المتقن الذي يستثمر من خلاله أفراد الأمة الطاقات الكامنة في الأرض وخيراتها، واستغلال كنوز الجبال، وثروات البحار، والطاقات الهائلة الكامنة، في طبقات الفضاء والأفلاك والأجرام السماوية، وهي من مصادر الرزق؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1].

"أو تصنع لأخرق" أي: تُعلِّم قليل الخبرة الذي يجهل كيفية إتقان صناعته، تعلمه وتصنع له حتى يتعلم، وذلك مبدأ اجتماعي حضاري يرقى بالمجتمع الإسلامي إلى قمة الحضارة والتقدم.

والتعبير بصيغة المضارع في قوله: "تعين صانعًا أو تصنع لأخرق"، يرشد إلى ضرورة الاستمرار وتكرار المساعدة والتعليم، ولا يكتفي الإنسان بحالة واحدة، ولكن يظل هذا الصنيع منهجًا مستقرًا دائمًا وثابتًا يقوم به كل مسلم قادر ولديه خبرة في مجاله الذي يتقنه قولاً وعملاً.

والحوار يتسم بالتدرج المنطقي حيث يبدأ بالأهم والأشمل وهو: الإيمان والجهاد، ثم يجيء السؤال عن العتق الذي يكفل للإنسان الحرية، ثم السؤال عن البديل أو الطريق إلى تحصيل الثواب إذا انتهى الرق، أو إذا لم يمتلك الإنسان ما يعتقه، وهنا يأتي التكافل والتعاون بين أفراد الأمة، ثم يكون السؤال وهو في حالة الضعف عن العمل في قوله: "أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل"، وكرر هنا النداء: "يارسول الله" ثم يأتي

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٢.

الاستفهام تأدبًا مع رسول الله ﷺ، ويقترن السؤال بصيغة الشرط.. مع حذف الجواب: أو فماذا أفعل: إن ضعفت عن بعض العمل.

والدقة الأسلوبية تكمن في قوله: "بعض العمل"، إشارة إلى أهمية العمل، فالعمل الخيري تتسع مجالاته، وتتعدد آفاقه، ويؤكد الرسول ﷺ ذلك حين يرشده إلى أفق جديد فسيح من آفاق العمل الإيماني: وهو كف الشر عن الناس، ومعاملتهم بالحسنى، ونشر ثقافة المحبة والأخوة والتراحم، وهذا السلوك يعود بالنفع على الشخص نفسه أولاً: ثم على غيره ثانيًا: حيث قال رسول الله ﷺ: "فإنها صدقة منك على نفسك".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: مشروعية الجهاد: ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين وأنه أفضل الأعمال إلى الله عز وجل، ولا يتعين الجهاد إلا في حالات معينة كأن يعينه الإمام أو يهاجم العدو أرض قوم كما سبق القول.

والثاني: العتق، فالإسلام دين يحض على الحرية ويعمل من أجلها، ولذا جعل عتق الرقاب من أفضل الأعمال، وجعله كفارة لكثير من الأعمال كحنث اليمين والقتل والفطر في رمضان والظهار وغير ذلك، وأوجب على المولى أن يطعم العبد مما يطعم

---

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام ٤٣٤/٥، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٩٧/٧، ٩٨، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٤٧/٣، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ عليش ١٣٥/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٦/٦، ٧، نهاية المحتاج، الرملي ٤٥/٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٦٢/٩، والفروع، ابن مفلح ١٦٠/٦.

ويكسوه مما يكتسي وألا يكلفه ما لا يطيق[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عما يعنيه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل عتق الرقاب.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون على البر والتقوى.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: تعدد طرق الخير.

ثامنًا: من صفات الداعية: الصبر والصدق في النصح والإرشاد.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

إن من أساليب الدعوة المهمة أسلوب السؤال والجواب حيث إنه يعطي الفرصة للمدعو أن يسأل ليجيبه الداعية، ويدل على أهمية السؤال والجواب حرص صحابة رسول الله ﷺ على السؤال، وحرص الرسول ﷺ على الإجابة، وهو أسلوب مفيد للداعية حيث يشعر بقرب المدعو منه، والاستفادة من علمه فيما خفي من أمور تَهمُّ المسلم في حياته.

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٤٥/٤ وما بعدها، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٣٨/٤ وما بعدها، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ عليش ٢٧١/٩ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٢٥/٦ وما بعدها، ونهاية المحتاج، الرملي ٢٧٧/٨ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤٤٥/٦ وما بعدها، وكشاف القناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥٠٩/٤ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ، البهوتي ٥٧٧/٢ وما بعدها.

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عما يعنيه:

يظهر ذلك في قول أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه: "قلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟...).

حيث ينبغي للمدعو أن يحرص على السؤال عما يعنيه، وأن يأخذ الإجابة من أهل العلم، وقد أمر القرآن بسؤال أهل العلم والتخصص قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. قال السعدي: (هذه الآية وإن كان سببها خاصًا بالسؤال عن الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها. ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه)[2].

وهذا كان شأن صحابة رسول الله ﷺ إذ كانوا حريصين على سؤاله وأخذ العلم منه في جميع أمور الدين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "الإيمان بالله...".

إن الإيمان بالله فضله عظيم على الإنسان، وذلك لأنه يحقق وجل القلوب من ذكر الله، وخشوعها عند سماع ذكره، ويعمل على تحقيق التوكل على الله، والخوف منه في السر والعلن، والرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، واستشعار قرب الله من العبد، ودوام استحضاره، وإيثار محبة الله ورسوله ﷺ على محبة ما سواهما، والمحبة في الله والبغض في الله والعطاء له، والمنع له، وأن يكون جميع الحركات والسكنات له، وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية، والاستبشار بعمل

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٦٨.

الحسنات والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم، وكثرة الحياء، وحسن الخلق، ومحبة ما يحبُّه لنفسه لإخوانه المؤمنين، ومواساة المؤمنين، خصوصًا الجيران، ومعاضدة المؤمنين ومناصرتهم، والحزن بما يحزنهم[١]. فكل ذلك وغيره يدل على فضل الإيمان بالله.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "... والجهاد في سبيله".

وللجهاد في سبيل الله فضل عظيم على الأمة الإسلامية وعلى المجاهدين في سبيله قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٢] فالفساد قائم لو لم يشرع الجهاد.

قال السعدي: (من جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحيا من الله، مطابقًا للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة: منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال)[٣].

وقال ﷺ في فضل الجهاد والمجاهدين: ((لَرَوحةٌ في سبيلِ الله أو غَدوةٌ خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها، ولَقابُ قَوسِ أحدِكم منَ الجنةَ أو مَوضعُ قِيدٍ - يعني سَوطَهُ - خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها. ولو أنَّ امرأةً من أهلِ الجنةِ اطَّلَعَت إلى أهل الأرض لأضاءَت ما بينهما ولَمَلأَتْهُ رِيحًا، ولَنَصِيفُها[٤] على رأسِها خيرٌ منَ الدنيا وما فيها))[٥]. وقال ﷺ ((ما

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١١٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥١، ٢٥٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٩٠.

(٤) النصيف: الخمار، لسان العرب في (ن ص ف).

(٥) أخرجه البخاري ٢٧٩٦، ومسلم ١٨٨٠.

اغبرَّتا قدَما عبدٍ في سبيلِ اللهِ فتمسَّهُ النار))[١].

وقد نقل عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: "لأن أقف موقفًا في سبيل الله مواجهًا للعدو ولا أضرب بسيف ولا أطعن برمح ولا أرمي بسهم أفضل من أعبد الله ستين سنة لا أعصيه".

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: "لحرس ليلة أحب إلي من صيام ألف يوم أصومها وأقوم ليلها في المسجد الحرام وعند قبر النبي عليه السلام"[٢].

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل عتق الرقاب

يظهر ذلك في قول أبي ذر: "أي الرقاب أفضل؟" وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنفسها عند أهلها...".

فالعتق أفضل القرب إلى الله تعالى، فقد جعله كفارة لجنايات كثيرة، وجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فكاكًا لمعتقه من النار فقال: ((مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنْ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهَا))[٣]. وذلك لأنه تخليص للآدمي المعصوم من ضرر الرق وملك نفسه ومنافعه وتكميل أحكامه وتمكنه من التصرف في نفسه على حسب إرادته واختياره[٤].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون على البر والتقوى:

يظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "تعين صانعًا أو تصنع لأخرق".

والأصل في مجتمع المسلمين أنه مجتمع تعاون وتكاتف وتعاضد، ولكن باتجاه الخير والبر والتقوى، وبعيد عن الشر والإثم والعدوان[٥].

وفي الحديث إشارة إلى أن إعانة الصانع أفضل من إعانة غير الصانع، لأن غير الصانع مظنة الإعانة فكل أحد يعينه غالبًا. بخلاف الصانع فإنه لشهرته بصنعته يُغفل

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨١١.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٥٣٥/٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٧١٥، ومسلم ١٥٠٩.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٦/٢٩.

(٥) هذه أخلاقنا، محمد محمد الخزندار ص ٢١٤.

عن إعانته. فهو من جنس الصدقة على المستور[١]. وفي إعانة الصانع قد تعود الفائدة على المسلمين باستمراره في مهنته أو تطويرها، وتقوية اقتصاد الأمة.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: تعدد طرق الخير:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: تعدد طرق الخير، لأن سياق الحديث يرشد إلى كثرة طرق الخير حيث ذكر رسول الله ﷺ أفضل الأعمال ولم يقصرها على عمل معين، بل عدد الأعمال ونوّعها بحيث يتأتى لكل مسلم عمل ما يستطيعه فمن لم يستطع أعلاها استطاع دونها، أو أن يكف شره عن الناس وهذا إن دل فإنما يدل على يسر الشريعة ورحمتها بالمسلمين، وإشارة أيضًا إلى أهمية كف الأذى عن المسلمين.

ثامنًا- من صفات الداعية: الصبر وسعة الصدر والصدق في النصح والإرشاد:

الصبر من الصفات المهمة التي ينبغي للداعية التحلي بها. فالصبر من أعظم الأسباب التي يستطيع بها الداعية، تخطي العقبات والصعاب والسير في طريق الدعوة، لأن الدعوة إلى الله عز وجل تحتاج إلى مزيد من الصبر والمصابرة نظرًا للعقبات التي تعترض مسيرة الداعية؛ ولذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...﴾[٢]. والحديث يدل على صبر النبي ﷺ وسعة صدره فقد سأله أبو ذر أكثر من مرة وراجعه، ومع ذلك لم يغضب بل صبر وأجاب عليه.

وأرشده إلى أفضل الأعمال وتعددها وأنها مُيسّرة، وفي استطاعة كل مسلم يريد الخير من الله عز وجل.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/١٧٨.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

الحديث رقم (١١٨)

١١٨- **الثاني:** عن أَبي ذرٍّ رضي الله عنه أيضًا أنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**يُصبحُ على كلِّ سُلامَى مِنْ أحَدِكُمْ صدقَةٌ، فَكُلُّ تَسبِيْحةٍ صَدقةٌ، وكُلُّ تحْمِيدَةٍ صدقَةٌ، وكُلُّ تهْليلَةٍ صَدَقةٌ، وكلُّ تَكْبيرةٍ صَدَقَةٌ، وأمْرٌ بالمعْرُوفِ صدقةٌ، ونَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صدقَةٌ. ويُجْزِئُ مِنْ ذَلكَ رَكعَتَانِ يرْكَعُهُما مِنَ الضُّحى**» رواه مسلم[1].

«**السُّلامَى**» بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم: المفْصِلُ.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

سلامي: بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم: المفصل[2].

تهليلة: هلّل الرجل قال: لا إله إلا الله[3].

يجزئ: يكفي[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث صلته بالحديث السابق تتعلق بالمعنى والمبنى، فالراوية هو أبو ذر رضي الله عنه، والحديث السابق ينتهي بقوله: "فإنها صدقة منك عن نفسك"، ويفصل هذا الحديث القول في كيفية التصدق على النفس، والنفس هي الذات بكل ما تتكون منه من مكونات مادية ومعنوية، وقراءة الحديث يجب أن تكون عبر منظور كلي شمولي فكلها تنبع من مشكاة النبوة، وأفق اليقين، ولنتأمل كيف أرشد النبي ﷺ الناس إلى تأمل ذواتهم، والنظر في أنفسهم، وكيف يؤدون الشكر والحمد على هذه النعم

---

(١) برقم (٨٤/٧٢٠). أورده المنذري في ترغيبه (٩٨٤)، وسيكرره المؤلف برقم (١١٤٢)، و (١٤٣٤).

(٢) رياض الصالحين ٩٨.

(٣) الوسيط في (هـ ل ل).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ج ز ى).

التي أنعم الله تعالى بها علينا، مصداقًا لقول الله عز وجل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[١].

ويبدأ الحديث بإرشاد الناس، وإرشاد المسلم بصفة خاصة إلى ضرورة التعاون والتآزر في الحياة، وإلى الحمد والشكر في مقابل النعم التي أنعم بها الله على عباده، ومن هذه النعم، نعمة الخلق والإيجاد، فكل جزء في الإنسان له دوره في الحياة، ولذلك يجب أداء الشكر والحمد حتى مفاصل الإنسان التي لا يتحرك إلا بها يجب على الإنسان أن يتصدق شكرًا لله تعالى عليها، والصدقة تكون كل يوم... لأن التعبير بقوله: "يصبح" يفيد ذلك، وصيغة المضارع تومئ إلى التكرار والاستمرار، والتعبير بقوله: "على كل سلامى من أحدكم صدقة"، يفيد الوجوب، ويرشد إلى ضرورة القيام بهذه الصدقات، التعبدية، التي فصلها رسول الله ﷺ بعد ذلك، ولنتساءل: ما معنى السلامى؟ ولماذا هذا اللفظ: دون غيره، إن السلامى في الأصل عظم يكون في فِرْسِن[٢] البعير، والحديث يشير إلى أن على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة، وقيل: السلامى: عظم في طرف اليد والرجل، وكنى بذلك عن جميع عظام الجسد، والسلامى جمع، وقيل: هو مفرد.

وقد ذكر علماء الطب أن جميع عظام البدن مائتان وثمانية وأربعون عظمًا تسمى السمسمانيات، وبعضهم يقول: هي ثلاث مائة وستون عظمًا: يظهر منها للجسد مائتان وخمسة وستون عظمًا، والباقية صغار لا تظهر وتسمى، السمسمانية.

ومعنى الحديث: أن تركُّب هذه العظام وسلامتها من أعظم نعم الله تعالى على عبده، فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة يتصدق ابن آدم عنه ليكون ذلك شكرًا لهذه النعمة، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ

(١) سورة الذاريات، آية: ٢١.

(٢) فرسن: طرف خف البعير، لسان العرب في (ف ر س ن).

فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[١]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[٢]، قال: (النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار: يسأل الله تعالى العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم)[٣].

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، وكيف رغب رسول الله ﷺ الناس في الإكثار من الشكر والحمد والذكر، وذلك حين أفصح عن المراد من هذه الصدقات، فهي ليست دراهم ولا دنانير.. ولكنها تسبيح وتهليل وتحميد وتكبير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وصلاة يتطوع بها الإنسان في وقت الضحى.

وهذا النهج لكل مسلم فقيرًا كان أم غنيًا، وإذا كان لدى الإنسان ما يتصدق به من المال أو الأنعام أو الزروع والثمار.. فالله تعالى يقبل منه ذلك. ولكن الشكر يبدأ بإتقان العبادة وأداء الفرائض والنوافل والقيام بهذه الصدقات التعبدية، التي تزيد القلب خشوعًا وتزيد النفس خضوعًا، وتزيد الروح إشراقًا وسطوعًا.

وعن بريدة رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((في الإنسان ثلاثمائة وستون مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منه صدقة، قال: ومن يطيق ذلك يانبي الله؟ قال: النخاعة في المسجد تدفنها صدقة، والشيء تنحيه عن الطريق صدقة، فإن لم تجد فركعتا الضحى تجزيك))[٤].

ومن سمات الترغيب في هذا السلوك الإيماني: جمال الصياغة في هذا الحديث، وتكرار لفظ الصدقة، حيث كررت هذه الكلمة سبع مرات: تذكيرًا للمؤمن وترغيبًا له، وحثًا على مزيد من العبادة والتصدق المعنوي والمادي شكرًا لله تعالى وحمدًا له على نعمه.

---

(١) سورة الانفطار، الآيات: ٦-٨.

(٢) سورة التكاثر، آية: ٨.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ٢١٢.

(٤) أخرجه أبو داود، ٥٢٤٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٤٣٦٥).

والتناسق في بناء الجمل من سمات ذلك الترغيب، فالجمل الست التي تعقب الجملة الأولى: كلها تتكون من مبتدأ وخبر، وتتسقان في بنائهما اتساقًا كاملاً، فالمبتدأ هو لفظ "كل" في الجمل الأربع، والخبر هو لفظ "صدقة" والمضاف إلى لفظ كل: هو الثمرة المطلوبة، وهو: المقصود من التعبير عن الشكر والحمد، وهذه الألفاظ تتحد في صيغتها اللغوية فكلها مصادر رباعية في صيغة "التأنيث" ذات إيقاع صوتي موحد، حيث تناسقت لغويًا، واشتقاقيًا وإيقاعيًا... ونحويًا (تسبيحة – تهليلة – تحميدة – تكبيرة) وهذه الصيغ كلها تتضمن لفظ الجلالة.. وتموج بمعانٍ عديدة، وتفصح عن داخل الإنسان المُفْعَم بنور الإيمان، فما أسمى وما أجلَّ المشاعر والقلوب والألسنة التي تلهج وتجأر بهذه الصيغ الجليلة صباح مساء (سبحان الله، ولا إله إلا الله، والحمد لله، والله أكبر).

والتنكير في قوله: "وأمر بالمعروف صدقة"، يدل على كل موقف يؤمر فيه بالمعروف هو صدقة، وتتكاثر الصدقات بتعدد المواقف، وكذلك "ونهى عن المنكر" صدقة، حيث يدل التنكير في "نهى" على تكاثر الصدقات بتعدد مواقف النهى، والتعريف في قوله: "المعروف، والمنكر" للدلالة على أن كلاً منهما واضح بيِّن، ولا لبس في أي منهما، فالمعروف: ما أمر به الشرع، والمنكر: ما أنكره الشرع، وخاتمة الحديث تشير إلى فضل صلاة الضحى لأنها تؤكد صلة العبد بربه، ووقتها ظاهر للناس، وهو مَظِنَّةُ الاشتغال بأمور الدنيا، وهى مع ما تقدم من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير تعبر عن موقف الشكر الأكمل، وموقف الحمد الأفضل.

والحديث في مبناه ومعناه يفصح عن جمال السلوك الإيماني حيث يتسم بالتناسب والتوازن والتجانس وهذه المقاييس انعكاس لجمال فكر المؤمن، وجمال علاقته بربه، وجمال التعبير عن ذلك الشكر.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم الذكر: وقد بين الفقهاء[1] أن الذكر مستحب من كل أحد ومرغب فيه في جميع الأحوال إلا في الأحوال التي ورد النهي عنه فيها كما في حال قضاء الحاجة ووقت الخطبة من صلاة الجمعة، وقد يكون الذكر واجبًا كما في تكبيرة الإحرام وقراءة القرآن، وكما في التسمية عند الأضحية، وفي رد السلام عند من يقول بوجوبه، وقد يكون الذكر حرامًا إذا تضمن شركًا بالله تعالى كما كان في أذكار الجاهلية.

الثاني: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وقد اتفق الفقهاء[2] على مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن اختلفوا في حكمه على أقوال عدة، فذهب جمهور الفقهاء إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية لا

---

(١) شرح معاني الآثار، الطحاوي ٨٥/١، والمدونة الكبرى رواية سحنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ٢٣٠/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٥٤/١ وما بعدها، والأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره ٦٨/١، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٢٠١/٢ وما بعدها، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٨٧/٢، ٤٦٥/٣، ٤٧٠، ٤٧٩/٤ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٠٩/١، ٣٢٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٦/٣، ٢١٠/٥، والفروع، ابن مفلح ٥٥٤/١.

(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٣٦١/١، ٤٤/٢ وما بعدها، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١٢٩/١، وأنوار البروق، القرافي ٢٥٧/٤، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٥٣٨/٤، وأحكام القرآن، ابن العربي ٢٠٤/١، ٣٤٩، ٣٨٣، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، ابن حجر ٢١٧/٩، والأحكام السلطانية، الماوردي، تحقيق: خالد عبداللطيف علي ص ٣٠٣، ٣٠٨ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٨٠/٤، وأدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٩٥ وما بعدها، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٥٥/١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٥٥/١، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم ص ٢٠١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٤٨/٦ وما بعدها.

الأعيان فمتى قام به البعض سقط عن الباقين.

وذهب البعض إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين في بعض المواضع، وهي إذا كان المنكر في موضع لا يعلم به إلا هو وكان متمكنًا من إزالته، وكذا من يرى المنكر من زوجته أو أحد أولاده، وكذا والي الحسبة لاختصاصه بذلك.

وذهب ابن شبرمة والحسن البصري إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نافلة لا فريضة.

وذهب بعض الشافعية إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يأخذ حكم الفعل ذاته، فهو واجب في الواجب فعله أو تركه، ومندوب في المندوب فعله أو تركه وهكذا.

وذهب ابن تيمية وابن القيم إلى أن النهي عن المنكر يكون مشروعًا متى كان يزول ويخلفه ضده أو يقل وإن لم يزل كلية، ويكون موضع اجتهاد ممن يقوم به إن كان يخلفه ما هو مثله، أما إن كان يخلفه ما هو شر منه فإنه يكون حرامًا.

وذهب أبو علي الجبائي من المعتزلة إلى أن المنكر يجب النهي عنه، أما الأمر بالمعروف فهو يأخذ حكم ما يأمر به، فهو واجب في الواجب ومندوب في المندوب.

والراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء.

الثالث: حكم صلاة الضحى، وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أن صلاة الضحى

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٥٩/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٢٩٤/١، وأحكام القرآن، الجصاص ٤٧٧/٣، ٥٥٩، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦٧/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٣٧١/٢ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ٣٣/٤، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٢٤٢/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٢٨/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٣٧/١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٤٣/٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٩٠/٢.

من النوافل المستحبة التي حض عليها رسول الله ﷺ، وقال بعض المالكية وأكثر الشافعية إنها سنة مؤكدة، ووقت صلاة الضحى حين ترتفع الشمس، وليس لها عدد معين من الركعات، وأكثر الفقهاء على أن أقلها ركعتان وأكثرها ثماني ركعات، وقال الإمام مالك في رواية، وبعض الشافعية، والإمام أحمد في رواية أكثرها اثنتا عشرة ركعة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحرص على شكر النعم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل ذكر الله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل ركعتي الضحى.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على شكر النعم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "يصبح على كل سُلامي صدقة...".

ولقد أنعم الله تعالى على الإنسان بالنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

وأمر سبحانه عباده المؤمنين بشكر هذه النعم ووعد بالزيادة قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[2]. أي: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي. فحقيقة الشكر الاعتراف بالنعمة للمنعم[3].

وكان رسول الله ﷺ أحرص الناس على شكر نعم الله عليه. فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له: لِمَ تصنع

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٤٣/٩/٥.

هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ((أفلا أكونُ عبدًا شكورًا))[١].

وقال الطيبي: (إن كل عظم من عظام ابن آدم يصبح سليمًا من الآفات باقيًا على الهيئة التي يتم بها منافعه وأفعاله، فعليه صدقة شكرًا لمن صوره، ووقاه عما يغيره ويؤذيه)[٢]. فينبغي على المسلم الحرص على شكر نعم الأعضاء وغيرها من النعم.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

إن هذا الأسلوب من الأساليب الدعوية البليغة التي تعمل على جذب انتباه المدعو وتشويقه إلى سماع ما يقوله الداعية من تفصيل لما أجمله، وقد ذكر النبي ﷺ الصدقة ثم فصَّل في نوعها والشاهد على ذلك قوله (يصبح على كل سلامي صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة.. إلخ الحديث) وهو أسلوب من الأساليب الدعوية التي تعمل على شد انتباه المدعوين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل ذكر الله:

بعد أن ذكر رسول الله ﷺ ما ينبغي للمؤمن من شكر الله على نعمه وآلائه، بيّن أن المسلم يستطيع أداء هذه الصدقات والشكر على هذه النعم بذكر الله عز وجل وجعل وسيلة ذلك التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وفضل ذكر الله عظيم على المسلم، فهو يوصله إلى أعلى الدرجات وأسمى الغايات قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣] قال السعدي: ("الذاكرين الله كثيرًا" أي: في أكثر الأوقات، خاصة الأوراد المقيدة، كالصباح والمساء، أو بالصلوات المكتوبات)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ١١٣٠، ومسلم ٢٨١٩ و ٢٨٢٠.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ "الكاشف عن حقائق السنن"، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار، وغيره٣/١٧١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦١٢.

وقال رسول الله ﷺ ((مَثلَ الذي يَذكرُ ربَّه والذي لايَذْكرُ ربه مَثلُ الحي والميِّت))[(١)].

وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من الأشياء التي تميزت بها الأمة الإسلامية وسبقت بها الأمم، وكانت خير أمة الناس أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[(٢)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل ركعتي الضحى:

أشار الحديث إلى فضل ركعتي الضحى وأنهما تكفيان عن غيرهما من الأشياء التي ذكرت، وذلك لأن في الصلاة استعمالاً للأعضاء كلها في الطاعة والعبادة، فتكون كافية في شكر نعمة سلامة هذه الأعضاء[(٣)]. وفي ذلك دليل على عظم فضل صلاة الضحى وكبير موقعها[(٤)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((أَوْصَانِي خَلِيلي بِثَلاَثٍ: بصِيَامِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ. وَرَكْعَتَيِ الضُّحَى. وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَرْقُدَ))[(٥)]. وفي هذا حث على ركعتي الضحى لتحصيل فضلها.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٠٧، ومسلم ٧٧٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٨٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٥٠٠.

(٥) أخرجه البخاري ١١٨٧، ومسلم ٧٢١.

الحديث رقم (١١٩)

١١٩- الثَّالثُ عنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أعْمالُ أُمَّتي حسَنُهَا وسيِّئُهَا، فوجَدْتُ في مَحاسِنِ أعْمالِهَا الأذَى يُماطُ عن الطَّرِيقِ، وَوجَدْتُ في مَساوِئ أعْمالِها النُّخَاعَةُ تَكُونُ فِي المَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

يماط: يُنَحَّى ويُبْعد[٢].

النخاعة: ما يخرجه الإنسان من حلقه من البلغم[٣].

الشرح الأدبي

إن مصدر الجمال في هذا الحديث الشريف ينبع من حرص النبي ﷺ على أمته، وبمقدار صلاح الأعمال تسمو قيمة ذلك الجمال، والقرآن الكريم يرشد المسلمين إلى هذا المصدر التشريعي الذي يضئ جوانب العلاقة المكتملة بين النبي محمد ﷺ وأمته... وهى خير أمة أخرجت للناس، حيث يقول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

ومن كمال حرصه ﷺ، وجمال ارتباطه بأمته أنه يشرع لأفرادها، ويفصل لهم القول في تبيان أحسن الأعمال ويأمرهم بها، وتبيان أسوأ الأعمال، وينهاهم عنها.

---

(١) رقم (٥٥٣/٥٧). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٧٢).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (م ي ط).

(٣) الوسيط في (ن خ ع).

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

ولنتأمل صيغة هذا الحديث الشريف... وهى صيغة مستقبلية في ثوب الماضي، فكيف تعرض الأعمال وهى لم تقع بعد؟!!!! إن هذه الصيغة تنبئ عن تكريم الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ، لأنه يخبره بمعايير الأعمال الحسنة، ومعايير الأعمال السيئة، وجاء الفعل مبينًا للمفعول: لأن الفاعل معلوم وهو الحق سبحانه وتعالى إما مباشرة أو عن طريق الوحى، وللوحى أنواع متعددة ويقول الله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[1].

وإضافة لفظ "أمة" إلى ياء المتكلم وهو رسول الله ﷺ فيه تشريف لهذه الأمة التي أكرمها الله تعالى برسالة الإسلام، ونبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

والطباق بين "حسنها وسيئها"، فيه إرشاد إلى ضرورة الموازنة بين النوعين، والعاقل هو الذي يختار الأحسن، ولذلك قدم: الأحسن من الأعمال على غيره.

وتكرار الفعل "وجدت" يفصح عن صحة الحكم، وصدق القول، والتعبير بالفعل "وجدت" يعطي دلالة، رأيت، ولكن "وجدت" أدق في التعبير، فالأعمال كأنها كائنة وشاخصة أمامه ﷺ والتعبير "بفي" في قوله: "في محاسن أعمالها" يفيد البعضية والجزئية وعدم الانفصال عن بقية الأعمال؛ لأن محاسن الأعمال كثيرة وفي قلب هذه الأعمال ما يظنه الناس يسيرًا سهلاً لا يهتم به أحد وهو "إماطة الأذى عن الطريق"، وهذا سلوك اجتماعي وحضاري يمثل مَعْلَمًا من معالم المنهج الإسلامي وارتباطه بحياة الناس، وكذلك نظافة المسجد تعادلها في قيمتها نظافة الطريق، فالنخاعة في المسجد ربما يغفل عنها الناس، ولكن دفنها والحرص على نظافة المسجد وتجميله من جلائل الأعمال، فليتأمل كل مسلم حياته وسلوكه في ضوء هذا البيان النبوي الجميل، فالإيمان جمال... وجلال وكمال، وطاعة للكبير المتعال.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٤١، ٤٢.

فقه الحديث

يتعرض هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم إماطة الأذى عن الطريق: وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يندب إزالة الأشياء المؤذية عن المسلمين، ومن ذلك إماطة الأذى عن الطريق، فمن وجد شيئًا في طريق المسلمين يضرهم فإنه يندب له أن يميطه، وذكروا أنه لا يجوز لأحد أن يضر المسلمين في طريقهم بأي وجه وإلا ضمن ما تسبب فيه بفعله.

الثاني: حكم التنخم في المسجد: وقد ذكر الفقهاء[2] أنه ينبغي للمسلمين تنزيه المساجد عن كل ما يشوبها من سوء أو ما يؤذي المصلين أو ينفرهم كالرائحة الكريهة أو النخامة في المسجد، واختلفوا في حكم التنخم في المسجد على آراء ثلاثة، فذهب الحنفية[3] إلى أنه يكره أن يبزق على حيطان المسجد أو بين يديه على الحصى أو أن يتمخط، وإن فعل كان عليه أن يزيلها أو يدفنها، وذهب المالكية والحنابلة[4] إلى أنه لا

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٩٩/٨، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١٤٤/٦ وما بعدها، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ٤٧٤/٤، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٤٣/٦، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٢٢/١، ١٢٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٣٠٤/٢، و مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، السيوطي ٣٥٤/٣، والقواعد الفقهية، ابن رجب الحنبلي ص ٢٠٣ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٣٥٦/٢، وما بعدها.

(٢) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١٦٨/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢١٦/١، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ١٩١/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٣٨/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١١٥/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٣/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٤٠/٢، ٦٩/٣، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٩٧/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٧١/١، والفروع ٤٨٢/١.

(٣) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١٦٨/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢١٦/١.

(٤) المدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ١٩١/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٣٣٨/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١١٥/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٩٧/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٧١/١، والفروع، ابن مفلح ٤٨٣/١.

يجوز البصاق في المسجد على الحصير وله أن يبصق تحته، أو يبصق في طرف ثوبه، فإن كان المسجد محصبًا فله أن يبصق فيه ويدفنها، ولكن لا يبصق عن يمينه ولا عن يساره إن كان هناك أحد، وإنما يبصق أمامه ويدفنها.

وذهب الشافعية[1] إلى أنه يحرم التنخم في المسجد، وإن فعل فعليه أن يدفنها.

وكذا ذكر الفقهاء أن من السنة لمن رأى نخامة في المسجد أن يزيلها اقتداء بفعله ﷺ في هذا الشأن وتنزيهًا للمساجد عما ينفر من الأشياء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب والترهيب، والتنبيه بالأدنى على الأعلى.

ثانيًا: من مهام الداعية: تنبيه الناس إلى وجوه الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل إماطة الأذى عن الطريق.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: المحافظة على نظافة المسجد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحفاظ على البيئة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، الترغيب والترهيب، والتنبيه بالأدنى على الأعلى:

أ- الإخبار: أسلوب مهم من أساليب الدعوة حيث يخبر الداعية المدعوين بالحقائق التي يعلمها، ويتحرى فيها الصدق، وأما أخبار الأنبياء فكلها صادقة لأن من صفاتهم الصدق، وهم يبلغون الوحي عن الله عز وجل، وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن أعمال أمته التي عرضت عليه.

ب- الترغيب والترهيب: إن الترغيب يشجع على الإقبال على العمل، والترهيب يخوف من الإقدام على الأعمال المنهي عنها، وفي الحديث جعل النبي ﷺ إماطة الأذى من محاسن الأعمال وهذا ترغيب، وجعل عدم دفن النخاعة من مساوئ الأعمال وهذا ترهيب، وبين الترغيب والترهيب تكون أعمال الخير قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[2].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٣/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٤٠/٢، ٦٩/٣.

(٢) سورة السجدة، آية: ١٦.

ج- التنبيه بالأدنى على الأعلى: حيث نبه النبي ﷺ في محاسن الأعمال على أقلها ليدخل فيه ما فوقها، من باب أولى، ونبه في مساوئ الأعمال على أدناها ليدخل فيه أيضًا ما فوقها، وهذا أسلوب من أساليب الدعوة يتخذه الداعية في عرض دعوته حيث ينبه بالأدنى على الأعلى من غير تصريح.

ثانيًا- من مهام الداعية: تنبيه الناس إلى وجوه الخير:

إن المهام الأساسية للدعاة إلى الله أن يرشدوا الناس إلى طرق ووجوه الخير ليتعرفوا عليها، لأن الإنسان قد يعرض عن الخير لجهله به، وبالأجر الذي عليه، ومن هنا يتوجب على الداعية تنبيه الناس إلى وجوه الخير ليقدموا عليه، كما أرشد النبي ﷺ في الحديث إلى فضل إماطة الأذى من الطريق، وحذر من ترك النخاعة في المسجد وكما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[1]. قال النووي: (والحديث فيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا، ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل إماطة الأذى عن الطريق:

لقد رغّب الإسلام في إماطة الأذى عن الطريق؛ حيث جعل النبي ﷺ في الحديث إماطة الأذى عن الطريق من محاسن الأعمال، وسبب لمغفرة الله عز وجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((بَينما رجلٌ يَمشي بطريق وَجَدَ غُصنَ شَوكٍ على الطريقِ، فأَخَّرَهُ، فشكرَ اللّهُ لهُ، فغفَرَ له))[3]. وجعل النبي ﷺ إماطة الأذى إحدى شعب الإيمان قال رسول الله ﷺ: ((الإيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ))[4].

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٩١٤.

(٤) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥.

قال الإمام النووي رحمه الله: (والمراد بالأذى كل ما يؤذي من حجر أو مدر أو شوك أو غيره، والمقصود تنحيته وإبعاده)[١]. وهناك الكثير من الأدلة الشرعية التي تبين فضل إماطة الأذى عن طريق المسلمين، فيجب على الداعية بيانها للناس، وتذكير الناس بها.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: المحافظة على نظافة المسجد:

المساجد في الإسلام لها قدسيتها واحترامها ومكانتها، ومن هنا وجه الشارع الحكيم إلى ضرورة المحافظة على نظافة المسجد، وإبعاد القاذورات عنه، ولذا جعل النبي ﷺ من مساوئ الأعمال أن تكون النخاعة في المسجد ولا تدفن.

قال النووي: (وهذا ظاهره أن هذا القبح والذم لا يختص بصاحب النخاعة بل يدخل فيه هو وكل من رآها ولا يزيلها بدفن أو حك ونحوه)[٢] وبين النبي ﷺ أن البصاق في المسجد خطيئة فقال: ((البُصاقُ في المَسْجِدِ خَطِيئَةٌ، وَكَفَّارَتُها دَفْنُهَا))[٣] وأرشد إلى المحافظة على نظافة المسجد فقال: ((إِنَّ هذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هذَا الْبَوْلِ وَالْقَذَرِ. إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلاَةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ))[٤] وبناء على ذلك فإنه يجب على الداعية إرشاد المدعوين إلى ضرورة المحافظة على نظافة المسجد وعدم إلقاء القاذورات فيه.

خامسًا- الحفاظ على البيئة:

إن حث النبي ﷺ على إماطة الأذى عن الطريق، وتنفيره من ترك القاذورات أو مظاهر التلوث يعد من أهم أسباب الحفاظ على سلامة البيئة، ويتضح حرص الإسلام على المحافظة على البيئة من خلال دعوة الإسلام لإماطة الأذى من الطريق العام، ومن خلال الدعوة أيضًا للمحافظة على دور العبادة من القاذروات، حيث يدعو الإسلام بتعاليمه إلى الحفاظ على البيئة من التلوث، ويكفي في ذلك النهي عن التغوط في طريق

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧.

(٢) المرجع السابق نفسه ٤١٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤١٧، ومسلم ٥٥٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٥.

الناس وظلهم وموارد الماء ففي الحديث أن رسول الله قال: ((اتَّقُوا اللَّاعِنَيْنِ. قالُوا: وَما اللَّاعِنَانِ يارَسُولَ الله؟ قال: الَّذي يَتَخَلَّى في طَرِيقِ النَّاسِ أوْ ظِلِّهِمْ))[1] فعلى الداعية أن يستحضر هذه المعاني، ويبرز سبق الإسلام وتفرده في أمور النظافة والطهارة والحفاظ على البيئة والمجتمع.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩.

الحديث رقم (١٢٠)

١٢٠- **الرابع** عنه: أنَّ ناسًا[١] قالوا: يا رسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أهْلُ الدُّثُور بالأجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أمْوَالِهِمْ قَالَ: «**أوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ**[٢] **لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ**[٣]: **إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تَكبِيرةٍ صدقة، وكلِّ تَحْمِيدةٍ صدقةً، وكلِّ تِهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وأمرٌ بالمعْرُوفِ صدقةٌ، ونَهْيٌ عنِ المُنْكرِ صدقةٌ وفي بُضْعِ أحدِكُمْ صدقةٌ**» قالوا: يا رسولَ اللَّهِ أيأتي أحدُنَا شَهْوَتَه، ويكُونُ لَه فيها أجْرٌ؟، قال: «**أرأيْتُمْ لو وضَعهَا في حرامٍ أكَانَ عليهِ**[٤] **وِزْرٌ؟ فكذلكَ إذا وضَعهَا في الحلالِ كانَ لَهُ أجْرٌ**» رواه مسلم[٥].

«**الدُّثُورُ**»: بالثاءِ المثلثة: الأموالُ، واحِدُها: دَثْرٌ.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

الدثور: فسرها النووي، وفي النهاية: المالُ الكثير[٦].

فضول أموالهم: الفضول جمع، مفرده: الفضل: وهو ما زاد عن الحاجة[٧].

التهليلةُ: قول: "لا إله إلا الله" مرةً واحدةً.

البُضْع: يطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه وكلاهما تصح إرادته هنا[٨].

---

(١) عند مسلم زيادة: (من أصحاب النبي ﷺ).

(٢) عند مسلم زيادة لفظ الجلالة.

(٣) (به) لا توجد عند مسلم.

(٤) عند مسلم زيادة: (فيها).

(٥) برقم (٥٣/١٠٠٦). أورده المنذري في ترغيبه (٢٣٠٢).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (د ث ر).

(٧) انظر: المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٣٤١، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٥٧١، والكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي ٦٨٣.

(٨) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤١.

وزر: الوزر: الحمل والثقل، وأكثر ما يطلق على الذنب والإثم[1].

الشرح الأدبي

إن التنافس في المبادرة إلى فعل الخيرات من أهم خصائص الشخصية المسلمة التي تتسم معالمها بالثبات والتوازن والإيجابية والشمولية والواقعية والربانية والتوحيد.

وهذه السمات التي تميز طبيعة التفكير في شخصية المسلم تقود المسلم إلى التنافس بمنأى عن المَوْجِدة والحقد، وإلى المبادرة إلى فعل الخيرات والتأسي بالغير في إنجاز الأعمال الصالحات، ونقتبس من هذا الحوار الصادق بين النبي ﷺ وبعض الصحابة وَمَضَات من التنافس الكريم الجميل في تبيان طرق الخير المتعددة.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: فهو يبدأ بالتأكيد على هذا المشهد الواقعي حيث يقول: "إن ناسًا"، وفي رواية أخرى: "إن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ": حيث تحدد هذه الرواية: هوية هؤلاء الناس وهم من فقراء الصحابة، والتعبير بقوله: "ناس"، يشير إلى دلالة هذه الكلمة وأثرها الاجتماعي والنفسي: وهي أصلها: أناس، وهي مأخوذة من أنس، لأنهم يأنسون بأمثالهم، واختيار هذا اللفظ دون غيره في هذا السياق يوحي بأن هؤلاء الذين يبحثون عن طرق الخير، ويرغبون في مضاعفة الأجر، يغبطون غيرهم، ولا يحقدون عليهم: لأنهم يتسمون بالأنس والرضا.

وهم من الصحابة الفقراء الذين كانوا يحزنون على ما يتعذر عليهم فعله من الخير مما يقدر عليه غيرهم، وكان حزنهم يتضاعف على فوات الصدقة بالأموال التي يقدر عليها الأغنياء ويحزنون على التخلف عن الخروج في الجهاد لعدم القدرة على آلته[2].

ولذلك توجه هؤلاء بهذا النداء الصادق الحميم: "يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور".

والدثور: هي الأموال التي تحصل لهم من أجر الصدقة بأموالهم، وفي اللغة: الدثور:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (وزر).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ٢٠٤-٢٠٥.

الأموال، واحدها، دَثْر، ووجه الموازنة والمنافسة: أن الفقراء والأغنياء يتساوون في العبادة لأنهم جميعًا من الصحابة الطائعين المصلين والصائمين، ولكن الأغنياء، يتصدقون بفضول أموالهم، ولم يتركهم الرسول ﷺ في حيرتهم، ولكنه دلهم على طرق جديدة للخير، وفتح لهم أبوابًا متعددة للتصدق، لأن بعضهم ظن أن لا صدقة إلا بالمال وهم عاجزون عن ذلك، فأخبرهم النبي ﷺ أن جميع أنواع فعل المعروف والإحسان صدقة[1].

ويتساءل رسول الله ﷺ مجيبًا عن سؤالهم الضمني، وكأنهم قالوا ماذا نفعل حتى نلحق بأهل الدثور في الفضل. وفي التنعم بأجر الصدقة، فقال لهم رسول الله ﷺ مؤكدًا لهم أن الله تعالى فتح لهم منافذ كثيرة للتصدق المعنوي، وهو لا تشوبه شائبة وأتى ذلك التأكيد في أسلوب استفهامي: وحذفت إجابتهم: حيث خاطبهم متسائلاً أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟... وكأنهم: أجابوا قائلين: بلى، فيطمئنهم رسول الله ﷺ على أن الله تعالى جعل لهم ما يتصدقون به، وهو عطاء دائم وفي متناولهم.

وحدد الرسول ﷺ لهم سبعة طرق للتصدق: وهي تجمع بين العبادة والمتعة الشخصية، والتعاون مع أفراد المجتمع، فأما العبادة ففي التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل، وهي صيغ ترتبط بحياة المسلم في إصباحه وإمسائه، وفي غدوه ورواحه، وفي تلبيته ودعائه، وفي خَشْيته ورجائه، ولها في حياة المسلم دور مؤثر حيث تربطه دائمًا بالخالق جل وعلا. وأما التعاون على البر والتقوى والنزعة الإصلاحية. فتتمثل في حرص المسلم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو سلوك إيماني اجتماعي يربط المسلم بحركة الحياة، ويجعله مؤثرًا وفاعلاً في بيئته، وللأمر بالمعروف طرق كثيرة، وكذلك النهى عن المنكر له طرقه المتعددة، وهي إما باليد أو باللسان أو بالقلب، وتكرار مادة التصدق تسع مرات يرشد إلى قيمة هذا السلوك، وجاء لفظ "الصدقة"

---

(١) انظر: المرجع السابق ٢٠٤-٢٠٥.

سبع مرات للدلالة على تعدد طرق الخير... وليس للإحصاء، وقد تعجب هؤلاء الصحابة من قوله: "وفي بُضع أحدكم صدقة"، لأن هذا العمل متعة شخصية، فكيف يكون صدقة، والصدقة تؤول إلى إنسان آخر، ويقنعهم الرسول ﷺ؛ حيث يواجههم بسؤال يقنعهم ويذهب دهشتهم حيث قالوا: "أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر"، فيسألهم رسول الله ﷺ مجيبًا وموضحًا: "أرأيتم لو وضعها في حرام كان عليه وزر؟" وحذفت إجابتهم لأنها واضحة ومعروفة، وحذفها يوحي بكراهة الألفاظ التي تنوء بعبء وجرم ذلك الفعل القبيح، ويوحي ويقرر حرمة هذا العمل، وفي ختام الحديث يزف الرسول ﷺ المكافأة الخالصة من الله عز وجل لهؤلاء الذين عفوا أنفسهم وصانوا شرفهم، وقاوموا إغراءات النفس، وإغواء الشياطين ولم يلوثوا أنفسهم بارتكاب هذه المعصية التي تنشر الفاحشة في المجتمع، وتُقوِّض صَرْح الأخلاق، وتهدم بنيان الفضيلة، وتعلي من شأن الرذيلة.

وكثرة الصيغ الاستفهامية في الحديث تفصح عن الطبيعة الحوارية التعليمية التي كان يلجأ إليها المصطفى ﷺ في تعليم أصحابه، وإرشادهم إلى الطريق الصحيح.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق له منه صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا ينقصه أحد إلا كان له صدقة))، وفي رواية له أيضًا: ((فلا يأكل منه إنسان ولا دابة ولا طائر إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة))[1].

---

(١) أخرجه مسلم ١٥٥٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحوار، والتوكيد، والاستفهام، والتقرير.

ثانيًا: من مهام الداعية: مراعاة أحوال المدعوين.

ثالثًا: من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التنافس في الخير والعمل الصالح.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح وسائر الأذكار.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحوار، والتوكيد، والاستفهام، والتقرير:

١- **الحوار:** إن الحوار يعد من أهم الأساليب الدعوية التي يمكن أن تثري العملية الدعوية، حيث يؤدي إلى فتح آفاق التفاعل بين الداعية والمدعو، وقد اشتمل هذا الحديث على الحوار الذي جرى بين النبي ﷺ والسائلين، وهو أسلوب جيد من أساليب الدعوة يربط المدعوين بالداعية، ويشجعهم على عرض ما لديهم من أفكار وتقويمها وتصويبها من قبل الداعية.

٢- **التوكيد:** ويظهر في قول النبي ﷺ "إن بكل" ولاشك أن التوكيد له أثر في إقناع المدعو، ويجعل الداعية متمكنًا من مقولته، واثقًا مما يقول مما يعطي انطباعًا إيجابيًا لدى المدعو.

٣- **الاستفهام:** ويؤخذ من سؤال النبي لهم "أو ليس قد جعل الله لكم" وسؤال الصحابة رضي الله عنهم: "أيأتي أحدنا شهوته" والاستفهام من الأساليب المهمة في الدعوة حيث تعرض مضامين الدعوة في صورة سؤال وجواب، والداعية الموفق يستطيع أن يفيد من هذا الأسلوب في بيان الأحكام الشرعية وغيرها.

٤- **التقرير:** إن من الأساليب الدعوية التي يمكن للداعية أن يفيد منها أسلوب التقرير، وذلك بأن يقرر الداعية بعض المفاهيم التي لا يختلف عليها العقلاء ويقرها الشرع حتى يصل إلى حكم يريد بيانه للمدعوين، ويظهر هذا من قول النبي ﷺ "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟" وهذا أسلوب شائق من أساليب الدعوة حبذا

نو استخدمه الداعية ليطمئن إلى قناعة المدعوين بما يقول.

ثانيًا- من مهام الداعية: مراعاة أحوال المدعوين:

إن من مهام الداعية التي تدل على فهمه للمدعوين، مراعاة ظروفهم وأحوالهم في خطابه الدعوي الموجه لهم والذي يجب أن يتناسب معهم، وفي الحديث الذي معنا الآن نجد أن السائلين لرسول الله ﷺ كانوا فقراء، ويرغبون في الصدقة؛ ولذا أرشدهم النبي إلى بعض أبواب الصدقة التي لا تكلف مالاً وهي التكبير والتحميد وسائر الأذكار، وهذا يتناسب مع حال المدعوين وظروفهم، ومن هنا وجب على الداعية الحصيف أن يكون جوابه على حسب حال السائل، فمن فاتته الصدقة بالمال فليرشده إلى الصدقة بالأعمال الصالحة.

ثالثًا- من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه:

إن سؤال المدعو عما خفي عليه يعد برهانًا على حرصه على فهم أمور دينه، ومعرفة بعض المسائل حتى يكون مقتنعًا بما سمع، عارفًا بالعلة والحكم الشرعي فيما استشكل وخفي عليه، وفي الحديث لما قال رسول الله ﷺ "وفي بضع أحدكم صدقة" ورغم أن القائل هو رسول الله ﷺ ولكن هذا لم يمنعهم عن السؤال "أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر" قال الإمام النووي: (وفي الحديث جواز سؤال المستفتى عن بعض ما يخفى من الدليل إذا علم من حال المسئول أنه لا يكره ذلك ولم يكن فيه سوء أدب)[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التنافس في الخير والعمل الصالح:

لقد كان التنافس في الخير والعمل الصالح ديدن الصحابة رضي الله عنهم، فلم تمنعهم قلة المال أن يغبطوا إخوانهم الأغنياء، ويبحثوا عن سبل وطرق توصلهم إلى درجات إخوانهم المتصدقين المنفقين، وفي هذا يكون السباق والتنافس، وقد أمر الله بهذا في القرآن فقال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[2] وجعل ذلك من صفات أهل الخشية والإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[١].

قال القرطبي: (﴿يسارعون في الخيرات﴾ أي في الطاعات كي ينالوا بذلك أعلى الدرجات والغرفات، وكل من تقدم في شيء فهو سابقه إليه، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وفاته وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (سبقت لهم من الله السعادة؛ فلذلك سارعوا في الخيرات، وقيل المعنى: وهم من أجل الخيرات سابقون)[٢] وعلى الداعية أن يثير الحماس في نفوس المدعوين، ويحثهم على التنافس في الخير والأعمال الصالحة.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده:

من فضل الله تعالى على عباده المؤمنين أن يسّر لهم سبل تحصيل المثوبة، فحثهم على التسبيح والذكر والتحميد، وأعطى الأجر على فعل المباحات إذا صحت النية، ولهذا تعجب الصحابة رضي الله عنهم "أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر" وهذا من فضل الله على عباده قال النووي: (وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة، ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة، ومنعهما جميعًا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة)[٣] قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾[٤].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح وسائر الأذكار:

لقد أخبر النبي ﷺ بفضل التسبيح والذكر، وأن الإنسان يُثاب على ذلك لأن له بكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وقد أمر الله بذكره فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[٥] قال السعدي (يأمر الله تعالى المؤمنين

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٣٣/٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤١.

(٤) سورة الشورى، آية: ١٩.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٤١.

بذكره ذكرًا كثيرًا من تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير، وغير ذلك من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك أن يُلازمَ الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في كل الأحوال وجميع الأوقات، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل، وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح)[١].

وقد بين النبي ﷺ فضل ذكر الله في أحاديث كثيرة منها ما جاء عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ. وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ (أَوْ تَمْلأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. وَالصَّلاَةُ نُورٌ. والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ. وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ))[٢] وقال ﷺ: ((سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: ((الذَّاكِرُونَ اللّهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ))[٣].

ومن ثمّ فإنه ينبغي للداعية أن يبين للمدعوين على فضل الذكر والتسبيح.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦١٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٧٦.

الحديث رقم (١٢١)

١٢١- **الخامس**: عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «**لاَ تَحقِرنَّ مِن المعْرُوفِ شَيْئًا، ولَوْ أنْ تلْقَى أخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

لا تحقرنَّ: لا تستصغرنَّ[2].

وجه طلق: منطلق ضاحك منبسط[3].

الشرح الأدبي

إن طرق الخير تتعدد، ومنافذه تتفتح لكل مؤمن تَخْلُص نيته، وتصفو سريرته، اتباعا لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[4] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[5].

وإن العلاقات بين أفراد الأمة الإسلامية تقوم على التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وتَلَمُّسِ الأسباب والوسائل التي تقرب ما بين النفوس، وتزيل الشبهات، وتقضي على كل مثيرات النزاع، وأسباب الخصام، رغبة في نشر أريج المحبة والوئام.

وحين نتأمل أفق الدلالة في هذا الحديث الشريف نجده يؤكد هذا المنحى، ويرشد إلى ضرورة التعرف على مسالك الخير التي تصلح ذات البين، وتجعل من أفراد الأمة كيانا متماسكًا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

---

(١) برقم (٢٦٢٦/١٤٤). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩٦٧). وسيكرره المؤلف برقمي (٦٩٥)، و (٨٩٣).

(٢) اللسان والوسيط في (ح ق ر).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ط ل ق).

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الذي يتسم بالإيجاز والدقة والإيحاء، إن الذي يرويه أبو ذر رضي الله عنه حيث يقول: "قال لي النبي صلى الله عليه وسلم"، ولو تأملنا منهج الإمام النووي في ترتيب الأحاديث لوجدنا أنه يأتي بعدة أحاديث للراوي الواحد في باب واحد في كثير من أبواب الكتاب... وفي هذا الباب وهو بيان كثرة طرق الخير يأتي بخمسة أحاديث من رواية أبي ذر رضي الله عنه... وكلها ترشد إلى كثرة طرق الخير.

وتهدي إلى الوسائل والأسباب التي تؤدي إلى ارتياد هذه الطرق، وهذا الحديث يقودنا إلى طريق من طرق الخير، ربما يغفل عنه الناس، أو يجهلونه، أو يستقلونه، وهو: البشاشة، وحسن المقابلة، ومراعاة الذوق الاجتماعي، في ظل التعاليم الإسلامية، ويبدأ الحديث بأسلوب النهى، والفعل المضارع المؤكد حيث يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "لا تحقرن من المعروف شيئًا"، والنهى هنا موجه إلى أبي ذر رضي الله عنه في سياق خصوصية الخطاب، ومحدودية الواقعية، ولكن هذا النهى عن احتقار القليل من المعروف موجه إلى كل مسلم يؤمن بالله تعالى ورسوله رضي الله عنه، ويؤمن بقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1].

والتأكيد في هذا السياق يرشد إلى حتمية العدول عن هذا النهى... والإقدام على فعل الخير والمعروف مهما قل، و"المعروف" كلمة تتسع دلالتها، وتحمل في جذرها اللغوي كل إرهاصات معانيها، فهي تشمل كل أنواع الخير، وكل الطرق الموصلة إليه، وجاء لفظ "المعروف" معّرفًا إشارة إلى تقريره وثبوته وأنه مألوف، كما قال العلماء.

وفي الحديث السابق صُوِّر الأمر بالمعروف بأنه صدقة... وهذا مجاز لمشابهة الصدقة له: أي أن للمعروف أجرًا كأجر الصدقة في الجنس لأن الجميع صادر عن رضا الله تعالى مكافأة على طاعته إما في القدر أو الصفة -كما يقول صاحب كتاب دليل الفالحين- وكلمة "شيئًا" توحي بضرورة تلمس أي طريق وأي فعل لإنجاز الخير، وتحصيل المعروف مهما قل؛ حتى الكلمة الطيبة، وحتى التبسم في وجه الصديق -

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

وعدم العبوس في وجهه، والبشاشة والتراحم والمودة- كلها من وسائل الخير، ومن المصابيح التي تضئ سبيل المؤمن في حياته الواقعية، وفي علاقاته الاجتماعية، وفي معاملاته الأسرية، والتعبير بالمصدر المؤول: "أن تلقى" يوحى بضرورة استمرار هذا الفعل البشوش، واختيار مادة "لقى"، للشعور بالإيناس واللقيا... وعدم الهجر والفرقة.

وكلمة "أخاك" تحمل كل ما يمكن في لفظ الأخوة من قيم ومشاعر لا تبددها الأحداث، وذلك مصداقًا لقوله الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[(١)]، وقول رسول الله ﷺ: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره))[(٢)].

وما أروع هذا التعبير النبوي: بوجه طلق أو طليق، أى ضاحك مستبشر، وقل ما تشاء في تفسير الأثر الطيب الذي تحدثه طلاقة الوجه، وبشاشة المؤمن، وتبسمه في وجه أخيه: إنها مفاتيح القلوب، ومصابيح المحبة والمودة بين المؤمنين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى أعمال الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على فعل المعروف ولو كان قليلاً.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: استحباب إدخال السرور على المسلم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: رحمة الله بعباده بتيسير طرق الخير.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

لقد ورد أسلوب النهي في قول النبي ﷺ "لا تحقرن" ولاشك أن النهي له أثر على المدعو في أهمية ترك المنهي عنه، وأدعى إلى اجتنابه، ذلك لأن النهي يشعر بالترهيب، وفي النهي: جذب لانتباه السامع ليتطلع إلى معرفة المنهي عنه.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٢.

(٢) رياض الصالحين ٩٨.

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى أعمال الخير:

يجب على الداعية أن يتفقد المدعوين، ويراعي ظروفهم وأحوالهم، ويتعهدهم بالنصح والإرشاد لأعمال الخير، فمن كان فقيرًا لا يستطيع الصدقة والإنفاق يرشده ويدله إلى أمور من أبواب الخير التي لا تكلفه مالاً، ويؤجر عليها ويثاب، وفي هذا الحديث يرشد النبي ﷺ أبا ذر رضي الله عنه إلى أن لا يحقر من المعروف شيئًا ولو كان يسيرًا، ولو كان مجرد طلاقة الوجه، وهذا من مهام الداعية أن يرشد الناس ويدلهم على أعمال الخير.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على فعل المعروف ولو كان قليلاً:

إن من توجيهات الإسلام أن يحرص المرء على فعل المعروف سواء أكان قليلاً أم كثيرًا، وذلك حتى يفوز برضوان الله، ويجب ألا يحقر المعروف لصغره أو قلته فقد يكون هو المتقبل عند الله فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ » قَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا))(١).

قال السندي: (وظاهر الحديث يدل على أن الأجر على قدر حال المعطي لا على قدر المال المعطى، فصاحب الدرهمين حيث أعطى نصف ماله في حال لا يعطي فيها إلا الأقوياء يكون أجره على قدر همته، بخلاف الغني فإنه ما أعطى نصف ماله، ولا في حال لا يعطي فيها عادة)(٢). ولقد جعل الله عز وجل في فعل الخير الفلاح للمؤمن فقال في كتابه ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣) والمدار في الأعمال على القبول عند الله تعالى.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: استحباب إدخال السرور على المسلم:

إن من الموضوعات الدعوية المستنبطة من هذا الحديث: إدخال السرور على المسلم، ومن أقل صوره: أن تلقاه بوجه طلق مسرور، لا أن تلقاه بوجه عابس مكفهر، وكان هذا هو إرشاد النبي ﷺ في الحديث "ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق" وهذا فيه من

---

(١) أخرجه النسائي ٢٥٢٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٣٦٧).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (الجامع الصغير)، السندي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة ٦٢/٥.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٧.

السرور والإسعاد للمسلم ما فيه، ومن أجل هذا منع الشرع الحنيف أي تصرف يؤدي إلى ترويع المسلم وتخويفه وإفجاعه، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ ((لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا))[1] وبلغ الترهيب من ترويع المسلم أن منع الرسول ﷺ ذلك ولو على سبيل اللعب فقد جاء في الحديث ((لاَ يأْخُذْ أَحَدُكُمْ عَصَا أَخِيهِ لاَعِبًا أو جَادًّا، فَمَنْ أَخَذَ عَصَا أَخِيهِ فَلْيَرُدَّهَا إِلَيْهِ))[2]. وهذه النصوص تفيد أهمية إدخال السرور على المسلم، والترهيب من ترويعه.

قد يظن المرء أن هذا التصرف يسير لا يثاب عليه، ولكن من توجيهات الشرع الحنيف نلمس أن طلاقة الوجه من صنائع المعروف، وأن طلاقة الوجه من الصدقة فقد قال رسول الله ﷺ ((كلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وإنَّ مِنَ المعروفِ أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ))[3].

قال المباركفوري: والمراد بالصدقة الثواب، فإن قارنته النية أجر صاحبه جزمًا، وإلا ففيه احتمال، وفي الحديث إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس منه، فلا تختص بأهل اليسار مثلاً، بل كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال بغير مشقة، ومن جملة أفراد المعروف أن تلقى أخاك المسلم بوجه طلق منبسط متهلل)[4].

هذا وقد جعل الله من صفات أهل الجنة يوم القيامة أن وجوههم منبسطة متهللة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[5] وعلى الداعي أن يستحضر هذه المعاني وهذه النصوص الشرعية ليبين للمدعوين فضل طلاقة الوجه والأجر عليها.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: رحمة الله بعباده بتيسير طرق الخير:

من رحمة الله بخلقه أنه لم يجعل الخير في عمل واحد، أو قول واحد، ولكنه

---

(١) أخرجه أبو داود ٥٠٠٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي ٢١٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٥٤).

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٧٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٠٥).

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٦٤٧/٢.

(٥) سورة عبس، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

سبحانه يسَّر طرق الخير وجعلها متعددة، وكل إنسان يفعل منها ما يتوافق مع حاله ومقدرته، وهذا من فضل الله عز وجل ورحمته، قال الله عز وجل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] ومن صور الرحمة إعطاء الأجر والثواب على العمل اليسير، فمجرد أن يلقى المسلم أخاه بوجه طلق يؤجر، ويكون أتى بابًا من أبواب المعروف طالما أنه صادق النية في عمله هذا وتصرفه، وواجب الداعية إبراز هذا الجانب للمدعوين ليطلعوا على عظيم فضل الله ورحمته، وليتسابقوا إلى أبواب الخير حتى ينالوا رضا الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

الحديث رقم (١٢٢)

١٢٢ - السادس: عن أَبي هريرة ﷺ قال: قال رسُولُ اللَّه ﷺ: «كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ علَيْهِ صدَقةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ: تعدِلُ بيْن الاثْنَيْنِ صدَقةٌ، وتُعِينُ الرَّجُلَ في دابَّتِهِ، فَتحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أوْ ترْفَعُ لَهُ علَيْهَا متَاعَهُ صدقةٌ، والكلمةُ الطَّيِّبةُ صدَقةٌ، وبِكُلِّ خَطْوَةٍ تمْشِيها إلى الصَّلاَةِ صدقَةٌ، وَتُميطُ الأذَى عَن الطريق صَدَقةٌ» متفق عليه[1].

ورواه مسلم أيضًا من رواية عائشة ﷺ قالت: قال رسُول اللَّه ﷺ: «إنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إنْسانٍ مِنْ بني آدم علَى سِتِّينَ وثلاثمائَةِ مَفْصِلٍ، فَمنْ كَبَّر اللَّه، وحمِدَ اللَّه، وَهَلَّلَ اللَّه، وسبَّحَ اللَّه واستَغْفَر اللَّه، وعَزلَ حَجرًا عنْ طَرِيقِ النَّاسِ أوْ شَوْكَةً أوْ عظْمًا عن طَرِيقِ النَّاسِ، أوْ أمر بمعْرُوفٍ أوْ نهى عنْ مُنْكَرٍ، عَددَ[2] السِّتِّينَ والثَّلاثمائة[3]، فإنَّهُ يُمْسِي[4] يَوْمئِذٍ وَقَد زَحزحَ نفْسَهُ عنِ النَّارِ»[5].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

سلامى: السلامى بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم: المفصل[6].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩/٥٦) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٥). وسيكرره المؤلف برقم (٢٤٨).

(٢) عند مسلم زيادة: (تلك).

(٣) عند مسلم زيادة: (السلامى). وهي لا توجد عند المنذري في ترغيبه، فتبعه عليه المؤلف.

(٤) قال مسلم: قال أبو توبة: وربّما قال: (يُمْسِي)، فالأول: (يمشي)، والثانية: (يمسي). قال النووي في المنهاج (٩٣/٧): ووقع لأكثر رواة كتاب مسلم، الأول: (يمشي) بفتح الياء وبالشين المعجمة، والثاني: بضمها وبالسين المهملة، ولبعضهم عكسه، وكلاهما: صحيحٌ.

(٥) أخرجه مسلم (١٠٠٧/٥٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٣٠٤).

(٦) رياض الصالحين ٩٨.

تعدل بينهما: تصلح بينهما بالعدل[١].

متاعه: المتاع: كل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه كالطعام وأثاث البيت والسلعة والأداة والمال[٢].

تميط: تُنحى وتُبعد[٣].

هلّل: أي قال: لا إله إلا الله[٤].

زَحْزَح نفسه: أبعدها ونحّاها[٥].

الشرح الأدبي

إن شكر المنعم على نعمه التي لا تحصى من سمات الشخصية الإسلامية، ومن علامات الإيمان الصحيح.

والفكرة التي نقتبسها من هذا الحديث الشريف تشع بهذه الخاصية من خصائص المسلم في علاقته بربه وفي بصره بنفسه وتأمله في أحوال الخلق، والأفكار البليغة تتصف عادة، بالقوة والجدة، والتحديد والتسلسل، فإذا عرضت هذه الأوصاف الجيدة على بيان محمد ﷺ... فماذا أنت واجد؟ يقول د. محمد رجب البيومي موضحًا هذا التساؤل أجل كان محمد ﷺ صاحب فكر قوي متسع شامل في وقت كان فيه بلغاء المنابر بالجزيرة العربية، لا يكادون يخرجون عن واقعهم القبلي المحدود، ومحمد ﷺ منذ تسنم منبر الدعوة وهو يحلق بأمته في أفق لا انتهاء له، وإن سامعيه لينظرون إليه مرتفعًا في أجوائه العالية، وكلهم راغب أن يرتفع معه حيث يحلق، وما كان هذا الارتفاع الشاهق إلا هتافًا بالمثل الإسلامية التي دعا إليها، ليعيد إلى الإنسانية كرامتها، وينأى بها عن حضيض الخرافة، والفسق، والوأد، وعبادة الأوثان.

---

(١) رياض الصالحين ١٤٧.

(٢) الوسيط ٨٥٢.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، والوسيط في (ن ح و).

(٤) الوسيط في (هـ ل ل).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز ح ز ح).

نطالع أفكار محمد ﷺ التشريعية، وأهدافه الخلقية، وأحاديثه الإنسانية، وأخباره الغيبية، فنجد ما لا يؤلف في عصره، ولا يعهد في قومه[1].

وحين نتأمل بداية هذا الحديث الشريف ندرك أن الفكرة المشرقة التي تتألق في أفق هذا البيان النبوي لا عهد للعرب بمثلها، ولم يُسبق إليها رسولُ الله ﷺ، فهل سمع العرب قبل هذا في خطبهم أو رسائلهم أو وصاياهم أو أشعارهم بمثل هذا التعبير البليغ الإيماني السديد، كل سلامى من الناس عليه صدقة، أى على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة، والسلامى اسم لأصغر ما في البعير من عظام.

وفي الرواية الأخرى : حددت السلامى بالمفاصل: وهى: ستون وثلاثمائة مفصل. ولنتأمل هذا التحديد في قوله ﷺ: "من الناس" ولم يقل من كل مسلم: لأن الناس جميعًا تغمرهم هذه النعم، وبها يتحركون، وبواسطتها يعيشون، ولكن كثيرًا منهم لا يشكرون.

فهذا التعبير دعوة إلى جميع الناس للشكر.. وتأمل خلق النفس، ومكونات الجسد، فكلها آيات بينات: كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2]، فأي بلاغة هذه؟ وأي سموق في المعنى، وبهاء في اللفظ، ودقة في الدلالة، واتساع في الرؤية، وهى ليست ترفًا أسلوبيًا ولا صنعة بديعية، ولا صورة فنية محلقة، ولكنها بيان نبوي رشيد، وبلاغ إلى الناس سديد، وإرشاد إلى طرق للخير جديدة، تلم شعث المسلمين، وتصلح ذات بينهم.

وبعد هذا الإجمال يأتي التفصيل ليفتح الآفاق أمام شكر المنعم على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وكأن العبد مطالب كل يوم بأن يؤدي صدقات معنوية وحسية شكرًا لله تعالى على كل مفصل من مفاصله.

والعظام هى المرحلة قبل النهائية في خلق الإنسان حيث تتحول المضغة إلى عظام، ثم

---

(١) انظر: البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) سورة فصلت، آية: ٥٣.

يقول الله سبحانه: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

وفي رواية أخرى تربط بين نعمة الخلق، وفضيلة الشكر والتصدق: يقول الرسول ﷺ: "على كل مَيْسم من الإنسان صدقة أو صلاة"، في رواية البزار، وقال بعضهم يريد بالمِيْسم، كل عضو على حدة، مأخوذ من الوسم وهو العلامة، إذ ما من عظم ولا عرق ولا عصب إلا وعليه أثر صنع الله عز وجل، فسبحان الله والحمد لله، والتعبير بقوله: "عليه" يوحي بأن هذا الأمر واجب على كل مسلم. وقال بعض العلماء: إن الشكر على درجتين: إحداهما واجب وهو أن يأتي بالواجبات ويتجنب المحرمات فهذا لابد منه، ويكفي في شكر هذه النعم. وقال أبو حازم الزاهد: ((شكر الجوارح كلها أن تكف عن المعاصي، وتُسْتَعمل في الطاعات)).

والدرجة الثانية من الشكر: الشكر المستحب: وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بنوافل الطاعات: وهذه درجة السابقين المقربين[2]. وهى التي أرشد إليها النبي ﷺ في الأحاديث التي وردت في باب: كثرة طرق الخير.

وبيان المصطفى ﷺ مشحون بطاقات الصدق والتفاعل والتعاون على البر والتقوى.

وذلك طابع المسلم.. ويجب أن يكون الطابع العام للبشرية كلها.. لأن الرسول ﷺ أرسل للناس كافة، وأرسل رحمة للعالمين، وهذا الطابع يتجدد كل يوم... مع شروق الشمس في كل صباح جديد، فالمسلم يتذكر نعمة الله تعالى عليه... وقوله: "كل يوم..." يرشد إلى المسؤولية المتجددة المتكررة، وحين نتأمل نوعية هذه الصدقات التي تمثل طرق الخير المتعددة نرى أنها من عوامل إصلاح المجتمع المسلم، ومن عوامل تقدمه ونظافته وتجميله، وأول طريق من طرق الخير هو الإصلاح بين المتخاصمين، وعبر الرسول ﷺ، بالمقصد والهدف والثمرة من الإصلاح حيث قال: "أن تعدل بين الاثنين"،

---

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ٢١٥ - ٢١٦.

فتأمل... المعاني الكامنة في قلب هذا التعبير النبوي الكريم وهو العدل، والتعبير بصيغة المضارع. يومئ إلى استمرار هذه الفضيلة في كل صباح جديد، وهذا الشكر العملي لابد أن يؤازره الشكر القولي، والنصح والإرشاد، فالكلمة الطيبة صدقة، ولنتأمل الدلالة الفسيحة والشاملة لهذه الكلمة التي تحمل كل وجوه الخير الكلمة الطيبة حيث تكمن في كيانها المشع كثير من الصفات الحسنة، ومنها الصادقة - الأمينة -الراشدة -العادلة -الواضحة -المحايدة -الحانية -المخلصة... الخ. كل هذه الإشعاعات الدلالية نقتبسها من شمس هذه الكلمة المتوهجة (الطيبة)، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهى تصلح ما اعوج من سلوك الإنسان، وتؤلف بين القلوب، ولذلك رغب رسول الله ﷺ في المشى إلى الصلاة، والصلاة في المساجد، حيث يتلاقى المؤمنون، ويقفون صفاً كالبنيان المرصوص، يناجون ربهم، ويؤدون ما افترضه عليهم ويدعونه خوفاً وطمعًا، ويتكرر هذا اللقاء كل يوم خمس مرات، فهل يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم؟؟!!

وهل يجد الخلاف له مكانًا بين صنوفهم؟ وهذا التردد ذهابًا وإيابا إلى المساجد.. يغرس في نفس المسلم ملكة التطهر والنظافة لأن الوضوء شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك؛ هذه الطاعة تقود الإنسان إلى فعل سلوكي اجتماعي حضاري وهو الحفاظ على البيئة من الأذى والتلوث والطريق أحد معالم البيئة، وإماطة الأذى عنه فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، وإماطة الأذى تعبير شامل موجز يشمل كل ما يعوق حركة الإنسان في الشارع من زحام وفوضى، وفضلات، وعدم التزام بقواعد المرور، وآداب السلوك، والأعراف والتقاليد العامة.

إن الصدقات التي وعدنا بها رسول الله ﷺ هى قمة الترغيب في إصلاح أحوال الأمة فهل نستجيب؟

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي ومن ذلك:

الأول: الإصلاح بين الناس، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الصلح بين الناس مشروع في الجملة وقد ثبتت مشروعيته بالكتاب والسنة والإجماع، وذكر ابن عرفة[2] أن الصلح في الجملة مندوب، ولكن قد يكون واجبًا عند تعين مصلحته، ومكروهًا أو حرامًا لاستلزامه مفسدة واجبة الدرء أو كان صلحًا يحل حرامًا أو يحرم حلالاً.

الثاني: حكم إماطة الأذى عن الطريق، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١١٩).

الثالث: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١١٨).

الرابع: حكم الصدقة، والصدقة أنواع فمنها ما هو واجب وهو الزكاة حيث يطلق عليها صدقة، ومنها ما هو واجب على البدن وهو زكاة الفطر، ومنها الصدقة المفروضة من الشخص على نفسه وهو النذور، ومنها الصدقة المفروضة حقًا لله تعالى وهي الفدية والكفارة، ومنها ما هو تطوع وهذا هو المصطلح الأشهر عند ذكر الصدقة[3].

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٣٣/٢٠، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٤٠/٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٨٠/٥، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٥/٧ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٢١٤/٢، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، الأنصاري ١٣٠/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٦٢/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٠٨/٤، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١٣٩/٢.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٨٠/٥، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٥/٧ وما بعدها.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٣٢٥/٢٦.

وقد ذكر الفقهاء[1] أن صدقة التطوع سنة ورد بفضلها الكتاب والسنة، وهي مستحبة في جميع الأوقات، وصدقة السر فيها أفضل من صدقة العلانية وفي كل خير، وهي أفضل في وقت الصحة، وفي رمضان، وأوقات الحاجة، وفي كل زمان ومكان فاضل.

الخامس: حكم ذكر الله تعالى، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١١٨).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتوكيد، والترغيب.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: وجوب شكر النعم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الإصلاح والعدل بين الناس.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة التسبيح وسائر الأذكار.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون بين الناس.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: الإعجاز العلمي في الإخبار عن عدد مفاصل الإنسان.

أولاً- من أساليب الدعوة: الخبر، والتوكيد، والترغيب:

١- الخبر: حيث أخبر الرسول ﷺ أن كل سلامي من الناس عليه صدقة، والخبر فيه دلالة على ما ينبغي فعله، أو إخبار عن أمر واجب على المدعو، وأخبار الأنبياء كلها صادقة، وهكذا يجب أن تكون أخبار الدعاة إلى الله، وعندئذٍ يتقبلها الناس بقبول حسن.

٢- التوكيد: حيث ورد في قوله ﷺ في الحديث: "إنه خلق كل إنسان"

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٦٢٨/١، وأحكام القرآن، ابن العربي ٢٠٤/١، ٣١٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٣٥/٦ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٠٥/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣٦٨/٢، والفروع، ابن مفلح ٦٤٩/٢، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٥٤١/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٨٩/٢٤، ٣٢٥/٢٦.

والتوكيد من الأساليب الدعوية المهمة، حيث يشعر المدعو بأن الداعية على ثقة بما يقول، وبما يدعو إليه، والتوكيد يدلل على أهمية الموضوع الذي يتناوله الداعية.

٣- الترغيب: حيث جاء في الحديث "فإنه يمسي يومئذٍ وقد زحزح نفسه عن النار" ولاشك أن الترغيب يعطي المدعو حافزًا وباعثًا على فعل الخير حيث يدرك مدى الثواب والأجر الذي يحصّله على فعله وعمله، لأن النفس البشرية تحب الخير وتميل إليه، وترغب في معرفة المنافع والفوائد التي تعود عليها، والداعية عندما يستخدم أسلوب الترغيب لاشك أنه يحبب المدعوين، ويعمل على استقطابهم واستمالة قلوبهم.

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى الخير:

إن من مهام الداعية إلى الله أن يعرف الناس طرق الخير ويرشدهم إليها، ذلك أنه قد توجد أبواب من الخير يجهلها بعض الناس، ولذا فقد جاء في القرآن على لسان رسل الله أنهم نصحوا لأقوامهم وأرشدوهم إلى الخير، والعاقبة تقع على المقصرين ومن ذلك ما جاء على لسان نوح عليه السلام ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] وعلى لسان صالح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[2] وخاطب الله نبيه ﷺ وقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[3] وبناء على هذا كان واجب الدعاة الأول الإرشاد والبيان والبلاغ. وفي هذا الحديث يرشد النبي ﷺ المدعوين إلى طريق الخير من خلال وسائط متعددة منها: العدل بين اثنين، وإعانة الآخرين، والكلام الطيب، والمشي إلى الصلاة وغير ذلك.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: وجوب شكر النعم:

لقد وجه النبي ﷺ المؤمن إلى شكر نعم الله تعالى عليه، وأن كل سلامي من

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٧٩.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

الناس عليه صدقة، وهذا من قبيل الشكر لنعمة الله عز وجل قال الله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[١] ووعد عباده الشاكرين بالزيادة فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢] وأخبر بأن الشاكرين قليلون قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٣].

قال ابن علان: وعلى الإنسان المكلف حق مؤكد في أداء شكر سلامة أعضائه وأتى بقوله "كل يوم تطلع فيه الشمس" دفعًا لتوهم الاكتفاء في أداء شكر نعم هذه الأعضاء بالإتيان بما في الحديث مرة، فنبه على أن ذلك مطلوب من الإنسان كل يوم شكرًا لسلامتها فيه[٤]، وقد أرشد النبي ﷺ في الحديث إلى أن شكر سلامة الأعضاء لا يكون باللسان فحسب، وإنما لا بد من بذل المعروف، وإعانة الناس، وفعل الخير فهذا هو الشكر الحقيقي. فشكر العبد لله: "نطق باللسان وإقرار بالقلب بإنعام الرب مع الطاعات)[٥].

قال المناوي: (الشكر شكران:

الأول: شكر باللسان وهو الثناء على المنعم.

والآخر: شكر بجميع الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر الاستحقاق، والشكور الباذل وسعه في أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا)[٦].

وقد قرن الله سبحانه عبادته بالشكر في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

(٢) سورةإبراهيم، آية: ٧.

(٣) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٥٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٢/٢/١.

(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٧) سورة العنكبوت، آية: ١٧.

قال السعدي: (قوله: "واشكرو لي" أي على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقرارًا بالنعم واعترافًا، وباللسان ذكرًا وثناء، وبالجوارح طاعة لله وانقيادًا لأمره، واجتنابًا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادتها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]) [2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الإصلاح والعدل بين الناس:

ذكر النبي ﷺ أن من أوجه الصدقات المطلوبة من المسلم كل يوم أن يعدل بين اثنين ويصلح بينهم، وقد جاء الأمر بهذا في القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3] "وفي هذه الآية تقرير لما أمر الله به من الإصلاح إذ لحمة الإيمان وقرابته أقوى من لحمة النسب وقرابته، والأخوة في الإسلام قوية الأواصر متينة الصلة، والناس حينما يرون أخوين في النسب اقتتلا أسرعوا في فض النزاع. ويبين الله هنا أن صلة الإيمان أقوى من صلة النسب. وتقوى الله هي العلاج العام الذي يمنع النزاع، ويفك الخصام وهي سبيل الرحمة وطريق النجاة"[4].

قال الطيبي: (إن إصلاح ذات البين سبب للاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق بين المسلمين. وفساد ذات البين ثلمة في الدين، فمن تعاطى إصلاحها ورفع فسادها نال درجة عند الله -سبحانه- فوق ما ينالها الصائم القائم المشتغل بخويصة نفسه)[5]. فواجب الدعاة تنبيه الناس إلى أهمية الإصلاح بين الناس بالعدل.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٥٧.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي٣/٢٦/٦١.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/٢١٣.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

حيث جاء في الحديث أن من أبواب الخير "أمر بمعروف أو نهي عن منكر" وهذا من أسباب خيرية الأمة الإسلامية قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[1] قال الإمام ابن كثير: (يخبر سبحانه وتعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس، وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه)[2].

ومن أعظم الأمور الصالحة التي يقوم بها المسلم هو التواصي بالحق كما قال الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[3] وتغيير المنكر يكون على قدر الوسع والطاقة ففي الحديث ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[4].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح وسائر الأذكار:

حيث جعل النبي ﷺ التكبير والتحميد والتهليل والتسبيح والاستغفار من الأذكار التي تزحزح الإنسان عن النار، ولقد كان من هدي النبي ﷺ أن يذكر الله في كل أحواله ومدح الله أهل ذكره فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[5] والاستغفار سبب لزيادة الرزق والقوة قال تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾[6] وقال ﷺ للرجل الذي قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٩٤.

(٣) سورة العصر، آية: ٣.

(٤) أخرجه مسلم ٤٩.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

(٦) سورة هود، آية: ٥٢.

فأخبرني بشيء أتشبث به؟ قال: ((لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّه))[١].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون بين الناس:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من الحديث فضل التعاون بين الناس، لأن التعاون سمة من سمات المجتمع المسلم، ويظهر هذا في قول النبي ﷺ "وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة". وهذا من آداب الإسلام حيث إن القوي يساعد الضعيف، والغني يعين الفقير، والصحيح يحنو على المريض، وقد حث الله على التعاون فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٢].

قال القرطبي: (وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي ليُعن بعضكم بعضًا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا منه، قال الماوردي: ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له، لأن في التقوى رضا الله، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته. والتعاون يكون بوجوه: العالم بعلمه فيعلمهم، والغنى بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة)[٣].

وفي الحث على التعاون قال ﷺ: ((إن المؤْمِنَ للمؤْمِنِ كالبنيانِ يَشُدُّ بعضُهُ بَعضًا))[٤]. فيجب على الدعاة إحياء هذه المعاني في نفوس المدعوين.

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: الإعجاز العلمي في الإخبار عن عدد مفاصل الإنسان:

أشار الحديث إلى صورة من صور الإعجاز العلمي في السنة النبوية، حيث جاء في الحديث أن في جسم الإنسان ثلاثمائة وستين مفصلاً، وهو ما قرره العلم الحديث: (إن هذا الحديث ينقلنا إلى علم التشريح الوصفي المبني على المشاهدة والحساب والدقة فيها فجسم الإنسان مكون من الهيكل العظمي الذي يكون أساس هذا الجسم، وحركة

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٣٧٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٨٧).

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٦/٦/٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٥.

الإنسان ترجع في حد ذاتها إلى المفاصل التي تجعلها سهلة ميسرة، ولقد جاء هذا الحديث ليبين أن في جسم الإنسان ثلاثمائة وستين مفصلاً، وجاءت العلوم الحديثة لتقرر ما سبق أن قرره وأخبر به ﷺ فبذلك كان الإعجاز العلمي لرسول الله ﷺ واضحًا حين أعلمنا بمقدار المفاصل الموجودة في جسم الإنسان حين كان من المتعذر على أي إنسان أن يخبر بمثل ذلك)[1].

قال د. زغلول النجار: "واضح من حديث رسول ﷺ أن المقصود بالسلامى هي المفاصل التي يمكن للعظام أن تتحرك عبرها. ومن معاني الحديث الشريف أن على المسلم أن يقدم الشكر لله تعالى على ما وهبه من هيكل عظمى منتصب القامة مستقيم، ميزه الله تعالى به عن جميع الخلائق، وكونه من عدد هائل من العظام الكبيرة والدقيقة والغضاريف، وجعل بين كل عظمتين منها مفصلاً يتيح لهذا العدد الهائل من العظام حماية الأجزاء اللينة من جسم الإنسان ودعمها، وأعطاه في نفس الوقت قدرًا من مرونة الحركة تسمح للإنسان بالوقوف، والجلوس، والاضطجاع، والانحناء والتثني، والبسط والقبض وغير ذلك من الحركات التي مكنت الإنسان من العديد من المهارات، ومن قبيل الشكر لله تعالى الخالق البارئ المصور فإن على كل مسلم عابد لله وشاكر لأنعمه أن يقدم عن كل مفصل من تلك المفاصل صدقة في كل يوم يصبح فيه، تقديرًا لهذه النعمة الكبرى، وتعبيرًا عن شكر الله سبحانه وتعالى عليها، والتي بدونها ما كان من الممكن للإنسان أن يستمتع بوجوده في هذه الحياة، وتعظيمًا لروعة الخلق في تصميم تلك العظام ومفاصلها بهذه الدقة الفائقة التي تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة وبديع الصنعة، وإحكام الخلق.

والأمر المعجز في هذا الحديث أن يذكر فيه المصطفى ﷺ عدد مفاصل جسم الإنسان بهذا التحديد الدقيق (ثلاثمائة وستون مفصلاً) في زمن لم يكن متوفرًا فيه للإنسان أدنى علم بتشريح جسم الإنسان، أو أدنى معرفة بعدد عظام هيكله، وعدد

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. زغلول النجار ١/ ٧٠، ٧١.

المفاصل فيه، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدوية لا تعرف العلم ولا التحقيق ولا التدوين!! حدث هذا في أوائل القرن السابع الميلادي، ونحن الآن في أوائل القرن الحادي والعشرين، والغالبية الساحقة من الناس لا تعرف عدد المفاصل في جسد كل منهم، بل إن عددًا كبيرًا من أساتذة طب وجراحة العظام في مطلع القرن الحادي والعشرين لا تعرف بالضبط عدد العظام أو عدد المفاصل في جسم الإنسان، وقد سألت عددًا منهم فتراوحت إجاباتهم بين المائتين والثلاثمائة عظمة، وبين المائة والثلاثمائة مفصل.

ولكن د. حامد أحمد حامد ذكر في كتابه المعنون بالعنوان الجميل: (رحلة الإيمان في جسم الإنسان) أن عدد المجموع الكلي للمفاصل في جسم الإنسان هو بالضبط ثلاثمائة وستون مفصلاً كما قرره رسول الله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة، وأوضح د. حامد تفصيل هذا العدد على النحو التالي:

(أولاً: بالعمود الفقري ١٤٧ مفصلاً كما يلي:

٢٥ مفصلاً بين الفقرات.

٧٢ مفصلاً بين الفقرات والأضلاع.

٥٠ مفصلاً بين الفقرات عن طريق اللقيمات الجانبية.

ثانيًا: بالصدر ٢٤ مفصلاً كما يلي:

٢ مفصل بين عظمتي القص والقفص الصدري.

١٨ مفصلاً بين القص والضلوع.

٢ مفصل بين الترقوة ولوحي الكتف.

٢ مفصل بين لوحي الكتف والصدر.

ثالثًا: بالطرف العلوي ٨٦ مفصلاً كما يلي:

٢ مفصل بين عظام الكتفين.

٦ مفاصل بين عظام الكوعين.

٨ مفاصل بين عظام الرسغين.

٧٠ مفصلاً بين عظام اليدين.

رابعًا: بالطرف السفلي ٩٢ مفصلاً كما يلي:

٢ مفصل للفخذين.

٦ مفاصل بين عظم الركبتين.

٦ مفاصل بين عظام الكاحلين.

٧٤ مفصلاً بين عظام القدمين.

٤ مفاصل بين عظام الركبة.

خامسًا: بالحوض ١١ مفصلاً كما يلي:

٤ مفاصل بين فقرات العصعص.

٦ مفاصل بين عظام الحُقّ.

١مفصل الارتفاق العاني.

المجموع: ١٤٧ + ٢٤ + ٨٦ + ٩٢ + ١١ = ٣٦٠ مفصلاً.

وهذه المفاصل المتحركة في جسم الإنسان والتي تعطي لهيكله العظمي ومن ثم للجسم كله القدرة على الحركة بمرونة عالية هي المقصودة بتعبير السلامى، أما الفواصل الثابتة كتلك الموجودة بين عظام الجمجمة فلا تدخل في عداد السلامى التي هي المفاصل التي تتم عبرها حركة العظام.

ولولا الفواصل التي هيأها ربنا تبارك وتعالى لتتحرك غالبية عظام الهيكل الصلب لإنسان عبرها؛ ما استطاع الإنسان مجرد الحركة، ولو تعطل مفصل واحد لعانى للإنسان من عطله آلامًا عديدة وواجه مشاكل ومصاعب جمة.

من هنا كانت وصية رسول الله ﷺ للإنسان بضرورة شكر الله تعالى في كل يوم تطلع فيه الشمس عليه بعدد هذه السلامى في جسده على الأقل، إن لم يكن أكثر من ذلك، فمهما قدم الإنسان من ذكر وشكر وصدقات، فإنه لا يمكن أن يوفي شكر الله تعالى ولو على سلامى واحدة من الثلاثمائة والستين التي خلقها ربنا تبارك وتعالى في جسده.

والسؤال الذي يفرض نفسه: من غير الله الخالق يمكن أن يكون قد علم رسولنا محمدًا ﷺ أن كل إنسان قد خلق على ستين وثلاثمائة مفصل؟ ومن الذي كان يمكن أن يضطره للخوض في أمر غيبي كهذا؟ لولا أن الله تعالى قد أيده بعلم من عنده سابق لعلوم كل البشر، ليبقى هذا العلم الذي أنزله ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه، أو ألهمه خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فذكره في حديث صحيح منسوب إليه كهذا الحديث الشريف الذي نحن بصدده شاهدًا له بالنبوة والرسالة إلى يوم الدين)[1].

وعلى الدعاة إلى الله استخراج هذه المعاني، وهذه الصور من الإعجاز ليزداد الذين آمنوا إيمانًا من جانب، وليقف المخالفون على لون من ألوان الإعجاز العلمي الذي حفلت به السنة النبوية المطهرة، لأن هناك فريقًا من الناس، لا يسلمون بالأدلة النقلية، ولا يعترفون إلا بالحقائق العلمية المحسوسة، وهذا ما يجعل الحاجة إلى توظيف الإعجاز العلمي في الدعوة إلى الله ضرورة ملحة، ينبغي الاهتمام بها في هذا العصر الذي نعيشه، خاصة مع غير المسلمين.

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. زغلول النجار ١٣٨/٢ - ١٤٣ بتصرف.

الحديث رقم (١٢٣)

١٢٣- السابع: عنه عن النَبيِّ ﷺ قال: «منْ غدَا إلى المَسْجِدِ أو رَاحَ، أعدَّ اللّهُ لَهُ في الجنَّةِ نُزُلاً كُلَّمَا غدا أوْ رَاحَ» متفقٌ عليه(١).

«النُّزُل»: القُوتُ والرِّزْقُ ومَا يُهَيَّأ للضَّيفِ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

نُزُلاً: فسرها النووي(٢)، وفي النهاية: "ما عند الله من الأجر والثواب"(٣).

الشرح الأدبي

إن المسجد في الإسلام له مكانته السامية، ووظيفته الهادية، وهو ملتقى الأفئدة المؤمنة، والمساجد بيوت أذن الله تعالى أن ترفع، وأن يذكر فيها اسمه ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾(٤).

والمسجد مرتبط بأداء فريضة الصلاة، وبالاعتكاف، وبقراءة العلم وتلقي دروسه، فهو مدرسة المسلمين الأولى، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي شاهدان على هذه المكانة التي أعطاها الإسلام للمسجد، وهما لهما أفضليتهما مع المسجد الأقصى، حيث لا تُشدُّ الرحال إلا إلى هذه المساجد الثلاثة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢)، ومسلم (٦٦٩/٢٨٥) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٧٠). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٥٤).

(٢) رياض الصالحين ٩٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ز ل).

(٤) سورة النور، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

ويشع هذا الحديث بأنوار الترغيب، وأطياف التقريب، ويتصل بما قبله في الحديث السابق حيث ينص الحديث الذي سبق شرحه على أن بكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة.

والحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يتضمن فضل الصلاة وفضل المسجد ولكن عن طريق الإيحاء والتلميح وليس عن طريق الإنباء والتصريح: حيث يرشد الحديث إلى التكبير والتحميد والتهليل والتسبيح والاستغفار، وكلها تتضمنها الصلاة، وهي من الصدقات -وقيل من الصلوات- التي يؤجر عليها الإنسان حين يشكر من خلال أدائها نعمة الله تعالى على أن خلقه وسواه.

وفي هذا الحديث الموجز يبشر المصطفى صلى الله عليه وسلم كل مؤمن يرتاد المساجد، والناس يشهدون له بالإيمان لإخلاصه في مسعاه، وغدوه ورواحه، ولذلك نقتبس من الحديث بعض ملامح الجمال الأسلوبي الذي يزيد المعنى جلاء وبهاء، وسمات ذلك البهاء، وآية ذلك الجمال: الإيجاز، والبعد عن الغموض والإلغاز، فالحديث تنظمه جملة واحدة، لكنها مبشرة واعدة، والجملة في بنائها اللغوي تتكون من الشرط والجواب، وأداة الشرط، "من" وهي أداة غير خاصة بفرد واحد وإنما تمثل قاعدة تصلح لكل من يقوم بهذه الحركة الإيمانية إلى يوم الدين، ومن هنا تبرز لنا بجلاء خاصية العموم والشمول في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته، والتعبير بالفعل "غدا" يصور حركة الذهاب والمشي إلى المسجد، والمراد به السير أول النهار، ويراد به في الحديث من صلاة الفجر، وإطلاق لفظ المسجد بدون تخصيص أو إضافة يرشد إلى أن المراد عموم المسجد أي مكان الصلاة المهيأ والمعد لذلك، وقوله: "أو راح" فيه إشارة إلى تعدد الغدو والرواح. لأن المسلم لن يظل قابعًا في المسجد طيلة يومه، وإنما يغدو لأداء الفروض أو الاعتكاف أو القراءة أو تدريس العلم أو طلبه في المسجد، ثم يذهب الإنسان إلى السعي على رزقه واكتساب عيشة، ولنتأمل هذا الطباق بين غدا وراح، وقد كرر مرتين للتأكيد على ثبوت الجزاء الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الطباق يوحي كذلك بضرورة انشغال المسلم صباحًا ومساءً بالمسجد، تمسكًا بأداء الفروض الخمس، والتعبير بقوله، "كلما غدا أو راح"،

يوحي بتكرار السعي والمشي إلى المساجد ذهابًا وإيابًا، والثواب جزيل والأجر مضاعف؛ وكيف لا وهو من إعداد الله عز وجل، وماذا بعد هذا التكريم الإلهي وقد أعد لعبده الغَدَّاء الرَّوَّاح نزلاً في الجنة: وهو القوت والرزق وما يُهيأ للضيف، وأَكْرِمْ بضَيْف يتولى الله تعالى ضيافته وأكرم بنُزل يمنحه الله تعالى لمن يحب ويهبهم رضوانه وجنته.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الذهاب إلى المسجد للعبادة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله ورحمته بعباده.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد جاء الترغيب في قوله ﷺ: "أعد الله له في الجنة نزلاً" وذلك لمن يغدو إلى المسجد أو يروح، ولاشك أن النفس تقبل على العمل إذا وجدت الأجر والثواب كبيرًا، ويجب على الدعاة أن يستخدموا أسلوب الترغيب في تحبيب الناس إلى الخير، وحثهم عليه ببيان الجزاء على الأعمال، ليكون ذلك باعثًا للنفس على الإقبال على الطاعات، وللأعضاء أن تنشط في عمل الصالحات. لهذا كان أسلوب الترغيب (من الأساليب الضرورية بالنسبة للداعية، لأن النفس البشرية قد فطرت على حب الكسب المترتب على فعل شيء ما دنيويًا كان الكسب أو أخرويًا)[١].

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد الناس إلى الخير:

لا يفتأ الداعية أن يرشد الناس إلى الخير، ويحثهم عليه، ويذكرهم بثواب الله، وهذه من المهام الأساسية للدعاة إلى الله، أن يعملوا على إرشاد الناس إلى الخير قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] وقال ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[٣] وقال

---

(١) دعوة الرسل، د. بكر زكي عوض ص ١٤٠.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٥٥.

(٣) سورة الأعلى، آية: ٩.

سبحانه ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾[(١)].

وفي هذا الحديث أرشد رسول الله ﷺ إلى فضيلة الذهاب إلى المسجد والتردد عليه كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ((... ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجد))[(٢)].

وهكذا حال الداعية دائمًا يفتح أبواب الخير للناس، ويبرز ثواب الله للطائعين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الذهاب إلى المسجد للعبادة:

لقد بيّن النبي ﷺ فضل الغدو والرواح إلى المسجد بالنُزل في الجنة مما يستحث الهمم، ويقوي العزائم على إدراك هذا الفضل.

قال ابن حجر (وظاهر الحديث حصول الفضل لمن أتى المسجد مطلقًا، لكن المقصود منه اختصاصه بمن يأتيه للعبادة، والصلاة رأسها، والثواب حاصل بكل غدوة وروحة أي ذهاب ورجوع)[(٣)] ولقد كان الذهاب إلى المسجد له هذا الفضل لأنه أحب البلاد إلى الله ففي الحديث ((أَحَبُّ الْبِلاَدِ إِلَىٰ الله مَسَاجِدُهَا. وَأَبْغَضُ الْبِلاَدِ إِلَى الله أَسْوَاقُهَا))[(٤)] قال الإمام النووي: (وأحب البلاد إلى الله مساجدها لأنها بيوت الطاعات وأساسها على التقوى، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها لأنها محل الغش والخداع والربا والأيمان الكاذبة والإعراض عن ذكر الله وغير ذلك. والمساجد محل نزول الرحمة والأسواق ضدها)[(٥)]، وفي فضل الذهاب إلى المسجد قال رسول الله ﷺ ((بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَم إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[(٦)] وخص الله أهل الإيمان بعمارة بيته فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) سورة الغاشية، آية: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٤/٢.

(٤) أخرجه مسلم ٦٧١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٧٢.

(٦) أخرجه أبو داود ٥٦١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٥٢٥).

وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[١]. فواجب الدعاة استحضار هذه النصوص وتذكير الناس بها.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله ورحمته بعباده:

يتضح هذا مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين من الأجر الكبير على الغدو والرواح إلى المسجد، وهذا من فضل الله ورحمته بالعباد فإنه يضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها قال سبحانه: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٢]، ومن رحمة الله عز وجل أن جعل من كفارة الخطايا ورفع الدرجات مجرد الذهاب إلى المسجد ففي الحديث ((أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَىٰ. يَا رَسُولَ اللّهِ! قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ. وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ. وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ. فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ))[٣]. فمن الموضوعات الدعوية المهمة تذكير الناس بفضل الله ورحمته على عباده ليكون ذلك أدعى في الإقبال على العبادة.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥١.

الحديث رقم (١٢٤)

١٢٤- الثامن: عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**يا نِسَاء المُسْلِماتِ لاَ تَحْقِرنَّ جارَةٌ لِجارتِهَا ولَوْ فِرْسِنَ شاةٍ**» متفقٌ عليه[١].

قال الجوهريُّ[٢]: الفِرْسِنُ مِنَ الْبعِيرِ: كالحافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ، قال: ورُبَّمَا اسْتُعِير في الشَّاةِ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

فِرسِن: قال الجوهري: الفِرْسِن من البعير كالحافر من الدابة. قال: وربّما اسْتُعير في الشاة[٣].

الشرح الأدبي

تتوهج كلمات هذا الحديث الشريف بإثارة قضية اجتماعية جادة لها أثرها في إذكاء روح التعاطف والتحاب والتسامح والمودة والرحمة بين أفراد المجتمع المسلم. وهذه القضية هي مراعاة حق الجار، وإشاعة ظاهرة التهادي بين الجيران؛ لأن هذا السلوك يقرب ما بين النفوس، ويَسْتَلُّ السخائم من القلوب، وينزع الأحقاد من الصدور، وصلةُ الجارِ بالجارِ، قد أرساها الإسلام على قاعدة المودة فيما شرع للجوار من حقوق: فأوصى القرآن الكريم بالجار في أكثر من آية، وقرن وجوب الإحسان بالجار قريبًا أم بعيدًا بوجوب عبادته وعدم الشرك به ووجوب الإحسان للوالدين.

وكذلك أوصى رسول الله ﷺ بالجار في عدة أحاديث، فمرة ينفي الإيمان عن الذي لا يأمن جاره بوائقه، ومرة يعدّ إكرام الجار من علامات الإيمان بالله تعالى واليوم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠/٩٠) ولفظهما سواء.

(٢) الصحاح (٢١٧٧/٦، باب النون، فصل الفاء).

(٣) رياض الصالحين ١٠٠.

الآخر، ومرة يصف من يؤذي جاره بالخيبة والخسران، ومرة يعظم ويؤكد ما للجار من حرمة وحقوق فيقول: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[(١) (٢)].

والوصية بالجار في هذا الحديث الشريف يتوجه بها رسول الله ﷺ إلى النساء، وهذا التوجه له دلالته وإيحاؤه؛ لأن كثيرًا من الخلافات تطرأ بين النساء لأوهى الأسباب، ومعظم النار من مستصغر الشرر كما قال الشاعر العربي، وترغيبًا للنساء في التراحم والتواد يوصيهم الرسول بهذه الوصية التي تفتح طريقًا من طرق الخير يغفل عنه الناس، وهو قبول الهدية القليلة في مظهرها وثمنها، لأن العبرة بالنية المصاحبة للهدية، ولو كانت الهدية فِرْسِن شاة: أي أقل شيء، وهذا التعبير كناية عن القلة: وقال الجوهري -وهو من علماء اللغة الكبار- الفِرْسِن من البعير كالحافر من الدابة، وربما استعير في الشاة، وتتنوع الهدايا، وتختلف قيمتها باختلاف العصر، وتطور العادات والتقاليد التي تحكمها طبيعة البيئة ويظل التوجيه النبوي رمزًا لحسن استقبال الهدية والصدقة والعطية مهما قل شأنها، ولنتأمل بعض أسرار البيان النبوي التي يشع بها هذا الحديث الشريف في ضوء البناء اللغوي، ومن هذه الأسرار: أن الحديث يبدأ بالنداء، وحرف النداء الياء، ويرشد ذلك الأسلوب إلى أهمية القضية، وإلى تواصل دورها في نشر ثقافة المحبة والتراحم، وإلى ضرورة الإصغاء إلى ما بعد النداء، والمنادَى: النساء المسلمات... وهذا التعبير تعددت توجيهاته الإعرابية، وكذلك تعددت دلالاته حسب تقدير البنية اللغوية، فلفظ "نساء"، منصوب لأنه منادى مضاف: من إضافة الصفة إلى الموصوف: فالرسول لم يناد أيَّ نساء، ولكنه خص النساء المسلمات بهذا النداء وهي إضافة، وهي إشارة إلى أن الجارة المسلمة لها ثلاثة حقوق إذا كانت ذات رحم، ولها حقان إذا كانت غير قريبة، وقيل في الحديث بلاغة الحذف، والتقدير، يا نساء الأنفس المسلمات، ووجه بعض العلماء الحديث توجيهًا آخر، وقال المراد بالأنفس هنا الرجال: فالنساء هنا زوجات المسلمين، والدلالات كلها متقاربة، وبنية الحديث اللغوية تفصح عن

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠١٥، ومسلم ٢٦٢٥.

(٢) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ٦٤ - ٦٥.

تعدد هذه الدلالات التي تثرى المعنى، وتعمق الهدف، وتأتي الجملة الثانية في الحديث: في صيغة النهى.. مع التأكيد، ويجمعهما الفعل المضارع، إشارة إلى استمرار هذا السلوك، وهو عدم استقلال الهدية أو الصدقة، والنهى في الحديث موجه إلى التي تُعطِي فلا تحرم نفسها من لذة العطاء بسبب قلة المُعْطَى، فربما يكون أثره كبيرًا وجميلاً ونافعًا، وكذلك الصيغة يمكن أن تتوجه إلى من تأخذ الهدية: فلا تحقرن شيئًا يُعطى لها؛ لأن العطاء والتهادي والتصدق من سمة المؤمن، ورفض العطية ربما يؤدي إلى القطيعة، والإسلام دائمًا يحرص على تماسك بنية المجتمع الإسلامي في ضوء المودة والتراحم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب الهدية.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عدم احتقار شيء من المعروف.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التوادد والتحابب بين المسلمين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: النداء والنهي والتوكيد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: استحباب الهدية:

للهدية تأثير إيجابي عظيم على أنماط التعامل بين الناس، خاصة إذا كانت خالصة ومجردة من الرغبة في تحصيل المنافع المادية، ولذا فإن النبي أهاب بعدم احتقار الهدية في قوله ﷺ: "لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرس شاة".

قال ابن حجر: (وفي الحديث الحض على التهادي ولو باليسير، لأن الكثير قد لا يتيسر كل وقت)[1].

وقال عبدالله البسام: (في الحديث الترغيب في فعل الخير والحث عليه وأن هذا من خلق المسلمين والمسلمات، فهم الذين ينبغي أن يتصفوا بهذه الصفة الكريمة، وفي الحديث فضل الهدية لما تحدثه في نفوس المتهادين من سلّ السخائم والعداوات وجلب المودة والمحبة)[2].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٥/٥، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٢-٦٥٣.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٢٧٨/٤.

وقد بيّن النبي ﷺ الحكمة من الهدية فقد روى الترمذي هذا الحديث بلفظ: ((تَهَادَوْا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ، ولا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ شِقَّ فِرْسِنَ شَاةٍ))[١].

وقال النبي ﷺ: ((تَهَادَوْا تَحَابُّوا))[٢].

وذلك لأن الهدية تزيل ((الحقد والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ، أي: أنها تزيل العداوة وتزيد المحبة))[٣].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يهدون إلى النبي ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: إن الناس كان يتحرون بهداياهم يوم عائشة؛ يبتغون بها أو يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ[٤].

وكان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها[٥]. قال ابن حجر: (أي يعطي الذي يهدي له بدلها، والمراد بالثواب: المجازاة وأقله ما يساوي قيمة الهدية)[٦].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عدم احتقار شيء من المعروف:

إن الإسلام يؤكد على أهمية تعميق أواصر المودة والمحبة بين الناس، ومن مظاهر ذلك عدم احتقار شيء من المعروف كما يتضح في قوله ﷺ "ولو فرسن شاة" قال النووي: (وهذا النهي عن الاحتقار معناه: لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقارها الموجودَ عندها، بل تجود بما تيسر وإن كان قليلاً -كفرسن شاة- وهو خير من العدم)[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢١٣٠، وضعف الألباني الزيادة التي في أوله (ضعيف سنن الترمذي ٣٧٨)، لكن قال محققو المسند: ١٤٢/١٥ بعد أن أوردوا عدة شواهد له وحكموا على هذا الحديث بهذه الزيادة بأنه حديث حسن-قالوا: ولا يخلو إسناد واحد من هذه الشواهد من ضعف.

(٢) اخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٤ من حديث أبي هريرة وحسنه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٦٢).

(٣) حاشية السندي على مسند أحمد ١٤٢/١٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٥٧٤، ومسلم ٢٤٤١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٥٨٥.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٩/٥.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٢ - ٦٥٣، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٤/٥ - ٢٣٥.

وقال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه ألا يحقر قليل المعروف، فإنه لا يحقره إلا قليل العلم، فإنه إذا نظر إلى ما يتقبل الله تعالى منه لم يسغ له احتقار شيء يتقبله الله تعالى)[١].

قال عبدالله البسام: (في الحديث أن المُهدي لا يستحقر تقديم الهدية، وإن كانت قليلة حقيرة، فالمدار على معناها، والمقصود منها أثرها المعنوي لا ذاتها ونفعها المادي فقط، لأنها مهما قلّت وتضاءلت فإنها تشعر بالمودة والإخاء، وفيه دليل على أن المعروف والعمل الصالح إذا قصد به وجه الله تعالى وقصد منه معانيه الكريمة، فإن أثره عند الله عظيم... وإذا كانت صدقة على فقر فإنها تنفع الفقير وإن قلت، وتزيد حسنات المحسن بحسب ما يصحبها من نية صالحة قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[٢]، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: ((اتَّقوا النارَ ولو بِشقِّ تَمرةٍ))[٣])[٤].

ونستطيع أن نستخرج من القرآن الكريم الآيات، ومن السنة الأحاديث التي تحض على عدم احتقار شيء من المعروف:

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٥].

وجاء في أسباب نزول هذه الآية ما رواه سعيد بن جبير مرسلاً قال: لما نزلت: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٦] كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٦/٢٧١.

(٢) سورة التوبة، آية: ٧٩.

(٣) أخرجه البخاري ١٤١٧، ومسلم ١٠١٦.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٤/٢٧٨.

(٥) سورة الزلزلة الآيتان: ٧ - ٨.

(٦) سورة الإنسان، آية: ٨.

يعطوه التمرة والكِسرة فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء، إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه. وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك... فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر، فإنه يوشك أن يكثر[(١)].

أما في السنة فقد جاءت الأحاديث الكثيرة التي تحض على عدم احتقار شيء من المعروف، من ذلك قوله ﷺ: ((اتقوا النارَ ولو بشِقِّ تمرة، فإن لم يكن فبكلمةٍ طيِّبة))[(٢)]. قال ابن حجر: (وفيه إشارة إلى ترك احتقار القليل من الصدقة وغيرها)[(٣)].

وقال النبي ﷺ لأبي ذر: ((لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ))[(٤)].

قال النووي: (فيه الحث على فضل المعروف وما تيسر منه وإن قل حتى طلاقة الوجه عند اللقاء)[(٥)].

ومن المواقف الجلية المذكورة في السيرة التي تبين ما يفعله القليل من المعروف في النفوس ما كان من شأن كعب بن مالك رضي الله عنه عندما أُخبر بتوبة الله عليه بعد غزوة تبوك، فعندما ذهب إلى النبي ﷺ في المسجد وحوله الصحابة رضي الله عنهم قام طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه وصافحه وهنأه فكان كعب يقول: لا أنساها لطلحة[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٦٤/٨، والدر المنثور للسيوطي ٥٨٨/١٥، وقد ساق ابن كثير إسناده وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٤٠، ومسلم ١٠١٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٣/١١.

(٤) أخرجه مسلم ٢٦٢٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٦١.

(٦) أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التوادد والتحابب بين المسلمين:

هذا يحتمله النهي في قوله ﷺ "لا تحقرن..." قال ابن حجر: (ويحتمل أن يكون من باب النهي عن الشيء أمرٌ بضده، وهو كناية عن التحابب والتوادد، فكأنه قال: لتوادد الجارة جارتها بهدية ولو حقرت، فيتساوى في ذلك الغني والفقير)[(١)].

كما يحتمل أن يكون النهي للمهْدية ويحتمل أن يكون للمُهدَى إليها، فلا تحتقر ما يُهْدَى إليها، قال ابن حجر: (ولا يمتنع حمله على المعنيين)[(٢)].

قال عبدالله البسام: "إن الهدية تذهب الحقد والعداوة بين المتعادين، وتجلب السرور والمودة في نفس المهدى إليه، فصار من فوائدها جلب المودة ورفع العداوة، وكفى بهذا فائدة، فإن هذا هو هدف الإسلام في نهجه إلى جلب الخير ومنع الشر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[(٣)]، ومحاولة سلّ السخائم والعداوات بين الناس لا سيما بين الأصدقاء والأقرباء هذا خلق سام كريم، وهو صعب على النفوس، لا يوفق له إلا أصحاب النفوس العالية، والقلوب الكريمة الطيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[(٤)(٥)].

فالحديث يحضّ على التوادد والتحابب بين المسلمين عن طريق الهدية ولو كانت يسيرة، وقد جاءت آيات وأحاديث تحث على نشر هذه الصفة بين المسلمين، من ذلك قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[(٦)] قال البغوي:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٩/١٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٩/١٠ وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٢-٦٥٣، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٥/٥.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) سورة فصلت، الآيتان: ٣٤ - ٣٤.

(٥) توضح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٢٧٦/٤ - ٢٧٧.

(٦) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(متعاطفون متوادون بعضهم لبعض، كالولد مع الوالد)[1].

ومن الأحاديث: قال النبي ﷺ: ((تَرى المؤمنينَ في تراحُمِهم وتوادّهم وتَعاطفِهم كمثل الجسَد إذا اشتكى عُضو تَداعى له سائرُ جسَده بالسّهَرِ والحُمّى))[2] قال ابن حجر: (التوادد تفاعل من المودة، والود والوداد بمعنًى، وهو تقرب شخص من آخر بما يحب)[3] (كالتزاور والتهادي)[4]. لذا كان من أولى الصفات التي يحاول الداعية أن يغرسها في نفوس المدعوين التوادد والتعاطف والتحابب بينهم[5].

رابعًا- من أساليب الدعوة: النداء والنهي والتوكيد:

لقد استخدم النبي ﷺ أسلوب النداء "يا نساء المسلمات" لينبه على أهمية ما يكون بعد هذا النداء، ثم استخدم ﷺ النهي "لا تحقرن..." مع توكيده بالنون، ليدل على خطورة هذا النهي، ومن ثمّ يسارع المخاطبون بتجنبه والابتعاد عنه والعمل بضدّه.

---

(١) معالم التنزيل "تفسير البغوي" ٧/٣٢٣-٣٢٤، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٨/١٦/٢٩٢-٢٩٣.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٥٤ وانظر بهجة النفوس "شرح مختصر البخاري"، عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي٢/٤/١٥٧-١٥٨.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ٤/١٢٤٣-١٣٥١.

الحديث رقم (١٢٥)

١٢٥- التاسع: عنه عن النبي ﷺ قال: «الإيمَانُ بِضْعٌ وَسبْعُونَ، أوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شَعْبَةً: فَأفْضلُهَا قوْلُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ، وَأدْنَاهَا إمَاطَةُ الأذَى عنِ الطَّرِيقِ، وَالحيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمانِ» متفقٌ عليه[١].

«البضْعُ» من ثلاثة إلى تسعةٍ، بكسر الباءِ وقد تفْتَحُ. «والشُّعْبَةُ»: القطْعة.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بضع: البضع من ثلاثة إلى تسعة بكسر الباء وقد تفتح[٢].

الشعبة: القطعة[٣].

إماطة الأذى: أي تنحيته وإبعاده وإزالته[٤].

الشرح الأدبي

إن خُلُق الحياء في الإسلام من أرقى الصفات التي ينطوي عليها سلوك المسلم في أقواله وأعماله، والمصطفى ﷺ في هذا الحديث الشريف يرغب المسلمين في التمسك بخلق الحياء، وهذا الترغيب يبزغ في التصوير البياني الجميل الذي يشدنا إلى تأمل دلالات هذا الحديث الشريف، حيث: يشبه الرسول ﷺ الإيمان الكامل بشجرة ذات أغصان وثمار، والتصديق يمثل جذرها الثابت وجذعها الراسخ، ولما كانت الشجرة لا

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥/٥٨) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٧١). وسيكرره المؤلف برقم (٦٨٨).

(٢) رياض الصالحين ١٠٠. وفيه أقوال أخرى ينظر المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ص ٥٠.

(٣) رياض الصالحين ١٠٠.

(٤) ينظر المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٢٢٨، ٢٣٩ وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٦/٥.

قيمة لها ولا ثمرة إلا بفروعها، فالإيمان كذلك لا يؤتي ثماره ولا ينجي من النار إلا إذا اتبعت الأوامر، واجتنبت النواهي، ويرغبنا الرسول ﷺ بصفة خاصة في شعبة من شعب الإيمان قد نغفل عنها أو تدفعنا الطبيعة البشرية إلى إهمالها، وهى الحياء أصل الفضيلة والباعث عليها، ولذا قال النبي ﷺ: "الحياء لا يأتي إلا بخير"، وأفضل شعب الإيمان قول لا إله إلا الله، وهى شهادة التوحيد لأنها القاعدة الأساسية للإيمان.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف وأول ما يلفت قارئ هذا الحديث عُنْصر التصوير في هذا الحديث؛ حيث يشبه الرسول ﷺ الإيمان بالشجرة الطيبة ذات الشُّعَب والأغصان المتعددة وهي شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء: تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وحين نتأمل دلالات الألفاظ في الحديث الشريف ندرك أنها قليلة في مبناها كثيرة في معناها، وأنها تدرج هذا الحديث الشريف في جوامع كلمه ﷺ.

فتحديد العدد بقوله: "بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة"، المراد به التكثير والمبالغة، لأن المراد هو تكميل النفس بصلاح المعاش المؤدي إلى تحسين المعاد كما قال صاحب دليل الفالحين.

ومما يدل على عدم التحديد لفظ "البضع" لأنه غير محدد في ضوء تعريف العلماء له: فالبِضْع كما قال الزجاج: بكسر الباء، وقيل: بفتحها هو: القطعة من العدد المبهم المقيد بما بين الثلاث إلى التسع، وقال الفراء: هو خاص بالعشرة إلى التسعين، وكلمة "شعبة" تشع بأضواء الدلالات المتعددة، وفي ضوء تفسير العلماء وتأويلهم ومحاولة حصرهم لشعب الإيمان تكمن قيمة الإيجاز في الحديث النبوي.

وقال ابن حبان: عددت كل طاعة عدها الله تعالى في كتابه والنبي ﷺ في سنته: فإذا هي تسع وسبعون لا تزيد ولا تنقص، وهذا التحديد بعيد عن الواقع، لأن شعب الإيمان لا تتناهى في تفاصيلها وفروعها فالشعبة ليست خصلة واحدة ولكنها تضم خلالاً وخصالاً كثيرة.

وبعض العلماء حاول تحديدها تفصيلاً فقال وهو يُؤوِّل الشعبة بالخصلة، قال: وقد

رأيتها - أي هذه الشعب- تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن، فأعمال القلب: المعتقدات والنيات تشتمل على أربعة وعشرين خصلة، وأعمال اللسان تشتمل على سبع خصال، وأعمال البدن تشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، منها ما يختص بالأعيان وهى خمس عشرة[١]، ومنها ما يتعلق بالاتباع وهى ست خصال، ومنها ما يتعلق بالعامة وهى سبع عشرة، وهذا الإحصاء ليس هو المراد الحقيقي ولكنه اجتهاد، والأولى عدم التحديد لأن الحديث جاء التعبير فيه بلفظ الشعبة.

والحياء: شعبة من الإيمان، ولنتساءل لم خص الرسول ﷺ الحياء بالذكر بعد أن حدد أفضل الشعب وهى : قول: لا إله إلا الله، ثم حدد أدناها أي أقربها إلى سلوك الناس إماطة الأذى عن الطريق؟

إن التحديد هنا ينبئ عن أهمية الحياء في استكمال معالم شخصية المسلم، فهو خلق يلازمه في كل حركاته وسكناته، والدلالة اللغوية والشرعية للحياء تضيئان هذه القيمة، وتجليان هذا السلوك القويم، فالحياء في اللغة: تَغَيُّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم عليه، أو انحصار النفس من خوف ارتكاب القبائح، وخلق المسلم يأبى التبجح والمجاهرة بالمعاصي، وتعمد إيذاء الآخرين، وهذا المدلول اللغوي الذي يتطابق مع السلوك الإنساني والإسلامي تعضده الدلالة الشرعية، فالحياء في منظور الشرع، خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذوي الحقوق.

وأهمية الحياء تكمن في دوره المؤثر في توجيه سلوك الجماعة المؤمنة: حيث يؤدي إلى المحاسبة الذاتية، واحترام مشاعر الغير، في ظل خشية الله تعالى، ومراقبته في السر والعلن.

وحتى لا يختلط الحياء بالضعف والسكوت عن الحق، قسم العلماء الحياء إلى نوعين: أحدهما: ما كان خلقًا وجبلة غير مكتسب وهو من أَجَلِّ الأخلاق التي يمنحها الله تعالى العبد ويجبله عليها، ولهذا قال ﷺ: ((الحياء لا يأتي إلا بخير))[٢].

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في كتاب دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٠٨/١.

(٢) أخرجه مسلم ٣٧.

والنوع الثاني: ما كان مكتسبًا من معرفة الله تعالى ومعرفة عظمته وقربه من عباده واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، -وهذا كما قال العلماء- من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله[1].

وفي ضوء هذا المفهوم المتسع الدلالة للحياء في ضوء الشرع، وفي ضوء صحيح الأحاديث: يزول كل لبس في تصرف بعض الناس حيث لا يقدمون على قول الحق، ولا يعترضون على المنكر، ولا يغضبون لانتهاك حرمات الله تعالى، ولا يَهِبّون للدفاع عن كرامتهم إذا ما استبيحت أموالهم أو أعراضهم.

فهذا كله ليس من الحياء في شيء، فالحياء في مفهومه الشرعي: خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذوي الحقوق، أما الحياء الذي يمنع من قول الحق، أو الذي يؤدي إلى التقصير في حق ذوي الحقوق، أو إلى ضياع المستحقات والتفريط في ثوابت الأمة، ومعالم عقيدتها: فذلك عجز ومهانة، وضعف واستكانة، والمؤمن ليس عاجزًا، ولا مهينًا، ولا ضعيفًا ولا مستكينًا، ولكنه يتباهى بعزته، ويسمو بكرامته، ويحتمي بعقيدته، ويعلن في ثبات ويقين عن قوته، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف.

وقيل: إن الحياء الممدوح في كلام النبي صلى الله عليه وسلم إنما يريد به الخلق الذي يحث على فعل الجميل، وترك القبيح، فأما الضعف والعجز الذي يوجب التقصير في شيء من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده: فليس هو من الحياء، وإنما هو ضعف وخور وعجز، وأرفع الحياء من الله تعالى - كما قال بعض العلماء- هو: أن لا يراك حيث نهاك، فاللهم هب لنا حياء الصالحين الأقوياء، وانفعنا بما علمتنا، وعلمنا بما ينفعنا، وزدنا علمًا.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تعدد شعب الإيمان.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الحياء.

ثالثًا: من أهداف الدعوة الإسلامية: تعبيد العباد لله رب العالمين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تعدد شعب الإيمان:

الإيمان اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان[١]، وشعب الإيمان خصاله وأجزاؤه[٢]. قال النووي: (وقد نبّه ﷺ على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشعب إلا بعد صحته وأدناها ما يتوقع ضرره من إماطة الأذى عن طريقهم)[٣] وقال ابن حجر: (هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن: فأعمال القلب فهي المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده، بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره والإيمان باليوم الآخر... وأعمال اللسان وتشتمل على سبع خصال: التلفظ بالتوحيد وتلاوة القرآن وتعلم العلم... وأعمال البدن وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، ومنها ما يختص بالأعيان، وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حسًا وحكمًا... ومنها ما يتعلق بالاتباع وهي ست خصال: التعفف بالنكاح والقيام بحقوق العيال وبرّ الوالدين... ومنها ما يتعلق بالعامة وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل...).

ثم قال: (فهذه تسعٌ وستون خصلة ويمكن عدُّها تسعًا وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضم بعضه إلى بعض مما ذكر)[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٨/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٧/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٨/١-٦٩، وانظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٢٨٥/١-٢٨٩ وما بعدها. والافصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٣٥٣/٦ - ٣٦٤.

وقال ابن هبيرة عن خصال الإيمان: "إنها جميعها إنما تتشعب عن الإيمان الذي هو التصديق، فهو على نحو عين تتشعب عنها شعب، يكون انبعاث كل شعبة عنها، فهي تمده وتبعثه وهو يدل عليها ويفصح عنها، وذلك كله دليل قاطع على أن الإيمان قول وعمل ونية"[١].

ثم ذكرها ثم قال: "ذكر رسول الله ﷺ هذه الخصال كلها ليحرض المؤمن على جمعها، إلا أنه بحمد الله ليس فيها شيء من الترهبن ولا الابتداع في الأقوال والأحوال، فمن أراد الله به خيرًا جمعها له، أو جمع له منها حسب حاله"[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الحياء:

إن الحياء والإيمان قرناء لا ينفك أحدهما عن الآخر، قال ﷺ ((الإيمان والحياء قرناء فإذا رفع أحدهما رفع الآخر))[٣] والحياء لا يأتي إلا بخير ولا يستغني المؤمن عن الحياء في كافة أحواله، وما يدل على فضل الحياء أنه شعبة من شعب الإيمان، كما في قوله ﷺ: "والحياء شعبة من الإيمان".

وقد خاطب النبي ﷺ أصحابه فقال: ((اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّه حَقَّ الحَيَاءِ». قال: قُلْنَا: يَا نَبِيَّ لله إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالحمدُ لله، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنْ الاسْتِحَيَاءَ مِنَ اللَّه حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَتَحْفَظَ البَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَتَذَكَّرَ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَى يَعْنِي مِنَ اللَّه حَقَّ الْحَيَاءِ))[٤].

قال النووي: (حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ونحو هذا)[٥].

ولذا قال النبي ﷺ: ((الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ))[٦] وفي رواية لمسلم: "الحياء خير

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٦/٣٥٤.

(٢) المرجع السابق ٦/٤٠٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٢٢ وصححه كما صحّحه الألباني في صحيح الترغيب ٢٦٣٦.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٤٥٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٠٠).

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧ وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٩٤، ١٠/٥٢٩.

(٦) أخرجه البخاري ٦١١٧، ومسلم ٣٧.

كله" أو قال ((الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْر))[١].

كما أن الحياء خصلة تزين صاحبها وتجمل عمله، قال النبي ﷺ ((ما كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ، وَماَ كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ))[٢].

قال ابن هبيرة: (لما كان الحياءُ ناشئًا عن عقل، عرف قبح القبيح الذي قبحه الشرع، فاستحيا من إتيانه، وكان المؤمن قد جبله الله على الحياء من حيث إنه سبحانه وتعالى استنفد وسع العبد بالحياء من تواتر فضل الله في الطاعة، أضعاف ما يستنفد به وسع أهل القحة[٣]، بالسياط، فجبلهم على الحياء لأنه سبحانه وتعالى ترك[٤] سياط سوق عباده إليه استحياءهم منه، فكان هذا من أركان الإيمان)[٥].

ومن المواقف التي تدل على الحياء ما وقع من أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: ((وكنتُ أنقل النَّوَى من أرض الزُّبير التي أقطعَهُ رسولُ الله ﷺ -على رأسي- وهي مني على ثُلثي فَرسَخ[٦]: فجِئتُ يومًا والنَّوَى على رأسي، فلقيتُ رسولَ الله ﷺ ومعهُ نَفَرٌ من الأنصار، فدَعاني، ثم قال: إخْ إخ[٧]، ليحمِلَني خَلفَه، فاستحيَيتُ أن أسيرَ معَ الرِّجال، وذكرتُ الزُّبيرَ وغَيرَتَه ـ وكان أغيَرَ الناس ـ فعَرَفَ رسولُ اللّهِ ﷺ أني قد استحييتُ، فمضى))[٨].

---

(١) أخرجه مسلم ٦١.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٧٤ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٠٧).

(٣) جاء في القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٢٢٥: القح: الخالص من اللؤم والكرم، والجافي من الناس وغيرهم، والمقصود: أهل الجفاء المبارزين بالمعاصي الذين لا حياء عندهم.

(٤) هكذا في المطبوع والغالب على الظنّ أن هناك سقطًا أو تحريفًا، ويمكن أن تستقيم العبارة بأن نضع مكان كلمة "ترك" كلمة "جعل"، والله أعلم.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٣٩٥/٦.

(٦) الفرسخ مقياس من مقاييس المسافات مقداره ثلاثة أميال، ويساوي نحو خمسة كيلومترات ونصف. انظر: معجم لغة الفقهاء ٣١١، والوسيط ٦٨١.

(٧) إخ إخ: بكسر الهمزة وسكون الخاء كلمة تقال للبعير لمن أراد أن ينيخه، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٤/٩.

(٨) أخرجه البخاري ٥٢٢٤، ومسلم ٢١٨٢.

ولفضل الحياء كان من الموضوعات الجديرة بمعالجة الداعية وتوجيه المدعوين إلى التحلي بها[١].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: تعبيد العباد لله رب العالمين:

من الأهداف الأصلية للدعوة الإسلامية: تعبيد العباد لرب العالمين، وجعل تلك العبودية خالصة لله تعالى، ومن الشواهد على ذلك في الحديث قوله ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله..." قال النووي: (وقد نبّه ﷺ على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشعب إلا بعد صحته)[٢].

"لذا فإن الإيمان بالله عز وجل هو أهم أصول الإيمان، وأعظمها شأنًا، وأعلاها قدرًا، بل هو أصل أصول الإيمان، وأساس بنائه، وقوام أمره، وبقية الأصول متفرعة منه، راجعة إليه، مبنية عليه، والإيمان بالله عز وجل هو الإيمان بوحدانيته سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فهذه أصول ثلاثة يقوم عليها الإيمان بالله، بل إن الدين الإسلامي الحنيف إنما سمي توحيدًا، لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وأسمائه وصفاته لا نظير له، وواحد في ألوهيته وعبادته لا ندّ له"[٣].

وقد جاءت نصوص كثيرة من القرآن والسنة تدل على أن الهدف الأول للدعوة الإسلامية هو تعبيد العباد لله رب العالمين وإفرادهم إياه بالعبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤] فهذه هي (الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه)[٥].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١٧٩٥/٥ - ١٨١٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦.

(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد نخبة من العلماء ٩.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٥٥.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]. وبعث رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم كتابًا فيه ((أمّا بعدُ فإنّي أدْعُوكَ بدِعايةِ الإسْلام، أسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤتِكَ اللّهُ أجْرَكَ مَرَّتين. فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسِيِّين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2]... الحديث بطوله[3] وفيه قول أبي سفيان جوابًا عن سؤال هرقل: ماذا يأمركم؟ قال: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم...)).

وقد تمثل الصحابي رِبْعي بن عامر هذا الهدف خير تمثيل عندما أجاب رستم قائد الفرس في موقعة القادسية (١٤هـ) عندما سأله: ما جاء بكم؟ فأجابه ربعي فقال له: (الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)[4].

رابعًا- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

لقد أجمل النبي ﷺ شعب الإيمان "بضع وسبعون شعبة" ثم فصل بعضها، فذكر أفضلها وأدناها وما هو منها "الحياء". ولا شك أن هذا الإجمال يشدّ المدعو ويجذب انتباهه لذكر التفصيل، فيعي ما يقال ويفهمه ويُدْركه.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٦٤.

(٣) أخرجه البخاري ٧، ومسلم ١٧٧٣.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم ٥٢٠/٣، والبداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦٢٢/٩، وانظر: حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، تحقيق: نايف العباس، ود. محمد علي دولة ٣١ - ١٢٦.

الحديث رقم (١٢٦)

١٢٦- **العاشر:** عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عليْهِ الْعَطشُ، فَوجد بئرًا فَنزَلَ فيها فَشَرِبَ، ثُمَّ خرج فإذا كلْبٌ يلهثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فقال الرَّجُلُ: لَقَدْ بلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ العطشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ قَدْ[1] بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فملأ خُفَّه ماءً ثُمَّ أَمْسَكَه بفيهِ، حتَّى رقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ له فغفر له**». قَالُوا: يا رسولَ اللَّه إنَّ لَنَا في الْبَهَائِمِ أَجْرًا[2]؟ فقَالَ: «**في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**» متفقٌ عليه[3].

وفي رواية للبخاري[4]: «**فَشَكَر اللَّهُ لهُ فغفَرَ له، فَأدْخَلَه الْجنَّةَ**».

وفي رواية لَهُما[5]: «**بَيْنَما كَلْبٌ يُطيف بِركِيَّةٍ قَدْ كَادَ يقْتُلُه الْعطَشُ إِذْ رأتْه بغِيٌّ مِنْ بَغَايا بَنِي إِسْرَائيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فاستَقت لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ فَغُفِر لَهَا بِهِ**».

«الْمُوقُ»: الْخُفُّ. «وَيُطِيفُ»: يَدُورُ حَوْلَ «رَكِيَّةٍ» وَهِيَ الْبِئْرُ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

كلب يلهث: أي أخرج لسانه من حرٍّ أو عطش[6].

الثرى: التراب الندي[7].

---

(١) (قد) لا توجد عند مسلم.

(٢) لفظ مسلم: (هذه البهائم لأجرًا).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (١٥٣/٢٢٤٤) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (١٤٠٧).

(٤) برقم (١٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (١٥٥/٢٢٤٥) ولفظهما سواء.

(٦) الوسيط ٨٤١.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث ر ى).

فيه: فمه[(١)].

رقى: صعد. يقال رقى في السُّلم: صعد فيه[(٢)].

كبد رطبة: أي كل كبد حيَّة والمراد: رطوبة الحياة، أو لأن الرطوبة لازمة للحياة فهو كناية[(٣)].

يطيف بركية: يُطيفُ: يَدُورُ حَوْلَ "رَكيَّة" وهي البئر[(٤)].

بغي: البغي: الفاجرة تتكسب بفجورها[(٥)].

مُوقها: الموق: الخف[(٦)].

الشرح الأدبي

إن طرق الخير تتعدد المسالك إليها، وتتجاوز الاهتمام بالإنسان إلى الرأفة بالحيوان، والمحافظة على النبات، وحسن إقامة البنيان، والحفاظ على جمال العمران.

ونقتبس من هذا النص النبوي الكريم مشهدًا من مشاهد العطف والرحمة التي يتسم بها الخلق الإسلامي في تعامله مع الكائنات الأخرى، وكائنات الطبيعة بصفة عامة لأنها من مظاهر قدرة الله عز وجل، والطبيعة كتاب مفتوح نقرأ فيه أسرار الكون، ونستشف منه جمال الحياة، وهي في منظور التصور الإسلامي مسرح التأملات، ومصدر الجمال الكوني، وترجمان القدرة الإلهية، ومنبع السعادة الإنسانية، وللطبيعة الكونية والحية حظ كبير من التقدير والتوجيه الإلهي في سر جمال هذا الكون[(٧)].

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٢٥١.

(٢) الوسيط في (ر ق ي).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٥/٥١).

(٤) رياض الصالحين ١٠١.

(٥) الوسيط في (ب غ ي).

(٦) رياض الصالحين ١٠٠-١٠١.

(٧) انظر: الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، د. صابر عبدالدايم.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف. نجد أنه صيغ في قالب القصة الواقعية.

ويعرضها المصطفى ﷺ في صورة حكاية قصيرة هادفة تدعو للدهشة والتأمل والموعظة، والرحمة، وفي هذا الحديث -كما قال العلماء- الحض على الإحسان إلى الحيوان المحترم، وهو مالا يؤمر بقتله فيحصل بسقيه والإحسان إليه الأجر سواء كان حرًا أو مملوكًا له أو لغيره، وقيل إن أصل الحديث مبني على إظهار الشفقة لمخلوقات الله تعالى من الحيوانات، وإظهار الشفقة لا ينافي إباحة قتل المؤذي فيسقى ثم يُقْتَل، وذلك في ضوء الرأي القائل بأن الإسلام أمر بقتل الكلاب، وكيف تقدم هذه القصة نموذجًا للشفقة بالحيوان، والحيوان فيها هو الكلب؟ وقيل: إن الرجل كان من بني إسرائيل، فهي قصة من وقائع تاريخ الأمم السابقة، ولم يحدد اسم الرجل، ولا مكانه، ولا زمانه، لأن العبرة بالدرس المستفاد من هذه القصة وهو ترسيخ جانب الرحمة والعطف على الحيوان، وكل ما في الكون من كائنات، لأنهم أمم أمثالنا، كما يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾(١).

وتتكون هذه القصة من ثلاثة مشاهد متناسقة ومتكاملة: المشهد الأول يصور حالة ذلك الرجل ماشيًا في الطريق، ولم يحدد الطريق ولكنه جاء نكرة، بطريق حتى يظل رمزًا لكل حالة مماثلة، ويشتد على الرجل العطش، ويكاد يقتله الظمأ، ولكن الله سبحانه وتعالى يأتيه بالفرج حيث يجد بئرًا، فينزل يشرب منها، ثم يخرج.

وفي توالي العطف بالفاء في هذا الحديث دلالة على سرعة الحركة، وعلى شدة اللهفة، وعلى سرعة توالي الأحداث، والمشهد الثاني يأتي مفاجئًا، وإذا الفجائية، تقدم هذه المفاجأة المذهلة التي تدعو للموازنة والمقارنة لدى النفس المؤمنة الرحيمة، والمفاجأة تبدو في مشاهدة هذا الرجل لكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، وعدم العطف بين

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

الفعلين يلهث ويأكل، لأنهما وصفان للكلب، واللهاث وأكل الثرى المبلل إطفاءً للظمأ كانا في وقت واحد، فإلغاء العطف يصور حالة الكلب في لهاثه وأكله الثرى، ودلالة الفعل، "يلهث" تصور حالة الكلب وحركته التي تدل على شدة معاناته من الظمأ، فالفعل "يلهث" يفيد في بعض معانيه، أن الكلب يرتفع نَفَسُه وينخفض بين أضلاعه أو يخرج لسانه، وله دلالة حركية أخرى وهى أنه مع هذا اللهاث يبحث بيديه ورجليه في الأرض، وجملة يأكل الثرى، تؤكد مدى المعاناة التي يشعر به ذلك الحيوان، فالجملة إما وصف ثانٍ للكلب، أو حال من ضميره العائد عليه، فاعل يلهث، أو الجملة تصور حال الكلب: لأنه رغم أنه نكرة، ولكنه تخصص بالوصف، وهذه التأويلات الدلالية تنبع من ثراء لغة الحديث، وهى لغة صاحب البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها.

وتكملة المشهد الثاني تتم في صورة حوار داخلي، وحديث نفسي حيث يوازن الرجل بين حالته السابقة وحال ذلك الكلب، فيقول مؤكدًا مِثْلية الحالة، وفي الوقت نفسه يؤكد استحضار الشعور بالشفقة والرحمة "لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني"، والعبارة محصنة بالظواهر الأسلوبية التي تستدعي الرحمة والشفقة، ومنها التأكيد باللام وقد، واللام تشعر بالقسم، واسم الإشارة هذا يفيد التحديد، واهتمام الرجل بهذا الحيوان، والتصريح بلفظ الكلب في هذه الرواية مع اسم الإشارة يزيد الأمر تحديدًا، وفي رواية أخرى يحذف لفظ الكلب اكتفاء باسم الإشارة، لأنه يحدد المراد حيث لا لبس ولا غموض، لأن اسم الإشارة كالضمير يعود على أقرب مذكور، والتعبير بهذا وهو للقريب، ولم يعبر بذلك، إيحاء بالقرب والاهتمام، وأن حالة الكلب قريبة من حال ذلك الرجل وقت عطشه، والتصريح باسم الموصول "الذي" ينبئ عن تماثل الحالة، وذلك يستدعي شدة الإحساس بما يمر به ذلك الحيوان الأعجم وهو الكلب، ويكتمل المشهد اكتمالاً حركيًا عمليًا، وتحذف بعض تفاصيل المشهد حيث لم يذكر الحديث أن الرجل بعد ما خرج نزل مرة أخرى، ولكنه قال: "فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب".

والفاء في قوله: "فملأ" تنبئ عن سرعة الرجل ولهفته لإنقاذ ذلك الحيوان، ولكن بعد أن ملأ خفه.. يحتاج إلى الصعود من البئر.. مع الحفاظ على الخف وبداخله الماء، والأمر يحتاج إلى جهد، ولذلك جاء التعبير "بثم" في قوله: "ثم أمسكه بفيه... ثم رقى"، ودلالة "ثم" وهي تفصح عن حالة البطء قليلاً والتراخي حسب السياق، ومطابقة لمقتضى الحال ولنتصور الرجل صاعدًا من البئر، وهو يتسلق الحجارة، ويخاف أن يسقط منه خفه، ويداه مشغولتان بالإمساك بالصخور في حالة الصعود، ولذلك قال المصطفى ﷺ: "ثم رقى" بفتح الراء وكسر القاف أي صعد: فأي جهد بذله الرجل، وأي مشقة تحمل! وأي شعور قاده إلى ذلك المسلك! إنه الشعور الإيماني الذي يعمقه رسول الله ﷺ في نفوس أصحابه، وفي نفوس المسلمين جميعًا تجاه الحيوان رفقًا ورحمة ورأفة، وعقب الصعود مباشرة: تأتي الفاء عاطفة في قوله: "فسقى الكلب" حيث لم يتوان، ولم يتأخر، والجزاء من الحق سبحانه وتعالى كان سريعًا ومضاعفًا: ويتضوأ ذلك الثواب في أجمل مكافأة من الحق سبحانه وتعالى، وهي الشكر والغفران، حيث يقول الحبيب المصطفى ﷺ: "فشكر الله له"، فغفر له، فأدخله الله الجنة، ولنتأمل توالي الجمل في إيقاع سريع، وترتيب بديع، والعطف بالفاء. يفصح عن هذه السرعة، والأفعال الماضية في صيغتها، المستقبلية في حكمها مع ذلك الترتيب يفصحان عن خاصية التنسيق والتنظيم، وتكاتف المبني مع المعنى في أسلوب الحديث النبوي الشريف، فشكر الله للعبد ثمرته والمغفرة ثمرتها الجنة.

والمشهد من القصة يفصح عن الدرس الذي نتعلمه من هذا الحديث الشريف، وهو محاورة بين النبي ﷺ وأصحابه، ولم يحدد الحديث هؤلاء الذين سألوه، لأن القضية عامة شاملة، والدرس موجه إلى كل مسلم يحرص على المنهج الإسلامي، ويتساءل هؤلاء الذين سمعوا القصة ابتغاء التعلم والإفادة: "وإن لنا في البهائم أجرًا"، والاستفهام محذوف، ويعلن عنه السياق والنطق، ولم يأت السؤال عن الكلب وإنما عن البهائم، إشارة إلى العطف والرأفة بالحيوان بصفة عامة، وتجئ إجابة المصطفى ﷺ أكثر عمومًا وشمولاً فيقول: "في كل كبد رطبه أجر" وذلك كناية عن الحياة، وعن ضرورة العطف على كل أنواع الكائنات لأنها من خلق الله تعالى، وهو الخلاق العليم.

المضامين الدعوية

أولاً: من فقه المدعو: الاتعاظ وأخذ الحكمة مما يمرّ به من شدائد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الرفق بالحيوان.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده الرحماء.

رابعًا: من واجبات المدعو: السؤال عما خفي.

خامسًا: من وسائل الدعوة: القصة.

سادسًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

أولاً- من فقه المدعو: الاتعاظ وأخذ الحكمة مما يمرّ به من شدائد:

لقد أحس الرجل بالعطش وشدته فسعى في إزالته بأن شرب من البئر، ولما رأى كلبًا قد أصابه الجهد والتعب من شدة العطش، وظهر ذلك عليه واضحًا وذلك بأن أخرج لسانه وأصبح يأكل التراب الذي أصابه الندى، لما رأى ذلك عرف مقدار ما أصاب الكلب من شدةٍ، لأنه قد أصيب بمثلها، فسعى بكل جهده أن يزيل عطش الكلب فنزل البئر وملأ خفه ماءً ثم صعد وقدمه إلى الكلب. وهكذا اتعظ هذا الرجل بما أصابه وأثمر ذلك في تصرفاته وأفعاله، فأفاد نفسه وأفاد غيره ورضي عنه ربُّه.

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه: اعتراض الشدائد للإنسان في أوقاته، وهي وإن كانت شدة في وقتها، فإنها سيقلبها الله نعمة في وقت آخر، فإن ذلك الإنسان لما اشتد به العطش ذكر به غيره، فعرفه مبلغ الظمأ من الظمآن، فأوى إلى ذلك الكلب حين رآه في مثل حاله، فكان ذلك سببًا لرحمته الكلب، ورحمة الله به، من حيث إنه ابتلاه أولاً حتى راضه وأدبه، فجعل رياضته تلك سببًا لرحمته خلقه، فرحمه الله سبحانه وتعالى)[1].

وهكذا حال المدعو دائمًا يستفيد مما يمر به ويأخذ العظة والعبرة من ذلك، حتى يحقق النفع لنفسه في دنياه وآخرته.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٤١١/٦ - ٤١٢.

ولذا قالوا: إن من حكمة صيام رمضان أن يشعر الصائمون بجوع الجياع واحتياج المحتاجين، فيسارعوا إلى إشباعهم، وسد خلتهم.

لكن بعض المدعوين قد ينسى ما أصابه من شدة عند أول فرج يصيبه، فتجد أحدهم يشكو من الظلم وضياع حقه وعدم قدرته على استرداده، فإذا منّ الله عليه بأن أرجع الله إليه حقه، وأصبح له سلطة على الناس أذاقهم الظلم والجور وأكل حقوقهم وسلبهم ما يملكون، ونسي ما كان فيه من شدة وفاقة وذل، وأصبح الناس بلسان حالهم ومقالهم يقولون: رب يوم بكيت منه فلما ذهب بكيت عليه.

ولا شك أن من حاله كذلك فإنه لم يستفد شيئًا مما مرّ به من شدائد وكروب، بل إنه صدر للناس شدائده وكروبه، وعاملهم بما كان يُعامل ويشكو منه، فهذا قلبه قاس يُخشى عليه إن لم يتب.

لذا فإن على المدعو ذي الفطنة والذكاء أن يأخذ العبرة والعظة من مواقف حياته.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الرفق بالحيوان:

لقد اهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بالرفق والرحمة بالناس وبالحيوان؛ لأن الإسلام دين الرحمة والرفق، ومن ثم فإن الله تعالى يجزل عطاءه لمن يتعامل بالرفق والشفقة ومما يؤكد ذلك ما ورد في الحديث في قوله ﷺ: "فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة" و"في كل كبد رطبة أجر" قال ابن حجر: (أي الأجر ثابت في إرواء كل كبد حية، قال الداودي: المعنى في كل كبد حي أجر وهو عام في جميع الحيوان)[1]. وقال النووي: (فيحصل الثواب بسقيه والإحسان إليه أيضًا بإطعامه وغيره سواء كان مملوكًا أو مباحًا وسواء كان مملوكًا له أو لغيره)[2].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن الرحمة في القلوب حتى للبهائم سبب خير وأجر واستعطاف لرب السماء والأرض، فإنه يرحم من عباده الرحماء. وفيه أن رحمة الدواب -حتى الكلاب التي لا أجر في اقتنائها بل وزر- فيها أجرٌ، فدل على أن

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٥١ - ٥٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٩٨، وقد خصصه النووي بالحيوان المحترم وهو ما لا يؤمر بقتله.

رحمة ما هو أكرم منها من الدواب كالشاة، وغيرها فيها أجر، فذكر ذلك على عادته في الإتيان بجوامع الكلم، فقال: "في كل كبد رطب أجر")[(١)].

ومن ناحية أخرى فإن من عذب حيوانًا بحبسه حتى مات فإنه يعذب في النار، لقول النبي ﷺ: ((عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ ربَطَتْها حتى ماتَت فدخَلَتْ فيها النارَ، لا هي أطعَمَتْها ولا سقَتْها إذ حبَسَتها ولا هيَ ترَكتها تأكلُ من خَشاش الأرض))[(٢)].

قال النووي عن المرأة: (الصواب أنها كانت مسلمة وأنها دخلت النار بسببها)[(٣)].

(ولا خلاف بين الفقهاء في أنه يجب على المالك إطعام بهائمه وسقيها وريها ولو كانت مريضة لا ينتفع بها؛ لحديث ابن عمر مرفوعًا: "عذبت امرأة في هرة..." كما يحرم أن يحمله ما لا يُطيق، لأن فيه تعذيبًا له)[(٤)].

(ومما ورد في الرفق بالحيوانات النهي عن صبرها وتعذيبها، وبيان فضل ساقيها والإنفاق عليها، سواء أكانت من الأنعام أم من غيرها... ومعنى صبر البهائم كما قال العلماء أن تحبس وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه وهو معنى (لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا)[(٥)]، أي لا تتخذوا الحيوان غرضًا ترمون إليه كالغرض "أي الهدف" من الجلود وغيرها...

وأما النفقة على الحيوان رفقًا ورحمة به، فقد اتفق الفقهاء على وجوب الإنفاق على المملوك منه ديانةً، واختلفوا في الإجبار عليها والقضاء بها على من عنده بهيمة لا ينفق عليها، مع اتفاقهم جميعًا على وجوبها ولزومها عليه... وتذكر كتب الحنابلة أيضًا أنه يحرم على مالك الدابة أن يحملها ما لا تطيق حمله، لأن الشارع منع تكليف الإنسان والحيوان ما لا يطيق، ولأن فيه تعذيبًا للحيوان الذي له حرمة في نفسه وإضرارًا به.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٤١٢/٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٨٢، ومسلم ٢٢٤٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٩٧، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٢/٦.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٨/٣٢٧.

(٥) أخرجه مسلم ١٥٩٧.

ويحرم أن يحلب من لبنها ما يضر بولدها، لأن كفايته واجبة على مالكه، ويسن للحالب أن يقصّ أظفاره لئلا يجرح الضرع إلى غير ذلك مما ذكروه في هذا الباب)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده الرحماء:

إن رحمة الله واسعة يجزلها لعباده الرحماء الذين يستمطرون رحمة الله برحمة مخلوقاته، فلقد رحم الله هذا الرجل الذي سقى الكلب، وأجزل له المثوبة بإدخاله الجنة مع أنه عمل عملاً يسيرًا، فهذا دليل على عظم ثواب الله، وأنه يكافئ على العمل اليسير بالثواب العظيم؛ مِنَّةً منه وفضلاً. قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه: أن لطف الله عز وجلّ ورحمته عباده، أن بغيًا من البغايا المسرفات على نفوسهنّ بفجورهن مدة عمرها، رحمت في وقت واحد كبدًا رطبة، جعل مكان ذلك لها وسيلة إلى الله عز وجل، فأسقط عنها ما كان منها في عمرها، لإنابة لحظة في رحمة دابة غير كريمة، فكيف رحمة الآدميين المسلمين؟ فجعل الله عز وجل هذا حيث قدره وقضاه منبهة لعباده إلى يوم القيامة"[٢].

وقد ورد كثير من الآيات والأحاديث تدل على هذا المعنى. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣]. وقد نقل القرطبي عن ابن عباس وابن مسعود قولهما: (إن هذه الآية إحدى الآيات التي هي خير مما طلعت عليه الشمس)[٤].

وقال الرسول ﷺ: ((إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً. يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا للّهِ فِي الدُّنْيَا. حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ. لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا))[٥].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٢/٢٩٥ - ٢٩٧.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٦/٤١٢.

(٣) سورة النساء، آية: ٤٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٥١٩٧.

(٥) أخرجه مسلم ٢٨٠٨.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: ((إِنَّ اللَّه كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ. ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً... وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّه سَيِّئَةً وَاحِدَةً))(١).

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في هذا الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة، لأنه لولا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنة، لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم الحسنات)(٢).

و"مما يفرح العبد المسلم ما في الشريعة من الثواب الجزيل والعطاء الضخم، يتجلّى ذلك في المكفرات العشر، كالتوحيد وما يكفره من الذنوب. والحسنات الماحية كالصلاة والجمعة إلى الجمعة والعمرة إلى العمرة والحج والصوم، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة. وما هناك من مضاعفة الأعمال الصالحة كالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومنها التوبة تجب ما قبلها من الذنوب والخطايا. ومنها المصائب المكفرة فلا يصيب المؤمن من أذىً إلا كفَّر الله به من خطاياه. ومنها دعوات المسلمين له بظهر الغيب، ومنها ما يصيبه من الكرب وقْت الموت. ومنها شفاعة المسلمين له وقت الصلاة عليه، ومنها شفاعة سيد الخلق ﷺ ورحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(٣) ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٤)"(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم ١٣١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٣٦، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٠٤ - ٣٠٦.

(٣) سورة النحل، آية: ١٨.

(٤) سورة لقمان، آية: ٢٠.

(٥) لا تحزن، عائض القرني ص ٢٨٤.

رابعًا- من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه:

يتضح هذا في قول الصحابة للنبي ﷺ "يا رسول الله إن لنا في البهائم أجرًا؟" فقد سألوا النبي ﷺ حتى يعلموا ما جهلوا ويتضح لهم ما خفي عنهم ويزول عنهم ما عجبوا منه ومن ثم يعملون بما أرشدهم إليه النبي ﷺ.

ومثال ذلك ما وقع من عمير بن الحُمام في غزوة بدر، فقد سمع رسول الله ﷺ يقول: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. فقال: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم. قال: بخ بخ[1]. فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخ بخ. قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قَرَنه[2]، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل[3].

خامسًا- من وسائل الدعوة: القصة:

لقد استخدم النبي ﷺ هنا القصة لتبليغ الدعوة، والقصة لها تأثير لا ينكر في نفوس المدعوين، (حيث تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم... حتى لكأنك تراهم رأي العين وتسمع منهم سمع الأذن وتعاشرهم وتحيا بينهم. وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها... والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعمال القلوب، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تحرك الوجدان وترفع نبض المشاعر، وهي بالميزة الثانية تجعل النفوس أوعية مفتوحة يصب فيها الداعية ما يشاء، فيبلغ القرار)[4].

---

(١) قال النووي: فيه لغتان: إسكان الخاء وكسرها منونًا، وهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٨.

(٢) القرن - بالتحريك: جعبة من جلود تشق ويجعل فيها النُّشاب وهي النبل. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٧٤٩، والوسيط في (ق ر ن).

(٣) أخرجه مسلم ١٩٠١.

(٤) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤ - ٤٥.

لقد جاءت القصة في هذا الحديث لتوضح أهمية الرفق في التعامل مع الحيوان فضلاً عن الإنسان حتى إن ذنوب البغايا تغفر برحمة الحيوان فما بالنا برحمة الإنسان؟

سادسًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

لقد سأل الصحابة ﵃ وأجابهم النبي ﷺ، وهذا الأسلوب المباشر يؤتي ثماره المرجوة في المواقف التي تلائمه وتناسبه. وقد استخدمه النبي ﷺ كثيرًا جدًا، لأن السؤال والجواب يعمل على إيجاد نوع من الحوار المثمر والبنّاء بين الداعية والمدعو، ويعمل على حثّ المدعو وحمله على السؤال عن كل ما يعنّ له في الموضوع الدعوي المطروح، ويمكنه من الحصول على الإجابة المباشرة من الداعية، ويعطيه فرصة لمراجعة الداعية والاستفسار عن الجزئيات التي قد تغيب عنه، ويحتاج فيها إلى مزيد بيان وإيضاح.

الحديث رقم (١٢٧)

١٢٧- **الْحادي عشَرَ**: عنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لَقَد رأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجنَّةِ فِي شَجرةٍ قطَعها مِنْ ظَهْرِ الطَّريقِ كَانَتْ تُؤْذِي الْمُسلِمِينَ**» رواه مسلم[1].

وفي رواية[2]: «**مرَّ رجُلٌ بِغُصْنِ شَجرةٍ علَى ظَهْرِ طرِيقٍ فَقَالَ: واللَّهِ لأُنَحِّيَنَّ هذا عنِ الْمسلِمِينَ لا يُؤْذِيهُمْ، فأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**».

وفي رواية لهما[3]: «**بيْنَما رجُلٌ يمْشِي بِطرِيقٍ وجد غُصْنَ شَوْكٍ علَى الطَّرِيقِ، فأَخَّرُه فشَكَر اللَّهُ لَهُ، فغَفَر لَهُ**».

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ظهر الطريق: الظهر من معانيه: طريق البرّ وما غلظ من الأرض وارتفع[4].

الشرح الأدبي

ما أجمل تعاليم الإسلام؟ وما أجمل وصايا الرسول ﷺ في الحفاظ على البيئة، والحفاظ على جمال الطرق التي يسلكها الناس، وطرق الخير لا تتناهي ولكنها تتجدد بتجدد الزمان والإنسان.

وربما يظن بعض الناس أن العطاء والبذل هما الأفق الوحيد للخير، والحديث الذي معنا يبدد هذا الظن، لأن من الخير أن تَجْتَثَّ الفساد، وأن تزيل الأدران، وأن تقضي على كل ضار خبيث.

---

(١) برقم (١٢٩/١٩١٤) بعد حديث: (٢٦١٧، كتاب البر والصلة). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٨٣).

(٢) برقم (١٢٨/١٩١٤). أوردها المنذري في ترغيبه (٤٣٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٢٧/١٩١٤)، و (١٦٤/١٩١٤، كتاب الإمارة). أوردها المنذري في ترغيبه (٤٣٨٣).

(٤) القاموس، والوسيط في (ظ هـ ر).

والحديث الشريف تستضيء حروفه بتعاليم النبي ﷺ، وهذه التعليمات لم تصدر في صورة أمر نبوي، أو نهى تشريعي، ولكنها قدمت في صيغة خبر يتضمن فعلاً خبريًا ثم جزاء هذا الفعل وهو الجنة؟ هذا الفعل هو إماطة الأذى عن الطريق، ولكن الأذى هنا ليس فعلاً قبيحًا وليس قاذورات: وإنما هو عائق يعطل السير، ويؤذي المارة، ويربك حركة المرور في لغة العصر وهو: شجرة: في وسط الطريق.

إن التوجيه النبوي الكريم يدعو إلى ضرورة: إماطة الأذى عن الطريق، والشجرة التي قطعت: قطعها الرجل من ظهر الطريق، وفي رواية أخرى ورد أنه غصن شجرة على ظهر طريق، أو غصن شوك على الطريق في رواية ثالثة، فالفعل هنا ليس إزالة للخير، ولا قطعا للشجر وهو في مكانه المعد على جانبى الطريق، وإنما الشجرة في هذا السياق تمثل أذى يجب إماطته عن طريق الناس حتى لا يكون مصدر إزعاج أو إيلام أو يكون عائقًا عن السير، وقضاء المصالح.

ولنتأمل بداية هذا الحديث الشريف: وهى بداية يغلفها التأكيد والإشعار بالقسم عن طريق "اللام وقد" في قول الحبيب المصطفى ﷺ: "لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة"، والفعل رأى يتضمن المشاهدة والعلم، وهما كذلك لأن هذا الخبر من رسول الله ﷺ يفيد دخول الرجل الجنة بمجرد نيته للفعل الجميل، وعدم تحديد الرجل ومجيئه نكرة يفيد العموم: حتى لا يتوهم أحد أنها حالة خاصة: بل هي قاعدة عامة: فأي رجل يقدم على مثل هذا الفعل الجميل فهو يفوز بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، والتعبير بقوله: "يتقلب" كناية عن النعيم المقيم، وإيحاء بدوام ذلك الثواب لأن صيغة المضارع تفصح عن ذلك فالجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾[1].

والحديث في صياغته يحمل البشرى بالجنة لكل مسلم يميط الأذى عن الطريق، لأن الرسول ﷺ قدم المكافأة والجزاء الأوفى على الفعل الحسن وذلك للترغيب

---

(١) سورة الرعد، آية: ٣٥.

والتبشير بأن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا، وختام الحديث دعوة إلى القضاء على كل الظواهر والعوائق التي تؤذي المسلمين: حتى يعيش الناس سعداء آمنين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي، وهو حكم إزالة الأذى عن الطريق: يندب إزالة الأشياء المؤذية للمسلمين أينما وجدت، فقد اعتبر الرسول ﷺ إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان بقوله: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق))[1])[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل إماطة الأذى.

ثانيًا: من وسائل الدعوة: القصة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل إماطة الأذى:

إن المدعو يحرص أشد الحرص على نفع نفسه ونفع أهله ومجتمعه، لأن في ذلك إرضاء لرب العالمين كما أن في ذلك الثواب الجزيل الذي أعدّه الله لمن فعل ذلك، وهذا الحديث خير دليل على ذلك كما في قوله ﷺ: "يتقلب في الجنة في شجرة قطعها كانت تؤذي المسلمين" وقوله "فأدخل الجنة". فقد أدخل الله سبحانه وتعالى الرجل الجنّة، لإبعاده الأذى وإماطته عن الطريق. وقد روى هذا الحديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: كانت شجرة في طريق الناس تؤذي الناس فأتاها رجل فعزلها عن طريق الناس قال: قال النبي ﷺ: ((فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَتَقَلَّبُ فِي ظِلِّهَا فِي الجَنَّةِ))[3].

---

(١) أخرجه مسلم ٣٥.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢/٣٥٦.

(٣) أخرجه أحمد ٣/١٥٤ رقم ١٢٥٧١ وقال محققو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن في الشواهد ٢٠/٢٤.

قال ابن هبيرة: (وقوله: "يتقلب في الجنة" يعني: يذهب منها حيث شاء، كما يقال: يقلب المسافر في الأرض)[١].

وقال النووي: (فيه فضيلة إماطة الأذى عن الطريق وهو كل مؤذٍ، وهذه الإماطة أدنى شعب الإيمان)[٢]؛ لأن الطريق -كما قال ابن هبيرة-: (لما كانت يمرّ فيها المسلم والكافر، والعاصي والطائع، فرأى المؤمن أن إماطته الأذى عنها يثيره إيمانه، ليسهل سبيل المؤمنين، فإن مرّ بها غيرهم كان ذلك على حكم التبع لهم، فكان ذلك من خصال الإيمان)[٣].

وقد ذكر النبي ﷺ أن إماطة الأذى من محاسن أعمال أمته، قال ﷺ: ((عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ. وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِيءِ أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ))[٤].

قال ابن هبيرة: (وذلك أن المسلم يمرّ بالطريق وفيها حجر ربما يتأذى به الرجل الضرير أو غيره، فيرفعه من مكانه فيعتد الله تعالى له به، حتى إنه أرى نبيه ﷺ ذلك، وكذلك السيئات حتى النخامة في المسجد التي لا تدفن، ويشير بهذا إلى أنه إذا انتخم الرجل في المسجد كان هذا منه سيئة إلا أنه لو دفنها كفرها، فكأنه لم يكتب عليه سيئة في الأول حتى أخلّ بتداركها في الثاني، فكتبت، وفي هذا الحديث ما يدلّ على أنه لا يجوز أن يحتقر من البر شيء، ولا يستصغر من الإثم شيء، وإن قلّ)[٥].

كما جعل ﷺ إماطة الأذى من الصدقة فقال: ((وَتُمِيطُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ))[٦].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٥٩/٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢٤، وانظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٢/٢.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٤٠٦/٦.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥٣.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ١٨١/٢.

(٦) أخرجه البخاري ٢٩٨٩، ومسلم ١٠٠٩.

قال العز بن عبدالسلام: (إماطة الأذى إحسان إلى كل من يمر بالطريق، ويعمَّ ما تتأذى المارة به من الشوك والأحجار والجيف والأقذار)[١].

وقال ابن حجر: (ومعنى كون الإماطة صدقة أنه تسبب إلى سلامة من يمر به من الأذى، فكأنه تصدق عليه بذلك فجعل له أجر الصدقة)[٢].

قال الدكتور الحسيني هاشم: (إزالة الأذى من طريق المسلمين بردم حفرة صغيرة قد تقلب سيارة أو مستنقعًا قد يجلب أمراضًا أو حجرًا قد يصيب السائرين أو شوكًا أو مسمارًا قد يمزق الجلد. كل ذلك سبيل إلى الثواب والنعيم المقيم ذلك لأنه فوق قيمته البسيطة يعبر عن حرص على المسلمين وحب لهم ورغبة في نفعهم وإزالة الشر عنهم. وإذا كان الثواب في إزالة ما يؤذي فمن البديهي أن يكون العقاب في أقل أذى يتسبب الإنسان في حدوثه لأي من المسلمين)[٣].

فإن من آذى الناس بأن قطع شجرة بغير حق من طريقهم وهم ينتفعون بها أدخله الله النار، قال النبي ﷺ: ((مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً[٤] صَوَّبَ الله رَأْسَهُ فِي النَّارِ))[٥] قال أبو داود: هذا الحديث مختصر، يعني: ((مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً فِي فَلاَةٍ يَسْتَظِلُّ بها ابنُ السَّبِيلِ وَالْبَهَائِمُ عَبَثًا وَظُلْمًا بِغَيْرِ حَقَ يَكُونُ لَهُ فيهَا صَوَّبَ الله رَأْسَهُ فِي النَّارِ))[٦].

ثانيًا- من وسائل الدعوة: القصة:

لقد ذكر النبي ﷺ قصة هذا الرجل وما فعله وما الجزاء الذي كافأه الله به، ولاشك أن المدعو إذا سمع هذا بادر إلى امتثال مضمون القصة، فأماط الأذى عن طريق المسلمين، لينال مثل الثواب الذي ناله هذا الرجل.

---

(١) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال: العز بن عبدالسلام ص ٢٠٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣٦/٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ١١٨.

(٤) السدر: شجرة النَّبق واحدته سِدْرة، الوسيط في (س د ر).

(٥) أخرجه أبو داود ٥٢٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٦٤).

(٦) أخرجه أبو داود ص ٧٨٤.

الحديث رقم (١٢٨)

١٢٨- الثَّاني عشَر: عنْه قالَ: قَال رسولُ اللَّه ﷺ: «**مَنْ توضَّأ فأحَسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أتَى الْجُمعةَ، فَاستمع وأنْصتَ، غُفِر لَهُ ما بيْنَهُ وبيْنَ الْجُمعةِ وزِيادةُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، ومَنْ مسَّ الْحصا فَقد لَغَا**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لغا: أي قال اللغو، وهو الكلام الملغي الساقط الباطل المردود[2].

الشرح الأدبي

تموج ألفاظ هذا الحديث النبوي، وتتوهج حروفه بأسرار الصلاة، وفضل صلاة الجمعة، فالصلاة ميزان حركة المؤمن في حياته، بالمحافظة عليها يضبط أوقاته، وينتظم إيقاع حياته، ويكتسب الدقة في أعماله، فالصلاة أعظم العبادات شأنًا وأوضحها برهانًا وأكبرها أثرًا في تطهير القلوب وتصفية النفوس، ولذلك جعلها الشارع أعظم الشعائر وعماد الدين، فأوصى بها الصغار والكبار، وحذر غاية التحذير من التفريط والتهاون فيها لتكون ملكة راسخة في النفوس، وصبغة متمكنة منها، مسيطرة عليها، حتى تمنعها من اقتراف الذنوب بسلطانها القاهر وبما تورثه وتتركه في النفوس، من الخشية والمراقبة لله تعالى[3].

والحديث الشريف يحث على التهيئة الكاملة لأداء صلاة الجمعة. وهى منارة المسلم في كل أسبوع حيث يلتقي المسلمون في المسجد الجامع، ويستمعون لخطبة الجمعة، ويعودون بعد صلاتهم، وقد غفر لهم ما بين الجمعتين، ويزيدهم الله تعالى فضلاً من

---

(١) برقم (٨٥٧/٢٧). أورده المنذري في ترغيبه (١٠١٥).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٥٩، ٥٦٢، النهاية، والوسيط في (ل غ و).

(٣) انظر: المنهل العذب الفرات في شرح الأحاديث الأمهات ج١، د. عبدالعال أحمد عبدالعال.

عنده يوضحه رسول الله ﷺ في قوله: "وزيادة ثلاثة أيام".

ويفسر العلماء سر هذه الزيادة فيقولون: (معنى المغفرة له ما بين الجمعتين وثلاثة أيام أن الحسنة بعشر أمثالها، وصار يوم الجمعة الذي فيه هذه الأفعال الجميلة من وضوء أو غسل وتطهر وتطيب واستماع وإنصات في معنى الحسنة التي تجعل بعشر أمثالها. ودلالة ذلك أن العبد الذي أحسن عمله في يوم واحد يكافأ بعشرة أيام من ربه مغفرة ورضوانًا. وربما يقفز إلى الذهن سؤال: لماذا سمى هذا اليوم الذي يقع بين الخميس والسبت بيوم الجمعة. (وقد كان يسمى في الجاهلية: يوم العَروبة: بفتح العين، وقيل في ذلك عدة أقوال يجمعها، الجذر اللغوي لمادة "جمع"، فقيل: لأن خلق آدم جمع فيه: وهذا أصح الأقوال -كما قال العلماء- وقيل: لأن أسعد بن زرارة جمع الأنصار بالمدينة قبل مقدم النبي ﷺ إليها في ذلك اليوم وصلى بهم وذكرهم فسموه الجمعة حين اجتمعوا إليه، وقيل: سمى بذلك لاجتماع الناس للصلاة فيه، وقيل لأن كمال الخلائق جمع فيه)[1].

ولنتأمل بعض أسرار البيان النبوي في هذا الحديث الشريف.. وفي مقدمة هذه الأسرار: كلمة: الجمعة، ولم يقل يوم الجمعة أو صلاة الجمعة، وإنما صرح بهذا اللفظ دون غيره للترغيب في الإسراع إلى هذه الفريضة التي تنفرد بهذه الميزة وهى اجتماع الناس في المسجد الجامع، والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين شرطيتين: الأولى توضح كيفية التهيؤ لصلاة الجمعة وكيفية الاستماع والأداء، والثانية توضح الوجه الآخر.. وهو تحذير لمن يخالف آداب الصلاة والاستماع والإنصات، والجملة الأولى الشرطية تعم ستة أفعال ماضية: منها خمسة في جملة فعل الشرط، وفعل واحد في جواب الشرط: وهو "غُفر"، وقد بني للمفعول: لأن الفاعل معلوم وهو الله الغفور الرحيم، وأفعال جملة فعل الشرط: تتوالى في ترتيب دقيق، وتناسق عميق على هذا النحو: "من توضأ فأحسن الوضوء"، والعطف هنا بالفاء لأنه لا فاصل بين الوضوء وإحسان ذلك الوضوء فهما متلازمان، والفعل الثالث يعطف بثمّ، ليعطي مساحة زمنية للمشى إلى

---

(١) المرجع السابق، ج٢، وانظر: لسان العرب، لابن منظور في (ج م ع).

المسجد في قوله: "ثم أتى الجمعة" أي في المسجد، والعطف بالفاء في قوله: "فاستمع" يرشد إلى سرعة الإصغاء وعدم الانشغال بأمور الدنيا، والعطف بالواو في قوله: "وأنصت" يرشد إلى أن الإنصات من آداب الاستماع فهما يكملان بعضهما ولا مجال للترتيب بينهما، والجملة الشرطية الثانية: "ومن مس الحصا فقد لغا"، تُنَبه: كل من حضر واستمع وأنصت إلى عدم الانشغال بأمور الحياة واللهو والعبث بما حوله من أشياء أو التحدث مع غيره، والتعبير بقوله: "مس الحصا"، في غاية الدقة. فأي انشغال مهما قل شأنه يُضَيّع الثواب: حيث يرتكب صاحبه اللغو، وهو العمل الباطل المذموم المردود.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم صلاة الجمعة، وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى أن صلاة الجمعة فرض عين على كل مسلم ذكر بالغ عاقل حاضر صحيح، فلا يجوز لمن لا عذر له أن يتخلف عنها وإلا كان آثمًا لتركه فرض عين، وحكى الخطابي عن بعض العلماء قولاً أن صلاة الجمعة فرض على الكفاية.

الثاني: حكم الإنصات لسماع الخطبة، وقد اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين، فذهب المالكية[2] والحنابلة[3] والشافعي في القديم[4] إلى أن من حضر الجمعة من

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٢٥٦/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٦٣/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٦٦/٢، وشرح منح الجليل ٤٣٤/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٥٣٦/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٢٨٣/٢، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٠٩/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١/٢.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٧٨/٢، وشرح منح الجليل ٤٤٧/١.

(٣) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٢٣/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٧/٢.

(٤) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣١٩/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٥٥٣/١.

المسلمين يجب عليه الإنصات للخطيب حين خطبته ولا يتحدث مع غيره، فلو تكلم بأي كلمة فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له.

وذهب الحنفية إلى أن الكلام أثناء الخطبة مكروه[١] وكذا عند الشافعي في الجديد يسن عدم الكلام ولا يحرم[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل تحسين الوضوء.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: آداب صلاة الجمعة.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: نشر العلم الشرعي.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل تحسين الوضوء:

الوضوء مفتاح الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: "لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ"[٣] ومن هنا حث الإسلام على تحسينه والإتيان به تامًا، وذلك ببيان فضل ذلك، كما هو واضح في هذا الحديث. فقد بيّن ﷺ فضل تحسين الوضوء بقوله: "من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام".

قال ابن هبيرة: (لأن الحسنة بعشر أمثالها، فكانت الأيام الثلاثة متممة للعشر)[٤].

قال النووي عن تحسين الوضوء: (أي يأتي له تامًا بكمال صفته وآدابه)[٥]. وقال كذلك: (وفيه استحباب تحسين الوضوء ومعنى إحسانه: الإتيان به ثلاثًا ثلاثًا ودَلْك

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٦٧/٢، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٢٦٣/١ وما بعدها.

(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣١٩/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٥٥٣/١.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٥، ومسلم ٢٢٥.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٦٣/٨.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٥٤.

الأعضاء وإطالة الغرة والتحجيل وتقديم الميامن والإتيان بسننه المشهورة)[١].

وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ في فضل تحسين الوضوء كذلك، منها:

قال النبي ﷺ: ((مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ. حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ))[٢].

كما أخبر ﷺ أن أمته تعرف يوم القيامة بآثار الوضوء بسبب الغرة والتحجيل، فقال ﷺ: ((إِنَّ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ))[٣]. وبهذا يعرف النبي ﷺ أمته، فقال له الصحابة: أتعرفنا يومئذ؟ قال: ((نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا[٤] لَيْسَتْ لأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ))[٥].

جاء في الموسوعة الفقهية: (إطالة الغرة والتحجيل أن يتجاوز المتوضيء موضع الفرض في غسل الوجه واليدين والرجلين... ومعنى غرًا محجلين: بيض الوجوه واليدين والرجلين كالفرس الأغر: وهو الذي في وجهه بياض، والمحجل وهو الذي قوائمه بيض)[٦].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: آداب صلاة الجمعة:

صلاة الجمعة لها أهمية كبيرة في الإسلام، ومن دلائل هذه الأهمية كثرة الآداب التي يطلب فعلها استعدادًا لها وفي أثنائها من ذلك قوله ﷺ: "ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت... ومن مس الحصا فقد لغا"، فقد بيّن ﷺ بعض ما يجب على المصلين. فقد ذكر النووي أن في ذلك دليلاً (على وجوب الإنصات والنهي عن الكلام في حال الخطبة)[٧] وقال: (قوله ﷺ "من مس الحصا فقد لغا" فيه النهي عن مس الحصا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٦٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٥.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٦، ومسلم ٢٤٦.

(٤) قال النووي: السيما هي العلامة وهي مقصورة وممدودة لغتان. ويقال: السيميا، بياء بعد الميم مع المد.

(٥) أخرجه مسلم ٢٤٧.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٤٢/٣٦٩، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٤.

(٧) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٥٩.

وغيره من أنواع العبث في حال الخطبة، وفيه إشارة إلى إقبال القلب والجوارح في الخطبة)[١].

قال ابن هبيرة: (هذا الحديث يتضمن استعمال أدب الجمعة، ويدل على أن الغسل لها ليس بواجب، ويأمر بالاستماع للخطبة، ويحث على القرب من الخطيب ويحرض على الإنصات. فأما مس الحصا فإنه يحدث صوتًا يلفت الحاضرين عن سماع الخطبة، فكأن فاعل ذلك قد تكلم)[٢].

وقد جاءت آيات وأحاديث تبين واجبات صلاة الجمعة وشروطها وآدابها من ذلك: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾[٣] أي: (إذا نادى المؤذن للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى سماع الخطبة وأداء الصلاة واتركوا البيع وكذلك الشراء وجميع ما يشغلكم عنها... وفي الآية دليل على وجوب حضور الجمعة واستماع الخطبة)[٤].

كما بيّن النبي ﷺ بعض سننها فقال: ((لا يَغتَسِلُ رجلٌ يومَ الجُمعةِ ويتطهَّرُ ما استطاعَ مِن طُهرٍ ويَدَّهِنُ من دُهنهِ أَو يَمسُّ من طِيبِ بيتهِ، ثمَّ يخرُجُ فلا يُفرِّقُ بينَ اثنينِ، ثمَّ يصلِّي ما كُتِبَ له، ثمَّ يُنصِتُ إذا تكلَّمَ الإمامُ، إلاَّ غُفِرَ له ما بينَهُ وبينَ الجُمعةِ الأُخرى))[٥].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: نشر العلم الشرعي:

لقد حضّ الإسلام على تعلّم العِلْم وتعليمه ونشره بيْن الناس، وكان من وسائل ذلك:

---

(١) المرجع السابق ٥٦٣.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٦٣/٨.

(٣) سورة الجمعة، آية: ٩.

(٤) التفسير الميسر: إعداد نخبة من العلماء ص ٥٥٤.

(٥) أخرجه البخاري ٨٨٣ من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١١٩/٨-١٢٤ والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٩٢/٢٧-٢١٠.

خطبة الجمعة، وهذا واضح في قوله ﷺ: "فاستمع وأنصت" وذلك أثناء الخطبة، قال القرطبي: (في هذا الحديث ما يدل على وجوب الإقبال على استماع الخطبة والتجرد لذلك، والإعراض عن كل ما يشغل عنها)[١]، وقد قال تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٢] قال ابن العربي: (والمراد بالذكر مجموع الصلاة والخطبة)[٣]، وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: ((كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس))[٤].

قال النووي: (فيه دليل للشافعي في أنه يشترط في الخطبة الوعظ والقرآن)[٥]، فلما كان حضور الجمعة والاستماع إلى الخطبة واجبًا، كان في ذلك دلالة على أن من أهداف هذا الاجتماع للخطبة والصلاة: نشر العلم الشرعي الذي يلقيه الخطيب على آذان المصلين. قال ابن القيم عن خطبة الجمعة: (يقصد بها الثناء على الله وتمجيده والشهادة له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة، وتذكير العباد بأيامه، وتحذيرهم من بأسه ونقمته ووصيتهم بما يقربهم إليه وإلى جنابه، ونهيهم عما يقربهم من سخطه وناره، فهذا هو مقصود الخطبة والاجتماع لها)[٦].

وقد جاءت آيات وأحاديث تبين أهمية نشر العلم الشرعي بين المسلمين، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٧] قال الطاهر بن عاشور: (كانت هذه الآية أصلاً في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوبًا على الكفاية)[٨] وقال السعدي: (وهذه الآية

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٤٨٧/٢.

(٢) سورة الجمعة، آية: ٩٠.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي، محمد بن عبدالله ٥٤٣هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، ١٨٠٥/٤.

(٤) أخرجه مسلم ٨٦٢.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٦٤.

(٦) زاد المعاد ٣٩٨/١.

(٧) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٨) التحرير والتنوير مج٥/١١/٦١.

توضح فضيلة العلم خصوصًا الفقه في الدين وأنه أهم الأمور وأن من تعلم علمًا فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمى)[١].

ومن الأحاديث قول النبي ﷺ: ((إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ...))[٢].

ومن مواقف السيرة التي تدل على نشر العلم الشرعي، بعث النبي ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه مع الاثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى إلى المدينة يفقه أهلها ويُقرئهم القرآن[٣].

وأخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: ((أوَّلُ مَنْ قَدِمَ علينا مُصعَبُ بن عُمير وابنُ أمِّ مكتومٍ وكانوا يُقرِئونَ الناسَ...))[٤].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

ورد الترغيب في قوله ﷺ "غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام" وذلك ليرغب في إحسان الوضوء والإنصات إلى خطبة الجمعة وعدم اللغو، وللترغيب أثر بعيد في الدعوة، لأنه (لما كان الإنسان مجبولاً على حب ما ينفعه وتقر به عينه وتطمئن به نفسه كان لأسلوب الترغيب أهمية قصوى في الدعوة إلى الله)[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٤٢ وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٨).

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في دلائل النبوة للبيهقي ٤٣٨/٢ بإسناد معضل.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٢٤.

(٥) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ١٩٢.

الحديث رقم (١٢٩)

١٢٩- الثَّالثَ عَشر: عنه أن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «إذَا تَوضَّأَ الْعبْدُ الْمُسْلِم (أو الْمُؤْمِنُ) فغَسلَ وجْهَهُ، خرج مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خطِيئةٍ نظر إِلَيْهَا بعينهِ مَعَ الْماءِ (أوْ مَعَ آخِر قَطْرِ الْماءِ) فَإِذَا غَسَل يديهِ خَرج مِنْ يديْهِ كُلُّ خَطِيْئَةٍ كانَ بطشتْهَا يداهُ مع الْمَاءِ (أَو مع آخِرِ قَطْرِ الْماءِ) فَإِذَا غسلَ رِجليْهِ خَرجَتْ كُلُّ خَطِيْئَةٍ مشَتْها رِجْلاه مع الْماءِ (أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ) حَتَّى يخْرُج نقِيًا من الذُّنُوبِ» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بطشتها يداه: البطش: الأخذ الشديد من كل شيء والمعنى: اكتسبتها يداه[٢].

الشرح الأدبي

إن عنصر الترغيب من أهم ميزات الدعوة إلى الإسلام اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾[٣]. والمصطفى ﷺ يمهد الطريق أمام كل مسلم للتمسك بدينه، والمحافظة على عقيدته، والتخلص من صغائر الذنوب، والحرص على اجتناب الكبائر، والوضوء نور يسعى به المؤمن في حياته ليزداد وضاءة وإشراقًا، وطاعة وإيمانًا، ويروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ((إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل))[٤].

---

(١) برقم (٢٤٤/٣٢). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩١). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٢٩).

(٢) النهاية، والقاموس في (ب ط ش)، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٣.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٦، ومسلم ٢٤٦.

وحين نتأمل هذا الحديث نجده يتفق مع الحديث الذي نحن بصدده حيث يرغب الرسول ﷺ في إسباغ الوضوء والمداومة عليه، والمحافظة على سننه وآدابه، إذ جعله الله تعالى سببا في نور ينبعث من أعضائه وبخاصة من مواضع الغرة والحجال إذ تشع بالنور يوم القيامة ويسعى مع أصحابه كما ورد في القرآن الكريم: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾[1]. فمن رغب في وفرة نوره وانتشار ضوئه ومضاعفة القوة المشعة عنده فليسبغ وضوءه، وليوسع من دائرة غسله في الرأس والرجلين، كما قال صاحب المنهل العذب الفرات.

ولنتأمل في ضوء هذا التكريم الإلهي والتقدير النبوي لهؤلاء الغر المحجلين، من آثار الوضوء، بعض أسرار البيان النبوي في هذا الحديث الشريف، والحديث ثمرته المغفرة وخروج العبد المسلم نقيًا من الذنوب والخطايا.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من ثلاث جمل شرطية تتكامل في ترتيبها اللغوي وتتناسق مع ترتيب أركان الوضوء، ومع الترتيب القرآني لها: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[2]. والجملة الأولى ترشد إلى غسل الوجه بكل مكوناته، والثانية ترشد إلى غسل اليدين "الذراعين" إلى المرفقين، والثالثة ترشد إلى غسل الرجلين، وغسل الرأس ربما يتضمنه غسل الوجه، ويوضح ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أيضًا وذكر فيه الغر المحجلين.

وظاهرة التكرار تسيطر على الحديث الشريف: وهو ينبئ عن الترغيب والتعليم... والتفصيل الدقيق، وهذا الترغيب ممتزج بكثير من الوسائل التي تدفع إلى المزيد من الوضوء لأن الخطايا تخرج من أعضاء الإنسان، ويبقى بعد ذلك نقيًا من الذنوب، وأداة الشرط: "إذا" وهي تفيد التحقق، فالثواب متحقق لأنه وعد من الله عز وجل، وقد

---

(١) سورة التحريم، آية: ٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦.

تكررت "إذا" مع كل جملة شرطية حيث وردت ثلاث مرات، وجملة الشرط تتكرر بألفاظها حتى تتبه المسلم إلى حتمية هذه الأركان، ووجوب القيام بها، ولذلك وردت على هذا النحو، إذا توضأ... فغسل وجهه، و، فإذا غسل يديه، و، فإذا غسل رجليه.

وجملة جواب الشرط تتكرر بالصياغة نفسها وبالفعل نفسه: مع تغيير اسم عضو الوضوء، وفعل الجواب: هو "خرج" ويتوالى الجواب على هذا النسق التعليمي المبشر، "خرج من وجهه كل خطيئة"، و"خرج من يديه كل خطيئة"، و"خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه"، ولنتأمل تكرار عبارة كل خطيئة، وذلك لغرس الطمأنينة في نفس المسلم الذي أسبغ الوضوء وصلى وأحسن أداء الصلاة، والتعبير بلفظ: "خرج" فيه تجسيد للخطايا وكأنها خالطت العين، وامتزجت باليد، وصاحبت الرجل، وأصبحت ممتزجة بشرايين كل من اقترفها، ولكنها تخرج مرغمة مهزومة من جوارح المسلم، لأن قلبه يرفضها، ودينه يأباها، والوضوء مع الصلاة يقضي عليها، ويرى القرطبي: أن العبارة مستعارة المقصود بها الإعلام بتكفير الخطايا ومحوها، ويرى بعض العلماء أن الظاهر حمل التعبير على الحقيقة: لأن الخطايا تؤثر في الباطن والظاهر سوادًا يطلع عليه أرباب الأحوال والمكاشفات، والطهارة تزيله.

فقه الحديث

يتعرض هذا الحديث إلى الوضوء الذي هو مقدمة لابد منها للصلاة ولا تصح الصلاة بدون طهور من وضوء أو تيمم عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعماله.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الوضوء له فرائض لا يصح إلا بها واتفقوا على أن من

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٢/١ وما بعدها، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٧٩/١ وما بعدها، وحاشية الدسوقي ٨٥/١ وما بعدها، وتحفة المحتاج ١٨٩/١ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٣٠/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥٠/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٨٣/١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٣٢/٤٣ وما بعدها.

فرائض الوضوء غسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين، واختلفوا بعد ذلك في بقية الفرائض فمنهم من زاد فرائض أخرى كالنية والتدليك والترتيب والموالاة وغيرها، ومنهم من قال ببعضها فقط.

وفي الاستدلال بهذا الحديث: اختلف الفقهاء في الوضوء بالماء المستعمل وهو الذي قد تُوضئ به مرة فقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما[1]: لا يتوضأ به، ومن توضأ أعاد، ليس بماء مطلق، وعلى من لم يجد غيره التيمم، لأنه ليس بواجد ماءً. وورد عن المالكية روايتان[2]، الأولى: لا يتوضأ به إذا وجد غيره من الماء، ولا خير فيه فإذا لم يجد غيره توضأ به ولم يتيمم لأنه ماء طاهر ولم يغيره شيء، الثانية: أنه يجوز التيمم لمن وجد الماء المستعمل[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الوضوء.

ثانيًا: من واجبات الداعية: الحرص على بيان ما ينتفع به المدعو.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن الأعضاء تكون سببًا في فعل الخطايا.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الوضوء:

للوضوء فضل عظيم بيّنه رسول الله ﷺ في قوله: "إذا توضأ المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها ..." إلخ الحديث.

قال الطيبي: (قوله: "خرج" جواب الشرط والفاء في "فغسل" مرتبة له على الشرط،

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: حاشية ابن عابدين ١/٣٤٨-٣٥٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي شرح المهذب ١/٦٤-٧٦.

(٢) انظر: مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١/٩٢-١٠٠.

(٣) انظر: الاستذكار ٢/١٩٩.

أي إذا أراد الوضوء فغسل خرج من وجهه كل خطيئة وقوله: "كل خطيئة نظر إليها" أي نظر إلى سببها، إطلاقًا لاسم المسبب على السبب مبالغة، وكذا في البواقي، فإن قلت ذكر لكل عضو ما يختص به من الذنوب، وما يزيلها عن ذلك العضو، والوجه مشتمل على العين، والفم، والأنف، والأذن، فلم خصت بالذكر دونها؟ قلت: العين طليعة القلب ورائده، فإذا ذكرت أغنت عن سائرها. وقوله "يداه" و"رجلاه" كلها تأكيدات تفيد مبالغة في الإزالة)[1].

قال ابن عثيمين: (والوضوء أمر الله به في كتابه في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾. هذا الوضوء تُطَهَّر فيه هذه الأعضاء الأربعة؛ الوجه، واليدان، والرأس، والرجلان، وهذا التطهير يكون تطهيرًا معنويًا. أماكونه تطهيرًا حسيًّا فظاهر؛ لأن الإنسان يغسل وجهه، ويديه ورجليه، ويمسح الرأس، وكان الرأس بصدد أن يُغسل كما تُغسل بقية الأعضاء، ولكن الله خفف في الرأس، لأن الرأس يكون فيه الشعر، والرأس هو أعلى البدن، فلو غسل الرأس ولا سيما إذا كان فيه الشعر، لكان في هذا مشقة على الناس، ولا سيما في أيام الشتاء، ولكن من رحمة الله عز وجل أن جعل فرض الرأس المسح فقط، فإذا توضأ الإنسان لا شك أنه يطهر أعضاء الوضوء تطهيرًا حسيًّا، وهو يدل على كمال الإسلام حيث فرض على معتنقيه أن يطهروا هذه الأعضاء التي هي غالبًا ظاهرة بارزة. أما الطهارة المعنوية وهي التي ينبغي أن يقصدها المسلم: فهي تطهيره من الذنوب، فإذا غسل وجهه؛ خرجت كل خطايا نظر إليها بعينيه. وذكر العين -والله أعلم- إنما هو على سبيل التمثيل، وإلا فالأنف قد يخطئ، والفم قد يخطئ؛ فقد يتكلم الإنسان بكلام حرام، وقد يشم أشياء ليس له حق أن يشمها، ولكن ذَكرَ العين؛ لأن أكثر ما يكون الخطأ في النظر؛ فلذلك إذا

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢/١١.

غسل الإنسان وجهه بالوضوء خرجت خطايا عينيه، فإذا غسل يديه خرجت خطايا يديه، فإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه، حتى يكون نقيًّا من الذنوب. ولهذا قال الله تعالى حين ذكر الوضوء والغسل والتيمم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يعني ظاهرًا وباطنًا، حسًّا ومعنًى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(١)] فينبغي للإنسان إذا توضأ أن يستشعر بهذا المعنى أن وضوءه يكون تكفيرًا لخطيئاته، حتى يكون بهذا الوضوء محتسبًا الأجر على الله عز وجل[(٢)].

وقد وردت في السنة النبوية أحاديث كثيرة تبين فضل الوضوء، منها: ما ورد عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ))[(٣)].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ ثم قال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ مثل وضوئي هذا ثم قال ((مَنْ تَوَضَّأَ هكَذَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))[(٤)] فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوضوء سببًا في غفران ما تقدم من ذنب المؤمن المتوضئ وكذلك جعل الوضوء علامة لأمته يوم القيامة.

يظهر مما سبق فضل الوضوء وأهميته للمسلم في الدنيا والآخرة.

ثانيًا- من واجبات الداعية: الحرص على بيان ما ينتفع به المدعو:

وهذا واضح في بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لفضل الوضوء فقال: "إذا توضأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة..." ولا شك أن بيان ما يكفر الله به الذنب مما ينتفع به المدعو. وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أثر الوضوء في مغفرة الذنوب، ولذا يجب على الداعية أن يحرص على ما يحقق النفع للمدعو، ومن ثم فقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على بيان فضل الوضوء لأمته، وأثره في مغفرة الذنوب، ولا غرو في ذلك لأنه

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦.

(٢) شرح رياض الصالحين ١/ ٣٧١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٩.

ﷺ رؤوف رحيم بأمته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)].

قال ابن كثير: ("حريص عليكم" أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم)[(٢)]. وقال تعالى حكاية عن عبده ورسوله نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٣)] وعن نبيه هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[(٤)] فرسل الله جميعًا ومن يقتدي بهم من الدعاة حريصون على بيان ما ينتفع به المدعوون وعلى هدايتهم إلى الخير.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن الأعضاء تكون سببًا في فعل الخطايا:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث: فعل الخطايا من خلال أعضاء الجسد، حيث بين رسول الله ﷺ خروج الخطايا من أعضاء الإنسان بالوضوء وهنا يبين أن أعضاء الإنسان هي التي يرتكب بها الذنوب، فإن لم يحفظها ويعمل ويتوب إلى الله كانت شاهدة عليه. وهذا ما قرره القرآن الكريم وبين أن هذه الأعضاء تشهد على الإنسان يوم القيامة بما اقترفت من آثام وذنوب.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٥)] قال القرطبي: (والمعنى: يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بما كانوا يعملون من القذف والبهتان. وقيل: تشهد عليهم ألسنتهم ذلك اليوم بما تكلموا به "وأيديهم وأرجلهم" أي: وتتكلم الجوارح بما عملوا في الدنيا)[(٦)]. وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٤١/٤.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

(٥) سورة النور، آية: ٢٤.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢١٠/١٢/٦.

أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

وكذلك بين رسول الله ﷺ أن الأعضاء تكون سببًا في وقوع الذنوب حيث قال: ((كُتِبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَى. مُدْرِكٌ ذَٰلِكَ لاَ مَحَالَةَ. فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ. وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ. وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلاَمُ. وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ. وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا. وَالْقَلْبُ يَهْوَىٰ وَيَتَمَنَّىٰ. وَيُصَدِّقُ ذَٰلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))[٣].

قال القرطبي: (قوله: "فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى" يعني أن هواه وتمنيه: هو زناه. وإنما أطلق على هذه الأمور كلها: زنا؟ لأنها مقدماته، إذ لا يحل الزنا الحقيقي في الغالب إلا بعد استعمال هذه الأعضاء في تحصيله)[٤].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث رغّب رسول الله ﷺ في الوضوء وبيَّن أنه سببٌ في رفع الخطايا عن المسلم، ويُعد الترغيب فيما يكفر الذنوب من الأمور المحببة للنفوس خاصة مع كثرة ذنوب الإنسان. ومن أجل ذلك رغّب الله تعالى عباده في عمل الطاعات ورغب في التوبة من الذنوب من أجل غفرانها قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[٥] ورغب رسول الله ﷺ في كثير مما يكفر الذنوب، منها الصلاة والجمعة وغيرها قال ﷺ ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ. مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ. إِذَا اجْتَنَبَت الْكَبَائِرَ))[٦].

---

(١) سورة يس، آية: ٦٥.

(٢) سورة فصلت، آية: ٢٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٥٧.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٧٤/٦.

(٥) سورة التحريم، آية: ٨.

(٦) أخرجه مسلم ٢٣٣.

فينبغي للداعية استخدام أسلوب الترغيب في الأعمال التي تكون سببًا في تكفير الذنوب، فإنه يفتح باب الأمل في رحمة الله ورضوانه والفوز بجناته، وهذا له تأثير كبير في إقبال المدعوين على الله وطلب مرضاته والبعد عن معاصيه.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

إن فضل الله عظيم على عباده المؤمنين؛ حيث إنه سبحانه بيّن سبل التخلص من الذنوب، فقد جعل الوضوء سببًا في تكفير ذنوب المسلم، فقال رسول الله ﷺ: "إذا توضأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه ..." إلخ الحديث؛ فرحمته سبحانه وتعالى وسعت كل شيء، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١] فالله سبحانه يغفر ذنوب عباده ويتجاوز عنها قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢] فالله لا يعجزه أن يغفر جميع الذنوب ما بلغ جميعهامن الكثرة لأنه شديد الغفران شديد الرحمة[٣]. وفضل الله على عباده عظيم حيث بيّن لهم ما يغفر ذنوبهم ويزيد حسناتهم، ومن رحمته بعباده أنه تعالى يقبل توبتهم واستغفارهم.

فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: ((أَذْنَبَ عَبْدي ذَنْبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ))[٤].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٢) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤٢/٢٤/٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٥٨.

يدل هذا الحديث على رحمة الله بعباده، وفضله عليهم، وذلك بغفران ذنوبهم عندما يتوبون منها ، ويرجعون إليه بالتوبة والاستغفار.

الحديث رقم (١٣٠)

١٣٠- الرَّابعَ عشرَ: عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الصَّلواتُ الْخَمْسُ، والْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، ورمضانُ إِلَى رمضانَ مُكفِّرَاتٌ لِمَا بينَهُنَّ إِذَا اجْتَنِبَت الْكَبائِرُ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

ما أعظم البشارات التي يقدمها النبي محمد ﷺ إلى أمته، وما أكثر طرق الخير التي يرشد إليها كل مَنْ يتطلع إلى الاستكثار من العمل الصالح، وكل من يقهر وساوس الشيطان ومسالكه، ويطمح إلى طَرْق أبواب التوبة، والدخول في طاعة الله تعالى، والسير في حماه، والاستجابة لهداه، وهذا الحديث الشريف الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه مع تسعة أحاديث أخرى في باب بيان كثرة طرق الخير، يفتح أمام المسلم طرقًا عديدة للتطهر من أدران الذنوب، وهذه الطرق تضيئها مصابيح الصلاة، ومنارات الصوم...، وحين نتأمل صياغة الحديث الشريف ونحدق في مفرداته وتراكيبه ندرك أن المسلم أمامه متسع زماني يمتد عبر العام كله ليتراجع عن خطاياه، ويلتزم بما أقره به الله تعالى، وأرشده إليه رسول الله ﷺ وأول منارة من منارات الطاعة هي المحافظة على الصلوات الخمس، وهي تغسل قلب المؤمن، وتطهره من دنس المعاصي، وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول ذلك يُبْقى من درنه؟ قالوا: لا يُبْقى من درنه شيئًا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا[2].

ووجه التمثيل في هذا الحديث يتفق مع ثمرة الحديث الذي نحن بصدده، حيث يقول ابن العربي، إن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويطهره الماء

---

(١) برقم (١٦/٢٣٢). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٥). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٤٦)، و (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري ٥٢٨، ومسلم ٦٦٧.

الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد من أقذار الذنوب حتى لا تبقى له ذنبًا إلا أسقطته، وقال ابن حجر: إنه لا يتم اجتناب الكبائر إلا بفعل الصلوات الخمس فمن لم يفعلها لم يعد مجتنبًا للكبائر لأن تركها من الكبائر فتوقف التكفير على فعلها، وبذلك تكون هى المكفرة للخطايا التي تقع فيما بينها[1].

وإذا كانت الصلوات الخمس مكفرات ما بينهن، كما أخبر الصادق المصدوق، وهذا التكفير اليومي يجعل المسلم يقابل يومه الجديد طاهرًا مستبشرًا مستغفرًا، فإن الجمعة أى صلاة الجمعة إلى الجمعة، تَجْتثُّ الصغائر التي اقتحمت حياة المسلم وهو في غمرة انشغاله بأمور الحياة... وهَوْشات الأسواق.

وهذه النعمة الإلهية والبشارة المحمدية تتضوأ في حديث آخر يرويه سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طُهر ثم ادَّهن أو مس من طيب، ثم راح فلم يُفرِّق بين اثنين فصلى ما كُتب له، ثم إذا خرج الإمام أنصت، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى))[2].

وتتسع مساحة الزمن، وتتعدد أبواب الرجوع والتوبة والعمل الصالح، ولا تظل أسيرة اليوم الواحد، ولا الأسبوع الواحد، وإنما تظلل العام كله، وتتجدد هذه الحالة الإيمانية كل يوم، وكل أسبوع، وكل شهر، وكل سنة، وتتوهج هذه البشارة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ورمضان إلى رمضان، أي وصوم رمضان إلى صوم رمضان في العام التالي: كل هذه البشارات والأبواب التي سبقت تظل بدايات بلا ثمرات في البناء اللغوي، وتجئ الثمرة في قوله، "مكفرات ما بينهن"، وهذه الجملة تتم بها فائدة الكلام فهي الخير المنتظر، وهى الثمرة المرجوة، ولكن هذه الثمرة محاصرة بشرط يقيدها ويمنع التمتع بها وهو اجتناب الكبائر، فالغفران مشروط باجتناب الكبائر، والمسلم الذي يداوم على الصلوات الخمس، ويحرص على أداء صلاة الجمعة وهو متوج بتاج الطاعة طيلة أيام الأسبوع، ثم يظل متسلحًا باليقين وهو يخوض غمار الحياة، حتى يجئ رمضان فيصومه

---

(١) انظر: المنهل العذب الفرات في شرح الأحاديث الأمهات ٢٧٨/١.

(٢) أخرجه البخاري ٩١٠.

إيمانًا واحتسابًا، ويفوز بمغفرة الله تعالى ورضوانه، ويبدأ مرحلة جديدة، وعامًا جديدًا وهو في نعمة الطاعة، ولذة التقوى، وصمود المؤمن في مواجهة نزغات الشياطين.

هذا المسلم المحفوف بهذه الهالات الإيمانية لن تجد الكبائر لنفسه طريقًا، ولن تقوى على اقتحام عالمه المحصن بأركان الإسلام الثابتة الراسخة.

ولذلك يشرق في هذا الحديث سر من أسرار التعبير النبوي، وهذا السر يكمن في قوله ﷺ: "إذا اجتنبت الكبائر"، ولم يقل إن اجتنبت أو لو اجتنبت، لأن إذا تفيد التحقق، فالكبائر تجتنب ولا وجود لها في سلوك كل مسلم يؤدي الصلوات الخمس، وتقوده هذه الصلوات إلى أداء صلاة الجمعة، وكلها لا تبقى من درنه شيئًا، ويمحو الله تعالى بهن الخطايا، وتقوده هذه الرحلة التطهيرية الإيمانية مع الصلوات إلى رمضان وإلى الصيام: وهو سرّ بين العبد وربّه.

وتأخير جملة الشرط "إذا اجتنبت الكبائر"، من أسرار البيان النبوي، لأن هذا التأخير يوحي ويرشد إلى أن ما سبق من طاعات هو الطريق إلى اجتناب الكبائر.

وأما الذي لا يجتنب الكبائر... مع هذه الطاعات... فإنه لا يكون صادقًا مخلصًا في طاعته، وإنما هو مراءٍ في أفعاله، وغير صادق في أقواله، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له.

وربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم أى مصل، ليس له من قيامه إلا التعب والسهر.

وبعض العلماء فصّل القول في قوله ﷺ: "مكفرات ما بينهن" حيث أشار البلقيني أن الناس أقسام:

من لا ذنب له مطلقًا وهذا له رفع الدرجات، ومن له صغائر بلا إصرار فهى المكفرة باجتنابه الكبائر، إلى موافاة الموت على الإيمان، ومَنْ له صغائر مع الإصرار فهي التي تكفر بصالح الأعمال، ومن له كبائر وصغائر، فالمكفر بصالح العمل الصغائر فقط، ومن له كبائر فقط فيكفر منها على قدر ما كان يكفر من الصغائر.

ونص الحديث واضح... ويضئ الطريق أمام كل مسلم، والتقسيم السابق من باب

التفصيل والخلاف بين العلماء، ولكن الحديث النبوي واضح وصريح، ولا مجال للتأويل أمام هذا القول الفَصْل، وفي ختام الحديث الشريف، (مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة يوم الجمعة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة شهر رمضان.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان ما يكفر الذنوب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: تفضيل بعض الأوقات.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب الكبائر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصلاة:

إن الصلاة ركن من أركان الإسلام وقد فرضها الله تعالى على عباده المؤمنين وأمرهم بإقامتها والمحافظة عليها وعدم التفريط فيها وبيّن فضلها وقام رسول الله ﷺ ببيان فضل الصلاة في قوله: "الصلوات الخمس..."؛ فالصلاة أفضل العبادات بعد الإيمان بالله عز وجل، وقد ورد في فضلها الكثير من الآيات والأحاديث التي تبين فضلها؛ فهي سبب من أسباب الهداية والإعانة على مواجهة الصعاب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[١] لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية بالصلاة، لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فالصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[٢].

إن الصلاة لها فضائل لا يمكن حصرها فهي تكون سببًا في البعد عن المنكر

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٥٧.

والفواحش، وسببًا في تكفير الذنوب، وبابًا عظيمًا من أبواب الخير ورضا الله عز وجل.

وقال رسول الله ﷺ ((رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ))[١].

ولفضل الصلاة ومكانتها كانت آخر ما أوصى به النبي ﷺ قبل مفارقته الدنيا فقال: ((الصَّلاَةَ. وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ))[٢] فالصلاة لا يساويها عمل ولا يصل إلى منزلتها أي أمر آخر لأنها ركن من أركان الدين الثابتة على المسلم فلا تسقط عنه بحال من الأحوال. فهي فريضة الله على عباده، وهي عماد الدين، والفارق بين الكفار والمسلمين، وشرط النجاة، وحارسة الإيمان[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة يوم الجمعة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "والجمعة إلى الجمعة...". إن يوم الجمعة يوم عظيم في اجتماع المسلمين في بيت من بيوت الله، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٤].

وحكمة الله عظيمة في جعل هذا الاجتماع على الطاعة في أفضل أيام الأسبوع الذي قال فيه رسول الله ﷺ ((يوم دعيت إليه الأمم قبلنا فضلت عنه وهدانا الله له))[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، يَوْمُ الْجُمُعَةِ. فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ. وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا. وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ))[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٦١٦ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه رقم ٢٦٩٧ وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢١٨٢).

(٣) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي ص ٢٥.

(٤) سورة الجمعة، آية: ٩.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٨٧٦ ومسلم ٨٥٥.

(٦) أخرجه مسلم ٨٥٤.

ومنَّ الله فيه على عباده المؤمنين بساعة إجابة للدعاء كما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: ((فيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مُسلمٌ وَهوَ قائمٌ يُصلِّي يَسأَلُ اللّهَ تعالى شيئًا إلا أَعطاهُ إيّاهُ))[١]. وصلاة الجمعة والمحافظة عليها تغفر الذنوب كما أخبر رسول الله ﷺ بقوله: ((لا يَغتَسِلُ رجلٌ يومَ الجُمعةِ ويتطهَّرُ ما استطاعَ مِن طُهرٍ ويَدَّهِنُ من دُهنهِ أَو يَمسُّ من طِيبِ بيتهِ، ثمَّ يخرُجُ فلا يُفرِّقُ بينَ اثنينِ، ثمَّ يصلّي ما كُتِبَ له، ثمَّ يُنصِتُ إذا تكلَّمَ الإمامُ، إلاّ غُفِرَ له ما بينَهُ وبينَ الجُمعةِ الأُخرىٰ))[٢]. قال ابن القيم: (إنه اليوم -أي يوم الجمعة- الذي يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يومًا يتفرغون فيه للعبادة، ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان، ولهذا من صح له يوم جمعته وسلم، سلمت له سائر جمعته، ومن صح له رمضان وسلم، سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له، صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر)[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة شهر رمضان:

من موضوعات الدعوة في هذا الحديث فضيلة شهر رمضان وذلك في قوله ﷺ: "ورمضان إلى رمضان..." والذي قال فيه الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[٤]. قال ابن كثير: (يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن الكريم فيه وكما اختصه بذلك)[٥]. قال الشيخ السعدي: (أي:

---

(١) أخرجه مسلم ٥٨٢.

(٢) أخرجه البخاري ٨٨٣.

(٣) زاد المعاد ٣٩٨/١.

(٤) سورة البقرة، من آية: ١٨٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٠١/١.

الصوم المفروض عليكم، هو شهر رمضان، الشهر العظيم، الذي حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان،والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة، وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه، أن يكون موسمًا للعبادة، ومفروضًا فيه الصيام، ولذلك قرره وبيَّن فضيلته[1].

وهذا الشهر الكريم له فضائل وخصائص عظيمة يختص بها عن بقية شهور العام. من هذه الفضائل أن الله اختصه بفريضة الصيام الذي هو من أفضل الأعمال المقربة إلى الله سبحانه وتعالى وأجلها. فهو سبب لمغفرة ما تقدم من الذنوب قال رسول الله ﷺ ((مَنْ صامَ رَمَضانَ إيمانًا، واحْتِسابًا، غُفِرَ لهُ ما تَقدَّم مِنْ ذَنْبه))[2] ومن مزايا الصيام ما جاء في قول رسول الله ﷺ: ((كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ. الحَسَنَةُ بعَشْرُ أَمْثَالِهَا إلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. قَالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إلاَّ الصَّوْمَ. فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ...))[3]فشهر رمضان شهر عظيم تكثر فيه البركات والخيرات وفيه تفتح أبواب الجنة، وتغلق أبواب النار وتكثر طاعات المسلمين وتقل ذنوبهم.

رابعًا- من واجبات الداعية: بيان ما يكفر الذنوب:

ينبغي للداعية إلى الله أن يبيِّن للمدعوين الأشياء التي يتحقق الخير بفعلها، وتكون سببًا في تكفير ذنوبهم. فقد حرص رسول الله ﷺ على بيان فضل المحافظة على الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، وكذلك فضل رمضان وما أعطى الله فيه عباده من الخيرات، وذلك من أجل أن يعلم المسلمون مدى رحمة الله بهم، وأنه تعالى يغفر ذنوب عباده إذا لجئوا إليه، وطلبوا مغفرته، وتحيّنوا الأوقات التي خصها الله بقبول الدعاء

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠١٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٠٤، ومسلم ١١٥١.

وفضلها على غيرها من الأوقات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾[١]. قال السعدي: (الذنوب التي دون الشرك، قد جعل الله لمغفرتها أسبابًا كثيرة كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة. وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين، ومن دون ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: تفضيل بعض الأوقات:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، فقد ميّز الله سبحانه بعض الأوقات بخصائص روحية معينة، فضلها بها على غيرها، فقد جعل الله لبعض الشهور فضلاً على بعض قال تعالى: ﴿ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٌ مَّعۡلُومَٰتٌ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾[٥].

كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيرًا من ألف شهر قال تعالى: ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٌ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٍ ﴾[٦] وأقسم بالعشر، وهي عشر ذي الحجة على الصحيح. وكذلك تفضيل يوم الجمعة على باقي أيام الأسبوع وجعله عيد الأسبوع وكذلك تفضيل الثلث الأخير من الليل.

فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بالطاعات، عسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٤٦.

(٣) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٦) سورة القدر، آية: ٣.

النار وما فيها من اللفحات[١].

سادسًا-من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب الكبائر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "الصلوات الخمس، ... مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

قال ابن عثيمين: (يعني أن الصلوات الخمس تكفر الخطايا من بين صلاة الفجر إلى الظهر، ومن الظهر إلى العصر، ومن العصر إلى المغرب، ومن المغرب إلى العشاء، ومن العشاء إلى الفجر. فإذا عمل الإنسان سيئة وأتقن هذه الصلوات الخمس، فإنها تمحو الخطايا، لكن قال: "إذا اجتنبت الكبائر" يعني اجتنبت كبائر الذنوب.

وكبائر الذنوب هي: كل ذنب رتب عليه الشارع عقوبة خاصة، فكل ذنب لعن النبي ﷺ فاعله فهو من كبائر الذنوب، وكل شيء فيه حدٌّ في الدنيا كالزنا، أو وعيد في الآخرة كأكل الربا، أو فيه نفي إيمان مثل: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))[٢] أو فيه براءة منه مثل: ((من غشنا فليس منا))[٣] أو ما أشبه ذلك فهو من كبائر الذنوب.

واختلف العلماء في قوله ﷺ: "إذا اجتنبت الكبائر" هل معنى الحديث أن الصغائر تكفر إذا اجتنبت الكبائر، إنها لا تكفر إلا بشرطين وهما: الصلوات الخمس، و اجتناب الكبائر، أو أن معنى الحديث أنها كفارة لما بينهن إلا الكبائر لا تكفرها، وعلى هذا فيكون لتكفير السيئات الصغائر شرط واحد هو إقامة هذه الصلوات الخمس، أو الجمعة إلى الجمعة، أو رمضان إلى رمضان، وهذا هو المتبادر، والله أعلم، أن المعنى: أن الصلوات الخمس تكفر ما بينها إلا الكبائر فلا تكفرها، وكذلك الجمعة إلى الجمعة، وكذلك رمضان إلى رمضان، وذلك لأن الكبائر لا بد لها من توبة خاصة، فإذا لم يتب توبة خاصة، فإن الأعمال الصالحة لا تكفرها، بل

---

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، رجب الحنبلي ص ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٠١.

لابد من توبة خاصة[١].

وقد بيّن المولى تبارك وتعالى أهمية اجتناب المسلمين للكبائر فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٢].

قال ابن كثير: (أي: إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب، وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾)[٣].

وقال السعدي: (وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلاً كريمًا، كثير الخير وهو الجنة، المشتملة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبًا كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان، كما قال النبي ﷺ: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

وأحسن ما حُدَّت به الكبائر، أن الكبيرة ما فيه حدٌّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه)[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٣٧٢/١.

(٢) سورة النساء، آية: ٣١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٧١/٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٧٦.

الحديث رقم (١٣١)

١٣١- الْخَامسَ عشر: عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «ألا أدلُّكَم على ما يَمْحُو اللَّهُ بِا الْخَطايا، ويرْفَعُ بِهِ الدَّرجاتِ؟» قالوا: بلى يا رسُولَ اللَّهِ، قال: «إسباغ الْوُضوء على الْمَكَارِ وكَثْرةُ الْخُطَا إلَى الْمسَاجِدِ، وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بعْدِ الصَّلاةِ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

إسباغ الوضوء: أسبغ وضوءه: وفّى كلّ عضو حقه في الغسْل[2].

المكاره: جمع مَكْرَه وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه كشدة البرد وأل الجسم ونحو ذلك[3].

الرباط: الرباط في الأصل: الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها. أي أن المواظبة على الطهارة والصلاة والعبادة كالجهاد في سبيل الله ويكون الرباط مصدر رابطتُ: أي لازمتُ. وقيل: الرباط ههنا اسم لما يُربط به الشيء أي: يشد، ويعنى أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفه عن المحارم[4].

الشرح الأدبي

إن التوبة منهج إسلامي، وسلوك إيماني، فالمسلم يراجع نفسه، ويلومها على ما اقترفت من خطايا، وما أقدمت عليه من ذنوب، ولكن التوبة ليست قولاً لا يصحبه عمل، وإنما هى في واقع المسلم سلوك وأمل، وندم على ما فَرَّطَ في جنب الله تعالى،

---

(١) برقم (٢٥١/٤١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٤). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٣١)، و (١٠٦٠).

(٢) الوسيط في (س ب غ).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ك ر هـ)، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ب ط)، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٧.

وأَوْبةٌ إلى طريق الطاعة حتى منتهاه، وإقامة للصلاة، وإيتاء للزكاة، وصوم رمضان إيمانًا واحتسابًا وخشية لله تعالى، وأداء لكل أركان الإسلام أداءً يرضي عنه رب العالمين، ورسوله الذي اجتباه واصطفاه.

ومحو الخطايا، ورفع الدرجات، ليس بالتأوهات والكلمات، ولكن المصطفى ﷺ يضع أمام كل مسلم. هذه المنارات التي يستضئ بها المؤمن.. ومنها الصلاة، فهى كما جاء في حديث آخر نور ينتشر في أرجاء حياة المؤمن، وفي أقطار نفسه، وآفاق قلبه وفكره، "والصلاة نور والصدقة برهان، والصبر ضياء".

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف.

وأول ظاهرة أسلوبية: هى ظاهرة الحوار: حيث يتوجه النبي ﷺ إلى أصحابه مبشرًا بالمغفرة، ومحو الخطايا ورفع الدرجات، ويبدأ الحوار باستفتاح مُشوِّق ومُرغِّب، واستفهام يحث على الاستجابة وعلى المزيد من الفائدة، ومع الاستفتاح المبشر، والاستفهام المرغب، يتوهج الخطاب الجمعي، لأنه للأمة كلها، في كل زمان وكل مكان، واختيار الفعل "أدلكم"، ينبئ عن وجود المدلول، مع وجود الدال، وكذلك الدليل، وفي ذلك إيحاء بالتيسير، وحرص المصطفى ﷺ على محو الخطايا ورفع الدرجات، وقَدَّمَ محو الخطايا، لأنه هو الطريق إلى رفع الدرجات، والفعل "يمحو": يحتمل معنيين أو يوحي بدلالتين: وهما: إما أن يكون محو الخطايا: من ديوان الحفظة، كما قال بعض العلماء، أو أن يمحو بمعنى، يغفر، والدرجات: كلمة يَتَّسع معناها، وتعظم دلالتها، وهى تنبئ عن كرم الله سبحانه وتعالى للعبد الذي التزم بطاعة ربه، فالله يجعله في الدرجات العلى من الجنة، ويرزقه في الدنيا وضاءة الإيمان وهيبة الطاعة، ومحبة عباده المؤمنين، ولنتأمل تلهف الصحابة إلى معرفة الإجابة، وإدراك الدليل، حيث قالوا: بلى يارسول الله، والمراد: دلنا على ذلك يارسول الله، "وبلى" تأتي إجابة للاستفهام الذي تعقبه أداة نفى "ألا"، فهي لإيجاب النفي المذكور في السؤال.

والإجابة تَفْصِحُ عن ثلاثة منارات كلها تتوهج في طريق واحد: هو: إقامة الصلاة، ويبدأ المصطفى ﷺ بالوضوء، ثم الذهاب إلى المسجد، ثم أداء الصلاة... وانتظار

الصلاة التي بعدها.

ولم يأت الأسلوب مباشرًا أو آمرًا أو إحصائيًا، ولكنه جاء مرغبًا وواعدًا بالمزيد، وشارحًا كيفية الأداء المصحوب بالنية الخالصة، فقوله: "إسباغ الوضوء على المكاره"، ينبئ عن ضرورة استيعاب كل أعضاء الوضوء بالغسل والمسح واستيفاء آدابه ومكملاتها، وتحمل المشاق في سبيل ذلك، ولا يترك الوضوء الكامل لأدنى ملابسة وأقل عذر، وقوله "على المكاره"، يفصح عن ذلك تمام الإفصاح، وتأمل هذه الموجبات الكثيرة، والمعاني الغزيرة، التي أوحى بها اختيار لفظ إسباغ الوضوء، إنها تتضمن فرائض الوضوء، وسننه وآدابه، وذلك أسرار البيان النبوي البليغ.

ولفظ "إسباغ"، يرشد إلى الماء، الذي يتطهر به الإنسان، وهو عنصر أساسي في الطهارة لا يقوم عنصر آخر مقامه، فبه يطهر المؤمن من الحدث الأصغر، والحدث الأكبر، والماء طهور لا ينجسه شيء كما ورد في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، وقال ابن حجر إسناده حسن، وفي حديث آخر يقول: ((إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث))[١]، وفي رواية: لم ينجسه شيء[٢].

وخصوصية التطهر بالماء من أسرار البيان النبوي، والإعجاز العلمي في السنة النبوية الشريفة، حيث يقول العلماء المحدثون، يتصف الماء بالطهورية، أى جمعه بين الطهارة والتطهر، لأنه أى الماء الجاري، غير صالح لنمو العوامل المرضية، وتكاثرها فيه، وهو عامل مهم في تلفها وإبادتها، وتخليص الناس منها بعد فترة وجيزة من الزمن، وذلك بآليات متعددة، ووظائف حددها العلم الحديث ومنها:

إنه لا يحوي العناصر الغذائية اللازمة لنمو العوامل المرضية، ومن ثَمَّ يحد من نشاطها، ويسبب ضمورها وموتها.

إن درجة حرارة الماء لا تناسب عادة ما تريده هذه العوامل وتتطلبه من أجل نموها،

---

(١) أخرجه أبو داود ٦٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود، ٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٥٨).

فهي تفضل حرارة تعادل حرارة الجسم أو ما يقاربها، وهي = ٣٧° درجة مئوية.[١]

والمنارة الثانية، في طريق المغفرة ورفع الدرجات.. تجيء بعد إسباغ الوضوء: وتتمثل في حركة المؤمن والسعي إلى الصلاة، دائمًا في كل يوم، ولذلك جاء التعبير النبوي موحيًا بذلك حيث قال: "وكثرة الخطا إلى المساجد"، وفي أحاديث كثيرة تفصيل لذلك، وتوضيح هذا الأمر، وجلاء له.

والمنارة الثالثة، في طريق النجاة والمغفرة ورفع الدرجات: هي: الصلاة... وهي ثمرة الوضوء، وكثرة الخطا، وما أعظم فوائد هذه الثمرة، وما أجلَّ مقاصدها، وتأمل البلاغة النبوية الكامنة في قلب ذلك التعبير السهل الممتنع، "وانتظار الصلاة بعد الصلاة"، فهل يصلي الإنسان الفريضة ثم ينقطع عن عالم الصلاة وجَوِّها الروحي التأملي؟؟ أم يظل كما قال المصطفى ﷺ قلبه معلقًا في المساجد ؟ إن الواقع الإيماني والسلوك الإسلامي يستجيب لما أمر له رسول الله ﷺ أمرًا ضمنيًا، حيث يظل قلب الإنسان متعلقًا بالصلاة، ومنشغلاً بها، وهو في المسجد إذا كان لديه الوقت الكافي، أو كان في بيته أو في السوق، أو في أي مكان آخر، إنه لا ينقطع عن الصلاة، والاستعداد لها، والعمل بما تتطلبه من التزام بالطاعات، وانتظار للوقت اللاحق، أيا كان صباحًا أو مساءً.

ولنتأمل قول رسول الله ﷺ: فذلكم الرباط... والخطاب هنا للصحابة، ولكل الأمة الإسلامية، ولم يقل فذلك الرباط، لأن المخاطب هنا، وهو مجموع الأمة: هو المقصود: لأن الحديث بدأ بخطاب جميع أفراد الأمة كلها "ألا أدلكم" واسم الإشارة: يحدد المقصود وهو القيام بتنفيذ ما سبق التنبيه إليه والتدليل عليه، وكلمة "الرباط"، تعلن وتفصح عن المجاهدة في هذا الطريق، لأن الرباط هو: ملازمة الثغور لحماية ديار الإسلام من هجمات الأعداء، وقال العلماء: إن الالتزام بهذه الأمور الثلاثة هو الرباط الذي عناه رسول الله ﷺ، لأنه: من أعظم القهر لأعدى عدو الإنسان وهي نفسه

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في كتاب: الإعجاز العلمي في السنة النبوي، د. صالح ابن أحمد رضا، ١/٤٧٤-٤٧٧.

الأمارة بالسوء، وقمع شهوتها، وقلع مكائد الشيطان من جميع أجزائها، فإن هذه الأعمال -المذكورة في الحديث- تسد طرق الشيطان والهوى عن النفس وتقهرها، وتمنعها من قبول الوساوس والشهوات فكانت هي الرباط الحقيقي وهو الجهاد[١].

والمعاني السابقة كلها من موحيات الأسلوب النبوي، البليغ الفريد، المشع بالمعاني المتعددة والتي نستوحيها من قوله ﷺ: "فذلكم الرباط".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم إسباغ الوضوء، وقد اتفق الفقهاء[٢] على أنه إن أريد بالإسباغ تعميم الأعضاء الواجب غسلها فهو واجب، وإن أريد به الزيادة والتوفية فهو مندوب.

الثاني: حكم صلاة الجماعة، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (١٠).

الثالث: كثرة الخطا إلى المساجد، وقد ذكر الفقهاء[٣] أن من الأعمال المستحبة التي يحصل بها للمكلف فضيلة كثرة الخطا إلى المساجد، وكثرة الخطا يكون ببعد الدار عن المسجد ويكون بكثرة التكرار عليه.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣١٦/١.

(٢) شرح فتح القدير ٢٦/١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٤/١، وشرح الخرشي ١٣١/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢٦٠/١، وحاشية الجمل على شرح المنهج ١٣٠/١، وحاشية البيجرمي ١٤٧/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٤١/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٥٦/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥١/١، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٦٦/١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ١٨٥/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٤٣/٣، ١٤٤/٤ وما بعدها.

(٣) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٥/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٩٠/٤، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ٢٢٥/٢.

الرابع: حكم انتظار الصلاة بعد الصلاة، وقد ذكر الفقهاء[١] أن من الأعمال المستحبة للمكلف انتظار الصلاة في المسجد بعد الصلاة كما في الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ويطلق على الجلوس في المسجد انتظارًا للصلاة اسم الرباط أخذًا من هذا الحديث[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التشويق.

ثانيًا: من واجبات الداعية: إرشاد الناس إلى الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على إحسان الوضوء.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل كثرة الخُطا إلى المساجد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على الصلاة لوقتها.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل مجاهدة النفس.

سابعًا: من وسائل الدعوة: التعليم.

أولاً- من أساليب الدعوة: التشويق:

أسلوب التشويق من الأساليب الدعوية المفيدة التي تدل على قدرة الداعية على جذب انتباه المدعوين. ويظهر أسلوب التشويق في هذا الحديث عندما بدأ النبي ﷺ قوله (بألا...) وهي للتنبيه حيث لفت انتباه المدعوين ثم قال ﷺ (على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات) فشوّق ﷺ إلى سماع حديثه وكذلك رغبهم في إتيان هذا العمل الذي سوف يذكره، وهذا يدل على إجادة استخدام الألفاظ في التشويق، وكذلك براعة الاستهلال فتكون هذه الكلمات القليلة مشتملة على عدة أساليب من

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٨٥/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٩٠/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٣٦٥/٢، والفروع، ابن مفلح ١٣٤/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٩/٢.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٧٦/٢٢.

أساليب الدعوة فاشتملت على أسلوب (لفت الانتباه وأسلوب التشويق وأسلوب الترغيب) وهذا يدل على بلاغة الرسول ﷺ وقوة بيانه وإجادة توظيفه للكلمات وهذا ما ينبغي أن يتعلمه الداعية ويعمل به، مقتديًا في ذلك برسول الله ﷺ.

ثانيًا: من واجبات الداعية: إرشاد الناس إلى الخير:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات"... إلخ الحديث.

إن من واجبات الداعية إرشاد الناس إلى الخير، لأن دعوته إذا لم تتضمن الخير للمدعوين لا تكون في مصلحتهم، ومن هنا ينفر منها الناس ويعتبرونها خصمًا لهم فيقفون لها بالمرصاد، ويحرضون على خصومتها ويحضون على محاربتها[1].

وإرشاد المدعوين إلى الخير هو شأن الرسل عليهم السلام وشأن الدعاة إلى الله. قال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢﴾[2] ودعاء الصالحين دائمًا أن يكونوا أئمة في الخير قال تعالى عنهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾[3] أي: أئمة يقتدون في الخير بنا[4].

ويظهر إرشاد المدعوين إلى الخير في الحديث في دعوته ﷺ لأمته إلى ما يمحو خطاياهم ويرفع درجاتهم.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على إحسان الوضوء:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا... إسباغ الوضوء على المكاره" قال القرطبي: (قوله: "إسباغ الوضوء على المكاره" أي: تكميله

---

(١) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ٢٤١.

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٧٤.

(٤) تفسير البغوي، ٩٩/٦.

وإيعابه مع شدة البرد وألم الجسم ونحوه)[١]. وقال ابن عثيمين: (إسباغ الوضوء على المكاره، يعني إتمام الوضوء في أيام الشتاء، لأن أيام الشتاء يكون الماء فيها باردًا، وإتمام الوضوء يعني إسباغه فيحصل بذلك مشقة على النفس، فإذا أسبغ الإنسان وضوءه مع هذه المشقة، دل ذلك على كمال الإيمان فيرفع الله بذلك درجات العبد، ويحط عنه خطيئة)[٢].

وقد ورد حث رسول الله ﷺ على إحسان الوضوء وبيّن فضل ذلك فقال: ((لاَ يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ. فَيُصَلِّي صَلاَةً. إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلاَةِ الَّتِي تَلِيهَا))[٣].

وقال أيضًا ﷺ: ((مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ. فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا. إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ. مَا لَمْ تُؤْتَ كَبِيرَةٌ. وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ))[٤].

فالحث على إحسان الوضوء وإسباغه أمر ضروري للمسلم حتى يحصل له الثواب والفضل الذي وعد به النبي ﷺ.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل كثرة الخُطا إلى المساجد:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "وكثرة الخُطا إلى المساجد...".

قال القاضي عياض: (كثرة الخطا تكون ببُعْد الدار وكثرة التكرار)[٥].

وقال ابن عثيمين: (كثرة الخطا إلى المساجد، يعني أن يقصد الإنسان المساجد، وذلك في الصلوات الخمس، ولو بَعُد المسجد، فإنه كلمَّا بَعُد المسجد عن البيت ازدادت حسنات الإنسان، فإن الإنسان إذا توضأ في بيته، ثم خرج منه إلى المسجد لا يخرجه إلا

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٥٠٧/١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٣٧٢/١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٨.

(٥) إكمال المعلم ٢٧٠.

الصلاة، لم يخط خطوة واحدة إلا رفع الله له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة)[١].

فقد جعل الله سبحانه المساجد بيوته وأنعم على عباده بأن جعل المشي إليها سببًا في محو الخطايا ورفع الدرجات، قال تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾[٢] أي: خطاهم إلى المساجد[٣].

وقال رسول الله ﷺ ((إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلاَةِ أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشىً، فَأَبْعَدُهُمْ))[٤] وبين ﷺ أن الخُطا إلى المساجد ترفع الدرجات وتمحو الخطايا فقال: ((...إذا تَوضَّأَ فأَحسَنَ الوُضوءَ، ثمَّ خرَجَ إلى المسجدِ لا يُخرِجهُ إلاّ الصلاةُ، لم يَخْطُ خُطوة إلا رُفِعَتْ له بها درجةٌ وَحُطَّ عنه بها خَطيئةٌ...))[٥].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على الصلاة لوقتها:

لاشك أن المحافظة على الصلاة لوقتها تدل على مدى التزام المسلم وحرصه على مرضاة الله تعالى، ورغبته في حصول المثوبة والفضل، وقد حثّ النبي ﷺ على أهمية ذلك فقال في الحديث: "وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط".

قال ابن علان: ("وانتظار الصلاة" أي: وقتها أو جماعتها. "بعد الصلاة" منفردًا أو في جماعة، وذلك بأن يجلس في المسجد، أو في بيته، أو سوقه، أو شغله لانتظارها، وذلك لتعلق فكره وقلبه بها، فهو دائم الحضور والمراقبة غير ملْتَهٍ عن أفضل العبادات البدنية بشيء)[٦].

وقد مدح الله تعالى الذين يحافظون على الصلاة فقال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ الآيات ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾[٧] أي يواظبون عليها في

(١) شرح رياض الصالحين ٢٧٣/١.

(٢) سورة يس، آية: ١٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٦٦/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥١، ومسلم ٦٦٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٤٧، ومسلم ٣٦٢.

(٦) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٧٠.

(٧) سورة المؤمنون، الآيتان: ١، ٩.

مواقيتها[١].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله، أيّ العمل أحب إلى الله؟ قال: ((الصلاةُ عَلَى وَقتِها))[٢].

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول ((خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ الله عَزَّوَجَلَّ، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلاَّهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ، كَانَ لَهُ عَلَى الله عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى الله عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ))[٣].

فالمحافظة على الصلاة في وقتها من أسباب مغفرة الله تعالى لذنوب العبد، وهي من أحب الأعمال إلى الله فينبغي للمسلم أن يحافظ على الصلاة في وقتها.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل مجاهدة النفس:

يستنبط ذلك من قوله ﷺ "فذلكم الرباط" قال شبير العثماني: (في قوله: "فذلكم الرباط" إلخ بكسر الراء، يقال رابطت أي: لازمت الثغر، وهو أيضًا لما يربط به، وسمي مكان المرابطة رباطًا. قال القاضي: إن هذه الأعمال هي المرابطة الحقيقية، لأنها تسدّ طرق الشيطان على النفس، وتقهر الهوى، وتمنعها من قبول الوساوس، فيغلب بها حزب الله جنود الشيطان، وذلك هو الجهاد الأكبر، وذلكم إشارة إلى أن ما ذكر من الطاعات والخصال المذكورة هو الرباط المذكور في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٤] والرباط الجهاد أي: ثواب هذه كثواب الجهاد، إذ فيه مجاهدة النفس بإذاقتها المكاره والشدائد، كما في الجهاد)[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٦٣/٥.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٧٠، ومسلم ٨٥.

(٣) أخرجه أبو داود ١٤٢٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٢٥٨).

(٤) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٥) موسوعة فتح الملهم ٤٩١/٢.

إن مجاهدة النفس وإخضاعها لطاعة الله وبعدها عن هواها وصدها لوساوس الشيطان وتعويدها الصبر عند الشدائد أمر مطلوب، وله أثر عظيم على المسلم قال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل[١]. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٢].

ولنا في رسل الله المثل الأعلى والقدوة الحسنة في مجاهدة النفس، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣]. وهذا نبينا محمد ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولم يركن إلى نفسه، فكان كما أخبرت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان إذا صلى، قام حتى تفطر رجلاه فقالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ((يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟))[٤].

سابعًا- من وسائل الدعوة: التعليم:

إن وسيلة التعليم من الوسائل المهمة في مجال الدعوة إلى الله تعالى بالنسبة للداعية والمدعو أيضًا، لأنه من خلال التعليم يستطيع الداعية بيان الأمور للمدعوين، ويستطيع المدعو أيضًا أن يستوعب ويفهم ما خفي عليه من أمور الدين أو ما جهله، وتتضح أهمية هذه الوسيلة في الحديث الذي معنا من خلال قيام تعليم النبي ﷺ أصحابه فضل إسباغ الوضوء، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة والمحافظة عليها وكذلك فضل مجاهدة النفس، وبيان أن ذلك يمحو خطاياهم ويرفع درجاتهم.

وهذا كان دأب النبي ﷺ دائمًا مع أصحابه، حيث إنه كان حريصًا على

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٤٥.

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٣) سورة يوسف، آية: ٢٣.

(٤) أخرجه البخاري ٤٨٣٧، ومسلم ٢٨٢٠ واللفظ له.

تعليمهم أمور دينهم، ويدل على ذلك ما رواه أبو رفاعة تميم بن أسيد رضي الله عنه قال: ((انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، فأقبل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك خطبته حتى انتهى إلي فأتى بكرسي فقعد عليه وجعل يعلمني مما علمه الله ثم أتى خطبته فأتمها))[١].

فلولا أن تعليم الناس أمور الإسلام أمر ضروري ولا يحتمل التأخير لما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبته ونزل لتعليم السائل.

فعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس أحكام الإسلام، ويعرفونهم بحدود الله وبيان تفاصيل الدين[٢].

---

(١) أخرجه مسلم ٨٧٦.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٤٣.

الحديث رقم (١٣٢)

١٣٢- السَّادسَ عشرَ: عن أَبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «منْ صلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجنَّةَ» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

«البرْدَانِ»: الصُّبْحُ والْعَصْرُ[٢].

الشرح الأدبي

إن من أفضل الأعمال: الصلاة لوقتها، وهذه الأفضلية مردودها وخيرها يعود بالنفع على المسلم في جميع أوقاته، صباحًا ومساءً، فالصلاة صلة بين العبد وربه، وهذه الصلة فيها أقوال، وأفعال، وقراءة وركوع وسجود، ومناجاة صادقة في كل حركة من أركان الصلاة القولية والعملية.

ونقتبس من هذا الحديث الموجز قبسات من الوعود النبوية الصادقة، وأشعة من فيوضات الجزاء الأوفى، والنعيم الأكبر في جنة أعدت للمتقين، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾[٣].

والحديث يتكون من جملة لغوية واحدة، وهى جملة شرطية، تتكون من خمسة ألفاظ، وفعل الشرط، "صلى البردين"، الجواب: "دخل الجنة"، والصلاة هنا ليست مطلقة ولكنها مقيدة بزمنين: ينشغل الناس فيهما، ويصيبها الكسل أحيانًا: وهما:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥/٢١٥) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٦٤١). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٤٨).

(٢) رياض الصالحين ١٠٢، ٤٠٠.

(٣) سورة الزمر، آية: ٧٣.

وقت الصبح ووقت العصر.

وبراعة الأسلوب النبوي تتجلى في إطلاق هذا المسمّى على هذين الوقتين: ولكن ما العلاقة بين هذه الصفة، وبين طبيعة هذين الوقتين، قيل: هذان الوقتان سميا بردين لأنهما يصليان في بَرْدى النهار وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب شدة الحر.

وربما يرجع السرّ في تفضيل هذين الوقتين إلى أنهما تتلاقى فيهما الملائكة، ويشهدون المصلين، ويشهدون لهم عند ربهم؛ كما جاء في الحديث الشريف الذي يرويه ((أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون))[1].

والحكمة في اختيار هَذَيْن الوقتين أن العبد إذا حافظ عليهما، وأحدُهما في وقت شغله وهو العصر، والصلاة الأخرى في وقت يغلب فيه النوم كان أهلاً لأن يفاخر به أمام الملائكة، ولأنه يكون على غيرهما أشد محافظة، ولذلك تشهد لهم الملائكة بالمحافظة على الصلاة لوقتها وخاصة في البردين. فتقول الملائكة حينما يسألهم الحق سبحانه وتعالى وهو أعلم بهم، "كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون".

والتفسير اللغوي للحديث يفتح دلالة أخرى لها صلة بكيفية الصلاة وعدد فروضها في بعض مراحل التشريع حيث يرى بعض العلماء أن "من" اسم موصول وليست شرطية، والمراد: أن من صلى الفرضين في هذين الوقتين دخل الجنة؛ لأن الصلاة كما يقول العلماء: فرضت أولاً ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، ويروى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٥٥، ومسلم ٦٣٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٠، ومسلم ٦٨٥.

ويرى بعض العلماء أن المراد بالبردين، الصبح والعشاء، لأنهما يكونان في طقس معتدل، وهواء بارد بمعزل عن شدة الحرارة، وفي وقت العشاء يكثر النعاس فيثقل البدن بواسطته مع الامتلاء بالعشاء فتشق الصلاة، فمن صلاها مع ذلك استحق دخول الجنة، وكذلك صلاة الفجر تكون عند النوم ولذته والاستغراق فيه، فمن قاوم ذلك الكسل، وانتصر على الشيطان الذي قال له عند النوم، عليك ليل طويل فارقد، وذكر الله تعالى، وتوضأ وصلى دخل الجنة، وأصبح نشيطًا طيب النفس، والبشارة النبوية نلمح تحققها في التعبير بصيغة الماضي عن المستقبل مما يدل على التحقق، لأن الله تعالى وعد بذلك وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، فدخول الجنة متحقق -إن شاء الله- بعونه وفضله وإرادته.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى وقتين من أوقات الصلاة وهما صلاة الصبح وصلاة العصر كما ذكر الفقهاء[1] وبردا النهار هما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب فورة الحر وشدته، ولأداء هذين الفرضين في وقتهما عظيم الأجر عند الله تعالى.

ولا خلاف بين الفقهاء[2] على أن صلاة الصبح يبدأ وقتها عند طلوع الفجر الصادق وآخره عند جمهور الفقهاء طلوع الشمس، أما صلاة العصر فيبدأ وقتها عند جمهور

---

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٢٩/٣، ٢٠٧/٤، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٨٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٩٨/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٢٠٥/٢، المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٢٩/١.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٨٩/١ وما بعدها، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٧٩/١ وما بعدها، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المصري ١٦٤/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٨١/١ وما بعدها، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١١٥/١ وما بعدها، وتحفة المحتاج ٤١٧/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١٤٢/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٤٩/١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧١/٧ وما بعدها.

الفقهاء من حين الزيادة على المثل، وعند أبي حنيفة من عند الزيادة على المثلين، وذهب أكثر المالكية إلى تداخل وقتي الظهر والعصر، فلو أن شخصًا صلى الظهر عند صيرورة ظل كل شيء مثله، وآخر صلى العصر في هذا الوقت، كانت صلاتهما أداء، وخالف في ذلك ابن حبيب وابن العربي.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل صلاتي الفجر والعصر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان الأفضل من الأعمال.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل صلاتي الفجر والعصر:

إن مما يظهر من هذا الحديث فضل صلاتي الفجر والعصر، وذلك في قوله ﷺ: "من صلى البردين دخل الجنة"، قال ابن حجر: (قوله: "من صلى البردين" بفتح الموحدة وسكون الراء تثنية بَرْد، والمراد: صلاة الفجر والعصر. وقال الخطابي: سميتا بردين لأنهما تصليان في بردي النهار وهما طرفاه حين يطيب الهواء تذهب فورة الحر)[1]. وقال ابن علان: (ووجه تخصيصهما بالذكر أن وقت الصبح يكون عند النوم ولذته، ووقت العصر يكون عند الانشغال بتتمات أعمال النهار وتجارته وتهيئة العشاء، ففي صلاته لهما لم يمنع ذلك من إتيانه بجميع الصلاة الأخرى، وإنه إذا حافظ عليها كان أشد محافظة على غيرهما، فالاقتصار عليها لما ذكر، لا لإفادة أن من اقتصر عليهما بأن أتى بهما دون باقي الخمس يحصل له ذلك، لأنه خلاف النصوص)[2]. ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: ((لَنْ يَلْجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٣٧/١.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٧١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

غُرُوبهَا))[١]، يعني الفجر والعصر. "أي: لن يدخل النار من عاهد وحافظ على هاتين الصلاتين ببركة المداومة عليهما"[٢].

وعن جرير قال: "كنا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة - ليلة البدر - فقال: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هذَا الْقَمَرَ. لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ. فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْل غُرُوبِهَا)) ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[٣]، وقبل طلوع الشمس، أي: صلاة الفجر، وقبل غروبها، أي: صلاة العصر[٤]. وخص هذين الوقتين لاجتماع الملائكة فيهما ورفعهم أعمال العباد ولئلا يفوتهم هذا الفضل العظيم[٥].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

من أساليب الدعوة المهمة: الترغيب، ويظهر أسلوب الترغيب في هذا الحديث في الترغيب في صلاتي الفجر والعصر، ببيان أن ذلك يدخل من حافظ عليها الجنة، فينبغي للداعية أن يفيد من هذا الأسلوب في دعوته، لأنه يعمل على ترغيب المدعو في تحصيل الثواب والفضل ومسارعته إلى فعل الطاعات؛ (لأن الأصل في الترغيب أن يكون بنيل رضى الله ورحمته، وجزيل ثوابه في الآخرة، وهذا نهج الرسل الكرام كما بينه القرآن وجاءت به السنة النبوية المطهرة)[٦].

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان الأفضل من الأعمال:

إن من واجبات الداعية في الدعوة إلى الله بيان الأفضل من الأعمال، وهذا ما كان

---

(١) أخرجه مسلم ٦٣٤.

(٢) المفهم، القرطبي ٢/٢٦٢.

(٣) سورة طه، آية: ١٣٠.

(٤) أخرجه البخاري ٥٥٤، ومسلم ٦٣٣.

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٤١.

(٦) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ١٦٠.

يعلمه رسول الله ﷺ لأمته، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: ((فإذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ فإنهُ أوْسَطُ الجنة وأعلى الجنة وفوقَهُ عرشُ الرحمنِ - ومنهُ تَفَجَّر أنهارُ الجنة))[1]، فإن أنواع الجنة كلها سعادة ونعيم ولكن رسول الله ﷺ بين الأفضل لأمته وحثهم على طلبه، وقد بين الأفضل من الصلوات في هذا الحديث (صلاتي الفجر والعصر)، وعلة التفضيل تعاقب الملائكة، قال رسول الله ﷺ: ((يَتعاقَبونَ فِيكمْ مَلائِكَةٌ بالليلِ ومَلائِكةٌ بالنَّهَارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ الفَجرِ وصلاةِ العصر، ثمَّ يَعرُجُ الذينَ باتوا فِيكمْ، فيَسْألُهُمْ -وهوَ أعلمُ بهم-: كيفَ تَركتُمْ عِبادي؟ فيَقولونَ: تَركْنَاهمْ وهم يُصلُّونَ، وأَتيناهُمْ وهم يُصلُّون))[2].

فالصلاة كلها خير وعظيمة الأجر، ولكن الأفضل منها ما ذكر. فعلى الداعية إلى الله أن يبين الأفضل من الأعمال ويحث المدعوين على القيام به، وهذا لا يمنع الإتيان بالمفضول أيضًا، لأن الإتيان به لا بديل عنه، فإذا كانت الدعوة في هذا الحديث بإتيان صلاتي الفجر والعصر والمحافظة عليهما، فهذا لا يمنع من الدعوة إلى باقي الصلوات والمحافظة عليها، لأن الصلاة لا تسقط عن المسلم المكلف بحال من الأحوال، ولكن المراد بيان فضل هذين الوقتين.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٩٠، ٧٤٢٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥٥٥، ٣٢٢٣، ٧٤٢٩، ٧٤٨٦، ومسلم ٦٣٢.

الحديث رقم (١٣٣)

١٣٣- **السَّابِعَ عشَرَ:** عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إِذَا مرِضَ الْعبْدُ أَوْ سافَر كُتِب لَهُ مِثْلُ ما كانَ يعْملُ مُقِيمًا صحيحًا**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

إن ميزان صحة العمل يقاس بالنية الصالحة، والعمل الذي لا تصحبه نية وإرادة لا قيمة له في المنهج الإسلامي: لأن النية في اللغة نوع من القصد والإرادة، وفي اصطلاح العلماء تأخذ دلالة النية ظلالاً من الدلالة اللغوية، ولكن القصد يرتبط بالله عز وجل: فالنية الخالصة معناها، تميز المقصود بالعمل: وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره؟.

وهذا الحديث الشريف يوضح الكرم الإلهي، والثواب الرباني لكل عبد أخلص نيته، وقام بالعمل الصالح عملاً بقول الله عز وجل: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[2].

وما أعظم فضل الله تعالى، وما أكرمه وهو يفتح طرق الخير أمام الصالحين الأبرار الأخيار، وهذا الفضل الإلهي يقدمه رسول الله ﷺ تقديمًا فيه ترغيب، وفيه حَفْزٌ لأصحاب الهمم وإن كانوا من ذوي الحاجات، أو كانوا من الذين يكابدون عناء السفر، وقد صيغ هذا الحديثُ في قالب الشرط والجواب، دلالة على تحقق الثواب ومضاعفته؛ حيث يعرض المصطفى ﷺ حالتين يمر بهما بعض المؤمنين، إحداهما: حالة المرض، والأخرى حالة السفر، وفي الحديث إيجاز.. لأن حالة المرض تستدعي عدم

---

(١) برقم (٢٩٩٦). أورده المنذري في ترغيبه (٥٠١٣).

(٢) سورة العصر: ١-٣.

القيام بالعبادة على الوجه الأمثل، فالمرض: هو حالة من العجز عن أداء العبادات على الوجه الأكمل، فكم من مريض يشتاق إلى الذهاب للمسجد، ولكن لا يستطيع، وكم من مريض يتمنى أن يصوم رمضان، ويَنْعم بطاعة الله تعالى، وهو يؤدي هذه الفريضة التي تمثل سرًا بين العبد وربه، ولكن لا يقدر، وكم من مريض يتحرق شوقًا إلى شد الرحال إلى المسجد الحرام، للحج أو العمرة، وإلى شد الرحال للمسجد النبوي.

والمريض في كل هذه المواقف بنية خالصة لله تعالى وحده لا شريك له.

وكذلك العبد المسافر سفرًا يبتعد به عن أداء الصلوات مع الجماعة في المسجد، ويمنعه أحيانًا من أداء الصوم على الوجه الأكمل، وقد شرع الإسلام لكل من أَلَمَّ به مرض، ولكل من أرهقه السفر، الرخص المشروعة مثل قصر الصلاة، والجمع بين الفروض، والإفطار في رمضان ثم القضاء بعد ذلك حسب آراء الفقهاء في هذه الحالات.

ولذلك يأتي، جواب الشرط، مطمئنًا كل مسلم يحول المرض بينه وبين أداء العبادات على الوجه الأكمل، وكل مسافر تحول ظروف السفر بينه وبين ممارسة العبادة وأدائها أداءً كاملاً مثل المقيم، وهذا الاطمئنان يأتي جازمًا حاسمًا في قوله ﷺ: "كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا"، والتعبير بلفظ "كتب" أي: كتب الله تعالى له، وهذا وعد صادق، وثواب حاسم مضاعف من الله عز وجل، ولم يقل: كتب له مثل المقيم، وإنما يكتب له مثل الأجر والبر الذي يكتب له وهو يعمل مقيمًا صحيحًا، وفي ذلك إشارة إلى أن العبد لابد أن يقوم بالأعمال الصالحة، وأداء العبادات على الوجه الأكمل وهو يتمتع بالصحة والقوة، ويتمتع بنعمة الاستقرار والإقامة.

ومنطوق الحديث يوضح الوجه الإيجابي للمسلم في حِلِّه وسفره، وفي صحته ومرضه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهذا المنطوق يشع بمفهوم يجب التنبه له وهو أن الذي لا يعمل صالحًا وهو مقيم صحيح، لا يستحق أي ثواب وهو مريض أو مسافر، لأنه لم يُقدِّمُ الخير، ولم يتعرف إلى الله تعالى في الرخاء، فلا يستحق أي ثواب أو جزاء من الكبير المتعال.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: رحمة الله ولطفه بعباده.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الحرص على الأعمال الصالحة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل النية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: رحمة الله ولطفه بعباده:

إن من الشواهد التي تؤكد رحمة الله بعباده في هذا الحديث قوله ﷺ: ((إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا)) قال ابن عثيمين: (يعني أن الإنسان إذ كان من عادته أن يعمل عملاً صالحًا، ثم مرض فلم يقدر عليه فإنه يكتب له الأجر كاملاً والحمد لله على نعمه)[١]؛ لأن الله عز وجل أرحم الراحمين بعباده، لطيف رحيم يضاعف لهم الحسنات ويمحو عنهم السيئات، ويثيب على نية الخير وإن لم يعمل، ولا يعاقب على نية الشر إلا إذا عمل، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى، قال: ((إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة))[٣].

وتظهر رحمة الله ولطفه بعباده في حق من كان يعمل طاعة فمنع منها بسبب مرض أو سفر بأن جعل له أجر الطاعة كأصلح ما كان يعمل وهو صحيح مقيم[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٣٧٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم ١٣١.

(٤) انظر فتح الباري، ابن حجر ٦/١٥٩.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

من أساليب الدعوة المهمة أسلوب الترغيب، ويظهر الترغيب في حثّ النبي ﷺ المسلمين على ثبات النية على طاعة الله عز وجل، حتى إذا عرض له عارض من مرض أو سفر يكون له ثواب الطاعة حالة القيام بها، وأسلوب الترغيب يرغّب المدعو في الإقبال على طاعة الله والمحافظة عليها، لينال ثواب ذلك دائمًا. فينبغي للداعية أن يحرص على ترغيب المدعوين في إخلاص النية في استمرار طاعة الله حتى يحصل لهم استمرار الثواب عليها.

ثالثًا- من واجبات المدعو: الحرص على الأعمال الصالحة:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، قال ابن عثيمين: (وفي هذا تنبيه على أنه ينبغي للعاقل ما دام في حال الصحة والفراغ أن يحرص على الأعمال الصالحة، حتى إذا عجز عنها لمرض أو شغل؛ كتبت له كاملة، فينبغي على المسلم أن يغتنم صحته، ويغتنم فراغه في العمل الصالح حتى إذا شُغل عنه بمرض أو غيره، كتب له كاملاً ولله الحمد، ولهذا قال النبي ﷺ: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ))[١] وقال ابن عمر: (وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[٢] فإن الإنسان ينبغي له في حال الصحة أن يغتنم الفرصة، حتى إذا مرض كتب له عمله في الصحة، وأن يحرص ما دام مقيمًا على كثرة الأعمال الصالحة، حتى إذا سافر كتب له ما كان يعمل في الإقامة)[٣]. لذا يجب على المدعو أن يكون حريصًا على الأعمال الصالحة. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٤] والأعمال الصالحة كثيرة من عبادات ومعاملات فإذا قام بها المدعو ملاحظًا الطاعة

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤١٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤١٦.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٣٧٤-٣٧٥.

(٤) سورة المائدة، آية: ٩.

لربه والانقياد لشرعه مبتغيًا بها وجه الله، كان من أصحاب الأعمال الصالحة[١].

وقد حث النبي ﷺ على الحرص على الأعمال الصالحة فقال: ((احرص على ما ينفعك))[٢].

وحرص المدعو على العمل الصالح يجعله يستمر في طاعة الله، ويجعل الله عز وجل يكثر من نعمه على عبده، فإذا تخلف عن العمل الصالح لعذر أنعم الله عليه بثواب هذا العمل كما كان يعمله في حالته الأولى، وهذا أدعى للمسلم أن يحرص على دوام العمل الصالح.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل النية:

وهذا ما يظهر من قوله ﷺ ((إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا)) فنيّة العبد أن يداوم على عمل الطاعة لولا المانع الذي منعه[٣] فيكون ثوابه مستمرًا استمرارًا لنيته على طاعة الله.

وقال ابن تيمية: (إن هذا الحديث دليل على أن يكتب له مثل الثواب الذي كان يكتب له في حال الصحة والإقامة، لأجل نيته له، وعجزه عنه بالعذر.

وهذه قاعدة الشريعة: أن من كان عازمًا على الفعل عزمًا جازمًا وفعل ما يقدر عليه منه، كان بمنزلة الفاعل. فهذا الذي كان له عمل في صحته وإقامته عزمه أن يفعله، وقد فعل في المرض والسفر ما أمكنه، فكان بمنزلة الفاعل كما جاء في السنن (من توضأ فأحسن وضوءه ثم راح -أي ذهب إلى المسجد- فوجد الناس قد صلوا، أعطاه الله عز وجل مثل أجر من صلاها، لا ينقص ذلك من أجرهم "أجورهم" شيئًا)[٤].

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٦٤.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥٩/٦.

(٤) أخرجه أبو داود ٥٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٥٢٨).

وكما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: ((إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم)) قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: ((وهم بالمدينة، حبسهم العذر))[١].

وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾[٢] فهذا ومثله يبين أن المعذور يكتب له مثل ثواب الصحيح، إذا كانت نيته أن يفعل، وقد عمل ما يقدر عليه[٣].

فالنية لها فضل عظيم على المسلم لحصول الثواب واستمراره، قال رسول الله ﷺ ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...))[٤] فنية العبد إذا كانت خير أثابه الله عليها وإن لم يعمل العمل الذي ينويه.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٤٢٣.

(٢) سورة النساء، آية: ٩٥.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٣/٢٣٦، ٢٣٧.

(٤) أخرجه البخاري ١، ٢٤٠١، ٢٥٢٩، ومسلم ١٩٠٧.

الحديث رقم (١٣٤)

١٣٤- **الثَّامنَ عشَرَ**: عـنْ جـابرٍ ﵁ قـال: قـال رسـولُ اللّـه ﷺ: «**كُـلُّ معـرُوفٍ صدقَةٌ**» رواه البخاري[1].

ورواه مسلم[2] مِن رواية حذَيفَةَ ﵁.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يتسم بالإيجاز مع الإقناع والإمتاع، وكل كلمة تموج بدلالات لها في النفس بريق وإشعاع، ولها في تقويم السلوك إرشادات وبراهين، وحجج وأدلة تأخذنا إلى حق اليقين.

وكان النبي ﷺ في بيانه كأنما تكاشفه اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا، وأَسَدَّهم لفظًا، وأبينهم عبارة، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب، ولو عرف لكانوا نقلوه وتحدثوا به واستفاض فيهم.

والحديث الذي نتأمل أسراره البيانية، ونقتبس أشعته الدلالية، يبدو واضحًا كالشمس في معناه، سهلاً كالماء العذب الجاري في مبناه "كل معروف صدقة" إنها ثلاث كلمات لا خفاء فيها، ولا غرابة تحجب معناها، ولا تعقيد في مبناها، ولكن: القيمة البيانية تكمن في هذه الإشعاعات التي تتوهج بها كلمة "معروف" فما دلالة هذه الكلمة، وما آفاقها وما معالمها، وما مظاهرها، وما آثار المعروف الاجتماعية، والنفسية؟

---

(١) برقم (٦٠٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٩٨، و ٢٩٢٥، و ٣٩٦٩) من حديث جابر من غير طريق البخاري.

(٢) برقم (١٠٠٥/٥٢).

والمعروف في دلالته العامة الشاملة هو: كل ما يفعل من أعمال البر والخير، وليس لذلك نهاية، لأن أعمال البر لا تتناهى، وهى تتجدد بتجدد الأزمان والشخصيات والمواقف، وحين نتأمل أبعاد الدلالة اللغوية لهذه الكلمة "معروف" نجد أن المعروف في اللغة ضد المنكر. وكل عمل مشروع وصالح، ونابع من الحس الإيماني، والتصور الإسلامي يُسمى معروفًا، وكأن العمل الصالح، لا يحتاج إلى تحديد لأنه معروف للجميع، والبر كما قال رسول الله ﷺ: ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، ففي الحديث عن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ قال: "البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب..."[١]، وفي رواية أخرى عند مسلم، "البر حسن الخلق"[٢].

فالمعروف وهو "البر" أفق فسيح من الإيمان يتضمن جميع الطاعات الباطنة كالإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، والطاعات الظاهرة كإنفاق الأموال فيما يحبه الله تعالى وإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الأقدار كالمرض والفقر، وعلى الطاعات كالصبر على لقاء العدو[٣].

والجذر اللغوي للمعروف هو مادة "عرف" وهى في بعض دلالاتها تعني الرائحة الطيبة، فالعرف: هو الشذا والرائحة الطيبة، والمعروف: في ظل هذه الدلالة: ينتشر أثره في الناس، وكأنه المسك الذي يُعطّر ألسنة الناس بالثناء على كل من يقدم على فعل الخير. والعُرْف هو الجود والكرم، وكل أعمال البر تتضمن الجود والكرم.

والعُرْف: اسم لموج البحر، وكأن هذه الدلالة اللغوية تضفى على المعروف شبها بينه وبين موج البحر، لأن في البحر غزارة وسعة وهو رمز للكرم والعطاء، وكذلك المعروف، لا تتناهى آثاره، ولا تطفأ أنواره، ولا تدرك أسراره، وأعظم سر يقودنا إلى التأمل والتفكر في الحديث الشريف الموجز أنه يجعل المعروف صدقة: قال: "كل معروف صدقة"، والصدقة في اللغة ما أعطيته في ذات الله تعالى، وهى في الحديث تعني الثواب والجزاء الحسن الذي يغمر صاحب العطاء، لأنه أحسن العمل وقَدَّم المعروف.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٩٤/٤، رقم ١٧٧٤٢، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ص ٢٧٩/٢٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٥٣.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٩٩/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والعموم والشمول.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: كثرة وتعدد أبواب الخير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عدم احتقار شيء من المعروف.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والعموم والشمول:

١- الإخبار: حيث أخبر النبي ﷺ أن كل عمل يستحسنه الشرع هو من قبيل الأعمال الصالحة المتقبلة، فأسلوب الإخبار فيه جلاء للحقائق وتحفيز للهمم، وتذكير لمن نسي، وتنبيه للغافل.

٢- العموم والشمول: يتضح ذلك في كلمة: "كل" التي تفيد الشمول والإحاطة والعموم.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "كل معروف صدقة" حيث عبر رسول الله ﷺ باللفظ القليل عن المعنى الكثير، فالمعروف يشمل كل الطاعات والقربات التي يتقرب به العبد إلى الله تعالى، وهذا من خصائصه ﷺ التي اختصه الله بها، فإن مما اختص الله تعالى به نبيه ﷺ: جوامع الكلم، ومن شواهد ذلك ما ورد في صريح قوله ﷺ ((بعثت بجوامع الكلم...))(١) وجوامع الكلم (أن تقع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة)(٢) بمعنى (إيجاز الكلام في إشباعٍ من المعنى فالكلمة القليلة منها تتضمن كثيرًا من المعاني وأنواعًا من الكلام)(٣) فنجده ﷺ في كلمات معدودة ذكر جميع أنواع الخير وثوابها لذا ينبغي على الداعي مراعاة الإيجاز وعدم الإطناب في الكلام، حتى لا يشرد

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٧٧، ومسلم ٥٢٣.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٤٩/٦.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٤٣/١٠.

بأذهان المدعوين، فكثير الكلام ينسى بعضه بعضًا، وإنما الكلمة البسيطة ذات المعاني الجمة التي تجد طريقًا إلى القلب وثباتًا في الذهن.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: كثرة وتعدد أبواب الخير:

من فضل الله عز وجل أن عدَّد أبواب الخير حتى يتيسّر للمسلم تحصيل الثواب والتقرب إلى الله تعالى، فأبواب الخير لا تقتصر على ذوي اليسر وإنما يستوي فيها الغني والفقير، أي: يستطيع تحصيل ثوابها أهل اليسار ومن هم من مستوري الحال والفقراء، لذلك قال ﷺ: "كل معروف صدقة".

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: دل هذا الحديث على أن كل شيء يفعله المرء أو يقوله من الخير يكتب له به صدقة، وقال ابن أبي جمرة: يطلق اسم المعروف على ما عرف بأدلة الشرع أنه من أعمال البر سواء جرت به العادة أم لا، قال ابن حجر: وفي هذا الكلام إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس منه، فلا تختص بأهل اليسار مثلاً، بل كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال بلا مشقة)[1].

وبيّن النبي ﷺ في الحديث أن الثواب والخير لا يقتصر على ميسوري الحال وإنما يمتد ليشمل الجميع ويحوي كل عمل، فقال ﷺ: (كل معروف صدقة) أي: كل ما يُفعل من أعمال البر والخير كان ثوابه كثواب من تصدق بالمال[2].

وقال ابن عثيمين: (المعروف ما يتعارف الناس على حسنه، أو ما عرف في الشرع حسنه إن كان مما يتعبد به لله، فهو ما عرف في الشرع حسنه، وإن كان مما يتعامل به الناس؛ فهو مما تعارف الناس على حسنه، وفي هذا الحديث: "كل معروف" يشمل هذا وهذا، فكل عمل تتعبد به إلى الله فإنه صدقة، كما ورد في حديث ((كلُّ تسبيحة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تحميد صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونه يعن المنكر صدقة))[3].

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤٦٢/١٠.

(٢) المفهم، القرطبي ٤٨/٣.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

وأما ما يتعارف الناس على حسنه: فهو أيضًا ما يتعلق بالمعاملة بين الناس، فكل ما تعارف الناس على حسنه فهو معروف، مثل: الإحسان إلى الخلق بالمال، أو بالجاه، أو بغير ذلك من أنواع الإحسان. ومن ذلك: أن تلقى أخاك بوجه طلق لا بوجه عبوس، وأن تلين له القول، وأن تدخل عليه السرور[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: عدم احتقار شيء من المعروف:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "كل معروف صدقة" قال: شبير العثماني: وفيه أنه لا يحتقر شيئًا من المعروف، وأنه ينبغي أن لا يبخل به، بل ينبغي أن يحضره[٢]. إن مما ينبغي أن يكون واضحًا في ذهن المسلم عدم احتقار شيء من المعروف، لأن فضل الله واسع وكرمه على عباده كبير، فهو سبحانه الذي ينمّي الصدقات ويضاعف الحسنات ويُجزل المثوبة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣] وقال ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢٧٥/١.

(٢) موسوعة فتح الملهم، محمد تقي الدين العثماني ٩٤/٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٤٠.

(٤) سورة الزلزلة، الآيات: ٦-٨.

الحديث رقم (١٣٥)

١٣٥- **التَّاسع عشر:** عنهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما مِنْ مُسلِمٍ يَغرِسُ غَرسًا إلاَّ كانَ ما أُكِلَ مِنْهُ لهُ صدقةً**[1]**، وما سُرِقَ مِنه لَه صدقَةً، ولا يرزؤه أحَدٌ إلاَّ كَانَ له صدقةً**» رواه مسلم[2].

وفي رواية له[3]: «**فَلا يغرِس الْمُسْلِم غرسًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ إنسانٌ ولا دابةٌ ولا طَيرٌ، إلاَّ كانَ له صدقَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامة**».

وفي رواية له[4]: «**لا يغرِس مُسلِم غرْسًا، ولا يزْرعُ زرْعًا، فيأْكُل مِنه إنْسانٌ وَلا دابَّةٌ ولا شَيْءٌ إلاَّ كَانَتْ له صدقةً**».

ورويَاه جميعًا مِنْ رواية أَنَسٍ ﷺ[5].

قولُهُ: «**يرْزَؤُهُ**» أي: يَنْقُصهُ.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يرزؤه: أي ينقصه[6].

دابة: الدابة: كل ما يدب على الأرض وقد غلب على ما يركب من الحيوان[7].

---

(١) عند مسلم زيادة: (وما أكل السبع منه فهو له منه صدقة، وما أكلت الطيرُ فهو له صدقة)، وهذه الزيادة لا توجد عند المنذري في ترغيبه، فتبعه عليه المؤلف.

(٢) برقم (١٥٥٢/٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٢١).

(٣) برقم (١٥٥٢/١٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٢١).

(٤) برقم (١٥٥٢/٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٢١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣/١٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٢٢) وساق لفظه.

(٦) رياض الصالحين ١٠٢.

(٧) الوسيط ٢٦٨.

الشرح الأدبي

يتضوأ هذا الحديث النبوي بأبعاد التكافل الاجتماعي، ويتوهج بتحديد وترسيخ العلاقة بين الإنسان والطبيعة الحافلة بالكائنات التي خلقها الله لتيسير الحياة للإنسان على وجه الأرض من نبات وحيوان وطير... وكل ما خلقه وأودعه أسرارًا وعجائب لا تنتهي.

والحديث في مقصده الأسنى ينضح بالتفاعل الإيماني بين الإنسان والكائنات الأخرى، لأنها من خلق الله تعالى، وهذا التفاعل ليس طاقات من المشاعر مشحونة بالشجن أو الفرح أو غير ذلك، ولكنه تفاعل عملي، يشكله التصور الإيماني، والحس الإسلامي، والتنفيذ الواقعي، وهو عمارة الأرض وتشجيرها وزراعة الأشجار التي تصلح غذاء للإنسان والحيوان والطير، وكل ما يدب على وجه الأرض، وهذا الغرس النافع لا يظل قاصرًا على المنفعة الخاصة لغارسه بدافع التملك وغريزة التمسك بثمرة الجهد الذاتي.

ولكن الحديث يحث على أن كل ما أكل من هذا الغرس فهو صدقة يُثاب عليها صاحب هذا الزرع أضعافًا مضاعفة إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، وذلك في حالة ما إذا كان صاحب هذا الغراس مختارًا متطوعًا، وحتى في حالة عدم معرفته أو عدم رضاه حين يُسرق من هذا الزرع، وهو يحتسب ذلك عند الله تعالى، فإن المسروق يحسب صدقة، وعلى السارق إثم عمله، ولصاحب الزرع ثواب جزيل، إذا احتسب ذلك عند الله تعالى، والثواب مضاعف كذلك إذا تعرض الثمر للنقص بأى وسيلة على وجه التصدق أو الإكرام، أو بطريق الغصب أو غير ذلك، ويقابل صاحب هذا الثمر هذه المواقف بالرضا والاحتساب، فالجزاء مضاعف، والثواب جزيل.

وسر هذا التقدير الإلهي لصاحب العطاء الذي تتعدد صوره هو أن ذلك المسلم يدرك أن هذا الغرس وثماره ومنافعه ونتائجه من آيات الله عز وجل، وما أعظم هذه الآيات التي يرشدنا إليها الحق سبحانه في سورة يس حيث يقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ

أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وفي سورة الواقعة يرشدنا الحق عز وجل إلى حقيقة ساطعة، وهي أن ثمرة الغرس من فضل الله تعالى، وقدرته وحكمته، والمسلم الواعي والمدرك لأبعاد المنهج الإسلامي يتفهم هذا البعد الإيماني في تعامله مع آيات الله تعالى ونعمه التي لا تُحصى بقول الله عز وجل: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾[2].

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي والأدبي في هذا الحديث النبوي الشريف، وهو ينطوي على عدة ظواهر أسلوبية وفنية متعددة من خلال طريقة نظمه وتشكيل تراكيبه واختيار كلماته ومنها:

أ-يتكون الحديث الشريف من ثلاث جمل تتناسق في تركيبها -وفي طريقة صياغتها، ويكمن في هذا التناسق سر جمالها وتأثيرها: فالجملة الأولى صيغت في أسلوب القصر، وكذلك الجملة الثالثة: والقصر في الجملتين طريقه واحد وهو: النفى والاستثناء: ودلالة هذه الصيغة هو تأكيد الثواب الذي وعد به رسول الله ﷺ وكذلك تشجيع كل صاحب زرع على إعطاء كل محتاج، وعلى التسامح والعفو إذا وجد محصول زرْعه ناقصًا، والجملة الثانية لم تأت في هذه الصيغة البلاغية وهى: صيغة القصر. وعدل بها عن الشكل الأسلوبي فيما قبلها وما بعدها: لأن الفعل فيها مرفوض.. لأنه سرقه، وهو مسلك غير شرعي، والسارق يُقام عليه الحد، ولذلك لم يؤكد المصطفى ﷺ هذا السلوك ولم يجمله عن طريق القصر... وإنما أتى بالجملة

(١) سورة يس، الآيات: ٣٣-٣٦.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٦٣-٦٥.

مجردة حتى من الفاعل، "وما سُرق منه له صدقه"، فالفاعل مجهول لأنه مرفوض، وقد حذف احتقارًا له ورفضًا لمسلكه، وفي الوقت ذاته يقدّر صاحب هذا الغرس الذي آتي أكله طيبًا ويثاب، ويحسب له هذا المال المسروق صدقة فهل بعد هذا تكريم، وهل بعد ذلك تشجيع على البذل والعطاء: وما أصدق وما أجمل دعاء المصطفى ﷺ اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا..

ب- التعبير بالفعل الماضي، المبني للمجهول في قوله: "وما سرق منه" يوحي بأن هذا السلوك لن يتكرر، وبأنه حدث انتهى، وفاعله مجهول، وليس هذا من سمات المسلم، وتأمَّل ووازِن بين صيغة هذا الفعل الماضية المبنية للمجهول، وصيغة الفعلين في الجملتين: الأولى والثانية (يغرس) "ولا يرزؤه أحد". ستجد سرًا من أسرار البيان النبوي وهو أن الصياغة اللغوية تفصح عن المقاصد والتوجيهات النبوية، ففي الجملة الأولى الفعل، محبب، والسلوك جميل، ولذلك قال: "ما من مسلم يغرس غرسًا"، وتحديد لفظ المسلم له جماله وبهاؤه وأسراره، لأن العمل الصالح ينبع من العقيدة الصحيحة، وجاءت صياغة الفعل في قالب الفعل المضارع، إرشادًا إلى استمرار هذا الصنيع وتكاثره، وزيادة "مَنْ" للاستقصاء والتعميم، فهي زائدة ولكنها تتضمن ألف فائدة، وفي الجملة الثالثة: جاء التعبير بالفعل المضارع المنفي "لا يرزؤه"، دلالة على تكرر مثل هذا الموقف، ومنه ما هو محمود فقد يكون نقص المال عن طريق الإعانة أو المساعدة في العلاج أو نفقات البيت أو المساهمة في العُرس أو كفالة اليتيم، والقاعدة الشرعية تقول: "ما نقص مال من صدقة". والفاعل هنا عام وهو كلمة "أحد" ولم يقل من المسلمين، وذلك لأن هذا الرزء في المال قد يكون نتيجة سلوك غير إسلامي وهو غصب المال، أو إلحاق الضرر به من إحراق أو تلف أو فساد أو غير ذلك من وجوه الضرر، فتأمل أيها القارئ دقة التعبير النبوي، وعمق الإحساس بوظيفة الكلمة، واتساع آفاق الدلالة وموحياتها، وقد يكون المستفيد الذي نقص المال بسببه غير مسلم من أهل الذمة يعيش في كنف المسلمين.

ج- وتأمل السر الكامن في بناء الفعل "أُكِل" للمجهول، فإشاعات التعبير هنا غيرها في (سُرِق) فبناء الفعل للمجهول، في هذا السياق فيه إيحاء بعموم التصدق، وعدم

المن، ويمكن أن يكون الأكل الحلال بدون علم صاحب الغرس، وقد يكون الآكل إنسانًا محتاجا وليس سارقا أو يكون حيوانًا أو طيرًا أو أي كائن يتضور من الجوع أو العطش، وقد ورد في الروايات الأخرى ما يشير إلى ذلك، "لا يغرس أحدٌ من المسلمين غرسًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير"[١].... الحديث.

د- التكرار في الحديث: وهو من أسرار البيان النبوي، فهو ليس إطنابًا، وليس ألفاظا زائدة، ولكن له وظيفته البلاغية، والدلالية: ولنتأمل تكرار كلمة: "صدقة" ثلاث مرات: وتأتي في ختام كل جملة، وذلك لترغيب كل مسلم في خلق العطاء، والتسامح وإعانة المحتاجين، ومع الترغيب يأتي التكرار لتأكيد الثواب، ومضاعفة الأجر، وتكرار لفظ "منه" مرتين، ولفظ "له" ثلاث مرات: تكريم لصاحب العطاء، وتأكيد لثوابه، وتحديد له عن طريق الضمير وهو أعرف المعارف، فما أعظم فضل الله تعالى، وما أبلغ كلام رسول الله ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى فضل الزرع والغرس وأنه من أفضل الأعمال الدنيوية وأكثرها أجرًا لما يقوم عليها من أمر ابن آدم وغيره من الطير والحيوان وأن كل ذلك له صدقة.

وقد ذهب جمهور الفقهاء[٢] إلى أن الزراعة من أفضل أنواع الكسب، وأنه

---

(١) أخرجه مسلم ١٥٥٢.

(٢) انظر في ذلك: بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ١٤١/١، وشرح الخرشي على مختصر خليل، أبو عبدالله الخرشي ٤١٧/٧، والمدخل إلى الشرح الشريف، ابن الحاج العبدلي ٣/٤، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المصري ١٢٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٧/٦، ٦٤/٩، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٧١/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٥٦٩/١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٩١/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١٣/٦، و مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، السيوطي ١٦٧/٢، والمحلى، ابن حزم ٤٢/٧.

يستحب الإكثار من الزرع والزراعة ما لم تشغل عن الجهاد، وذلك لما في الزراعة من الصدقات فلا يأكل منها طير أو إنسان أو حيوان إلا كانت له صدقة، وإن كانوا متفقين على أن أفضل الكسب ما كان عن طريق الجهاد، ثم ما كان بعمل اليد ومنها الزراعة والغرس.

وقال القرطبي: الزراعة من فروض الكفاية، فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها وما كان في معناها من غرس الأشجار[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتنويع، والتنكير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الإسلام أساس صحة وقبول الأعمال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: كثرة طرق الخير وتعدد روافد الثواب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحث على عمارة الأرض.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والتنويع، والتنكير:

١- الإخبار: حيث أخبر النبي ﷺ بثواب الزرع وعمارة الأرض وثواب الانتفاع بهذا النتاج سواء نوى الزارع أم لم ينو، وأن فضل الله تعالى على الإنسان واسع، حيث تعددت روافد الأجر والمثوبة له.

٢- التنويع: ويظهر ذلك في استعماله ﷺ لفظة "أو" ونوّع بين ما يخرج من الأرض وفرّق بينه من كونه زرعًا أو غرسًا، إذ أن الزرع غير الغرس.

٣- التنكير: فنكر كلمة "مسلم" وأوقعها في سياق النفي "ما" وزاد كلمة "من" التي تفيد الاستغراق، واستعمل أسلوب الحصر والقصر باستخدامه "ما" النافية و"إلا"، وخص الغرس والزرع وعم الحيوان، ليدل على سبيل الكناية على أن أي مسلم كان حرًا أو عبدًا مطيعًا أو عاصيًا يعمل أي عمل من المباح، ينتفع بما عمله أي حيوان كان، يرجع نفعه إليه ويثاب عليه[(٢)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٠٦/٣.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني لابن حجر ٦/٥، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٠٤/٤.

ثانيًا- الإسلام أساس صحة وقبول الأعمال:

إن النبي ﷺ بيّن في الحديث أن الإسلام شرط قبول الأعمال واستحقاق ثوابها، فقال ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه صدقة..."، وإنما خصّ المسلم بالذكر لأنه ينوي عند الغرس غالبًا أن يتقوى بثمرة ذلك الغرس المسلمون على عبادة الله تعالى، ولأن المسلم هو الذي يحصل له ثواب، وأما الكافر فلا يحصل له بما يفعله من الخيرات ثواب، وغايته أن يُخفف العذاب عنه، وقد يطعم في الدنيا ويُعطى بذلك[1]. قال ابن حجر: (قوله: "ما من مسلم" أخرج الكافر لأنه رتب على ذلك كون ما أكل منه يكون له صدقة، والمراد بالصدقة الثواب في الآخرة، وذلك يختص بالمسلم، نعم ما أكل من زرع الكافر يثاب عليه في الدنيا كما ثبت من حديث أنس عند مسلم، وأما من يقول يخفف عنه بذلك من عذاب الآخرة فيحتاج إلى دليل، ولا يبعد أن يقع ذلك لمن لم يرزق في الدنيا وفقد العافية)[2].

ويؤيد ذلك أن النبي ﷺ في هذا الحديث خصص الثواب بالمسلم، في قوله: (ما من مسلم)، بل إنه في بعض الروايات من حديث أنس أنه رأى غرسًا فسأل عن دين من غرسه ثم ساق الحديث ((فعن أنس بن مالك أن نبي الله دخل نخلاً لأم مبشر امرأةٍ من الأنصار فقال رسول الله ﷺ من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر...))[3] أما غير المسلم لو أُكِل من زرعه فيثاب عليه في الدنيا، أما في الآخرة فلا أثر لعمله كما صرح بذلك القرآن ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾[4] وقال ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ

---

(١) المفهم، القرطبي ٤/٤٢١.

(٢) يقصد به قوله ﷺ: "إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة" يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يجري بها. أخرجه مسلم ٢٨٠٨.

(٣) أخرجه مسلم ١٥٥٣.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٨.

مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: كثرة طرق الخير وتعدد روافد الثواب:

لقد جاء في الحديث الحض على الغرس، وبيان اختصاص الثواب على الأعمال بالمسلمين دون غيرهم، وبيان أن المسبب للخير له أجرٌ بما نُفع به، سواء أكان من أعمال البر أو مصالح الدين[٢]، فقال ﷺ: (ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة).

كما أن الحديث فيه دليل على تنوّع أسباب الثواب، وكثرة طرق الخير، وأن ما انتفع به الناس من الخير فإن لصاحبه أجرًا وله فيه الخير سواء نوى أو لم ينو، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٣] فذكر الله تعالى أن هذه الأشياء فيها خير سواء نوى أم لم ينو، فإن نوى بذلك ابتغاء وجه الله فإن الله يقول فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا) وفي هذا دليل على أن المصالح والمنافع إذا انتفع الناس بها كانت خيرًا لصاحبها وإن لم ينو، فإن نوى زاده خيرًا على خير وآتاه الله تعالى من فضله أجرًا عظيمًا)[٤].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على عمارة الأرض:

يتجلى ذلك من خلال بيان النبي ﷺ لثواب الغرس والزرع، وفيه دليل على دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض، إذ أن ذلك أحد المقاصد الثلاثة التي من أجلها خلق الإنسان وهي:

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٢) إكمال المعلم، القاضي عياض ٥/٢١٤.

(٣) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٢٧٨.

أ- عبادة الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(١)].

ب- الخلافة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[(٢)].

ج- عمارة الكون ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[(٣)] أي طلب منكم عمارتها، وكما في سورة الملك الدعوة إلى الضرب في مناكب الأرض ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[(٤)].

وفي ذلك بيان لشخصية المؤمن الجامعة بين خيري الدنيا والآخرة (فقد يغرق بعض الناس في الخيال فيتصورون المؤمن متواكلاً متكاسلاً أو راهبًا في "ديره" متبتلاً للعبادة منقطعًا عن الحياة، وهذه كارثة على العمل والإنتاج. إن المؤمن يتخذ الدنيا مزرعة للآخرة، والمزرعة تحتاج إلى عمل وسعي، ولكن الثمرة إنما تقطف كاملة في الآخرة وإن أدرك بعضها في الدنيا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾[(٥)]. لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ زرّاعًا وتُجارًا وصنّاعًا متقنين، ولم يقعد بهم إيمانهم بالآخرة عن العمل للدنيا، كيف لا وقد قال رسولهم ﷺ ((إنْ قامَتِ السَّاعَةُ وبِيَدِ أحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فإنِ اسْتَطَاعَ أنْ لا يَقُومَ حتَّى يَغْرِسَها فَلْيَفْعَلْ))[(٦)]. ولماذا سيغرسها والساعة ستقوم، ولا أمل في انتفاع أحد من الخلق بها؟ إنه تكريم العمل لذات العمل، ولو لم يكن من ورائه نفع وانتفاع[(٧)] للشخص نفسه الذي يقوم بذلك، وإنما النفع يمتد إلى من بعده من الأجيال، إنها دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض، دعوة إلى

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٣٠.

(٣) سورة هود، آية: ٦١.

(٤) سورة الملك، آية: ١٥.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٣٢.

(٦) أخرجه أحمد ١٩١/٣ رقم ١٢٩٨١، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم ٢٩٦/٢٠.

(٧) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ٣٠٩، ٣١٠.

العمل والسعي، دعوة إلى الاعتماد على النفس والاكتفاء الذاتي، ولو أن المسلمين طبقوا ما جاء في كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ حق التطبيق، ما هانوا ولا ذلوا في يوم من الأيام، ولا مدوا أيديهم إلى الغرب يتسولون منه كل شيء، ويعيشون كالأيتام على موائد اللئام.

الحديث رقم (١٣٦)

١٣٦- **العِشْرُونَ**: عنْهُ قالَ: أَراد بنُو سَلِمَة أَن ينْتَقِلوا قُرْبَ المَسْجِدِ فبلَغَ ذلك رسولَ اللَّه ﷺ، فقَالَ لهُمْ: «**إنَّه قَدْ**[1] **بلَغَنِي أنَّكُمْ تُريدُونَ أنْ تَنْتَقِلُوا قُربَ المَسْجِدِ؟**» فَقَالُوا: نَعَمْ يا رسولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا ذلكَ، فَقالَ: «**بَنِي**[2] **سَلِمةَ دِيَارَكُمْ، تكْتُبْ آثَارُكُمْ، دِيارَكُم تُكْتَبْ آثَارُكُمْ**» رواه مسلم[3].

وفي روايةٍ[4]: «**إنَّ**[5] **بكُلِّ خَطْوةٍ درجةً**» رواه مسلم.

ورواه البخاريُّ[6] أيضًا بمعنَاهُ مِنْ روايةِ أَنَسٍ رضي اللَّه عنه.

و«**بنُو سَلِمَةَ**» بكسر اللام: قبيلة معروفة من الأَنصار رضي اللَّه عنهم، و «آثَارُهُمْ» خُطاهُمْ.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث مشهدًا جليلاً من مشاهد الحوار بين النبي ﷺ وأصحابه الأخيار الأبرار، والحوار المقنع الهادئ من أساليب الدعوة إلى الله تعالى ومن أساليب المصطفى ﷺ في تبليغ الرسالة اتباعًا لقول الله عز وجل، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[7]، وهذا المشهد الحواري

---

(١) (قد) لا توجد عند مسلم.

(٢) عند مسلم: (يا بني سلمة)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٣) برقم (٦٦٥/٢٨٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٥٧).

(٤) برقم (٦٦٤/٢٧٩). أوردها المنذري في ترغيبه (٤٥٩).

(٥) عند مسلم زيادة: (لكم).

(٦) برقم (٦٥٦).

(٧) سورة النحل، آية: ١٢٥.

الواقعي نموذج للحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن وهي سمات جليلة تحلى بها المصطفى ﷺ؛ في كل موقف من مواقفه الرشيدة المقنعة في إقناع أصحابه، وفي مواجهة خصومه، وموضوع الحوار: هو الرغبة في الاقتراب من مسجد رسول الله ﷺ: حيث أراد بنو سلمة ذلك حبًا في كثرة الصلاة بالمسجد النبوي، وهم يدركون أفضلية المسجد بالمدينة؛ فالصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، كما جاء في الحديث الصحيح.

ولنتأمل وقائع هذا الحوار الإيماني البليغ، ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي، والظواهر الفنية.

وأول ظاهرة أسلوبية في الحديث هى الصيغة الإخبارية التي صيغ في إطارها الحديث وهى صيغة الحَكْى، حيث يروي جابر بداية الحديث موضحًا رغبة بني سلمة في انتقالهم من منازلهم إلى قرب المسجد، إذا كان المكان خاليًا: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ولم يحدد الراوي مَنْ الذي أبلغه، لأن الأمر ليس مرفوضًا ولا فتنة، وإنما هو أمر مباح، وكذلك لعدم إثارة شبهة الخلاف، أو أن الرسول ﷺ عرف ذلك عن طريق الوحى -والله أعلم- لأن القضية تتعلق بالقرب أو البعد عن المسجد، وليس بالشخص الذي بلّغ.

ويدور حوار جميل هادئ مقنع حيث يبدأ رسول الله ﷺ بتأكيد الخبر الذي وصله إذ قال: "إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا، قرب المسجد"، وهل أرسل لهم رسول الله فجاءوا إليه، وحدثهم بذلك، أم ذهب هو إليهم وخاطبهم بهذا الخطاب المشرق الحاني الكريم، إن هذا التفصيل لا ضرورة له في إدراك المقصد الأسنى من هذا الحوار البليغ، وفي أسلوب جَمْعي أجاب بنو سلمة قائلين في أدب وصدق وحسن خطاب لصاحب الرسالة: "نعم يا رسول الله" قد أردنا ذلك، والإجابة تتضمن اعترافًا بالرسالة وحبًا للرسول ﷺ في قولهم: "يا رسول الله قد أردنا ذلك"، ولم يقولوا نعم أردنا ذلك، فهل يمنع الرسول ﷺ إرادتهم؟ إنه ناداهم نداءً إيمانيًا فيه إخوة، وحرصٌ على مضاعفة الثواب لهم، ووعد بالجزاء الأوفى، وجاء هذا الترغيب متضمنًا أسرارًا

تعبيرية تكشف عن جمال البيان النبوي، وعن تأثيره في النفوس، في لفظ واضح، وعبارة مضيئة بالمعاني، حافلة بالدلالات: فبعد النداء الجميل في قوله: "بني سلمة" أي يا بني سلمة: وحَذْف حرف النداء يشعر بشدة حرص الرسول ﷺ على إخبارهم بمراده وهو خير لهم، ولم يُفصِّل القول في رفضه لإرادتهم، ولم يصرح بأن إرادتهم تقلل من ثوابهم المضاعف المنتظر، وإنما صاغ توجيهه النبوي في أسلوب الإغراء وهو مناسب للسياق والمقام، وفي أسلوب: الجواب والشرط، وأسلوب الإغراء مع أسلوب الشرط، تجمُّلا ببلاغة الحذف: فقوله: "دياركم" تقديره: التزموا دياركم: وهو أسلوب إغراء في مصطلح النحويين، وهو ليس أمرًا ملزمًا، وجملة: "تكتب آثاركم" كررت مرتين: لمزيد من الترغيب والإغراء: حيث يفوزون بثواب مَنْ تكثر خطاه إلى المساجد، وبلاغة الحذف تتجلى في هذه الجملة المتكررة "تكتب آثاركم" فالتقدير: إن لزمتم دياركم تكتب آثاركم، أي تكثر خطاكم إلى المسجد وتكتب لكم الحسنات: فمن غدا أو راح إلى المسجد، أعد الله تعالى له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعي: التثبت قبل إصدار الأحكام والتوجيهات.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النداء، والأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الخطا إلى المساجد.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: امتداد ثواب العمل الصالح.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الصلاة في المساجد وحضور الجماعات.

أولاً- من واجبات الداعي: التثبت قبل إصدار الأحكام والتوجيهات:

إن من منهج القرآن الكريم في التلقي والتوجيه التريث والتثبت، ومما ورد في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[1] وينبغي للداعية أن يطبق ذلك عمليًا في دعوته، خاصة وأن

(١) سورة الحجرات، آية: ٦.

الدعوة لابد وأن تكون على بيّنة وبصيرة، كما بيّن سبحانه على لسان نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] وهذا المعنى نجده واضحًا جليًا في سؤال النبي ﷺ لبني سلمة في صحة ما نما إلى علمه من إرادتهم التحول عن مساكنهم إلى قرب المسجد فقال لهم ((إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ فقالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك)).

ثانيًا- من أساليب الدعوة: النداء، والأمر:

فالنداء في قوله "بني سلمة" أي يا بني سلمة (ناداهم استرضاءً عن قصدهم، وإظهارًا لهم عن نياتهم، ولذلك أتبعه بقوله: دياركم) أي الزموا دياركم.

والأمر من الإمام المشفق على رعيته، المشفع بأساليب التطلف واللين، له أكبر الأثر في القبول والاستجابة.

وقد وصف الله عز وجل مبالغة الرسول ﷺ في حرصه على إيصال الخير لأمته، ودفع الأذى عنهم فقال ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] (عزيز عليه ما عنتم أي عزيز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، حريص عليكم أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم)[3] وهذه الأخلاق النبوية مما ينبغي أن يتخلق بها الدعاة إلى الله تعالى، وأصحاب القرار والتوجيه في المجتمع الإسلامي.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الخطا إلى المساجد:

يظهر ذلك فيما نقله جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، إذ قال: "أراد بنو سلمة أن يقربوا من المسجد، ينتقلوا من ديارهم ومحلاتهم حتى يكونوا قرب مسجد النبي ﷺ، من أجل

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤١/٤.

أن يدركوا الصلوات معه ويتلقوا من علمه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسألهم، قال: "إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟" قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال رسول الله ﷺ: "دياركم تكتب آثاركم" قالها مرتين وبين لهم أن لهم بكل خطوة حسنة أو درجة[١]. وفي هذا الحديث دليل على أن المسلم إذا خرج من بيته قاصدًا أداء صلاة في بيت من بيوت الله فإنه لا يخطو خطوة إلا رفع له بها درجة وحط بها عنه خطيئة، ومن النصوص الدالة على ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((صلاة الجميع تزيد على صلاته في بيته، وصلاته في سوقه، خمسًا وعشرين درجة، فإن أحدكم إذا توضأ فأحسن، وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة حتى يدخل المسجد، وإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت تحبسه، وتصلي -يعني- عليه الملائكة، ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يحدث فيه))[٢].

وفي سنن أبي داود ((إذا توضأ أحدكم فأحسن الوضوء ثم خرج إلى الصلاة لم يرفع قدمه اليمنى إلا كتب الله عز وجل له حسنة ولم يضع قدمه اليسرى إلا حط الله عز وجل عنه سيئة فليُقرِّب أحدكم أو ليبعِّد...))[٣] وبصفة أعم بين النبي ﷺ أن أعظم الناس أجرًا أبعدهم ممشى فعن أبي موسى رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: ((أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى...))[٤].

كما أن أمر النبي ﷺ لبني سلمة بلزوم ديارهم على أخرى تحملهم على مقامهم بمواضعهم، وهو أنه كره أن تترك جهات المدينة عراء، أي: فضاء خالية فيؤتون منها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾[٥]، اي بموضع خال[٦]، وهذا المعنى أشير إليه

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٢٧٨/١.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٧.

(٣) أخرجه أبو داود ٥٦٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٥٦٢).

(٤) أخرجه البخاري ٦٥١.

(٥) سورة الصافات، آية: ١٤٥.

(٦) المفهم، القرطبي ٢٩٢/٢.

في بعض روايات الحديث عند الإمام البخاري، فعن أنس رضي الله عنه: ((أَنَّ بني سَلِمَةَ أَرادوا أن يتحوَّلوا عن مَنازِلِهم فينزلوا قريبًا منَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال فكَرِهَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أن يُعْرُوا المدينة فقال: أَلا تَحتَسِبونَ آثارَكم))[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: امتداد ثواب العمل الصالح:

إن العمل الصالح لا يعود نفعه على صاحبه فحسب بل يمتد ليشمل غيره، وهذا المعنى يظهر من قوله صلى الله عليه وسلم ((تكتب آثاركم)) (فالمراد بالكتابة: إما كتب صحائف الأعمال وبالآثار والخطا، فالمعنى: أن كثرة الخطى إلى المساجد سبب لزيادة الأجر. وإما كتب ما في السير، والمراد بالآثار ما يؤثر في الكتب المدونة من سير الصالحين، فالمعنى: لزومكم دياركم بعد ممشاكم يكتب في سير السلف وآثار الصالحين، فيكون سببًا لحرص الناس وجدهم واجتهادهم في حضور الجماعات فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الصلاة في المسجد وحضور الجماعات:

لقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم الدافع الذي من أجله همَّ بنو سلمة أن يتحولوا قرب المسجد لحصول الأجر والفضل والاستباق إلى الصلاة، فلم يوافقهم، وفي نفس الوقت لم يرخص لهم في عدم حضور الجماعات أو التأخر عنها مع ما يجدون من طول في المسافة وعنت في السير ومشقة في الطريق، وهذا دليل على أهمية حضور الجماعات بالنسبة للمجتمع الإسلامي، وإنَّ من يقرأ سنة النبي صلى الله عليه وسلم ليجد تأكيده وترغيبه في حضور الجماعات في المسجد ويرهب من تركها بل إنه لم يأذن لضرير بعيد المنزل في تركها والصلاة في بيته فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل أعمى فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُرَخص له فيصلي في بيته فرخص له، فلما ولى دعاه فقال: هل تسمع النداء بالصلاة؟ قال نعم قال فأجب))[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢/٢٢٩.

(٣) أخرجه مسلم ٦٥٣.

لذا وجب الاهتمام بصلاة الجماعة وحضورها لما فيها من إظهار شعائر الإسلام، ورمز لتوحد المسلمين في عباداتهم ووجهتهم، إلى غير ذلك من فضائل الجماعة.

الحديث رقم (١٣٧)

١٣٧- **الْحَادي والْعِشْرُونَ:** عنْ أَبي الْمُنْذِر أُبيِّ بن كَعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَان رجُلٌ لا أَعْلَمُ رجُلا أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ، وكَانَ لا تُخْطِئُهُ صلاةٌ. فَقِيل له (أَوْ فقُلْتُ له): لَوْ اشْتَريْتَ حِمارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْماءِ، وفي الرَّمْضَاءِ. فَقَالَ: ما يسُرُّنِي أَن منْزِلِي إِلَى جنْب الْمسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَب لِي ممْشَايَ إِلَى الْمَسْجد، ورُجُوعِي إِذَا رجعْتُ إِلَى أَهْلِي، فقالَ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ جمع اللَّهُ لكَ ذَلِكَ كُلَّهُ**» رواه مسلم[1].

وفي روايةٍ[2]: «**إِنَّ لَكَ مَا احْتسَبْتَ**».

«**الرمْضَاءُ**» الأَرْضُ الَّتِي أَصَابهَا الْحرُّ الشَّديدُ.

ترجمة الراوي:

أُبي بن كعب: هو ابن قيس بن عبيد بن زيد بن النجار.

سيد القراء، ومن كتاب الوحي، ومن أصحاب العقبة الثانية، شهد بدرًا وأحد والخندق والمشاهد كلها، جمع القرآن في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يفتي على عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحفظ عنه علمًا مباركًا، وكان رأسًا في العلم والعمل، شهد مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقعة الجابية، وكان يسميه سيد المسلمين ويقول: اقرأ يا أُبي، وكان قد كتب الصلح لأهل بيت المقدس، وأمره عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجمع القرآن فاشترك في جمعه.

وقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن))[3] وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكنّيه بأبي المنذر وذلك بعد أن سأله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أي آية في القرآن أعظم، فقال أُبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[4] فضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدره وقال ((لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر))[5].

---

(١) برقم (٢٧٨/٦٦٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٢). وسيكرره المؤلف برقم (١٠٥٦).

(٢) ثاني حديث بعد حديث (٢٧٨/٦٦٣) بدون رقم. أوردها المنذري في ترغيبه (٤٦٢).

(٣) أخرجه البخاري ٤٩٥٩، ٤٩٦٠، ٤٩٦١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.

(٥) أخرجه مسلم ٨١٠.

وكان نحيفًا قصيرًا أبيض الرأس واللحية.

وقد أخرج الأئمة أحاديثه في كتبهم وبلغ مجموعها في الصحيحين وغيرهما (١٦٤) حديثًا، وعده مسروق في الستة من أصحاب الفتيا وكان رضي الله عنه يختم القرآن في ثماني ليالٍ.

وتوفي في خلافة عمر سنة ٢٢هـ بالمدينة، وقيل في خلافة عثمان سنة ٣٠هـ[١].

غريب الألفاظ:

لا تخطئه صلاة: أي لا تفوته[٢] ووقع في مسند أحمد (٢١٢١٦): فكان يحضر الصلوات كلهن مع النبي صلى الله عليه وسلم.

الظلماء: الظُّلْمة: يقال ليلة ظلماء: مظلمة وفي سنن أبي داود (٥٥٧): الظلمة[٣].

الرمضاء: الأرض التي أصابها الحرُّ الشديد[٤].

احتسبت: أي طلبت فيه وجه الله وثوابه[٥].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف متصل بالحديث السابق اتصالاً وثيقًا، حيث يتجلى ثواب كثرة الخطا إلى المساجد، والحوار في الحديث السابق كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني سلمة، وأوصاهم المصطفى صلى الله عليه وسلم بالبقاء في أماكنهم البعيدة عن المسجد رغبة في مزيد

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٥٩/٣)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٦٨/١-١٧١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ص ٢١، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٣٨٩/١-٤٠٠)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (١٥١/١-١٥٢)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٧/١-٩٨)، والأعلام للزركلي (٨٢/١)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٤٢٠-٤٢٧).

(٢) عون المعبود على سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ٢٨٤.

(٣) انظر: الوسيط ٥٧٧.

(٤) رياض الصالحين ١٠٣.

(٥) عون المعبود على سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي ٢٨٤، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح س ب).

من تحصيل الثواب لهم.

وهذا الحديث الذي تتوهج آخر جملة منه ببشارة المصطفى ﷺ لذلك الصحابي الذي آثر البقاء في مكانه بعيدًا عن المسجد، ولم يستعن على الذهاب للمسجد بدابة تيسِّرُ له الطريق، وإنما آثر المشى حتى يتحصل على أجر ممشاه ذهابًا وإيابًا، ويقول له البشير النذير، والسراج المنير، مؤكدًا تحقيق رغبته، ومضاعفة أجره "قد جمع الله لك ذلك كله".

وهذه العبارة المضيئة بالبشرى النبوية، تأتي تتويجاً للنية الخالصة التي انطوى عليها قلب ذلك الصحابي، والحديث في بدايته إلى ما قبل الجملة الأخيرة يعد مقدمة تمهيدية لهذه البشارة المحمدية، ولكن النص كله يُعد سُنَّة لأن النبي ﷺ أقر ذلك، ووعد الرجل بتحقيق ما أراد وتمنى، ولكن ما اسم ذلك الرجل؟ ولماذا أغفل اسمَه الراوي، ولم يسمه أحد من شرّاح الحديث، والأمر لا يتعلق بشخص واحد، ولكن بأمر شرعي، وموقف تعبدي، وسلوك إيماني عام، فكل مسلم يجب عليه ذلك: ترغيباً في تحصيل الأجر، وكثرة الخطا إلى المساجد حتى يتعود المجتمع على ذلك، ويشهد الأطفال آباءهم وهم يتحركون في كل وقت للصلاة إلى المسجد لأن من أفضل الأعمال: انتظار الصلاة إلى الصلاة، والصلاة لوقتها، وكثرة الخطا إلى المساجد، وأسلوب الحديث يشير إلى بُعْد دار هذا الرجل عن مسجد رسول الله ﷺ، حيث قال الراوي: "لا أعلم رجلاً أبعد من المسجد منه" أي: في المدينة وقوله: "لا أعلم" احتراس. فربما يوجد شخص آخر يعلم ويعرف مَنْ هو أبعد من ذلك الرجل عن المسجد، ويدور حوار بين أبي بن كعب رضي الله عنه وهذا الرجل، حيث يرشده إلى وسيلة تيسر له الذهاب إلى الصلاة، وأشار عليه بشراء حمار يركبه في الظلماء، حيث صلاة العشاء والفجر والمغرب، وفي الرمضاء حيث صلاة الظهر والعصر، والتعبير بالأداة "لو" وهى للتمني في بعض الآراء يبوح بصدق نية أبي بن كعب رضي الله عنه أو الذي حاور الرجل، وحرصه على راحته، وقيل "لو" شرطية وجوابها محذوف والتقدير لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء لكان أجدى وأحسن وأيسر.

وهذا الحذف من سمة البيان النبوي حتى في العبارات التي لم يتحدث بها رسول الله ﷺ، لأن البلاغة: الإيجاز، والحذف أحد مظاهر الإيجاز، وتأتي إجابة ذلك الرجل مشحونة بالمفارقة أي بما لا يتوقع السامع: فيقول: "ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد"، وربما يتوهم القارئ أو المتلقي أن الرجل لا يحب مجاورة المسجد، وهذا وهم خاطئ: لأن مسجد رسول الله ﷺ يأتي في الأفضلية بعد المسجد الحرام، وأكرم الله نبيه بذلك، وشرّف المدينة بهذا التفضيل، والرجل أكد مراده وأمنيته: ورغب في المزيد من الثواب وأن يكتب الله له أجر ممشاه إلى المسجد ورجوعه منه، ويبشره رسول الله ﷺ مؤكدًا له تحقيق أمنيته جزاء مسعاه. وأتى بحرف "قد".. وهى للتحقيق، ثم الفعل "جمع" الدال على المزيد من الثواب، ولفظ الجلالة للتشريف، وكاف الخطاب للتحديد، ولفظ "كل" للتأكيد.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من واجبات الداعية: إسداء النصح إلى الآخرين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل الخير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل كثرة الخطا إلى المساجد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله تعالى على عباده.

أولاً- من وسائل الدعوة: القصة:

تُعد القصة من أهم وسائل الدعوة، نظرًا لما تحويه من أحداث، وتشتمل عليه من عوامل تأثير يمكن للداعية أن يفيد منها في دعوته، ففي هذا الحديث حكى راوي الحديث قصة رجل لا يعلم رجلاً أبعد من المسجد منه، ولا تخطئه صلاة...، ولا شك أن القصة من وسائل الدعوة التي تساعد على إقناع المدعوين بما يقول الداعية، وتعطي لهم نموذجًا عمليًا من الأحداث والوقائع التي لها أثر بالغ في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

ثانيًا- من واجبات الداعية: إسداء النصح إلى الآخرين:

إن من صميم عمل الداعية معايشة الناس ومخالطتهم، والحرص على نفعهم، وإسداء النصح لهم، ويتضح هذا من الحديث: (فقيل له أو فقلت له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء)، وهذا يشعر بقرب الداعية من المدعو وحرصه عليه، ونصحه له، وقد قال رسول الله ﷺ ((الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))[1] قال الإمام النووي: (والنصيحة لعامة المسلمين فإرشادهم إلى مصالحهم في الدنيا والآخرة وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من أمور دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر...)[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل الخير:

يتضح هذا من الحديث في قول الرجل "ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي" فبالرغم أن في ذهابه ورجوعه مشقة عليه من الظلام بالليل، والحر الشديد بالنهار، إلا إنه أبى إلا أن يتحمل هذه المشقة في سبيل الله، وابتغاء الأجر والثواب من الله عز وجل وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3] ووعد الله بإيتاء الأجر على العمل الذي يحتسبه الإنسان عند الله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[4] وفي حرص الصحابة على الخير إنما يستجيبون لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ﴾[5] وقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ﴾[6].

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٣) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٤) سورة الزلزلة، آية: ٧، ٨.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٦) سورة المائدة، آية: ٤٨.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل كثرة الخطا إلى المساجد:

إن من الموضوعات التي يشير إليها الحديث فضل تكثير الخُطا إلى المسجد حيث قال الرسول ﷺ للصحابي: "قد جمع الله لك ذلك كله" قال ابن عثيمين: (ففي هذا دليل على أن كثرة الخطا إلى المساجد من طرق الخير، وأن الإنسان إذا احتسب الأجر على الله كتب له الأجر حال مجيئه إلى المسجد وحال رجوعه منه)[1]. وقد بين النبي ﷺ أن الأجر في الصلاة حسب البعد من المسجد ففي الحديث ((أعظمُ الناسِ أجرًا في الصلاةِ أَبعَدُهم فأبعدُهم مَمشىً، والذي يَنتظِرُ الصلاةَ حتى يصلّيَها مع الإمامِ أعظمُ أجرًا من الذي يُصلِّي ثمَّ يَنامُ))[2] ولما خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم: ((بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال: يا بني سلمة ديارَكم تكتب آثارُكم ديارَكم تكتب آثارُكم))[3].

قال الطيبي: (وكانت ديارهم على بعد من المسجد، وكانت المسافة تجهدهم في سواد الليل، وعند وقوع الأمطار واشتداد البرد، فأرادوا أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره النبي ﷺ ذلك، فرغبهم فيما عند الله من الأجر على نقل الخطى إلى المسجد والمعنى: لزومكم دياركم وبعد ممشاكم يكتب في سير السلف وآثار الصالحين فيكون سببًا لحرص الناس وجدهم واجتهادهم في حضور الجماعات)[4].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله على عباده:

يظهر هذا في إخبار النبي ﷺ "أن الله جمع له ذلك كله" أي: أجر الذهاب وأجر الرجوع وهذا من عظيم رحمته وكرمه بعباده وفضله عليهم: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٣٨٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥١، ومسلم ٦٦٢.

(٣) أخرجه مسلم ٦٦٢.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢/٢٢٨.

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1]. لأن الله تعالى يجزل عطاءه لعباده المؤمنين الطائعين الذين يحرصون على طاعته ومرضاته، وإن ذلك مما ينبغي للداعية أن يوضحه للمدعوين ويستثير هممهم لتحصيله وإدراكه.

---

(١) سورة الجمعة، آية: ٤.

الحديث رقم (١٣٨)

١٣٨- **الثَّاني والْعشْرُونَ:** عنْ أَبي محمدٍ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أرْبعُونَ خَصْلَةً أَعلاها**[1] **منِيحةُ الْعَنْزِ، ما مِنْ عامِلٍ يعملُ بِخَصْلَةٍ مِنْها رجاءَ ثَوَابِهَا وتَصْدِيقَ موْعُودِهَا إلاَّ أَدْخلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجنَّةَ»** رواه البخاريُّ[2].

«الْمنِيحةُ»: أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهَا ليأْكُل لبنَهَا ثُمَّ يَردَّهَا إِليْهِ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: عَلَمٌ من أعلام الصحابة، صحابيٌّ بن صحابيٍّ، وهو: عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم، السهميُّ، الهاشميُّ، القرشيُّ، يقال: كان اسمه العاص، فغيَّر النبيُّ ﷺ اسمه، وسماه عبدالله، كان يكنى بأبي محمد، وذلك هو الأشهر، ويقال أبو عبدالرحمن، ويقال: أبو نصير، ولم يكن بينه وبين أبيه في السن إلا إحدى عشرة سنة، وقيل اثنتا عشرة سنة، وقيل عشرين، أسلم قبل أبيه، وهاجر بعد سنة (٧هـ)، شهد بعض المغازي مع رسول الله ﷺ، وشهد مع أبيه عمرو بن العاص فتوحَ الشام، وكانت معه راية أبيه يوم اليرموك، ويوم صفين كان على ميمنة جيش معاوية، واعتذر رضي الله عنه من شهوده صفين، وأقسم أنه لم يرم فيها برمح ولا سهم وأنه إنما شهدها لعزمة أبيه عليه في ذلك.

وكان عبدالله غزير العلم مجتهدًا في العبادة، ذا مقام راسخ فيهما، حَمل عن النبي ﷺ علمًا جمًا، يبلغ ما أسند إليه (٧٠٠) حديثًا اتفق البخاري ومسلم على (٧) وانفرد البخاري بـ (٨) ومسلم (٢٠) حديثًا وكان من الذين أذن ورخص لهم رسول الله ﷺ أن يكتبوا عنه بعد ما كره للصحابة أن يكتبوا عنه سوى القرآن في حياته ﷺ فعن أبي هريرة أنه قال: ما كان أحد أعلمَ بحديث رسول الله ﷺ مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو، فإنه كان يكتبُ بيده ويعيه بقلبه، وكنت أعيه بقلبي، ولا أكتب

---

(١) لفظ البخاري: (أعلاهنَّ).

(٢) برقم (٢٦٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩٩٨).

بيدي، واستأذن رسول الله ﷺ في الكتاب عنه فأذن له[(١)].

كما قرأ لأهل الكتاب كتبهم، وأدمن النظر فيها، وعدَّه ابن سعد في الطبقات من أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان يسرد الصيام ويكثر من قراءة القرآن الكريم، فعنه أنه قال: كنت أصوم الدهر وأقرأ القرآن كل ليلة قال: فإما ذُكِرْتُ للنبي ﷺ وإما أرْسَلَ إليّ فأتيته، فقال لي: "ألم أُخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟" فقلت: بلى يا نبي الله ولم أُرِدْ بذلك إلا الخير، قال: "فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام" قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال: "فإن لزوجك عليك حقًا ولزَوْرِك عليك حقًا ولجسدك عليك حقًا"، قال: "فصم صوم داود نبي الله فإنه كان أعبد الناس"، قال: قلت: يا نبي الله وما صوم داود؟ قال: "كان يصوم يومًا ويفطر يومًا"، قال: "واقرأ القرآن في كل شهر" قال: قُلْتُ: يا نبي الله: إني أُطيق أفضل من ذلك، قال: "فاقرأه في كل عشرين" قال: قلت: يا نبي الله: إني أطيق أفضل من ذلك قال: "فاقرأ في كل عشر"، قال: قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: ((فاقرأ في كل سبع ولا تزد على ذلك فإن لزوجك عليك حقًا ولزَوْرِك عليك حقًا ولجسدك عليك حقًا))[(٢)]، قال فشدّدت فشُدِّد عليَّ، قال: وقال لي النبي ﷺ: "إنك لا تدري لعلك يطول بك عُمْر"، قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ: ((فلما كَبِرتُ وَدِدت أني كنت قبلت رُخصة نبي الله ﷺ))[(٣)].

وكان ممن لهم باع في سياسة الأحوال وإدارة الأعمال، فولاه معاوية الكوفة ثم عزله وولى المغيرة بن شعبة.

أما عن صفاته الخَلْقية، فكان رجلاً طُوالاً، سمينًا، عظيم البطن والساقين،

---

(١) أخرجه أحمد ٤٠٣/٢ رقم ٩٢٣١، وقال محققو المسند: حديث صحيح ١٢٧/١٥.

(٢) وعند أبي داود قال لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث "باب في كم يقرأ القرآن، رقم ١٣٩٠ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٢٣٩).

(٣) أخرجه مسلم ١١٥٩.

أحمر، أبيض الرأس واللحية، وعمي في آخر عمره.

مات في ليالي الحرة في ولاية يزيد بن معاوية وكانت لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة (٦٣)، وقيل مات بالطائف سنة (٥٥) وقيل بمكة سنة (٦٧) وعمره (٧٢) وقيل بأرضه بالسَّبع من فلسطين سنة (٦٥) وقيل توفي في مصر في النصف من جمادى الآخرة سنة (٦٥) وهو ابن (٧٢)، ودفن بداره إذ لم يستطع أن يخرج بجنازته لشغب الجند على مروان بسبب مقتل الأكدر بن حمامه[١].

غريب الألفاظ:

خصلة: الخصلة: الشعبة والجزء[٢].

المنيحة: فسّرها النووي[٣]، وفي النهاية: أن يُعطيه ناقة أو شاةً ينتفع بلبنها ويُعيدُها، وكذلك إذا أعطاه لينتفع بوبرها وصوفها زمانًا ثم يردُّها[٤].

الشرح الأدبي

إن أبواب الخير لا توصد في أوجه الراغبين في إنجاز المشروعات الخيرية، وإن المصطفى ﷺ يعطي مفاتيح الخير للذين أنعم الله عليهم بالرزق الوفير، والعطاء لا يظل قاصرًا على أرباب المال، ورجال الأعمال، ومَنْ يملكون النصاب وتكتظ جيوبهم بالأموال، ولكن أبواب الخير مُشْرَعة أمام كل صاحب نية خالصة، وصاحب رغبة في

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢/٣٧٣)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٤٢١، ٤٢٢)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣/٣٤٥-٣٤٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي (٨١٢، ٨١٣)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٣/٧٩-٩٤)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم غباس، ومجدي السيد أمين (٤/٢٢٢-٢٢٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢/٣٩٣، ٣٩٤)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٢/١٢٥١-١٢٥٦).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٦٧.

(٣) رياض الصالحين ١٠٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ن ح).

العطاء ولو بفِرْسِن شاة، أو إماطة الأذى عن طريق المشاة، فالعطاء ليس مقياسه الكم الوفير، ولكن يقاس بإخلاص النية، وسلامة القصد، وصلاح الضمير، وهذا هو الطريق إلى إصلاح الأمة، والتعاون على البر والتقوى وكشف الغمة.

وهذه الدعوة المتوهجة بمفاتيح أبواب الخير تموج بكثير من جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي.

ولنتأمل الظواهر الفنية والأسلوبية التي تشع بها تراكيب الحديث الشريف، وكلماته النيرة المشرقة.

أ- **يبتدئ الحديث الشريف بقوله** ﷺ: "أربعون خصلة"، والعدد هنا ليس للتحديد، ولكنه يرمز للكثرة.. واكتمال المراد من فعل الخير، لأن العدد : الأربعين، في الإسلام يراد به الاكتمال والقوة والنضج. ومن هنا: قال بعض العلماء: إن الأولى: ألا يُعتنَى بعدِّها، ومعلوم أنه ﷺ كان عَالمًا بالأربعين المذكورة، وإنما لم يذكرها لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها، وذلك خشية أن يكون التعيين لها مزهدًا في غيرها من أنواع البر، وعدم تحديد هذه الخصال الأربعين من سمات بلاغة الرسول ﷺ، لأن كلامه كما قال الجاحظ: هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، يَبزُّ الخطبَ الطوال بالكلام القصير.

ب- **أعلاها منيحة العنز:** والعطية هنا تأخذ صورة الاكتمال في العطاء وليس في الكم، لأن الدلالة اللغوية لكلمة "منيحة" تفيد ذلك: فهي: أن يعطي المانح العنز للمحتاج ليأكل لبنها ثم يردّها إليه، وتأمل التعبير بالفعل، "يأكل" ولم يقل يشرب، لأن المعطَي هنا بلغ إملاقُه حد العوز، ولم يعد لديه ما يقتات به إلا لبن هذه العنز، ومظهر اكتمال العطية وعلوها: أن صاحبها يسلمها كلها إلى المحتاج ليأخذ منها حاجته حتى يكتفي ثم يردّها إليه، وهي صورة للعطاء الأعلى سموًا ونية وحبًا وتكافلاً، ويقاس على ذلك ما لدى المسلم في العصر الحديث من متاع أو سيارة أو أي آلة ينتفع بها الإنسان، ويعطيها لجاره حتى يقضي حاجته، ويفرِّج أزمته وفي ذلك حث على حتمية التكافل الاجتماعي بين طوائف الأمة، وفي آثار هذا البعد السامي للعطاء يكمن سر الجمال التعبيري في اختيار كلمة "أعلاها" لأن الأعمال بالنيات، وليس بالأرقام والإحصاءات.

وتأمل سر صياغة المصطفى ﷺ بشراه لصاحب هذا العطاء في أسلوب القصر: "ما من عامل يعمل... إلا أدخله الله الجنة" والقصر هنا يطمئن صاحب هذه المنيحة وذلك العطاء إلى فوزه بالجزاء الأوفى والتصريح بلفظ الجلالة "الله": يؤكد ذلك حيث قال: "إلا أدخله الله الجنة"، ولم يقل إلا دخل الجنة، ففضل الله وكرمه يتوجان هذا العمل الجليل الجميل، والتعبير بقوله "ما من عامل" حيث جاءت، "من"، وهي في عرف النحويين زائدة، ولكنها زيادة في الخبر مؤكدة، لتأكيد العموم واستغراقه -كما قال العلماء- والله جل وعلا لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وتنكير لفظ "عامل" للتعميم والشمول، وإيحاء بضرورة العمل الجاد الشريف، وقد حذف النعت والتقدير "ما من عامل مسلم"، لأن ذلك معروف بداهة، والتعبير بالمضارع في قوله "يعمل"، يوحي بضرورة استمرار الأعمال الخيرية النافعة.

وقوله: "بخصلة منها" تبشير بالتيسير، فالخصلة الواحدة تكفي لدخول الجنة إذا كانت مصحوبة بالنية الصالحة رجاء الثواب، وتصديق وعد الملك الوهاب.

فقه الحديث

قال النووي: (تستحب المنيحة، وهي أن تكون له ناقة أو بقرة ذات لبن فيدفعها إلى من يشرب لبنها ثم يردها إليه، لحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا: (أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز...)[(١)].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (الهبة تمليك العين بلا عوض، والعارية: تمليك المنفعة بلا عوض، والمنيحة الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً ليشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع اللبن)[(٢)].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٦/٦، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي مج٤/٧/٩٤، ط دار الكتب العلمية، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٣/٥ وما بعدها ط السلفية.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٩/٢٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحض على أبواب الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل حسن الظن بالله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: سعة فضل الله ورحمته.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والترغيب:

١- الإخبار: حيث أخبر النبي ﷺ عن أربعين خصلة من أبواب الخير من يعمل بها يدخله الله الجنة، وهذا الإخبار من أساليب الدعوة التي ينبغي للداعية اتباعها في دعوته.

٢- الترغيب: من أساليب الدعوة المحببة إلى النفوس أسلوب الترغيب لأنه يحبب النفس في فعل الخير والطاعة وقد جاء في الحديث: ((إلا أدخله الله بها الجنة) وهذا يعطي حافزًا وباعثًا على الإقدام على خصال الخير، وهذا منهج قرآني عظيم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحض على أبواب الخير:

حيث أشار النبي ﷺ إلى أربعين خصلة من أبواب الخير أعلاهن منيحة العنز، وذلك ليفتح الباب أمام المدعوين في تلمس أبواب الخير وطرقها. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: وقد حض النبي ﷺ على أبواب من أبواب الخير والبر لا تحصى كثيرة، ومعلوم أنه ﷺ كان عالمًا بالأربعين المذكورة، وإنما لم يذكرها لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها، وذلك خشية أن يكون التعيين لها مزهدًا في غيرها من أبواب البر قال: وقد بلغني أن بعضهم تطلبها فوجدها تزيد على الأربعين فمما زاده: (إعانة الصانع، والصنعة للأخرق، والستر على المسلم، والذب عن عرضه، وإدخال السرور عليه، والتفسح في المجلس، والدلالة على الخير، والكلام الطيب، والغرس والزرع والشفاعة، وعيادة

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

المريض، والمصافحة والتزاور، والنصح، والرحمة)[١]. فأبواب الخير وطرقه متنوعة وأعماله متعددة، حتى إن من ألوان الخير أربعين عملاً أعلاها مرتبة وأكثرها ثوابًا إعطاء لبن العنز وصوفها وما إلى ذلك، وما من امرئ يعمل بخصلة خير منها رجاء ثوابها من الله وتصديقًا بما وعد من الأجر إلا أدخله الله بها الجنة فما بالك بمن عمل بها جميعًا؟ وما بالك بمن عمل بما هو أعظم منها رتبة وأكثر نفعًا؟[٢].

وهكذا يجب أن يفتح الداعية أبواب الخير أمام المدعوين ليختار كل واحد منهم ما يقدر عليه ومثال هذا في القرآن قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾[٣]. فذكرت الآية أركان الإيمان الواجبة، ثم بينت وعددت مصارف إنفاق المال في سبيل الله، ثم ذكّرت بفرائض الإسلام الواجبة.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل حسن الظن بالله:

يتضح هذا من قول النبي ﷺ "ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها" وهذا حسن ظن بالله وتكون النتيجة "إلا أدخله الله الجنة" وهذا يؤكد ويبين فضل حسن الظن بالله، لأن المؤمن الحق يثق في ثواب الله ووعده ولقد كان من دعاء أهل الإيمان ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((قال الله عز وجل:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٢٩٠.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٢٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٩٤.

أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني))[١].

قال ابن حجر: (أي قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به. وقال القرطبي: معنى ظن عبدي بي الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكًا بصادق وعده)[٢] وفي حسن الظن أيضًا قال النبي ﷺ: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن))[٣] قال النووي: (قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا ويكونان سواء، وفي هذا الحديث تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة)[٤].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: سعة فضل الله ورحمته:

هذا واضح في بيان النبي ﷺ بيان للثواب العظيم الذي أجزله الله لعباده المؤمنين على الأعمال الصغيرة كما ورد في في الحديث "أربعون خصلة..." فهذا من باب رحمة الله سبحانه بالعباد، وتيسيره عليهم وفتح منافذ الخيرات التي بسببها يدخلون الجنة، وواجب الداعية أن لا يقنط الناس من رحمة الله، بل يفتح لهم أبواب الطاعات. وأبواب الرحمة، والعطاء الجزيل من الله تعالى لعباده المؤمنين.

"إن رحمة الله تفيض على عباده جميعًا، وتسعهم جميعًا وبها يقوم وجودهم، وتقوم حياتهم. وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات.

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه -حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار- فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة، وكل حالة، وكل وضع؛ وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه، أو طرده من رحمته. فإن الله لا يطرد من رحمته أحدًا يرجوها. إنما يطرد

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٠٥. ومسلم ٢٦٧٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٣٩٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٧٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٠.

الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها!

وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر، وبالرجاء والأمل، وبالهدوء والراحة، فهو في كنف ودود، يستروح ظلاله ما دام لا يُبعد عنه في الشرود!

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله. فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجزئ على المعصية - كما يتوهم البعض- إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم. والقلب الذي تجزئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقية!

كذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيرًا قويًا في خلق المؤمن، وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه وهو يرى نفسه مغمورًا برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه، فيعلمه ذلك كله كيف يرحم، وكيف يعفو، وكيف يغفر، كما رأينا في تعليم الرسول ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم؛ مستمدًا تعليمه لهم من هذه الحقيقة الكبيرة"[1].

---

(١) انظر: الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني ص ٣٢٢.

الحديث رقم (١٣٩)

١٣٩- **الثَّالثُ والْعشْرونَ**: عَنْ عديٍّ بنِ حاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**اتَّقُوا النار وَلوْ بشقِّ تَمْرةٍ**» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية لهما عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ سيُكَلِّمُه ربُّه لَيْس بَيْنَهُ وبَينَهُ تَرْجُمَان، فَينْظُرَ أيْمنَ مِنْهُ فَلا يَرى إلاَّ مَا قَدَّم**[2]**، وينْظُر أشأمَ مِنْهُ فلا يَرَى إلاَّ ما قَدَّمَ، وَينْظُر بَيْنَ يديْهِ فَلا يَرى إلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فاتَّقُوا النَّارَ ولوْ بِشِقِّ تَمْرةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجدْ، فَبِكَلِمَة طيِّبَةٍ**»[3].

ترجمة الراوي:

عدي بن حاتم: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٢).

غريب الألفاظ:

شِقّ: شِقُّ الشيءِ: نِصْفُه[4].

الترجمان: بضم التاء وفتحها. هو الذي يترجم الكلام، أي ينقله من لغة إلى لغة أخرى[5].

أيمن منه: أي يمينه[6] ووقع في رواية عند البخاري (١٤١٣): فينظر عن يمينه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦/٦٨) ولفظهما سواء، وزاد مسلم: (فمن لم يجد فبكلمة طيبة). أورده المنذري في ترغيبه (٣٩٧٤) بلفظ مسلم بتمامه. وسيكرره المؤلف برقم (٦٩٣).

(٢) زاد البخاري: (من عمله).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦/٦٧) ولفظهما سواء، إلا قوله: (فمن لم يجد فبكلمة طيبة) قال البخاري: قال الأعمش: وحدّثني عمرو بن مرّة، عن خيثمة مثله، وزاد فيه: (ولو بكلمة طيبة)، وقال مسلم: زاد ابن حُجر: قال الأعمش: عن عمرو بن مرّة، عن خيثمة، مثله، وزاد فيه: (ولو بكلمة طيبة) جمعها المؤلف في لفظ واحد. أورده المنذري في ترغيبه (١٢٦٤) بدون قوله: (فمن لم يجد فبكلمة طيبة).

(٤) الصحاح في (ش ق ق).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ت ر ج م).

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٤١٢/١١).

أشأم منه: أي شماله[١] ووقع في رواية عند البخاري (١٤١٣): ثم ينظر عن شماله.

تلقاء وجهه: تلقاء: ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة. والمعنى: مقابلة وجهه[٢]. ووقع في رواية عند البخاري (٦٥٣٩): "ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار".

الشرح الأدبي

ما أكثر طرق الخير، وما أكثر الأبواب المفتوحة للمسلم لكي يفوز بالجنة، وينجو من النار، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٣].

والرواية الأولى في هذا الحديث الشريف تدعو المسلمين إلى أن يتقوا عذاب النار، ولو بشق تمرة.

ودلالة التعبير بقوله: "اتقوا النار"، أقوى من الدلالة بأي تعبير آخر، لأن التقوى: من الوقاية والحذر والوقاية في اللغة، الكلاءة والحفظ[٤]، والمصطفى ﷺ يحذر المسلمين جميعًا في صورة أمر والأمر للوجوب، وصيغة الجمع في "اتقوا"، تفيد بأن الأمر والتحذير للأمة كلها بأن يتخذوا ما يقيهم من عذاب النار من صالح العمل والصدقة وأعمال البر.. وهي كثيرة ولا تُحْصَى، والقليل يُجْدي وينجِّي إذا كان مصحوبًا بالنية الخالصة: وذلك يتجلى في قوله، "ولو بشق تمرة" كناية عن القلة التي تُنجِّي.

والإيجاز هنا في المعنى والمبني، واتقاء النار يكون بوجوه كثيرة متعددة متنوعة، وذلك هو الإيجاز في المعنى، أما المبني: ففي قوله ﷺ: "ولو بشق تمرة" حذف تقديره، ولو كان التصدق بشق تمرة فتصدقوا واتقوا النار بها، فالحذف هنا للإيجاز وللترغيب

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (١١/٤١٢).

(٢) الوسيط في (ل ق ي).

(٣) سورة آل عمران : ١٨٥.

(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (و ق ي).

في التصدق، والعمل الصالح الذي يسوق صاحبه إلى الجنة بفضل الله تعالى ورحمته.

ولنتأمل أسرار البيان النبوي في الرواية الثانية: وهي تفصيل لما أُجْمل في الرواية الأولى، وإخبار يقيني للمسلمين بما سيحدث لكل واحد منهم يوم القيامة: يوم تجزى كل نفس بما كسبت، ويأتي هذا الإخبار في أسلوب القصر دلالة على صدق وقوع الخبر، وتأكيد حصوله لكل واحد من الأمة، بل لكل واحد من الخلق أجمعين، ولذلك قال: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه"، والتعبير بقوله: "من أحد" يفيد الاستغراق والتعميم، ولن يفرَّ أحد من ذلك، والتعبير بقوله: "ليس بينه وبينه ترجمان" يحدد الموقف ويرشد إلى أن الكلام سيكون بدون واسطة ليس عن طريق الرسل أو الملائكة... ولكنه سيكون من الله تعالى لعباده واحدًا واحدًا، ويسمعه كما يريد الله كما سمعه الكليم[١].

وتكملة لهذا المشهد من مشاهد يوم القيامة يصوغ الرسول ﷺ موقف العبد في أسلوب القصر: حيث ترد ثلاث عبارات تُصوِّر حالة العبد وهو يبحث عن دليل للنجاة في موقف الحساب والجزاء، ومع أسلوب القصر نجد المقابلة في تصوير موقف العبد، وهي تجسيد للحيرة والبحث عن أبواب النجاة، وهذه الحيرة تتجلى في هذا البيان النبوي الدال الهادف "فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشام منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه"، وتكررا جملة: "فلا يرى إلا" ثلاث مرات، وذلك لترسيخ الاهتمام بالعمل الصالح في نفس المسلم لأنه هو الذي سيُنجِّي صاحبه، وإلا فالنار مصيره، ولذلك ختم هذا الحديث، بالجملة التي وردت في الرواية الأولى ترغيبًا للمسلم في المبادرة إلى فعل الخيرات، وتقديم العمل الصالح حتى إذا كان قليلاً فهو ينجى من النار ولو كان نصف تمرة، وزيادة في الترغيب يفتح المصطفى ﷺ منافذ النجاة أمام العبد الصالح الذي لا يجد نصف تمرة فيقول: "فمن لم يجد فبكلمة طيبة" فأي بشرى أندى من هذا، وأي رحمة إلهية أعم من ذلك، وأي محبة للعبد الصالح

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/٣٢٤.

أعظم من هذه المحبة من الله عز وجل: والكلمة الطيبة توحد المشاعر، وتجمع القلوب وتجعل الأمة كالبنيان المرصوص.

فقه الحديث

قد اتفق الفقهاء[1] على أن الزكاة فرض عين على كل مسلم يملك النصاب وحال عليه الحول أو عند الحصاد في زكاة الزروع والثمار.

أما الصدقة فلا تتوقف على ملك النصاب ولا حولان الحول، بل تقبل في أي وقت، ولها عند الله أجر عظيم، لأنها تبرع محض وليست فرضًا، ولم تتحدد بقدر معين، بل يقبل من كل مسلم ما يستطيع إخراجه من مال، سواء كان نقودًا أو شيئًا عينيًا، ولو كان شق تمرة كما في الحديث الشريف.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والترهيب، والقصر والحصر.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تبيين الحقائق للناس.

ثالثًا: من واجبات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة والإحسان.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الكلمة الطيبة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر، الترهيب، القصر والحصر:

١- الأمر: ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ "اتقوا النار ولو بشق تمرة" والأمر من الأساليب الدعوية المؤثرة لما فيه من بيان الحقائق للمدعو وحمله على اتباعها والعمل بها.

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/٧٥، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٢٧٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٢٧٨، وشرح منح الجليل ٢/١٠٨، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢/١٤٠، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣/١٤٨، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١/٤٩٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٣٠٨.

وقد ورد استخدام الأمر كثيرًا في القرآن الكريم بصيغ متعددة منها الصريح ومنها غير الصريح، الصريح مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] وقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[2] وغير الصريح كأن يأتي الأمر مجيء الإخبار عن تقرير الحكم نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[3] أو يأتي في صورة مدح الفعل أو مدح صاحبه، نحو: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[4] وغير ذلك[5].

٢- الترهيب: ورد الترهيب في قوله ﷺ: "فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه". والترهيب من أساليب الدعوة، وفيه معنى التخويف، وهو باعث للنفس على الإقدام على الطاعات، ومجانبة المنكرات اتقاءً للنار والعذاب، والترهيب من أساليب القرآن الكريم قال الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[6] وعلى الداعية أن يفيد من هذا الأسلوب في الدعوة ويجمع بين الترغيب والترهيب.

٣- القصر والحصر: لقد ورد ذلك في قوله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه" ولا شك أن القصر والحصر يفيد الاستغراق، أي لن يفلت أحد من هذا الموقف، ويعتبر القصر من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية لإقناع المدعوين، لأنه يحمل في طياته معنى التوكيد والتحديد.

---

(١) سورة البقرة، آيةك ٤٣.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٣.

(٤) سورة الفتح، آية: ١٧.

(٥) انظر: الموافقات، للإمام الشاطبي، ١٤٤/٣.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٢.

ثانيًا- من واجبات الداعية: تبيين الحقائق للناس:

يستنبط ذلك من إخبار النبي ﷺ بأنه ((ما من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)) فقد بيّن ﷺ أن الله سيحاسب المؤمنين بلا واسطة، وواجب الداعية عرض الحقائق للمدعوين وإخبارهم بها لأن هذا من أمانة التبليغ، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾[1] وعندما يعلم المدعو بهذه الحقائق يستعد لها، ويعمل على مرضاة الله عز وجل، ويتزود بتقوى الله تعالى، ويحمل نفسه على البعد عن المعاصي، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب. فإن عذاب النار مؤلم، والخوف منها يجب أن يستمر ما دام الإنسان في الحياة. ولما كان دأب العاقلين التأهب للأخطار ومحاولة اجتنابها، فإن على المؤمن أن يحترز من النار ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ ولقد بين رسول الله ﷺ هول الموقف وأن الله تعالى سيحاسب المؤمنين بلا واسطة. فلا ينفع يومئذ إلا العمل ومن أعظم العمل التصدق بما يستطيع الإنسان ولو بنصف تمرة، فإن كان من العاجزين على الإنفاق فلا أقل من الكلم الطيب، والمعاملة الحسنة، ومواساة المساكين وعدم السخرية منهم أو الازدراء بهم[2].

ثالثًا- من واجبات الداعية: مراعاة أحوال المدعوين:

من الأهمية بمكان أن يراعي الداعية أحوال المدعوين، وعدم تكليفهم ما لا يطيقونه، ويتضح هذا من قول النبي ﷺ: "فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة" ورغم أن شق التمرة أمر ميسور لكل أحد أن يتصدق به، ولكن النبي ﷺ راعى أنه قد يوجد من لا يملك شق تمرة، فوجهه إلى أمر آخر لا يكلف مالاً وهو الكلمة الطيبة، وهكذا يجب أن يراعي الداعية حال المدعوين، وينوع لهم في بيان طرق الخير ليفعل كل واحد ما يتناسب مع حاله.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٢٥.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "فاتقوا النار ولو بشق تمرة" وهذا يعني أن التصدق ولو بالقليل يقي الإنسان من النار. هذا وقد جاء الأمر بالصدقة في مواضع عدة من القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[(١)] وبين الله سبحانه فضل الصدقة والإنفاق في سبيله فقال جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(٢)].

قال ابن كثير: (هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، والله يضاعف لمن يشاء بحسب إخلاصه في عمله، والله واسع عليم أي: أن فضله واسع كثير، أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق)[(٣)].

وفي ثواب الصدقة والحث عليها قال ﷺ: ((من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه[(٤)] حتى تكون مثل الجبل))[(٥)] قال ابن حجر: (وضرب المثل بالمهر لأنه يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيمًا، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل ابن آدم - لاسيما

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/٦٩١.

(٤) الفلو: المهر وقيل هو كل فطيم من ذات حافر. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٢٨.

(٥) أخرجه البخاري ١٤١٠، ومسلم ١٠١٤.

الصدقة- فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال، حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين التمرة إلى الجبل)[١]. وباب فضل الصدقة والثواب عليها باب واسع يجب على الداعية تذكير المدعوين به.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الكلمة الطيبة:

لقد أرشد النبي ﷺ إلى أن من لم يجد شق تمرة يتقي به النار فبكلمة طيبة قال النووي: (وفي الحديث أن الكلمة الطيبة سبب للنجاة من النار، وهي الكلمة التي فيها تطييب قلب إنسان إذا كانت مباحة أو طاعة)[٢]. قال ابن عثيمين: (والكلمة الطيبة تشمل قراءة القرآن، فإن أطيب الكلمات القرآن الكريم. وكذلك تشمل التسبيح، وكذلك تشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشمل تعليم العلم وتعلم العلم، وتشمل كذلك كل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه من القول، يعني إذا لم تجد شق تمرة؛ فإنك تتقي النار ولو بكلمة طيبة. فهذا من طرق الخير وبيان كثرتها ويسرها، فالحمد لله أن شق التمرة تنجي من النار، وأن الكلمة الطيبة تنجي من النار)[٣]. هذا وقد جعل الله الكلمة الطيبة أفضل من الصدقة التي يتبعها أذى قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[٤] وقد جعل النبي ﷺ الكلمة الطيبة صدقة ففي الحديث ((الكلمة الطيبة صدقة))[٥] ولاشك أن طيب الكلام، ولين المقال له أثر طيب في نفوس الناس، ويداوي أمراض القلوب، وينزع الشحناء والبغضاء من الصدور ومن أجل هذا استحقت الكلمة الطيبة أن تكون سببًا من أسباب النجاة من النار.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٣٢٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ١/٣٨١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٦٣.

(٥) أخرجه البخاري ٢٩٨٩، ومسلم ١٠٠٩.

الحديث رقم (١٤٠)

١٤٠- الرَّابِع والْعشرونَ: عنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللَّه لَيرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فيحْمَدَهُ عليْهَا، أَوْ يشْرَبَ الشَّرْبَةَ فيحْمَدَهُ عليْهَا»** رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الأكْلة: بفتح الهمزة، وهي: المرة الواحدة من الأكل كالغدوة أو العشوة(٢).

الشرح الأدبي

إن استقبال نعمة الله في المنهج الإسلامي يكون بالحمد والشكر والاعتراف بفضل المنعم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾(٣).

وهذا الاستقبال الإيماني المصحوب بالحمد والشكر يعد من طرق الخير التي يضاعف بها المسلم حسناته، ويرفع بها درجاته، فهي خير قادم إليه، ونافع له، وفي الوقت ذاته ميدان للشكر والحمد، وطريق من طرق الطاعة التي تجعل العبد يفوز برضا خالقه ومانحه العطايا، وواهبه كل ما يملك.

ونقتبس من الحديث النبوي الشريف أصداء هذه المعاني، ونُبْصر في كلماته أطياف الرضا الرباني، وأول شعاع من أشعة هذا الرضا الإلهي يبرق ويسطع في بداية الحديث حيث يبدأ بالتأكيد "بإن"، ثم اقتران الفعل "يرضى" باللام، وهي تزيد الخير تأكيدًا، وهل هناك تأكيد أبلغ من هذا البلاغ النبوي، "إن الله ليرضى عن العبد"،

---

(١) برقم (٨٩/٢٧٣٤). أورده المنذري في ترغيبه (٣١٩٥). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٩٨).

(٢) رياض الصالحين ١٠٤، ٢١٣.

(٣) سورة الأعلى: ٢-٤.

وتقديم التأكيد مع لفظ الجلالة يزيد النفوس اطمئنانًا، والقلوب إيمانًا، فما أعظم أن يرضى اللهُ عن عبده، وما أجلَّ أن يسلك العبدُ المسلك الحميد الذي يجعله أهلاً لهذا الرضا الإلهي العظيم.

ولنتأمل ما يشعُّ به لفظ "العبد" من معان ورُؤًى وأسرار في سياق الرِّضا الرباني، ولم يقل ﷺ: المرء أو الإنسان أو المسلم، لأن هذه الألفاظ تؤدي الدلالات المرادة في هذا السياق، فلفظ: "العبد"، جيئ به للإشعار بأن الكل ينتمي بالعبودية لله عز وجل، وما ربك بظلام للعبيد.

والعبودية تقتضي الحمد والشكر لأن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز. يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

ولنتساءل: ما سر الجمال التعبيري في اختيار اسم المرة في قوله: "يأكل الأكلة: أو يشرب الشربة"، إن هذه الصيغة تفصح عن أن الله سبحانه يستحق الحمد على النعمة وإن قلّت، وكذلك: توحي هذه الصيغة بدوام الحمد في كل يوم عدة مرات: لأن الإنسان لا يمتنع عن الطعام والشراب، فالحمد دائم بدوام الحياة، ودوام الرزق، ودوام الإيمان: ومن هنا يتوهج ويشرق في نفوسنا معنى قول رسول الله ﷺ "الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض"[2].

ويستمر الإشعاع الأسلوبي الذي تتوهج به الصياغة الناطقة بالدلالة والعِبْرة، فمجيء الأكل والشرب والحمد في صيغة الفعل المضارع: إشارة إلى استمرار هذا الفعل الذي لا ينقطع ولا يمتنع لأنه من مكونات استمرار الحياة: فالحياة لا تستمر بدون الطعام والشراب، والمؤمن يحمد الله شاربًا وآكلاً، ولذلك كرر الحمد مع الأكل ومع الشرب، والعبد يستشعر نعمة الله، ويستحضر عظمة الله فيحمده في كل وقت: لأن الله سبحانه بمشيئته نما الزرع، ودرّ الضرع، وتكاثر الغذاء، وتفجر الماء، وهو بقدرته

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

سلك الماءَ ينابيعَ في الأرض، وأنزله من السماء فأصبحت الأرض مخضرّة، وتفجرت الينابيع بالماء العذب الزلال، وفاضت الأنهار بموجات السلسبيل السائغ العذب الطهور، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، فاللهم هبنا رضاك، وامنحنا الحمد والشكر على نُعْماك.

فقه الحديث

هذا الحديث يشير إلى الأحكام التالية:

١- يستحب لمن أكل أو شرب أن يحمد الله تعالى.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الحمد منها ما روى مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ((الطُّهورُ شَطْرُ الإيمَان والحَمْدُ للهِ تملأُ الميزَانَ وسُبْحَانَ اللهِ والحمدُ لله تملآن أو تمْلأُ ما بَيْنَ السَّماواتِ والأَرْض))[2].

وأحسن عبارات الحمد: الحمد لله رب العالمين، إذ هي فاتحة الكتاب العزيز ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، وآخر دعوى أهل الجنة: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

وما روى أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه حيث قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أكل أو شرب قال الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوّغه وجعل له مخرجا)[5].

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ١.

(٤) سورة يونس، آية: ١٠.

(٥) أخرجه أبو داود ٣٨٥١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٦١).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان بعض آداب الطعام والشراب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان كرم الله تعالى على عباده.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

لقد جاء في الحديث قوله ﷺ "إن الله" وهذا توكيد على رضا الله تعالى عن العبد الذي يأكل الأكلة ويحمد الله عليها، أو يشرب فيحمده سبحانه، وهو من أساليب الدعوة التي تبين مدى وثوق الداعية مما يقول، وهذا يفيد في إقناع المدعوين، والدلالة على صدق الداعية فيما يخبرهم به.

ثانيًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن مما ينبغي للداعية أن يوليه اهتمامه بيان رضا الله تعالى عن المؤمن الذي يحمد الله تعالى على نعمه التي منّ بها عليه، وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن رضا الله سبحانه عن العبد إذا ما حمده عند الطعام والشراب، ولاشك أن معرفة المدعو بهذه الحقيقة تجعله شديد الحرص على التزام الحمد في المواطن كلها لينال رضا الله عز وجل، فيجب على الدعاة ألا يتخلوا عن مهمتهم ووظيفتهم، وهي عرض وبيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان بعض آداب الطعام والشراب:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث بيان بعض آداب الطعام، والتي منها حمد الله سبحانه على نعمة الطعام والشراب، لأن الله يرضى عن العبد الذي يفعل هذا؛ حيث قال رسول الله ﷺ: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الاكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها" قال النووي: فيه استحباب حمد الله تعالى عقب الأكل والشرب، وقد جاء في البخاري صفة التحميد؛ فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: ((الحمدُ لله كثيرًا طيِّبًا مُباركًا فيه، غير مَكفِيّ ولا مُودَّع

ولا مُستَغنىً عنه ربّنا))[١]. ولو اقتصر على الحمد لله حصل أصل السنة[٢].

(وفائدة الحمد بعد الطعام أداء شكر المنعم وطلب زيادة النعمة لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣] وفيه استحباب تجديد حمد الله عند تجدد النعمة من حصول ما كان الإنسان يتوقع حصوله، واندفاع ما كان يخاف وقوعه، ثم لما كان الباعث هنا هو الطعام ذكره أولاً لزيادة الاهتمام به، وكان السقي من تتمته لكونه مقارنًا له في التحقيق غالبًا، ثم استطرد من ذكر النعمة الظاهرة إلى النعم الباطنة، فذكر ما هو أشرفها وختم به، لأن المدار على حسن الخاتمة، مع ما فيه من الإشارة إلى كمال الانقياد في الأكل والشرب وغيرهما، قدرًا ووصفًا ووقتًا، احتياجًا واستغناءً، بحسب ما قدره وقضاه)[٤] إن في تعليم الحمد بعد الطعام والشراب هو تعويد للنفس على شكر الله عز وجل على نعمه وفي الحديث ((الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر))[٥].

قال الطيبي: (إن الشكر نتيجة النعماء كما أن الصبر نتيجة البلاء، وقد ورد أن الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر، وربما يتوهم متوهم أن ثواب شكر الطاعم يقصر عن ثواب صبر الصائم، فأزيل توهمه به، يعني هما سيآن في الثواب، وفيه وجه آخر وهو أن الشاكر لما رأى النعمة من الله تعالى، وحبس نفسه على محبة المنعم بالقلب، وأظهرها باللسان نال درجة الصابر)[٦].

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة، فيحمده عليها" قال القرطبي: (والحمد هنا بمعنى الشكر ... والحمد

---

(١) أخرجه البخاري ٥٤٥٨.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٣.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٤) تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٢٤٦٢/٢.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٤٨٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢١).

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٥٦/٨.

يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد، وفيه دلالةٌ على أن شكر النعمة نيل رضا الله تعالى؛ الذي هو أشرف أحوال أهل الجنة، وسيأتي قول الله عز وجل لأهل الجنة حين يقولون: "أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقِك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ [فيقولون: ما هو؟ ألم تُبيض وجوهنا، وتدخلنا الجنة، وتزحزحنا عن النار؟]، فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا"[1]. وإنما كان الشكرُ سببًا لذلك الإكرام العظيم؛ لأنه يتضمَّن معرفة المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، وبإيصالها إلى المنعَم عليه، تفضُّلاً من المنعم، وكرمًا، ومنَة، وإن المنعم عليه فقير محتاج إلى تلك النعم، ولا غِنى به عنها، فقد تضمَّن ذلك معرفة حق الله وفضله، وحق العبد وفاقته، وفقره، فجعل الله تعالى جزاء تلك المعرفة تلك الكرامة الشريفة)[2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان كرم الله تعالى على عباده:

وهذا يدل على أن رضا الله عز وجل يُنال بأدنى سبب، قد ينال بهذا السبب اليسير ولله الحمد يرضى الله عن الإنسان إذا انتهى من الأكل قال: الحمد لله، وإذا انتهى من الشرب قال الحمد لله، ويدل على فضل الله تعالى وكرمه لعباده. ومما يؤيد هذا الكرم ما أعده لعباده من النعيم والجنان نتيجة رضاه عنهم قال الله عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[3] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾[4] قال السعدي: (إن الذين اتقوا سخط ربهم،

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٤٩، ٧٥١٨، ومسلم ٢٨٢٩ بلفظ: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا) واللفظ للبخاري.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦١/٧.

(٣) سورة الرعد، آية: ٣٥.

(٤) سورة النبأ، آية ٣١، ٣٢.

بالتمسك بطاعته، والانكفاف عن معصيته فلهم مفاز ومنجى، وبعد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم بساتين جامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار، وأعنابًا تتفجر خلالها الأنهار)[١] وهذا كله من كرم الله سبحانه، وواجب الدعاة أن يبينوا للناس فضل الله تعالى وكرمه على عباده المؤمنين.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق في تفسير كلام المنان ٨٣٩.

الحديث رقم (١٤١)

١٤١- **الْخَامِسُ والْعشْرُونَ:** عن أَبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صدقةٌ**» قال[١]: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: «**يعْمَل بيَدِيهِ فَينْفَعُ نَفْسَه وَيَتَصدَّقُ**»: قَال: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يستَطِعْ؟ قال: «**يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْملْهوفَ**» قالَ: أَرأَيْت إِنْ لَمْ يستَطِعْ قالَ: «**يَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ**» قالَ: أَرأَيْتَ إِنْ لَمْ يفْعلْ؟ قالْ: «**يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صدَقَةٌ**» متفقٌ عليه[٢].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

الملهوف: المضطر يستغيث ويتحسر من ظلم أو عجز أو غيرهما[٣].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأخير في باب: بيان كثرة طرق الخير، وهي طرق مُعَبَّدة بالنيات الصالحة يسلكها المتقون، وأورد النووي خمسة وعشرين حديثًا في هذا الباب، ويختمها بهذا الحديث الحواري الهادف، وهو يعطي نموذجًا للتيسير في الإسلام عملاً بقوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤].

ولكن أبواب الخير لا تُسدُّ، وطرقه لا تنتهي مهما ضاقت بالناس سبل الحياة، فالحديث ينير لكل أفراد الأمة الإسلامية سبل التكافل فيما بينهم، ويضئ آفاق

---

(١) لفظ مسلم: (قيل).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٢)، ومسلم (١٠٠٨/٥٥) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٧٣).

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦١/٢ والنهاية، والوسيط في (ل هـ ف).

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

التراحم والمودة والعطف بين طوائفهم، وسبيل ذلك هو تكوين ملكة العطاء والتصدق في نفس المسلم بحيث يكون منهجه التعاون والعطاء والنصيحة والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإمساك عن الشر، وإشاعة عاطفة الخير بين الناس.

وأول ظاهرة أسلوبية في هذا الحديث الشريف: هي ظاهرة الحوار والتدرج المنطقي السديد في عرض وقائع هذا الحوار، وتفصيل قضاياه، ويبدأ الحديث بقاعدة عامة من قواعد المنهج الإسلامي، وقواعد السلوك في حياة المسلم، "على كل مسلم صدقة"، أي في كل يوم شكرًا لله على نعمة الخلق... ويفصِّلُ هذا الإجمال ما روى في حديث آخر، "على كل سلامي من الناس صدقة"، والجملة هنا تغلفها ظاهرة التقديم والتأخير، فكلمة "صدقة" مبتدأ مؤخر و"على كل مسلم"، خبر مقدم، والتقديم هنا يفيد التزام المسلم بذلك، وبأن الصدقة ليست هى الهدف فقط، ولكن لابد أن يكون المتصدق مسلمًا، فالصدقة في غياب العقيدة الصحيحة ليس لها ثمرة إلا المنفعة الدنيوية، ولا قيمة لها عند الله تعالى.

ولفظ: "كل" يفيد الحصر والاستقصاء، فلا يستثني مسلم من ذلك، وباقي الحديث يفصح عن هذا المنهج.

ويسأل الصحابي الذي يحاور رسول الله ﷺ "أرأيت إن لم يجد"، فيرشده نبي الرحمة ﷺ إلى سبيل عملي من سبل العطاء والتصدق وهو العمل باليد، وهو فيه نفع للنفس، وإعزاز لها، ومجال للتصدق مما اكتسب ثمنًا أو أجرة أو ثمرًا.

وتأمل جملة السؤال حيث جمعت عدة أساليب: الاستفهام والشرط، لطلب المزيد من المعرفة، واختيار الفعل، "أرأيت"، مقترنًا بالاستفهام من باب التأدب مع رسول الله ﷺ: وهذا أكثر بلاغة ومواءمة للسياق، ومراعاة لمقتضى الحال من قوله: "فإن لم يجد"، ويتدرج الحوار إلى سبيل آخر من سبل "الخير" في حالة العجز عن التصدق من عمل اليد، وهو التصدق المعنوي عن طريق إعانة ذي الحاجة الملهوف، فالتعاون معه، والوقوف معه في شدته، وقضاء حاجته من طرق الخير الدالة على التراحم والتعاطف بين

أبناء المجتمع الإسلامي، ويتكرر السؤال مرة ثالثة: "أرأيت إن لم يستطع"؟ ولا يغلق نبيُّ الرحمة البابَ بل يفتح مجالاً جديدًا من مجالات الخير والنفع وهو: الأمر بالمعروف بكل صوره، وفي ذلك تيسير على كل مسلم لا يملك المال الكثير ولا يقدر على التصدق من عمل يده، ولا يستطيع إعانة ذي الحاجة لأنه يفتقد مقومات ذلك وليست لديه القدرة على الأمر بالمعروف: فيفتح الرسول ﷺ مجالاً آخر من مجالات التصدق: وهو إصلاح الذات، وتهذيب السلوك الشخصي حيث يمسك الإنسان عن الشر، ويصلح من نفسه، ولا يؤذي غيره، وهذا تصدق وإحسان، ومن الشر ترك الفرائض، والالتزام بها واجب وصدقة أيضًا، ولنتأمل الفروق التعبيرية في جمل الاستفهام التي تخللت الحوار: ففي الجملة الأولى قال: "فإن لم يجد" فاختيار الفعل هنا وهو الإيجاد، مناسب للمقام: لأنه جاء عقب قوله ﷺ: "على كل مسلم صدقة"، وبعض المسلمين لا يجدون مالاً فائضًا عن حاجتهم يتصدقون به.

أما الجملتان: الثانية والثالثة: فعبر السائل بقوله: "أرأيت إن لم يستطع"، وقد عدل عن نفى الإيجاد إلى نفى الاستطاعة، لأن السياق والمقام يقتضيان ذلك: فالذي يعمل بيديه قد لا يستطيع بجهده أن يدخر ما يتصدق به، لأن جهده ضعيف أو صاحب مرض أو صاحب عيال، وينفق كل ما يكسب عليهم، وكذلك في الجملة الثالثة: يجئ التعبير بنفى الاستطاعة مناسبًا : لأن إعانة ذي الحاجة تتطلب القدرة البدنية والعقلية. وربما لا يمتلك بعض المسلمين هذه القدرة التي لا يستطيع بها قضاء حاجات الناس.

وأما في الجملة الرابعة فقال: "أرأيت إن لم يفعل"، فعبر بالفعل، يفعل... ولم يقل يستطيع أو يجد، لأن الأمر بالمعروف هو صدقة قولية لا تحتاج إلى رصيد من المال، ولا إلى قوة بدنية، ولكن تحتاج إلى إرادة، وملكة بيانية، واتجاه إلى النصيحة الخالصة، وبعض الناس لا يقوم بذلك لأنه لا يملك أدوات الإقناع، أو لا يعرف كيف يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر، فهو لم يقم بهذا الفعل المشروع.

وهنا نلمح سرًا من أسرار البيان النبوي، وهو اختياره للفعل "يمسك" في قوله "يمسك عن الشر" فالإمساك... والسكوت والصمت في الإسلام، خير من الفعل والكلام اللذين

يقودان الإنسان إلى الشرور وفي الحديث "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت"[١].

وهذه الآفاق الخمسة من آفاق الخير والتصدق.. تمثل اتجاهات وطوائف في المجتمع الإسلامي، وكل طائفة تتجه إلى الطريق الذي تستطيع إنجاز الخير من خلاله، ولكن حسب الترتيب الذي قدمه رسول الله ﷺ.

وحين نتأمل ارتباط الأفعال بالزمن اللغوي في هذا الحديث الشريف نجدها كلها أفعالا مضارعة في الجملة التي يصاغ فيها الجواب، ومجيئها كلها في صيغة المضارع الدال على الحال أو الاستقبال يشير إلى ضرورة عدم انقطاع هذه الأعمال الخيرة، وهذه الصدقات التي تتعدد طرقها حسب حال المتصدق ومقوماته، وهذه الأعمال تظل مرتبطة بحركة الحياة المستمرة، وليست قاصرة على موقف واحد أو جيل واحد، وإنما هي تتجدد مع كل شخص وفي كل زمن إلى قيام الساعة.

والجملة الأولى في الحديث تعد قاعدة ثابتة مستقرة مرتبطة بمنهج المسلم وعقيدته، ولذلك صِيغت في قالِبِ الجملة الاسمية الدالة على الثبات وعدم التغير والتبدل، وقُدِّم فيها لفظ المسلم مع كل، على لفظ الصدقة للإشعار بأن الإسلام هو الطريق الصحيح لقبول الأعمال.

فمنهج الإسلام يقوم على تهذيب الوجدان، وتنمية الشخصية، والقيام بالواجبات الاجتماعية، وتربية الضمير الحي المستيقظ، وروح الألفة والتآخي، وملاحظة الحقوق بين الناس بعضهم مع بعض، وذلك من شأنه أن يحقق التكافل الاجتماعي السليم، إذ تتلاقى إرادات الآحاد بعضهم مع بعض، فيتكون الاجتماع على محبة الله تعالى وتقواه فيكون المجتمع قويًا مؤتلفًا، لأنه تكوّن من قلوب متآلفة، لا من جسوم متراصة[٢].

وكأن هذا الحديث الحواري الجميل يجمع طرق الخير السابقة في هذا الباب، بما قدمه رسول الله ﷺ من إجابات شافية كافية واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد،

---

(١) أخرجه مسلم ٤٨.

(٢) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ٢٣٩.

ولكنه وضوح وإيجاز وتسديد، وحوار منهجي مقنع رشيد.

ولا غرابة في ذلك: فإن أول صفات التعبير في البيان النبوي -كما قال د. محمد رجب البيومي- سهولة المأخذ، وقُرْب المتناول، فإذا تلقى السامع حديثه ﷺ ظن لسلامته ويسره أنه مما تسهل محاكاته، فإذا أراد أن يأتي بمثله طاش وحار، وليس اليسير السهل مما يُمَلُّ على التكرار، ولكنه يتردد ويظل محتفظًا بجدته الطريفة، إذ أن وراءه فكرًا دقيقًا يزن الرأي السديد ميزانًا تامًا ثم يعرضه في يسر قريب المتناول، وهكذا يكون البيان النبوي مشرقًا ومؤثرًا في نفوس سامعيه وقارئيه. كما تشرق الشمس فتوقظ النفوس، وتحيي القلوب وتضيء الآفاق.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال والجواب.

ثانيًا: من صفات الداعية: مراعاة ظروف المدعوين وسعة الصدر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل العمل والاجتهاد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التعاون.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: كف الأذى عن الناس.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال والجواب:

١- **الإخبار:** حيث أخبر الرسول ﷺ أن على كل مسلم صدقة، والإخبار أسلوب من أساليب الدعوة، وهو يعين الداعية على تبليغ دعوته، ويلفت انتباه المدعو إلى أن هناك أمرًا أو نهيًا، أو دلالة على الخير ينبغي التعرف عليها والانتباه إليها.

٢- **السؤال والجواب:** حيث تكرر في الحديث: ((أرأيت إن لم يجد؟ أرأيت إن لم يستطع؟ أرأيت إن لم يفعل؟)) وهو من أساليب الدعوة المهمة التي تؤدي إلى نوع من التفاعل والحوار بين الداعية والمدعو، ويتيح الفرصة للمدعوين للسؤال عما خفي عليهم ويتيح لهم معرفة الأدلة والأحكام، وهو كذلك يساعد على فهم المراد من الكلام، لأن الإجابة تنصب على مضمون السؤال، ولذا يجب على الدعاة تفعيل هذا الأسلوب،

حتى يفيدوا منه في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

ثانيًا- من صفات الداعية: مراعاة ظروف المدعوين وسعة الصدر:

فليس كل مسلم قادرًا على إخراج الصدقة، ولذا لما سئل رسول الله ﷺ في هذا قدَّم البدائل التي يمكن من خلالها أخذ أجر الصدقة من غير دفع مال، فأرشد إلى إعانة الملهوف، والأمر بالمعروف، وكف الأذى إلى آخر هذه الأمور التي قد يُظَن أن لا يثاب فاعلها، وفي هذه البدائل التي قدمها رسول الله ﷺ مراعاة لظروف المدعوين وأحوالهم ومقدرتهم، وهذا من حصافة الداعية، أما بالنسبة لسعة صدر الداعية فتلك صفة ينبغي ألا ينفك عنها، خاصة وأن الإنسان قد يملُّ من كثرة الأسئلة الموجهة إليه، وقد يُشْعِر الآخر بتضجره، بيد أن الداعية من أهم صفاته أن يكون واسع الصدر، لا يبدي ضجرًا ولا ضيقًا حتى يشجع المدعوين على السؤال والاستفسار، وفي الحديث قال الرسول ﷺ جملة واحدة ((على كل مسلم صدقة)) وجهت له على أثرها أربعة أسئلة، وفي كل مرة يجيب ويوضح ويبين، ولو أنه ضاق صدره لما استمر المدعو في عرض أسئلته، ولضاعت الفائدة على الجميع، ولذا فعلى الداعية أن يتحلى بسعة الصدر والحلم واللين والرفق وقد قال الله لنبيه ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الصدقة:

يتضح هذا من قول النبي ﷺ ((على كل مسلم صدقة))، وفي ذلك حث على الصدقة، فنعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى، ومن أعظمها نعمة المال والصحة و العلم، من أجل ذلك حث النبي ﷺ على التصدق بالمال، فهو عصب الحياة وبه تُيسر وتقضى حاجات الأفراد والجماعات، فإن لم يجد المسلم المال، حثه على أن يعمل عملاً ينتفع به من الذي هو في حاجة إلى المساعدة وقضاء الحاجة، فإن لم يستطع، فتكون صدقته بأن يأمر بالمعروف أو الخير، وهذا باب عظيم فلو تآمر الناس بالمعروف وتناهوا

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

عن المنكر لعم الخير وانصلح الحال، فإن لم يفعل، كانت صدقته بمنع شره عن غيره، وفي ذلك حث على الصدقة لأهميتها وثوابها عند الله. وقد بين الله تعالى ثواب الصدقة من المال قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1] وذكر الله سبحانه ثواب المنفق فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

قال السيوطي: (وعن قتادة في الآية قال: هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله الذي افترض عليهم، في غير سرف ولا إملاق ولا تبذير ولا فساد)[3]. ووعد الله بأن يخلف على من يتصدق وينفق، قال سبحانه ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[4]. قال القرطبي: (وما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه عليكم ويعطيكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى)[5]. هذا وقد جاء في الحديث أن الصدقة لا تنقص المال قال رسول الله ﷺ ((ما نقصت صدقة من مال))[6] وأرشد إلي أن الصدقة تكفر الذنوب قال ﷺ ((والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار))[7] (والمراد بالخطيئة أي التي تجر إلى النار ومعنى تطفئها أي: تذهبها وتمحو أثرها)[8]. فهذه النصوص وغيرها تدل على فضل وثواب الصدقة بالمال، وقد بين رسول الله ﷺ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٤.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٣٦٠/٣.

(٤) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج٧/١٤/ ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٧) أخرجه الترمذي ٦١٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٥٠١).

(٨) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٨٥٩/١.

أن ثوابها أيضًا يشمل من يعمل بيده فيتصدق، ومن يعين الملهوف ذا الحاجة ومن يأمر بالمعروف، ومن يكف أذاه عن الناس كما دل الحديث.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على العمل والاجتهاد:

جاءت الإشارة إلى هذا في الحديث ((يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق)) وفي ذلك حث على العمل والاجتهاد، قال ابن حجر: (قال ابن بطال: فيه التنبيه على العمل والتكسب، ليجد المرء ما ينفق على نفسه ويتصدق به ويغنيه عن ذل السؤال)[1]. وهذا يدل على أن الذي يعمل ويجتهد يعود عليه النفع أولاً، وقد أرشد القرآن إلى أن حياة الإنسان كلها كد وتعب ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾[3] وبين ﷺ أن العمل والاجتهاد أفضل من سؤال الناس ففي الحديث ((والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه أو منعه))[4].

قال ابن حجر: (وفي الحديث الحث على التعفف عن المسألة والتنزه عنها، ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع، لم يفضل ذلك عليها، ولا خير في السؤال مع القدرة على الاكتساب)[5] وفي فضل العمل والاجتهاد جاء في الحديث أيضًا ((ما أكل أحد طعامًا خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده))[6] والنصوص في هذا كثيرة وواجب الداعية أن يوجه المدعوين إلى ضرورة العمل والاجتهاد، وترك المذلة والسؤال.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٥٠/٣.

(٢) سورة البلد، آية: ٤.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٧٠، ومسلم ١٠٤٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩٤/٣.

(٦) أخرجه البخاري ٢٠٧٢.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التعاون:

حيث جاء في الحديث "يعين ذا الحاجة الملهوف" وهذا يدل على أهمية التعاون في الإسلام، ومن أهم أسس التعاون في الإسلام العمل على إيجاد مجتمع فاضل يتجلى فيه الخير والصلاح، تأمر فيه الجماعة بالمعروف وتنهى عن المنكر لحماية المصالح المعتبرة في الشريعة، وأول مظهر لهذا المجتمع وجود رأي عام يتعاون على الخير ودفع الشر[1].

فالتعاون يوجب الذود عن الأخلاق والفضائل، ويوجب على الرشيد أن يهدي الضال وعلى العالم أن يعلم الجاهل فتكون الجماعة في فضيلة ظاهرة تتعاون على الخير ولا تتعاون على شر قط.

وتؤكد الشرائع والنظم أن المجتمع الصالح يجب أن يكون كل أفراده كالشخص الواحد في تعاونهم، إسهامًا في السراء والضراء، ومشاركة في الحال والمآل تندرج في مراتبها. أولها: أن تقوم بحاجة أخيك من الفائض من مالك، وأعلى ذلك مرتبة أن تنزله منزلة نفسك في قضاء حاجاته عملاً بقول الرسول ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))[2] ثم تأتي المرتبة العليا وهي أن تؤثره على نفسك فتقدم حاجته على حاجتك وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3] ومن مظاهر التعاون في الإسلام كفالة اليتيم وإكرامه والعطف عليه، وإعانة كل الضعفاء والمحتاجين، فالضعفاء أحوج الناس إلى التعاضد والشفقة والرحمة[4].

وهذا توجيه إسلامي فريد وقد أمر الله بالتعاون في القرآن فقال ، ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى

---

(١) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، محمد أبو زهرة ص ٩.

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

(٤) انظر: موسوعة القيم والأخلاق العربية والإسلامية ١٣/٥٣-٥٤.

ﭐلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[1]. ومن صور التعاون التي عرضها القرآن ما حدث من موسى عليه السلام عندما أعان الفتاتين على سقي الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2] والمعنى (لا نسقي مواشينا حتى يصدر[3] الرعاء لأنا امرأتان لا نطيق أن نسقي، ولا نستطيع أن نزاحم الرجال، ولأن أبانا شيخ كبير لا يقدر أن يسقي مواشيه، فزاحم موسى عليه السلام القوم ونحاهم عن رأس البئر، فسقى غنم المرأتين)[4].

ولقد بشر النبي من يكون في حاجة أخيه المسلم بأن الله يكون في حاجته، ففي الحديث ((من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته))[5] وبين النبي ﷺ أن من يكون في عون أخيه المسلم يكون الله في عونه، ففي الحديث ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))[6] وواجب الداعية استحضار هذه النصوص، وتذكير المدعوين بها حتى يسود التعاون بين أفراد المجتمع.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: كف الأذى عن الناس:

حيث أخبر النبي ﷺ أن كف الأذى من الصدقات، فقال في الحديث الذي معنا ((يمسك عن الشر فإنها صدقة)) فإن لم يستطع المسلم فعل شيء من الصدقة، والإنفاق في سبيل الله، وقول الحق والأمر بالخير والنصيحة لكل مسلم، فعليه أن يكف شره عن الناس، ويصرف نفسه عن السوء، ولا يتعدى على غيره بيده أو لسانه، فإن ذلك له صدقة[7]. وقد جاء في آيات القرآن ما يحذر من إيذاء المؤمنين فقال سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٢.

(٢) سورة القصص، آية: ٢٣، ٢٤.

(٣) يصدر: أي ينصرف، لسان العرب في (ص د ر).

(٤) معالم التنزيل، الإمام البغوي، مرجع سابق، ٦/٢٠٠.

(٥) أخرجه البخاري ٢٤٤٢. ومسلم ٢٥٨٠.

(٦) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٧) انظر: إصلاح المجتمع، محمد بن سالم بن حسين الكدادي البيحاني ص ٢٣٨.

﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[1]. قال البغوي ، (معنى الأذى ، هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه، ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم فالذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات من غير أن عملوا ما أوجب أذاهم فيقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا)[2] وقد جاء في الحديث النبوي ما يدل على فضل كف الأذى عن الآخرين فقد قال رسول الله ﷺ ، ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده))[3].

قال ابن حجر: (أراد أن يبين علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه، وهي سلامة المسلمين من لسانه ويده، كما ذكر مثله في علامة المنافق، وذكر المسلمين هنا خرج مخرج الغالب، لأن محافظة المسلم على كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيدًا)[4].

وما من شك في أن النصوص الشرعية في هذا الموضوع كثيرة، فواجب الداعية تذكير المدعوين بها.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، ٣٧٦/٦.

(٣) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٩/١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أبواب الخير في الإسلام غير محصورة، والخير ليس قاصراً على باب بعينه، ولا صورة بعينها، وعلى المسلم أن يفيد من هذه الأبواب إن استطاع، فإن لم يستطع فليأت من هذه الأبواب ما استطاع. وقد حثّ الرسول ﷺ على حق الجاهل في السؤال وحقه على العالم في الإجابة، وضرب المثل من صبر المعلم على المتعلم ونوع الإجابة بحسب السؤال ولفت النظر إلى أبواب من الخير لم يألفها الناس. أو لم يروا أنها لون من الخير وذلك بكف شر النفس عن الآخرين. ومن الدروس التربوية نذكر ما يلي:

ويبدو ذلك من سؤالات أبي ذرجندب بن جنادة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ وإجابات الرسول ﷺ عنها، حول أفضل الأعمال، واستفسار جندب عن كل ما يجهله من كلام رسول الله ﷺ، أو عما يريد الزيادة فيه، فقد سأل جندب رسول الله ﷺ: أيُّ العَمَل أفضلُ؟ فقال: «الإيمَانُ باللَّهِ، والجهادُ في سبيلِهِ». قال: أيُّ الرِّقابِ أفضلُ؟ فأجاب النبيَّ ﷺ: «أَنْفَسُها عِنْدَ أهلِها، وأكثرُها ثمناً» ...إلخ.

وقد بدا من خلال هذا الحوار حب جُندب رضي الله عنه للاستزادة من العلم وحرصه على ما ينفعه، كما أن النبي ﷺ أفسح له صدره، وأجاب عن أسئلته من غير تضجر ولا ملل.

وقد أيَّد علماء التربية هذا الأسلوب، بل أوجبوا على المعلم المسلم أن يُعود طلابه الحوار والمناقشة؛ ليشحذ أذهانهم، ويقوي الحجة لديهم، ويعودهم الارتجال والمواجهة والثقة بالنفس، كما أن عليه أن يكون واسع الصدر، فيرد على كل استفساراتهم وأسئلتهم بإجابات صحيحة ومناسبة لمستويات نموهم؛ حتى يكونوا على وعي واقتناع بما يلقيه عليهم، وحتى يفيدهم بذلك[1].

ثانياً- التربية بالترغيب:

إن سائر أحاديث هذا الباب تُرغب في فعل الخيرات، سائر الخيرات، فليس في أعمال الخير ما يحتقر حتى أن يلقى المرء أخاه بوجه طليق، يقول ﷺ: «كُلُّ تَسْبِيحَةٍ

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي ص ١٨٣.

صَدَقَةٌ، وَكلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ»، ويقول ﷺ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، أي: الجماع في حلال، لأنه لو فعله في حرام لكان عليه وزر، فكذلك يكتب الله له الأجر إذا ترفَّع عن الحرام وأتى ما يرضي لله تعالى.

وفي حديث آخر يقول ﷺ: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً ...».

كل هذه الأحاديث ترغب في فعل الخيرات، مستخدمة أسلوباً تربوياً مجدياً ونافعاً لدى المتربين، فما أحرص المؤمن على ما يقربه من الله! وما أشوقه إلى كل عمل يقربه إلى الجنة! وعندما يعلم عاقبة العمل فإنه يزداد فيه، بل إن المرء ربما لا يقدم على عمل الخير إلا إذا رغب في ثوابه وجزائه عند الله تعالى، وقد اتضح لنا من خلال هذه الأحاديث كرم الله تعالى ورحمته بعباده، وكيف جعل لهم الثواب الجزيل في العمل القليل.

وأسلوب الترغيب من الأساليب التي لا يستغنى عنها المربي في أي زمان ومكان؛ لأنه يستند إلى ما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في اللذة والنعيم والرفاهية ... والترغيب وعد يصحبه إغراء بمصلحة أو متعة آجلة مؤكدة، وينادي المربون باستخدام أسلوب الترغيب؛ لما فيه من تحفيز للمتربي على أداء الأعمال وانتظار عواقبها الحميدة[١].

ثالثًا- غرس قيمة الشكر في نفوس المتربين:

وقد أمر النبي ﷺ بشكر الله على نعمه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى، وحث على ذلك بقوله: «يُصبحُ على كلّ سلامي منْ أحدكم صدقةٌ»، والسلامي: المفصل، يعني أن المسلم ينبغي أن يستشعر نعمة الله تعالى في كل عضو من أعضاء جسمه، لأنه تعالى هو خالقها وحافظها من الأمراض والحوادث والآفات، فعندما يصبح المرء ممتعاً بها فقد وجب عليه الشكر والثناء على الله تعالى.

وليست الصدقة التي تنبغي على المؤمن مالاً ولا ذهباً ولا فضة فقط؛ إذن لاحتج الناس بأنهم فقراء، وأن ليس لديهم من المال ما يتجاوز حاجاتهم؛ فكيف يتصدقون عن

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٤، ٨٥ بتصرف.

أعضاء أجسامهم شكراً لله تعالى؟ وهنا يكون جواب رسول الله ﷺ بقوله: «كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ... إلخ»، بل يقول: «وَيَجْزِي مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ تَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحى» ففيهما يكون المسلم قد شكر ربه على نعمة العافية في البدن.

يقول الحسن البصري: "إن الله يمتّع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً، ولهذا كانوا يسمون الشكر: الحافظ؛ لأنه يحفظ النعمة الموجودة، والجالب؛ أنه يجلب النعم المفقودة"(١).

رابعاً- التربية بالتوجيه المباشر:

ومن الأحاديث التي استخدم فيها النبي ﷺ أسلوب التوجيه المباشر، قوله ﷺ: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً ...»، ففي هذا توجيه للمتربين على أن لا يستصغروا من الخيرات شيئاً، حتى إذا كان الخير مجرد تبسُّم في وجه المسلم.

وطلاقة الوجه "ضد العبوس، تعني الانبساط للإخوان ببشاشة الوجه، وهو مصدر للألفة والمحبة، وهي أحد مصادر الحسنات، كما أن طلاقة الوجه من وسائل كسب المحامد، كما قال محمد بن حازم:

وَما اِكتَسَبَ المَحامِدَ طالِبوها ... بِمِثلِ البِشرِ وَالوَجهِ الطَليقِ(٢)

خامساً- التربية الاجتماعية:

لقد دعا النبي ﷺ صحابته الكرام إلى الترابط الاجتماعي، ظهر ذلك جلياً من قوله ﷺ: "لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ"، ويقول ﷺ: "تَعْدِلُ بَيْنَ الاثنين صَدَقَةٌ. وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ ... وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ" كل هذه السلوكيات هي سمات المجتمع المسلم، الذي يتبادل كل شيء طيب فيما بين أفراده؛ فالبشاشة والوجه الطليق من العملات الرائجة بين أفراده، وكذلك معونة الناس بعضهم البعض في الأمور البسيطة العادية، كالمساعدة في حمل المتاع، أو مجرد الكلمة الطيبة.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح، ٦/٢٤١٦.

(٢) أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي ص ١٧٠.

كل هذه السلوكيات ربَّى النبي ﷺ عليها صحابته الكرام؛ لما لها من أثر فعّال في انتشار الرضا والسعادة بين الناس، وربما يكون هذا السلوك هو الفارق بين المجتمع المسلم والمجتمعات المادية الأخرى، التي تدَّعي الحضارة، وربما يُسمع فيها عن شخص يموت في قارعة الطريق فلا يجد من يحمله أو يدفنه، وذلك فارق طبيعي بين التربية الإسلامية الربانية، والتربية المادية الوضعية.

إن العقيدة الإسلامية تحقق التآخي والتآلف بين أفراد المجتمع، وكلما كان المجتمع صحيحاً... حصل بين سلوك أفراد انسجام؛ لأن المصدر واحد والباعث واحد والهدف واحد... وكلما قوي إيمان المسلمين ذابت الفوارق العرقية والمكانية بينهم...[(١)].

سادساً- التربية على الرفق بالحيوان:

لقد أمر الإسلام بالرفق والرحمة بسائر المخلوقات الحية، ليس الإنسان وحده، بل إن الحيوان هو الآخر نال نصيبه من الحث على رحمته والرفق به، يقول ﷺ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشي بطَرِيقٍ، اشْتَدَ عَلَيْهِ الْعَطَشُ..." ثم يروي النبي ﷺ كيف أن هذا الرجل لمّا خرج من البئر وجد كلباً يأكل التراب الندي من شدة العطش؛ فما كان منه إلا أن سقى الكلب بخفه، فأثابه الله بأن غفر له وأدخله الجنة.

بل إن القصة نفسها تتكرر ولكن الذي سقى الكلب بغي من بغايا بني إسرائيل، فكان جزاؤها رغم عظم ذنبها أن غفر لها الله وأدخلها الجنة. لأنه رفقت بالحيوان ورحمته، فاستحقت رحمة الله تعالى.

إن الإسلام شديد المؤاخذة لمن تقسو قلوبهم على الحيوان، ويستهينون بآلامه، وقد بيَّن أن الإنسان عظيم القدر يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء... كما بيّن أن كبائر المعاصي تمحوها نزعة رحمة تغمر القلب، ولو بإزاء كلب![(٢)].

إن سلوك الرجل أو المرأة التي سقت الكلب لا تُرى نفس تبلغ منها الرحمة بالحيوان

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ١١٦.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ٢١١.

هذا المبلغ لا تكون رحمتها بالناس أشد، إن هذا العمل ليدل على شعور راق، ورحمة فياضة، سكنت تلك النفس العالية، فكانت لا ريب خليقة بهذا الجزاء، والراحمون يرحمهم الرحمن[1].

وقد ذكر الرسول ﷺ أن من بين المستحقين للجنة رجلاً أماط الأذى عن الطريق، حين قطع شجرة من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين، وآخر وجد غصن شوك على الطريق فأخره فغفر له.

إن الوعي بهذه الأحاديث يدفع المسلمين إلى عدم رمي الزجاجات والمسامير والقاذورات في الشوارع والطرقات، بل يدعو في الوقت نفسه إلى حملها ووضعها في الأماكن المخصصة لها. وإذا كان الغرب قد أخذ بهذه المبادئ، فصارت طرقه مضرب المثل في الجمال وشوارعه مضرب المثل في النظافة، فما هذا بدين عندهم، بل عادات اجتماعية صارت ديناً بمضي الزمن.

وقد أهملنا هذه القيم الدينية فصارت طرقنا وشوارعنا وقرانا ومدننا إلى ما نراه الآن ولا سبيل لتجميل ديارنا إلا بإحياء سنة نبينا.



(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٤٢.

١٤- باب الاقتصاد في الطاعة

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[طـه: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة: ١٨٥].

الحديث رقم (١٤٢)

١٤٢- عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ دخَلَ عليْها وعِنْدها امْرأَةٌ قال: منْ هَـذِهِ؟ قالت: هَذِهِ[1] فُلانَة تَذْكُرُ مِنْ صَلاتِهَا قالَ: «**مَهْ عليكُمْ بما تُطِيقُون، فَوَاللَّه لا يَمَلُّ اللَّهُ حتَّى تَمَلُّوا، وكَانَ أَحَبُّ الدِّينِ إلَيْهِ ما داوَمَ صاحِبُهُ علَيْهِ**» متفقٌ عليه[2].

وَ«مهْ» كَلِمة نَهْى وزَجْر. ومَعْنى «**لا يملُّ اللَّهُ**» أي: لا يَقْطَعُ ثَوابَهُ عنْكُمْ وَجَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ، ويُعَامِلُكُمْ مُعاملةَ الْمالِّ حَتَّى تَملُّوا فَتَتْرُكُوا، فَيَنْبَغِي لكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا ما تُطِيقُونَ الدَّوَامَ علَيْهِ لِيَدُومَ ثَوَابُهُ لَكُمْ وفَضْلُه عَلَيْكُمْ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

مَهْ: فسرها النووي[3]. وفي الوسيط: اسم فعل أمرٍ معناه: اكفُفْ[4].

لا يمل الله: فسّرها النووي، وفي النهاية: أن الله لا يطّرحُكم حتى تتركوا العمل، فسمَّى الفعلين مللاً، وكلاهما ليس بملل... على طريقة الازدواج في الكلام[5].

---

(١) (هذه) لا توجد عندهما. وفلانة هذه: هي الحولاء بنت تُويت بن حبيب بن أسد بن عبد العزّى، كما في رواية مسلم، و(امرأة من بني أسد) كما في رواية البخاري رقم (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥/٢٢١) واللفظ له.

(٣) رياض الصالحين ١٠٥.

(٤) الوسيط في (م هـ هـ).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ل ل).

الشرح الأدبي

هذا الحديث النبوي فاتحة لباب جديد في رياض الصالحين وهو باب "الاقتصاد في العبادة"، ويراد به الأحاديث التي تتجلى فيها مظاهر التوسط في أداء العبادة، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تشدد، في إطار المأثور فعله عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة الأجلاء والتابعين من أهل السلف رضي الله عنهم، وقال الحسن منبهًا إلى يسر الإسلام: نفوسكم مطاياكم، فأصلحوا مطاياكم توصلكم إلى ربكم، فمن وفَّى النفس حقها من المباح بنية صالح العمل، ومَنَعها من شهواتها وحظها كان مأجورًا في ذلك.

والحديث الذي خُتم به الباب السابق يَعدُّ تمهيدًا لمظاهر التيسير في الإسلام: حيث تدرج المصطفى ﷺ في الحوار مع السائل، حتى وصل إلى أن الإمساك عن الشر صدقة، بعد أن نفدت استطاعة المسلم، ولم يجد ما يتصدق به، ولم يستطع أن يدخر من عمل يده، ولم يستطع أن يعين ذا الحاجة، ولم يقم بفعل الأمر بالمعروف، ففتح الرسول ﷺ طرقًا متعددة للبر حسب الاستطاعة، وكذلك العبادة في هذا الحديث الشريف الذي يبدأ به النووي بابه الجديد ليبين من خلاله حرص رسول الله ﷺ على أداء العبادة على الوجه الأكمل مع الابتعاد عن تعذيب النفس: وجلب المشقة لها، وفي قوله: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"[1]، خير دليل على هذا المنهج المعتدل.

ولنتأمل جو الحديث... ومقاصده من خلال هذا المشهد الواقعي المضيء بكلمات المصطفى ﷺ وكلمات عائشة أم المؤمنين والصديقة بنت الصديق، والحديث يُرْوَى وكأننا نراه ونسمع ما دار بين النبي وعائشة رضي الله عنها، حيث دخل عليها النبي ﷺ وعندها امرأة، فقال متسائلاً من هذه؟ ولم يتوجه النبي ﷺ بالسؤال إلى المرأة نفسها، ولم يقل من أنت؟ وذلك من أدب النبوة، ومراعاة للمقام فالمرأة في ضيافة عائشة، وحسن الضيافة من حق صاحبتها، وتجيب عائشة رضي الله عنها: "هذه فلانة... وهي أعبد أهل المدينة"، وفي رواية أخرى: "لا تنام تصلي"، ولم يُذكر اسم المرأة في الحديث:

---

(١) أخرجه البخاري ٣٩.

لأن الأمر لا يتعلق بذات المرأة: ولكن يتعلق بأمر تشريعي: وهو التوسط في العبادة، وقيل هي: الحولاء بنت ثويب، وتقول: عائشة رضي الله عنها وهي تثني على هذه المرأة، هذه فلانة تذكر من صلاتها، وهذه الجملة تحتمل معنيين في قولها: "تذكر من صلاتها" فالسياق يقتضي أن تكون المرأة هي التي تذكر لعائشة وتخبرها عن صلاتها وطريقتها وكثرتها في ذلك: حيث تقول الرواية الأخرى في مسند أحمد، "لا تنام تصلي"، وهناك رأى يقول بأن فاعل تذكر، "هي"، يعود على عائشة: وهذا بعيد عن السياق لأن الجملة من أولها جواب عن سؤال الرسول ﷺ: من هذه؟ فقالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها.

لذلك جاء تعقيب المصطفى ﷺ موضحًا المنهج الوسط الذي يقتضي الاقتصاد في العبادة: فقال: "مه عليكم بما تطيقون"، والخطاب موجه إلى المسلمين بصفة عامة، حيث لم يتوجه الخطاب إلى المرأة أو إلى عائشة ولم يضع الخطاب في صيغة نون النسوة حيث لم يقل "عليكن" ولكنه خاطب المسلمين بما فيهم الذكور والإناث "ومه" اسم فعل أمر مرتجل، كما قال النحاة: وهو ما لم يستعمل في شيء آخر قبل كونه اسم فعل و "مه" بمعنى اكفف، فالرسول ﷺ بهذا اللفظ المختصر يأمر كل مسلم بالكف عن التشدد، في أداء العبادة تشددًا يقود الإنسان إلى الإجهاد والتعب والمنهج الصحيح يقتضي التسديد والمقاربة والقصد في العبادة، وقوله: "فو الله لا يمل الله حتى تملوا"، من باب المشاكلة في الأسلوب لأن الملال محال على الله تعالى، وجاء القسم في أول العبادة ليؤكد الأمر بالعدول عن المبالغة في أداء الفرائض والنوافل، وحتى للغاية والمعنى يزيل اللبس الذي أحدثته المشاكلة اللفظية فمعناه: لا يمل الله إذا مللتم، وقيل: حتى بمعنى الواو، والتقدير: لا يمل الله وتملون، والجملة الأخيرة توضح المنهج وهو الاعتدال في العبادة، والبعد عن التشدد والمغالاة.

فقه الحديث

إن الإنسان مهما كانت قوته، محدود القدرة والاستطاعة، ينتهي عند مكان معين لا يستطيع أن يبرحه، فهو مخلوق ضعيف تتوقف استطاعته عند حد معين، ولما كان التشريع من عند الله سبحانه خالق هذا الإنسان والذي يعلم ما يستطيعه ومدى قدرته فإنه لم يكلف الإنسان ما لا يطيق، بل جعل العبادات في مقدور كل إنسان، وجعل إتيانه لها متدرجًا مع حالته، فكلما كان ضعيفًا كلما كانت له الرخص.

ولذا فقد اتخذ الفقهاء قول الله عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] أساسًا لقاعدة كلية يعملون بها في الأحكام ونصوا عليها في كثير من كتبهم وعبروا عنها بقولهم "التكليف بحسب الوسع"[2] فالعبد مطالب بعبادة الله عز وجل على قدر طاقته وما يستطيعه، وليس مطالبًا بأن يأتي بما فوق قدرته وطاقته، ففي الصلاة مثلاً يصلي الإنسان قاعدًا إن لم يستطع الوقوف، ونائمًا إن لم يستطع القعود، وبيديه وبما يستطيعه من جسمه حسب حالته وقدرته في المرض والعجز، وفي صلاة النفل يتنفل بقدر استطاعته وما يطيقه، ولا يكلف نفسه فوق طاقته فيمل ويحصل الانقطاع، وقليل دائم خير من كثير منقطع[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) المبسوط، السرخسي للسرخسي ١٨٢/١.

(٣) انظر في ذلك: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٤١/٢ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٢٩٠/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦٦/٢ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٢٣٩/١ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٠٥/٢ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤٥٨/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢٤٧/١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٣٥/١ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: تفقد حال أهله.

ثانيًا: من الأساليب الدعوية: الأمر، والقسم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الوسطية والاعتدال وعدم الغلو في الدين.

أولاً- من صفات الداعية: تفقد حال أهله:

إن الداعية إلى الله مطالب بتفقد أحوال المدعوين، والسؤال عنهم خاصة إذا افتقدهم، ومن أخص ما يُعنى به الداعية تفقد حال أهله وسؤاله عنهم وعن زوارهم وهذا ما فعله النبي ﷺ بعد دخوله على عائشة رضي الله عنها وكان عندها امرأة فقال لها: "من هذه" وقد بين ابن عثيمين (أنه ينبغي على الإنسان إذا رأى عند أهله أحدًا أن يسأل من هو، لأن من النساء من تأتي إلى أهل البيت تحدثهم بأحاديث يأثمون بها من الغيبة وغيرها)[١] وفي تفقد حال الأهل امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾[٢] أي (اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله ومروا أهليكم بالذكر، ينجيكم الله من النار)[٣] وقد أكد النبي ﷺ على أهمية ذلك فقال ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته))[٤].

ثانيًا- من الأساليب الدعوية: الأمر، والقسم:

إن من الأساليب الدعوية المهمة التي لها كامل الأثر في لفت انتباه المدعوين، وحثهم على الامتثال لما يُدعون إليه، فضلاً عن استحضار قلوبهم لما تم، من ذلك الأمر والقسم على أمر من الأمور. وقد أشار الحديث إلى هذه الأساليب حيث استعمل النبي ﷺ

---

(١) شرح رياض الصالحين ٣٧٦/١.

(٢) سورة التحريم، آية: ٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٦٧/٨.

(٤) أخرجه البخاري ٨٩٣.

أسلوب الأمر في قوله "مه عليكم بما تطيقون" وقوله: "مه" تعني أمر بالكف، فهي اسم فعل بمعنى اكفف والمعنى أن النبي ﷺ أمر هذه المرأة أن تكف عن عملها الكثير، الذي قديشق عليها وتعجز عنه في المستقبل فلا تديمه، ثم إن النبي ﷺ أمرنا أن نأخذ من العمل بما نطيق فقال: "عليكم بما تطيقون" يعني لا تكلفوا أنفسكم وتجهدوها، فإن الإنسان إذا أجهد نفسه وكلف نفسه ملت وكلت، ثم انحسرت وانقطعت[(١)].

فأسلوب الأمر أسلوب دعوي كثير الاستخدام، فينبغي على الداعية أن يوظفه فيما يفيد الدعوة فلا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، وأسلوب القسم في قوله "فوالله"؛ حيث أقسم النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق، الذي لا يحتاج إلى قسم، ولكنه أقسم ليؤكد على أهمية الأمر، فالقسم كأسلوب دعوي له دوره في أن يجعل المدعو يتعلق بالدعوة، ويؤمن بها، وذلك لإدراكه أن الكلام العظيم المستحق للاهتمام هو الذي يبدأ باليمين[(٢)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الوسطية والاعتدال وعدم الغلو في الدين:

هذا ما أشار إليه الحديث من قوله ﷺ "عليكم بما تطيقون" أي أن أفضل ما يتعبد به المؤمن للتقرب من الله تعالى هو: التوسط في أمور العبادة، وترك المشقة وأخذ النفس بمنهج متشدد قد يكون بعد ذلك سببًا في الملل والفتور والتفريط؛ لذا أمر الحق تبارك وتعالى بالتوسط والاعتدال في العبادة وعدم الغلو، والغلو كلمة تدور الأحرف الأصلية لها على معنى واحد يدل على مجاوزة الحد والقدر. قال ابن فارس: (الغين واللام والحرف المعتل، أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر، يقال: غلا السعر يغلو غلاءً، وذلك ارتفاعه. وغلا الرجل في الأمر غلوًا، إذا جاوز حدَّه)[(٣)].

قال ابن حجر: (قوله: "عليكم بما تطيقون" أي اشتغلوا من الأعمال بما تستطيعون المداومة عليه، فمنطوقه يقتضي الأمر بالاقتصار على ما يطاق من العبادة، ومفهومه

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٨٦/١.

(٢) الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش ص ٣٤٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٣٨٧/٤-٣٨٨.

يقتضي النهي عن تكلف ما لا يطاق، وقال القاضي عياض: قلت: سبب وروده خاص بالصلاة، ولكن اللفظ عام، وهو المعتبر)[١].

وقد ورد النهي في القرآن الكريم عن الغلو، وجاء الخطاب في النهي موجهًا لأهل الكتاب على وجه الخصوص ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[٢]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[٣].

قال ابن كثير: (ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقًا أو باطلاً، أو ضلالاً أو إرشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٤])[٥].

(وهاتان الآيتان وإن تعلقتا بأهل الكتاب ابتداء، فإن المراد منها موعظة هذه الأمة؛ لتجتنب الأسباب التي أوجبت غضب الله على الأمم السابقة)[٦] وكان من أعظم هذه

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٦/١.

(٢) سورة النساء، آية: ١٧١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٧٧.

(٤) سورة التوبة، آية: ٣١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٧١/٢.

(٦) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور ص ٦٠.

الأسباب غلوهم في الدين.

وقد رهّب النبي ﷺ من ذلك فقال ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ))[١] وقال ﷺ ((هلك المتنطعون))[٢] قالها ثلاثًا، وبين النووي: (أن المتنطعين هم الغالون المجاوزون الحد في أقوالهم وأفعالهم)[٣] وأكد النبي ﷺ على أهمية التوسط والاعتدال في العبادة فقال: ((إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُلْجَة))[٤] أي: (لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، وألزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط)[٥].

قال ابن حجر: (قال ابن المنير: فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة)[٦]. (وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن الغلو في الدين والأمر بالتوسط والاعتدال، وفي ذلك بيان بأن الغلو خروج عن المنهج الصحيح في الدين، وتعد للحد، وعمل ما لم يأذن به الله ورسوله)[٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٠٢٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٨٣).

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٧٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٠.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١١٧.

(٦) المرجع السابق.

(٧) انظر: الوسطية في القرآن الكريم، د. علي محمد الصلابي ص ٤٨.

الحديث رقم (١٤٣)

١٤٣- وعن أَنسٍ ﷺ قال: جاءَ ثَلاثةُ رهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْواجِ النَّبِيِّ ﷺ يسْأَلُونَ عنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخبِروا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوْها وقالُوا: أَين نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِر لَهُ ما تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ. قالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فأُصلِّي الليلَ أَبدًا، وقال الآخَرُ: وَأَنا أَصُومُ الدَّهْرَ أبدًا ولا أُفْطِرُ، وقالَ الآخرُ: وأَنا اعْتَزِلُ النِّساءَ فلا أَتَزوَّجُ أَبدًا، فَجاءَ رسول اللَّه ﷺ إِلَيْهمْ فقال: **«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كذا وكذا؟، أَما واللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للَّهِ وَأَتْقَاكُم له لكِني أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصلِّي وَأَرْقُد، وَأَتَزَوّجُ النِّسَاءَ، فمنْ رغِب عن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّى»** متفقٌ عليه(١).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

رهط: الرهط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة أو ما دون العشرة وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه(٢)، والمعنى: ثلاثة رجالٍ.

تقالُّوها: استقلُّوها أي: رأى كل منهم أنها قليلة(٣).

رغب عن سنتي: أعرض عنها إلى غيرها(٤).

سنتي: طريقتي(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٠١/٥). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٦٩).

(٢) النهاية، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، والوسيط في (ر هـ ط).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ل ل).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٩.

الشرح الأدبي

إن التوازن من أهم معالم الشخصية الإسلامية، ومن أهم ما يعطى لحركتها في الحياة خصوصية وتفردًا، والتوازن يكون في العبادة، وفي الإنفاق، وفي المعاملات والعلاقات الاجتماعية، وفي كل مناحي النشاط في الحياة، التوازن بين المنطق العقلي والشعور القلبي، والتوازن بين القيم الروحية ومتطلبات الحياة المادية

وذلك كله في إطار التمسك بالكتاب والسنة، والاقتداء بالنبي ﷺ في أفعاله وأقواله وسيرته الكريمة.

وهذا الحديث الشريف دعوة واقعية إلى منهج التوازن في حياة المسلم اقتداء بالنبي ﷺ.

وهو ليس دعوة قولية، ولكنه مشهد واقعي من مشاهد السيرة النبوية العطرة، وهذا المشهد جاء في قالبٍ سردي قصصي، ولكنه حقيقي وليس حكايةً للموعظة والاعتبار، فهؤلاء الثلاثة الذين جاءوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته هم: علي بين أبي طالب، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعثمان بن مظعون رضي الله عنهم أجمعين، وهم من الصحابة الكرام الأخيار، وقد سألوا بعض زوجات النبي ﷺ أو الخدم، والحديث لم يحدد. وإنما يفهم من سياق الحديث أنهم سألوا مَنْ في بيوت أزواج النبي ﷺ ولذلك جاء الإخبار في صيغة، المبني للمفعول، "فلما أخبرو" أي فلما علموا وعرفوا، ولم يصرِّح الراوي بمَنْ أخبرهم لأن الأمر يتعلق بكيفية العبادة وكمِّها، ويقول النص "كأنهم تقالوها"، ولم يقل: تقالوها فقط، تأدبًا مع رسول الله ﷺ، لأنهم حسبوا أنها قليلة في تصورهم وفي فهمهم.

وقيل: إن الضمير في "تقالوها"، عائد إلى: عَملِ هؤلاء الثلاثة أنفسِهم لاستكثارهم عمل رسول الله ﷺ.

والاستفهام في قولهم: "وأين نحن من النبي ﷺ" يرجح الأول وهو إحساسهم بقلة عبادة رسول الله ﷺ، وهو غير صحيح، والاستفهام كذلك يفصح عن تقديرهم لرسول الله ﷺ، فهو معصوم وهم غير ذلك، ويجب أن يُجدّوُا في العبادة حتى يكونوا في مأمن من سوء العاقبة، حسب تفكيرهم، والتعبير بقولهم: "وقد غفر له ما تقدم من

ذنبه وما تأخر" على سبيل التشريف وإكرام الله تعالى لرسوله ﷺ، لأنه معصوم، فكيف يرتكب إثمًا أو ذنبًا؟

ويُلزم الثلاثة أنفسَهم بما لا يَلْزمُ المسلمَ القيام به، ويكلفون أنفسهم ما لا يطيقون، ومن أسرار هذا البيان النبوي أن الحديث لم يحدّد الأسماء؛ لأن الأمر يتعلق بالمنهج وليس بالأشخاص، وحتى لا تكون لدى المتلقين وجمهور المسلمين بعد ذلك شبهة المخالفة التي تسب إلى هؤلاء "الرهط" وهم من الصحابة الأجلاء، وما ألزم به هؤلاء الثلاثة أنفسهم يخرج عن منهج التوازن والاقتصاد في العبادة، فأحدهم ألزم نفسه بقيام الليل أبدًا وتلك مشقة ما بعدها مشقة، والحديث السابق يقول: "عليكم بما تطيقون"، والثاني ألزم نفسه بصيام الدهر أبدًا وهذا خارج عن حدود الاستطاعة والقدرة، والثالث ألزم نفسه بعدم التزوج واعتزال النساء أبدًا، وفي ذلك مخالفة للفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، ولنتأمل أوجه تأكيد هذه الالتزامات الشاقة، فالتعبير بقولهم: "أنا" في كل عبارة، وختام العبارة بكلمة، "أبدًا" ومجيء الأفعال (أصوم - أصلي - أفطر - أعتزل - أتزوج) في صيغة المضارع المنفي، ما عدا "أعتزل"، فهو فعل مثبت؛ كل هذا يؤكد صدق هؤلاء ورغبتهم في القيام بما ألزموا به أنفسهم، ولكن رسول الله ﷺ حينما علم بذلك الأمر: أرشدهم إلى المنهج الصحيح بالحكمة والإقناع مستشهدًا بمنهجه في صلاته وصومه، وحياته الخاصة، وهو أخشاهم لله وأتقاهم له، ومع ذلك يصوم ويفطر، ويصلي ويرقد، ويتزوج النساء، ثم يضع قاعدة شرعية قائلاً: "فمن رغب عن سنتي فليس مني"، أي فليس من المقتدين بي والعاملين بسنتي، وهكذا يكون توازن المسلم في عبادته ومعاملاته وحياته أسوة بالحبيب المصطفى ﷺ، واتباعًا لسنته الحكيمة الراشدة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم صلاة الليل وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٩٨).

الثاني: حكم صيام التطوع وقد اتفق الفقهاء[١] على أن صيام التطوع متروك لقدرة الإنسان واستطاعته دون مغالاة تعطله عن ممارسة دوره في الحياة.

الثالث: حكم النكاح، وقد اتفق الفقهاء أيضًا[٢] على أن الزواج من سنة النبي ﷺ وأن حكمه الشرعي يختلف باختلاف مريد الزواج، فقد يكون واجبًا، وقد يكون مندوبًا، وقد يكون مباحًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون حرامًا، أما ترك الزواج نهائيًا مع القدرة عليه فهو رهبنة، ولا رهبانية في الإسلام.

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/٧٨، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٢٧٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٤٤٣، وشرح منح الجليل ٢/١٤٩، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣/٢١٠، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢/١٨٥، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ١/٤٩٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٣٣٧.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/٢٢٨ وما بعدها، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣/٨٣ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣/٤٠٣ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٣/٢٥٣ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٦/١٧٧ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤/٢٠١ وما بعدها، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥/٥ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/٦٢١ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﷺ على التعرف على أحوال النبي ﷺ.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: التقرير والقسم والتوكيد والترهيب.

ثالثًا: من مهام الداعية: ترشيد فهم المدعوين للعبادة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: القصد في العبادة وعدم الغلو.

خامسًا: من واجبات المدعو: الاقتداء بسنة النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﷺ على التعرف على أحوال النبي ﷺ في العبادة:

لقد كان الصحابة ﷺ يحرصون على معرفة أحوال النبي ﷺ خاصة في مجال العبادة، حتى يقفوا على ما كان يفعله ﷺ ليتأسوا به، وهذا دليل على شدة تمسكهم بدينهم وحرصهم على ذلك، ومن الشواهد في الحديث الذي معنا ما ورد في قول الراوي: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ" وهذا مسلك عظيم في حصول الفائدة واتخاذ القدوة وقد كان هذا نهجًا للصحابة ﷺ فعن ابن عباس ﷺ قال: ((بتُّ عندَ خالتي مَيمونة، فقلتُ لأنظرنَّ إلى صلاةِ رسولِ الله ﷺ، فطرَحَت لرسولِ الله ﷺ وِسادةً، فنام رسولُ اللَّهِ ﷺ في طُولها، فجعلَ يمسحُ النومَ عن وجهه، ثم قرأ الآياتِ العَشْرَ الأواخرَ من آلِ عمرانَ حتى ختمَ. ثم أتى سقاءً مُعلَّقًا فأخذَه فتوضأ، ثم قام يُصلّي فقمتُ فصنَعتُ مِثلما صَنَعَ. ثم جئتُ فقمتُ إلى جَنبِه، فوضعَ يدَه على رأسي، ثم أخذَ بأُذني فجعلَ يَفتِلُها. ثم صلى رَكعتَين، ثم صلى رَكعتَين، ثم صلى رَكعتَين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم أوتَرَ))[1] وفي ذلك بيان على حرص الصحابة ﷺ على التعرف على أحوال النبي ﷺ في العبادة للتأسي به ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٥٧٠.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: التقرير والقسم والتوكيد والترهيب:

فالأسلوب التقريري ورد في الحديث من قوله ﷺ "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ وهو من الأساليب الدعوية التي يُبنى عليها استحضار الذهن ولفت انتباه المدعوين، أما أسلوب القسم فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ "أما والله" والقسم من الأساليب الدعوية التي تسترعي اهتمام المدعوين لبيان عظم المُقسم عليه، وقد ورد أسلوب التوكيد في الحديث من قوله ﷺ "إني" وبه يتم تثبيت وتوكيد ما يُدْعى إليه في أذهان المدعوين، أما أسلوب الترهيب فقد ورد في قوله ﷺ "فليس مني" وبهذا الأسلوب يتم تحذير المدعو من مخالفة ما يُدْعى إليه، وفيه حمله على الامتثال للأمر المدعو إليه.

ثالثًا- من مهام الداعية: ترشيد فهم المدعوين للعبادة:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له؛ لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء".

قال ابن عثيمين: (وقد أرشد النبي ﷺ فهم المدعوين في اعتقادهم أن المشقة في العبادة هي طريق الخشية، وبين ﷺ أن ذلك خلاف السنة، وأن المقياس ما جاء به الشرع ثم بين ﷺ أن الاقتصاد في الطاعة والتوسط بين الغلو والتفريط من سنته ﷺ)[1]، (لذا أنكر عليهم ﷺ هذا التشدد والتعنت، وبيّن لهم وسطية الإسلام وأن الفهم الصحيح للإسلام يقتضي أن يراوح الإنسان في أموره؛ لأن الشدة غير محببة في العبادة، لأنها أدعى للسآمة والملل والنفور، ولكن التوسط مطلوب، حتى يكون ذلك مدعاة للمواظبة والاستمرار، وقد احتسب عليهم النبي ﷺ فيما أرادوا أن يأخذوا به أنفسهم ليرشد فهمهم للعبادة)[2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: القصد في العبادة وعدم الغلو:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: "لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"، وما كان الأمر بالقصد في العبادة

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٣٨٨.

(٢) انظر: دور الحسبة في حماية القيم الإسلامية، د. محيي الدين عفيفي أحمد ص ٣٦-٣٧.

وعدم الغلو إلا لحكمة عظيمة وفوائد جليلة. قال د. يوسف القرضاوي: (ما كان هذا التحذير من التطرف والغلو، إلا لأن فيه عيوبًا وآفات أساسية تصاحبه وتلازمه. منها: أنه منفر لا تحتمله طبيعة البشر العادية، ولا تصبر عليه، ولو صبر عليه قليل منهم لم يصبر عليه جمهورهم، والشرائع إنما تخاطب الناس كافة، لا فئة ذات مستوى خاص، ولهذا غضب النبي ﷺ على صاحبه الجليل "معاذ رضي الله عنه" حين صلى بالناس فأطال حتى شكاه أحدهم إلى النبي ﷺ، فقال له: ((أفتان أنت يا معاذ؟ وكررها ثلاثًا...))[1]، ومن الحكم العظيمة في ذلك أن الغلو وعدم القصد قصير العمر، والاستمرار عليه في العادة غير متيسر، فالإنسان ملول، وطاقته محدودة، فإن صبر يومًا على التشدد والتعسير، فسرعان ما تكل دابته أو تحرن عليه مطيته في السير. وأعني بهما جهده البدني والنفسي، فيسأم ويدع العمل حتى القليل منه. أو يأخذ طريقًا آخر، على عكس الطريق الذي كان عليه، أي ينتقل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشدد إلى التسيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[2].

خامسًا- من واجبات المدعو: الاقتداء بسنة النبي ﷺ:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: "فمن رغب عن سنتي فليس مني". وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[4]. قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في

---

(١) أخرجه البخاري ٦٧٣.

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ط/٤، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٢٩-٣٠.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) سورة آل عمران، آية:٣١.

الصحيح عن رسول الله ﷺ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))[١]) [٢]. فعلى المدعو الاقتداء والامتثال لسنة النبي ﷺ لما في ذلك من عظيم الفلاح، وكمال الأجر في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم ١٧١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٢.

الحديث رقم (١٤٤)

١٤٤- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قالَهَا ثلاثًا، رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

غريب الألفاظ:

«**الْمُتَنطِّعُونَ**»: الْمُتعمِّقونَ الْمُشَدِّدُون فِي غَيْرِ موْضَعِ التَّشْدِيدِ[2].

الشرح الأدبي

في ظلال هذا الحديث الشريف نستروح نسائم التيسير في المنهج الإسلامي من خلال هذا الوعيد الذي يتوعد به رسولُ الله ﷺ المتنطعين، فهو ينذرهم بالهلاك، وهو إخبار عن مصيرهم أو دعاء عليهم أن يؤولوا إلى هذا المصير.

وقال العلماء في بيان المراد من هذا الوصف الذي يستحق الهلاك وهو "المتنطعون"، في سياق الدلالة المنبثقة من جو الحديث الشريف ومناخ هذا الباب، وهو الاقتصاد في العبادة والاعتدال فيها، والتوازن في حياة المسلم، قال الخطابي: المتنطع: المتعمق في الشيء المتكلف البحث عنه، على مذاهب أهل الكلام، الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم[3].

وهذا التعمق المكروه نابع من التكلف، والخوض في مسائل لا يُجْدِي الخوض فيها ولا يفيد المسلم، وربما تؤدي بصاحبها وقارئها إلى الزيغ والضلال والبعد عن الصراط السويِّ ومدارج الكمال.

---

(١) برقم (٧/٢٦٧٠). وسيكرره المؤلف برقم (١٧٣٨).

(٢) رياض الصالحين ١٠٥.

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/٣٣٠.

ولنتأمل جذر هذه الكلمة ومدلولها اللغوي، وارتباطها بلغة العرب صفةً ودلالةً وإيحاءً، فالتنطع في الكلام هو: رمى اللسان إلى نِطْع الفم أى الغار الأعلى؛ مبالغة من المتكلم في إظهار الكلام والتأثير في السامعين، والتَمَطُّق هو ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الغار الأعلى بالفم، والتَفَيْهُق هو: الكلام من أقصى الفم، فالتنطع والتمطق والتفهيق من سمات التكلف والمغالاة.

والمغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوقهم: هم مَنْ أصيبوا بآفة التنطع، ثم استعمل هذا الوصف، المعيب في كل تعمق قولاً وفِعْلاً، بحيث يكون تعمقًا شكليًا لا ثمرة له ولا فائدة تُرجى منه.

والحديث هنا يشمل النوعين اللذين تشملهما دلالة الوصف بالتنطع، الدلالة الحسية وهى الخاصة بالنطق والتكلف فيه، والدلالة المعنوية التي تتضمن الخوض في مسائل شائكة غامضة تحجب الحقيقة وتزلزل الثوابت في نفس المسلم، وتلقيه في جُبٍّ من الحيرة والشكوك والأوهام.

وقد بريء بيان المصطفى ﷺ ونطقه وفكره من هاتين الآفتين، بل من آفات النطق الحسية كلها، حيث بريء من عيوب النطق التي تصدر عن مبالغة وتكلف كسبًا لرضا المستمعين واستجلابًا لثنائهم مثل التنطع، والتمطق والتفهيق، وهذه العيوب التي تصيب حاسة النطق عند كثير من الخطباء والعلماء وعامة الناس، وبعض المفكرين الذين في خوضهم يلعبون، ويشككون عامة الناس وخاصتهم في ثوابت العقيدة، وحقائق التاريخ، هذا كله سَلِمَ منه حديث النبي ﷺ ومنطقه، ويقول مؤكدًا رفضه للتكلُّف في المنطق، وفي كل شيء، وللمبالغة الممقوتة في طريقة إخراج الحروف: ((وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون))[1].

وفي ضوء ما سبق من الدلالات اللغوية وموحياتها، وإشعاعاتها تدرك سر هذا الرفض الكامل من رسول الله ﷺ لهذا النموذج الضار، ولا بد أن نتنبه إلى خطورته وأضراره

---

(١) أخرجه الترمذي، ٢٠١٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٦٤٢).

في المجتمع، وفي فكر الأمة، ومحاولة تشويه معالم الشخصية الإسلامية: عبادةً وفكرًا وأفعالاً وأقوالاً، ولا بد أن نحرص على الاقتداء بالنبي الكريم ﷺ، فمنطقه نابع من إنسانيته ووحي الله عز وجل له، وقبل الوحي كان منطقه جميلاً أمينًا صادقًا متزنًا، ومن وصاياه التي تعد من أسباب النجاة من المهالك: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)) وقوله: ((من تكل فليقل خيرًا أو ليصمت)).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والزجر، والتكرار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن الهلاك عاقبة الغالين.

ثالثًا: من خصوصية النبي ﷺ: أنه أُتي جوامع الكلم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الوسطية والتحذير من الغلو.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والزجر، والتكرار:

قد ورد الأسلوب الخبري في الحديث من قوله ﷺ: "هلك المتنطعون" (وفي ذلك إخبارٌ منه ﷺ بهلاك المتشددين في أمورهم الدينية والدنيوية)[1] فهو أسلوب خبري بمعنى الترهيب من الغلو ومجاوزة الحد. وقد ورد أسلوب الزجر في الحديث من قوله ﷺ "هلك" وبه يتم إخافة المدعو وحمله على الامتثال إلى ما يُدعى إليه بما يحقق عظيم الفائدة، أما أسلوب التكرار فقد ورد في الحديث من قول الراوي "قالها ثلاثًا" وفي التكرار لفت للانتباه وحث من الداعية إلى المدعوين على أهمية ما يدعو إليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن الهلاك عاقبة الغالين:

يظهر ذلك من الحديث في قوله ﷺ "هلك المتنطعون" (والمتنطعون هم الغالون المجاوزون الحد في أقوالهم وأفعالهم)[2]. قال القاضي عياض: (ومعنى هلاكهم: يريد في الآخرة)[3] وقد بين الحق تبارك وتعالى سوء عاقبة المغالين. وذلك في قصة بني إسرائيل

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٨٩/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٠.

(٣) إكمال المعلم ١٦٤/٨.

فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن الله تعالى أخبر عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيَّق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت، لوقعت الموقع عنهم، ولكنهم شددوا فشدد عليهم)[2]. قال القرطبي: (وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدد الله عليهم، ودين الله يُسْرٌ، والتعمق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم، نسأل الله العافية. وروي في قصص هذه البقرة روايات تلخيصها: أن رجلاً من بني إسرائيل وُلد له ابن، وكانت له عجلة فأرسلها في غَيْضة. وقال: اللهم إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبي. ومات الرجل، فلما كبر الصبي قالت له أمه -وكان برًا بها-: إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب فخذها؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها - وكانت مستوحشة- فجعل يقودها نحو أمه؛ فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرئه على الصفة التي أمِروا بها؛ فساموه فاشتط عليهم. وكان قيمتها على ما رُوي عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقالوا: إن هذا اشتط علينا؛ فقال لهم: أرضوه في ملكه، فاشتروها منه بوزنها مرة؛ قاله عبيدة. السدي: بوزنها عشر مرات. وقيل: بملء مَسْكِها[3] دنانير)[4].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٩٨/١.

(٣) مَسْكِها: أي جلدها، لسان العرب في (م س ك).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج١/١/٤٥٤-٤٥٥.

قال ابن عثيمين: (لو أنهم استسلموا وسلموا الأمر لله وذبحوا أيَّ بقرة كانت، لحصل مقصودهم، لكنهم تعنتوا فشدد عليهم فهلكوا)[١] وفي ذلك بيان أن الهلاك والخسران والتشدد هو عاقبة الغالين.

ثالثًا- من خصائص النبي ﷺ: أنه أتي جوامع الكلم:

هذا مما فضل الله عز وجل به نبيه ﷺ على غيره من الأنبياء (فقد كان ﷺ يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني)[٢]، وهذا ما ورد في الحديث من قوله "هلك المتنطعون"، (وهي كلمة تجمع كل من تعمق وغالى وجاز الحد في القول والفعل)[٣]، وقد أكد النبي ﷺ خصوصيته في ذلك بقوله: ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا. وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً. وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ))[٤]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((إنَّ رسولَ الله ﷺ عُلِّمَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وجَوَامِعَهُ، أَوْ جوامع الخير وفواتحه))[٥]، وقال السندي: (قوله "فواتح الخير وجوامعه" وفي بعض الروايات "فواتح الخير وخواتمه" وهو كناية عن الخير كله، وأما جوامع الخير فهي الكلمات الجامعة للخيرات)[٦]، وما يؤكد ذلك قوله ﷺ: ((إِنَّما الأعْمَالُ بالنِّيات، وإنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى))[٧] قال الشافعي: (هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين بابًا من الفقه)[٨]. وذلك دليل على خصوصية النبي ﷺ بجوامع الكلم.

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٨٩/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (٤١٨/١٢) و(٢٦١/١٣).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي ١٥٨٠.

(٤) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٥) أخرجه أحمد ٤٠٨/١ رقم ٣٨٧٧، وقال محققو المسند إسناده صحيح ٤٢٢/٦.

(٦) مسند الإمام أحمد ٤٢٣/٦، هامش ١.

(٧) أخرجه البخاري ١، ٥٤، ومسلم ١٩٠٧.

(٨) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥/١.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: التوسط والاعتدال:

(والوسطية هي مؤهل الأمة الإسلامية من العدالة، والخيرية للقيام بالشهادة على العالمين، وإقامة الحجة عليهم)[١]، وقد ميز الله تعالى بها أمته عن غيرها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٢] أي: (أن ذلك وصفٌ من الله تعالى بأنهم وسط، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو، ولا أهل تقصير ولكنهم أهل توسط واعتدال، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها)[٣]، (فالإسلام منهج وسط في كل شيء: في التصور والاعتقاد، والتعبد والتنسك، والأخلاق والسلوك، والمعاملة والتشريع وهذا المنهج هو الذي سماه الله "الصراط المستقيم" وهو منهج متميز عن طرق أصحاب الديانات والفلسفات الأخرى من "المغضوب عليهم" ومن "الضالين" الذين لا تخلو مناهجهم من غلو أو تفريط "فالوسطية" إحدى الخصائص العامة للإسلام، وهي إحدى المعالم الأساسية التي ميز بها أمته عن غيرها)[٤].

ومن استقراء نصوص الشريعة نجد أنها تدعو إلى الاعتدال، وتحذر من التطرف وهذا ما ورد في نص الحديث من قوله ﷺ "هلك المتنطعون" أي: (المتشددون في أمورهم الدينية والدنيوية والمتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم)[٥].

وقد حذر النبي ﷺ ونفر أشد النفور من هذا الغلو فقال: ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ))[٦] (وسبب ورود الحديث ينبهنا على أمر مهم، وهو أن الغلو قد يبدأ بشيء صغير، ثم تتسع دائرته، ويتطاير شرره، وذلك أن النبي ﷺ حين وصل إلى المزدلفة في حجة الوداع قال لابن عباس رضي الله عنهما: هلمَّ

(١) الوسطية في القرآن الكريم، د. علي محمد الصلابي ص ٣٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، ٦٢٧/٢.

(٤) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٢٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٠، وشرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٨٩/١.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٣٠٢٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٤٥٥).

القط لي - أي حصيات ليرمي بها في منى- قال: فلقطت له حصيات من حصى الخذف -يعني حصى صغارًا مما يخذف به - فلما وضعهن في يده، قال: نعم بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين... الحديث، يعني: لا ينبغي أن يتنطعوا فيقولوا الرمي بكبار الحصى أبلغ من الصغار، فيدخل عليهم الغلو شيئًا فشيئًا، فلهذا حذرهم)[(١)]، (وضابط الغلو هو الخروج عن المنهج وتعدي الحد، وعمل ما لم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ...، ومن ذلك إلزام النفس أو الآخرين بما لم يوجبه الله تعالى عبادة وترهبًا...، وتحريم الطيبات التي أباحها الله على وجه التعبد، أو ترك الضرورات أو بعضها قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[(٢)] وقال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[(٣)].

ومن ذلك أيضًا الغلو الاعتقادي وهو أشد خطرًا وأعظم ضررًا لما يؤدي إلى الشقاق والانشقاق، وهو المظهر للفرق والجماعات الخارجة عن الصراط المستقيم وذلك كغلو الخوارج والشيعة، ومما لاشك فيه أن الحكم على العمل بأنه غلو،... باب خطير لا يقدر عليه إلا العلماء الذين يدركون حدود هذا العمل، وتبحروا في علوم العقائد وفروعها لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره، فقد يكون الأمر مشروعًا ويوصف صاحبه بالغلو، وها نحن نرى اليوم أن الملتزمين بشرع الله، المتمسكين بالكتاب والسنة يوصفون بالغلو والتطرف والتزّمت ونحوها، ولذلك فإن المعيار في الحكم على الأعمال والأفراد والجماعات هو الكتاب والسنة، وليست الأهواء والتقاليد والأعراف والعقول وما تعارف عليه الناس، وقد ضل في هذا الباب أمم وأفراد وجماعات[(٤)].

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٢٥-٢٦.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٣٢.

(٣) سورة المائدة، آية: ٨٧-٨٨.

(٤) الوسطية في القرآن، د. علي محمد الصلابي ص ٤٨-٥٢.

الحديث رقم (١٤٥)

١٤٥- عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولنْ يشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلاَّ غلَبه، فسدِّدُوا وقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، واسْتعِينُوا بِالْغدْوةِ والرَّوْحةِ وشَيْءٍ مِن الدُّلْجةِ**» رواه البخاري[١].

وفي رواية له[٢]: «**سدِّدُوا وقَارِبُوا واغْدوا ورُوحُوا، وشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجةِ، الْقَصْدَ[٣] الْقصْدَ تَبْلُغُوا**».

قوله: «الدِّينُ» هُو مرْفُوعٌ علَى ما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ. وروِي مَنْصُوبًا، وروِيَ: «لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ».. وقوله ﷺ: «إِلاَّ غَلَبَهُ»: أَيْ: غَلَبَه الدِّينُ وَعَجزَ ذلكَ الْمُشَادُّ عنْ مُقَاومَةِ الدِّينِ لِكَثْرةِ طُرقِهِ. «والْغَدْوَةُ» سيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ. «وَالرَّوْحَةُ»: آخِرُ النَّهَارِ «والدُّلْجَةُ»: آخِرُ اللَّيْلِ. وَهَذا استِعارةٌ، وتَمْثِيلٌ، ومعْنَاهُ: اسْتَعِينُوا علَى طَاعةِ اللَّهِ عز وجلَّ بالأَعْمالِ فِي وقْتِ نشاطِكُمْ، وفَراغِ قُلُوبِكُمْ بحيثُ تَسْتلذُّونَ الْعِبادَةَ ولا تسأَمُونَ مقْصُودَكُمْ، كَما أَنَّ الْمُسافِرَ الْحاذِقَ يَسيرُ في هَذهِ الأَوْقَاتِ وَيستَريحُ هُو ودابَّتُهُ فِي غَيْرِهَا، فيصِلُ الْمقْصُود بغَيْرِ تَعبٍ، واللَّهُ أَعلم.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يشاد الدين: أي يقاويه ويقاومه ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته. والمشاددة: المغالبة[٤].

إلا غلبه: وقوله ﷺ "إلا غلبه": أي غلبه الدين وعجز ذلك المشادُّ عن مقاومة الدين لكثرة طرقه[٥].

---

(١) برقم (٣٩).

(٢) برقم (٦٤٦٣).

(٣) لفظ البخاري: (والقصد) بزيادة الواو.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش د د).

(٥) رياض الصالحين ١٠٦.

سددوا: أي اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة وهو القصد في الأمر والعدل فيه[١].

قاربوا: أي اقتصدوا في الأمور كلها واتركوا الغلوّ فيها والتقصير. يقال: قارب فلان في أموره إذا اقتصد[٢].

الغدوة: سير أول النهار[٣].

الروْحة: سير آخر النهار[٤].

القصد القصد: أي عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل وهو الوسط بين الطرفين[٥].

الشرح الأدبي

إن التيسير في العبادات، وفي كل ما يقوم به الإنسان في حياته هو المنهج الإسلامي السديد، وهذا الحديث يرشد صراحةً إلى ذلك؛ حيث يحث النبي ﷺ المسلمين على الإكثار من الطاعات والمداومة عليها برفق ورأفة على النفس والجسم، ويبدأ الحديث بقوله ﷺ: "إن الدين يسر"، وهى جملة خبرية مؤكدة موجزة، والتأكيد هنا مبعثه الرد على منكري مظاهر التيسير في الإسلام، ومَنْ يشاكلهم من المتنطعين في الدين الذين أخبر عنهم في الحديث السابق بقوله "هلك المتنطعون"، بعد أن أجهدوا أنفسهم دون جدوى؛ فإن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، وإذا كان المخاطب غير منكر فالتأكيد للاهتمام بالتيسير، ولمعرفة أن هذا الدين ليس فيه مشقة بخلاف غيره من الأديان السابقة، فإنه كان فيها ذلك كقتل النفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة[٦].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س د د).

(٢) المرجع السابق في (ق ر ب).

(٣) رياض الصالحين ١٠٦.

(٤) المرجع السابق ١٠٦.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ص د).

(٦) انظر: المنهل العذب، الفرات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ٩/١.

ومن الأساليب التي تؤكد المعنى وتضيء الدلالة في الحديث: أسلوب القصر: في قوله ﷺ: "ولن يشاد الدين إلا غلبه"، وفي رواية: "ولن يشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه"، وفي رواية لابن عساكر: ولن يشادّ إلا غلبه، والروايات كلها من خلال أسلوب القصر ترسخ المفهوم الإسلامي، ومنهج التيسير الذي يجب أن ينتهجه المسلم لأنه لن يستطيع أن يبلغ درجة الكمال إذا قام بأكثر مما هو مطلوب منه، وحديث الرهط الثلاثة: خير شاهد على ذلك، ومعنى ذلك أنه لا يتشدد ولا يتعمق أحد في الأعمال ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيصير مغلوبًا والدين غالبًا.

وصيغة المفاعلة في قوله: "يشادّ"، توحي بالثقل والمغالبة والمجاهدة، لأن المد والتضعيف في يشادّ يعطي للكلمة جرْسًا قويًا، ويشكل صورة للحدث القائم وهو المغالبة بين هذا المتشدد وبين الدين، والدين هو الغالب، وفي التعبير تصوير تمثيلي يجعل من الدين كائنًا محسوسًا قويًا لا سبيل إلى مغالبته، وإنما هو الغالب كما أخبر رسول الله ﷺ.

وحرصًا من المصطفى ﷺ على وجوب اتباع منهجه السوي المعتدل يوجه أربعة أوامر في صورة أفعال متتابعة تعد منافذ للخروج من دائرة التشدد والتنطع والملل فيقول: فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا، وفي الأمرين الأولين إيجاز عن طريق الحذف. وصياغة جديدة، حيث أسلوب الجواب والشرط، والمحذوف أداة الشرط وفعل الشرط، في الجملتين: فقوله: "فسددوا" اختصار مفاده حرص المسلم على السداد، وهو التوسط في العمل من غير إفراط ولا تفريط، والتقدير، إذا بينت لكم ما في المشادة من الوهن فسددوا، وكذلك قوله: "وقاربوا" فيه إيجاز بالحذف. والتقدير: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه، والسداد هو: الإصابة في الأقوال والأعمال والمقاصد، والمقاربة القصد الذي لا غلو فيه: أي مجاوزة المأمور به والزيادة فيه ولا تقصير، أي إخلال بشيء منه، وما أعظم البشارة التي يزفها الحبيب المصطفى ﷺ إلى أمة الإسلام حين تلتزم بالسداد والمقاربة، ثم يرشدهم إلى الاستعانة بالأوقات الملائمة للعبادة حيث النشاط والسكون والهدوء، ويقظة الوجدان، وصفاء القلب، فيقول: "واستعينوا بالغدوة والروحة

وشيء من الدلجة"، وفي هذه النصيحة النبوية إرشاد وتقريب للمعنى، عن طريق الاستعارة التمثيلية: حيث استعار الغدوة والروحة وشيئًا من الدلجة: أي: من الليل، لأوقات النشاط وفراغ القلب للطاعة، فإن هذه الأوقات أطيب أوقات المسافر، لأن المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعًا عجز وانقطع، وإذا تحرى السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنه المداومة من غير مشقة، وحسن هذه الاستعارة مبعثه أن الدنيا في الحقيقة دار نقلة إلى الآخرة، وأن هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة[1]، لأن الغدوة هي السير أول النهار، والروحة: السير آخر النهار، والدلجة آخر الليل، وقيل سير الليل كله، والحديث ينص على بعض الليل حيث يقول: "وشيء من الدلجة".

وفي الرواية الثانية وهي مكملة لهذه الرواية: يحبب الرسول ﷺ أصحابه وكل المسلمين في منهج الاعتدال والقصد في العبادة، فيأتي بأسلوب ترغيبي يتفق مع البشارة التي قدمها وهو أسلوب الإغراء.

ويتضمن إيجازًا بالحذف حيث يقول: القصدَ القصدَ تبلغوا، والتقدير الزموا القصد... الزموا القصد... تبلغوا ما تريدون، والتكرار هنا للتأكيد والحرص على اتباع المنهج الإسلامي الصحيح.

ومن جماليات الأداء التعبيري والفني في هذا الحديث، أن الصورة الأدبية فيه ليست معقدة ولا غامضة، ولا متكلفة، وإنما هى قريبة التناول، نابعة من مظاهر البيئة، غير غريبة على المسلم في بيئته العربية أو غيرها من البيئات، والصورة البيانية في الحديث النبوي من صلب المعنى، ولها فاعليتها الفنية، ولا يجد القارئ فيها فتورًا أو افتعالاً، واكتسبت الصورة الأدبية في الحديث النبوي جمالها المعنوي الروحي من كونها معبرة عن رسالة سماوية هي الأحق بالسمو، وهى كبرى الحقائق في الوجود.

ومن يقرأ الصور الحديثية، ويتأملها يجدُ العَفَوية في معالمها ومفاصلها السوية، ويجد الندى، ولا يجد الصخر المنحوت، ويلمح العَفَوية وفاعليتها في تسربها إلى النفس،

---

(١) انظر: المرجع السابق ٩/١.

فليس ثمَّة قسر بل انهمار ندي، إذ تخرج الصورة بداهة، وتتلقفها الأنفس بداهة وإن لم تستطع فهمها بدقة لأول وهلة في بعض الأحيان، فإنها شفافة طيِّعة، ليِّنةُ العِرَاك أمام من يفتش عن وجه جمالها[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من الأساليب الدعوية: التوكيد، والأمر، والتبشير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اليسر في الإسلام.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: القصد والتوسط في العبادة وعدم التشدد.

رابعًا: من أساليب الدعوة: ضرب المثل.

خامسًا: من مهام الداعية: حرصه على إفادة وتحصيل الخير للمدعوين.

أولاً- من الأساليب الدعوية: التوكيد، والأمر، والتبشير:

إن التوكيد من الأساليب الدعوية المهمة في تقوية الكلام وإقراره في أذهان المدعوين، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث من قوله ﷺ "إن الدين يسر"، أما الأمر كأسلوب دعوي فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ "فسددوا وقاربوا..." وقوله "واستعينوا"، والأمر من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على حمل المدعو على فعل ما يؤمر به لأهميه وضرورة إذعان المدعو لذلك، وقد ورد التبشير كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ "وابشروا" والتبشير والتشويق من الأساليب الدعوية التي تتفق وطبائع المدعوين وحبهم لمن يبشرهم بالخير، مما يساعد الداعية على ترغيب المدعوين وسرعة امتثالهم إلى ما يدعو إليه وفي ذلك عظيم الفائدة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اليسر في الإسلام:

إن من أهم السمات الظاهرة لهذا الدين الحنيف التيسير في العبادة (والتيسير عمل لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم. والعسر ما يجهد النفس ويضر الجسم)[٢]، (وقد جمع

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد باسوف، الفصل الأول.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١٨٥/٣/٢.

الله عز وجل في هذه الشريعة بين كونها حنيفية وكونها سمحة فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل)[١].

وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "إن الدين يسر".

(والناظر في نصوص القرآن و السنة وهدي النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، يجدها تدعو إلى اليسر ورفع الحرج، والبعد عن التنطع والتعسير على عباد الله وحسبنا في القرآن قوله تعالى بعد آيات الصيام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٢] وفي آية الطهارة ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[٣] وفي آية القصاص وإجازة العفو والصلح فيه: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾[٤])[٥]، أي: (أن الله تعالى يريد أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه، أعظم تيسير، ويسهلها أبلغ تسهيل. ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهله تسهيلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات)[٦].

قال د. القرضاوي: (إن كان التيسير مطلوبًا في كل زمن، فإنه في زماننا ألزم وأكثر تطلبًا، نظرًا لما نراه ونلمسه من رقة الدين، وضعف اليقين، وغلبة الحياة المادية على الناس، وعموم البلوى بكثير من المنكرات، حتى أصبحت كأنها القاعدة في الحياة، وما عداها هو الشاذ، وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر، وكل هذا يقتضي التسهيل والتيسير...)[٧].

---

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ١٥٨/١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦.

(٤) سورة البقرة، ١٧٨.

(٥) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٢١٠.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٩.

(٧) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ٢١٢.

وهذا ما يظهر جليًا في سيرة النبي ﷺ فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بينَ أمرَين قطُّ إلاّ أخذَ أيسرَهما، ما لم يَكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناس منه. وما انتقمَ رسولُ الله ﷺ لنفسِهِ في شيء قطُّ، إلا أن تُنتَهكَ حُرمة الله، فيَنتقمُ بها لله))[1].

وعن أبي مسعود الأنصاري أنه قال: ((قالَ رجل: يا رسولَ الله إنِّي لا أكادُ أُدْرِكُ الصلاةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بنا فلانٌ، فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ في مَوْعِظَةٍ كانَ أشدَّ غضبًا منهُ يومَئِذٍ، فقالَ: أيُّهَا الناسُ إنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِيْنَ، مَنْ صَلَّى بالناسِ فَلْيُخَفِّفْ، فإنَّ فِيْهِمُ المريضَ والضعيفَ وذَا الْحَاجَةِ))[2]، (فإذا جاز للإنسان أن يشدد على نفسه طلبًا للأكمل والأسلم، فلا يجوز أن يشدد على جمهور الناس فينفرهم من دين الله من حيث لا يشعر، ومن هنا كان النبي ﷺ أطول الناس صلاة إذا صلى لنفسه، وأخفهم صلاة إذا أمَّ غيره، وقال في ذلك ((إذا أمَّ أحدكم الناس فليخفف، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء))[3])[4]. وفي ذلك بيان على أن اليسر هو منهج الإسلام في العبادة وغيرها من الأعمال.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: القصد والتوسط في العبادة وعدم التشدد:

مما لاشك فيه أن التوسط والاعتدال مدار الفضائل في كثير من الأمور (فهو القصد المصون عن الإفراط والتفريط)[5]، وهو صفة الأمة الإسلامية لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[6]، وهو أحد خصائص الإسلام، وبه يكون التأسي بالرسول ﷺ وبالأصحاب الكرام. وقد أشار الحديث

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٢٦، ومسلم ٢٧٢٧.

(٢) أخرجه البخاري ٩٠، ومسلم ٤٦٦.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٣، ومسلم ٤٦٧.

(٤) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ٢١١.

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ٥٣٣.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

إلى أهمية التوسط والاعتدال وذلك في قوله ﷺ "فسددوا وقاربوا وابشروا".

قال ابن حجر في قوله "فسددوا": (أي الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، قال أهل اللغة: السداد التوسط في العمل، وقوله "قاربوا" أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه، وقوله "وأبشروا" أي بالثواب على العمل الدائم، وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره، وأبهم المبشر به تعظيمًا له وتفخيمًا)[1]، (وقد كان النبي ﷺ حريصًا على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم، وبين حظ أنفسهم وحق ربهم، بين متعة البدن ونعيم الروح، فإذا رأى في بعضهم غلوًا في جانب، قوَّمه بالحكمة ورده إلى سواء الصراط، ولما رأى في بعض أصحابه إفراطًا في التعبد والصيام والقيام، على حساب جسمه وأهله ومجتمعه، قال له: ((فإنَّ لجسَدِكَ عليك حقًا وإن لِعَينكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَوجكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَورِك عليكَ حقًا))[2] وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر، والتزم الثاني أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدًا- قال لهم: ((أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأصلّي وأرقُد، وأتزوجُ النساء، فمن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مني))[3]...، وهكذا تعلم الصحابة ﷺ أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم، وأن يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا، ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة. يقول القائد الفاتح عمرو بن العاص ﷺ: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا). ولم يشعروا بتعارض قط بين عملهم لدينهم، وعملهم لدنياهم، بل شعروا بالوحدة والانسجام والامتزاج، كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية، تعطيهم زادًا وشخصية قوية، يواصلون بها الكفاح لدنياهم. وكانت أعمالهم

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١١٧، ١١٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم ١١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١.

الدنيوية، عونًا لهم على أداء فرائضهم الدينية. كانوا يعتقدون أنهم -في عبادتهم ومساجدهم- ليسوا مقطوعين عن الدنيا، كما أنهم - في مزارعهم ومتاجرهم وحرفهم- غير بعيدين عن الدين، فأعمالهم هذه عبادة إذا صحت فيها النية، والتزمت حدود الله)[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: ضرب المثل:

(لقد كان النبي ﷺ يستعين على توضيح توجيهاته الدعوية بضرب المثل مما يشاهده الناس بأم أعينهم، ومما يقع تحت حسّهم ومشاهدتهم، لينتقل بالناس في ضرب الأمثال من الصورة إلى الحقيقة)[٢]، (وضرب الأمثال ليس مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن له غايات نفسية تربوية تحققت نتيجة لنبل المعنى، وسمو الغرض بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي، وتأثير الاداء. ومن أهم هذه الأهداف التربوية: تقريب المعنى إلى الأفهام؛ فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية، أو الغيبية)[٣].

وهذا ما ورد في الحديث من تقريبه ﷺ لمعنى القصد والاعتدال في العبادة (وذلك بضرب المثل في بيان حال المسافر الذي يسير في أول النهار وبعد الزوال وآخر الليل فيصل إلى مقصوده دون مشقة وتعب لتحريه السير في أوقات نشاطه، لأن المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعًا عجز وانقطع، وإذا تحرى السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنته المداومة من غير مشقة، وكذلك الأمر في العبادة، فالأولى للعامل بذلك أن لا يجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع، بل يعمل بتلطف وتدريج ليدوم عمله ولا ينقطع)[٤].

وفي ذلك بيان على أهمية ضرب المثل كأسلوب دعوي في إيصال المعنى وبيانه في أذهان المدعوين.

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ١٤٤-١٤٥.

(٢) صفات الداعية، د. حمد العمار، ٩٨.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ٣٣١.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٨/١.

خامسًا- من مهام الداعية: حرصه على إفادة وتحصيل الخير للمدعوين:

قد ورد في الحديث ما يؤكد حرصه ﷺ على إفادة وتحصيل الخير للمدعوين وذلك في قوله ﷺ "واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة" (ومما لاشك فيه أن الداعية المسلم متبع للنبي الكريم ﷺ وهو وارثه في مهمته الإرشادية، وعليه أن يتصف بما اتصف به ﷺ، كي يتمكن من أداء مهمته على الوجه المطلوب.

ومن صفاته الكريمة أنه كان شديد الحرص على هداية الناس وتعليمهم وتزكيتهم وتحصيل الخير لهم. وقد وردت آيات كريمة تصوّر لنا صفته هذه. ومن تلك الآيات: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقوله عز من قائل: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾[2].

وليس هذا فحسب، بل كان يتضايق من عدم استجابة الناس للحق حتى كاد يهلك نفسه غمًا وأسفًا عليهم. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[3].

ويقول سبحانه أيضًا: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[4].

ويقول عز من قائل أيضًا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ[5] نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[6].

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٣٧.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٧.

(٤) سورة فاطر، آية: ٨.

(٥) باخع: يقول الراغب الأصفهاني: "البخع قتل النفس غمًا، قال تعالى: "فلعلك باخع نفسك" حث على ترك التأسف. المفردات في غريب القرآن ص ٣٨.

(٦) سورة الكهف، آية: ٦.

هذا، وقد بيّن رسول الله ﷺ أيضًا حرصه الشديد على إبعاد أمته عن كل ما يضرّهم بأمثلة رائعة جدًا. ومنها ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب[١] والفراش[٢] يقعن فيها، وهو يذبّهن عنها وأنا آخذ[٣] بحجزكم عن النار وأنت تفلّتون[٤] من يدي))[٥].

وحينما ننظر إلى سيرته المطهرة عليه الصلاة والسلام نجده يدعو في جميع الأماكن والأزمان والأحوال، ودعا جميع أصناف الناس، كما استخدم جميع الأساليب والوسائل المشروعة المتاحة له.

نجده ﷺ يدعو فوق الجبل، وفي المسجد، والطريق، والسوق، وفي منازل الناس في المواسم، وحتى في المقبرة. كما نراه يقوم بالدعوة في الحضر والسفر، وفي الأمن والقتال، وفي صحته ومرضه، وحينما كان يزور أو يُزار.

وكان يوجّه دعوته إلى من أحبوه، ومن أبغضوه، وآذوه، ومن استمعوا إلى دعوته، ومن أعرضوا عنها.

وبعث ﷺ الرسائل والرسل إلى الملوك والرؤساء ممن لم يتمكن من الذهاب إليهم بنفسه.

---

(١) الجنادب: جمع جندب، وهو الصرار الذي يشبه الجراد. وقال أبو حاتم: الجندب على خلقة الجراد له أربعة أجنحة كالجرادة وأصغر منها، يطير ويصر بالليل صرًا شديدًا. وقيل غيره. انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٤١٨.

(٢) الفراش هو الذي يطير كالبعوض. وقال غيره: ما تراه كصغار البق يتهافت في النار. انظر: المرجع السابق ١٤١٨.

(٣) آخذ: روي بوجهين: اسم فاعل بكسر الخاء وتنوين الذال. والثاني: فعل مضارع بضم الذال بلا تنوين وهما صحيحان. شرح النووي على صحيح مسلم ١٤١٨.

(٤) تنلتون: رُوي بوجهين: أحدهما بفتح التاء وتشديد اللام. والثاني: ضم التاء وإسكان الفاء وكسر اللام المخففة، وكلاهما صحيح. يقال: "أفلت مني" و"تفلت": إذا نازعك الغلبة والهرب ثم غلب وهرب. انظر: المرجع السابق ١٤١٨.

(٥) أخرجه مسلم ٢٢٨٥.

واستمرّ ﷺ في أداء هذه المهمة الجليلة مشمِّرًا عن ساعديه، باذلاً كل ما في وسعه مستخدمًا جميع الأساليب والوسائل المشروعة المتاحة له في سبيل ذلك بتوفيق الله تعالى حتى لحق بالرفيق الأعلى. صلوات ربي وسلامه عليه)[1].

فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في إفادة الخير وتحصيله للمدعوين ممتثلاً في ذلك لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[2] وفي ذلك عظيم الأجر والفلاح في الدنيا والآخرة.

(١) الحرص على هداية الناس في ضوء النصوص وسير الصالحين، د. فضل إلهي، ١٧-١٩.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

الحديث رقم (١٤٦)

١٤٦- وعن أَنسٍ رضي الله عنه قال: دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ الْمسْجِدَ فَإِذَا حبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فقالَ: «ما هَذَا الْحبْلُ؟» قالُوا: هَذا حبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَترَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ[1]. فقال النَّبيُّ ﷺ: «[2] حُلّوهُ، لِيُصَلِّ أَحدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذا فَترَ فَلْيرْقُدْ» متفقٌ عليه[3].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

السارتين: السارية: الأسطوانة وهي العمود[4].

فترت: أي كسلت عن القيام في الصلاة، ووقع عند مسلم بالشك ((فإذا فترت أو كسلت))[5].

الشرح الأدبي

ما أشد حرص المصطفى ﷺ على أمته، وما أرفقه بها، وهو لا يترك مناسبة أو موقفًا إلا ويحدد للأمة مقصدًا من مقاصد التشريع، وهذا التحديد يتجلى في سلوك عملي، أو توجيه قولي، أو إقرار لفعل سديد، أو رفض لأمر عن السداد بعيد، وهو في كل هذه المواقف يخط للأمة منهج الترغيب، وفي مواقف أخرى يتوجه إلى بعض المغالين بالترهيب، وهو في الحالين على أمته وبالمؤمنين رءوف رحيم.

ونقتبس من هذا الحديث الشريف صرامةَ موقف الرسول ﷺ وشدته في مواجهة بعض الظواهر التي تفصح عن التشدد في العبادة، مع سلامة القصد، وحسن النية ممن

---

(١) (به) لا توجد عند مسلم، وهو عند البخاري.

(٢) عند مسلم زيادة: (لا) وهي ليست عند البخاري.

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٢١٩/٧٨٤).

(٤) النهاية، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، والوسيط في (س ر ى).

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٤٤.

كانوا يقومون بمثل هذا في عهد النبي ﷺ، ومع ذلك لم يتسامح رسول الله ﷺ مع مثل هذه الظواهر التي ربما تتحول بمرور الزمن إلى اعتقاد، وتؤول إلى بدعة، وإلحاق للدين بما ليس فيه.

والحديث يمثل مشهدًا واقعيًا من مشاهد السيرة النبوية، فأحداثها كلها مشاهد تشريعية، وخاصة بعد نزول الوحى وبدء الدعوة الإسلامية، وهذا المشهد يجمع بين السرد والحوار، ثم التوجيه النبوي الآمر والحاسم لتجلية الوجه الأمثل وهو: القصد في العبادة.

فأما السرد فهو ما يحكيه الراوي الأعلى أنس بن مالك رضي الله عنه: حيث يقول راصدًا المشهد الأول من هذه القصة: "دخل النبي المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين"، وفي الجملة السردية هنا بعض الملامح الأسلوبية ومنها: التعبير بالفعل، "دخل"، وهو يدل على التمكن من الدخول، ورؤية مَنْ بالمسجد، ولم يقل جاء النبي، لأن المجيء لا يعني الدخول، ووقته غير محدد، وأل في المسجد للعهد: وهو المسجد النبوي بالمدينة، فالذهن لا ينصرف إلى غيره في ذلك الوقت، والآن كذلك: ولفظ "النبي" وهو مَنْ قام بفعل الدخول، يظل قرينة وشاهدًا على أن المسجد: هو المسجد النبوي بالمدينة المنورة.

والجملة: السردية الثانية: قوله، "فإذا حبل ممدود بين الساريتين"، والتعبير بإذا الفجائية يفصح عن حقيقة موقف الرسول ﷺ من هذا العمل: وصاحبه الذي قام به، وأل في "الساريتين" للعهد وكأنهما كانا معهودين بين المخاطبين، كما قال صاحب كتاب دليل الفالحين.

ولنتأمل موقف رسول الله ﷺ من هذا الأمر المفاجئ، إنه موقف الحكمة، والتوجيه السديد، حيث يبدأ الحوار الحكيم الهادئ، وهو الجزء الثاني من هذه القصة الواقعية، ويسأل رسول الله ﷺ عن الحبل نفسه، ولم يسأل عن صاحب الحبل، وفي ذلك نأْيٌ عن إحراج صاحبه، وقوله: "ما هذا الحبل": استفهام يجمع بين الدهشة والاستنكار، فوجود الحبل في ذاته يثير التساؤل: كيف وجد؟ ولماذا وجد؟ وتأتي إجابة الحاضرين متسمة بالشمول: حيث أوضحوا لماذا مُدّ الحبل بين الساريتين، وبينوا

صاحبته وهى زينب، وقالوا: هذا حبل لزينب، وفي رواية مسلم "تصلى فإذا افترت تعلقت به"، ومما يدل على شدة استنكار الرسول ﷺ لهذا الصنيع، مجيئه باسم الإشارة في سؤاله مع لفظ الحبل، ولم يقل: لم هذا الحبل، ولكنه قال: ما هذا الحبل.

وكرر الحاضرون اللفظين فقالوا: "هذا حبل لزينب" لتحديد المسؤولية، ورفع الحرج عن الآخرين، وهو عمل في ظاهره مقبول وممدوح: لأنه يدل على التعلق بالعبادة والإكثار من صلاة التنفل والتطوع، ولكن رسول الله ﷺ يرشد أمته كلها ولا يختص زينب بالأمر، فيأمر بحل الحبل، والأمر جماعي "حُلّوه"، رغبة في التيسير، ثم يوضح أن الإنسان يصلى فإذا فتر فليرقد، وليسترح مغفورًا له.

فقه الحديث

في الحديث من الأحكام ما يلي:

١- التعلق بالحبل في الصلاة: قال ابن حجر: (واستدل به [أي الحديث] على كراهة التعلق في الحبل في الصلاة)[١] وقال في موضع آخر: (التعلق بالحبل عند التعب والاعتماد على العصا ونحوهما، قد رخص فيه بعض السلف) [٢].

٢- القعود عن القيام في الصلاة: قال ابن حجر: (قوله "فليقعد" يحتمل أن يكون أمرًا بالقعود عن الصلاة فيستدل به على جواز افتتاح الصلاة قائمًا والقعود في أثنائها)[٣].

٣- قطع النافلة: قال ابن حجر: (ويحتمل أن يكون أمرً بالقعود عن الصلاة، أي

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٦٩/١ ط بيت الأفكار.

(٢) المرجع السابق ٧٨٤/١، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٠٨/٣٤ ومراجعها ومصادرها: الدر المختار ٤١١/١، ٤١٤، ٤١٥، والكتاب القدوري وشرح اللباب ٦٩/١، وحاشية الصاوي على الشرح الصغير ٣١٢/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣٤٧/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٥٨/٣-٢٦٠، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٥٠/٤-٤٥١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٦٩/١.

يترك ما كان عزم عليه من التنفل، ويمكن أن يستدل به على جواز قطع النافلة بعد الدخول فيها)[١].

٤- التنفل في المسجد: قال النووي: (فيه جواز التنفل في المسجد فإنها كانت تصلّي النافلة فيه فلم ينكر عليها)[٢] وقال ابن حجر: (فيه جواز تنفل النساء في المسجد)[٣].

٥- إزالة المنكر باليد: قال النووي: (فيه إزالة المنكر باليد إذا تمكن منه)[٤] وقال ابن حجر: (وفيه إزالة المنكر باليد واللسان)[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من ميادين الدعوة: المساجد.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والأمر.

ثالثًا: من مهام الداعية: التيسير على المدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: القصد في العبادة وعدم الغلو.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان رحمة الله بعباده.

أولاً- من ميادين الدعوة: المساجد:

يظهر ذلك في الحديث من قول الراوي "دخل النبي ﷺ المسجد".

(ومما لا شك أن المسجد يعد أهم مركز إعلامي بين المسلمين، فهو مركز اجتماعهم في صلواتهم خمس مرات في اليوم والليلة، وقد تربى وتعلّم أصحاب رسول الله ﷺ في المسجد، وانطلقت البعوث منه، وانطلق المد الإسلامي من المسجد ليعم الدنيا كلها شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا. لقد كان المسجد هو الجامعة، فقد انطلقت منه

---

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٦٩/١.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٦٩/١.

حيوش الإسلام للفتح الإسلامي ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وقد عظّم الله شأن المسجد ورفعه فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] ومن هنا يتحتم علينا كمسلمين أن نعمل على إعادة دور المسجد في المجتمع الإسلامي باعتباره من أهم الميادين الدعوية إلى الله)[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والأمر:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث في سؤال النبي ﷺ في قوله: "ما هذا الحبل؟ وإجابة الصحابة رضي الله عنهم لذلك في قولهم: هذا حبل، لزينب..." ومما لاشك فيه أن السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة التي تعمل على تجلية الأمور، وتفتح باب الحوار بين الداعية والمدعو، وتعمل على جذب انتباه المدعوين لمعرفة الإجابة وفي ذلك عظيم الفائدة، أما الأمر كأسلوب دعوي فقد ورد في الحديث من قوله ﷺ "حُلّوه" والأمر من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على إرشاد المدعوين وتوجيههم إلى فعل المأمور به.

ثالثًا- من مهام الداعية: الرفق والتيسير على المدعوين:

(إن التيسير سمة ظاهرة في الدين تتجلى في عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه، وقد جمع الله عز وجل في هذه الشريعة بين كونها حنيفية وكونها سمحة؛ فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل)[3]، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ: "ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد" (أي: أن على المرء ألا يكلف نفسه ما لا يطيق بل

---

(١) سورة النور، آية: ٣٦-٣٧.

(٢) انظر: رسالة المسجد، عبدالمعطي بهجت ص ٤٢، ٤٥.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم، ١٥٨/١.

يعاملها بالرفق واللين دون إفراط أو تفريط)[١].

وقد بين د. يوسف القرضاوي مكانة "التيسير" في هذا الدين بقوله: (التيسير روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية، وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان وكثرة أعبائه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه. وشارع هذا الدين رؤوف رحيم، لا يريد بعباده عنتًا ولا رهقًا، إنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل في المعاش والمعاد، كما أن هذا الدين لم يجيء لطبقة خاصة، أو لإقليم محدود، أو لعصر معين، بل جاء عامًا لكل الناس، في كل الأرض، وفي كل الأزمان والأجيال، وإن نظامًا يتسم بهذا التعميم وهذه السعة، لابد أن يتجه إلى التيسير والتخفيف، ليتسع لكل الناس، وإن اختلف بهم المكان والزمان والحال، وهذا ما يحسه ويلمسه كل من عرف هذا الدين، فالقرآن ميسر للذكر، والعقيدة ميسرة للفهم، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق. ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين، كيف وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة في أكثر من آية فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢]، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[٤] كما علّم المؤمنين أن يدعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[٥] وقد نفى القرآن كل حرج عن هذه الشريعة، كما نفى عنها العنت والعسر، وأثبت لها التخفيف واليسر. قال تعالى وهو يحدثنا عن رخص الصيام، من الفطر للمريض والمسافر: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٦].

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٣٩٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٣.

(٤) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

وقد جاءت الأحاديث تؤكد هذا الاتجاه القرآني إلى التيسير نقرأ فيها قوله ﷺ: ((إني أرسلت بحنيفية سمحة))[١] وقوله: ((إنَّما بُعِثْتم مُيَسِّرِينَ، ولم تُبعثوا مُعَسِّرين))[٢] وقوله ﷺ لأبي موسى ومعاذ حين أرسلهما إلى اليمن: ((يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا...))[٣]. وقد كانت سمة الرسول ﷺ المميزة له في كتب أهل الكتاب هي سمة الميسر، ورافع الآصار، والأغلال التي أرهقت أهل الأديان السابقة، كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٤])[٥].

(ومن هنا أصبح من القواعد الفقهية الأساسية قاعدة "المشقة تجلب التيسير" وهناك أشياء عديدة اعتبرتها الشريعة من أسباب التيسير والتخفيف، منها السفر، والمرض، والإكراه، والنسيان، والجهل، والعسر، وعموم البلوى، والنقص. ولكل منها أحكام فصلتها كتب الشريعة)[٦]. فعلى الداعية إلى الله أن يسلك مسلك التيسير مقتديًا في ذلك برسول الله ﷺ ومتبعًا لمنهج الدين الذي أمر بالرفق واللين، والتيسير على جميع المسلمين.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: القصد في العبادة وعدم الغلو:

قد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك من قوله ﷺ "ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد"، قال ابن حجر في شرح الحديث (وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق فيها، والأمر بالإقبال عليها بنشاط)[٧] (فالغلو لا يخلو من جور على حقوق

---

(١) أخرجه أحمد ١١٦/٦ رقم ٢٤٨٥٥، وقال محققو المسند: حديث قوي ٣٤٩/٤١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٠.

(٣) أخرجه البخاري ٤٣٤١، ٤٣٤٢، ومسلم ١٧٣٢ واللفظ له.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٥) الخصائص العامة للإسلام، ١٧٧-١٧٩.

(٦) انظر: شرح القواعد الفقهية، أحمد الزرقا، ١٥٧-١٦٢.

(٧) فتح الباري، ابن حجر ٤٥/٣.

أخرى يجب أن تراعى وواجبات يجب أن تؤدى، وما أصدق ما قاله الحكماء: ما رأيت إسرافًا إلا وبجانبه حق مضيع. وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو حين بلغه إنهماكه في العبادة انهماكًا أنساه حق أهله عليه: ((ألم أُخْبَرْ أنَّكَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ؟ قال عبدالله رضي الله عنه فقلتُ: بلى يا رسولَ الله. فقال ﷺ: لا تَفعلْ، صُمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَم، فإنَّ لجسدِكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لعَينِكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَوجكِ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَورِكَ "زوّارك" عليكَ حقًا))[1])[2].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان رحمة الله بعباده:

يظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ: "فإذا تعب فليرقد" وفي ذلك بيان على عظيم رحمة الله بعباده فهو القائل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾[3] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

وفي بيان عظيم رحمة الله تعالى بعباده قال ﷺ: ((لَوْ تَعْلَمُونَ قَدْرَ رَحْمَةِ اللهِ لاتَّكَلْتُمْ، قال أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أحسبه قال: عليها))[5].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((قَدِمَ على النبيِّ ﷺ سَبيٌ، فإذا امرأةٌ من السبي تحلب ثَديَها تَسقي، إذا وَجدَت صَبيًّا في السبي أَخَذَته فألصَقَتْه ببَطنها وأرضَعَتْه. فقال

---

(١) أخرجه البخاري ١٨٧٤، ومسلم ١١٥٩.

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٣٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

(٥) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢١٣، رواه البزار وإسناده حسن.

لنا النبيُّ ﷺ: أتُرَونَ هذهِ طارحةً وَلدَها في النار؟ قلنا: لا، وهي تَقدِر على أن لا تَطرَحهُ. فقال: اللّهُ أرحمُ بعبادِه من هذهِ بولَدِها))[1].

وفي ذلك بيان على عظيم رحمة الله تعالى بعباده. فهو الرؤوف الرحيم، الذي لا يريد بعباده عنتًا ولا رهقًا، إنما يريد لهم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٩٩٩، ومسلم ٢٧٥٤.

الحديث رقم (١٤٧)

١٤٧- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فإنَّ أَحدَكم إِذَا صلَّى وهُو نَاعِسٌ لا يَدْرِي، لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ، فَيَسُبُّ نَفْسَهُ» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

يذهب يستغفر: يقصد أن يستغفر[2].

يسب نفسه: أي يدعو على نفسه[3].

الشرح الأدبي

تتقاطر من هذا الحديث أنداء الرحمة، وتشع بوارق الإشفاق، لأن الصلاة مناجاة بين العبد وربه، وهي في مدلولها اللغوي بمعنى: الدعاء والخشوع، وفي مدلولها الاصطلاحي تترجم هذا الخشوع إلى أداء عملي فهي في الشرع: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم، والمؤمن يقف خاشعًا، فارغ البال أمام الكبير المتعال، الذي يعلم السر وأخفى، فلابد أن يكون يقظًا، متنبهًا مدركًا أسرار أقواله، وواعيًا الحكمة من أفعاله. والأقوال قرآن يُتلى في القيام، وتشهُّد يقال في الركعتين الثانية والأخيرة، والتشهد خطاب صادق لله عز وجل ورسوله الكريم، وتحيات مباركات وصلوات طيبات لله عز وجل، واعتراف بربوبيته وألوهيته، وصلاة وتسليم على المبعوث رحمة للعالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢) واللفظ له، ومسلم (٧٨٥/٢٢٠). أورده المنذري في ترغيبه (٩٣٨). وسيكرره المؤلف برقم (١١٨٧).

(٢) انظر: الوسيط ٣١٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٦/١.

فهل في غمرة هذا الخشوع الجليل، وفي فيوضات هذه الأقوال والأفعال المأمور بها من رب العالمين، هل يجوز أن يكون الإنسان غافلاً، أو ناسيًا أو ذاهلاً، لا يعي ما يقول؟ ولا يدري في أي ميدان يصول؟ وهذا ما يرشدنا إليه هذا الحديث الشريف: الذي ترويه الصديقة بنت الصديق: أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهو يوضِّح ويفصِّل القضية التي أثارها الحديث السابق: حيث أمر رسول الله ﷺ بحلِّ الحبل الذي مدته زينب بنت جحش رضي الله عنها بين ساريتين بالمسجد لتتعلق به إذا تعبت من الصلاة، وهذه مشقة في أداء العبادة ينصح الرسول ﷺ بالابتعاد عنها. وفي هذا الحديث تأتي تعليماته وإرشاداته المضيئة بالتيسير والإشفاق، والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين: إحداهما شرطية، والثانية اسمية مؤكدة، فأما الأولى: فقوله: "إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد: حتى يذهب عنه النوم"، ولنتأمل مكونات هذه الجملة لأنها تجسد المعنى المراد، فأداة الشرط: "إذا" وهى ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، وتفيد التحقيق، ودلالة ذلك أن رسول الله ﷺ ينبه إلى حالات قد تحصل في المستقبل، وقد وقع بعضها فعلاً، ويحدث لكثير من الناس أن يصيبه النعاس وهو يصلي من الإجهاد أو كثرة النوافل والقيام طول الليل، ولذلك جاء بالفاعل عامًا، وقال: "أحدكم"، لإفادة العموم وعدم التحديد الشخصي أو المكاني أو الزماني، وجملة: "وهو يصلي"، في موقع الحال، أي غلبه النعاس حالة كونه متلبسًا بالصلاة، وقال العلماء: يتم صلاته ثم يستريح ويرقد حتى يذهب عنه النوم، والبيان النبوي هنا يتسم بالدقة التعبيرية حيث قال: "إذا نعس"، ولم يقل "إذا نام" لأن النعاس ليس نومًا وإنما هو مقدمة النوم، وعلامته سماع كلام الحاضرين وإن لم يفهم معناه، فهو بين اليقظة والنوم، واللام في "فليرقد"، للأمر، فيجب على المسلم أن لا يصلي وهو فاتر الهمة يغلبه النعاس، ولا يعي ما يقول ولا ما يفعل... لأنه لا صلاة له في هذه الحالة.

وأما الجملة الثانية فهي تعليل للأمر الصادر في جواب الجملة الأولى، والجملة تتكون من إن واسمها وخبرها، فهي يغلفها التوكيد حيث تبدأ "بإن"، ولكن حين نتأمل مكونات جملة الخبر ومتعلقاته، نرى أنه تتداخل فيه عدة جمل وفي مقدمتها،

جملة الشرط، "إذا صلى" ثم الجملة الحالية، "وهو ناعس" ثم جملة الجواب المنفي، "لا يدري"، ثم جملة الإشفاق أو الترجي في قوله واصفًا حال هذا الناعس، "لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه"، وهذا يدل على فقد الإدراك، فهو يرجو من الله تعالى المغفرة، ولكن في حال النعاس لا يدري ماذا يقول: فيدعو على نفسه أو يسبها: فيزيد العصيان على العصيان.

وتداخل الجمل في الجملة الثانية من الحديث يعد رصدًا وتجسيدًا لحال ذلك الغافل الناعس الذي تختلط عليه الأمور، ولا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول!!؟.

فقه الحديث

١- نقض النوم للوضوء: قال ابن حجر: (قوله "فليرقد" وللنسائي من طريق أيوب عن هشام "فلينصرف" المراد به التسليم من الصلاة، وحمله المهلب على ظاهره فقال: إنما أمره بقطع الصلاة لغلبة النوم عليه، فدل على أنه إذا كان النعاس أقل من ذلك عفي عنه، قال: وقد أجمعوا على أن النوم القليل لا ينقض الوضوء، وخالف المزني فقال: ينقض قليله وكثيره، فخرق الإجماع، كذا قال المهلب، وتبعه ابن بطال وابن التين وغيرهما، وقد تحاملوا على المزني في هذه الدعوى، فقد نقل ابن المنذر وغيره عن بعض الصحابة والتابعين المصير إلى أن النوم حدث ينقض قليله وكثيره، وهو قول أبي عبيد وإسحاق بن راهويه، قال ابن المنذر: وبه أقول لعموم حديث صفوان بن عسّال يعني الذي صححه ابن خزيمة وغيره، ففيه ((إلا من غائط أو بول أو نوم))[1] فسوى بينهما في الحكم، والمراد بقليله وكثيره طول زمانه وقصره لا مباديه، والذين ذهبوا إلى أن النوم مظنة الحدث اختلفوا على أقوال:

أ-التفرقة بين قليله وكثيره، وهو قول الزهري ومالك.

---

(١) أخرجه أحمد ٢٤٠/٤، والنسائي ٨٣/١، ٨٤، والترمذي ٩٦، من حديث صفوان بن عسال > قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا كنا سفرًا أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة لكن من غائط وبول ونوم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال محققو المسند: صحيح لغيره ١/٣٠، ١٨٠٩٣.

ب-وبين المضطجع وغيره، وهو قول الثوري.

ج-وبين المضطجع والمستند وغيرهما وهو قول أصحاب الرأي.

د-وبينهما والساجد بشرط قصده النوم وبين غيرهم وهو قول أبي يوسف.

هـ-وقيل: لا ينقض نوم غير القاعد مطلقًا وهو قول الشافعي في القديم، وعنه التفصيل بين خارج الصلاة فينقض أو داخلها فلا. وفَصَّل في الجديد بين القاعد المتمكن فلا ينقض وبين غيره فينقض.

و-وقد صح عن أبي موسى الأشعري وابن عمر وسعيد بن المسيب أن النوم لا ينقص مطلقًا، وفي صحيح مسلم وأبي داود: ((وكان أصحاب النبي ﷺ ينتظرون الصلاة مع النبي ﷺ فينامون ثم يصلون ولا يتوضؤون))[1] فحمل على أن ذلك كان وهم قعود، لكن في مسند البزار بإسناد صحيح في هذا الحديث "فيضعون جنوبهم، فمنهم من ينام، ثم يقومون إلى الصلاة")[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية النشاط وحضور القلب في العبادة.

ثانيًا: من صفات الداعية: الإشفاق على المدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التيسير على المكلفين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الاحتياط في العبادة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التعليل.

---

(١) أخرجه مسلم ٣٧٦، وأبو داود ٢٠٠ واللفظ قريب من لفظ مسلم.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٣/١، وانظر لمزيد من التفصيل في: اختلاف الفقهاء في عدّ النوم ناقضًا للوضوء، انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٣٨٧/٤٣-٣٩٣ ومراجعها: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي٩/١-١٠، ورد المحتار مع حاشية ابن عابدين ٩٥/١-٩٦، وحاشية الصاوي على الشرح الصغير ١٤١/١، وشرح الزرقاني ٨٦/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٤/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٢/٢-٢٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٧٣/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٢٥/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١٩٩/١-٢٠٠.

اولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية النشاط وحضور القلب في العبادة:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية النشاط وحضور القلب في العبادة، حيث يؤكد النبي ﷺ على أهمية النشاط في العبادة وما يترتب على ذلك من حضور القلب؛ لأن ذلك أدعى لاستشعار روح العبادة، ومن ثم الفوز بثمرتها، وهذا يتضح من قوله ﷺ: ((إذا نَعَسَ أَحَدُكم وهوَ يُصلّي فلْيَرْقُدْ حتى يَذهَبَ عنه النومُ))، قال النووي: "فيه الحث على الإقبال على الصلاة بخشوع وفراغ قلب ونشاط"[1].

وقد جاءت أحاديث كثيرة تحثُّ على حضور القلب والنشاط في العبادة، مثل قوله ﷺ: ((إذا نَعَسَ احدُكم في الصلاةِ فليَنَمْ حتى يَعلمَ ما يقرأُ))[2].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أنه لا ينبغي للإنسان أن يقرأ حتى يعلم ما يقرأ، لأن المراد من القراءة تدبرها، فإذا غلب النوم حال بين التالي [القارئ] وبين المقصود)[3].

وقوله ﷺ: ((إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ لِسَانِهِ[4]، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ))[5].

وقوله ﷺ: ((لاَ صَلاَةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلاَ هُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ))[6].

قال النووي: (في هذه الأحاديث كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله، لما فيه من اشتغال القلب به وذهاب كمال الخشوع، وكراهتها مع مدافعة الأخبثين وهما البول والغائط، ويلحق بهذا ما كان في معناه مما يشغل القلب ويذهب كمال الخشوع)[7].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧٦/١.

(٢) أخرجه البخاري ٢١٣.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٢٨٦/٥.

(٤) أي استغلق ولم ينطلق به لسانه لغلبة النعاس، شرح النووي ٥٣٢

(٥) أخرجه مسلم ٧٨٧.

(٦) أخرجه مسلم ٥٦٠.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤١٩.

وقال عبدالله البسام: (مثل مدافعة الأخبثين، كل ما يشغل باله من ريح في جوفه أو حرّ أو برد شديد أو جوع أو عطش مفرط أو غير ذلك مما يذهب عنه الخشوع وحضور القلب، فإن حضور القلب هو لبّ الصلاة، فإذا لم يوجد فهي صور وأشباح تجزي صاحبها ولكنه لم تُنِله مقام المؤمنين المفلحين الذين هم في صلاتهم خاشعون"[(١)].

ثانيًا- من صفات الداعية: الإشفاق على المدعو:

إن من الصفات المهمة التي يجب أن يتحلى بها الداعية أن يشفق على المدعو، وهذا يتبين بجلاء في قوله ﷺ: "فليرقد حتى يذهب عنه النوم"، فقد أشفق ﷺ على من يصلي حتى غلبه النعاس بأن أمره بأن يرقد حتى يذهب عنه النوم، كما علّل هذا الأمر بما هو آكد في الإشفاق على المدعو، وهو ألا يدعو على نفسه، وقد كان يريد الدعاء لها.

وقال الله تعالى عن محمد ﷺ -وهو إمام الدعاة إلى الله-: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

قال السعدي عن قوله تعالى: "بالمؤمنين رءوف رحيم": (أي شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم)[(٣)].

وقال ﷺ: ((إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ))[(٤)].

ومن الأمثلة التطبيقية لهذه الصفة ونجاح الداعية في استخدامها، ما قاله صفوان بن أمية عندما أعطاه النبي ﷺ مائة من النعم ثم مائة ثم مائة، فقال صفوان: "والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض إليّ فما برح يُعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ"[(٥)].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٥١٢/١.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٣.

(٤) أخرجه أبو داود ٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٦).

(٥) أخرجه مسلم ٢٣١٣، وانظر: الشفا ١٨٧/١.

قال أبو بكر الآجريُّ عن أخلاق الداعية العالم مع من يربيهم: (فأما أخلاقه مع مجالسيه فصبور على من كان ذهنه بطيئًا عن الفهم حتى يفهم عنه، صبور على من جهل عليه حتى يردّه بحلْم، يؤدب جلساءه بأحسن ما يكون من الأدب، لا يدعهم يخوضون فيما لا يعنيهم، ويأمرهم بالإنصات مع الاستماع إلى ما ينطق به من العلم، فإن تخطى أحدهم إلى خلق لا يحسن بأهل العلم لم يجبهه على جهة التبكيت له، ولكن يقول: لا يحسن بأهل العلم والأدب كذا وكذا، وينبغي لأهل العلم أن يتجافوا كذا وكذا، فيكون الفاعل لخلق لا يحسن قد علم أنه المراد بهذا فيبادر برفعه.. لا يعنف السائل بالتوبيخ فيخجله، ولا يزجره فيضيع من قدره ولكن يبسط في المسألة ليجبره فيها... ويحثه على طلب علم الواجبات مِنْ علم أداء فرائضه واجتناب محارمه، يقبل على من يعلم أنه محتاج إلى علم ما يسأل عنه، ويترك من يعلم أنه يريد الجدل والمراء، يقرب عليهم ما يخافون بعده بالحكمة والموعظة الحسنة، يسكت عن الجاهل حلمًا، وينشر الحكمة نصحًا، فهذه أخلاقه لأهل مجلسه)[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التيسير على المكلفين:

إن من موضوعات الدعوة البارزة في هذا الحديث التيسير على المكلفين. وذلك واضح من أمر النبي ﷺ: "يرقد حتى يذهب عنه النوم".

وقد جاءت الآيات والأحاديث تنصُّ على تيسير الله على المكلفين، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2]، أي: (يريد الله تعالى بكم اليسر والسهولة في شرائعه ولا يريد بكم العسر والمشقة)[3].

وقد ضرب النبي ﷺ لأصحابه مثالاً عمليًا في التيسير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) أخلاق العلماء، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الآجري (٣٦٠هـ)، تحقيق: أمينة عمر الخراط ص ٥٢، وانظر: المصفى من صفات الدعاة، عبدالحميد البلالي ص ٦٥ وما بعدها.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ص ٢٨.

قام أعرابيٌّ فبالَ في المسجدِ، فتناوَلَهُ الناسُ، فقالَ لهمُ النبيُّ ﷺ: ((دَعوهُ، وهَرِيقوا على بَولِهِ سَجْلاً من ماءٍ -أو ذَنوبًا منْ ماءٍ- فإنَّما بُعِثْتم مُيَسِّرِينَ، ولم تُبعثوا مُعَسِّرِين))[١].

قال ابن حجر: (إسناد البعث إليهم على طريق المجاز لأنه هو المبعوث ﷺ بما ذكر، لكنهم لما كانوا في مقام التبليغ عنه في حضوره وغيبته أطلق عليهم ذلك، إذ هم مبعوثون من قبله بذلك، أي مأمورون، وكان ذلك شأنه ﷺ في حق كل من بعثه إلى جهة من الجهات يقول: "يسروا ولا تعسروا")[٢].

قال ابن هبيرة: (كل شيء يكون فيه الأمر بين أمرين، فإن الأحسن بمن يريد توخي أوامر رسول الله ﷺ أن يختار أيسرهما على أعسرهما)[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الاحتياط في العبادة:

إنّ الاحتياط في العبادة من الموضوعات التي يجدر بالداعية أن يهتم بها، وقد اتضح ذلك جليًا في قوله ﷺ: ((لعلّه يستغفر فيَسبّ نفسه))، قال النووي: (قال القاضي [عياض]: معنى يستغفر هنا: يدعو[٤])[٥]، وقال ابن حجر: (معنى يسب: يدعو على نفسه)[٦]، وصرّح بذلك النسائي في روايته: (لعله يدعو على نفسه، وهو لا يدري)[٧]، وقال ابن حجر: (وفيه الأخذ بالاحتياط؛ لأنه علّل بأمر محتمل)[٨].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٢٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٣٨٧، والحديث (يسروا ولا تعسروا)، أخرجه البخاري ٦٩، ومسلم ١٧٣٤.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٥/٢٣٠.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٣٧٦.

(٥) إكمال المعلم ٣/١٥١: ولفظه: ومعنى (يسب نفسه) عندي هنا: الدعاء عليها، لأنه إذا ذهب يستغفر ويدعو لنفسه وهو لا يعقل ربما قلب الدعاء فدعا على نفسه).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١.

(٧) أخرجه النسائي ١٦٢، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ١٥٦)

(٨) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/٣٧٦.

وقد جاءت أحاديث ترشد إلى العمل بالاحتياط، خشية الوقوع فيما يضرّ وإن كان أمرًا محتملاً.

من ذلك قوله ﷺ: ((لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لاَ تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ))[١].

وقال النبي ﷺ: ((إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا، أَوْ فِي سُوقِنَا، وَمَعَهُ نَبْلٌ، فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا [٢] بِكَفِّهِ. أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ))[٣].

خامسًا: من أساليب الدعوة: التعليل:

لقد ذكر ﷺ علة نهيه فقال: (لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه)، ولا شك أن تعليل الحكم يثبته في سمع المدعو وقلبه، لأنه يزيده اقتناعًا على اقتناع، وقد سلك القرآن الكريم والسنة الشريفة هذا المسلك في الدعوة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "نهى رسول الله ﷺ أن تُزوج المرأةُ على العمة والخالة؛ قال: ((إِنَّكُنَّ إذا فَعَلْتُنَّ ذلِكَ قَطَعْتُنَّ أَرْحَامَكُنَّ)) [٥].

لذا فإن أسلوب التعليل من الأساليب الدعوية التي يجدر بالداعية أن يفيد منها.

---

(١) أخرجه مسلم ٣٠٠٩.

(٢) النصل: حديدة الرمح والسهم والسكين، والجمع: نصال وأنصل ونصول، الوسيط في (ن ص ل).

(٣) أخرجه البخاري ٤٥٢، ومسلم ٢٦١٥ واللفظ له.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٥) أخرجه ابن حبان ٤١١٦، والطبراني في الكبير ١١٩٣١، وقال محقق صحيح ابن حبان: حديث حسن، وانظر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ١٦٧/٣.

الحديث رقم (١٤٨)

١٤٨- وعن أَبي عبد اللَّه جابر بن سمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُنْتُ أُصَلِّي مَعَ النبيِّ ﷺ الصَّلَوَاتِ[١]، فَكَانَتْ صلاتُهُ قَصدًا وخُطْبَتُه قَصْدًا. رواه مسلم[٢].

قولُهُ: (قَصْدًا): أَيْ بَيْنَ الطُّولِ وَالْقِصَرِ.

ترجمة الراوي:

جابر بن سمرة: هو جابر بن سمرة بن جُنادة بن حُجَير العامري السُّوَائي، أمه أخت سعد بن أبي وقاص، له ولأبيه صحبة مشهورة.

كان من حملة العلم، روى عن النبي ﷺ وجماعة من الصحابة: منهم أبوه وخاله سعد وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب.

له مواقف جليلة ومشاهد عظيمة مع النبي ﷺ؛ فقد قال: صليت مع النبي ﷺ أكثر من ألفي صلاة[٣].

وقال كذلك: جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة[٤].

وروى ابن سعد أن النبي ﷺ رآه في الشمس فقال له: تحول إلى الظلّ فإنه مبارك[٥].

وظلّ على جهاده بعد وفاة النبي ﷺ، فقد شهد فتح المدائن، وشهد عمر بن الخطاب وهو يخطب بالجابية [قرية من أعمال دمشق].

---

(١) عند مسلم: (النبي)، ولا توجد عنده (الصلوات).

(٢) برقم (٤٢/٨٦٦).

(٣) أخرجه مسلم (٣٥-٨٦٢).

(٤) أخرجه الترمذي ٢٨٥٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٨٦).

(٥) ذكره المزي في تهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٤٢٤/١) وعزاه لابن سعد، لكن لم أعثر عليه في المطبوع من ترجمته في الطبقات الكبرى، ابن سعد .

وقد نزل الكوفة وابتنى دارًا بها. وتوفي بها ٧٤هـ. وقيل: ٧٣هـ وقيل: ٧٦[1].

غريب الألفاظ:

قصدًا: أي بين الطول والقصر[2].

الشرح الأدبي

إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، إن منهج التيسير في الإسلام من شأنه أن يحبب الإنسان في المداومة على الطاعة، حتى لا يتسرب الملل إلى النفس، كما أخبر المصطفى ﷺ، والحديث الذي يرويه جابر بن سمرة رضي الله عنه، شهادة مرئية ومسموعة من صحابي جليل شَرُف بالصلاة مع رسول الله ﷺ، ورَأى رَأْيَ العين، وعلم علم اليقين، كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في معظمها، لأنه كان يطيل أحيانًا في صلاته، وكيف كانت خطبته، وهذا الحديث يعد درسًا للدعاة والخطباء المعاصرين الذين يطيلون في صلاتهم، وفي خطبهم، ولا يدركون حاجات الناس وظروفهم. والقصد في الصلاة: لا يعني الإخلال بها، ولكن معناه: أن يأتي المصلي بمكملاتها ومسنوناتها من غير طول ولا قصر: لأن القصد هو الاعتدال وهو بين الطول والقصر، والمصطفى ﷺ هو القدوة الحسنة، والمثل الأعلى في كل ما يتعلق بأمور الدين والدنيا، وكان يراعى حاجات الناس، وظروفهم الخاصة، فإن فيهم الضعيف وذا الحاجة، (وعن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٤/٦) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ١١٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤٨٨/١) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ص ١٦٤. والسير (١٨٦/٣) وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٤٢٤/١) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٨٠/١) والأعلام (١٠٤/٢) وموسوعة عظماء حول الرسول (٥٥١/١).

(٢) رياض الصالحين ١٠٧.

الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه)[١].

والتعبير بقوله "الصلوات" يفيد أن جابر بن سمرة رضي الله عنهما كان كثيرًا ما يصلي مع رسول الله ﷺ، ويؤيد ذلك ما رواه مسلم حيث يقول جابر بن سمرة رضي الله عنهما: والله لقد صليت مع رسول الله أكثر من ألفى صلاة[٢]، ولذلك جاءت "الصلاة" جمعًا ولم تأت مفردة، ولم يأت الفعل "أصلي"، مجردًا من المعمول، حتى لا يفهم أنها كانت صلاة قليلة، وكذلك لم يقل، "كنت أصلي الصلوات الخمس"، حتى لا يظن أنه كان مداومًا على ذلك في كل الأوقات وفي جميع الأيام، والواقع غير ذلك، فتأمل: دقة التعبير، وسر صيغة الجمع، ودلالة عدم تقييد الصلاة بنعت "الخَمْس"، وإضافة الصلاة إلى الضمير، العائد على رسول الله ﷺ في قوله: "فكانت صلاته قصدًا": يفيد التخصيص... فإذا كانت الصلاة الخاصة برسول ﷺ الله قصدًا- فهل نُغَالي نحن، وهل نطيل نحن؟

وللصلاة أسرار وفوائد جمة، ونشير إلى نَزْر يسير منها يعود على الإنسان بالنفع: حيث يقول جابر بن سمرة رضي الله عنهما "كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر تربع حتى تطلع الشمس حسناء"[٣]، أي طلوعًا حسنًا، وجاء في حديث آخر عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لأن أقعد أذكر الله وأُكبِّره وأحمده وأُسبِّحه وأُهلِّله حتى تطلع الشمس أحب إلى من أن أعتق رقبتين أو أكثر من ولد إسماعيل، ومن بعد العصر حتى تغرب الشمس، أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل»[٤]، وهذان الوقتان لهما أثر ناجع في نشاط الإنسان ومزاجه وصحته، وهما الغدوة والرّوحة التي أشار إليهما في حديث سابق، وفيهما يمكن، كما قال العلماء أن نستفيد من أشعة الشمس بفعل تأثير الأشعة فوق البنفسجية حيث يتكون فيتامين (د) تحت الجلد، ولهذا الفيتامين

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٧.

(٢) أخرجه مسلم ٨٦٢.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٨٥٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٤٠٦٠).

(٤) أخرجه أحمد ٢٥٥/٥ رقم ٢٢١٩٤، وقال محققو المسند: حسن لغيره ص ٥٣٢/٣٦.

أدوار بيولوجية منها: تنظيم الأنسولين في البنكرياس، ونمو خلايا النخاع العظمي، ونمو خلايا البشرة في الجلد[1]، وغير ذلك الكثير، فتأمل واحْرص على الاقتداء بالنبي ﷺ في أقواله وأفعاله وأوقات صلاته... وكيفية ذكره لله سبحانه ومواقيت ذلك.

وأما خطابة المصطفى ﷺ للجمعة وغيرها: فكانت قصدًا، أي بين الطول والقصر، بحيث توفي بالغرض، وهو قد أوتى جوامع الكلم، وتتسم خطابته بالدقة والوضوح وعدم المبالغة، والبعد عن الانفعال الذي ينأى بالخطيب عن دائرة الصدق والحقيقة، فكل ما يتفوه به الرسول ﷺ في خطابته: صدق وجدّ، وترغيب وترهيب، وإرشاد وتشريع، وهداية وتبشير، فرسول الله ﷺ في بيانه وخطابته كما قال الجاحظ: لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبزُّ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يحتج في خطبه، ومواعظه إلا بالصدق، فسبحان مَنْ علّمه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الاقتداء بالنبي ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الاقتصاد في الطاعة.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين.

رابعًا: من فقه الداعية: القصد في الموعظة.

خامسًا: من وسائل الدعوة: الخطبة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الاقتداء بالنبي ﷺ:

لقد تواتر حرص الصحابة ﷺ على الاقتداء بالنبي ﷺ والتأسي به. وقد ورد في هذا الحديث ما يؤكد هذا الحرص مما هو واضح في قول الصحابي: "كنت أصلي مع

(١) انظر: كتاب الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. زغلول النجار، د. صالح بن أحمد رضا، وكتاب: في رحلة الإيمان، د. حامد أحمد حامد.

(٢) سورة النجم: ٣-٤.

النبي ﷺ الصلوات..." فقد كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على الاقتداء بالنبي ﷺ والعمل بمثل ما يعمل، وقد فاضت الأحاديث عنهم بذلك[(١)]. فمن هذا القبيل: ما ورد عن أمية بن عبدالله بن خالد أنه قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن ولا نجد صلاة السفر في القرآن؟ فقال له ابن عمر: يا ابن أخي، إن الله عز و جل بعث إلينا محمدًا ﷺ ولا نعلم شيئًا، وإنما نفعل كما رأينا محمدًا ﷺ يفعل[(٢)].

وعن همام بن الحارث قال: رأيت جرير بن عبدالله [البجلي] رضي الله عنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه ثم قام فصلَّى، فسئل فقال: رأيت النبي ﷺ صنع مثل هذا[(٣)].

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[(٤)] كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[(٥)] قال محمد بن علي الترمذي: (الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قول أو فعل)[(٦)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الاقتصاد في العبادة:

إن من موضوعات الدعوة الجلية في هذا الحديث: أهمية الاقتصاد في العبادة ويتبين ذلك من قول الصحابي: "فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا". وقال النووي: (قصدًا: أي بين الطول والقصر)[(٧)].

---

(١) انظر الشفا، ٢/٢٧١-٢٨٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٠٦٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٨٧٤).

(٣) أخرجه البخاري ٣٨٧، ومسلم ٢٧٢.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٦) الشفا ٢/٢٧١.

(٧) رياض الصالحين ١٠٧.

وقد جاءت نصوص الشريعة الإسلامية تحثُّ على الاقتصاد في العبادة والتوسط فيها، فلا يصيبها التفريط المضيِّع أو الإفراط المضيِّق، وقال ابن عثيمين: (والقصد: معناه التوسط، الذي ليس فيه تخفيف مخل ولا تثقيل ممل، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته، مِئِنَّة من فقهه))[1] أي: علامة على فقهه ودليل عليه، والذي يؤخذ من هذين الحديثين أنه لا ينبغي للإنسان أن يحمل نفسه ويشق عليها في العبادة، وإنما يأخذ ما يطيق)[2].

إن رسول الله ﷺ مر على رجل يصلي على صخرة فأتى ناحية مكة فمكث مليًّا ثم انصرف فوجد الرجل يصلي على حاله فقام فجمع يديه ثم قال: ((يا أيها الناس عليكم بالقصد ثلاثًا، فإن الله عز وجل لا يمل حتى تملوا))[3] قال ابن حجر: (القصد سلوك الطريق المعتدلة)[4].

وقال النبي ﷺ: ((إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة))[5].

قال شرف الحق العظيم آبادي: (الاقتصاد: سلوك القصد في الأمور القولية والفعلية والدخول فيها برفق على سبيل يمكن الدوام عليه)[6].

ثالثًا- من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين:

ما أجمل أن يكون الداعية رفيقًا بالمدعوين، ولقد كان النبي ﷺ أرفق الناس بالناس، وهذا ما يستنبط من قول الصحابي: "فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا"، فإن النبي ﷺ إذا كان فيما بينه وبين نفسه، أو في صلاة غير الفرض، يطيل

---

(١) أخرجه مسلم ٨٦٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ٣٩٥/١.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤٢٤١، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٤١٩).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٠٠/١١.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٧٧٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٩٦).

(٦) عون المعبود ٢٠٧٥.

الصلاة، ويتعمق فيها، أما في صلاة الفريضة فكان يقصر ويكتفي فيها بما يحقق المقصود منها من غير طول ولا قصر، ولا يطيل الخطبة بل يجمع المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة، ويكتفي بالحديث عن موضوع واحد أو التوجيه لهدف واحد، حذرًا من المبالغة وتوجيهًا لعدم التشديد على الناس وتحذيرًا من تنفير المسلمين عن الدين[(١)].

لأن من الصفات الواجب توافرها في الداعية الرفق بالمدعوين، وقد تظاهرت على ذلك نصوص الكتاب والسنة، قال تعالى لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[(٢)].

قال ابن كثير: (هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين)[(٣)].

(فإذا كان موسى أُمر - كما يقول القرطبي- بأن يقول لفرعون قولاً لينًا، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه)[(٤)].

ومن المواقف التي تبيّن رفق الرسول ﷺ بالمدعوين وأثره في استجابتهم له وإقبالهم على ما يقول، ما رواه معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه: ((بينا أنا أصلّي مع رسول الله ﷺ إذا عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثُكْلَ أُمِّيَاه، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم[(٥)] فلما رأيتهم يصمِّتونني سكتُّ. فلما صلّى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني[(٦)] ولا ضربني ولا شتمني، قال: إن

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٣١.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٤٣-٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٩٤/٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج٦/١١/٢٠٠.

(٥) يعني فعلوا هذا ليسكتوه، شرح النووي ٤٠٩.

(٦) أي: ما انتهرني، شرح النووي ٤٠٩.

هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن أو كما قال رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية....))[١]

فأقبل يسأل النبي ﷺ ليعرف أمور دينه والنبي ﷺ يرشده ويهديه.

قال النووي: (فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ورفقه بالجاهل ورأفته بأمته وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل وحسن تعليمه واللطف به وتقريب الصواب إلى فهمه)[٢].

ويقول القاضي عبدالرحمن بن نصر الشيزري الشافعي أثناء حديثه عن آداب المحتسب: (وليكن من شيمته الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ في استمالة القلوب، وحصول المقصود. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[٣]، ولأن الإفراط في الزجر ربما أغرى بالمعصية، والتعنيف بالموعظة تمجه الأسماع)[٤].

وهكذا، فإن النفوس مجبولة على حب من يحسن إليها، ويتلقاها بالرفق واللين، ويبسط لها في المحيا، ولا يضيق بعجزها وجهلها وتقصيرها. فهل وعى الدعاة الدرس؟

رابعًا- من فقه الداعية: القصد في الموعظة:

إن من فقه الداعية القصد في الموعظة، اقتداءً بالنبي ﷺ الذي وصف الصحابي خطبته فقال: "وخطبته قصدًا"، قال ابن حجر: (أي لا طويلة ولا قصيرة)[٥].

وقال ابن هبيرة: (أما قصر الخطبة فإنه يكون أدعى لحفظ ما يذكر فيها، ولئلا يقول كلامًا منشورًا لا يتيسر الاحتراز في حدوده، فإذ أقلّ منه كان قمينًا أن يسلم

---

(١) أخرجه مسلم ٥٣٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٠٩، وانظر: الشفا ١/١٨٧-١٨٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٠٢.

وينفع، وهذا فهو في الأكثر، فإن احتاج الخطيب إلى أن يطيل لذكر حادثة جرت أو نائبة، أو إبانة عن صورة لا بدّ من إبانتها، لم يكره ذلك إن شاء الله تعالى)[١].

وقد كان القصد في الموعظة من فعل النبي ﷺ وصحابته من بعده. قال شقيق بن سلمة الأسدي: ((كنا جلوسًا عند باب عبدالله [ابن مسعود] ننتظره فمرَّ بنا يزيد بن معاوية النخعي فقلنا: أعلمه بمكاننا، فدخل عليه فلم يلبث أن خرج علينا عبدالله فقال: إني أخبرُ بمكانكم فما يمنعني أن أخرج إليكم إلا كراهية أن أملَّكم، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام مخافة السآمة))[٢]. وفي رواية للبخاري: ((كان عبدالله يُذكّر الناس كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم؟))[٣].

قال النووي: (في هذا الحديث الاقتصاد في الموعظة لئلا تملها القلوب فيفوت مقصودها)[٤]، وقال ابن حجر: (قال الخطابي: المراد أنه كان يراعي الأوقات في تعليمهم ووعظهم ولا يفعله كل يوم خشية الملل)[٥].

وقال ابن حجر كذلك: (وفيه رفق النبي ﷺ بأصحابه وحسن التوصل إلى تعليمهم وتفهيمهم، ليأخذوا عنه بنشاط لا عن ضجر ولا ملل، ويقتدى به في ذلك، فإن التعليم بالتدرج أخف مؤنة وأدعى إلى الثبات من أخذه بالكد والمغالبة)[٦].

خامسًا- من وسائل الدعوة: الخطبة:

يظهر هذا من وصف الصحابي رضي الله عنه لخطبة النبي ﷺ "وخطبته قصدًا" (والخطبة وسيلة ممتازة للدعوة لتبليغ الرسالة أو إيضاح فكرة معينة، ومن مرامي الخطبة حمل

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ١٣٨/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨، ٦٤١١، ومسلم ٢٨٢١ واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٥١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣١/١١.

(٦) المرجع السابق ٢٣٢/١١.

المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة العواطف الجياشة في فؤاده نحو الفكرة التي يحملها الخطيب ويدعو إليها، فيتحمس لها ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الحاجة)[١].

وقد استخدم النبي ﷺ الخطبة - وسيلة دعوية - في بيان مبادئ الإسلام للصحابة رضي الله عنهم، حيث تُعد الخطبة وسيلة مؤثرة في مجال الدعوة، نظرًا لأن الداعية يخاطب من خلالها العقل والحس، ويراعي في ذلك الجوانب الفنية، والتي من أبرزها الإيجاز القصد والوضوح، وعدم الإسهاب الذي يبعث على الملل والانصراف عن الداعية، ولقد رسم النبي ﷺ المنهج الصحيح للدعاة في القصد في الخطبة وتخول الناس بالموعظة، فما أجدر بالدعاة أن يتأسوا به ﷺ في هذا المجال.

---

(١) الدعوة إلى الله: الرسالة والوسيلة والهدف، الدكتور توفيق الواعي ص ٢٧١.

الحديث رقم (١٤٩)

١٤٩- وعن أَبِي جُحَيْفَةَ وَهبِ بْنِ عبد اللّه ﷺ قال: آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْن سَلْمَانَ وأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاء مُتَبَذِّلَةً فقال: ما شَأْنُكِ؟ قالَتْ: أَخْوكَ أَبُو الدَّرداءِ ليْسَ له حَاجةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدرْدَاءِ فَصنَعَ لَه طَعَامًا، فقالَ لَهُ: كُلْ. فَإنِّي صَائِمٌ، قالَ: ما أَنَا بآكلٍ حَتَّى تأْكلَ، فَأَكَلَ، فلَمَّا كانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْداءِ يقُوم. فقال لَه: نَمْ فنَام، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُوم فقالَ لَه: نَمْ، فَلَمَّا كان من آخرِ اللَّيْلِ قالَ سلْمانُ: قُم الآنَ، فَصلَّيَا جَمِيعًا، فقالَ له سَلْمَانُ: إنَّ لربِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لنَفْسِكَ عَلَيْكَ حقًّا، ولأهلِك عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّه، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكر ذلكَ لَه، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ سلْمَانُ**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو جُحَيفة السُّوائي: وهو وهب بن عبدالله أبو جُحَيفة، من صغار الصحابة.

قدم على النبي ﷺ في أواخر عمره، ولما توفي النبي ﷺ كان أبو جحيفة لم يبلغ الحلُم، ولكنه سمع رسول الله ﷺ، وروى عنه.

وقد أكل ثريدة بلحم يومًا، وأتى النبي ﷺ وهو يتجشأ فقال له النبي ﷺ ((اكفُف عليك جُشاءَك أبا جُحيفة، فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أكثرهم جوعًا يوم القيامة)) فما أكل بعد ذلك ملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تعشى لا يتغدى، وإذا تغدى لا يتعشى[2] وقال: رأيتُ رسول الله ﷺ ورأيتُ هذه منه، وهي بيضاء، وأشار إلى عَنْفَقَتِه[3]، فقيل له: مثل من كنت يومئذ؟ قال: أَبْري النَّبل وأريشها[4]، [5] وقال رأيت رسول الله ﷺ، وكان الحسن بن علي يُشبهه.

---

(١) برقم (١٩٦٨).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٨٩٢٤، والحاكم في المستدرك ١٦٧/٥ رقم ٧٢٢٢، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، واللفظ للطبراني.

(٣) والعَنفَقَة: هي الشعر الذي تحت الشفة السفلى، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ن ف ق).

(٤) وأريشها: أي أجعل للنبل ريشًا.

(٥) أخرجه البخاري ٣٥٤٥، ومسلم ٢٣٤٢.

وأحبّهُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ووثق به، فولاه شرطة الكوفة لما ولي الخلافة وجعله على بيت المال، وشهد مع علي بن أبي طالب مشاهده كلها، وكان علي رضي الله عنه يسميه وهب الخير، وكان إذا خطب علي بن أبي طالب قام أبو جحيفة تحت منبره رضي الله عنهما.

وتوفي في ولاية بشر بن مروان بالكوفة، سنة ٧٤هـ وقيل ٧٢هـ[١].

غريب الألفاظ:

متبذِّلة: تاركة ثياب الزينة ولابسة ثياب المهنة[٢].

الشرح الأدبي

إن إشراقة هذا الحديث الشريف تتوهج في الجملة الأخيرة التي أيد بها رسول الله ﷺ موقف سلمان الفارسي حيث قال: "صدق سلمان" فمن سلمان؟ ولماذا صدق؟ وفيم صدق؟

إن سلمان الفارسي رضي الله عنه من الصحابة الأجلاء، وهو صاحب المشورة والرأي في غزوة الخندق، وقد شهد له النبي ﷺ فقال: "لقد اتسع من العلم"[٣].

وهذا الفقه في الدين وفي القضايا والشؤون الاجتماعية يتجلى في نصيحة سلمان لأبي الدرداء رضي الله عنهما، "إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه".

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٦٣/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٧٥٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٦/٤٧-٤٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي (١٣٨٧)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٣/٢٠٢-٢٠٣)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤/٢٣١)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٧/٤٩٧)، والأعلام للزركلي (٨/١٢٥)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٣/١٩٨٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ذ ل)، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٨/٤.

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٤٣/٩، ٣٤٤ مطولاً، ونسبه إلى الطبراني في الأوسط وأخرجه ابن سعد ٦٠/١/٤، ٦١ عن طريق عبدالله بن نمير عن الأعمش به.

وهذه الوصايا الجامعة التي صدق فيها سلمان رضي الله عنه كما شهد بذلك المصطفى ﷺ خطاب لأبي الدرداء رضي الله عنه، ولكل مسلم يطمح إلى حياة ينعم فيها بالتوازن والاستقرار والثبات.

وتأتي هذه الوصايا في إطار الرؤية الاجتماعية التي تنطلق من تعاليم الدين الإسلامي، وفي سياق القضاء على ظاهرة التشدد في أداء الشعائر والعبادات، ولم تأت هذه الوصايا في صورة مواعظ مجردة، أو حكم وأمثال سائرة؛ وإنما نبعث من تجربة حياتية وحكاية واقعية، قام بسرد حوادثها أشخاص حقيقيون مُحدَّدُون، وهذه الحالة السردية يرتب أحداثها ومشاهدها أبو جحيفة وهب بن عبدالله رضي الله عنه، وعناصر الحكْى، تتمثل في طريقة السَّرْد، وفي تتابع الأفعال الماضية المتتالية على النحو (آخى النبي – فزار سلمان – فرأى أم الدرداء، فقال: قالت، فجاء، فصنع، فقال له... إلخ، هذه الأفعال المتتابعة التي تتوالى أحداث هذه الحكاية الواقعية من خلالها.

وتبدأ أحداث هذه الحكاية بحقيقة اجتماعية وشرعية وهى المؤاخاة بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء رضي الله عنهما، وهذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار من أعظم الإنجازات التي قدمها الإسلام في مجال النهوض بالمجتمع الإنساني، والمجتمع الإسلامي هو الأنموذج الأعلى في ذلك؟ وقيامًا بواجبات الأخوة يزور سلمان أخاه في الله أبا الدرداء، فيرى أم الدرداء وهى زوجة أبي الدرداء غير متهيئة لزوجها وتلبس ثياب المهنة التي تعمل بها في بيتها وأعمالها الأخرى، وكلمة "متبذلة" تفصح عن هذا المعنى، وتصور هذه الحالة، وتوحي بحقيقة العلاقة بين أبي الدرداء وزوجته، ويحاورها: سلمانُ قائلاً: ما شأنك، وهو سؤال فيه تأدب ولطف وإيحاء باستنكار ما عليه هذه الزوجة من إهمالها لنفسها، ويأتي الجواب في غاية السمو والإيحاء، وعدم التصريح بحقيقة المشكلة، وتأمل هذه الجملة التي تشع بكثير من الدلالات والمعاني تقول: "أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا"، ولم تقل زوجي، حتى لا تكون الشكوى صريحة، وقولها: "ليس له حاجة في الدنيا" أكثر تلميحًا وإيحاء من قولها ليس له رغبة في النساء، وقد آثرت التعبير بلفظ الدنيا، حتى تنأى عن مظنة الاتهام، أو كُرْه ما يقوم به من عبادة، لأن

مقابل هذه العبارة، أن تقول: "وله حاجة في الآخرة" وهذا مطلب محمود، وأمل معقود.

ولا يقف سلمان رضي الله عنه موقفًا سلبيًا، وإنما يراعي حق الأخوة، ويسعى لإصلاح ذات البين، وإقناع أبي الدرداء رضي الله عنه بالاقتصاد في العبادة، وإعطاء أهل بيته حقهم، ولم يتوجه بالنصيحة المباشرة الجافة، والأوامر التي تثقل على النفس، ولا تجد لها صدى عند الآخر، ولكنه تناول معه الطعام وأقنعه بالأكل، وكان صائمًا تطوعًا، وعندما أقبل الليل... وأراد أبو الدرداء رضي الله عنه أن يواصل ليله بنهاره، قال له سلمان: نم، فنام مرتين، رغبة في إراحة بدنه، واستعداده للقيام والتهجد آخر الليل، وقاما آخر الليل: وصليا جميعًا: وبعد هذا الحوار الأخوي، والتوجيه الصادر من قلب يحب أخاه، وبعد استجابة أبي الدرداء لكل ما قاله سلمان: قال سلمان، وأكد عباراته: وكرر كلمة "حقًا" للأهمية: "إن لربك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: صلاة التطوع وقيام الليل، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٩٨).

الثاني: اتفق الفقهاء[1] على أن أحد أهم مقاصد النكاح الاستمتاع بين الزوجين فعلى الزوج أن يأتي زوجته ولا يهملها، وإذا كان الزوج عنينًا[2] أو مجبوبًا[3] ولا يستطيع

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٣٢٢/٢، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٣٤/٤، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ عليش ٣٧٩/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٠٩/٦، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣٣٩/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٥/٥، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي، البهوتي ٦٧٥/٢.

(٢) العُنَّة: عجز يصيب الرجل فلا يقدر على الجماع، المعجم الوسيط، باب العين.

(٣) المجبوب: المقطوع الذكر، المعجم الوسيط، باب الجيم.

إتيان زوجته وإعفافها، فإن لها أن تطلب الطلاق منه للضرر الواقع عليها لأن الزواج هنا لم يحقق الهدف منه، ولم يتم به مقصد رئيسي من مقاصده.

وكذلك الأمر بالنسبة للزوجة فقد اتفق الفقهاء[١] على أنه يجب على المرأة أن تمكن زوجها من نفسها متى طلبها، ولم يكن ثمة مانع شرعي عندها مهما كانت الظروف والأحوال، فإن امتنعت كانت ناشزًا وجاز له تأديبها بما يراه مصلحًا لها، فلا يحق للزوجة أن تمتنع عن المعاشرة لقيامها الليل متى طلبها زوجها، لأن هذا حق له عليها فلا يضيع الحق بالنفل.

الثالث: حكم من يفطر في صوم التطوع، وقد اختلف الفقهاء في لزوم صوم التطوع على رأيين، فذهب الحنفية[٢] والمالكية[٣] إلى لزوم صوم التطوع بالشروع فيه وأنه يحرم قطعه بدون عذر وإذا قطعه وجب عليه قضاؤه، وذهب الشافعية[٤] والحنابلة[٥] إلى أن صوم التطوع غير لازم، ويجوز لمن صام تطوعًا أن يفطر في أي وقت ولو بدون عذر، وإن كان من المستحب إتمامه والمكروه قطعه[٦]، ومتى قطعه يستحب قضاؤه ولا يجب.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٨٤/٢، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٣٣١/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١١/٤، وشرح منح الجليل ٣٧٩/٣، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٣٢٩/٤، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٠٩/٦، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٦٧٥/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٥/٥.

(٢) شرح معاني الآثر ١٠٧/٢، والمبسوط، السرخسي ٦٨/٣ وما بعدها.

(٣) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٤٤٥/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٣٥٦/٢.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٤٩/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٤٣٠/١.

(٥) الفروع، ابن مفلح ١٣٢/٣، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٥٣/٣.

(٦) وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٩٦/٢٨ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الأخوة في الله.

ثانيًا: من واجبات المدعو: الاطمئنان على أحوال إخوانه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إكرام الضيف.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: إعطاء كل ذي حق حقه.

سادسًا: من آداب المدعو: سؤال أهل الذكر والعلم.

سابعًا: من مهام الداعية: تقويم تصرفات المدعوين.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: بيان يسر تعاليم الإسلام.

تاسعًا: من وسائل الدعوة: الزيارة.

عاشرًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الأخوة في الله:

إنّ الأخوة في الله تعلُو على أخوة النسب وترتفع، لأنها مبنية على أسس أمتن وقواعد أثبت، لذا عمل النبي ﷺ على ترسيخها بين المسلمين وتفعيلها في الواقع كما يتضح في هذا الحديث من قول أبي جحيفة رضي الله عنه: ((آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء)). وذلك ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويشد بعضهم ببعض، قال ابن حجر: (قال السهيلي: آخى ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم ليذهب عنهم وحشة الغربة ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل المواريث [بينهم] وجعل المؤمنين كلهم إخوة، وأنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١] يعني في التوادد وشمول الدعوة)[٢].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣١٧/٧.

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي في الدين والحرمة لا في النسب)[١] فإن (الإيمان قد عَقَدَ بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق، ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها، لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها)[٢].

ولما آخى النبي ﷺ بين الصحابة رضي الله عنهم ضربوا أروع الأمثلة قيامًا بحقوق الأخوة ورعاية لها[٣]. فعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: (لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي. وانظر أي زوجتيّ هويت نزلت لك عنها فإذا حلَّت تزوجتها)[٤].

ثانيًا- من واجبات المدعو: الاطمئنان على أحوال إخوانه:

إنّ مما يثبت الأخوة بين المدعوين ويزيد الألفة بين قلوبهم والمحبة بين أرواحهم أن يطمئن كل واحدٍ منهم على أحوال إخوانه وأن يتفقد أخبارهم، وقد فعل ذلك سلمان رضي الله عنه عندما رأى أم الدرداء رضي الله عنها وقد تركت لبس ثياب الزينة[٥] فسألها: "ما شأنك؟"، وذلك ليعرف حال أخيه وحالها، اطمئنانًا وتقديمًا للعون والنصح، قال ابن حجر: (في هذا الحديث... جواز مخاطبة الأجنبية، والسؤال عما يترتب عليه المصلحة وإن كان في الظاهر لا يتعلق بالسائل، وفيه النصح للمسلم)[٦]. ويقتدي المدعو في ذلك بالنبي ﷺ. فقد كان ﷺ يطمئن على أحوال أصحابه رضي الله عنهم. فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج٨/١٦/٣٢٢.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري: محمود بن عمرص ١٠٣٧-١٠٣٨.

(٣) انظر الأحاديث الواردة في الأخوة وآدابها، في تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧/٣٧٥، وموسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٢/٩٢-١١٧.

(٤) أخرجه البخاري ٢٠٤٨.

(٥) انظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٤٨.

(٦) المرجع السابق ٤/٢٤٩.

قال: (خرجت مع رسول الله ﷺ في غزاة فأبطأ بي جملي، فأتى عليّ رسول الله فقال لي: ((يا جابر)). قلت: نعم. قال: ((ما شأنك؟)) قلت: أبطأ بي جملي وأَعْيَا فتخلفتُ. فنزل فحجنه بمِحجنه[1] ثم قال: ((اركب)) فركبت فلقد رأيتني أكفُّه عن رسول الله ﷺ، فقال: ((أتزوجت؟)) فقلت: نعم. فقال: ((أبكرًا أم ثيبًا؟)) فقلت: بل ثيب. قال: ((فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟)) قلت: إن لي أخوات فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن وتمشطهن وتقوم عليهن)[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إكرام الضيف:

إن من الصفات التي حث الإسلام على التحلي بها إكرام الضيف، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم القدوة في ذلك، فقد أعد أبو الدرداء طعامًا لأخيه سلمان رضي الله عنهما وقال له: كل فإني صائم.

وهذا فيه إكرام لضيفه وعناية به وإعزاز له، ولاشك أن إكرام الضيف من محاسن الأخلاق، وقد جاء الإسلام بالحث عليها والأمر بها، فقد قال النبي ﷺ عن إكرام الضيف: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه))[3].

قال النووي: ((معنى الحديث أن من التزم شرائع الإسلام لزمه إكرام ضيفه وبرّه... والضيافة من آداب الإسلام وخلق النبيين والصالحين))[4].

وقال ابن هبيرة: "لما كان الضيف من حيث إنه يأوي إلى مضيفه في حالة يتعين على المضيف أن يقوم منها بمبلغ وسعه، إيمانًا بأن الله سبحانه وتعالى سيخلف عليه ما أنفق على ضيف قَصَدَه، لا قرابة بينه وبينه، ولا يرجوه ولا يخافه، بل من حيث إنه يأوي إليه، فكان ذلك من خصال الإيمان"[5].

---

(١) المحجن: عصا فيها تعقف يلتقط بها الراكب ما سقط منه. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٩٧، ومسلم ٥٧-٧١٥ كتاب الرضاع.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠١٨، ومسلم ٤٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٣ بتصرف يسير.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٢٩١/٦.

جاء في الموسوعة الفقهية: (تعتبر الضيافة من مكارم الأخلاق، وسنة الخليل عليه الصلاة والسلام والأنبياء بعده. وقد رغب فيها الإسلام، وعدّها من أمارات صدق الإيمان)[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف من الموضوعات التي اهتم بها الإسلام اهتمامًا كبيرًا جدًا، وحضّ أتباعه على القيام بها، وقد قام الصحابة بهذا خير قيام كما يتضح في هذا الحديث، فقد أمر سلمان أبا الدرداء بالمعروف فرفض الأكل الذي قدمه إليه حتى يأكل معه أبو الدرداء، ثم أمره بالنوم حين قام يصلي في أوله أو بعده، فلما كان آخر الليل أيقظه فصليا ثم أخبره بما يجب عليه وأنه يجب أن يُعطي كل صاحب حق حقه "فأعط كل ذي حق حقه". ويريد بذلك حق زوجته عليه، وذلك لأن إهمال حق الزوجة يؤدي إلى مفسدة أكبر من المصلحة العائدة من القيام بالنوافل من صلاة وصيام.

فقد قام سلمان بحق الأمر بالمعروف مع أخيه أبي الدرداء، وقد قال الله عن المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2] وجعله النبي ﷺ صدقة فقال: ((وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة))[3].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس أدل على ذلك من قول أبي بكر الصديق في خطبته عندما ولي الخلافة أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٨/٣١٦ ومصادرها.

(٢) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٣) أخرجه مسلم ٧٢٠.

فقوِّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة)[١].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: إعطاء كل ذي حق حقّه:

لقد حَرَص الإسلام على إعطاء كل ذي حق حقّه، وإيصاله إليه دون نقصٍ أو اعتداء، لأنّ الإسلام دين العدل، وهذا يتضح من قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء رضي الله عنهما: "فأعط كل ذي حق حقه" قال ابن حجر: (وفيه جواز النهي عن المستحبات إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السآمة والملل، وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة أو المندوبة الراجح فعلها على المستحب المذكور)[٢].

وقد كان النبي ﷺ حريصًا أن يعطي كل صاحب حق حقه، لذا أمر عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما رآه مفرِّطًا في بعض الحقوق، بسبب صومه النهار وقيامه الليل، أمره بما يجعله قادرًا على القيام بحقوق أصحاب الحقوق، فقال له: ((لا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا وإن لزورك عليك حقًا))[٣].

وهكذا ينبغي أن يكون حال المسلم دومًا، يعطي كل ذي حق حقه، فلا يفرط في حقوق ولا يغالي في حقوق، بل هو وسط، إنه يوازن بين الحقوق فلا يضيع حقًا ولا يهمله، إنّه يعرف الحقوق التي عليه، فيجِدُّ في أدائها على أحسن ما يكون دون إفراط ولا تفريط.

سادسًا- من آداب المدعو: سؤال أهل الذكر والعلم:

إن أهم طرق المعرفة سؤال أهل العلم، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على سؤال النبي ﷺ، وهذا واضح من قول الراوي: ((فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له))، وفي رواية

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٩/٨، ٤١٥/٩. وقال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح. وانظر الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. عبدالرحمن بن أبي بكر بن داود الحنبلي الدمشقي الصالحي ٨٥٦هـ، تحقيق: د. مصطفى عثمان صميدة، وانظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٥٢٥/٣-٥٣٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٩/٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم ١٨٢-١١٥٩.

الترمذي: ((فأتيا النبي ﷺ فذكر ذلك))[١].

وقد أرشد القرآن إلى وجوب سؤال أهل العلم فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] (والآية عامة في كل مسألة من مسائل الدين، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها من العلماء الراسخين)[٣].

وقد نعى النبي ﷺ على من أفتى بدون علم ولم يرجع إلى أهل العلم لسؤالهم، فقال في الرجل المجروح الذي سأل أصحابه عن التيمم فأفتوه بأن يغتسل، فاغتسل فمات- قال: قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال))[٤].

قال شرف الحق العظيم الآبادي: (إنما قاله زجرًا وتهديدًا والعي الجهل، والمعنى أن الجهل داء وشفاءها السؤال والتعلم)[٥].

سابعًا- من مهام الداعية: تقويم تصرفات المدعوين:

إن من مهام الداعية تقويم تصرفات المدعوين وأفعالهم حتى يبين لهم الصحيح من غيره، والحق مما سواه، وهذا يتضح من قول النبي ﷺ "صدق سلمان" فقد أثنى النبي ﷺ على قول سلمان، وهذا معناه أنه موافق للشرع، بخلاف ما إذا كان غير موافق فإن النبي ﷺ لن يقرّه.

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية تقويم لتصرفات المدعوين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: (ألا رجل يُضيفه هذه الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٤١٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٢٧٢.

(٤) أخرجه أبوداود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٥) عون المعبود على سنن أبي داود، محمد أشرف الحق العظيم آبادي ١٨٥.

رسول الله لا تدَّخريه شيئًا قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله أو عجب من فعالكما، فأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

ومن ناحية أخرى فإن النبي ﷺ لم يرض عن بعض أفعال المدعوين فقومها، من ذلك ما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلامًا. فقال: أكل ولدك نحلت مثله؟ قال: لا. قال: فارجعه[٢]. وفي رواية: ((اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)). قال: فرجع أبي فردّ تلك الصدقة[٣].

قال الشيخ عبدالله البسام: "قال العلماء: يجب الإنكار على من خالف ففضّل أولاده على بعضهم في الهبة، لأنه حيف وظلم، والنبي ﷺ أنكر على بشير هذا ما لم يكن التخصيص أو التفضيل لمسوِّغ شرعي يدعو إلى ذلك، فإن كان ثم مسوِّغ فلا بأس"[٤].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: بيان يسر تعاليم الإسلام:

إن من أهم خصائص شريعة الإسلام اليسر وبُعدَها عن التشدد تمام البعد، فلا حرج فيها ولا مشقة، يتضح ذلك من أمر سلمان رضي الله عنه أبا الدرداء رضي الله عنه بأن ينام عندما أراد القيام، وأن يُفطر وقت صيامه النفل، وذلك لكي يقوم بالحقوق الأخرى التي عليه وتصديق النبي ﷺ لما أمر به سلمان وثنائه عليه.

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة على يسر الإسلام وتعاليمه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٥] أي: (يريد الله تعالى بما شرعه

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩ والحديث أخرجه البخاري ٣٧٩٨، ٤٨٨٩، ومسلم ٢٠٥٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٨٦، ومسلم ٩-١٦٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٥٨٧، ومسلم ١٣-١٦٢٣.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٤/٢٦٤.

(٥) سورة النساء، آية: ٢٨.

لكم التيسير وعدم التشديد عليكم لأنكم خلقتم ضعفاء)[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: ((ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه))[٢] قال النووي: (فيه استحبابه الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حرامًا أو مكروهًا)[٣].

تاسعًا- من وسائل الدعوة: الزيارة:

يسلك الداعية كل وسيلة مشروعة لتبليغ دعوته، من ذلك الزيارة كما في الحديث، قول الراوي: "فزار سلمان أبا الدرداء" قال ابن حجر: (في هذا الحديث من الفوائد مشروعية المؤاخاة في الله وزيارة الإخوان والمبيت عندهم)[٤]. والزيارة وسيلة ناجحة يستخدمها الداعية لأنها تحمل قدرًا كبيرًا من التواد والقرب والخصوصية. وقد كان النبي ﷺ يزور أصحابه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ زار أهل بيت من الأنصار فطعم عندهم طعامًا، فلما أراد أن يخرج أمر بمكان من البيت فنضح له على بساط، فصلّى عليه ودعا لهم[٥]. قال ابن حجر: (في الحديث استحباب الزيارة ودعاء الزائر لمن زاره وطعم عنده)[٦].

عاشرًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ذلك في قول سلمان رضي الله عنه لامرأة أبي الدرداء رضي الله عنها "ما شأنك" وجوابها "أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا" فعلم سلمان رضي الله عنه حال أبي الدرداء رضي الله عنه عن طريق السؤال والجواب ثم قدم نصحه لأبي الدرداء رضي الله عنه، وقد أثنى النبي ﷺ على هذا النصح.

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٦٠، ومسلم ٢٣٢٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٣٢، وانظر: مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٩/٤.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٨٠.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥١٦/١٠.

الحديث رقم (١٥٠)

١٥٠- وعن أبي محمد عبدِ اللَّهِ بن عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما قال: أُخْبرَ النَّبيُّ ﷺ أنّي أَقُول: وَاللَّهِ لأَصومَنَّ النَّهارَ، ولأَقُومنَّ اللَّيْلَ ما عشْتُ، فقَالَ رسُول اللَّه ﷺ: **«أنْتَ الّذِي تَقُول ذلك؟»** فَقُلْت له: قَدْ قُلْتُه بأَبِي أَنْتَ وأُمِّي يا رسولَ اللَّه. قَالَ: **«فإنك لا تَسْتَطِيعُ ذلِك، فَصُمْ وأَفْطر، ونَمْ وَقُم، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فإنَّ الْحسنَةَ بعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وذلك مثْلُ صِيامِ الدَّهْرِ»**. قُلْت: فَإنِّي أُطيق أَفْضَلَ منْ ذلك. قَالَ: **«فَصمْ يَوْمًا وَأفْطرْ يَوْمَيْنِ»**، قُلْت: فَإنِّي أُطيق أفضَلَ مِنْ ذلك، قَالَ: **«فَصُم يَوْمًا وَأفْطرْ يوْمًا، فذلك صِيَام دَاود ﷺ، وَهُو أَعْدَل الصِّيَامِ»**[1].

وَفي رواية[2]: **«هوَ أَفْضَلُ الصِّيامِ»**.

فَقُلْتُ فَإنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذلكَ، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«لا أَفْضَلَ منْ ذلك»**[3].

[4]وَلأنْ أَكْونَ قَبلْتُ الثَّلاثَةَ الأَيَّامِ الَّتِي قال رسولُ اللَّه ﷺ أَحبُّ إليَّ منْ أَهْلِي وَمَالِي[5].

وفي روايةٍ[6]: **«أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّك تَصومُ النَّهارَ وتَقُومُ اللَّيْلَ؟»** قلت: بلَى يَا رسول اللَّهِ. قال: **«فَلا تَفْعل: صُمْ وأفْطرْ، ونَمْ وقُمْ فإنَّ لجَسَدكَ عليْك حقًّا، وإنَّ لعيْنَيْك عليْك حقًّا وَإنَّ لزَوْجِك عليْكَ حقًّا، وَإنَّ لزَوْركَ عَلَيْك حقًّا، وإنَّ بحَسْبِك أنْ تَصومَ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإنَّ لَك بكُلِّ حَسَنَةٍ عشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإن ذلك صِيَامُ الدَّهْرِ»** فشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يا رسول اللَّه إنّي أَجِدُ قُوَّةً، قَال: **«صُمْ صِيَامَ نَبيِّ اللَّهِ داوُدَ وَلا تَزِدْ عَلَيْهِ»** قلت: وما كَان صِيَامُ داودَ؟ قال: **«نِصْفُ الدهْرِ»** فَكَان عَبْدُ اللَّهِ يقول بعْد مَا كَبر: يا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصةَ رسول اللَّه ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩/١٨١) واللفظ له، من رواية سعيد، وأبي سلمة.

(٢) أخرجها البخاري (١٩٧٦) من رواية شعيب، عن الزهري.

(٣) أخرجها البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩/١٨١) من رواية سعيد، وأبي سلمة.

(٤) قبلها عند مسلم زيادة: (قال عبد الله بن عمرو).

(٥) أخرجه مسلم (١١٥٩/١٨١) من رواية يونس عن الزهري، وهذه الزيادة ليست عند البخاري.

(٦) أخرجه البخاري (١٩٧٥) من رواية الأوزاعيّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة وحده.

وفي رواية[١]: «**أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّك تصُومُ الدَّهْرَ، وَتَقرَأُ الْقُرآنَ كُلَّ لَيْلَة؟**» فَقُلْتُ: بَلَى يا رسولَ اللَّهِ، ولَمْ أُرِدْ بذلِكَ إلاَّ الْخيْرَ.

قَال[٢]: «**فَصُمْ صَوْمَ نَبِيِّ اللَّهِ داودَ، فَإِنَّه كَانَ أَعْبَدَ النَّاس**».

[٣]«**وَاقْرأْ الْقُرآنَ في كُلِّ شَهْرٍ**» قُلْت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيق أَفْضل مِنْ ذلِكَ؟ قَالَ: «**فَاقْرَأه فِي كُلِّ عِشرِينَ**» قُلْت: يَا نبيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيق أَفْضَل مِنْ ذَلِك؟ قَالَ: «**فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْر**» قُلْت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيق أَفْضلَ مِنْ ذلِك؟ قَالَ: «**فَاقْرَأه في كُلِّ سَبْعٍ وَلاَ تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ**» فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، وقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّكَ لاَ تَدْرِي لَعلَّكَ يَطُول بكَ عُمُرٌ**» قَالَ: فَصِرْت إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أَنِّي قَبِلْت رخْصَةَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ.

وفي رواية[٤]: «**وَإِنَّ لِوَلَدِكَ عليْكَ حَقًّا**».

وفي روايةٍ[٥]: «**لا صَامَ من صَامَ الأَبَدَ**» ثَلاثًا.

وفي روايةٍ[٦]: «**أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّه تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلاةُ دَاوُدَ: كَانَ يَنَامُ نِصفَ اللَّيلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يومًا ويُفطِرُ يَوْمًا، [وَلا يَفِرُّ إِذَا لاقَى]**»[٧].

---

(١) أخرجها مسلم (١١٥٩/١٨٢) من رواية عكرمة بن عمّار، عن يحيى بن أبي كثير.

(٢) هذا من الأحاديث التي نقلها المؤلف عن الحميدي في جمعه، وهو يورد الحديث كفقرات مستقلة بحذف بعض المكررات، والمؤلف يدرجه فيما قبله، فيوهم القارئ بتواصل الفقرات، وليس كذلك، ولأجل ذلك ننبه على كلّ فقرة مستقلة.

(٣) هذه الفقرة مستقلة، ذكر قبلها الحميدي، قوله: (وفيه).

(٤) أخرجها مسلم (١١٥٩/١٨٣) من رواية حسين المعلم، عن يحيى.

(٥) أخرجها البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩/١٨٦) من رواية ابن جريج، عن عطاء.

تنبيه: تكررت في المطبوع من صحيح مسلم ثلاث مرات، وفي هامش الكتاب في نسخة مرَّتين، وكذا عند البخاري مرَّتين، وفصَّله الحميدي في جمعه (٤٢٨/٣) فقال: في حديث أبي عاصم، عن ابن جريج، وهو عند البخاري: مرَّتين. وفي رواية عبد الرزاق، عن ابن جريج، وهو عند مسلم: ثلاثًا.

(٦) أخرجها البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩/١٩٠) دون قوله: (ولا يفرُّ إذا لا قى) قال الحميدي في جمعه (٤٣٠/٣) وأخرجاه مختصرًا جامعًا من رواية عمرو بن أوس الثقفيّ.

(٧) ما بين المعكوفين لا يوجد عندهما.

وفي رواية[١] قَالَ: أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً ذَاتَ حسَبٍ، وكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ (أي: امْرَأَة ولَدِهِ) فَيسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ لَهُ[٢]: نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رجُل لَمْ يَطَأْ لنَا فِرَاشًا ولَمْ يُفتِّشْ لنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ، فَلَمَّا طالَ ذَلِكَ عليه ذكَرَ ذلِكَ[٣] لِلنَّبِيِّ ﷺ. فقَالَ: «الْقَني به» فلَقيتُهُ بَعْدَ ذلكَ[٤]، فَقَالَ: «كيفَ تَصُومُ؟» قُلْتُ: كُلَّ يَوْم، قَالَ: «وَكيْفَ تَخْتِمُ؟» قلتُ: كُلَّ لَيلة.

وذَكَر نَحْوَ مَا سبَق: وكَان يقْرَأُ عَلَى بعْض أَهْلِه السُّبُعَ[٥] الَّذِي يقْرؤهُ يعْرضُهُ مِن النَّهَارِ لِيكُون أَخفَّ علَيهِ باللَّيْل، وَإِذَا أَراد أَنْ يَتَقَوَّى أَفْطَر أَيَّامًا وَأَحصَى، وصَام مِثْلَهُنَّ كَراهِيةَ أَن يتْرُك شيئًا فارقَ علَيهِ النَّبي ﷺ.

كُلُّ هذِه الرِّوَايات صحيحةٌ مُعْظَمُهَا فِي الصَّحيحيْنَ وقليلٌ منْهَا في أَحَدِهِما[٦].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

بأبي أنت وأمي: الباء متعلقة بمحذوف: اسم أو فعل، والتقدير: أنت مفدي أو أفديك[٧].

زورك: زائرك[٨].

---

(١) أخرجها البخاري (٥٠٥٢) من حديث أبي عوانة، عن مغيرة، عن مجاهد.

(٢) (له) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي.

(٣) (ذلك) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي.

(٤) (ذلك) لا توجد عند البخاري.

(٥) عند البخاري زيادة: (من القرآن بالنهار، و).

(٦) عزونا كلَّ فقرة مستقلة إلى من أخرجها، سواء اتّفقا على إخراجها أو انفرد أحدهما برواية بعضها، وكل هذه الروايات نقلها المؤلف من كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي (٤٢٨/٣-٤٣٠).

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٨/٢.

(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز و ر).

الأبد: الدهر[١].

بعلها: زوجها[٢].

لم يطأ لنا فراشًا: أي لم يضاجعنا حتى يطأ فراشنا[٣].

لم يفتش لنا كنفًا: أي لم يدخل يده معها كما يدخل الرجل يده مع زوجته في دواخل أمرها، وأرادت بذلك الكناية عن عدم جماعه لها[٤].

السُّبُع: جزء من سبعة، والمقصود سُبُع القرآن[٥].

الشرح الأدبي

تتعدد روايات هذا الحديث الشريف وهذا التعدد لا يعني التعارض، ولكنه يضيف بعض مظاهر التشدد التي يظنها البعض من وسائل التقرب، ومن معالم الورع والتقوى، ولكن رسول الله ﷺ حريص على أمته، وبالمؤمنين رءوف رحيم، وهو يعرف قدرات الناس، ولا يرضى أن تكون العبادة طريقًا للملل أو الضعف الجسماني، أو سببًا في تأزم العلاقة بين الزوج وزوجته، وبين الرجل وضيوفه وأبنائه، فالعبادة طاعة وتقرب إلى الله عز وجل، وهي شكر لله على ما أنعم به على عباده الحامدين الشاكرين، والروايات الخمس كلها ترشد إلى القصد في العبادة، وإلى أن التيسير في العبادات طريق إلى إتقانها والمداومة عليها، وهذا التيسير الذي أرشد إليه النبي كثيرًا، يجيء في هذا الحديث في قالب حواري مُشوِّق: فيه الإمتاع والإقناع، وفيه الترغيب والترهيب، وفيه التيسير والتبشير.

والحوار بين رسول الله ﷺ وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وعبدالله بن

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ب د).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ع ل).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١٤/٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ت ش)، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١٤/٨.

(٥) انظر الوسيط ٤١٤.

عمرو أسلم قبل أبيه، وكان كثير العلم مجتهدًا في العبادة، تلاء للقرآن، وكان أكثر الناس أخذًا للحديث والعلم عن رسول الله ﷺ، وقد أقرّ أبو هريرة رضي الله عنه بذلك حيث قال: "ما كان أحد أكثر حديثًا عن رسول الله مني إلا عبدالله بن عمرو بن العاص، وكان يكتب ولا أكتب".

ولذلك حين نقرأ هذا الحوار البليغ الذي يُصر فيه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما على أخذ نفسه بالمشقة في العبادة: ويقول: "إني أطيق أفضل من ذلك"، لا تتعجب ولا تستغرب حين نتعرف على صفاته وأحواله، فبعد موت رسول الله ﷺ، قال وهو يستكثر من عمل الخير ويزيد فيه، "الخير أعمله لله اليوم أحب إلي من مثليه مع رسول الله ﷺ، لأنا كنا مع رسول الله تهمنا الآخرة، ولا تهمنا الدنيا، وإنا اليوم مالت بنا الدنيا"[1].

وفي ضوء هذه السمات والخصائص التي كان يتسم بها: عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: نستطيع أن ندرك أسرار كثير من الدلالات والمعاني التي تنبثق من هذا الحوار الكريم، انبثاق العطر من الأزهار، وانبثاق الضوء من الشموس والأقمار.

فالقسم والتأكيد في قوله: "والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت"، يفصح بجلاء عن إخلاص النية وصدق التوجه، والتصميم على التنفيذ لأنه أقسم بالله عز وجل، وقوله "ما عشت" أي طيلة حياتي: وفي ذلك إلزام للنفس بالمشقة، وإجهاد للبدن، ولكنَّ عبدالله هل يستطيع الإبرار بالقسم، على الرغم من الضعف والمشقة؟؟؟!!!.

ويأتي توجيه الرسول ﷺ له في صورة استفهام حيث قال: "أنت الذي تقول ذلك"، وحذف أداة الاستفهام يدل على حرص الرسول ﷺ على توصيل المعنى في أسرع وقت، مع نبْرة التقرير والإشعار بعدم الموافقة على هذا النهج.

ولم ينكر عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، لأنه لم يفعل منكرًا. ولكنه يبالغ في الطاعة ويشق على نفسه، ويظن أن ذلك هو النهج الأقوم والأمثل: فقال في أسلوب مرغب: وعاطفة صادقة، ومحبة لرسول الله ﷺ، وأتى بـ"قد" في أول القول، ومزج إجابته

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٢٢/١.

بالدعاء للنبي ﷺ وذلك للإشعار بأنه مستعد لافتداء النبي ﷺ وكأنه يقول: إن هذه المشقة في الطاعة شيء يسير، وإنه يتمنى أن يفدى رسول الله ﷺ بنفسه، ولنتأمل هذا الجواب الذي يشرق بهذه المحبة الصادقة لرسول الله ﷺ: "قد قلته: بأبي أنت وأمي يا رسول الله"، ويستمر الحوار الأجمل والأحسن والأصدق، حيث لا يعنفه رسول الله ﷺ وكيف: وهو ينزع إلى الترقي في العبادة، وفداء رسول الله بنفسه دفاعًا عن العقيدة الإسلامية، ولكن يقول له في صيغة مؤكدة "إنك لا تستطيع ذلك"، ثم يوجهه إلى المنهج المعتدل، وإلى القصد في العبادة: وهو توجيه عام وشامل للأمة كلها: وجاء في صيغة الأمر... حيث قال: "فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر".

والعبارة الأخيرة ترشد إلى أن المسلم إذا صام ثلاثة أيام من الشهر تحسب له بثلاثين يومًا فكأنه صام الشهر كله.

وحين يداوم على صيام هذه الأيام الثلاثة؛ فكأنه صام الدهر كله أى حياته التي قضاها عابدًا متبتلاً قوامًا صوّامًا في رفق ويسر.

ولنتأمل هذا التدرج في الحوار، وقوة إرادة عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، ورغبته في الإكثار من العبادة، حيث رغب في المزيد، وقال للنبي ﷺ: "إني أطيق أفضل من ذلك"، ويفتح له النبي ﷺ بعض أبواب الخير ولا يمنعه من الاستزادة، ولا يَضِيقُ صدره لعدم استجابته لما أبداه له في الحوار من مظاهر التيسير ومضاعفة الثواب، ويقول له: "فصم يومًا وأفطر يومين"، فيقول عبدالله: "فإني أطيق أفضل من ذلك"، فيفتح له الرسول ﷺ بابا جديدًا من أبواب الخير والترقي في العبادة بناء على رغبته، ولا يمنعه من الاستزاده: ويقول له: "فصم يومًا وأفطر يومًا"، ثم يرغبِّه في هذا السبيل القويم ويقول حتى يقتنع عبدالله "فذلك صيام داود، وهو أعدل الصيام". وفي رواية للبخاري: وهو: "أفضل الصيام"، وذلك لأن النفس تكتسب في يوم الفطر من القوى ما يجبر به ما لحقها من وَهَنِ الصوم، فتدوم على العمل، فيقول عبدالله: بعد هذا الترغيب من النبي ﷺ، وبعد هذا التدرج في الإقناع، والصبر على هذه المحاورة بدافع من حب النبي له،

وخوفه عليه حيث قال له: "إنك لا تستطيع" يقول عبدالله في صيغة التأكيد: "إني أطيق أفضل من ذلك"، وهنا يُحْسم الحوار.. ويكون موقف النبي ﷺ جازمًا وصريحًا ومقنعًا حرصا على مصلحة الأمة حيث قال: "لا أفضل من ذلك"، والجواب فيه إيجاز حيث حذفت كلمات عديدة، والإيجاز هنا يعطي دلالة الحزْم والجزْم والحسْم والقوْل الفَصْل، وكأن النبي ﷺ يقول: من خلال هذه الإجابة الحاسمة لا مناقشة ولا حوار، فقد انتهى الأمر.

ونهاية الحديث تشرق بحقيقة وقيمة البيان النبوي، وترشد إلى ضرورة الأخذ بمنهج التيسير في الإسلام، في ضوء توجيهات النبي ﷺ، لأن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما بعد أن كبر، وضعفت همته لضعف جسده، أدرك أن الذي اختاره رسول الله ﷺ من البداية هو المنهج السديد، والقول الرشيد: وهو الاكتفاء بصيام ثلاثة أيام في كل شهر، وهي في ثوابها وأجرها تساوي ثلاثين يومًا: والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم.

ولذلك يدرك عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما حكمة رسول الله ﷺ، واتساع رؤيته، وثاقب نظره، وصدق قوله، حين قال له مؤكدًا وقوله الصدق: "إنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم... الخ"، ويقول عبدالله بعد ما طَعَن في السن: مقرًا بصواب منهج القصد في العبادة "ولأن أكون قبلتُ الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلى من أهلي ومالي"، فصلَّى اللهُ وسلم عليك يا رسولَ الله، وأنت القائل: "إن الدين يسر ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه"[1]، وعَبدُ اللهَ رضي الله عنه بعد أن خاض تجربة الحياة، وأقام على الطاعة والتزم بصوم يوم وإفطار يوم: أدرك في آخر العمر أن هذه مشقة وأخذ للنفس بالشدة، وتمنى أن يكون قد استجاب لما عرضه عليه المصطفى ﷺ من تخفيف وتيسير، وفي الروايات الأخرى لهذا الحديث تفصيل لأسباب التيسير والابتعاد عن المشقة في العبادة: ومنها: مراعاة حقوق الغير، وإيجاد بعض الوقت لقضاء متطلبات الحياة، ورعاية الزوجة والأولاد، وحسن استقبال الضيوف، لأن المؤمن لا يعيش معزولاً، بل يجب

---

(١) أخرجه البخاري ٣٩، واللفظ له، ومسلم ٢٨١٦.

أن تكون حركته في المجتمع إيجابية فاعلة: يألف ويؤلف، يزور ويُزار، يُعلِّم ويتعلَّم، يعمل للناس ويعملون له، يستثمر ماله وينفقه في مشاريع الخير، ويعين المحتاجين، والضعفاء.

وهذه المعاني والسلوكيات تتوهج بها هذه التوجيهات التي صيغت في أسلوب التوكيد، وتكرر فيها لفظ "حقًا"، لزيادة التأكيد على ضرورة أداء هذه الحقوق والواجبات: وما أصدق هذا التوجيه النبوي الكريم الذي يحض على القصد في العبادة "صم وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن لولدك عليك حقًا"، وقال رسول الله ﷺ لعبدالله، "إنك لا تَدْري لعلك يطول بك عمر" يقول عبدالله فصرت إلى الذي قال؟ وقد مات وعمره اثنتان وسبعون سنة في عام ثمانية وستين من الهجرة، في مصر وقيل بالطائف، ومات وهو ضعيف كما أخبره رسول الله ﷺ ولذلك قال: فلما كبرتُ وددتُ أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: أحكام قيام الليل، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (٩٨).

الثاني: حكم صوم التطوع، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (١٤٣).

الثالث: حكم صيام الدهر، وقد اختلف الفقهاء في حكمه، فذهب الجمهور من الحنفية[(١)] والمالكية[(٢)] والحنابلة[(٣)] وبعض الشافعية[(٤)] إلى أن صوم الدهر مكروه لما

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/٧٩، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١/٣٣٢.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٢/٤٤٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ٣/٣٧٦.

(٣) المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٣/٥٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٥/٣٧٨، والفروع، ابن مفلح ٣/١١٤.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦/٤٤١.

فيه من المشقة والضعف وشبه التبتل المنهي عنه، ولأنه يصير الصوم طبعًا له ومبنى العبادة على مخالفة العادة، وذهب الشافعية[1] إلى أن صوم الدهر جائز متى لم يخف ضررًا ولم يفوت حقًا، والمراد بصوم الدهر سرد الصوم في جميع الأيام إلا الأيام التي لا يصح صومها كالعيدين وأيام التشريق، وقال الغزالي هو مسنون[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: الاستفهام من المدعو عما بلغه عنه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حب الصحابة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: من صفات الداعية: الشفقة على المدعو.

رابعًا: من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الموازنة والاقتصاد في فعل الطاعات.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الترغيب في التوسط والتنفير من التشدد والتعمق في العبادات.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: تأدب الزوجة مع زوجها.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الحوار والتوكيد والأمر والنفي والتعليل.

أولاً- من مهام الداعية: الاستفهام من المدعو عما بلغه عنه:

على الداعية أن يستوضح من المدعو ما بلغه عنه، حتى يرشده إلى الطريق الصحيح، وهو في هذا يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم في قوله لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "أنت الذي تقول ذلك؟" بعد أن أخبره أبوه عمرو بن العاص رضي الله عنه[3] وفي رواية "ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟" وفي رواية في الصحيحين "فإما أرسل إليّ وإما لقيته"[4].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦/٤٤١ وما بعدها، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢/٢٩، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١/٤٣٢.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦/٤٤١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٨/١٧.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٦٠.

(٤) أخرجه البخاري ١٩٧٧، ومسلم ١٨٦-١١٥٩.

قال ابن حجر: (ويجمع بينهما بأن يكون عمرو توجه بابنه إلى النبي ﷺ فكلمه من غير أن يستوعب ما يريد من ذلك ثم أتاه إلى بيته زيادة في التأكيد)[١].

وقد فعل ذلك النبي ﷺ مع الثلاثة الذين سألوا عن عبادته، وعزموا على المبالغة في عبادتهم، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ((فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟))[٢].

فبادر ﷺ إلى علاج الخلل الذي وقعوا فيه، وبيّن لهم أن ما عزموا عليه خلاف سنته ﷺ، وأن طريقته ﷺ التوسط والبعد عن الإفراط والتفريط.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حب الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ:

لقد تواتر واشتهر حب الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ، فقد كانوا على أتم الاستعداد لأن يضحوا من أجله بالغالي والنفيس، كما يتضح هنا في هذا الحديث من قول عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله" قال ابن حجر: (الباء متعلق بمحذوف اسم أو فعل، والتقدير أنت مفدى أو أفديك [بأبي وأمي]. واستدل به على جواز قول ذلك. وزعم بعضهم أنه من خصائصه ﷺ)[٣].

كما يدل على هذا الحب خير دلالة ويوضحه خير توضيح ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: ((كنا قعودًا حول رسول الله، معنا أبوبكر وعمر في نفر، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا فأبطأ علينا وخشينا أن يُقْتَطَعَ دوننا[٤] وفزعنا فقمنا فكنت أول من فزع فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطًا[٥] للأنصار لبني النجار فدرت به هل أجد له بابًا فلم أجد، فإذا ربيع[٦] يدخل في جوف حائط بئر خارجة فاحتفرت[٧] كما

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٥٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠٦٣ واللفظ له، ومسلم ١٤٠١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٢٩.

(٤) أي يصاب بمكروه من عدو، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢.

(٥) أي بستانًا وسمي بذلك لأنه حائط لا سقف له. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢.

(٦) الربيع: الجدول وهو النهر الصغير، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٣.

(٧) احْتَفَزْتُ: بالزاي وليس بالراء كما جاء في الأصل، واحتفزتُ: أي تضاممت ليسعني المدخل إلى الشرح الشريف، ابن الحاج العبدلي. شرح صحيح مسلم، الإمام النووي للنووي ١/٢٣٦.

يحتفر الثعلب فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: أبو هريرة؟ قلت: نعم...))[١].

قال النووي: (وفيه بيان ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من القيام بحقوق رسول الله ﷺ وإكرامه والشفقة عليه والانزعاج البالغ لما يطرقه، وفيه اهتمام الأتباع بحقوق متبوعهم، والاعتناء بتحصيل مصالحه ودفع المفاسد عنه)[٢].

ثالثًا- من صفات الداعية: الشفقة على المدعو:

وذلك في قوله ﷺ: "فإنك لا تستطيع ذلك فصم وأفطر ونم وقم..." وقوله ﷺ: "فلا تفعل، صم وأفطر ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا..." وفي رواية "وإن لولدك عليك حقًا". قال النووي: (حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قد جمع مسلم طرقه فأتقنها، وحاصل الحديث بيان رفق رسول الله ﷺ بأمته وشفقته عليهم وإرشادهم إلى مصالحهم، وحثهم على ما يطيقون الدوام عليه، ونهيهم عن التعمق والإكثار من العبادات التي يخاف عليهم الملل بسببها أو تركها أو ترك بعضها)[٣].

وقد قال القاضي عياض: (ومن شفقته على أمته تخفيفه وتسهيله عليهم وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم، كقوله ﷺ: ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء))[٤]...)[٥]. ففي هذا الحديث (بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الرفق بأمته ﷺ)[٦].

رابعًا- من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

لقد بعث الله محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، فكان يرشدهم إلى ما هو أنسب وأرفق بهم. فكان أعرف من أنفسهم بما يصلحهم ويناسبهم، لذا كان على المدعو ان

---

(١) أخرجه مسلم ٣١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧١٦، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٦٥.

(٤) أخرجه أحمد ٢/٤٦٠ رقم ٩٩٢٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٦/٢٢.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض١/١٨٨.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٦٧ وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٤٣٧.

يستجيب لما يرشده إليه ويدلّه عليه، ومما يؤكد ذلك قول عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (فشددت فشدِّد عليَّ، قلت: يا رسول الله إني أجد قوة قال: صم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه" قلت: وما كان صيام داود؟ قال: نصف الدهر. فكان عبدالله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ. وفي رواية: إنك لا تدري لعلك يطول بك عمرٌ. قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ. فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ.

قال ابن حجر: (قال النووي: معناه أنه كبر وعجز عن المحافظة على ما التزمه ووظفه على نفسه عند رسول الله ﷺ فشق عليه فعله لعجزه، ولم يعجبه أن يتركه لالتزامه له، فتمنى أن لو قبل الرخصة فأخذ بالأخف)[١].

ولعل من هذا القبيل ما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه أن أباه جاء إلى النبي ﷺ فقال: ما اسمك؟ قال: حَزْن[٢]. قال: أنت سهل. قال: لا أغيّر اسمًا سمّانيه أبي. قال ابن المسيب: فما زالت الحزونة فينا بعد[٣].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الموازنة والاقتصاد في فعل الطاعات:

الإسلام دين الوسطية، فهو وسط بين الإفراط والتفريط، سمته الموازنة بين فعل الواجبات والمندوبات، بحيث لا يطغى جانب على آخر، لذا حرص الإسلام أشد الحرص على الموازنة بين الأعمال، كما يتضح في قول النبي ﷺ: "فلا تفعل صم وأفطر ونم وقم فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا...". وفي رواية في الصحيحين: "إنك إن فعلت ذلك هجمت له العين ونفهت[٤] له النفس... فصم صوم داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفرّ إذا لاقى"[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٥٨-٢٥٩، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧١٧.

(٢) الحَزْن: بفتح المهملة وسكون الزاي: ما غلظ من الأرض، وهو ضد السهل، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٥٩٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦١٩٠، ٦١٩٣.

(٤) بكسر الفاء أي تعبت وكلّت. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٢٦٥.

(٥) أخرجه البخاري ١٩٧٩، ومسلم ١٨٧-١١٥٩.

قال الخطابي: (المؤمن لم يُتعبد بالصوم فقط وإنما تعبد بأنواع من العمل كالجهاد والحج ونحوهما، فإذا استفرغ جهده في الصوم فبلغ حد غور العين وكلال البدن انقطعت وبطلت سائر أبواب العبادة، فأمره ﷺ بالاقتصاد في الصوم ليستبقي بعض القوة لسائر الأعمال)[١].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الترغيب في التوسط والتنفير من التشدد والتعمق في العبادات:

إن دين الإسلام أبعد الأديان عن التشدد والتعمق في العبادات، لأنه دين يُراعي الإنسان في كل أحواله وشؤونه من نشاط وملل وإقبال وفتور ونحو ذلك. كما أنه يعرف أن التعمق في العبادات قد يؤدي إلى عكس المطلوب من نحو ترك واجب أو واجبات أو بعض الطاعات، لذا رغّب الإسلام في التوسط في فعل الطاعات، كما يتضح في قول النبي ﷺ: "لا تستطيع ذلك فصم وأفطر...".

وواضح كذلك في قول عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما "فشددت فشدِّد عليّ" فكان عبدالله يقول بعدما كبر: "يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ". قال النووي: (حاصل الحديث بيان رفق رسول الله ﷺ بأمته وشفقته عليهم وإرشادهم إلى مصالحهم وحثهم على ما يطيقون عليه ونهيهم عن التعمق والإكثار من العبادات التي يخاف عليهم الملل بسببها أو ترك بعضها، وقد بيّن ذلك بقوله ﷺ: "عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا"[٢].

وفي الحديث الآخر: "أحب العمل إليه ما داوم صاحبه عليه"[٣] وقد ذم الله تعالى قومًا أكثروا العبادة ثم فرطوا فيها، فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[٤])[٥].

---

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: الخطابي حَمْد بن محمد، تحقيق د. محمد بن سعيد آل سعود، ٩٧٧/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٥٨٦١، ومسلم ٧٨٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٦٢، ومسلم ٧٨٣.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، ٧١٨.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: تأدب الزوجة مع زوجها:

إن من الأخلاق الجديرة بأن تتحلى بها الزوجة -وخاصة المسلمة- أن تتأدب مع زوجها ليس في تعاملها معه فحسب، بل في الإخبار عن حاله أيضًا إذا اقتضى الأمر ذلك، وقد ضربت الصحابيات المثل الأعلى في هذا الخلق، وتلك الصفة، يوضح ذلك قول زوجة عبدالله: "نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشًا ولم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناه"، فقد تأدبت في الإخبار عن زوجها مع أنه كان مقصرًا في حقها.

ومن هذا القبيل ما حدث لإبراهيم عليه السلام مع زوجتيْ ابنه إسماعيل عليه السلام ((فقد جاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشَرٍّ نحن في ضيقٍ وشدة فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل أخبرته فقال لها: "ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك" فطلقها وتزوج أخرى فجاء إبراهيم بعد ذلك فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت:نحن بخير وسعة. وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل أخبرته فقال: ذلك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك))[1].

وتأدب الزوجة مع زوجها ينبع من ضمن ما ينبع من فضله عليها وإحسانه إليها، حتى أن النبي ﷺ قال: ((لَوْ كُنْتُ آمِرًا أحَدًا أنْ يَسْجُدَ لأحَدٍ، لأمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))[2] قال المباركفوري (لكثرة حقوقه عليها وعجزها عن القيام بشكرها، وفي هذا غاية المبالغة لوجوب إطاعة المرأة في حق زوجها، فإن السجدة لا تحلّ لغير الله)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٦٤.

(٢) أخرجه الترمذي ١١٥٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٩٢٦).

(٣ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١/١١٨٣.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الحوار والتوكيد والأمر والنفي والتعليل:

أما الحوار فواضح من الحديث الذي دار بين النبي ﷺ وعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما وأما التوكيد فقسم عبدالله رضي الله عنه: "والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت" ليؤكد عزمه على ذلك وتصميمه عليه، وقول النبي ﷺ: "إنك لا تستطيع ذلك، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وإنك لا تدري لعلك يطول بك عُمُرٌ".

وأما الأمر فأمر النبي ﷺ عبدالله: "صم وأفطر ونم وقم..." وأما النفي فقول النبي ﷺ: "لا أفضل من ذلك" و"لا صام من صام الأبد".

وأما التعليل فقوله ﷺ: "فلا تفعل فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا...". وقوله ﷺ عن داود عليه السلام: "كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى".

الحديث رقم (١٥١)

١٥١- وعن أَبي رِبْعِيٍّ حنْظَلَةَ بنِ الرَّبيعِ الأُسيدِيِّ الْكَاتِبِ، أَحدِ كُتَّابِ رسول اللَّه ﷺ قال: لَقيَنِي أَبُو بَكْر ﵁ فقال: كَيْفَ أَنْتَ يا حنْظَلَةُ؟ قُلْتُ: نَافَقَ حنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحانَ اللَّه ما تقُولُ؟، قُلْتُ: نَكُونُ عِنْد رسول اللَّه ﷺ يُذَكِّرُنا بالْجنَّةِ والنَّارِ كأَنَّا رأْيَ عين، فَإِذَا خَرجنَا مِنْ عِنْدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ عافَسنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. قال أَبُو بكْر ﵁ : فَواللَّهِ إِنَّا لنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فانْطلقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْر حتى دخَلْنَا عَلَى رسول اللَّه ﷺ. فقُلْتُ نافَقَ حنْظَلَةُ يا رسول اللَّه، فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «ومَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يا رسولَ اللَّه نُكونُ عِنْدكَ تُذَكِّرُنَا بالنَّارِ والْجنَةِ كَأَنَّا رأْيَ العَيْنِ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسنَا الأَزواج والأَوْلاَدَ والضَّيْعاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فقال رسولُ اللَّه ﷺ : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لصَافَحتْكُمُ الملائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُم وفي طُرُقِكُم، وَلَكِنْ يا حنْظَلَةُ ساعةً وساعةً**» ثَلاثَ مرَّاتٍ، رواه مسلم[١].

قولُهُ: (**رِبْعِيٌّ**) بكسر الراء. وَ(**الأُسَيِّدِي**) بضم الهمزة وفتح السين وبعدها ياء مكسورة مشددة. وقوله: (**عَافَسْنَا**) هُوَ بالعينِ والسينِ المهملتين أي: عالجنا ولاعبنا. وَ(**الضَّيْعاتُ**): المعايش.

ترجمة الراوي:

حنظلة بن الربيع الأسيدي: هو ابن الربيع بن صيفيّ التميمي، وهو ابن أخي أكثم بن صيفي حكيم العرب يقال له "حنظلة الكاتب" لأنه كان من كتاب النبي ﷺ، وكانت الكتابة في العرب قليلة، وقد أرسله النبي ﷺ إلى أهل الطائف: ليخيرهم بين الصلح والحرب؟ فلما توجه إليهم قال رسول الله ﷺ ((ائتمّوا بهذا وأشباهِهِ))[٢] وشهد

---

(١) برقم (٢٧٥٠/١٢).

(٢) فيما ذكره ابن إسحاق كما في الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ص (٣٠٤).

مع خالد بن الوليد رضي الله عنه حُروبَه بالعراق، ثم قَدِمَ مَعَه دَوْمة الجَنْدل من كُور دمشق ثم أتى معه إلى سُوى -وهو ماء لبهراء من ناحية السماوة- ووجَّهَهُ خالدٌ بالأخماس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وشهد القادسية، وهو ممَّن تخلف عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال أهل البصرة يوم الجمل، وجُلُّ حديثه عند أهل الكوفة، وقد ترك الكوفة وخرج منها إلى قرقيسيا -بين الخابور والفرات- وقال: لا أقيم ببلد يُشتم فيه عثمان رضي الله عنه، وكان معتزلاً للفتنة.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء عنه حديثان، وتوفي بعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولما توفي جزعت عليه امرأته، فنهتها جاراتها، وقالت: إن هذا يُحبطُ أجرك، فقالت:

تعجَّبْ دَعْدُ لمخزونةٍ ... تبكي على ذي شيبة شاحب
إن تسأليني اليوم ما شفَّني ... أخبرك قولاً ليسَ بالكاذبِ
إنَّ سوادَ العينِ أودى به ... حُزْنٌ على حنظلةَ الكاتب

وتوفي في إمارة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[(١)].

غريب الألفاظ:

عافسنا: قوله "عافسنا": هو بالعين والسين المهملتين أي: عالجنا ولاعبنا[(٢)].

الضيعات: المعايش[(٣)]، وفي النهاية: مفردها ضَيْعَة، وضَيْعَةُ الرجل ما يكون منه معاشه؛ كالصَّنْعَةِ والتجارة والزراعة وغير ذلك[(٤)].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٣٨-١٣٩)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢/٨٤-٨٥)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي (٣٠٤)، الأعلام للزركلي (٢/٢٨٦)، تهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٢/٢١٨-٢١٩)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١/٥٠٦).

(٢) رياض الصالحين ١١٠.

(٣) رياض الصالحين ١١٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ض ي ع).

الشرح الأدبي

إن الدرس الذي نتعلمه من هذا الحديث الشريف: هو الحرْص على الطاعة، ومحاسبة النفس وإخلاص النية لله، والاقتداء برسول الله ﷺ.. مع الابتعاد عن المغالاة والشدة في العبادة.

وهذه الرسالة التوجيهية نتلقاها عَبْر ذلك الحوار الصادق بين اثنين من كبار الصحابة، وهما أبو بكر الصديق، وحنظلة بن الربيع الأسيِّدي، "الكاتب"، وهو من كتاب الوحْي، وهذه منزلة عظيمة وأفضلية لحنظلة في الإسلام، والحوار لم يُعدّ إعدادًا مُسبَّقًا ولكن صنعه الحدث المتمثل في حرص حنظلة على إخلاص العمل، وصدق النية، وكمال المراقبة والفكر والإقبال على الآخرة.

والرواية هنا لم تُسْرد في صيغة الغائب، ولكن جاءت على لسان المتكلم: وهو حنظلة، الراوي الأعلى، ثم يتصاعد الحوار، وتتنوع الأساليب، وتتعدد الأسئلة، وتأتي الإجابات مثيرة للتساؤل والدهشة، لأن قضية الحوار هي: اتهام حنظلة لنفسه، ولمن على شاكلته بالنفاق وهو غير ذلك، وهذا الاتهام على غير المألوف، لأن المعهود أن الذي يحكم بالنفاق على شخص هو شخص آخر، بناء على سلوكيات تُلقي به في دائرة النفاق، وحينئذ يكون الاتهام صحيحًا، وأحيانًا يكون الاتهام تجنيًا حين يبني على رؤية غير صائبة، وشواهد وأدلة عن ساحة الصدق غائبة.

ويبدأ الحوارُ بمشهد أخوي إنساني، ومسلك يترجم معنى الأخوة في الإسلام، حيث يسأل أبو بكر حنظلة حين لقيه، "كيف أنت يا حنظلة"، والسؤال فيه إيجاز وعموم وشمول حيث يريد أبو بكر أن يطمئنَّ على أحوال حنظلة كلها، وجمع في هذا السؤال المشحون بطاقة المحبة والأخوة بين ضمير المخاطب المفرد، "أنت"، واسم صاحبه، "حنظلة"، "كيف أنت يا حنظلة"، والنداء كذلك في هذا الاستفسار عن أحوال حنظلة، هذه السمات الأسلوبية تُكوِّن وتُجمِّل الرسالة الأخوية التي بثها وأرسلها الصديق رضي الله عنه إلى صاحبه "حنظلة، وهي من معالم الأخوة في الإسلام، ولنتأمل: بماذا أجاب حنظلة، إن إجابته تجيء على غير المعهود، وفيها انزياح وعدول عن الجواب المتوقع، حيث تكلم عن نفسه، بصيغة الغائب، وهنا التفات من المتكلم إلى الغائب، فقال: نافق حنظلة،

وهذه الصيغة التي أجاب بها توحي بأن إنسانًا آخر يتكلم عن حنظلة: ويحكى خبره لأبي بكر، وهذا العدول عن الصيغة المتوقعة، قد يكون باعثها رفض حنظلة للتكلم بنفسه عن هذه الخصلة، أو هذه الحالة من النفاق التي ظن أنها تمكنت منه، فكره أن يقول: نافقْتُ أو وقعتُ في النفاق، أو أن هذه الصيغة لتحديد الإدانة، وتحديد اسم المدان مبالغة في التأنيب.

ويتصاعد الحوار... ويتساءل أبو بكر الصديق في تعجب واستغراب ودهشة، حيث يقول سبحان الله ما تقول؟ وتصدير الاستفهام هنا بقوله، سبحان الله، مناسب للسياق، وللمقام، لأن سبحان من معانيها التنزيه، والبُعْد وكأنه لمعرفته بحنظلة يقول إن الله سبحانه وتعالى المتصف بكل كمال، والمنزه عن كل نقص يجعل حنظلة في مأمن من النفاق: ويجعله في منعة منه وابتعاد عنه، فصيغة السؤال توحي بتبرئة أبي بكر لحنظلة.

ومن سمات إحكام الحوار تكرارُ: "قال"، "وقُلْتُ"، بين حنظلة وأبي بكر الصديق، ويشرح حنظلة لأبي بكر السبب الذي دفعه إلى اتهام نفسه بالنفاق، وهو نفاق بمنأى عن خصال النفاق المعهودة، حيث يوازن بين شعورهم وخوفهم ورهبتهم في مجلس رسول الله ﷺ حين يذكرهم بالجنة والنار، وكأنهم يشاهدون مظاهر النعيم في الجنة، وصور العذاب في النار ويرونهما رأى العين، وهذه، الدقة في الوصف، والأمانة في التبليغ تحدث الخشية والرهبة والخوف والتقوى.

وخوف حنظلة، واتهامه لنفسه بالنفاق ناشئ من زوال هذه الخشية، وتلك الرهبة حين يخرجون من عند رسول الله ﷺ حيث ينشغلون بالزوجات والأولاد والضيعات: فينسون كثيرًا من هذه الطاقات الشعورية التي غمرتهم وهم في حضرة المصطفى ﷺ.

ولنتأمل: كيف صاغ "حنظلة" شرحه للظروف والملابسات التي أدت به إلى هذا الموقف في مواجهة النفس، إنه عدل عن صيغة المتكلم المفرد إلى صيغة الجَمْع للإشارة إلى أن هذه حالة جماعية، وليست حالة خاصة بحنظلة وحده: والأفعال الآتية في صيغتها الجماعية تفصح عن ذلك التوجه، وكأنه يشير إلى أن كثيرًا من الصحابة على هذه الشاكلة، ولذلك نجد الأفعال ترد على هذا النحو. (نكون عند رسول الله، يذكرنا

بالجنة والنار، فإذا خرجنا من عند رسول الله، عافَسْنا الأزواج والأولاد، فنسينا كثيرًا).

ويؤيد أبو بكر ما قاله حنظلة وما ارتآه من تغير الحالة الشعورية بعد انتهاء مجلس رسول الله ﷺ وهذا التأييد ليس إقرارًا بالنفاق... ولكن هذا هو واقع النفس الإنسانية في مواجهتها للأعباء الحياتية.

ويُقْسم أبو بكر، ويؤكد أنه ينتابه الشعور نفسه، وقال مُطَمئنًا: حنظلة، "فو الله إنا لنلقى مثل هذا".

واكتمالاً للدرس، وتعميقًا للفائدة: لا يكتفي أبو بكر بهذا الإقرار... ومثله بمنأى عن النفاق بكل صوره، يذهب مع حنظلة إلى رسول الله ﷺ لمزيد من المعرفة، والاطمئنان: وهذا هو المنهج الإسلامي السديد؛ ومرة أخرى يكرر "حنظلة اتهامه لنفسه" أمام رسول الله ﷺ: حيث قال: "نافق حنظلة يا رسول الله"، ولنتأمَّل موقف رسول الله من هذا الاتهام... وهو غير معهود ولا مألوف من مثل حنظلة، "وهو من كُتَّاب الوحي"، وتأتي إجابة المصطفى ﷺ هادئة متزنة لا يشوبها انفعال أو تقريع لحنظلة الذي اعترف بالنفاق، حيث قال له، "وما ذاك"، أي ما الذي جَعَلَك ترْمي نفسك بالنفاق، أي ما الدليل على صحة كلامك: وفي هذا التساؤل إشارة إلى براءة حنظلة من هذه التهمة الذاتية!!، فأعاد عليه، "حنظلة"، ما قاله لأبي بكر في صيغة الجَمْع، وكذلك في صيغة الخطاب للنبي ﷺ وهذا التكرار لهذه الصيغة مع العدول عن صيغة الجمع وكذلك في صيغة الخطاب للنبي ﷺ وهذا التكرار لهذه الصيغة مع العدول عن صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب، يوحي برغبة حنظلة في مخاطبة النبي ﷺ ومحادثته في زَمنٍ أطْول بدافع من المحبة والتقدير والتشرف بمخاطبة رسول الله ﷺ وقمة الإحساس والشعور الصادق تتجلى في ذلك التعبير وهو يصف حال الصحابة رضي الله عنهم وهم يستمعون لرسول الله ﷺ وهو يذكرهم بالجنة والنار: يقول: كأنا رأي العين أي كأننا نرى مشاهد النعيم في الجنة، وصور العذاب في النار مشاهدة حقيقية، فيحصل لنا من ذلك كمال الخوف والمراقبة والتفكير في المآل والإقبال، على الآخرة، ثم يقول ويصور تغير الحالة الشعورية التي تنسى كثيرًا من معالم خوفها ورهبتها ووجلها في غمرة انشغالها بالأموال والأولاد والزوجات... وأمور الحياة المتشابكة "فإذا خرجنا من

عندك، عافَسْنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا"، عافسنا أي: عالجنا ولاعبنا.

ويُطمْئن المصطفى ﷺ: حنظلة وأبا بكر، وكل مسلم: أخلص النية، وعمل صالحًا، ولم يشرك بعبادة ربه أحدًا، فيقول: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، وفي هذا البلاغ النبوي الذي جاء في أسلوب القسم، بشارة من رسول الله للسابقين المقربين الذين تثبت قلوبهم، ولا تتغير أحوالهم، وهؤلاء السابقون المقربون تصافحهم الملائكة على فرشهم وفي طرقهم، ثم يبشر رسول الله حنظلة، ويناديه بعد البشارة السابقة التي جاءت في أسلوب الشرط؟ والأداة، "لو"، هي: أداة امتناع لامتناع، إشارة إلى أن هذا الصنف قليل ونادرٌ وأما الواقع -والذي يتفق مع جبله البشر، والفطرة التي فطر الله الناس عليها- فيتضح في قول رسول الله ﷺ لحنظلة، "ولكن ياحنظلة: ساعة وساعة" وكرّرها ثلاث مرات، أي ساعة لأداء العبودية، وساعة للقيام بما يحتاجه الإنسان: وفي هذا القول تبرئة لحنظلة من تهمة النفاق، وبشارة له بصواب موقفه، وسلامة عقيدته، وموافقتها لفطرته.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الاشتغال بالأمور الدنيوية وأعمال الكسب، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن أفضل الكسب ما كان عن طريق الجهاد ثم ما كان بعمل اليد ومنها التجارة والزراعة والغرس والصناعة ورعي الأغنام وما إلى ذلك، وإن كانوا قد اختلفوا في أفضلها بعد الجهاد في سبيل الله.

---

(١) انظر في ذلك: بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ١٤١/١، وشرح الخرشي على مختصر خليل، أبو عبدالله الخرشي ٤١٧/٧، والمدخل إلى الشرح الشريف، ابن الحاج العبدلي ٣/٤، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المصري ١٢٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٧/٦، ٦٤/٩، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٧١/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ٥٦٩/١، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢٩١/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١٣/٦، و مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، السيوطي ١٦٧/٢، والمحلى، ابن حزم ٤٢/٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين.

ثانيًا: من آداب المدعو: السؤال عما يخاف منه على نفسه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بلاغة النبي ﷺ.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الخوف والرجاء.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: التيسير في تكاليف الإسلام.

سادسًا: من صفات الداعية: التيسير على المدعوين.

سابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والسؤال والجواب والقسم والنداء والتكرار.

أولاً- من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين:

إن الداعية الناجح هو الذي يخصص جزءًا من وقته لتفقد أحوال المدعوين، حتى يطلع على أحوالهم ويعرف ما يشغلهم، فيصحّح مايحتاج إلى تصحيح ويصوّب ما هو صَوَاب وحق. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ذلك أداة لتأليف قلوب المدعوين وكسب ودهم، مما يجعلها تقبل ما يقوله الداعية وتعمل على امتثاله وتطبيقه. فضلاً عن أن عددًا غير قليل من المدعوين يعرض له ما يقطعه عن التواصل مع الداعية وإخباره بما يشغله، فكان قيام الداعية بهذا التفقد سدًّا لهذا الخلل ومراعاة لهذا الأمر، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم -وهم خير القرون- يتفقدون حال بعضهم بعضًا، كما يتضح من قول أبي بكر رضي الله عنه "كيف حالك يا حنظلة؟". فقد سأل أبوبكر حنظلة رضي الله عنهما عن حاله، ليطمئن ويقوم بواجب الأخوة، فيقدم العون والنصح إن كان هناك مجال لذلك، فضلاً عن تقريب القلوب وتأليفها.

وقد كان النبي ﷺ يسأل عن أصحابه ويتفقد أحوالهم: من ذلك سؤاله وهو بتبوك عن كعب بن مالك رضي الله عنه فقال: ((ما فعل كعب بن مالك؟))[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩.

بل فعل النبي ﷺ ذلك مع الكفار حتى دخلوا الإسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خيرٌ يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فترك حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي...))[١].

قال ابن حجر: (وفيه الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه)[٢].

ثانيًا- من آداب المدعو: السؤال عما يخاف منه على نفسه:

إن المدعو قد تعرض له في حياته من الأمور ما يخاف منه على دينه ونفسه، فإن هو سكت سكت على أمر عظيم قد يؤدي به إلى ما لا تحمد عقباه في دنياه وآخرته، ومن ثم كان الواجب عليه أن يسأل أهل العلم حتى يبيّنوا له حقيقة ما فيه. ومن ثم يعرف ما يجب عليه فعله إزاء هذا الأمر. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم - وهم خير القرون-يسألون النبي ﷺ عما يخافون منه على دينهم، وهذا واضحٌ من قول حنظلة رضي الله عنه: فانطلقت أنا وأبوبكر رضي الله عنه حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت: "نافق حنظلة..": فحنظلة خاف على نفسه أن يكون وقع منه النفاق، لذا أخبر أبا بكر بما يجول في نفسه طالبًا النصح والتقويم، كما أنهما انطلقا إلى النبي ﷺ ليخبراه بما أهمَّهما وخافا على نفسيهما منه.

وقد كان هذا فعل الصحابة رضي الله عنهم، فهذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: ((كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني))[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٣٧٢، ومسلم ١٧٦٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٦٩٠.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٠٦، ومسلم ١٨٤٧.

قال ابن أبي جمرة عن هذا الحديث: (فيه النظر في حكمة الله تعالى في عباده كيف يُعطي لكل شخص ما شاء الله أن يقيمه فيه، يؤخذ ذلك من أنه عز وجل حبب للصحابة رضي الله عنهم سؤالهم له ﷺ عن وجوه الخير كي يقتبسوها ويكونوا بابًا لها، وحبب لهذا الصحابي رضي الله عنه سؤاله له ﷺ عن وجوه الشر؛ كي يحذرها ويكون سببًا في سدها عمن قدَّر الله تعالى له النجاة منها)[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بلاغة النبي ﷺ:

لقد كان النبي ﷺ المثال الأعلى في البلاغة والذروة السامقة في الفصاحة، به يقتدي أبلغ البلغاء، وينهج نهجه أفصح الفصحاء، وصدق أحمد شوقي إذ قال في وصفه:

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة ... حديثك الشهد عند الذائق الفهم[2]

فكان ﷺ إذا تكلم وضّح الأمر خير توضيح مع البلاغة الناصعة والفصاحة المشرقة. وهذا ما شهد به المعاصرون له من العرب، وهم أهل البلاغة والفصاحة، كما يتضح هذا من قول حنظلة رضي الله عنه: ((نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين)) والمعنى: (أي نراهما رأي عين)[3]. فقد وصف النبي ﷺ الجنة والنار وصفًا دقيقًا آخذًا بالألباب حتى يخيل للسامع أنه يراهما بعينه، وهذا أدعى للترغيب في الجنة والتخويف من النار.

وقد حذا النبي ﷺ في ذلك حذو القرآن فقد قال ﷺ: ((من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾))[4].

---

(١) بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها "شرح مختصر البخاري"، عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي ٤/٢٦١.

(٢) الشوقيات ١/١٩٧، المكتبة التجارية الكبرى.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٩٤٥.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٣٣٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٥٣).

قال المباركفوري: (جعلت الشيء رأي عينك وبمرأى منك: أي حذاءك ومقابلك بحيث تراه، أي كأنه يراه رأي العين)[١]. قال القاضي عياض: (وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع، وبداعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الخوف والرجاء:

أما الخوف فواضح من قول حنظلة رضي الله عنه "نافق حنظلة" وإخبار أبي بكر رضي الله عنه أنه يلقى مثل ما يلقى حنظلة، قال النووي: (قوله "نافق حنظلة" معناه: أنه خاف أنه منافق حيث كان يحصل له الخوف في مجلس النبي ﷺ ويظهر عليه ذلك مع المراقبة والفكر والإقبال على الآخرة، فإذا خرج اشتغل بالزوجة والأولاد ومعاش الدنيا. وأصل النفاق إظهار ما يكتم خلافه من الشر، فخاف أن يكون ذلك نفاقًا)[٣].

وقال القرطبي: "إنكار منه على نفسه لما وجد منها في خلوتها خلاف ما يظهر منها بحضرة النبي ﷺ فخاف أن يكون ذلك من أنواع النفاق، وأراد من نفسه أن يستديم تلك الحالة التي كان يجدها عند موعظة النبي ﷺ ولا يشتغل عنها بشيء"[٤].

أما الرجاء فمستنبط من قول النبي ﷺ ((ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)) فإن العبد يرجو عفو الله ورحمته وقت غفلته ونسيانه وتقصيره. قال النووي: (فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق وأنهم لا يكلفون الدوام على ذلك. "وساعة وساعة"، أي: ساعة كذا، وساعة كذا))[٥].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٤٠٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/١٥٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١١.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٧/٦٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦١١.

وقد قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١] (أي: ترتفع جنوب هؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله عن فراش النوم يتهجدون لربهم في صلاة الليل، يدعون ربهم خوفًا من العذاب وطمعًا في الثواب)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: التيسير في تكاليف الإسلام:

إن الإسلام دين يسر لا عسر، يراعي أحوال النفس ومتطلباتها وحاجاتها، فلا يرهقها من أمرها عسرًا وشدة، ولا يتركها في الوقت نفسه هملاً دون تكاليف وتوجيهات، بل كلّفها بما تطيق وتحتمل، فلا هو قطعها عن الدنيا وفرغها للآخرة، بل جمع لها أمر الدارين، الدنيا والآخرة، وذلك واضح في قوله النبي ﷺ: ((والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم لكن يا حنظلة ساعة وساعة)).

اتضح ذلك التيسير في جمع الإسلام بين العمل للآخرة والعمل للدنيا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[٣] أي: (والتمس فيما أتاك الله من الأموال ثواب الدار الآخرة، بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا ولا تترك حظك في الدنيا، بأن تتمتع فيها بالحلال دون إسراف)[٤].

سادسًا- من صفات الداعية: التيسير على المدعوين:

النفس البشرية تأنس إلى من ييسر لها الأمر ويسهل لها الشأن بما لا يبلغ درجة التفريط والتضييع والتهوين، فقد جبلت على حب التيسير والنفرة من التعسير والتشديد، لذا كان من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الداعية التيسير في مكان التيسير، وهو يفعل ذلك مقتديًا بالنبي ﷺ، كما يتضح من هذا الحديث، فهو ﷺ

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٤١٦.

(٣) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٤) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ٣٩٤.

لم يطلب من حنظلة أن يداوم على الحالة التي عليها معه عندما ينقلب إلى شؤون دنياه، بل أقرّه على حاله التي يشكو منها وهوّن عليه وقال له: "لكن ساعة وساعة".

قال القرطبي: "قول أبي بكر رضي الله عنه: (والله إنا لنلقى مثل هذا) رد على غلاة الصوفية الذين يزعمون دوام مثل تلك الحال، ولا يعرِّجون بسببها على أهل ولا مال، ووجه الرد أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الناس كلّهم بعد رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة، ومع ذلك فلم يدَّع خروجًا عن جبلّة البشرية، ولا تعاطى من دوام الذِّكر وعدم الفترة ما هو خاصة الملائكة... وسر ذلك أن هذا العالم الإنساني متوسط بين عالمي الملائكة والشياطين، فمكّن الملائكة في الخير بحيث يفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون. ومكن الشياطين في الشرِّ والإغواء بحيث لا يغفلون، وجعل العالم الإنساني متلونًا، فيمكنه ويلوّنه، ويفنيه ويبقيه، ويشهده ويفقده. وإليه أشار صاحب الشفاعة بقوله: (ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)"[1].

والتيسير صفة إذا تحلَّى بها الداعية أتى بثمار طيبة تضاف إلى رصيد الدعوة وإنجازاتها، فالله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[2].

وهذا النبي ﷺ يسأله الناس في الحج فيسهِّل عليهم وييسِّر. فعن عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح. فقال: اذبح ولا حرج. فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ قال: ارم ولا حرج. فما سئل النبي ﷺ عن شيء قُدم ولا أخر إلا قال: افعل ولا حرج[3].

فهذا الحديث دليل على (سماحة الشريعة وسعتها في أحكامها وعباداتها فلا ضيق ولا عنت)[4].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٧/٧ - ٦٨.

(٢) البقرة، آية: ١٨٥.

(٣) أخرجه البخاري ٨٣، ومسلم ١٣٠٦.

(٤) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام، عبدالله البسام ٣٧١/٣.

سابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب والسؤال والجواب والقسم والنداء والتكرار

أما الترغيب والترهيب فبذكر الجنة و النار "رأي عين"، أما السؤال فقوله ﷺ "وما ذاك؟" ثم جوابه ﷺ عمّا أهمَّهم وشغلهم.

وأما القسم فقوله ﷺ "والذي نفسي بيده" لتأكيد المقسم عليه وشدة أهميته، والنداء "يا حنظلة" (تقرير على الحالة التي كان عليها حنظلة وأنكر عليها، ومن ثم ناداه باسمه تنبيهًا على أنه كان ثابتًا على الطريق المستقيم وما نافق قط)[1]. وأما التكرار فقول الراوي "ثلاث مرات" وذلك (تأكيدًا لتأثير القول حتى يزيل عنه ما اتهم به نفسه)[2].

ولا شك أن استخدام هذه الأساليب الدعوية المختلفة والمتنوعة يُؤتي ثماره المرجوة ويساعد على امتثال المدعوين واستجابتهم لما يرشدهم إليه الداعية. فما أجمل أن ينوّع الداعية في استخدام أساليبه الدعوية بحسب الأحوال والأشخاص والمواقف، لينجح في توصيل رسالته الدعوية إلى المدعوين.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٤/ ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق ٤/ ٢٢٤.

الحديث رقم (١٥٢)

١٥٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بيْنما النَّبيُّ ﷺ يَخْطُبُ إذا هُوَ برجُلٍ قَائِمٍ، فسأَلَ عَنْهُ فقَالُوا: أَبُو إِسْرائيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي (الشَّمْس) [1] وَلا يقْعُدَ، ولا يستَظِلَّ ولا يتَكلَّمَ، ويصومَ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: **«مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ ولْيَستَظِلَّ ولْيُتِمَّ صوْمَهُ»** رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يختم به النووي باب "في الاقتصاد في العبادة"، وقد أورد (١١) أحد عشر حديثًا في هذا الباب، وكل حديث يعد صورة من صور التيسير والاقتصاد في العبادة، ومن تجليات هذا التيسير أن النبي ﷺ كان يدعو إلى ذلك ويأمر الذين يشقون على أنفسهم في العبادة، بأن يرفقوا بأنفسهم، وأن يقْتصدوا: حتى يتذوقوا حلاوة الطاعة، وحتى يكونوا بمنجاة من الملل والسأم، والعنت والإرهاق، وعبدالله بن عمرو بن العاص اعترف بذلك بعد أن كبر... وكان قد اختار لنفسه بعد حوارٍ مع رسول الله أن يصوم يومًا ويفطر يومًا طيلة حياته، ولم يكتف بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وذلك ما أشار عليه به النبي ﷺ وبعد أن كبر، عرف أنه شق على نفسه، وقال، فلما كبرت وددت أني كنتُ قبلتُ رخصة نبي الله ﷺ.

وهذا الحديث يعرض مشهداُ من مشاهد العنف والتشدد في العبادة، بل وإلزام النفس بما لا يلزم في الشرع، وهذا أمر مردود، والمشهد تتجلى ملامحه والنبي ﷺ يخطب، فإذا به يرى رجلاً قائمًا والناس جلوس يستمعون إلى الخطبة، وهذا مشهد

---

(١) هذه الزيادة ليست في البخاري، وإنما عند الحميدي في جمعه (١٠٨/٢، رقم ١١٦٠). وقال الحافظ في الفتح (٢٧٢/١٥) في رواية الخطيب في المبهمات: (ويقوم في الشمس).

(٢) برقم (٦٧٠٤).

غريب مفاجئ، والبداية الأسلوبية للحديث، توحي بهذه الغرابة، وتلك المفاجأة: حيث يقول ابن عباس: بينا النبي يخطب إذا هو برجل قائم. "وبينا" في اللغة أصله "بين" زيدت عليه الألف بإشباع فتحة النون، وقيل، بينما، في بعض الروايات، وهو من الظروف الزمانية الملازمة للإضافة، وهذا يفيد المفاجأة، لأن إذا جاءت بعد ذلك.

وتتجلى حكمة النبي ﷺ في عدم زَجْر الرجل، وعدم توجيه الخطاب المباشر إليه لأن المقام مقام تشريع وتعليم، وقد لا يدرك الرجل أن ما فعله غير صائب، وإنما يظن أن هذا يقربه إلى الله أكثر، ويجعله قريبًا من النبي أكثر.

ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يسأل أحدًا بعينه، ولم تأته الإجابة من شخص محدد، وجاءت الإجابة في صيغة الجمع، "فقالوا" حيث كان يعلم الكثير بموقفه وحالته: وهو: من الأنصار واسمه "يُسَيْر، وكنيته "أبو إسرائيل"، والسياق يقتضي أنه كان حديث عهد بالإسلام: لأن النبي لم يعرفه، والرجل "نذر" والنذر واجب الأداء، ولكن في هذه الحالة: لا يجب الوفاء بالنذر، لأنه ألزم نفسه بما ليس يلزم في العبادة التي يقوم بها، فقد نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، وهذه مشقة لم يأمرنا الإسلام بها، فالصوم له واجباته وسننه وآدابه، وليس منها: تعذيب النفس والوقوف في الشمس، والصوم عن الكلام.

والتفصيل في الأسلوب هنا ليس إسهابًا ولا تزيدًا: في قوله: "ولا يقعد ولا يستظل"، فمجيء هذين الفعلين لتأكيد ما قام به الرجل، وإصراره على ذلك، حيث يضيف إلى مشقة الصيام، مشقات كثيرات لم ترد في الشرع مثل الوقوف في الشمس وعدم القعود، وعدم الكلام، وعدم اللجوء إلى ظل الشجر، والوقوف في لهيب الشمس فأي إرهاق هذا وأي غلو في أداء العبادة.

ولذلك جاء تعبير النبي ﷺ حاسمًا قال: "مروه" والأمر للوجوب، ثم جاء بأربعة أفعال مضارعة مجزومة بلام الأمر: لإفادة وجوب التنفيذ والعدول عن هذا النهج المتشدد حتى في العبادة أو محبة رسول الله، والوقوف لاستماع خطبته، ولنتأمل موجبات هذه الكلمات النبوية المشرقة بهالات التيسير، والتبشير، "مروه، فليتكلم، وليستظل،

وليقعد، وليتم صومه"، فالصوم هنا هو العبادة والقربة، وقيل: إن النذر بالسكوت ليس قربه في شريعتنا.

ويفصل ابن رجب الحنبلي القول في هذا الأمر فيقول: إن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها أو نهيها، فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشريعة موافقًا لها فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود.

ثم يقول: وليس ما كان قربة في عبادة يكون قربة في غيرها مطلقًا؟ ويستشهد ابن رجب بموقف هذا الرجل ويقول: فأمره النبي عن طريق أصحابه، أو أمره، مباشرة أن يقعد ويستظل ويتكلم وأن يتم صومه.

فلم يجعل قيامه وبروزه في الشمس قربة يوفى بنذرهما، وقد روى أن ذلك كان في يوم جمعة عند سماع خطبة النبي ﷺ وهو على المنبر، فنذر الرجل أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ما دام النبي ﷺ يخطب، إعظامًا لسماع خطبة النبي ﷺ؟ ولم يجعل النبي ﷺ ذلك قربة يوفى بنذره[1].

فالقصد في العبادة، منهج إسلامي يقوم على الاعتدال والاتزان، والالتزام بالضوابط الشرعية، والأحكام الفقهية، مع الابتعاد عن المبالغة في العبادة، وإعطاء كل ذي حق حقه. كما ورد في الحديث الذي رواه أبو جحيفة وهب بن عبدالله، وقول سلمان لأبي الدرداء رضي الله عنهما: "فأعط كل ذي حق حقه"، وقال النبي ﷺ: "صدق سلمان".

وما أشبه، "أبو إسرائيل" في موقفه بموقف الذين سألوا عن عبادة النبي: وكأنهم تقالّوها، فلجأوا إلى التشدّد في العبادة ظنًا أن ذلك سيقربهم إلى الله أكثر، فلقنهم الرسول درسًا نبويًا كريمًا في الالتزام بالمنهج الإسلامي المعتدل الذي يعطي كلَّ ذي حق حقَّه، حتى تعمر الحياة، وينعم الناس بعطاء الله، ويهتدوا إلى معالم النجاة،

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٧٧، ١٧٨ بتصرف.

ويبتعدوا عن التقليد، والمحاكاة، لأقوال المبتدعين والمتنطعين، والمتفيهقين الغواة.

ولنتأمل هذا السلوك النبوي الرشيد، والمنهج المحمدي السديد، حيث يقول: ((إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[1].

فقه الحديث

إن النذر أمرٌ يفرضه الإنسان على نفسه، أو هو التزامه لله تعالى شيئًا بقوله لا بنية مجردة[2]، وهو فعل معلق على حدوث أمر معين، وقد يكون غير معلق، ولكن النذر في الإسلام لا يكون إلا بخير.

وقد اتفق الفقهاء[3] على جواز نذر القربة وأن من نذر شيئًا فعليه أن يفعله ما لم يكن معصية، ففي هذه الحالة لا يجوز له أن يفعله، ومن نذر ما ليس بقربة لم يلزمه النذر، ولا يصير قربة بالنذر، كمن نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم، فهنا لا يجب عليه الوفاء بنذره بل عليه أن يعدل عن نذره، وإذا جمع في النذر قربة وغيرها صح النذر في القربة وبطل في غيرها كما ورد في هذا الحديث. وليس عليه كفارة؛ لأنه لا نذر إلا فيما ابتغي به وجه الله، ونقل الإجماع في ذلك ابن قدامة.

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٠٦٣، ومسلم، ١٤٠١.

(٢) الفروع، ابن مفلح ٣٩٥/٦.

(٣) انظر في ذلك: المبسوط، السرخسي ١٢٨/٣ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٨٢/٥ وما بعدها، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي١٥٣/٣، وأحكام القرآن، الجصاص ٣٥٢/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣١٨/٣، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ٢٤٠/٣ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ٢٧/٤ وما بعدها، الأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره ٢٧٨/٢، ٧٣/٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤٣٨/٨ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٦٩/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٧٥/٣، وإعلام الموقعين ٢٩٥/٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٢٨١/٨ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٦٥/٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من مهام الداعية: الانتباه لأفعال المدعوين.

ثالثًا: من واجبات الداعية: التحري والتثبت قبل الإنكار.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: القصد والاعتدال في الطاعة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: رحمة ويسر الإسلام.

سابعًا: من صفات الداعية: الشفقة والرفق بالمدعوين.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

تعد الخطبة من وسائل الدعوة، وقد ورد ذلك في الحديث في قول ابن عباس رضي الله عنهما: بينما النبي ﷺ يخطب، وقد استعمل النبي ﷺ هذا النوع من الوسائل في نشر دعوته لكثرة فائدته، وعظيم جدواه. ذلك أن الخطابة تساعد على الاتصال الجماعي وكانت خطبة النبي ﷺ في مجال العقيدة والشريعة والأخلاق، وكان إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش.

وكان ﷺ يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه، ويعالج الموضوعات التي تحتاج إلى بيان وتوضيح وكانت خطبته ﷺ تتضمن كل ما هو مفيد من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب، وغير ذلك مما يعمل على ترسيخ مبادئ الإسلام في نفوس المسلمين، ومعالجة القضايا التي تحتاج إلى علاج.

وكان ﷺ بأخلاقه العظيمة لا يعيب ولا يشتم ولا يجابه فردًا بأمر خاص. وهكذا جمع النبي ﷺ مزايا الخطيب القدوة[1].

ثانيًا- من مهام الداعية: الانتباه لأفعال المدعوين:

من مهام الداعية الانتباه لأفعال المدعوين بأن يكون على بصيرة بأفعال المدعوين في

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤١٩-٤٢١.

دعوته قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١). والشاهد على ذلك من الحديث: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه.... فعلى الداعية أن يتبصر أحوال المدعوين وأخلاقهم وعوائدهم وطباعهم وأعرافهم، وما يصلح لهم ما يقبلون عليه ويتقبلونه وما ينفرون عنه، فيعطي لكل حال ما يناسبه(٢). وينتبه إلى أفعالهم فإذا كانت صحيحة أقرها وإن كانت غير ذلك صححها، فالداعية يقوم بمتابعة أفعال المدعوين والانتباه إليها، وهذا كان شأن النبي ﷺ في دعوته لأصحابه منتبهًا لأفعالهم، ما رأى من خير أقره وما رأى من خطأ نهاهم عنه وهداهم إلى الصواب.

ثالثًا- من واجبات الداعية: التحري والتثبت قبل الإنكار:

يظهر ذلك في سؤاله ﷺ أولاً عن سبب وقوفه قبل نهيه عن الوقوف. وهذا الفعل يؤكد على أهمية التثبيت والتريث قبل الإنكار والتوجيه حتى تكون المعالجة مناسبة، وقد أمر الله تعالى بالتبّين فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾(٣).

قال القرطبي: (أي تأملوا، وقرأ حمزة (فتثبتوا)(٤). وقال السعدي رحمه الله: "يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتبينوا، ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة.

فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة، لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين..

فإن التثبت في الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف عن شرور عظيمة،

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

(٢) انظر: صفات الدعاة، د. عبدالرب بن نواب الدين، ط/١، دار العاصمة، الرياض: ١٤١٣هـ ص ٩٨.

(٣) سورة النساء، من آية: ٩٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٦/٣٢٧.

فإن به يعرف دين العبد، وعقله، ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها، قبل أن يتبين له حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي...

وإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر، ويتبين الرشد والصواب"[١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[٢]. يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين[٣]. فعلى الداعية أن يتثبت ويتحقق قبل إنكاره للمنكر، ثم بعد ذلك يقوم بواجبه حيال إنكار المنكر[٤].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: القصد والاعتدال في الطاعة:

الإسلام دين الوسطية يحب القصد والاعتدال في الطاعة وفي كافة الأمور قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٥] ولا يظنن أحد أن القصد خلاف السنة، أو أن الغلو زيادة في التقوى، فإن رسول الله ﷺ استنكر على من عزم على الغلو في الصيام أو القيام أو الانقطاع عن الشهوة، وأفهمهم أن التوسط هو الأتقى: ((أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني))[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٥٨.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٧٠/٧.

(٤) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأثرهما في حفظ الأمة، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ٣٠٨-٣١٠.

(٥) سورة البقرة، من آية: ١٤٣.

(٦) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١.

فالقصد في العبادة يرغب فيها، أما الغلو فإنه ينفر عن الطاعة قال رسول الله ﷺ ((عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا))[١] قال ابن حجر: أي: اشتغلوا من الأعمال بما تستطيعون المداومة عليه، فمنطوقه يقتضي النهي عن تكلف ما لا يطاق[٢].

وقال النووي: بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع[٣].

وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع ذلك الرجل حيث أمره بالاقتصاد في الطاعة وإتيان ما يستطيع وترك عدم الكلام وعدم التظلل.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

من الأساليب الدعوية المهمة أسلوب الأمر، ويظهر أسلوب الأمر في هذا الحديث في قوله ﷺ ((مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه)). وأسلوب الأمر من الأساليب المفيدة في الدعوة إلى الله تعالى، ولا يستغنى الداعية في دعوته عن استعمال هذا الأسلوب لبيان الأمور التي يجب على المدعوين القيام بها مما أمر الله تعالى ورسوله به، وأسلوب الأمر يشعر المدعو بأهمية ما أمر به لتنفيذه.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: رحمة ويسر الإسلام:

الإسلام دين الرحمة واليسر، وهذا من سماته التي تميز بها على سائر الأديان، فاليسر والرحمة أقرتهما الشريعة الإسلامية ودعت إليهما، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٤] أي مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة فما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس لا يثقلها، ولا يؤودها[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٣، ومسلم ٧٨٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢٦/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٠.

(٤) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٩٦.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١]. وقال رسول الله ﷺ ((إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه))[٢]. وحكمة هذا اليسر الذي جاءت به الشريعة أن الله جعل هذا الدين دين الفطرة، وأمور الفطرة مستقرة في النفوس سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والعنف، وقد أراد الله عموم هذه الشريعة ودوامها فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلاً، ولا يكون ذلك إلا إذا انتفى عنها الغلو والعنف[٣].

ويظهر يسر الشريعة ورحمتها في هذا الحديث عندما أمره رسول الله ﷺ بالتكلم والاستظلال مع أنه كان نذر عدم ذلك لأن الله لا يرضى تعب عباده أو عذابهم.

سابعًا- من صفات الداعية: الشفقة والرفق بالمدعوين:

إن اتصاف الداعية بالشفقة والرفق من أعظم أسباب النجاح في الدعوة، وقد بيّن رسول الله ﷺ فضل الرفق فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه))[٤].

فينبغي على الداعية أن يكون مشفقًا على المدعوين رفيقًا في التعامل معهم، حتى يألفوه وتقوى صلته بهم، ولهذا نجد رسول الله ﷺ عندما علم بنذر هذا الرجل أمره بتركه شفقة عليه ورفقًا به.

ولا شك أن الشفقة والرفق وغيرهما من صفات الرحمة بالمدعوين تسهم في نجاح الداعية في دعوته.

يقول فتحي يكن: (ومن أسوأ ما ابتلي به الإسلام في هذا العصر، دعاة جبلوا على التعسير في كل شأن، وكأن اليسر ليس من الإسلام في شيء.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٢) أخرجه البخاري ٣٩.

(٣) انظر: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ط/١، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ص ٣٥-٤٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

فهم في الصلاة معسرون، وفي الوضوء معسرون، وفي اللباس معسرون، وفي بيوتهم معسرون، وفي المأكل معسرون، وفي البيع والشراء معسرون، وفي عمل الدعوة معسرون... وهم في كل ذلك مخالفون للنهج النبوي الصحيح.

ثم إن هؤلاء لا يتقيدون بمنطق الأولويات، ولا يفرقون في الموقف بين ما هو فرض أو واجب أو سنة، وبين ما هو حرام أو مكروه، ولا بين ما فيه نص أو اجتهاد ... فتراهم يكيلون للناس الاتهامات، فيكفرون هذا، ويفسقون ذاك، وكأن الله قد نصبهم حكامًا على الأمة، يقضون فيها بكل ما هو صعب وعسير، فيضيقون سعة الإسلام، ويحجرون مرونة الشريعة، وينفرون الناس من الدين)[1].

---

(١) الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية، فتحي يكن ص ٣٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

الإسلام سهل ميسر، لا يفرض الرهبنة ولا يأذن بها، ولا يسمح في نفس الوقت بترك التكاليف الشرعية، بل نصوصه محكمة "فاتقوا الله ما استطعتم"، وندرك من أحاديث هذا الباب ما يلي:

أولاً- التربية على الاعتدال في العبادة:

إن أحاديث هذا الباب تدور جميعها حول هذا المضمون؛ لأن الإسلام جاء ديناً وسطاً، فلا هو بالمتشدد تشدد الرهبان والأحبار، ولا هو بالمفرط تفريط من حرَّفوا الدين وتركوا ما يشق عليهم أداؤه؛ إنما جاء الإسلام بالعبادة المعتدلة، التي لا يصعب على المرء المداومة عليها.

وبهذه الوسطية والاعتدال أوصى النبي ﷺ صحابته الكرام، ورباهم بشتى السبل لإرساء مبدأ الوسطية والاعتدال، يقول ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ»، ولقد جاء للنبي ﷺ ثلاثة رهط؛ زعم أحدهم أنه يصلي ولا ينام، وزعم الآخر أنه يصوم ولا يفطر، والثالث أنه لا يقرب النساء، وأعلمهم أن سنته هي التوسط والاعتدال، وقال: «فمن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مني»؛ لأن دين الله تعالى لن يشاده أحد إلا غلبه.

وعندما أوصى سلمان أخاه أبا الدرداء رضي الله عنهما، بحق ربه ونفسه وأهله، وأن العبادة ينبغي أن تكون معتدلة، أثنى النبي ﷺ على كلامه، وقال: «صدق سلمان».

ولقد كان التشدد سبباً لندم عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما حيث رخّص له النبي ﷺ في قراءة القرآن في عشرين يوماً، وعشرة أيام، فأظهر أنه يطيق أكثر من ذلك، فرخص له النبي في ختمه في سبعة أيام، فلما طال به العمر وضعفت قوته، ندم أنه لم يأخذ برخصة النبي ﷺ.

فقد شرع الإسلام من العبادات ما يزكي به نفس الفرد، ويرقى به روحياً ومادياً، ويقيمها على أساس من الأخوة والتكافل، دون أن يعطل مهمة الإنسان في عمارة الأرض؛ فالصلاة والزكاة والصيام والحج عبادات فردية واجتماعية في نفس الوقت.... ولا يقرّ الإسلام ما دعت إليه الديانات والفلسفات الأخرى من إهمال الحياة المادية لأجل الحياة الروحية[1].

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص ٢٨ بتصرف يسير.

ثانياً- من سمات التربية الإسلامية: الواقعية:

إن أهم ما يميز المنهج النبوي في التربية، الواقعية؛ فلم يكلف النبي ﷺ صحابته بما لا يستطيعون، بل إنه كلفهم بالمستطاع؛ وأكثر من ذلك أنه أباح للمريض تخفيف بعض الأركان في العبادة، كالصلاة والصيام والحج، ... كذلك كان ﷺ في سائر حياته واقعياً، يجسد سمة رئيسة في الدين الإسلامي وهي الإنسانية والبشرية.

فالإنسان له رغبات يحترمها الإسلام ويقيم لها وزناً، ولهذا فإن النبي ﷺ عاتب الثلاثة الذين أعلنوا خروجهم على الفطرة الإنسانية وذهبوا مذهباً فيه التشدد والإفراط، فقال لهم ﷺ: «أَمَا وَاللَّهِ إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لكني أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِني».

ويقول ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلا غَلَبَه»، وعندما تشدد أبو الدرداء في العبادة، وهجر زوجته من أجل القيام والصيام نصحه سلمان بأداء سائر الحقوق الإنسانية الفطرية الواقعية، دون مساس بحق الله وحق نفسه، فأقر النبي ﷺ هذا النصح، وقال: «صدق سلمان».

والتربية الإسلامية تربية واقعية تتعامل مع الإنسان كما هو: لحماً ودماً، وفكراً وشعوراً وانفعالاً ونزوعاً ... وعلى هذه الحياة الواقعية المتوازنة يربي الإسلام المسلم، فلا يدعه يغرق في اللهو إلى رأسه، فلا يبقى له شيء لربه، كما لا يدعه يغلو في التعبد فلا يبقى له شيء لقلبه[1].

ثالثاً- التربية بالتوجيه المباشر:

ويبدو ذلك في قوله ﷺ: «فسَدِّدُوا، وقارِبوا، وأبشِروا، واستَعينُوا بالغُدْوَةِ والرَّوْحةِ وشيءٍ منَ الدُّلْجة»، فقد وجّه النبي ﷺ الأمر مباشرة إلى صحابته، دون استخدام وسيطة تربوية أخرى، وقد اختار النبي ﷺ هذا الأسلوب ليكون كلامه محمولاً على جهة الأمر، وإصلاح المسلك، وليبين أهمية هذا التوجيه، و الأخذ به؛ لأن ذلك هو روح

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ١٦٨.

الإسلام ورسالته في الوسطية والاعتدال.

وقد كانت توجيهاته ﷺ يحاول من خلالها تصحيح الأخطاء والحث على صالح العمل، وتحويل طاقات الإنسان نحو فضائل الأعمال، واستثمار قدراته بجوانب الخير، وجعل ذلك عادة مستديمة له[1].

رابعاً- التربية على الموازنة بين الحقوق والواجبات:

لقد ربى النبي ﷺ صحابته رضي الله عنهم على الموازنة بين الحقوق والواجبات في حياتهم، فلا يطغى أداء واجب على نيل حق، ولا العكس، بل إن المسلم ينبغي أن يتسم سلوكه في الحياة بمراعاة سائر الحقوق والواجبات المكلفين بها.

ولهذا فقد نصح سلمان الفارسي أبا الدرداء بقوله: «إنَّ لِربِّك عليكَ حقاً، ولنفْسِكَ عليكَ حقاً ولأهلِكَ عليكَ حقاً فأعْطِ كلَّ ذي حَقّ حقَّه»، وقد قال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلمانُ»؛ وذلك ليؤدي المسلم سائر واجباته وينال حقوقه، بتوازن واعتدال.

إن التربية الإسلامية المتوازنة لاتقتصر على سائر العبادات وحدها؛ بل هي أعمق من ذلك؛ فهي منهج كامل للحياة في سائر جوانبها[2].

خامساً- التربية بالنصيحة:

لقد احتوى هذا الباب على حديث استخدم فيه سلمان الفارسي رضي الله عنه أسلوب النصيحة في توجيه أخيه أبي الدرداء رضي الله عنه إلى واجباته وحقوقه في الدنيا، فقال له: «إن لربك عليك حقاً...» وفي هذا الحديث مسلك تربوي يعتمد على حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم، وهو النصيحة.

وعندما رأى سلمان رضي الله عنه سلوك أبي الدرداء من العزوف عن الدنيا والزهد في متاعها، والانصراف بكليته إلى العبادة والصيام والقيام، كان من الممكن أن يغضي عن ذلك طرفه، ويتركه وشأنه، ولكنَّ تعاليم الإسلام تقتضي إسداء النصح إلى من

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٨٨.

(٢) التربية الإسلامية "مصادرها وتطبيقاتها"، د. عماد محمد عطية ص ٢٥ بتصرف.

يستحق، حتى يتحقق قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[(١)].

إن النصيحة للمسلمين تتمثل في إرشادهم إلى مصالحهم في دنياهم وأخراهم، وكف الأذى عنهم، وتعليمهم ما جهلوه، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ونحو ذلك، ونصيحة المسلمين فرض كفاية على من هو أهل لها، وهي واجبة قدر الطاقة البشرية، ما دام هناك أمل في قبولها، والمسلم لا ييأس، ولا يخشى في سبيلها أذى لا يحتمل، فإن خشيه فهو في سعة[(٢)].

سادساً- الدين اتباع وليس ابتداعاً:

ليس لمسلم حق في إضافة شيء إلى الدين ابتداءً من قبل نفسه، فما كن من الدين بالرأي ولا بالهوى، بل هو وحي يوحى.

وفرق كبير بين الإضافة إلى النص وبين الاجتهاد في فقه النص، فالإضافة إلى النص غير مأذون بها، والاجتهاد في فقه النص مدعو إليه، والذين رأوا أن يحملوا أنفسهم على الطاعة من غير طريق النص لم يقبل الرسول ﷺ منهم ذلك، ولم يأذن لهم بفعل هذا، وصرح أن الخروج عن النص خروج عن السنة، بل هو خروج عن مبادئ الإسلام.

إن هدي الرسول ﷺ في هذا الجانب قد حال دون الزيادة أو النقصان في الإضافة إلى التكاليف الشرعية أو الحذف منها، ولو فتح هذا الباب ما إغلق، وما علمنا إلى أي مدى تنتهي الأمور.

سابعاً: من وسائل التربية - الصحبة:

فقد صحب سلمان أبا الدرداء فلما أعد له طعاماً أبي أن يأكل، إلا أن يشاركه فأقام له الدليل العملي على حق الضيف وعلى أن المتطوع أمير نفسه.

ثم لفت نظره إلى حق جسده عليه، فهو من مادة وروح، ولكل حظه من الدنيا،

---

(١) سورة العصر، آية: ٣.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٢ بتصرف يسير.

"وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك".

ثم طبق معه حق الجسد في النوم وحق الروح في العبادة ولفت نظره إلى حق أهله، وبهذا يتبين لنا أثر الصحبة الطيبة على السلوك والمحاكاة، وإقرار النبي ﷺ لكل قول أو فعل لا يخالف نصاً، فضلاً عن أن يكون متفقاً معه.



١٥- باب في المحافظة على الأعمال

قَالَ اللّٰه تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّٰهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللّٰهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾[النحل: ٩٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩].

وَأَمَّا الأَحاديث فمنها:

حديث عائشة: وَكَانَ أَحَبُّ الدِّين إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيهِ. وَقَدْ سَبَقَ في البَاب قَبْلَهُ[1].

الحديث رقم (١٥٣)

١٥٣- وعن عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ مِنَ اللَّيْل، أَو عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَه ما بينَ صلاةِ الْفَجرِ وَصلاةِ الظهرِ، كُتب لَهُ كأنما قرأَهُ مِن اللَّيْلِ**» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

حِزْبه: الحزب: ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة كالورد[3].

---

(١) تقدم برقم (١٤٢).

(٢) برقم (٧٤٧/١٤٢). أورده المنذري في ترغيبه (٩٨٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ز ب).

الشرح الأدبي

يفتتح النووي بهذا الحديث بابًا جديدًا من أبواب رياض الصالحين: وهو "في المحافظة على الأعمال الصالحة وترك التهاون بها، والتساهل فيها"، ومجيء هذا الباب عقب الباب السابق.. وهو "الاقتصاد في العبادة" له دلالة وثمرة طيبة "لأن المحافظة على الأعمال الصالحة لن يتم إلا بإتقان العبادة والبعد عن التشدد والغلو والتطرف، والالتزام بالمنهج السوي المعتدل وهو الاقتصاد في العبادة لأن التشديد قد يؤدي إلى ترك العبادة المذموم"[1].

ويستشهد النووي بآيات عديدة فيها الحث على المحافظة على الأعمال الصالحة، وفي مقدمة الباب تتضوأ معاني ودلالات هذه الآية الكريمة حيث يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[2].

وتقول عائشة رضي الله عنها في سياق الحديث عن رسول الله ﷺ وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه.

وفي ظلال هذا الحديث الشريف نستروح نسمات الإيمان، ومن وهج كلماته المضيئة نقتبس قطعًا من نور الهداية، ونستشرف آفاق الرشاد، ونهتدي إلى الوسائل التعبدية التي تنجينا من سبل الغواية، ولنتأمل صفات الصالحين وسماتهم فهم: قوام الليل وفرسان النهار، لا تحجبهم العبادة عن إتقان وإنجاز أمورهم الحياتية، ولا تلهيهم الدنيا عن المداومة على أداء شعائرهم الدينية، وقراءة أورادهم وأحزابهم التعبدية، والقيام بصلاة الليل ومناجاة الخلاق العليم، والتضرع إليه في أوقات الرخاء، حتى يرفع عند الشدائد البلاء، ويكون معهم في السراء والضراء.

والحزب المراد في الحديث هو: ما يجعله الإنسان على نفسه من الصلاة وقراءة

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٩٨.

(٢) سورة الحديد، آية: ١٦.

القرآن وغيرهما من مظاهر التقرب إلى الله عز وجل، وفي القرآن حث على ذلك النهج في حياة المسلم: حتى يظل قلبه رطبًا بذكر الله عز وجل، ويظل قلبه معلقًا في المساجد، وتظل نفسه متسلحة بالإرادة الإيمانية القوية التي تقاوم نزغات الشياطين، ووسوسات الضالين، وشبهات الملحدين، وأكاذيب وافتراءات الكفار الجاحدين.

قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[1].

ويقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2].

ويُرغب المصطفى ﷺ كل مسلم في هذا النهج القويم، ويفتح باب العفو والتسامح .. ومضاعفة الثواب لمن داوم على القيام بحزبه من الليل، ثم يبشر كل من ألم به عارض من نسيان أو نوم.. ونسي حزبه أو شيئًا منه بأنه إذا قرأه وأنجزه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له وثبت له أجره، مثل إثباته عند قراءته له بالليل.

ولنتأمل صياغة هذا الحديث: فهو جملة واحدة شرطية: وأداة الشرط: "مَنْ"، وفعل الشرط "نام"، وجواب الشرط "كتب له".

وهذه الصياغة المنطقية توحي بأن كل مسلم عليه أن يجعل لنفسه حزبًا تعبديًا في جزء من الليل، من قراءة وصلاة ومناجاة، وإذا كان هذا الأمر ليس فرضًا فهو من صفات المسلم وخصائصه، وهو من الأمور التي تكمل بها معالم شخصية المسلم وهويته.

والفعل: "كتب"، مبني للمفعول، لأن المعطي موجود وهو العزيز الوهاب يضاعف

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٧٨-٧٩.

(٢) سورة السجدة، الآيات: ١٥-١٦.

لمن يشاء، وأولياؤه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى في مجال بيان ثواب المتقين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

فقه الحديث

قال الشوكاني: (المراد هنا: الورد من القرآن، وقيل: المراد ما كان معتاده من صلاة الليل. والحديث يدلّ على مشروعية اتخاذ ورد في الليل وعلى مشروعية قضائه، إذا فات بسبب النوم أو عذر من الأعذار، وأن من فعله ما بين صلاة الفجر إلى صلاة الظهر كان كمن فعله في الليل)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل التخفيف والتيسير على المدعوين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على العبادة.

ثالثًا: من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين ورفع الحرج عنهم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التبشير بالثواب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل التخفيف والتيسير على المدعوين:

إن التخفيف والتيسير على الناس من أهم ما تميزت به الشريعة الإسلامية، وهذا ما يحبب الإسلام للناس لأنه يراعى أحوالهم، ومما يؤكد ذلك في هذا الحديث قوله ﷺ: ((من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء...)) لأن للتخفيف والتيسير على المدعوين أثرًا كبيرًا في قبول الدعوة، نظرًا لكون النفس البشرية تميل إلى التخفيف واليسر وتكره كل صعب. والإسلام دين اليسر ورفع الحرج قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[3].

---

(١) سورة الذاريات: ١٧-١٨.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٤٩٨.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٨.

لذا ينبغي للداعية أن يبين للمدعوين فضل التخفيف والتيسير الذي جاء به الإسلام، وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما أخبر أن من نام عن حزبه يستطيع تدارك ذلك قبل صلاة الظهر وله الأجر، وهذا تيسير على المسلم الذي نام عن حزبه وهذا التيسير إعانة على طاعة الله.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل المحافظة على العبادة:

إن المحافظة على العبادة والمداومة عليها لها أثر عظيم في حياة المسلم، لأنه يكون موصولاً بالله تعالى مقبلاً عليه ذاكرًا له، ولذا فإن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يأتوا من الأعمال ما في طاقاتهم ووسعهم حتى يمكنهم الاستمرار على ذلك. وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان لرسول الله ﷺ حصير وكان يُحَجِّرُهُ[1] من الليل فيصلي فيه، فجعل الناس يصلون بصلاته، ويبسطه بالنهار، فثأبوا ذات ليلة، فقال: (يا أيها الناس! عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دُووِمَ عليه وإن قل) وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه))[2].

قال النووي: (القليل الدائم خير من الكثير المنقطع، لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر، والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم، وحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها أيضًا أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أحب إلى الله قال: ((أدومه وإن قل))[4]. ولهذا نجد أن رسول الله ﷺ جعل وقت إدراك الورد ما بين الفجر والظهر من أجل المحافظة على العبادة.

---

(١) يُحَجِّرُهُ: أي حوط موضعًا في المسجد بحصير ليسره، ليصلي فيه ولا يمر بين يديه مارّ، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦/٦٩.

(٢) أخرجه البخاري ٥٨٦١، ومسلم ٧٨٢ واللفظ له.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٠.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٦٥، ومسلم ٧٨٢.

ثالثًا- من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين ورفع الحرج عنهم:

ويوضح ذلك قوله ﷺ: "من نام عن حزبه من الليل ..." إلخ الحديث.

إن رفق الداعية بالمدعوين ورفع الحرج عنهم من أسباب نجاح الداعية في دعوته إذ يجعل المدعو يقبل دعوته ويحبه وينجذب إليه في دعوته، يؤيد ذلك ما ورد عن مالك بن الحويرث قال: أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيمًا رفيقًا فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال: ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم وصلوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم))[1] فالناس في حاجة لمن يرفق بهم ويعطف عليهم في آلامهم وعلى أخطائهم، وعلى حماقاتهم بشيء من سعة الصدر، فهذا كفيل بتحقيق نتائج عظيمة في قبول دعوة الداعية.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

بيّن هذا الحديث فضل الله على عباده بأن جعل الذي ينام عن حزبه أي ورده في العبادة، فلم يفعله أو فعل جزءً منه ولم يتمه، جعل الله له بدلاً عنه من وقت صلاة الفجر إلى صلاة الظهر وله الأجر كأنما قرأه من الليل. وهذا فضل من الله على عباده من أجل التوسعة عليهم في العبادة ومن أجل تدارك العبد لنسيانه وتقصيره. قال رسول الله ﷺ ((من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها))[2]. وقال ﷺ: ((إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحًا))[3].

خامسًا- من أساليب الدعوة: التبشير بالثواب:

يعد التبشير بالثواب من أساليب الدعوة، ويوضح ذلك قوله ﷺ ((... كتب له كأنما قرأه من الليل)) والتبشير بالثواب يعد من أساليب الدعوة الناجحة، لفرحه المدعو بما بشر به وإقباله، ولهذا بشر النبي ﷺ أهل بدر برضوان الله عنهم وغفران ذنوبهم

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٨.

(٢) أخرجه مسلم ٦٨٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩٩٦.

وأنهم من أهل الجنة، وبشر ﷺ أصحابه بعدما أصابهم الضنك والشدة من تجمع الأحزاب للقضاء عليهم ورجوعهم خائبين منهزمين، بأنهم لن يستطيعوا أن يغزوهم مرة أخرى، وأن الكثرة ستكون للمؤمنين: فعلى الداعية استخدام أسلوب التبشير بالثواب لما له من أثر في الاستجابة، لأن المدعو إذا بشر بالثواب كان ذلك مرغبًا له في المواظبة على العبادة والاجتهاد فيها.

الحديث رقم (١٥٤)

١٥٤- وعن عبدِ اللَّه بنِ عمرو بنِ العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لي رسولُ اللَّه ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّه لا تَكُنْ مِثلَ فُلانٍ، كَانَ يقُومُ اللَّيْلَ فَتَركَ قِيامَ اللَّيْل» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

إن قيام الليل من سمات التقوى التي يحرص عليها المسلم، ابتغاء مرضاة الله، وطمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه، وقيام الليل تدريب للعبد على مداومة الذكر والطاعة والتأمل. واستجلاء معالم القدرة الإلهية في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وكل مظاهر الجمال في الكون من سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، وقطع متجاورات، وجنات من أعناب وزرع ونخيل: صنوان وغير صنوان.

كل هذه المشاهد الكونية يتأملها المؤمن، وفي صلاته يسجد لله شكراً واعترافاً بهذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهي مسخرة للإنسان، يستمد منها الخيرات، ويتقوى بأسبابها على مواجهة الأخطار والمسؤوليات؛ وفي سورة طه تشرق هذه المعاني النيِّرات، حيث يقول الله عز وجل: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[2].

وروى عن علي بن أبي طالب، أنه قال: الخير كله مجموع في أربعة، الصمت والنطق والنظر والحركة، فكل نطق لا يكون في ذكر الله فهو لغو، وكل صمت لا يكون

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩/١٨٥) ولفظهما سواء. قال ابن حجر في الفتح (٣٨/٣): لم أقف على تسميته في شيء من الطرق، وكأن إبهام مثل هذا لقصد الستر عليه، ويحتملُ أن يكونَ النبي ﷺ لم يقصد شخصًا معيَّنًا، وإنما أرادَ تنفير عبد الله بن عمرو من الصنيع المذكور أهـ. أورده المنذري في ترغيبه (٩٤٣). وسيكرره المؤلف برقم (٦٩٢)، و (١١٦٥).

(٢) سورة طه، آية: ١٣٠.

في فكر الله فهوُ سَهْو، وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون في تعبد الله فهي فترة[1]، فرحم الله عبداً جعل نُطقه ذكراً، وصمته فكراً، ونظره عبراً، وحركته تعبّداً، ويسلم الناس من لسانه ويده.

وحين نتأمل هذا التوجيه النبوي الحكيم للصحابي التواب القوام "عبدالله بن عمرو بن العاص"، نجده درساً كريماً في ضرورة المحافظة على قيام الليل.. لأنه يقود المؤمن إلى طريق العبادة الصحيح، حيث المناجاة والضراعة والتأمل.

والمؤمن الذي يستجيب لنداء الرسول ﷺ ولا يترك قيام الليل ابتغاء مرضاة الله، واعترافاً بفضله، وشكراً لآلائه، لن يكون نطقه إلا ذكراً، ولا صمته إلا فكراً، ولا نظره إلا عبراً، ولا حركته إلا تعبداً.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: إنه وصية يقدمها رسول الله ﷺ، وتبدأ الوصية بالنداء مع تحديد اسم المنادى وهو عبدالله بن عمرو بن العاص: حيث يقول: ياعبدالله، والنداء يلقي بمزيد من الاهتمام والمسؤولية على المنادى، ويرشد إلى أهمية الأمر وقيمته في الإسلام وهو "قيام الليل"، ثم يعقب أسلوب النداء أسلوب النهى في قوله ﷺ "لاتكن مثل فلان".

والمثلية هنا ليست مطلقة ولكنها في أمر محدد: وهو ترك قيام الليل، وهذا الأسلوب فيه الترغيب والبعد عن مواجهة "عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما"، بالأمر مباشرة: فلم يقل: لا تترك قيام الليل حتى لا يفهم منه أن قيام الليل واجب.

وكذلك نجد عدم تصريح الرسول ﷺ باسم الرجل الذي كان يقوم الليل: فيتركه: وقال الحافظ العسقلاني: وكأن إيهام مثل هذا القصد الستر عليه، ثم قال: ولا ينبغي أن يبالغ في الفحص عن تسمية من وقع في حقه ما يذم به[2]، وهذا من آداب الإسلام، ومن كريم شمائل المصطفى ﷺ ومن سبل الحكمة والموعظة الحسنة في

---

(١) الفَتْرة: الانكسار والضعف، لسان العرب في (ف ت ر).

(٢) فتح الباري، ابن حجسر العسقلاني ٣/٤٦.

الدعوة إلى الله، والجملة الثالثة في الحديث: تتضمن فعلين، أحدهما ماضي "كان"، والثاني مضارع "يقوم" الليل، والماضي يرشد إلى زمن القيام ويوحي بعدم وقوعه في الحاضر، والفعل "يقوم" يوحي بأن هذا الرجل كان يداوم على قيام الليل ثم انقطع، وتكرار لفظ "الليل" مقترناً بالقيام، إرشاد وتأكيد لأهمية هذه العبادة واستحباب الدوام عليها، لأنها تقرب العبد من ربه، وتفتح له آفاق المناجاة والتضرع والدعاء، والتأمل الإيماني في ملكوت الأرض والسماء.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم قيام الليل وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٩٨).

الثاني: حكم المداومة على الطاعات، وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يستحب أن يكون للإنسان طاعات يداوم عليها، فإن نشط طولها وإن لم ينشط خففها، ويستحب لمن أراد قيام الليل أن يعتاد منه قدراً يغلب على ظنه بقرائن الحال أنه يداوم عليه، ويكره بعد ذلك تركه أو النقص منه لغير ضرورة، كما يكره لمن اعتاد التهجد تركه لغير عذر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء والنهي.

ثانياً: من آداب الداعية: الحرص على شعور الآخرين.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على مداومة الأعمال الصالحة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضيلة قيام الليل.

خامساً: من مهام الداعية: استثارة همم المدعوين.

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٢٧/٣، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٤٤٢/١، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٣٥٠/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٨٩/١٤ وما بعدها، ١٢١/٣٤ وما بعدها.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء والنهي:

إن من الأساليب الدعوية المهمة التي يحسن بالداعية الإفادة منها أسلوب النداء، الذي يُشعر المُنادَى بنوع من الخصوصية والاهتمام، مما يدفعه إلى التفاعل والاستجابة والاهتمام، وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب في الحديث الذي معنا في قوله: (يا عبدالله)، وكذلك أسلوب النهي ويظهر من قوله (لا تكن..) وهما من الأساليب الدعوية المفيدة.

والنهي من الأساليب الدعوية التي يستخدمها الداعية لحمل المدعو على الانتهاء عن الأمور التي نهى الشرع عنها وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وحريٌ بالداعية أن يوظف هذا الأسلوب في دعوته

ثانياً- من آداب الداعية: الحرص على شعور الآخرين:

إن من أهم ما يجب أن يتنبه إليه الداعية مسألة مراعاة شعور الآخرين وعدم إحراجهم أو خدش كرامتهم خاصة أمام الناس، وكان النبي ﷺ قدوة للمسلمين عامة، والدعاة خاصة في مراعاة شعور الآخرين، والشاهد على ذلك في هذا الحديث في قوله ﷺ: (... مثل فلان)، فلم يذكر اسمه حرصاً على مشاعره ورغبة في عدم التشهير به.

وهذا كان شأنه ﷺ في الحرص على مشاعر الآخرين ويؤيد ذلك أمثلة كثيرة من أحاديث النبي ﷺ منها ما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ، فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ فقال: لَيَنْتَهِيَنَّ[1] عن ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ))[2].

ومثاله قصة العامل الذي استعمله على الصدقة فجاء حين فرغ من عمله فقال: هذا لكم وهذا أُهديَ لي. فصعِدَ المنبر، ثم قال: ((ما بالُ العاملِ نبعثُهُ فيأْتي فيقول: هذا لكَ وهذا لي..))[3]، ولم يذكر اسمه حرصاً على مشاعره في عدم التشهير به وهذا ما ينبغي

---

(١) في الأصل: لَيُنْتَهَيَنَّ.

(٢) أخرجه البخاري ٧٥٠.

(٣) أخرجه البخاري ٧١٧٤.

أن يكون عليه الداعية في دعوته.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على مداومة الأعمال الصالحة

ويظهر ذلك من عموم الحديث (يا عبدالله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فتركه).

قال ابن حجر: (فيه استحباب الدوام على ما اعتاده المرء من الخير من غير تفريط، ويستنبط منه كراهة قطع العبادة وإن لم تكن واجبة)[١].

ومداومة الأعمال الصالحة من الأشياء التي حث عليها النبي ﷺ ويؤيد ذلك.

ما ورد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: ((أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ))[٢].

وعن علقمة قال: ((سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، قَالَ قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ كَانَ عَمَلُ رَسُولِ اللَّهِ ؟ هَلْ كَانَ يَخصُّ شَيْئاً مِنَ الأَيَّامِ؟ قَالَتْ: لاَ. كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً. وَأَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ؟))[٣].

قال النووي: (العمل القليل الدائم خيرٌ من الكثير المنقطع، لأن بدوام القليل تدوم الطاعة، والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيراً)[٤].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضيلة قيام الليل:

قيام الليل ومجافاة المضاجع دأب الصالحين، وقد كان النبي ﷺ يقوم الليل حتى تورمت قدماه، وكان غاية في الشكر لأنعم الله تعالى عليه، ولذا فإن لقيام الليل فضلاً عظيمًا في حياة المسلم، وإن هذا الحديث يفيد في عمومه فضل قيام الليل، قال

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٦/٣.

(٢) أخرجه مسلم ٧٨٢.

(٣) أخرجه مسلم ٧٨٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣٠.

تعالى في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١].

قال السعدي: (أي ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم وهو: الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى)[٢].

وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٣]، أي: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر[٤].

وأما الأحاديث فمنها:

قوله ﷺ: ((أَفْضَلُ الصِّيَامِ، بَعْدَ رَمَضَانَ، شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ. وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، صَلَاةُ اللَّيْلِ))[٥].

وقال ﷺ: ((عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ))[٦].

ومما يدل على فضيلة قيام الليل حرص النبي ﷺ عليه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ كان يقومُ من الليل حتى تَتفطَّرَ قَدَماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنعُ هذا يا رسولَ اللهِ وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذَنْبك وما تأخَّر؟ قال: ((أَفَلا أحبُّ أن أكونَ

---

(١) سورة السجدة آية: ١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق في تفسير كلام المنان ٦٠٣.

(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ١٧ - ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤١٧/٧.

(٥) أخرجه مسلم ١١٦٣.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٥٤٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨١٤)، والحاكم في المستدرك ٣٠٨/١، وقال: صحيح على شرط البخاري.

عبداً شكوراً))[١].

فحري علي الداعية أن يبين للمدعوين فضيلة قيام الليل ويحثهم عليه، ويكون قدوة في نفسه متأسياً في ذلك برسول الله ﷺ.

خامساً- من مهام الداعية: استثارة همم المدعوين:

لا شك أن استثارة همم المدعوين، ودفعهم إلى التنافس في الخيرات من المهام الأساسية في حياة الداعية، ويتضح ذلك من قول النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ((يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ. كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَه)).

واستثارة همم المدعوين للطاعة والعبادة من المهام التي ينبغي للداعية أن يوليها اهتمامه، حيث كان رسول الله ﷺ يستثير همة أصحابه رضي الله عنهم لعبادة الله تعالى يؤيد ذلك ما رواه سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: ((نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ))، قَالَ سَالِمٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ، بَعْدَ ذَلِكَ، لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ١١٣٠، ومسلم ١٨١٩، ١٨٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ١١٢١، ومسلم ٢٤٧٩.

الحديث رقم (١٥٥)

١٥٥- وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسولُ اللَّه ﷺ إذا فَاتَتْهُ الصَّلاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وجعٍ أَوْ غيْرِهِ، صلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَى عشْرَةَ ركعةً. رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

إن الصلاة نور يتوهج في حياة المسلم، ويشرق هذا النور في قلبه فلا تتسرب إليه دياجير المعاصي، ويتألق هذا النور في وجهه فإذا به يقطر بشراً ووضاءة، وترى الناس يقبلون عليه في صدق ومحبة يتنسمون أشذاءه، ويستروحون أفياءه.

وهذا النور يجعل للمؤمن في النفوس قبولاً، فهو بنور الصلاة يَخْطر في دائرة الذين قال الله فيهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[٢].

ومحمد ﷺ: نبي الرحمة، وصاحب الشفاعة، وهو الأسوة الحسنة، في أقواله وأفعاله، وهيئته، وصفاته، تروي السيدة عائشة: وهي الصديقة بنت الصديق، خبراً عن كيفية قضاء صلاة الليل إذا فاتته عليه الصلاة والسلام، فتقول: في صيغة الحكاية، والأسلوب الخبري، كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل: "من وجع أو غيره، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة" والحديث في بنائه اللغوي جملة واحدة كبرى، تتضمن خبراً عن رسول الله، وهذا الخبر يعد حكماً شرعياً، ولكن كيف صيغ هذا الخبر الموجز: إنه يتكون من كان واسمها وخبرها وهذه الصياغة توحي بأن هذا كان قليلاً ما يحدث، والتعبير بالفعل كان: وهو فعل ماضٍ ناقص - يومئ إلى ذلك، وخبر كان هو جملة شرطية... فهو خبر جملة، وهذه الجملة تتكون من أداة الشرط "إذا"، ثم

---

(١) برقم (٧٤٦/١٤٠). وسيكرره المؤلف برقم (١١٨٣).

(٢) سورة الفتح: ٢٩.

فعل الشرط "فاتته"، ثم جواب الشرط وهو، "صلى من النهار... إلخ"، واختيار أداة الشرط "إذا" يفيد وقوع هذا الأمر وهو: "فَوْت صلاة القيام" ولكن التعبير يوحي بأن هذا كان ليس عن عمد، ولكن بسبب وجع أو عذر أهم من الوجع، والتعبير بقولها، "فاتته"، يفصح عن أن الرسول ﷺ، لم يترك صلاة القيام كما جاء في الحديث السابق: فترك صلاة القيام، وفرق بين التعبيرين، فالصلاة الفائتة تكون على غير تعمد، ولذلك أسند الفوت إليها، وكأنها هى التي تركته على سبيل المجاز اللغوي، أما الترك ففيه القصدية والتعمد.

وقيل إن صلاة رسول الله ﷺ في النهار هي: جبر لفضيلة قيام الليل وليست قضاء، لأن صلاة رسول الله من الليل أكثر من هذا العدد، ومما يؤيد ذلك رواية السيدة عائشة في صفة صلاة رسول الله في قيام الليل، فتقول: "كان يقوم من الليل حتى تفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكورا"[(١)]، وكان رسول الله ﷺ لا يمل من عبادة ربه وإن أضرّ بدنه، ولكنه كان في بعض الأوقات لا يستطيع الصلاة من الليل: بسبب عذر مرضي أو غيره من الأعذار التي لا يستطيع لها دفعاً، وتعويضاً لذلك وجبراً: كان يصلي من النهار ثنتي عشرة ركعة، حتى يُعلِّمَ أمته كيف يتقربون إلى الله بالنوافل، وكيف يشكرون الله على نعمه، وكيف تكون قلوبهم معلقة في المساجد؛ وفي هذا الدعاء الذي ترويه عائشة عن رسول الله خير دليل على هذه الأسوة الحسنة، فقد كان رسول الله يدعو في صلاته، وما أجدر بكل مسلم أن يداوم على هذا الدعاء. «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ، فَقَالَ: ((إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ. وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ))[(٢)].

(١) أخرجه البخاري ٢٨٢٠، واللفظ له، ومسلم ٧٣١.

(٢) أخرجه البخاري ٨٣٢، ومسلم ٥٨٩.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم قضاء صلاة الليل، وقد اختلف الفقهاء في حكم قضاء التطوع من الصلوات في الليل أو غيره، فذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والحنابلة في قول إلى أن النوافل لا تقضى - فيما عدا سنة الفجر-، وذهب الشافعية في الأظهر أنه يقضي فائت الليل ما لم يطلع فجره، وقيل لا تقضى، وقيل تقضى ما لم يصل الفرض الذي بعده، وقال ابن حامد من الحنابلة تقضى جميع السنن الرواتب[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان بعض أحوال النبي ﷺ.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: المحافظة على النوافل.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

يظهر أسلوب الإخبار في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها "كان رسول الله إذا فاتته... إلخ".

حيث أخبرت عن فعل النبي ﷺ إذا فاته قيام الليل. وهو من الأساليب المفيدة في الدعوة، لبيان حال النبي ﷺ عندما كانت تفوته صلاة الليل لمرض أو غيره، حيث كان يصلي من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولاشك أن هذا الأسلوب يفيد في بيان أحوال النبي ﷺ للاقتداء.

وقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على نقل أفعاله ﷺ لأنهم يعلمون أن رسول الله ﷺ القدوة. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[(٢)].

---

(١) درر الحكام شرح غرر الأحكام ١٢٢/١، وشرح الخرشي ٢٦٧/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٣٣/٣، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٤/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ١٩١/٢، والأشباه والنظائر للسيوطي ص ٤٠١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٥٧/١٢ وما بعدها.

(٢) سورة الأحزاب، آية : ٢١.

قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله، وأفعاله وأحواله)[١].

فصحابة رسول الله ﷺ كانوا حريصين على نقل أفعاله، وممن اهتم بذلك زوجاته رضي الله عنهن وذلك لأمر الله عز وجل لهن بذلك قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[٢] فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن في بيوتهن، وما يرين من أفعال النبي ﷺ، ويسمعن من أقواله، حتى يبلغن ذلك إلى الناس فيعملوا ويقتدوا به[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان بعض أحوال النبي ﷺ:

يظهر من سياق الحديث بيان بعض أحوال النبي ﷺ وهي محافظته ﷺ على صلاة الليل، فلا يترك قيام الليل إلا لعذر، وقد أمره الله عز وجل بذلك فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

قال ابن كثير: (يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل وهو: التغطي من الليل، وينهض إلى القيام لربه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٥] وكذلك كان رسول الله ﷺ ممتثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل[٦].

فإذا فاته قيام الليل كان يصلي من النهار ثنتي عشرة ركعة وذلك لفضلهن، فكأنه إذا فاته ثواب شيء أدرك ذلك بثواب شيء آخر له ثواب عظيم، ويدل على

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٩١/٦.

(٢) سورة الأحزاب، من آية: ٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٨٤/١٤/٧.

(٤) سورة المزمل، الآيتان: ١، ٢.

(٥) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ٢٤٩/٨.

فضلهن قوله ﷺ ((ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى في كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعاً غير فريضة إلا بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة. أو إلا بُني له بيت في الجنة))[1].

فعلى الداعية بيان أحوال النبي ﷺ للمدعوين ليقتدوا به ويتعلموا منه.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: المحافظة على النوافل:

من موضوعات الدعوة التي تبرز من هذا الحديث المحافظة على النوافل، ويظهر ذلك من قول عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله ﷺ إذا فاتته صلاة الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة).

والمحافظة على النوافل لها فضل عظيم بالنسبة للمسلم في تحسين صلته بالله ومحبة الله له ورضاه عنه، ويؤيد ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ ((إن الله تعالى قال...، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذني لأُعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته))[2].

فعلى الداعية أن يعمل على حث المدعوين للمحافظة على النوافل والتقرب بها إلى الله عز وجل.

---

(١) أخرجه مسلم ٧٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

النفس تمل العمل، وتميل إلى الكسل، حتى إن العبادات في بعض الأحيان يجري عليها ما يجري على غيرها من الأعمال، ولهذا حرص الرسول ﷺ على تربية المسلم على الآتي:

أولاً- التربية على تزكية النفس وتهذيب الروح:

تهذيب الروح وتزكية النفس من الغايات التي حرص النبي ﷺ على تحقيقها؛ ولا يكون تحقيق هذه الغاية السامية إلا من خلال أداء الفرائض والواجبات وحدها، بل إن الأمر يتطلب الاجتهاد والعبادة، وقيام الليل، ولهذا فقد كان ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، وقد نصح عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بقوله: «لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ». بل إنه كان إذا فاتته الصلاة من الليل، عوَّض ذلك فصلَّى في النهار اثنتي عشرة ركعة.

وقد اتخذت هذه النوافل أحياناً عند بعض الناس صفة المداومة عليها، حتى إن النبي ﷺ قال: "مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، ...، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ ..."؛ وذلك حتى يحتفظ المجتهدون باجتهادهم الدائم في العبادة وتزكية النفس، فلا عذر يمنعهم، ولا مانع يقلل عزيمتهم وهدفهم السامي في الإحسان وتصفية الروح.

والتزكية تتم من خلال عدة طاعات، منها: الصلاة "وهي وسيلة عظمى في تزكية النفس، وهي في الوقت نفسه علم وميزان على التزكية، فهي وسيلة وغاية في نفس الوقت، فهي تعمق معاني العبودية والتوحيد والشكر، وهي ذكر وقيام وركوع وسجود وقعود.."[1]. ومنها: تلاوة القرآن، وهي "مهذبة للنفس من جوانب شتى: فهي تعرف الإنسان على المطلوب منه، وتثير عنده كل المعاني المرادة من تزكية النفس، وهي تنور القلب، وتذكره.... وإنما يفعل القرآن فعله إذا رافقت تلاوته آداب الباطن في التأمل

---

(١) تزكية الأنفس، سعيد حوى ص ٣٢.

والخشوع والتدبر[١].

ثانياً- التربية بالنصيحة:

لقد خص النبي ﷺ بعض صحابته الكرام بالنصيحة الفردية، التي تبدأ خاصة، تكتنفها خصوصية النصيحة، وما فيها من مودة وإخاء، ورفق من الناصح إلى المنصوح، و النصيحة النبوية سرعان ما تصل إلى الأمة جميعها مثلما وصلت إلى أول منصوح بها، فقد نصح النبي ﷺ عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قائلاً: «يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ. كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ».

وفي هذا النصح تأكيد على أهمية قيام الليل، والتحذير من دُنو الهمة مرة أخرى وتركه، وقد ذكر له النبي ﷺ مثالاً للذين يجب أن لا يكون مثلهم؛ لأنهم بدأوا بقيام الليل ثم تركوه، محرومين أجره ومثوبته، والتذكير والتواصي "من أساليب التربية الإسلامية، التي بدت خلال أحاديث المربي الرسول ﷺ، وفي طريقة النصيحة والتواصي دعوة كل مسلم إلى أن يكون مربياً يعلم أخاه المسلم[٢].

ثالثاً- من سمات التربية الإسلامية: اليسر والمرونة:

لقد تميز الإسلام بمراعاة الإمكانيات البشرية، واعتبار نقاط الضعف التي تعتري الإنسان؛ من المرض، والضعف، والنوم، وغير ذلك، ولهذا فقد رخَّص النبي ﷺ لمن ترك نافلة كان قد داوم عليها، في أن يؤديها وقتما يتأتى له ذلك، فمن نام عن قراءة القرآن بالليل جاز له القراءة ما بين الفجر والظهر، وكذلك كان يفعل النبي ﷺ، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلاَةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ، صَلَّىٰ مِنَ النَّهَارِ ...".

وذلك تماشياً مع روح التربية الإسلامية، وتسهيلاً على المسلم أداء العبادات والنوافل والقربات، ولم يهدف الإسلام في تشريعه إلى إعنات الناس وتكليفهم ما يشق عليهم،

---

(١) المرجع السابق ٧٧.

(٢) فلسفة التربية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٣٢ بتصرف يسير.

ولم يتخذ من وسائل علامات الخضوع والانقياد له أن يحملهم فوق ما يطيقون، ولكنه شرع من ذلك ما هو في حدود الطاقة البشرية متجنباً ما فيه كلفة ومشقة، ولو كان ذلك في دائرة قدرتها[1].



(١) صور من سماحة الإسلام، د. عبدالعزيز الربيعة ص ٢٤.

١٦- باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:٣-٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرِ﴾[الأحزاب:٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] قَالَ العلماء: معناه إِلَى الكتاب والسُنّة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه﴾[النساء:٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ﴾[الشورى: ٥٢-٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾[الأحزاب: ٣٤]، والآيات في الباب كثيرة.

وَأما الأحاديث:

الحديث رقم (١٥٦)

١٥٦- فالأَوَّلُ: عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**دَعُونِي ما تَرَكْتُكُمْ: إِنَّما أَهْلَكَ من كَانَ قبْلكُم (كَثْرةُ)** [١] **سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلافُهُمْ علَى أَنْبيائِهِمْ، فَإِذا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فاجْتَنِبُوهُ، وَإِذا أَمَرْتُكُمْ بأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ**» متفقٌ عليه[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

---

(١) (كثرة) لا توجد عند البخاري، وإنما عند مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٣٧/٤١٢).

الشرح الأدبي

إن الخطابة فن قولي وأدبي يقصد به إلى التأثير في نفوس المتلقين عن طريق استمالة قلوبهم، ومخاطبة عقولهم، وللخطيب أدوات تأثيرية في مقدمتها جذب انتباه السامعين، وإيقاظ ضمائرهم، وإثارة مشاعرهم، بما يلقيه الخطيب من عبارات لها إيقاعها المؤثر في صياغتها، وفي نسيج كلماتها وحروفها وفي إلقائها أيضًا، وفي تلوين الصوت جهرًا وهمسًا، وعلوًا، وانخفاضًا، وغير ذلك من وسائل تأثيرية متعددة؛ واتخذ الرسول ﷺ من الخطابة أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة، ثم اتسعت ميادين الخطابة في المدينة المنورة حيث ظل رسول الله ﷺ يواصل دعوته ويرسي أسس المجتمع المسلم، حتى استقرت الأمور، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

وهذا الحديث الشريف جزء من خطبة نبوية جليلة، ألقاها النبي ﷺ لتوضيح بعض أركان الإسلام ومنها الحج: حيث قال: "يا أيها الناس: قد فرض الله عليكم الحج فحجوا: فقال رجل: أكل عام يارسول الله؟ فسكت الرسول : حتى قالها الرجل مرارًا، فقال رسول الله: لو قلت نعم: لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: دعوني ما تركتكم.." الخ الحديث.

فالحديث ورد في سياق موقف فيه لبس من جهة السائل، واستفسار فيه إلحاح من جانبه، وعدم الاستجابة المباشرة للأمر، والمصطفى ﷺ، لم يجعل الإجابة محددة، ولم يحصرها في الرد على شخص بعينه، لأن الأمر يتعلق بقاعدة شرعية، وليس حلًا لمسألة شخصية، وقد وضع الرسول قاعدة لاستقبال الأوامر والنواهي، وهى التسليم والعمل الصالح، وترك المحاجة والمجادلة وكثرة السؤال- اتباعًا لقول الله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2].

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

والحديث تضمن في صياغته عدة جمل لغوية، وتشكل من عدة أساليب تآزرت كلها في توصيل المعنى، وإفهام الأمة، وتوضيح المنهج الصحيح في استقبال الأوامر والنواهي.

وقد بدأ الحديث بصيغة الأمر في قول الرسول ﷺ وهو يجيب السائل "دعوني ما تركتكم" وهو أمر موجه للأمة كلها في كل زمان وكل مكان، والأمر هنا يتضمن النهى عن كثرة السؤال والإلحاح في ذلك: حتى لا يثقل الأمر على الناس فلا يستطيعون القيام بما فرض عليهم، والجملة الثانية، جاءت خبرية في صيغة القصر، عن طريق "إنما"، وهى تَحْصُر المعنى وتؤكده، ويقيم الرسول دليلًا على أن كثرة السؤال وكثرة الاختلاف تؤدي إلى الهلاك، كما وقع لبني إسرائيل وغيرهم من الأمم مثل عاد وثمود، وقوم نوح؛ والتعبير بقوله: "من كان قبلكم"، يشع بالمعاني الكثيرة ولكنه يتسم بالإيجاز الشديد: حيث تنبئ هذه الجملة عن مصير كثير من الأمم السابقة: وهو الهلاك والدمار بسبب الجدال والاختلاف وعدم التسليم، وأما الجملتان الثالثة والرابعة فقد صيغتا في أسلوب الشرط والجواب، وهما قاعدتان من قواعد الإسلام الشرعية، وأداة الشرط فيهما، إذا، وهى تفيد التحقق: فالنهى في الجملة الأولى متحقق وكذلك الأمر في الثانية، وجواب الشرط في الأولى فعل أمر هو "اجتنبوه"، وهذه المادة اللغوية ترشد إلى وجوب الابتعاد عن كل ما نهى عنه رسول الله ﷺ، ولم يقل "انتهوا عنه"، حتى لا يظن أنهم كانوا يقترفون هذا الأمر المنهي عنه سابقًا.

والتعبير بقول "عن شيء" يفيد الاستقصاء، ويرشد إلى أن المؤمن لا يستهين بأى شيء فيه مخالفة كبيرًا كان أو صغيرًا، والتعبير عن المنهي عنه بلفظ "شيء" يوحي بالنُّفور وعدم احترام ذلك الشيء المحرم، وذلك لحقارته – ومن هنا ندرك سر التعبير بقوله: "فاجتنبوه"، ولم يقل "فانتهوا عنه".

والجملة الرابعة: فيها عدول عن طبيعة اللفظ إلى لفظ فيه تكريم وإيحاء بوجوب الالتزام والتنفيذ، حيث قال: "وإذا أمرتكم بأمر"، ولم يقل "بشيء" لأن المأمور به: أمر شرعي، وفيه صلاح للأمة والفرد، ولفظ "أمر" يوحي بضرورة القيام به لأن الأمر للوجوب في

الفرائض والواجبات، وجواب الشرط "فأتوا منه ما استطعتم" يفصح عن منهج التيسير في الإسلام، حيث لم يقل عليه الصلاة والسلام فالتزموا به أو فأتمروا به، وإنما جعل الاستجابة في حدود الاستطاعة. وقال العلماء في بيان فأتوا منه ما استطعتم أي أطقتم، لأن فعله هو إخراجه من العدم إلى الوجود، وذلك متوقف على شروط وأسباب، كالقدرة على الفعل ونحوها، وبعضها يستطاع، وبعضها لا يستطاع، فكان التكليف بما يستطاع منه: وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١) (٢).

فتأمل هذا البيان النبوي البليغ، وتأمل كيف أفصحت الكلمات والأساليب والصياغة عن المعاني الجليلة، والمقاصد الكريمة التي تتألق في أفق هذا الحديث النبوي الشريف.

فقه الحديث

يندرج تحت هذا الحديث كثير من الأحكام الفقهية والأصولية، ويكفي قول النووي عن قوله ﷺ: "وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"، قال النووي: (هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام)(٣)، وفيما يلي بعض الأحكام الفقهية، ولمن أراد التوسع فليراجع فتح الباري(٤) لابن حجر وجامع العلوم والحكم لابن رجب(٥):

١-قوله ﷺ: "دعوني ما تركتكم" يستدل به على أن جميع الأشياء على الإباحة حتى يثبت المنع من قبل الشارع(٦)، وقال الدكتور علي أحمد الندوي عن القاعدة الفقهية: "الأصل في الأشياء الإباحة"، قال: (هذه قاعدة أصولية فقهية معروفة، يستند

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦ .

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٥٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣٧ .

(٤) ٢٢٥٦-٢٢٥٨.

(٥) ١/٢٣٨-٢٥٧ الحديث التاسع.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٢٢٥٧.

إليها في تحقيق كثير من الأحكام، وبناها الفقهاء على نصوص شرعية كثيرة تدل على رسوخها وأثرها في الفقه الإسلامي وهي من الأصول القويمة الدالة على اليسر والسماحة في التشريع الإسلامي)[١].

٢-النهي عن كثرة المسائل والتعمق في ذلك: فقوله ﷺ "إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم" قوله هذا استدل به -كما قال ابن حجر- على النهي عن كثرة المسائل والتعمق في ذلك. قال البغوي في شرح السنة: (المسائل على وجهين أحدهما: ما كان على وجه التعليم لما يحتاج إليه من أمر الدين فهو جائز بل مأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، وعلى ذلك تتنزل أسئلة الصحابة عن الأنفال والكلالة وغيرهما، ثانيهما: ما كان على وجه التعنت والتكلف، وهو المراد في هذا الحديث، والله أعلم. ويؤيده ورود الزجر في الحديث عن ذلك وذم السلف، فعند أحمد في حديث معاوية: ((أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات))[٣] قال الأوزاعي: (هي شداد المسائل) وقال الأوزاعي أيضاً: (إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط؛ فلقد رأيتهم أقلّ الناس علمًا) وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: (المراء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل)[٤] وقال ابن العربي: (كان النهي عن السؤال في العهد النبوي خشية أن ينزل ما يشق عليهم، فأما بعد فقد أمن ذلك، لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع)، قال: (وإنه لمكروه إن لم يكن حرامًا إلا للعماء فإنهم فرعوا ومهدوا فنفع الله من بعدهم بذلك، ولا سيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم) انتهى ملخصًا. وينبغي أن يكون محل الكراهة للعالم إذا شغله ذلك عما هو أعم[٥] منه، وكان ينبغي تلخيص ما يكثر

(١) جمهرة القواعد الفقهية ٤٣٨/١ القاعدة ٤٨.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) أخرجه أحمد ٤٣٥/٤، وأبو داود ٣٦٥٦، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ٩٣/٣٩، ٢٣٦٨٨.

(٤) هذه الأقوال وغيرها ذكرها ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢٤٧/١-٢٤٨.

(٥) كذا في المطبوع من فتح الباري، ابن حجسر العسقلاني ولعل الأقرب إلى الصواب هو "أهم" والله أعلم.

وقوعه مجرداً عما يندر، ولا سيما في المختصرات ليسهل تناوله، والله المستعان)[١].

٣-الإكراه على المعصية: ففي قوله ﷺ: "فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه" نهي عام كما يقول ابن حجر في جميع المناهي، ويستثنى من ذلك ما يكره المكلف على فعله كشرب الخمر، وهذا على رأي الجمهور. وخالف قوم فتمسكوا بالعموم فقالوا: الإكراه على ارتكاب المعصية لا يبيحها، والصحيح عدم المؤاخذة إذا وجدت صورة الإكراه المعتبرة. واستثنى بعض الشافعية من ذلك الزنا، فقال: لا يتصور الإكراه عليه. وكأنه أراد التمادي فيه، إلا فلا مانع أن ينعظ[٢] الرجل بغير سبب، فيكره على الإيلاج حينئذٍ فيولج في الأجنبية، فإن مثل ذلك ليس بمحال، ولو فعله مختارًا لكان زانيًا، فتصوَّر الإكراه على الزنا. واستدل به من قال لا يجوز التداوي بشيء محرم كالخمر ولا دفع العطش به وإساغة لقمة من غصّ به، والصحيح عند الشافعية جواز الثالث؛ حفظًا للنفس، فصار كأكل الميتة لمن اضطر، بخلاف التداوي فإنه ثبت النهي عنه نصًا، ففي [صحيح] مسلم عن وائل [ابن حُجر] رفعه: ((إنه ليس بدواء ولكنه داء))[٣] ولأبي داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه رفعه: ((لا تتداووا بحرام))[٤] وله عن أم سلمة مرفوعًا: ((إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها))[٥]، وأما العطش فإنه لا ينقطع بشربها ولأنه في معنى التداوي، والله أعلم، والتحقيق أن الأمر باجتناب المنهي على عمومه ما لم يعارضه إذن في ارتكاب منهي كأكل الميتة للمضطر)[٦].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٥٨/٣، وانظر أمثلة للأسئلة المنهي عنها في: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٤١/١-٢٤٤.

(٢) نعظ ذكره نَعْظًا ونعوظًا: قام. والناعوظ: الذي يهيِّج النعْظ، وأنعظ الرجل والمرأة: علاهما الشَّبَق. القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ن ع ظ).

(٣) أخره مسلم ١٩٨٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٣٨٧٤.

(٥) أخرجه أبو يعلى ٨٩٦٦، وابن حبان ١٣٩١، والبيهقي ٥/١٠، وانظر تتمة تخريجه في صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان بتحقيق شعيب الأرنؤوط.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٥٧/٣.

٤- العجز عن فعل المأمور به كله والقدرة على بعضه:

قال ابن رجب: (وفي قوله ﷺ: "وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" دليل على أن من عجز عن فعل المأمور به كله وقدر على بعضه فإنه أتي بما أمكنه منه، وهذا مطرد في مسائل:

أ-منها الطهارة، فإذا قدر على بعضها وعجز عن الباقي، إما لعدم الماء أو لمرض في بعض أعضائه دون بعض، فإنه يأتي من ذلك بما قدر عليه، ويتيمم للباقي، وسواء في ذلك الوضوء والغسل على المشهور.

ب-ومنها الصلاة، فمن عجز عن فعل الفريضة قائمًا صلّى قاعدًا، فإن عجز صلى مضطجعًا، وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: ((صلّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب)) ولو عجز عن ذلك كله أومأ بطرفه وصلّى بنيته، ولم تسقط عنه الصلاة على المشهور.

ج-ومنها زكاة الفطر، فإذا قدر على إخراج بعض صاع، لزمه ذلك على الصحيح فأما من قدر على صيام بعض النهار دون تكملته، فلا يلزمه ذلك بغير خلاف، لأن صيام بعض اليوم ليس بقربة في نفسه، وكذا لو قدر على عتق بعض رقبة في الكفارة فلا تلزمه، لأن تبعيض العتق غير محبوب للشارع بل يؤمر بتكميله بكل طريق[1].

وقال ابن حجر: (وقال غيره [أي غير النووي]: فيه أن من عجز عن بعض الأمور لا يسقط عنه المقدور وعبّر عنه بعض الفقهاء بأن الميسور لا يسقط بالمعسور، كما لا يسقط ما قدر عليه من أركان الصلاة بالعجز عن غيره، وتصح توبة الأعمى عن النظر المحرم والمجبوب عن الزنا، لأن الأعمى والمجبوب قادران على النوم فلا يسقط عنهما بعجزهما عن العزم على عدم العود، إذ لا يتصور منهما العود عادة فلا معنى للعزم على عدمه، واستدل به على أن من أمر بشيء فعجز عن بعضه ففعل المقدور أنه يسقط عنه ما عجز عنه)[2].

د-اجتناب المنهيات وفعل المأمورات:

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٥٦-٢٥٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٥٧/٣.

قال ابن رجب: (وقوله ﷺ: "إذا نهيتكم عن شيء فاجتنوبه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" قال بعض العلماء: هذا يؤخذ منه أن النهي أشد من الأمر، لأن النهي لم يرخص في ارتكاب شيء منه، والأمر قيّد بحسب الاستطاعة، وروى هذا عن أحمد. ويشبه هذا قول بعضهم: أعمال البر يعملها البر والفاجر، وأما المعاصي فلا يتركها إلا صديق.

والظاهر أن ما ورد من تفضيل ترك المحرمات على فعل الطاعات، إنما أريد به على نوافل الطاعات، وإلا فجنس الأعمال الواجبات أفضل من جنس ترك المحرمات، لأن الأعمال مقصودة لذاتها، والمحارم المطلوب عدمها، ولذلك لا يحتاج إلى نية بخلاف الأعمال، ولذلك كان جنس ترك الأعمال قد يكون كفرًا كترك التوحيد، وكترك أركان الإسلام أو بعضها ... بخلاف ارتكاب المنهيات فإنه لا يقتضي الكفر بنفسه. ويشهد لذلك قول ابن عمر: لرد دانق[1] حرام أفضل من مائة في سبيل الله. وعن بعض السلف قال: ترك دانق مما يكره الله أحب إلي من خمسمائة حجة، وقال عمر بن عبدالعزيز: ليست التقوى قيام الليل، وصيام النهار والتخليط فيما بين ذلك، ولكن التقوى أداء ما افترض الله، وترك ما حرم الله، فإن كان مع ذلك عمل، فهو خير إلى خير، أو كما قال.

وقال أيضًا: وددت أني لا أصلي غير الصلوات الخمس سوى الوتر، وأن أؤدي الزكاة ولا أتصدق بعدها بدرهم، وأن أصوم رمضان ولا أصوم بعده يومًا أبدًا، وأن أحج حجة الإسلام ثم لا أحج بعدها أبدًا، ثم أعمد إلى فضل قوتي فأجعله فيما حرم الله عليّ فأمسك عنه.

وحاصل كلامهم يدل على أن اجتناب المحرمات -وإن قلت- أفضل من الإكثار من نوافل الطاعات، فإن ذاك فرض، وهذا نفل)[2].

---

(١) الدانق سدس الدرهم والساقط المهزول. المعجم الوسيط في (د ن ق).

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٥٢-٢٥٤، وانظر: الفوائد لابن القيم ص ١٧٣-١٨٦، وقال: هذه مسألة عظيمة لها شأن، وهي أن ترك الأوامر عند الله من ارتكاب المناهي وذلك من وجوه عديدة، ثم ذكر ثلاثة وعشرين وجهًا للتدليل على ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن كثرة السؤال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن الاختلاف.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: ضرورة الامتثال لأمر النبي ﷺ.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: من خصوصيات النبي ﷺ جوامع الكلم.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: العمل قدر الطاقة والوسع.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر أسلوب الأمر في هذا الحديث في أكثر من موضع هي: "دعوني... فاجتنبوه... فأتوا...".

إن استعمال النبي ﷺ لأسلوب الأمر في هذا الحديث يدل على أهمية المأمور به، من حيث ضرورة الامتثال لما أمر به النبي ﷺ، وما في ذلك من مصلحة متحققة للمدعوين في الاستجابة لما أمروا به.

دل حديث الباب على النهي عن السؤال عما لا يُحتاج إليه مما يسوء السائل جوابه وهذا ما تراه في قوله ﷺ: "دعوني ما تركتكم: إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ... إلخ"[1].

وقد تعددت الأحاديث النبوية في تأكيد هذا المعنى وترسيخه، وكان منها قول أبي هريرة رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: "أيها الناس! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا"، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله! فسكت حتى قالها ثلاثًا. فقال رسول الله

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٢٤٠-٢٤١.

ﷺ: "لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم"، ثم قال: "ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ..." إلخ(١).

قال أبو العباس القرطبي: (وقوله: "ذروني ما تركتكم" يعني: لا تكثروا من الاستفصال عن المواضع التي تكون مقيَّدةً بوجهٍ ما ظاهرٍ وإن كانت صالحة لغيره. وبيان ذلك: أن قوله: "فحجوا" وإن كان صالحًا للتكرار، فينبغي أن يُكتفى بما يصدق عليه اللفظ، وهو المرةُ الواحدةُ، فإنها مدلولة للّفظ قطعًا، وما زاد عليها يتغافل عنه، ولا يكثر السؤال فيه لإمكان أن يكثر الجواب المترتب عليه، فيضاهي ذلك قصة بقرة بني إسرائيل التي قيل لهم فيها: اذبحوا بقرة. فلو اقتصروا على ما يصدق عليه اللفظ، وبادروا إلى ذبح بقرة -أيٍّ بقرة كانت- لكانوا ممتثلين، لكن لما أكثروا السؤال كثر عليهم الجواب، فشددوا، فشدد عليهم، فذُمُّوا على ذلك، فخاف النبي ﷺ مثل هذا على أمته، ولذلك قال: "فإنما هلك من كان قلبكم بكثرة سؤالهم"، وعلى هذا يحمل قوله: "فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم" يعني: بشيءٍ مطلقٍ. كما إذا قال: صُمْ، أو صلِّ، أو تصدَّق. فيكفي من ذلك أقلُّ ما ينطلق عليه الاسم فيصوم يومًا، ويصلّي ركعتين، ويتصدق بشيءٍ يُتصدَّق بمثله. فإن قيَّد شيئًا من ذلك بقيود، ووصفه بأوصاف لم يكن بدٌّ من امتثال أمره على ما فصَّل وقيَّد، وإن كان فيه أشدُّ المشقات، وأشق التكاليف. وهذا مما لا يختلف فيه إن شاء الله تعالى أنه هو المراد بالحديث(٢).

ومما يؤكد على ترسيخ هذا المعنى، قول أنس رضي الله عنه: "سئل رسول الله ﷺ حتى أحْفَوْهُ المسألة(٣) فغضب فصعد المنبر، فقال: "لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم"، فجعلت انظر يمينًا وشمالاً فإذا كل رجل لافًا رأسه في ثوبه يبكي، فإذا رجل

(١) أخرجه مسلم ١٣٣٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٣/٤٤٧-٤٤٨.

(٣) وأحفوه في المسألة: استقصوا عليه، الإفصاح، ابن هبيرة، ٥/٣٣.

كان إذا لا حى[١] الرجال يدعى لغير أبيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: "حذافة" ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، نعوذ بالله من الفتن. فقال رسول الله ﷺ: "ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صُوِّرت لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط"[٢].

وكان قتادة يذكر عند هذا الحديث هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٣])[٤].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث، أن غضب رسول الله ﷺ إنما كان لتكثيرهم الأسئلة عما لا يصلح، فظهر رسول الله ﷺ على المنبر ظهورًا قال فيه قولاً يستدل به كل عاقل على أنه لم يمسك عما كانوا يسألونه عنه إلا لمصلّحتهم فحسب، وقد نطق بهذا القرآن في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾)[٥].

لذادلت هذه الأحاديث على النهي عن السؤال عما لا يُحتاج إليه مما يسوءُ السائل جوابه مثل سؤال السائل: هل هو في النار أو في الجنة، وهل أبوه من ينتسب إليه أو غيره، وعلى النهي عن السؤال على وجه التعنت والعبث والاستهزاء، كما كان يفعله كثير من المنافقين وغيرهم.

وقريب من ذلك سؤال الآيات واقتراحها على وجه التعنت لما كان يسأله المشركون وأهل الكتاب، وقد قال عكرمة وغيره: إن الآية نزلت في ذلك.

ويقرب من ذلك السؤال عما أخفاه الله عن عباده، ولم يُطلعهم عليه، كالسؤال عن وقت الساعة، وعن الروح.

---

(١) "كان إذا لاحى" الملاحاة المنازعة والخصومة، المرجع السابق.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٧٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٣٦٢.

(٥) الإفصاح ٣٢/٥.

وقد كان النبي ﷺ ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال[١].

ولم يكن النبي ﷺ يُرخِّصُ في المسائل إلا للأعراب ونحوهم من الوفود القادمين عليه، يتألفهم بذلك، فأمَّا المهاجرون والأنصار المقيمون بالمدينة الذين رسخ الإيمانُ في قلوبهم، فنهوا عن المسألة[٢].

فعن نواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ((أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة، ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ...)) إلخ[٣].

قال النووي: (معناه: أنه أقام بالمدينة كالزائر من غير نقله إليها من وطنه لاستيطانها وما منعه من الهجرة وهي الانتقال من الوطن واستيطان المدينة إلا الرغبة في سؤال رسول الله ﷺ عن أمور الدين، فإنه كان سمح بذلك للطارئين دون المهاجرين وكان المهاجرون يفرحون بسؤال الغرباء الطارئين من الأعراب وغيرهم، لأنهم يحتملون في السؤال ويعذرون ويستفيد المهاجرون الجواب كما قال أنس رضي الله عنه في الحديث الذي ذكره مسلم في كتاب الإيمان. وكان عجبًا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأل ونحن نسمع[٤])[٥].

وكان من أهم أسباب نهي النبي ﷺ عن كثرة السؤال عدم حصول التشديد لقوله ﷺ "إن أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته" وقد زعم بعض الناس أن ذلك كان مختصًا بزمن النبي ﷺ[٦] لما يخشى حينئذ من تحريم ما لم يحرم، أو إيجاب ما يشق القيام به، وهذا قد أمن بعد وفاته ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٧٧، ومسلم ٥٩٣.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٤٠-٢٤٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٥٣.

(٤) أخرجه مسلم ١٢.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٣-١٥٢٤.

(٦) أخرجه البخاري ٧٢٨٩، ومسلم ٢٣٥٨.

قال ابن رجب: (إن هذا الزعم ليس وحده هو سبب كراهة المسائل، بل له سبب آخر، وهو الذي أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن، فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه. ومعنى هذا: أن جميع ما يحتاج إليه المسلمون في دينهم لا بدَّ أن يبينه الله في كتابه العزيز، ويبلّغ ذلك رسوله عنه، فلا حاجة بعد هذا لأحدٍ في السؤال[1] ولا سيما قبل وقوعه والحاجة إليه، وإنما الحاجةُ المهمة إلى فهم ما أخبر الله به ورسوله، ثم اتباع ذلك والعمل به، بل وبذل الوسع في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب ما يُنهى عنه، وتكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك، لا إلى غيره.

وهكذا كان حال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة ولكن...

إذا كانت همة السامع مصروفة عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع،وقد لا تقع، فإن هذا مما يدخل في النهي، ويثبط عن الجد في متابعة الأمر. وقد سأل رجل ابن عمر رضي الله عنهما عن استلام الحجر، فقال له: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله، فقال له الرجل: أرأيت إن غلبت عليه؟ أرأيت إن زُوحمت؟ فقال له ابن عمر: اجعل، "أرأيت"، باليمن، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله[2].

ومراد ابن عمر رضي الله عنهما أنه لا يكن لك هم إلا في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا حاجة إلى فرض العجز عن ذلك أو تعسره قبل وقوعه؛ فإنه قد يفتر العزم عن التصميم على المتابعة، فإن التفقه في الدين، والسؤال عن العلم إنما يُحمد إذا كان للعمل، لا للمراء والجدال.

وقد روي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه ذكر فتنًا تكون في آخر الزمان، فقال له عمر رضي الله عنه: متى ذلك يا علي؟ قال: إذا تُفُقِه لغير الدين، وتُعُلِّم لغير العمل، والتمست الدنيا بغير الآخرة.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٤٣/١.

(٢) أخرجه البخاري ١٦١٠.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، وتتخذ سُنةً، فإن غيرت يومًا قيل: هذا منكر؟ قالوا: ومتى ذلك؟ قال: إذا قلت أمناؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلت فقهاؤكم، وكثر قراؤكم، وتفقه لغير الدين، والتمست الدنيا بعمل الآخرة.

ولهذا المعنى كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها، ولا يجيبون عن ذلك، قال عمرو بن مرة: خرج عمر على الناس، فقال: أحرِّج عليكم أن تسألونا عن ما لم يكن، فإن لنا فيما كان شغلاً. وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لا تسألوا عما لم يكن، فإني سمعت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعن السائل عما لم يكن[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن الاختلاف:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث النهي عن الاختلاف حيث بيّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الاختلاف كان سببًا في هلاك الأمم السابقة، فعلى المسلمين البعد عنه حتى لا يكون سببًا في هلاكهم.

لذا أمر الله سبحانه المسلمين بالاجتماع وعدم التفرق والاختلاف، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

فأمر الله عز وجل بأن يكونوا جميعًا على الاعتصام بجامعة الإسلام، الذي كان سبب نجاتهم مما كانوا عليه قبله[3].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٤٤/١-٢٤٥، باختصار.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٢-١٠٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور٣٢/٤/٢.

ونهى عن التفرق والاختلاف اللذين كانا عليها الأمم السابقة، مما كان سببًا في هلاكهم. فحري بالداعية أن يبيّن للمدعوين خطورة الاختلاف، نظرًا لما يترتب عليه من نتائج سلبية من التفرقة والحزبية التي ينهى الإسلام عنها، لأنها تجلب العداوات التي تصل إلى حد الاقتتال والتناحر بين الأمة كما حدث في الأمم السابقة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: ضرورة الامتثال لأمر النبي ﷺ:

من موضوعات الدعوة التي تبرز من هذا الحديث ضرورة الامتثال لأمر النبي ﷺ ويظهر ذلك من قوله: "فإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم".

والامتثال لأمر النبي ﷺ أمر واجب على المسلمين جميعًا، لقوله تعالى على لسان نبيه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2] أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر[3].

فعلى الداعية أن يبيّن للمدعوين ضرورة الامتثال لأمر رسول الله ﷺ وأن أمره هو أمر من عند الله قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[4].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر أسلوب الترهيب في هذا الحديث في ترهيبه ﷺ من كثرة السؤال والاختلاف، وبيان أن ذلك كان سببًا في هلاك الأمم السابقة، فعلى المسلمين أن يحذروا من خطورة الوقوع فيه. والترهيب من الأساليب الدعوية المهمة والتي يمكن أن يفيد منها الداعية فيما يخدم موضوعات الدعوة.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٧/٨.

(٤) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ جوامع الكلم:

إن مما يؤكد خصوصية النبي ﷺ في الإيجاز ما ورد في قوله ﷺ: ((فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم)) قال الإمام النووي: هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام كالصلاة بأنواعها، فإذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل غسل الممكن، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته أو لغسل النجاسة فعل الممكن، وإذا وجبت إزالة منكرات أو فطرة جماعة من تلزمه نفقتهم أو نحو ذلك وأمكنه البعض فعل الممكن، وإذا وجد ما يستر بعض عورته أو حفظ بعض الفاتحة أتى بالممكن، وأشباه هذا غير منحصرة وهي مشهورة في كتب الفقه، والمقصود التنبيه على أصل ذلك[(١)].

وجوامع الكلم التي أعطيها رسول الله ﷺ من خصائصه التي خصه الله بها فكان كلامه قليل الألفاظ كثير المعاني والفوائد.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: العمل قدر الطاقة والوسع:

من موضوعات الدعوة في هذا الحديث العمل قدر الطاقة والوسع، ويظهر ذلك في قوله ﷺ: "فأتوا منه ما استطعتم" أي: افعلوا قدر استطاعتكم[(٢)]. وقال ابن رجب: (وفي ذلك دليل على أن من عَجَزَ عن فعل المأمور به كله، وقدر على بعضه فإنه يأتي بما أمكنه منه، وهذا مطرد في مسائل منها الطهارة، والصلاة، وزكاة الفطر، والحج)[(٣)].

فالله سبحانه لا يأمر إلا بالمستطاع[(٤)]. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(٥)] أي: لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه

---

(١) شرح صحيح مسلم ص ٨٣٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٢٧٦.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٥٦ باختصار.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣٧.

(٥) سورة البقرة من آية: ٢٨٦.

إليهم[1]. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾[2] أي مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير[3].

وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾[4] يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة[5]. فعلى الداعية أن يبين للمدعوين يسر الدين وسعته ولطفه بهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٣٧/١.

(٢) سورة الحج، من آية: ٧٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٩٦.

(٤) سورة التغابن، من آية: ١٦.

(٥) المرجع الساب ص ٨٠٤.

الحديث رقم (١٥٧)

١٥٧- الثَّاني: عَنْ أَبي نَجيحٍ الْعِرْباضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَعَظَنَا رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم مَوْعِظَةً بليغةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُون، فقُلْنَا: يا رَسولَ اللَّه كَأَنَهَا موْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا. قال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوى اللَّه، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وإِنْ تَأَمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حبشيٌ، وَأَنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيرى اخْتِلافًا كثِيرا. فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتي وَسُنَّةِ الْخُلُفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ، وإِيَّاكُمْ ومُحْدثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضلالَةٌ**» رواه أبو داود، والترمذي[١]، وقال حديث حسن صحيح.

«**النَّواجِذُ**» بالذال المعجمة: الأَنْيَابُ، وقيلَ: الأَضْرَاسُ[٢].

ترجمة الراوي:

العرياض بن سارية: هو العرباض بن سارية السُّلمي كنيته: أبو نَجيح. كان من السباقين إلى الإسلام، أسلم هو وسبعة من بني سليم هو أكبرهم فبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم.

كان فقيرًا، فعاش مع أهل الصفة بالمسجد، حتى إذا جاءت غزوة تبوك والمسلمون في شدة وحاجة. جاء هو وجماعة من الصحابة الفقراء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليجهزهم للغزو، فاعتذر لهم النبي صلى الله عليه وسلم عن عدم تمكنه من ذلك، فبكوا بكاءً شديدًا لأنهم سيحرمون من الجهاد في سبيل الله، فسمُّوا البكائين. وفيهم نزل قوله تعالى[٣] ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦). صحّحه ابن حبان (الإحسان ٥)، وقال الحاكم (٩٥/١): هذا حديث صحيحٌ ليس له علة. وقال ابن كثير في تحفة الطالب (٤٦): وصحّحه أيضًا أبو نعيم الإصبهاني، وقال الأنصاري في ذم الكلام (١٢٢/٣): هذا من أجود حديث في أهل الشام وأحسنه. ونقل أيضًا عن أبي العباس الداغولي أنه قال: حديث العرباض هذا صحيح. أورده المنذري في ترغيبه (٥٨). وسيكرره المؤلف برقم (٧٠٢).

(٢) بنصه في الترغيب والترهيب، المنذري (٩٥/١).

(٣) انظر: الدر المنثور (٤٨٧/٧) وفي خصوص العرباض بن سارية صحّ أنه نزل فيه ذلك وهذا في أول الحديث المذكور له في الرياض، وقد أورد النووي قول النبي صلى الله عليه وسلم فقط.

ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾[١].

وكان يخشى على نفسه الرياء فكان يقول: لولا أن يقول الناس فعل أبو نجيح فعل أبو نجيح يعني نفسه.

وكان مجاهرًا بالحق لا يخشى أحدًا، أعطى معاوية بن أبي سفيان المقداد حمارًا من المغانم فقال له العرياض: ما كان لك أن تأخذه، ولا أن يعطيك، كأني بك في النار تحمله. فرده المقداد، نزل الشام وسكن حمص وتوفي سنة ٧٥هـ وقيل قبل ذلك[٢].

غريب الألفاظ:

وجلت: الوجل: الفزع[٣].

ذرفت منها العيون: ذرفت العين تَذْرِف: إذا جرى دمعها[٤].

تأمَّر عليكم: أي صار أميرًا عليكم[٥].

النواجذ: بالذال المعجمة: الأنياب وقيل الأضراس[٦].

عضوا عليها بالنواجذ: هذا مثل في شدة الاستمساك بأمر الدين؛ لأن العض بالنواجذ عضٌّ بجميع الفمّ والأسنان[٧].

---

(١) سورة التوب، آية: ٩٢.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٧٦/٤) (٤١٢/٧) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٩٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٩/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٠٢، والسير (٤١٩/٣)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (١٥٠/٥)، والتهذيب (٨٩/٣) وموسوعة عظماء حول الرسول (١٣٣٨/٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ج ل).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ذ ر ف).

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٠٣٥.

(٦) رياض الصالحين ١١٣.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ض ض). وانظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٠٣٦.

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي هو في القمة من البلاغة العربية، وهو الأنموذج المتكامل الفريد للبيان العربي الدال المفيد لأنه من توفيق الله وهدايته، وتوجيهه ورعايته، ويتصل سموق هذا البيان بأسباب تكوينه ونشأته ﷺ فقد نشأ وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقًا، وأعذبها بيانًا، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في بني سعد بن بكر، ومتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو ، وهم الأوس والخرزج من الأنصار، وهذه النشأة الإنسانية الصحيحة التي صاحبت المصطفى ﷺ في جميع أطوار حياته بفضل توفيق الله ورعايته صبغت أحاديثه وبيانه الكريم بصفات كريمة، ودقائق نفيسة.

وفي ضوء هذه الخصائص الفنية والجماليات الأسلوبية التي يتسم بها البيان النبوي الكريم، يبدأ العرباض بن سارية هذا الحديث الشريف بالإشادة بموعظة رسول الله ﷺ: ويصفها بأنها موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، ويقول ابن رجب الحنبلي: البلاغة في الموعظة مستحسنة، لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها، والبلاغة هى: التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة، واتصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأحلاها لذي أسماع، وأوقعها في القلوب وكان النبي ﷺ يقصر الخطبة ولا يطيلها بل كان يبلغ ويوجز(١).

ومنبع البلاغة في هذا الحديث الشريف يتمثل في حسن اختيار الكلمات، ودقة انتقاء الأساليب وتنوعها، والحوار المفيد بين النبي وأصحابه، والصدق في النصيحة، والدعوة إلى العمل الصالح بالحكمة والموعظة الحسنة، وأول شعاع من أشعة هذه البلاغة النبوية هو "الأسلوب الجَمْعي" في الوعظ والخطاب بصفة عامة فلم يقل العرباض "وعظني رسول الله"، ولكنْ قال: "وعظنا"، لأن النبي ﷺ أرسل إلى الناس كافة.

والسياق هنا يقتضي الموعظة الجماعية: لأنه يوصي أصحابه وكل المسلمين بعد

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/١١١.

ذلك في كل زمان وكل مكان.

والتنوين في "موعظة" مع مجيئها في صيغة النكرة، للتعْظيم والتعميم فهي موعظة جليلة عامة شاملة ووصفها بأنها بليغة لا يتعلق بالبلاغة الأسلوبية فقط، ولكنها بما تضمنته من إرشادات ونصائح وتوجيهات قد وصلت إلى القلوب والأسماع، وبلغت المراد، وأتت بالثمرة: لأن البلاغة من التبليغ والإبلاغ.

وبلاغة الأداء الصوتي، وتمثل المعنى، وقوة التأثير من خصائص بيانه الكريم في أحاديثه وخطبه ووصاياه ومواعظه، فقد كان النبي ﷺ يتغير حاله عند الموعظة كما قال جابر، كان النبي ﷺ إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه، وعلا صوته، واحمّرت عيناه كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم[1].

ومن مظاهر بلاغة الأسلوب "التقديم والتأخير" في قوله: "وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون"، لأن العيون لا تبكي ولا تذرف الدمع من خشية الله إلا إذا وجلت القلوب، واستشعرت ثقل الذنوب، واشتاقت إلى عفو ورحمة علام الغيوب.

وفي قوله: "كأنها موعظة مودّع فأوصنا، دلالة على أنه ﷺ قد أبلغ في تلك الموعظة ما لم يبلغ في غيرها، فلذلك فهموا أنها موعظة مودّع، فإن المودِّع يستقصي ما لم يستقص غيره في القول والفعل. والتشبيه هنا متماثل بين طرفي التشبيه فهو تشبيه المعنوي بالمعنوي، أو تشبيه حالة رسول الله في موعظته البليغة المستقصية بحال من يودع أبناءه، ويوصيهم بما ينفعهم، وبما يحفظ عليهم أنفسهم وأموالهم.

والأمر في قول الصحابة، "فأوصنا" ليس على حقيقته، ولكنه التماس، لأن الأمر الحقيقي يكون من الأعلى للأدنى، أما إذا كان من الأدنى للأعلى فهو دعاء، مثلما نقول في دعائنا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا.

وإذا كان بين متساويين فهو التماس ورجاء، ورسول الله مثلنا في البشرية ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[2] وجاءت وصيته ﷺ بمنأى عن أسلوب الأمر إلا

---

(١) أخرجه مسلم ٨٦٧.

(٢) سورة الكهف، آية: ١١٠.

في وصيته بضرورة التمسك بالسنة، فقال: "عضوا عليها بالنواجذ".

وأول بنود هذه الوصية هو "تقوى الله" وهى وصية جامعة مانعة ، تفصح عن قيمة الإيجاز في الحديث النبوي، فقد جمع النبي ﷺ، في هذا كل ما يحتاج إليه من أمور الآخرة: لأن التقوى امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وتكاليف الشرع لا تخرج عن ذلك.

والبنْد الثاني من هذه الوصية: هو "السمع والطاعة"، لولي الأمر حتى وإن كان عبْدًا حبشيًا؛ وقيل إن هذا من عطف الخاص على العام لأن من مظاهر التقوى: "السمع والطاعة"، وقيل يحتمل أنه من عطف المغاير من حيث إن أظهر مقاصد التقوى انتظام الأمور الأخروية، والإمامة التي تستوجب السمع والطاعة، أظهر مقاصدها انتظام الأمور الدنيوية، ويقول ابن رجب الحنبلي: (فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة، أما التقوى فهي كافلة سعادة الدنيا والآخرة لمن تمسك بها، وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم، وطاعة ربهم)(١).

ويُطلع الرسول أصحابه على حقائق ستقع في المستقبل، ومنها الاختلاف الكثير، وتشعبُ المذاهب والفرق، وكثرة التأويل وانتشار البدع والخرافات، ويقول العلماء في هذا التوجيه والتحذير أن من معجزاته ﷺ إخباره بما يقع بعده من كثرة الاختلاف وغلبة المنكر، وهذا الإنباء عن وقوع الاختلاف الكثير في جميع الأمور الدينية والدنيوية، قدّمه رسول الله ﷺ في صيغة التأكيد، وفي إيجاز شديد دالّ مفيد، وقوله: "فسيرى اختلافًا كثيرًا"، يشمل كل أوجه الاختلافات التي نشأت بين المسلمين في جميع المجالات السياسية والعقدية والاجتماعية، والعلمية، وغير ذلك.

وفي ختام الحديث: يقدِّم المصطفى ﷺ للمسلمين مفاتيح النجاة من فتن الخلافات، وظلمات الشبهات فيأمر المسلمين جميعًا بالتزام السنة النبوية، التي سار عليها الخلفاء الراشدون بعده، ؛ وهذا إعجاز آخر من معجزاته ﷺ لأنه أخبر عما

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٦/٢، ١١٧.

سيقع في المستقبل، وما أخبر به حدث، وسار الخلفاء الراشدون على نهجه وسنته، ثم انقلبت الأمور وصارت حكما عضوضًا، وفي قوله: "عضّوا عليها بالنواجذ"، فيه أمر بشدة التمسك بالسنة كما يحرص الإنسان على طعامه، ويعض عليه بالنواجذ حتى يستسيغه ويهضمه فينفعه، وفيه تشبيه المعقول بالمحسوس،وإشارة إلى الفهم الصحيح للسنة ومدارستها دراسة جيدة حتى تصبح مستساغة كالطعام المهضوم النافع، ويحذر الرسول من البدع والأهواء وتشويه المعالم الدينية المستمدة من الكتاب والسنة ووصف "البدعة بأنها ضلالة"، وهذا قول موجز يشمل كل أنواع البدع المذمومة التي ليس لها أصل في الشريعة، والله الموفق.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم طاعة الإمام، وقد سبق الكلام عنه في الحديث رقم (٥١).

الثاني: المقصود بالبدعة والسنة وحكمهما، وقد اختلف الفقهاء[1] في مفهومهم للبدعة، فمنهم من وسع في مدلولها حتى أطلقها على كل مستحدث من الأشياء لم يوجد في الكتاب والسنة سواء أكان محمودًا أم مذمومًا، وسواء أكان في العبادات ومن هؤلاء الشافعي والنووي والعز بن عبدالسلام، والقرافي والزرقاني من المالكية، وابن عابدين من الحنفية، وابن الجوزي من الحنابلة، وابن حزم الظاهري، وهي تنقسم عندهم إلى أقسام عدة، فمن البدع الواجبة الاشتغال بمثل علم النحو، ومن البدع المحرمة مذهب المرجئة والقدرية والجبرية والخوارج، ومن البدع المندوبة صلاة التراويح

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: بريقة محمودية للخادمي ٨٧/١ وما بعدها، وأنوار البروق، القرافي ٢١٧/٤ وما بعدها، وحاشية العدوي على الخرشي ١٢٦/١، والمدخل ١٦٠/١، ٢٥٩/٤، ٢٧٧، والفروع، ابن مفلح ١٦١/٦ وما بعدها، ٥٦٧/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٢٢٣/١٠ وما بعدها، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام ٢٠٤/٢ وما بعدها، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤٢/٢، ٢٢/٣، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٤٠٢/١ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١/٨ وما بعدها.

في المساجد، وبناء القناطر والمدارس وغيرها، ومن البدع المكروهة زخرفة المساجد وتزيين المصاحف، ومن البدع المباحة المصافحة عقب الصلاة والتوسع في المباح من المأكل والمشرب والملبس[١].

ومنهم من ذم البدعة مطلقًا سواء أكانت في العبادات أم العادات، وقرروا أن البدع كلها ضلالات، ومن هؤلاء مالك والشاطبي والطرطوشي، والإمام الشمني والعيني من الحنفية، والبيهقي وابن حجر العسقلاني وابن حجر الهيتمي من الشافعية، وابن رجب الحنبلي وابن تيمية من الحنابلة.

وقد اتفق الفقهاء على أن البدعة في العقيدة محرمة، وقد تصل إلى درجة الكفر متى خالفت معلومًا من الدين بالضرورة.

أما البدعة في العبادات فقد تكون محرمة، كبدعة الصيام في الشمس، والخصاء للانقطاع للعبادة، وقد تكون مكروهة كالاجتماع عشية عرفات للدعاء لغير الحجيج، وزخرفة المساجد[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الوعظ، والوصية، والأمر، والتحذير، والتوكيد.

ثانيًا: من آداب المدعو: حضور الذهن وإعمال العقل والتفاعل مع الداعية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التقوى.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية السمع والطاعة.

خامسًا: من دلائل نبوته ﷺ: الإخبار بوقوع الاختلاف الكثير.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التمسك بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين المهديين.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من محدثات الأمور والبدع.

ثامنًا: من صفات الداعية: الحرص على هداية الناس.

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٨/٢١ وما بعدها.

(٢) المراجع السابقة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الوعظ، والوصية، والأمر، والتحذير، والتوكيد:

أ- الوعظ: ويؤخذ ذلك من قول العرباض بن سارية: "وعظنا رسول الله ﷺ موعظة"وقوله: "كأنها موعظة مودع"، والموعظة من أهم الوسائل الدعوية وقد أمر الله بها فقال: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[1]، وشرط أن تكون حسنة: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]، والموعظة الحسنة هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب[3].

ب- الوصية: ويؤخذ ذلك من قول الصحابة رضي الله عنهم "فأوصنا" وقوله ﷺ: ((أوصيكم)) فنجد أن الصحابة رضي الله عنهم حرصوا على وصية رسول الله ﷺ لهم وأجاب النبي ﷺ مطلبهم فأوصاهم بأن يستمسكوا بما ينفعهم ويعصمهم من الزلل والردى.

ج- الأمر: في قوله ﷺ: "عليكم بسنتي".

د- التحذير: في قوله ﷺ -محذرًا من الإحداث في الدين-: "وإياكم ومحدثات الأمور".

هـ- التوكيد: ويظهر ذلك في توكيد كلامه ﷺ ليأخذ مكانه في القلوب في قوله: "وأنه من يعش" و"فإن كل بدعة ضلالة". ولا شك أن هذا التوكيد يعمل على إقرار وترسيخ ما تم التوكيد عليه فيما يتعلق بالاختلاف الكثير الذي سيراه من يعش بعد النبي ﷺ، وما يتعلق بشأن البدع وأنها ضرب من ضروب الضلال والزيغ، مما يستلزم اجتنابها وعدم إتيانها.

ثانيًا- من آداب المدعو: حضور الذهن وإعمال العقل والتفاعل من الداعية:

يظهر ذلك في اندماج الصحابة رضي الله عنهم مع كلام رسول الله ﷺ وتأثيره فيهم في قوله: ((ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب))، وهذان الوصفان بهما مدح الله

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٣.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٣) بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية ٦٥/٢.

المؤمنين عند سماع الذكر[١]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢].

أما حضور البديهة فيستنبط من قوله: "كأنها موعظة مودع فأوصنا"، يدل على أنه كان قد أبلغ في تلك الموعظة ما لم يبلغ في غيرها، فلذلك فهموا أنها موعظة مودع، ولربما كان قد وقع منه ﷺ - تعريض في تلك الخطبة بالتوديع[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التقوى:

لقد أمرنا الله بتقواه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[٤]، وبين المراد بهذه الآية بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[٥]، فتقوى الله خشيته ظاهرًا وباطنًا والعمل بموجبها[٦].

ومن ثمرات التقوى ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٧].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: "يجعل له مخرجًا": ينجيّه من كل كرب في الدينا والآخرة، وقال عمر بن عثمان الصدفي: "ومن يتق الله فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه، يخرجه من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة (ويرزقه من حيث لا يحتسب)، من حيث لا يرجو[٨]، ومن ثمرات التقوى أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٢/٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١٤/٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٥) سورة التغابن، آية: ١٦.

(٦) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي ١٦٨/٤/٢.

(٧) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ - ٣.

(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٩/١٨/٩ - ١٦٠.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾[١]، مخرجًا في الدنيا والآخرة، ويكفر عنكم سيئاتكم: يمحوها، ويغفر لكم: يسترها عن الناس[٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورًا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٣].

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية السمع والطاعة:

قد أمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة في الحديث "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي"، أي: وإن كان المؤمر عليكم عبدًا حبشيًا فلا تستنكفوا عن طاعته، فأطيعوه مخافة إثارة الفتن[٤]، فالسمع والطاعة لولاة الأمر انتظام لمصالح العباد في الدنيا وإظهار لدين الله تبارك وتعالى.

خامسًا- من دلائل نبوته ﷺ: الإخبار بوقوع الاختلاف الكثير:

فقال ﷺ: "وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا"، قال ابن رجب الحنبلي: "وهذا إخبار منه ﷺ بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه وفي الأقوال والأعمال والاعتقادات". وذلك يعد من دلائل نبوته ﷺ[٥].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التمسك بالكتاب وسنة الخلفاء الراشدين المهديين:

لقد كان الرسول ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة، وقبيل وفاته بعد صلاة الصبح وعظ أصحابه رضي الله عنهم موعظة بليغة مؤثرة اضطربت لها القلوب ودمعت من قوة تأثيرها العيون، وأحس الصحابة بأن الرسول ﷺ أطال فيها وعمم وأرشد إلى أكثر الأمور كأنه يودعهم ويوشك أن يفارقهم.. ولعلهم لمحوا ذلك من ثنايا كلامه فطلبوا وصية

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٢/٤ - ٤٣.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٨.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، الفيروز آبادي، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٠٣٥/٢.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٢٠/٢.

جامعة، فأوصاهم بالتزام التقوى في كل قول وفعل، والسمع والطاعة للأمراء ما دام ذلك في طاعة الله تعالى، وحذرهم من التنافس على الإمارة، لئلا تضيع الأمة بين الفتن والدسائس والحروب زمن الاختلاف وكثرته في الآراء والمفاهيم وفي الأفعال والتصرفات، وبيّن لهم أن سبيل النجاة من ذلك كله اتباع السنة من أقواله وأفعاله وتقريراته وعزائمه وصفاته الخَلْقية والخُلقية وكذلك سنة الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ - قيل: وعمر بن عبدالعزيز- حيث استمر عصر الصحابة أفضل العصور إلى آخر عهد علي ﷺ. هذه السُنة هي طريق الخلاص الوحيد، على الإنسان أن يحافظ عليها بأقصى ما يستطيع كما يفعل من أمسك بنواجذه -أضراسه- شيئًا وعض عليه لئلا ينزع منه)[1].

ونهى عن الافتراق والاختلاف وأمر بالتمسك بسنته ﷺ وأصحابه)[2]، فقال: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين"، أي: التزموا بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي، فالإضافة إليهم إما لعملهم بها أو لاستنباطهم واختيارهم إياها[3].

وحث على شدة التمسك بها بقوله: "عضوا عليها بالنواجذ"، والنواجذ جمع ناجذة أي الضرس، وقيل: هو مرادف السن، وهذا الأمر كناية عن شدة ملازمة السنة والتمسك بها، وقال الخطابي: (وقد يكون معناه أيضًا الأمر بالصبر على ما يصيبه من المضض في ذات الله كما يفعله المتألم بالوجع يصيبه)[4].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من محدثات الأمور والبدع:

لقد أمرنا النبي ﷺ بالالتزام بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحذرنا من محدثات الأمور والبدع، من ذلك ما جاء في الحديث: ((إياكم ومحدثات الأمور فإن كل

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٣٨.

(٢) انظر: المرجع السابق ٢/١٢٠.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، الفيروز آبادي، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٠٣٥.

(٤) انظر: عون المعبود، المباركفوري ص ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦.

بدعة ضلالة))، والمحدثات جمع محدثة، والمراد بها البدع والضلالات من الأفعال والأقوال، يعني كل خصلة أتى بها جديدًا فهي مخالفة للسنة وكل مخالفة للسنة ضلالة[1]، وقال مالك: قال عمر بن عبدالعزيز: "سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمرٍ خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا"[2].

ثامنًا- من صفات الداعية: الحرص على هداية الناس:

وصف الله عز وجل الداعي الأول رسول الله ﷺ بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[3]، ويظهر ذلك واضحًا جليًا في الحديث وكيف أن الرسول ﷺ رسم للأمة سبل النجاة انطلاقًا من حرصه عليهم فأمرهم باتباع السنة، "فعليكم بسنتي"، والبعد عن البدع "وإياكم ومحدثات الأمور"، وأمرهم بالسمع والطاعة "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة" فينبغي على الداعي أن تتضاعف اهتماماته بالناس، وأن يواليهم بالنصح والإرشاد قاصدًا نجاتهم وسعادتهم، محاولاً دائمًا بيان مصلحتهم، فرسول الله ﷺ في موالاته النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ترك للمسلمين وللدعاة خاصة ثروة طائلة تمدهم بالدين كله[4].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٩٦/١.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٢٣/٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٤) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

الحديث رقم (١٥٨)

١٥٨- الثَّالِثُ: عَنْ أَبِي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبى». قِيلَ: وَمَنْ يَأَبى يا رسول الله؟ قالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجنَّةَ، ومَنْ عصَانِي فَقَدْ أَبي**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن ألفاظ النبوة منبعها القلب المتصل بجلال الخالق، فهي لا تصدر إلا عن صدق ويقين، لا يشوبها زيف، ولا يكدرها رياء، فهي صورة سوية لنفس صاحبها ﷺ.

والمعاني التي صورتها هذه الألفاظ مستمدة من البيان القرآني العظيم، فكل ما جاء به المصطفى ﷺ لا ينفصل عن الجو القرآني، ولا يتصادم معه لأن البيان النبوي إما أن يفصل ما أجمله القرآن أو يوضح مشكلاً، أو يخصص عامًا، أو يقيد مطلقًا.

فالبلاغة النبوية: إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، كما يقول الرافعي.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجد أن المبني يتوهج بالمعنى، وأن صياغة الأسلوب، ونظم التراكيب، والعلاقات بين الكلمات والجمل، كلها تشارك في تقديم المعنى وإفهامه للناس: مع الإيجاز... والإيحاء، والبعد عن الإسهاب والإطناب.

والحديث من مقاصده الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها، والالتزام بما جاء به رسول الله من أفعال وأقوال، ولكن لم يأت التوجيه مباشرًا صريحًا مثلما جاء في أحاديث ووصايا سابقة، وجاء الحث على التمسك بالسنة في قالب حواري ترغيبي: حيث

---

(١) برقم (٧٢٨٠).

تضمنت الجملة الأولى وعدًا صادقًا من الرسول ﷺ، بأن كل أمته يدخلون الجنة، ولفظ "كل" يفيد العموم والشمول، وبه يبتدئ الكلام في هذا السياق، ولا يتم إلا بالخبر الذي يحدد مصير الأمة كلها وهو البشارة بدخول الجنة، "يدخلون الجنة".

وإضافة "أمة" إلى ياء المتكلم : أي إلى رسول الله ﷺ: تشريف لهذه الأمة بانتسابها إلى خاتم النبيين والمرسلين، وفيها إرشاد إلى أنه لا يستحق هذا التشريف إلا من يحافظ على السنة وآدابها: فأمته، خير أمة أخرجت للناس، والانتساب هنا في دائرة الطاعة، فهم بمقدار ما يطيعون الله ورسوله بمقدار ما يكون انتماؤهم إلى رسول الله ﷺ، ويأتي الاستثناء في قوله: "إلا من أبى" مُفصحًا عن هذه الحقيقة، حتى لا يتوهم المقصرون والعاصون أنهم من أصحاب هذا الوعد، فالانتماء لهذه الأمة ليس جغرافيًا، ولا زمنيًا، ولا عشائريًا، ولا قبليًا، وإنما الانتماء بالإيمان والطاعة.

والإيجاز هنا في قوله: إلا من أبى: أي امتنع: والتقدير، فهو يدخل النار، وأبي في اللغة يدل على الامتناع والكراهية، وينشأ حوار وتساؤل: عن معيار، "الإباء" في هذا السياق، "قيل: ومن يأبى يارسول الله"، وبناء الفعل للمجهول في قيل، يفصح عن أن المراد ليس تحديد السائل، ولكن تحديد معالم هذه القضية لأن الفعل "يأبى" متسع الدلالة متشعب المفهوم، والاستفهام هنا حقيقي "ومن يأبى"، والنداء فيه تأدب مع رسول الله وحرص على التعلم ومعرفة الحقيقة، وهنا في هذا الفعل "يأبى" وضع للسبب موضع المسبب ، لأنه أطلق لفظ الإباء وأراد استحقاقه للنار.

وجاءت إجابة الرسول جامعة مانعة موجزة، وصاغها في أسلوب الشرط والجزاء، "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى"، فالصياغة اللغوية ملائمة للسياق، والموقف الشرعي من هذا المسلك الذي استحق صاحبه عليه الطرد من رحمة الله عز وجل، ومما يدل على ضرورة التمسك بالسنة إسناد الطاعة إلى ياء المتكلم وهو رسول الله ﷺ، وكذلك المعصية في قوله: من أطاعني، ومن عصاني، فطاعته هى الالتزام بالكتاب والسنة، وعصيانه عدم المحافظة على تعاليم الكتاب وتعاليم السنة النبوية.

ولم يصرّح الرسول بقوله: فقد دخل النار، نفورًا من ذكر النار، واحتراسًا من

تحديد المصير، وفتحًا لباب الأمل والتوبة أمام هؤلاء الذين فرّطوا في تعاليم الكتاب والسنة: فقد يتوبون، ويعودون إلى دوحة الإيمان، ويفوزون برضا الرحيم الرحمان.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التعميم والاستثناء.

ثانيًا: من واجبات الداعي: دلالة المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من أساليب الدعوة: وضوح الألفاظ.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: بيان جزاء الطائعين وعاقبة المخالفين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التعميم والاستثناء:

وذلك في قوله ﷺ: "كل أمتي يدخلون الجنة" وهذه الجملة تفيد العموم والشمول ثم استثنى منها العصاة والمعرضون عن طاعة الله ورسوله ﷺ فقال: "إلا من أبى" ثم وضح أسباب الجزاء والحرمان فقال: "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى".

ثانيًا- من واجبات الداعي: دلالة المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من الواجبات التي يضطلع بها الداعي: دعوة الناس إلى الخير وإلى كل ما هو نافع لهم في حالهم ومآلهم، وقد أخبر الله نبيه ﷺ الداعي الأول بأنه يهدي ويدل الناس على صراط الله المستقيم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[2]، والداعي إنما يدل الناس إلى الخير لأنه أخ لهم استظهر عليهم بالنصح والتوجيه[3].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥٢.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ - ١٦.

(٣) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤٧٧.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

يتضح ذلك من خلال سؤال الصحابة لرسول الله ﷺ بقولهم: ومن يأبى يا رسول الله؟ وإجابته بقوله: ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)) والسؤال والجواب من أساليب الدعوة الناجحة، وذلك لأنه يستدعي لفت انتباه السامعين وشد أذهانهم، وإن أسلوب السؤال ينمّ عن اهتمام المدعو بما يسمعه، ويدل على حرصه على الفهم والاستيعاب، وإن الجواب يؤدي إلى تعميق المعاني في الأذهان.

رابعًا- من أساليب الدعوة: وضوح الألفاظ:

إن وضوح الألفاظ مما يعين المدعو على الفهم، لأن الغموض في الألفاظ يؤدي إلى تعذر الفهم والمتابعة من المدعو للداعية؛ لذا كانت ألفاظه ﷺ واضحة لأنه ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، كان ﷺ قوله فصلاً يفهمه كل من يسمعه، مختارًا لأعذب الألفاظ وأقلها غرابة وأسهلها فهمًا متجنبًا للتعقيد اللفظي والمعنوي متجافيًا عن التكلف والتقعر في كلامه[1]، فكان ﷺ يكره التشدق والثرثرة والتفيهق في الكلام، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ، قال: ((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ))، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: ((الْمُتَكَبِّرُونَ))[2].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

لقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في الحديث فرغّب في طاعته بدخول الجنة، ورهب من عصيانه بالحرمان من دخولها، (والترغيب والترهيب يكونان بما أعده الله لعباده في الدنيا والآخرة من الثواب والعقاب، ولا ريب أن أسلوب الترغيب والترهيب من أهم الأساليب الدعوية لأنه يخاطب النفس البشرية مباشرة فيدلف إلى داخلها، ويؤثر في

---

(١) دراسة دعوية لبعض خطب الرسول ﷺ، سيد محمد بن محمد الحسيني ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠١٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٩١).

مناحيها مرغبًا لها في فعل الخير محذرًا لها من فعل الشر مبينًا النتائج والآثار المترتبة على ذلك)[(١)].

(والترغيب ليس هو من أحلام اليقظة ولا من الوعود المعسولة وإنما هو تنشيط للهمم وتشجيع للطاعات وشحذ للعزائم، كما أن الترهيب ليس يأسًا أو قنوطًا أو رهبة تشل التفكير وإنما هو تحذير من الأخطاء ودلالة على الصواب)[(٢)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: بيان جزاء الطائعين وعاقبة المخالفين:

إن من أهم ما تتميز به الشريعة الإسلامية البيان والوضوح للأعمال والنتائج المترتبة عليها فمن أطاع الله فقد فاز ومن عصاه فقد خسر وعُرف مآله، ففي الحديث بيان جزاء الطاعة وهو دخول الجنة "كل أمتي يدخلون الجنة" وعقوبة المعرض "إلا من أبي" وبين الرسول ﷺ ذلك المعنى بقوله: "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى".

ومن تصفح القرآن والسنة يجد هذا المنهج واضحًا من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[(٤)].

---

(١) انظر: الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ١٤٢١هـ، ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) الدعوة إلى الله: "الرسالة، الوسيلة، الهدف"، د. توفيق الواعي ص ٢١٤.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٤) سورة الفتح، آية: ١٧.

الحديث رقم (١٥٩)

١٥٩- الرَّابعُ: عن أَبي مسلمٍ، وقيلَ: أَبي إِيَاسٍ سلَمةَ بْنِ عَمْرو بن الأَكْوَعِ ﷺ، أَنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رسولِ اللَّه ﷺ بشِمَالِهِ، فقالَ: «كُلْ بيمِينكَ» قَالَ: لا أَسْتَطِيعُ. قالَ: «لا استطعَت» ما منعَهُ إلاَّ الْكِبْرُ، فَمَا رَفعَها إِلَى فِيهِ، رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

سلمة بن عمرو بن الأكوع: سلمة بن عمرو بن سنان بن عبدالله من بني عامر بن الأكوع يكنى بأبي مسلم، وقيل أبو إياس، وقيل أبو عامر.

كان من أشد الناس بأسًا وشجاعة وعدوًا فكان يسبق الفرس عَدْوًا، أول مشاهده الحديبية، وقيل إنه شهد مؤتة وغزا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات.

شهد بيعة الرضوان وبايع النبي ﷺ عند الشجرة على الموت ثلاث مرات في أول الناس وفي أوسطهم وفي آخرهم. وهو الذي أسر الثمانية الذين نزل فيهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾[٢] وهو ممن غزا إفريقية في أيام عثمان بن عفان ﷺ.

كما كان ﷺ محسنًا خيِّرًا وحظي بالقرب من رسول الله ﷺ، فكان ﷺ يقربه ويستغفر له، قال: ((أردفني رسول الله ﷺ مرارًا ومسح على وجهي مرارًا واستغفر لي ولذريتي عدد ما بيديّ من الأصابع[٣]، وأصيب يوم خيبر في ساقه فنفث فيه رسول الله ﷺ ثلاث نفثات فما اشتكى منها بعدها))[٤].

وكان من الذين عهد إليهم بالفتيا والتحديث بالمدينة منذ وفاة عثمان وحتى توفي سلمه ﷺ أما عن مسكنه فقد نزل بالمدينة ثم تحول إلى الرَّبَذة بعد قتل عثمان،

---

(١) برقم (٢٠٢١/١٠٧). وسيكرره المؤلف برقم (٦١٣، و ٧٤٠).

(٢) سورة الفتح، آية: ٢٤.

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي (٣٦٣/٩).

(٤) انظر مختصر تاريخ ابن عساكر (٨٣/١٠، ٨٩).

وتزوج بها وولد له، إلا أن الله شاء له أن يموت بالمدينة ويقبر فيها، فقبل أن يموت بليال نزل إلى المدينة فمات بها وكان ذلك سنة أربع وسبعين على أرجح الأقوال، وكان قد ابتلاه الله بكف البصر قبل أن يموت، فصبر واحتسب ذلك عند الله تبارك وتعالى، وكان عمره لما مات أربعًا وتسعين سنة، وقيل أربعًا وثمانين، وقيل ثمانين سنة[١].

الشرح الأدبي

إن سلوك المسلم يجب أن يظل في إطار المحافظة على السنة وآدابها، وسنة المصطفى ﷺ ليست أقوالاً فقط، ولكنها أقوال وأفعال: وهي تمثل في مجموعها منهجًا إسلاميًا محدد المعالم، ويجب أن يُقْتَدى به في كل أمور الحياة.

وفي ضوء هذا الحديث الشريف، نقتبس من السلوك النبوي الراشد درسًا في آداب الطعام والشراب وهو درس عملي واقعي، يرويه أبو إياس، سلمة بن عمرو بن الأكوع رضي الله عنه، حيث يحكي أن رجلاً أكل عند رسول الله بشماله، أي تناول طعامه بيده اليسرى وهذا مخالف لسنة الرسول وطريقته في تناول الطعام، وفي موقف آخر يعلمنا رسول الله ويعلم أبناءنا الطريقة الصحيحة في تناول الطعام، وذلك حين قال لعمر بن أبي سلمة حين كان غلامًا: وكانت يده تطيش في الصَّحْفة، قال في توجيه كريم، وأمر حليم: "يا غلام: سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك"[٢]، يقول: عمر بن أبي سلمة فما زالت تلك طعمتي بعد.

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤/٣٠٥-٣٠٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٠٥)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢/٥١٧، ٥١٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٥٢٥، ٥٢٦)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٣/٣٢٦-٣٣١)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٣/٢٥١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢/٧٤، ٧٥)، والسندي (٢٧/٢٠)، والأعلام (٣/١١٣)،و موسوعة عظماء حول الرسول (٢/٩٤٨-٩٥٢).

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢.

فما أجمل هذا النصح النبوي السديد، وما أجمل هذه الاستجابة الفورية من ذلك الغلام الطائع الرشيد، ولا غرو فهو ربيب رسول الله بعد أن تزوج أم المؤمنين، أم سلمة رضي الله عنها.

ولنقارنْ بين هذا الموقف الجميل، وموقف ذلك الرجل الذي تأبى وتكبّر، ورفض الاستجابة إلى توجيه الرسول الكريم، حينما قال له: "كل بيمينك"، فقال في أنفة وعناد: لا أستطيع، وهو غير صادق في ذلك؛ ومن آداب الأكل: البدء بالتسمية، والأكل مما يلي الإنسان، وتناول الطعام باليمين.

وهذا الرجل قيل إنه: يسر ابن راعي العير الأشجعى، وهو لم يدرك سر التوجيه النبوي، ولم يعرف الحكمة من ذلك، فاليمين في الغالب أقوى من الشمال وأمكن منها، وقيل لأنها مشتقة من اليمن بمعنى البركة، فهى وما نسب إليها وما اشتق منها محمود لغة وشرعًا ودينًا، وأما اليسرى فقد نهى الرسول عن تناول الأكل بها، لأن النجاسات تعلق بها، وتعالج بها.

والحديث في صياغته الأسلوبية يتسم بالحوار القصير الذي يصور الحدث خير تصوير، وينقله إلى المتلقي كأنه مشهد يتحرك أمام كل مستمع وقارئ.

وكما يقول العلماء: لكل فعل رد فعل مساوٍ له في الحركة مضاد له في الاتجاه، جاء رَدُ الفعل من الرسول قويًا ومناسبًا لحالة هذا الرجل الذي عانَدَ وتكبر، ولم يطع الأمر، وادّعى انه لا يستطيع أن يأكل بيمينه، ولأن الرسول ﷺ يدرك حقيقة موقفه، ويعرف أنه ليس لديه عذر يمنعه من الأكل باليمين، دعا عليه، قائلاً: لا استطعت، وهنا "مطابقة المقال لمقتضى الحال"، كما يقول علماء البلاغة حيث لا يجدي أي نصح مع هذا الرجل الذي تعمد مخالفة الحكم الشرعي بلا عُذر، وجُملة، "ما منعه إلا الكبر"، فيها تأييد لذلك الدعاء عليه: وقد صيغت في "أسلوب القصر" إيحاء بشدة تمسك الرجل بهذه الخصلة الذميمة، فلا يوجد مانع من عذْر أو قطع يد أو سَهْو أو جَهْل يمنع الرجل إلا كبره وعناده، ولذلك جاء دعاء الرسول عليه مناسبًا: وعبرة لغيْره: واستجاب الله لموقف نبيه ﷺ، وأيَّده بهذه المعجزة حيث أصيب الرجل بالعَجْز التام في يده اليُمْنى، وشُلَّت، وما وصلت إلى فيه بعد ذلك، فسبحان الله وتبارك اسمه:

أعزّ نبيّه، وشرح صدره، ورفع ذكْره، وحبّب للناس سُنَّته، وقوى حجته، وأجاب دعوته، وبلغ للعالمين رسالته.

فقه الحديث

١- جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر:

قال النووي: (فيه جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر)[1].

٢- استحباب تعليم آداب الأكل:

قال النووي: (وفيه استحباب تعليم الآكل آداب الأكل إذا خالفه، كما في حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما[2])[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان كرم الرسول ﷺ.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التيمن في الأكل.

رابعًا: من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ والعمل بسنته.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: ذم الكبر.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: استجابة دعوة النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان كرم الرسول ﷺ:

يظهر ذلك جليًا في قول الراوي: "إن رجلاً أكل عند النبي ﷺ"؛ فرسول الله ﷺ قد بلغ الغاية في الجود والكرم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان رسولُ اللّهِ ﷺ أَجْوَدَ الناسِ، وكانَ أجودَ ما يكونُ في رَمَضانَ حِينَ يلْقاهُ جبرِيلُ، وكانَ يلقاهُ في

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي مج٧/١٢/١٦٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢، ١٠٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٢/١٦٣.

كلَّ ليلةٍ مِنْ رَمضانَ فَيُدارِسُه القُرآنَ. فلَرَسولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ))[١]، وقد أمر نبيه بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[٢]، أي: أعط وتصدق وأكثر من ذلك ولا تمتن أي لا تعد ما أعطيته كثيرًا فتمسك عن الازدياد فيه أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت، فقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس وقد عرف بذلك حتى قبل الرسالة لأن الله قد هيأه لمكارم الأخلاق[٣].

والكرم لا يقتصر معناه عند مجرد الإنفاق بل لا بد من سخاوة نفس؛ فالكرم كما قال ابن مسكويه: "إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر الكثير النفع، وقيل هو إفادة ما ينبغي لا لغرض، فمن يهب المال لغرض جلبًا للنفع أو خلاصًا من الذم فليس بكريم فالكريم من يوصل النفع بلا عوض"[٤]، فالكرم من أهم صفات الداعية حيث يقرب القلوب النافرة ويمهد العقول للطاعة[٥]، لذا كان الكرم من أهم صفات الداعية -في حدود قدرته- لما له من عظيم الأثر على دعوته وتأليف القلوب وإقبالها عليه.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

لقد استعمل النبي ﷺ أسلوب الأمر في قوله ﷺ لذلك الرجل الذي أكل بشماله: (كل بيمينك) ويعد هذا الأسلوب من الأساليب الدعوية المهمة التي تشعر المدعو بأهمية ما يؤمر به.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التيمن في الأكل:

يظهر فضل التيمن وأهميته في أمر النبي ﷺ في أمره لذلك الرجل "كل بيمينك"،

---

(١) أخرجه البخاري ٦.

(٢) سورة المدثر، آية: ٦.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٩٨/٢٩/١٢.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٣٢١٤/٨.

(٥) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، الشيخ علي بن صالح المرشد ص ١٢٤.

والرسول ﷺ لا يأمر إلا بما هو خير وأفضل، والتيمن بمعنى الابتداء باليمين في الملبس والمطعم وغير ذلك والتيمن كما قال النووي: (قاعدة مستمرة في الشرع، وهي إنما من باب التكريم والتشريف، كلبس الثوب والسراويل والخف ودخول المسجد والسواك والاكتحال وتقليم الأظفار وقص الشارب وترجيل الشعر، وغير ذلك مما هو في معناه يستحب التيامن فيه، وذلك كله بكرامة اليمين وشرفها)[١].

ومن هذه الأمور التي يستحب فيها التيمن الأكل، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ . وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ. فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ))، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((إِنْ كَانَ رَسُولُ اللّهِ لَيُحِبُّ التَّيَمُّنَ فِي طُهُورِهِ إِذَا تَطَهَّرَ. وَفِي تَرَجُّلِهِ إِذَا تَرَجَّلَ. وَفِي انْتِعَالِهِ إِذَا انْتَعَلَ)) وفي رواية: ((كَانَ رَسُولُ اللّهِ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ. فِي نَعْلَيْهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطُهُورِهِ))[٢].

رابعًا- من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ والعمل بسنته:

إن من أوجب الواجبات التي تجب على المدعو السمع والطاعة لتوجيهات النبي ﷺ وقد أخطأ ذلك الرجل عندما تكبر على الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ في الحديث (كل بيمينك) وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاستجابة له سبحانه ولرسوله ﷺ فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٣]، أي: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول إذا دعاكم إلى ما يحيي دينكم ويعلمكم، وإلى ما يحيي به قلوبكم[٤]، وحذرنا الله من مخالفة رسول الله ﷺ فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥]، أي:

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٧٤، وانظر: موسوعة نضرة النعيم ١٤٢٢/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٨٠، ومسلم ٢٦٨ واللفظ له.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٨٩/٧/٤.

(٥) سورة النور، آية: ٦٣.

ليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطنًا أو ظاهرًا أن تصيبهم فتنة في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم عذاب أليم أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك[١].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: ذم الكبر:

إن الكبر خلق مذموم ومآله غير محمود، وفي الحديث رأينا كيف أن الكبر منع الرجل من الأكل بيمينه استجابة لأمر رسول الله ﷺ فدعا عليه الرسول ﷺ واستجيبت دعوته، فما رفع يده إلى فمه مرة أخرى، إضافة إلى ما يئول الكبر بصاحبه إلى النار وبئس المصير، فعن حارث بن وهب أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟)) قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ((كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ. لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لأَبَرَّهُ)). ثُمَّ قَالَ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟)) قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ((كُلُّ عُتُلٍ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ))[٢]، قال الحافظ ابن حجر: (وأعظم الكبر أن يتكبر على ربه بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة)[٣].

(والكبر إذا استولى على الإنسان يمنعه من الإصغاء لنصح أو القبول لتأديب، لذا كان من الواجب على الداعي والمدعو على السواء الابتعاد عن الكبر والاتصاف بصفات عباد الله من التواضع وخفض الجناح ولين الجانب، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[٤])[٥].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: استجابة دعوة النبي ﷺ:

ففي الحديث أمر النبي ﷺ الرجل بأن يأكل بيمينه فامتنع تكبرًا وتعلل كذبًا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١٧، ومسلم ٢٨٥٣ واللفظ له.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/٤٨٩.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

(٥) انظر: أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي ص ٢٣١.

بقوله: "لا استطيع" فدعا عليه النبي ﷺ بدعوة من جنس كلامه قائلاً: "لا استطعت"، فاستجيبت دعوته ﷺ، وذلك من دلائل نبوته ﷺ وإكرام الله له، وقد ذكر الإمام البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) الكثير من النماذج التي دعا فيها الرسول ﷺ لأناس أو عليهم فاستجيبت دعوته ﷺ[1]، إذا علم ذلك فينبغي على الداعي والمدعو الالتزام المطلق بما ورد في سنة رسول الله ﷺ وليحذرا كل الحذر من التصرف في السنة بالزيادة أو النقصان، فقد دعا النبي ﷺ على من نحا هذا المنحى، ودعوته مستجابة كما رأينا في الحديث، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))[2]، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا - أي قاصدًا الكذب عليَّ لغرض من الأغراض لا أنه وقع فيه خطأ أو سهوًا - فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))[3]، أي: فليتخذ منزله منها.

---

(١) انظر: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر البيهقي ٨٣/٦ - ٢٥٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٤، وقال عنه الألباني: حديث حسن صحيح، (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٠، وقال عنه الألباني: حديث صحيح، بل متواتر، انظر: (صحيح سنن ابن ماجه، الروض النضير ٧٠٧، ٨٨٥، الصحيحة ١٣٨٣).

الحديث رقم (١٦٠)

١٦٠- الْخَامِسُ: عنْ أَبِي عبدِ اللَّه النُّعْمَانِ بْنِ بَشيرٍ رضي الله عنهما، قَالَ: سمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّه بَيْنَ وُجُوهِكِمْ**» متفقٌ عليه[1].

وفي روايةٍ لِمُسلمٍ[2]: كان رسولُ اللَّه ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا، حَتَّى كأَنَّمَا يُسَوي بِهَا الْقِدَاحَ، حَتَّى (إِذَا)[3] رأَى أَنَّا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ ثُمَّ خَرَجَ يومًا، فقامَ حتَّى كَادَ أَنْ[4] يكبِّرَ، فَرأَى رجُلا بادِيًا صدْرُهُ[5]، فقَالَ: «**عِبادَ اللَّه لَتُسوُّنَّ صُفوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّه بيْنَ وُجُوهِكُمْ**».

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي. له ولأبيه صحبة، وخاله عبدالله بن رواحة.

وهو أول مولود ولد للأنصار بعد هجرة النبي ﷺ، ولد على رأس أربعة عشر شهرًا من قدوم رسول الله ﷺ المدينة، لذا كان من صغار الصحابة.

سكن العراق والشام. وكان من أمراء معاوية بن أبي سفيان فولاه الكوفة مدة ثم ولي قضاء دمشق ثم ولي إمرة حمص.

كان مشهورًا بالفصاحة والبلاغة والخطابة، قال سماك بن حرب: كان النعمان بن بشير -والله- من أخطب من سمعت من أهل الدنيا يتكلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٧)، ومسلم (٤٣٦/١٢٧) ولفظهما سواء. وسيكرره المصنف برقم ١٠٩١، أورده المنذري في ترغيبه (٧١٥).

(٢) برقم (٤٣٦/١٢٨). وسيكرره المصنف برقم ١٠٩١، أورده المنذري في ترغيبه (٧١٥).

(٣) (إذا) لا توجدُ عند مسلم.

(٤) (أن) لا توجدُ عند مسلم، وهي عند الحميدي في جمعه.

(٥) عند مسلم زيادة: (من الصف)، وهي لا توجد عند الحميدي (٥٠١/١، رقم ٨٠٨).

من كلامه: إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه: البَطرَ بأنعم الله والفخر بعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله.

قيل في مدحه:

فلم أر للحاجات عند انكماشها كنعمان -أعني ذا الندى- ابن بشير

يبلغ مسنده ١٢٤ حديثًا، ومات ٦٤هـ وقيل: ٦٥ وقيل: ٦٦.

وهو الذي تنسب إليه معرة النعمان بلد أبي العلاء الشاعر، كانت تعرف بالمعرة ومرّ بها النعمان فمات له ولد فدفنه فيها فنسبت إليه[١].

غريب الألفاظ:

كأنما يسوى بها القداح: القداح – بكسر القاف- هي خشب السهام حين تنحت وتبرى. واحدها: قدح بكسر القاف. معناه: يبالغ في تسويتها حتى تصير كأنما يقوّم بها السهام لشدة استوائها واعتدالها[٢].

عقلنا: فهمنا[٣].

باديًا: ظاهرًا[٤].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٥٣/٦) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٧٢٣ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣١٠/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٣٢٨. والسير ٤١١/٣، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٣٣٧/٧) والتهذيب (٢٢٨/٤) والأعلام (٣٦/٨)، وموسوعة عظماء حول الرسول (١٨٩٥/٣).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٦٨، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق د ح)، والمفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ٣٥٦.

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي في (ع ق ل).

(٤) الوسيط في (ب د و).

الشرح الأدبي

إن صلاة الجماعة مظهر من مظاهر وحدة الأمة وقوتها، وهي ترجمة حقيقية للمساواة بين أفراد الأمة، فالكل في موقف الخشوع والخضوع أمام الخالق عز وجل، قلوبهم تنبض بالإيمان، وألسنتهم تفيض بذكر الملك الديان، وجوارحهم تسكن في يقين واطمئنان. وهم في هذا الموقف الجليل متساوون، ومتراصّون: لا فرق بين صغير وكبير، ولا بين غني وفقير، ولا بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والإخلاص في العبادة، والمتقون المخلصون لهم الحسنى وزيادة.

ونقتبس من هذا الحديث الشريف كثيرًا من فيوضات المنهج الإسلامي في تربية المسلمين، وتثبيت قواعد الانضباط في نفوسهم حتى يصير هذا الانضباط مقياسًا لحياتهم... في كل شؤونها.

والصلاة هي ميزان ذلك الانضباط السلوكي، والتوازن الاجتماعي، والتآلف الوجداني، بين طوائف الأمة وأجيالها، والمسْجد هو المدرسة الجامعة التي تستقبل هذه الوفود، وتهيئهم لاستقبال أحداث حياتهم استقبالاً إيمانيًا منضبطًا يؤكد أن هذه الأمة في ظلال هذا الالتئام والانضباط، هي خير أمة أخرجت للناس.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي والتصويري في لغة هذا الحديث الشريف.

ويبدأ الحديث بقول رسول الله "لتسون صفوفكم"، وهذه البداية توحي بالأهمية، وبأن الأمر جد ويجب التنبُّه لذلك: لأن هذا التعبير تضمَّن القسم والأمر والتأكيد، فاللام هنا تشعر بالقسم، والقسم مقدر وتقدير الكلام "والله لتسون صفوفكم"، وحين يقسم رسول الله ويأمر ويؤكد، ويسوق الكلام في إيجاز فإن التنفيذ لابد أن يكون واجبًا، ولم يكتف رسول الله بذلك. بل أردف هذه الجملة ذات الدلالة المؤكدة بجملة أخرى تضمنت الوعيد الشديد، والعقاب الأليم، إذا لم يوحد المسلمون صفوفهم، وإذا لم يلتزموا بما أمر به رسول الله ﷺ فقال: "أو ليخالفن الله بين وجوهكم"، وهذا التعبير البلاغي يفيض بأوجه كثيرة من وجوه البلاغة ومنها، التوكيد، والقسم، وتعدد الدلالة تبعًا لتعدد تفسير وتوضيح المعنى في ضوء ما توحي به الصياغة اللغوية.

وأول سمة بلاغية هى الإيجاز. ففي الحديث بعض العبارات المحذوفة التي تفهم من السياق، وتقدير الكلام بعد الجملة الأولى وقبل قوله، "أو" أي ليكونن منكم التسوية أو ليخالفن الله بين وجوهكم، وبعد ذلك كلام محذوف يتم به المعنى ويُفهم من السياق أي إن لم تُسَوّوا، والبلاغة الإيجاز، والبيان النبوي هو الأنموذج الأمثل للبلاغة بعد القرآن الكريم.

وتتعدد دلالات هذا التعبير النبوي، "ليخالفن الله بين وجوهكم"، وقال العلماء إن الوجه إذا حمل على العضو المخصوص فالمخالفة حسيَّة، وهى تكون إما بحسب الصورة الإنسانية، أو جعل المقدم وراء، وإن حمل لفظ الوجه على ذات الشخص فالمخالفة بحسب المقاصد، ويحتمل هذا الوعيد النبوي دلالة أخرى وهى "أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب"، ويعضد هذا التفسير الدلالي رواية أخرى للحديث وهى: "ليخالفن الله بين قلوبكم"، وهناك دلالة أخرى حيث قال الحافظ: "ويحتمل أن يراد بالمخالفة في الجزاء، فيجازى المسوِّي بخير، ومن لا يسوِّي بشَرّ".

وتعدد الدلالات هنا ليس بينها تصادم، ولا تناقض.. وكلها تنبض بالمقصد الصحيح وتفصح عن قيمة البيان النبوي الذي يعد من خصوصية المصطفى ﷺ حيث يقول: "أعطيت جوامع الكلم"[1]، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

---

(١) أخرجه مسلم ٥٢٣.

فقه الحديث

إن صلاة المرء في جماعة تفضل صلاته منفردًا بسبع وعشرين درجة، وذلك لما فيها من إظهار شريعة الإسلام، وإعلاء لكلمة الله عز وجل، ومن أحكام صلاة الجماعة تسوية الصفوف بالنظر يمينًا، وإكمال الصف الأول فالأول، فإن كان هناك نقص فليكن في الأخير.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه إذا انعقدت صلاة الجماعة من عدد من الرجال والنساء، فالسنة أن يقف الإمام أمام المقتدين به، وأن ينبه الإمام على تسوية الصفوف قبل أداء الصلاة وبعد الإقامة، وأن يؤخر المتقدم من المصلين، وينبه الغافل عن التسوية، ويذكر بذلك بقوله أتموا الصفوف وساووا بينها وسدوا الفرج فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القسم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على تسوية الصفوف في الصلاة.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أثر الالتزام بالتوجيهات النبوية.

---

(١) انظر في ذلك: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ١/١٥٨ وما بعدها، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١/٣٧٢ وما بعدها، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ١/١٦٠، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي ١/٢٧٩، والأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره للشافعي ١/٢٣٣، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٢٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١/٢٢٨ وما بعدها، وإحكام الأحكام ١/٢١٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١/٢٧٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٥/٣٣١، والفروع، ابن مفلح ١/٤٠٨.

أولاً- من أساليب الدعوة: القسم:

جاء القسم في الحديث في قوله ﷺ "لتسونَّ صفوفكم" قال البيضاوي: (هذه اللام في "لتسون" هي التي يتلقى بها القسم، والقسم هنا مقدر ولهذا أكده بالنون المشددة)[١]. (والقسم كأسلوب للدعوة يؤدي إلى التأثير النفسي والعاطفي بواسطة المقسم به والمقسم عليه وبهما معًا، الأمر الذي يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ويؤمن بها)[٢]. وقد أحس العرب بأهداف القسم ومراميه فاستعملوه في كلامهم وجعلوه دليلاً على إثبات الحق، يقول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث ... يمين أو نفار أو جلاء[٣]

والنفار من معانيه: المحاكمة[٤]، والجلاء بمعنى وضوح البينة[٥].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على تسوية الصفوف في الصلاة:

جاء الحث على تسوية الصفوف في الصلاة في نصوص كثيرة منها الحديث الذي معنا، ومنها ما رواه أبو داود بسنده أن رسول الله ﷺ قال ((أقيموا الصفوف -أي عدلوها وسووها وتراصوا فيها[٦]- وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات للشيطان ومن وصل صفًا وصله الله ومن قطع صفًا قطعه الله))[٧] وبين ﷺ أن تسوية الصفوف في الصلاة موافقة لفعل الملائكة وتشبهًا بهم فجاء من حديث جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: ((ألا تصفُّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربها؟ فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال يتمون

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ابن حجر العسقلاني، ٢٤٢/٢.

(٢) الدعوة الإسلامية، أصولها ووسائلها، د. أحمد أحمد غلوش ص ٢٤٣.

(٣) مستلزمات الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ص ١٦٢.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٩٣١.

(٥) انظر: المرجع السابق ص ١٦٢.

(٦) عون المعبود، المباركفوري ص ٣٢١.

(٧) أخرجه أبي داود، ٦٦٦. وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود، ٦٢٠).

الصفوف الأول ويتراصون في الصف))[١].

وقد حرص النبي ﷺ على تسوية الصفوف بنفسه – لما لذلك من أهمية-بقوله وفعله، بقوله مثل أمره بإقامة الصفوف بقوله في الحديث ((لتسون صفوفكم)) وفي قوله ((استووا ولا تختلفوا))[٢] إلى غير ذلك من النصوص وبفعله كما في رواية الحديث الذي معنا ((كان رسول الله ﷺ يسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح حتى إذا رأى أنا قد عقلنا عنه)) وما روى عن أبي مسعود قال: ((كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا-أي يسوي مناكبنا في الصفوف ويعدلنا[٣]-في الصلاة))[٤] وذلك يحمل في طياته أهمية تسوية الصفوف، وعدم الاستهانة بها، ودعوة إلى عدم التفريط في شيء من الإسلام حتى ولو كان في أعين الناس هينًا.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

أسلوب الترهيب ظاهر في الحديث في قوله ﷺ "لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم" قال ابن حجر: (واختلف في الوعيد المذكور فقيل هو على حقيقته والمراد تحويل خلق الوجه عن وضعه بجعله موضع القفا أو نحو ذلك)[٥] وقال النووي: (والأظهر والله أعلم أن معناه يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب كما يقال: تغير وجه فلان عليَّ أي: ظهر لي من وجهه كراهة لي، وتغير قلبه عليّ، لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن)[٦]. قال ابن حجر: (وقال القرطبي: معناه تفترقون فيأخذ كل واحد وجهًا غير

---

(١) أخرجه مسلم، ٤٣٠.

(٢) أخرجه مسلم، ٤٣٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٣٦٦.

(٤) أخرجه مسلم، ٤٣٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٤٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٣٦٨.

الذي أخذ صاحبه، لأن تقدم الشخص على غيره مظنة الكبر المفسد للقلب الداعي إلى القطيعة. والحاصل أن المراد بالوجه إن حمل على العضو المخصوص فالمخالفة إما بحسب الصورة الإنسانية أو الصفة أو جعل القدام وراء، وإن حمل على ذات الشخص فالمخالفة بحسب المقاصد. أشار إلى ذلك الكرماني. ويحتمل أن يراد بالمخالفة في الجزاء فيجازى المسوي بخير ومن لا يسوى بشر)[١]. وذلك ترهيب من الاستهانة بالصفوف في الصلاة والاختلاف فيها، وذلك مما يدفع المصلين إلى مراعاة آداب الصلاة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أثر الالتزام بالتوجيهات النبوية:

إن الالتزام بالتوجيهات النبوية له فضل وثواب عظيم في الدنيا والآخرة، ذلك الاتحاد والبعد عن مظاهر الفرقة، إذ أن في تسوية الصفوف اتحاد وألفة وتواضع. قال ابن حجر: قال القرطبي: (لأن تقدم الشخص على غيره مظنة الكبر المفسد للقلب الداعي إلى القطيعة)[٢].

كذلك من الثمار تدريب وتعويد الإنسان على النظام في ميادين الحياة (وبناء الأمة وإعدادها للجهاد في سبيل الله فإن الذي يستوي في صفوف الصلاة من السهولة عليه بمكان التراص في صفوف الجهاد)[٣] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[٤] ملتصق بعض في بعض، وقال ابن عباس: مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض وقال قتادة: (ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فكذلك الله عز وجل يحب أن لا يختلف أمره، وإن الله صف المؤمنين في

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٢/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجسر العسقلاني ٢٤٣/٢.

(٣) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم الهلالي، ٢٤٢/١.

(٤) سورة الصف، آية: ٤.

قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به)[1]. لذا ينبغي على الداعي بيان تلك الآثار والثمار التي يجنيها الناس إذا التزموا بسنة رسول الله ﷺ، مما يكون له عظيم الأثر في الدعوة إلى الله عز وجل.

١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/١٠٨.

الحديث رقم (١٦١)

١٦١- السَّادِسُ: عن أَبِي موسى رضي الله عنه قال: احْتَرق بيْتٌ بالْمدِينَةِ عَلَى أَهلِهِ مِنَ اللَّيْل فَلَمَّا حُدِّث رسول اللَّه ﷺ بِشَأْنِهِمْ قال: «**إِنَّ هَذِهِ النَّار**[1] **عَدُوٌّ لكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ**» متَّفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

ابو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

إن المسلم يجب عليه أن يحافظ على ما أنعم الله به عليه مِنْ نعم لا تُعد ولا تُحصى، فعليه واجب شرعي بالحفاظ على النفس والمال والعرض والدين والأرض، والوطن وكل ما يجسد ملامح هويته، وأبعاد شخصيته.

وربما يتساءل بعض الناس: لماذا أدرج هذا الحديث في باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها، وذلك لأنه ربما يبدو .. بعيدًا عن ميدان السنة الذي ألفناه، ولكن حين نتأمل الموقف ندرك أن السنة النبوية تشمل كل ما يحفظ على المسلم حياته ودينه وعرضه.. وشخصيته، وكل ما يجعله عزيزًا في حياته، قويًا في وثباته، صارمًا في قراراته.

والحياة الاجتماعية في التصور الإسلامي حياة واقعية ولا تتصادم مع فطرة الإنسان الصحيحة التي فطر الله الناس عليها، ومن أهم المبادئ الإسلامية: عدم الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، واتخاذ الوسائل إلى الحفاظ على النفس، والأبناء، والمتاع والمسكن، والبيئة.

وفي ضوء هذا المنظور الإسلامي نقرأ هذا الحديث الشريف، ونستجلي أسراره، ونقطف أثماره، وندرك سر إدراجه في باب المحافظة على السُنَّة وآدابها.

---

(١) عندهما زيادة: (إنما) وهي لا توجد عند الحميدي.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩٤)، ومسلم (١٠١/٢٠١٦). وسيكرره المؤلف برقم (١٦٥٥).

والحديث ليس موعظة قولية، ولا حكمة إرشادية، ولكنه درس عملي، تمخضت عنه تجربة واقعية حيث أُخْبر رسول الله أن بيتًا احترق بالمدينة على أهله من الليل، ولم يحدد الراوي: من أهل البيت، ولم يحدد الشخص الذي أبلغ الرسول ﷺ؟ ولم يحدد: متى حدث هذا الاحتراق ؟ وفي أي مكان؟.

وذلك لأن القضية ليست متعلقة بأشخاص، أو مكان محدَّد، أو أمر شرعي يتعلق بالحدود والفرائض، ولكن القضية تتعلق بالمحافظة على الأنفس جميعها، وهي قضية ذات ملامح سلوكية اجتماعية تتكرر في كل زمان وكل مكان، وتتكرر وتتعدد ويتعدد الأشخاص والبيوت: في أي بيئة، وأي زمن، ولذلك يأتي البيان النبوي عامًا وشاملاً: حيث يخاطب الأمة كلها، ولم يخاطب أهل البيت ولا ذويهم ولا جيرانهم، ولكن أرسى قاعدة حياتية مصيرية حين قال: "إن هذه النار عدو لكم"، والتحسينات الأسلوبية تؤكد هذه العداوة: فالعبارة تبدأ "بإن" المؤكدة، ثم يجيء اسم الإشارة "هذه" قبل النار، لمزيد من التأكيد والتحديد، ومزيد من الانتباه والاستعداد لمقاومة هذا العدو، واتخاذ الوسائل والأسباب للنجاة منه، ولم يقل، "إن النار عدو لكم"، ولكن قال: "إن هذه النار"، أي جنس النار.

والنار تتعدد ألوانها وتتجدد صفاتها، وعلى المسلم أن يتقي هذه النار بكل وسائل النجاة والمقاومة.

ويضع الرسول ﷺ قاعدة النجاة من هذه النار المحسوسة التي تسبب الإيذاء والهلاك والاحتراق فيقول: "فإذا نمتم فأطفئوها عنكم"، وأسلوب الشرط هنا يفصح عن حقيقة ثابتة، حيث ينام الناس ولا يستطيعون أن لا يناموا: ولذلك جاء التعبير بأداة الشرط "إذا"، والأمر هنا للوجوب إذا كان الضرر متوقعًا كما حدث الاحتراق في بيت هؤلاء الذين لم يأخذوا بأسباب الوقاية.

وتصوير النار بأنها عدو: فيه تنبيه للمسلم بضرورة الحذر من النار الدنيوية، واتقاء نار الآخرة، التي لا تبقى ولا تذر، والتي صورها القرآن أبلغ تصوير في كثير من سور القرآن الكريم: كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا

وَزَفِيرًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٣].

فاللهم إني أسألك الجنة، وأستجير بك من النار، اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.... آمين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم ترك النار الموقدة في البيت، وقد ذكر الفقهاء أنه يسن لمن عنده نار موقدة في بيته أن يطفئها عند نومه لئلا يصيبه منها ضرر، فهذا الحديث يدل على شفقة النبي ﷺ ورحمته بأمته إذ يعلمهم ما ينفعهم ويبعد عنهم الضرر في معاشهم ومعادهم، ولذا فإن هذه السنة وهي إطفاء النار عند النوم من السنن التي ينبغي المحافظة عليها كما قال النووي، وهو عام يدخل فيه السراج وغيرها، وأما القناديل المعلقة فإن خيف بسببها حريق دخلت في ذلك، وإن حصل الأمن منها كما هو الغالب فلا بأس بها لانتفاء العلة، وقال القرطبي: جميع أوامر هذا الباب من باب الإرشاد إلى المصلحة، ويحتمل أن تكون للندب، ولا سيما في حق من يفعل ذلك بنية امتثال الأمر[٤].

وخالف ابن حزم[٥] في ذلك فجعل إطفاء النار عند النوم فرضًا أخذًا بظاهر الأمر أنه على الوجوب، والراجح ما ذهب إليه الجمهور، والله أعلم.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ١٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ٨١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٦/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي للنووي ١٢٧٩، وشرح الزرقاني على موطأ مالك ٣٨٢/٤، وعون المعبود، شمس الحق العظيم آبادي ١٠٨/١٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤٣٤/٥.

(٥) المحلى، ابن حزم ٥١٨/٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والأمر.

ثانيًا: من واجبات الداعي: تحذير المدعوين مما يضرهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من النوم مع عدم إطفاء النار.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأنفس والأموال.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والأمر:

استعمل النبي ﷺ أسلوب التوكيد في قوله "إن هذه النار عدو لكم" ليقع في نفس المدعو موقع القبول والاقتناع، والأمر في قوله "فإذا نمتم فأطفئوها" والأمر هنا للإرشاد وقد يكون للندب، وهذا الأمر فضلاً عن كونه إرشادًا لمصلحة دنيوية، فهو في نفس الوقت يفضي إلى مصلحة دينية، وهي حفظ النفس المحرم قتلها، والمال المحرم تبذيره[1]، وفي الحديث بيان من رسول الله ﷺ لسبب هذا الأمر بقوله: "إن هذه النار عدو لكم" وفي رواية أخرى: ((فإنَّ الفويسقةَ ربما جرَّتِ الفَتيلةَ فأحرقَتْ أهلَ البيت))[2]، وهذا مما ينبغي أن يحرص عليه الداعي من بيان للأسباب والملابسات والنتائج، مما يجعل المدعوين مقبلين على الدعوة.

ثانيًا- من واجبات الداعي: تحذير المدعوين مما يضرهم:

إن مما ينبغي أن يُعنى به الداعية تحذير المدعوين مما يضرهم، وله في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة الذي بلغ الغاية في الحرص على مصلحة المؤمنين والخوف عليهم وتحذيرهم من المضار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، فقوله" عزيز عليه ما عنتم" أي يعز عليه الشيء الذي يَعْنِتُ أمته ويشق عليها، وقوله: "حريص عليكم" أي على هدايتكم

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٩/١١.

(٢) أخرجه البخاري ٦٢٩٥.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم[١]، فهو يحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان ويكره لكم الشر ويسعى جهده في تنفيركم عنه[٢].

فإذا ما استشعر المدعوون حرص الداعي على مصلحتهم وخوفه عليهم مما يكره فإن ذلك يؤدي إلى اقبالهم بقلوبهم عليه وعلى الدعوة، ويكون باعثًا على استجابتهم له، مما يؤدي إلى النتائج الطيبة في مجال الدعوة إلى الله في نفوسهم، مما يكون له جميل الأثر على دعوته.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من النوم مع عدم إطفاء النار:

لقد أمر الرسول ﷺ بإطفاء النار عند النوم فقال: "فإذا نمتم فأطفئوها عنكم"، واستجابة لأمر الله عز وجل بأخذ الحذر وتوقي سبل التهلكة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[٣]، والحذر هو توقي المكروه[٤]، وفي هذا دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يتخذ الاحتياط في الأمور التي يخشى شرها، ومن ذلك الأمر بإطفاء النار عند النوم، فالنار كما قال ﷺ (عدو) وذلك إذا لم يحسن الإنسان ضبطها وقيدها، وإذا فرط فيها أو تعدى[٥]، ويقاس على ذلك في عصرنا الحديث أخذ الحذر والاحتياط من مصادر الطاقة كالبنزين والغاز والكهرباء وغيرها، فيجب الاحتراز من كل ما يخشى ضرره، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾[٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤١/٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٧١.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١١٧/٥/٢.

(٥) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٢٩٢/٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على الأنفس والأموال:

من أهم المقاصد التي من أجلها جاءت شريعة الإسلام الحفاظ على الكليات الخمس، ومنها: الحفاظ على الأنفس والأموال، فالأنفس "هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره"[١]، ولا للإنسان أن يفرط فيها أو يتساهل في وسائل وقايتها والحفاظ عليها، ولا غرو أن نجد رسول الله ﷺ في الحديث يأمر بإطفاء النار، (فإن نمتم فأطفئوها عنكم)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٢]، وفي نفس الوقت دعوة إلى حفظ الأموال من تطرق الهلاك والفساد إليها، ويؤخذ ذلك من الحديث: (احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل)، فالمال عصب الحياة وزينة الدنيا، وهو من أجل نعم الله على عباده، يصلح دينهم ودنياهم[٣]، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٤]، والمال من أهم الأسباب التي تعين الإنسان على إقامة شعائر الدين، وذلك من فضل الله، فعندما اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ أن الأغنياء شاركوهم أعمالهم وزادوا عليهم بالعبادات المالية، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ((ذَٰلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ))[٥].

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٨٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٣) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٦٣.

(٤) سورة الكهف، آية: ٤٦.

(٥) أخرجه مسلم ٥٩٥.

الحديث رقم (١٦٢)

١٦٢- السَّابِعُ: عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَل مَا بعَثني اللَّه بِهِ مِنَ الْهُدَى والْعلْمِ كَمَثَلَ غَيْثٍ أَصَاب أَرْضًا فكَانَتْ [١] طَائِفَةٌ طَيبَةٌ، قبِلَتِ الْمَاءَ فأَنْبَتَتِ الْكلأَ والْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمسكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّه بها النَّاس، فَشَرِبُوا مِنْهَا وسَقَوْا وَزَرَعوا. وأَصَابَ [٢] طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فقُهَ فِي دِينَ اللَّه، وَنَفَعَه ما بعَثَنِي اللَّه به، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، وَمثلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلِكَ رَأْسًا وِلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ» متفقٌ عليه [٣].

«فقُهَ» بِضم الْقَافِ عَلَى الْمَشْهُورِ، وقيلَ: بكَسْرِهَا، أَيْ: صارَ فَقِيهًا.

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

غيث: الغيث: المطر[٤].

طائفة: الطائفة: القطعة من الشيء[٥].

الكلأ: العشب: رطبه ويابسه[٦].

العشب: الكلأ الرطب. ولا يقال له حشيش حتى يهيج[٧].

---

(١) عند مسلم زيادة: (منها).

(٢) عندهما زيادة: (منها).

(٣) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢/١٥) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (١٢٢). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٨٠).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٨٥.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٧٤.

(٦) الوسيط ٧٩٤.

(٧) الوسيط ٦٠٢.

أجادب: مفردها: جَدَب وهو الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء(١).

قيعان: مفردها قاع: وهو الأرض المستوية التي لا تنبت(٢).

فَقُه: بضم القاف على المشهور وقيل بكسرها: أي صار فقيهًا(٣).

من لم يرفع بذلك رأسًا: أي أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع(٤).

الشرح الأدبي

إن التصوير الأدبي والفني في البيان النبوي يجمع بين الجمال والجلال، وبين المهابة والحلاوة، وبين الإقناع والإمتاع، يغذي العقول، ويمتع الأسماع.

ومفهوم الصورة في الحديث النبوي يلتقي مع النماذج العلا في الإبداع الأدبي الإنساني في كثير من جوانبه، ولكن يبقى تفرد الحديث النبوي بخصوصية العموم والشمول، وتميزه بالعاطفة الإنسانية المتزنة الثابتة التي تُقدَّم في صورة أدبية دالة موحية، موشاة بألفاظ رائقة، ومعانٍ فائقة، وآفاق شائقة.

وجماليات الأداء الفني والأسلوبي في هذا الحديث الشريف تتوهج في هذه الصورة الأدبية التي تتكئ على التمثيل والتشبيه، وتصور واقع الأمة في استجابتها للدعوة، واتباع تعاليم المصطفى ﷺ، والانتفاع المثمر بهذه التعاليم السماوية.

والحديث الشريف، عن طريق التشبيه التمثيلي، يوضح أن الذي يُنْتَفع بعلمه الواصل إليه قسمان من الناس:

القسم الأول: ينتفع بثمرات علمه ونتائجه كأهل الاجتهاد والاستخراج والاستنباط: وهؤلاء جاء تصويرهم من خلال توظيف الطبيعة المحيطة بالناس، حتى تكون الصورة مؤثرة وقريبة ومفهومة للجميع، وذلك في قوله ﷺ: "كمثل غيث أصاب أرضًا":

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٢١٢/١) والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج د ب).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٢١٢/١) والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ي ع).

(٣) رياض الصالحين ١١٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٢١٣/١).

فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فَعِلْمُهُم مثل الأشجار المثمرة التي تؤتي أكلها كل حين، ويظل مصدر نفع للناس.

والقسم الثاني: يُنتفع بعين علمه كأهل الحفظ والرواية، والحاصل أنه ﷺ شبه ما أعطاه الله من أنواع العلوم بالوحي الجلي أو الخفي بالماء النازل من السماء في التطهر وكمال التنظيف، والنزول من العلو إلى السفل، ثم قسم الأرض بالنظر إلى ذلك الماء قسمين: قسم هو محل الانتفاع، وقسم لا انتفاع فيه، وكذا قسم الناس بالنظر إلى العلم قسمين على هذا الوجه[1]، قسم كالأرض الصلبة الثابتة التي تحتفظ بالماء، حيث ينتفع الناس، ويشربون ويسقون ويزرعون، وهؤلاء الذين ينتفعون بثمار العلم، والقسم الثاني: مثل القيعان التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، وهؤلاء هم الذين لم يستجيبوا للعلماء، ولم يعملوا بهدى السماء، وقد كنىَّ رسول الله عن هذا النوع بأنه "لم يرفع بذلك رأسًا"، وقيل هذا تصوير للعالم الذي لم يعمل بعلمه، والطائفة الثالثة هم الذين وصفهم الرسول وحدّد أنموذجهم وهو "لم يقبل هدى الله الذي أرسل به" وهو رجل فات عنه التعلّم والتعليم.

والتشبيه التمثيلي في هذا الحديث يوضح خاصية دقيقة من خصائص الجمال والبيان في الحديث النبوي، وهى توافق عناصر التشبيه، وعدم تنافرها أو تناقضها، فماء السماء طاهر ونظيف، وهو نازل من العلو، وهذه الصفات تتفق مع ما أراد المصطفى ﷺ توضيحه وبيان قيمة ما أرسل به، وما بعث به للناس من هداية، فهو من وحى السماء، وهو طاهر في جوهره، وفي غرضه، وهو نظيف المقصد، يحيي موات النفوس والقلوب، ويهدي الناس إلى طريق الخير، والرخاء والهداية، وإلى الصراط المستقيم، وينقذهم من حياة الجدب، والشقاء والظلام[2].

والحديث يفيض بأسرار تعبيرية تُقرِّب المعنى، وتزيد الأمر وضوحًا، وتؤثر في

---

(١) انظر: حاشية السندي على متن البخاري ص ٢٦، صحيح البخاري.

(٢) انظر: الحديث النبوي: رؤية فنية جمالية، د. صابر عبدالدايم.

المتلقي، ومن هذه الأسرار: بدءُ الحديث بالتأكيد.. وتوضيح المعاني عن طريق التشبيه القريب من واقع الناس، حيث يقول المصطفى ﷺ: إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، ولفظ مثل: يعني الحال أو الصفة.

وقدَّم الهدى على العلم، لأن الهدى هو طريق العلم النافع النابع من التصور الإسلامي، والتوجه الإيماني.

وجاء التعبير بلفظ الغيث، ولم يقل "كمثل مطر" لأن الغيث مطر محتاج إليه يغيث الناس عن قلة المياه، وقد كان الناس متحيرين قبل بعثته ﷺ حتى أغاثهم الله بوابل علومه[1].

وقد جمع عليه الصلاة والسلام بين الكلأ والعشب الكثير، وذلك لأن الكلأ - كما يقول العلماء- مختص بالرّطب إلا أنه ما يتأخر نباته ويقل، والعشب ما يتقدم نباته ويكثر، ولهذا وصف العشب بالكثير.

والأجادب: جمع أجدب أو جمع جَدَب: والمعنى من الجدْب ضد الخصب في بعض الآراء.

والصورة في هذا الحديث الشريف قدمت المعنى في أبهى معرض، وأجمل زينة، وقد اكتملت معالم الصورة كما يرى القاضي الجرجاني، حيث يذهب إلى أن من معالم الكمال في الصورة، أن تكون مهمة اللفظ فيها ليست للكشف عن المعنى فحسب، بل لابد أن يصير حلوًا رشيقًا، أحظى في القلب، وأوقع في النفس، ولا يرى اللفظ إلا ما أدى إليه المعنى، ولكنه أحلى وأرشق، وأحظى وأوقع، والكلام فيها لا يصور الغرض فقط ولكنه ينبغي أن يكون ذا واقع قوي يشنف الآذان، ويستولى على القلوب، كما تشد مناظر الطبيعة الفاتنة إليها النواظر فلا ترى غير الجمال فيها[2].

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان: محمد بن علان الصديق الشافعي، ٣٦١/١.

(٢) انظر: الوساطة للقاضي الجرجاني، والصورة الأدبية، د. علي علي صبح.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والتشبيه والتمثيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل العلم والعلماء.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل نشر العلم الشرعي.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الإعراض عن العلم والهدى.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والتشبيه والتمثيل:

أ- **التوكيد**: حيث جاء في الحديث "إن" وهي تفيد التوكيد، وما من شك في أن التوكيد من أساليب الدعوة المهمة حيث يقنع المدعوين بما يقوله الداعية، ويلفت انتباه المدعوين إلى أهميته.

ب- **التشبيه والتمثيل**: حيث جاء في الحديث: "إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث" فإن المعاني أحيانًا تكون غامضة، فيأتي التشبيه والتمثيل لتقريب المعنى إلى الأذهان، ولذا فإن أسلوب التشبيه والتمثيل من أساليب الدعوة التي لا يستغنى عنها الداعية في توضيح المعاني، وترسيخها في أذهان المدعوين، وقد شبه ما جاء به من العلم والهدى بالغيث الذي ينزل على الناس. قال الإمام ابن حجر: (قال القرطبي وغيره: ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه. فكما أن الغيث يحي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت)[1]، وقد سمى الله عز وجل ما بعث به محمدًا ﷺ من الهدى والعلم نورًا فقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] وجعل من يتبع هديه ورسالته له نور يمشي به في الناس،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٢/١.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٥، ١٦.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[١] وامتن على المؤمنين ببعثته ﷺ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

قال القاسمي: (لقد أنعم الله على المؤمنين ببعثة النبي ﷺ من جنسهم، عربي مثلهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته، والانتفاع به. ولما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام خصوا بالذكر، وإلا فبعثته ﷺ إحسان إلى العالمين كما قال الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٣] يتلو عليهم القرآن بعدما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي، ويطهرهم من الذنوب والشرك بدعوته، وإن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر من عبادة الأوثان، وأكل الخبائث، فنقلوا ببعثته ﷺ من الظلمات إلى النور، وصاروا أفضل الأمم في العلم والزهد والعبادة فعظمت المنة لله تعالى عليهم بذلك)[٤] والنصوص في فضل بعثته ﷺ كثيرة، وعلى الدعاة تذكير الناس بها.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل العلم والعلماء:

لقد بين النبي ﷺ فضل العلم والعلماء، وحث على الانتفاع بالعلم، وبين فضل من تفقه في الدين حيث شبهه ﷺ بالأرض الطيبة التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. قال الإمام النووي: (وفي الحديث فضل العلم والتعليم وشدة الحث عليهما، وذم الإعراض عن العلم)[٥] هذا وقد تواترت النصوص الشرعية في فضل العلم و العلماء قال

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٤/٢٨٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٧.

الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢] وقال جل شأنه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٣].

قال ابن الجوزي: (يرفع أهل الإيمان على من ليس بمنزلتهم من الإيمان، ويرفع الذين أوتوا العلم على من ليس بعالم، وهذا الرفع قد يكون في الآخرة فهو إخبار عن ارتفاع درجاتهم في الجنة، وقد يكون في الدنيا بارتفاع مجالسهم فيكون ترتيبهم فيها بحسب فضائلهم في الدين والعلم. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (أيها الناس افهموا هذه الآية لترغبكم في العلم، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق من لا يعلم درجات)[٤] وقال ﷺ في فضل الفقه والعلم ((من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين))[٥] وقال أيضًا: ((من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة))[٦] وواجب الدعاة حث الناس على العلم والتعلم من خلال هذه النصوص الشرعية.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل نشر العلم الشرعي:

حث النبي ﷺ على أهمية نشر العلم الشرعي، ونفع الناس بذلك، حتى يكون المسلم على بينة من أمور دينه، وفي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: ((وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس)) قال النووي: (والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة،

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٢) سورة الزمر، آية: ٩.

(٣) سورة المجادلة، آية ١١.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ٨/١٩٣-١٩٤.

(٥) أخرجه البخاري ٧١، مسلم ١٠٣٧.

(٦) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم فينفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم)[١].

ولقد مدح الله الذين يستمعون العلم ويستجيبون له فقال جلّ شأنه: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾[٢] وقال ﷺ في الحديث: ((تسمعون ويسمع منكم، ويُسمع ممن يسمع منكم))[٣] ودعا ﷺ بالنضارة لمن يبلغ عنه فقال: ((نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه))[٤]. وبذلك يحصل ظهور العلم وانتشاره، ويحصل التبليغ وهو الميثاق المأخوذ على العلماء، ومعنى الحديث الدعاء بالنضارة وهي النعمة والبهجة، قال السيوطي: قال أبو عبدالله محمد بن أحمد بن جابر: (ألبسه الله نضرة وحسنًا وخلوص لون وزينة وجمالاً، أو أوصله الله لنضرة الجنة نعيمًا ونضارة، قال سفيان بن عيينة: ما من أحد يطلب حديثًا إلا وفي وجهه نضرة)[٥].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الإعراض عن العلم والهدى:

يتضح ذلك من قول النبي ﷺ ((ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)) قال ابن حجر: (ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها)[٦] وقال النووي: (والنوع الثالث من الأرض السباخ التي لا تنبت ونحوها فهي لا تنتفع بالماء

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٧.

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ١٧- ١٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٦٥٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣١٠٧).

(٤) أخرجه أبو داود ٣٦٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣١٠٨).

(٥) عون المعبود على سنن أبي داود، محمد أشرف الحق العظيم آبادي ١٥٦٥.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٢/١.

ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم)[١].

ويظهر من هذا خطورة الإعراض عن العلم والهدى، حيث بين الله مصيرهم فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[٢] وحكى عن حسرتهم يوم القيامة، فقال جلّ شأنه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٣] وتوعد الله من يعرض عن ذكره وهدي نبيه بالمعيشة الضنك فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٧.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٩.

(٣) سورة الملك، آية: ١٠.

(٤) سورة طه، آية: ١٢٤.

الحديث رقم (١٦٣)

١٦٣- الثَّامِنُ: عن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلِي ومثَلُكُمْ كَمَثَلِ رجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَراشُ يَقَعْنَ فيهَا، وهُوَ يذُبُّهُنَّ عَنهَا، وأَنَا آخذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النارِ، وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي» رواه مسلمٌ [1].

«الْجَنَادبُ»: نَحْوُ الجَراد والْفراشِ، هَذَا هُوَ المَعْرُوفُ الَّذي يَقعُ في النَّار. «والْحُجَزُ»: جَمْعُ حُجْزَةٍ، وهِي معْقِدُ الإِزَار والسَّراويلِ[2].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الجنادب: نحو الجراد والفراش، هذا هو المعروف الذي يقع في النار[3].

الفراش: الطير الذي يلقى بنفسه في ضوء السراج واحدتها: فراشة[4].

يذبهن عنها: يمنعهن ويطردهن عنها[5].

الحجز: جمع حُجزة وهي: معقد الإزار والسراويل[6].

تفلتون: يقال أفلت مني وتفلت: إذا نازعك الغلبة والهرب ثم غلب وهرب[7].

---

(١) برقم (٢٢٨٥/١٩). أورده المنذري في ترغيبه (٥٣٥١).

(٢) بنصه في الترغيب والترهيب، المنذري (٣٥١/٤).

(٣) رياض الصالحين ١١٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٩٩.

(٥) المفصح المفهم لمعاني صحيح مسلم، ابن هبيرة ١٦٤.

(٦) رياض الصالحين ١١٤.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٨.

الشرح الأدبي

إن الصورة البيانية في هذا الحديث تتكئ على التشبيه التمثيلي مثل الحديث السابق، وذلك لتقريب المعنى، وقوة التأثير، فالصورة البيانية في الحديث النبوي، حين نطيل التأمل في استكشاف معالم الجمال والجلال فيها، ندرك أنها تلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحًا في الخاطر، وجلاء في الذهن، لتستحيل أفكاره الهادية دمًا خالصًا يترقرق في عروق المسلم، ونورًا يمتد في عقله وبصره، ونفسًا يتردد في رئتيه، وذلك بعض ما يفيض به البيان الساحر والأدب الرفيع(١).

والصورة الأدبية في هذا الحديث تجيء في صياغة أخرى مشابهة ولكنها أوضح وأشمل في حديث يرويه أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش، وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يَحْجُزُهُنَّ ويغلبنه فيتقحمن فيها، فأنا آخَذٌ بحُجَزِكُمْ عن النار وأنتم تَقَحَّمون فيها"(٢).

إن الروايتين تكملان هذه الصورة التي نتمثلها أمامنا في كل عصر مكتملة الجوانب، ساطعة المشاهد، أفعالاً وحركات سريعة متلاحقة، وصراعًا ومغالبة بين الهوى والهدى: الهوى المُرْدي الذي يغري الجنادب والفراش ويجذبهن إلى النار، والهُدَى الإلهي الذي يبلغه محمد إلى الناس. فينجيهم من الهلاك، ويقودهم إلى جنة عرضها السموات والأرض.

وهذا الصراع بين الهوى المرْدي، والهُدَى المنْجي، يكشف عن النوازع الخفية التي تدفع إلى الشر المرْدي، وبعضها يكون خيراً فينتصر على النزعات الشيطانية، وينجو ويفوز بالرحمة الإلهية وهذه النوازع التي جسَّدتها هذه الصورة الفنية تنتقل بإحساسنا إلى حالنا وحال النبي صلى الله عليه وسلم، فنرى أنفسنا في صراع الهوى الغالب للهدى الرحيم، ممثلاً

---

(١) انظر: البيان النبوي: د. محمد رجب البيومي ص ٢٥٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٨٤.

ومجسدًا في صورة ذلك الفراش الأحمق الذي يضحي بالحياة في اندفاع قاهر ثمنًا غاليًا للامح براق، فإذا اجتذبه مَنْ بالمؤمنين رءوف رحيم إليه حفاظًا على حياته، غلبه الهوى على نفسه فاقتحم المهالك، وهذا شأن العاصين والضالين.

وهنا نحاول أن نفهم هذه المفارقات، وأن نقيس حركاتنا وأنفاسنا مع هذا الساهر الحريص، فنرى كل كبيرة تغرينا بالبريق، يصرعنا فيها الهوى، ويجذبنا منها المصطفى ﷺ يأخذ بحجزنا مكررًا الزجر، مقررًا الحرمة مؤكدًا النداء، ونحن العاصين ما أشقانا وما أتعسنا حين نغلبه فنقتحم النار، ونتفلت من يده مهرولين مسرعين إلى ميدان الهلاك.

وقد عمَّقت جوانب الصورة الأدبية هنا وجَمَّلتها وسائل أسلوبية كثيرة تنبئ عن فصاحة المصطفى ﷺ فهنا كرر لفظ "مثل" مضافًا إلى نفسه الكريمة مرة في ياء المتكلم "مثلي" وإلى أمته مرة أخرى في ضمير الخطاب "ومثلكم" لأن الصورة تعرض حالين مختلفين: حال حكيم رءوف، وحال أحمق جامح. فليست حاله عليه السلام كحال أمته، إذا استهواها الشيطان فغلبها، ولهذا كان الكلام على اللف والنشر المرتب، والذي يلقب فيه التشبيه بالملفوف، وقد حصل الاكتفاء بالتكرار عن التفصيل في الآخر.

وليس لفظ "مثل" في البيان الكريم أداة تشبيه لأنه بمعنى الحال والصفة، وإنما الأداة الكاف والجمع بينهما وبين مثل للدلالة على تشبيه الهيئات، والأحوال تمثيلاً، إذ لو دخلت الكاف على رجل لتوهم بادئ الرأى مشبهًا به أفرادًا.

وارتباط جواب "لما" بشرطها في الرواية الثانية يشير إلى ارتباط السبب بالمسبب في الوجود، ووصف الدواب المشار إليها للتحقير، وارتباط إشارة القريب الداني المنزلة بالموصول وصلته في قوله، "وهذه الدواب التي تقع ... إلخ"، يشير إلى العادة والطبع الغالبين اللذين هما بحاجة كبيرة إلى التهذيب والمقاومة والكبح، وتكرار العبارة، "تقع في النار"، في الرواية الثانية، يجعلها جوابًا لفعل الشروع، تقع فيها، ويشير إلى الاستسلام وعدم التدبر لما هو معتاد، والنظر إلى ما يجري من الردى.

ومما يزيد الصورة في الرواية الثانية تأثيرًا مجيئها في أسلوب القصر في رواية أبي هريرة: حيث جاءت "إنما" في أول الحديث الشريف، لتصبح الصورة واقعية، ويظل الصراع دائرًا بين حرص المصطفى ﷺ، على نجاة أمته وبين تغلب الهوى على كثير من أفراد هذه الأمة، حتى يصل بهم هذا الهوى إلى النار التي يتقلبون فيها في حياتهم وآخرتهم، وعطف الجمل "بالفاء" يوحي بترتيب الأحداث وتعاقبها وسرعتها.

ومجيء الحديث في أسلوب القصة المتعاقبة أحداثها، والمكثفة في أهدافها وآثارها، يوحي بأنها قصة الأجيال كلها، ففيها تشخيص لأدواء النفوس، وتصوير لرحمة المصطفى ﷺ، وحرصه الشديد على مداواة هذه الأنفس المرضى، ولنتأمل هذا التعبير التصويري العميق: "وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي"، وفي الرواية الثانية: يقول: "فأنا آخذ بحجزكم، وأنتم تقتحمون فيها"، والتعبير بقوله: "تفلتون من يدي"، وقوله "يقتحمن"، يدل على الإصرار من الجانب الآخر على الوقوع في حمأة الباطل، وقوله: وأنا آخذ بحجزكم يصور مشهدًا من مشاهد الصراع الدائم، فالضالون يكثرون، ويعاندون، وبرغم إصرارهم على ما هم فيه يحرص الرسول ﷺ على صدهم عن الوقوع في ظلمات الإثم والتردي في أودية النيران.

وتمتد هذه الصورة عبر الأزمنة والأمكنة، وتَسْري في ضمير الأجيال، ويظل البيان النبوي يأخذ بحجز الجماعات التي يتملكها الهوى، ويغالبها الشيطان، فإذا بها تلمح ضوء النجاة يبرق في كلمات المصطفى ﷺ، وفي ما جاء به من الآيات البينات وحيًا وتبليغًا عن ربه عز وجل. وصدق رسول الله ﷺ وهو يرشد الأمة في كل زمان وكل مكان إلى ميراثهم الحقيقي وهو الكتاب والسنة ففيهما العصمة من الزيغ والضلال، حيث يقول ﷺ، إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدًا، كتاب الله وسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد ونعيمًا لا ينفد ومرافقة محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التمثيل والترهيب.

ثانيًا: من مهام الداعية: الحرص على المدعوين والشفقة عليهم.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التشبيه.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل اتباع السنة.

أولاً - من أساليب الدعوة التمثيل والترهيب:

أ- **التمثيل:** يتضح من قول النبي ﷺ في الحديث: "مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ"، إن أسلوب التمثيل من الأساليب الدعوية التي يستخدمها الداعية لتقريب المعاني إلى الأذهان من خلال ضرب المثل، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب التمثيل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾[1].

ب - **الترهيب:** ويستنبط من قول النبي ﷺ: ((وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ))، وهو تخويف من النار ومن ورودها، ولا شك أن أسلوب الترهيب له دوره في كبح جماح النفس، وكفها عن الشهوات بتخويفها وترهيبها، وعلى الدعاة إلى الله الموازنة بين الترهيب والترغيب، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[2].

ثانيًا - من مهام الداعية: الحرص على المدعوين والشفقة عليهم:

يظهر هذا في قول النبي ﷺ: "وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي"، ولقد وصف الله نبيه في القرآن بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، قال الطاهر بن عاشور:

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٣.

(٢) سورة النبأ، الآيتان: ٢١ - ٢٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(جاءت هذه الآية من السورة تذكيرهم بالمنة ببعثة محمد ﷺ والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصها حرصهُ على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفًا رحيمًا بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل، ما هو إلا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله ﷺ)[1]، وقد جاء في الحديث ما يدل على شفقته على أمته ورحمته بهم: ((وإني أنا النذيرُ العُريان، فالنَّجاء))[2].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: التشبيه:

يستنبط هذا من قوله ﷺ في الحديث: (وأنتم تفلتون من يدي)، قال النووي: (شبه ﷺ تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة، وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إياهم، وقبضه على مواضع المنع منهم، بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله)[3].

وقال الطيبي: (واعلم أن تحقيق فهم الحديث متوقف على معرفة معنى حدود الله، ذلك أن حدود الله هي محارمه ونواهيه، ورأس المحارم حب الدنيا وزينتها، واستيفاء لذاتها وشهواتها، فيؤخذ منه أن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير، وذلك أن جبلة الإنسان مائلة إلى الحظوظ العاجلة دون الآجلة، فأوجب قلعها أولاً ليتمكن من مجرى ما يزلفه إلى الله تعالى، ومن ثم قيل: التحلية بعد التخلية)[4].

وقال ابن حجر: (شبه تهافت أصحاب الشهوات في المعاصي التي تكون سببًا في الوقوع في النار بتهافت الفراش بالوقوع في النار اتباعًا لشهواتها، وشبه ذبه العصاة عن المعاصي بما حذرهم به وأنذرهم بذب صاحب النار الفراش عنها، وقال القاضي عياض:

---

(١) التحرير والتنوير مج/٥/١١/٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١٨.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٠٨/١.

شبه تساقط أهل المعاصي في نار الآخرة بتساقط الفراش في نار الدنيا)[١]، هذا وقد دلت نصوص القرآن على خطورة المعصية واتباع الشهوات قال الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل اتباع السنة:

يستنبط هذا من سياق الحديث، لأن في اتباع هدي النبي ﷺ نجاة من النار، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٣]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

وحث الرسول الكريم ﷺ على اتباع سنته وحذر من الإعراض عنها فقال: ((مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ مِني))[٥]، وقال في الحديث أيضًا: ((... فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاء الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ))[٦]، ومن هذا يعلم فضل اتباع سنة رسول الله ﷺ، وأن فيها النجاة من النار، وعلى الدعاة أن يربطوا الناس بقدوتهم الأولى ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٧].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٦/١١.

(٢) سورة الجاثية، آية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٥) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١.

(٦) أخرجه أبو داود ٤٦٠٧، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣٨٥١).

(٧) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

الحديث رقم (١٦٤)

١٦٤- التَّاسعُ: عَنْهُ أَنْ رسولَ اللَّه ﷺ أَمَر بِلَعْقِ الأَصابعِ وَالصحْفةِ، وقال: «إِنَّكُم لا تَدْرُونَ فِي أَيِّهَا [١] الْبَرَكَةَ» رواه مسلم [٢].

وفي رواية لَهُ [٣]: «إِذَا وَقَعتْ لُقْمةُ أَحدِكُمْ. فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذَى وَلْيَأْكُلْهَا، وَلا يَدَعْهَا لَلشَّيْطانِ، وَلا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمَنديلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعهُ، فَإِنَّهُ لا يدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَركَةَ».

وفي رواية له [٤]: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمْ اللُّقْمَةُ، فَلْيُمِطْ مَا كَان بِهَا مِنْ أَذَى، فَلْيأْكُلْها، وَلا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ».

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الصَّحْفة: إناء من آنية الطعام[٥].

فليمط: فليُبعد ويُنحِّ[٦].

---

(١) لفظ مسلم: (أيَّه).

(٢) برقم (٢٠٣٣/١٣٣). أورده المنذري في ترغيبه (٣١٨٩). وسيكرره المؤلف برقم (٧٥٠).

(٣) أخرجها مسلم (٢٠٣٣/١٣٤). أوردها المنذري في ترغيبه (٣١٩٠).

(٤) أخرجها مسلم (٢٠٣٣/١٣٥) وزاد في آخره: (فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنَّه لا يدري في أيِّ طعامه تكون البركة). أوردها المنذري في ترغيبه (٣١٩١).

(٥) الوسيط ٥٠٨.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ي ط).

الشرح الأدبي

ما أعظم هذا الدرس النبوي وما أجمله، وما أعظم آثاره الاجتماعية والصحية والاقتصادية، إنه درس واقعي في ضبط حياة المسلم، وتنظيم إيقاعها، وحركتها، وإن آداب الطعام هي أول ما يحرص عليه المسلم في حياته اقتداء برسول الله ﷺ، وكذلك وردت الروايات المتعددة التي ترشد المسلم إلى تجميل سلوكه، وكبح جماح غروره، ومقاومة شيطان الإسراف والغرور والشهوة الذي يتمكن من النفس البشرية حين تبتعد عن واحة السنه العطرة، فتحرم من قطف ثمارها النضرة؛ والحديث في رواياته الثلاث يوحي ببُعد المؤمن عن الإسراف في الطعام، وعدم الشبع، لأن الرسول يأمر بلعق الأصابع والصَّحْفة التماسًا للبركة، وهذا السلوك الإيماني لا يكون إلا في حالة قلة الطعام، حيث لا يضع المسلم أمامه ما يفيض عن حاجته ثم يرمي به بعد ذلك، في أكوام الفضلات، وهو صالح للغذاء، ألم يفكر المسلم في الذين يتضورون جوعًا، ولا يجدون ما يسد رمقهم، وكذلك الذين تنزل بهم الكوارث والزلازل، وتجرفهم الأعاصير والأوبئة والأمراض.

إن كل مسلم عليه واجب ومسؤولية تجاه أخيه المسلم، ومن آداب الطعام: ما ورد في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: "المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء"[1] والمراد أن المؤمن يأكل بآداب الشرع فيأكل في مِعًى واحد، بقدر حاجته، ولا يلقي شيئًا زائدًا في الفضلات، وكأنه يلقيها للشيطان، والمؤمن في اقتصاده وحرصه على آداب الطعام: لا يترك بقايا من طعام على يديه، أو في الإناء، ولكن تأسيًا برسول الله ﷺ، يلعق أصابعه والصَّحفة، وإذا وقعت منه لقمة: لا يتركها تأففًا وتكبرًا وإسرافًا ولكن يأخذها ويميط الأذى عنها وينظفها ثم يأكلها، لأنه إذا ألقى ببقايا الأكل الصالح في القمامة، فهو يلقي به للفساد والتعفن، وكل الطرق التي يرمز إليها، "الشيطان"، وأما الكافر فهو يأكل بمقتضى الشهوة والشدة، والنهم فيأكل

---

(١) أخرجه البخاري ٥٣٩٣، ومسلم ٢٠٦١.

في سبعة أمعاء، وذلك كناية عن الجشع والإسراف، والتبذير، وعدم الاقتصاد، وهو لم يأخذ بالمنهج الإسلامي الذي يقر بأن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة، وإن أحسن ما أكل المؤمن في ثلث بطنه، وشرب في ثلث، وترك للنفس ثلثًا، كما أرشد النبي ﷺ.

ومعالم الأسلوب في هذه الروايات تقدم هذه المعاني في بلاغة واضحة، وتراكيب بالمعاني بائحة، حتى تستجيب لها النفوس الرابحة، فالرواية الأولى تبدأ بجملة خبرية مؤكدة يسوقها الراوي ليؤكد أمر الرسول ﷺ بلعق الأصابع، والصحفة، وهو أمر للندب ولكنه يتضمن الفوائد الجليلة ، والجملة الثانية جاءت مؤكدة: وهي من كلام نبي الرحمة ﷺ حيث يوجه المسلمين إلى منابع البركة وهي غير محدودة ولكنها في هذا السياق، يراد بها: ما يحصل به التغذية، وتسلم عاقبته من أذى، ويقوي على طاعة الله تعالى، وممارسة الحياة حسب المنهج الإسلامي.

والرواية الثانية صيغت في قالب الجواب والشرط: والجواب تضمن ست جمل تُفصِّل آداب الطعام، وتحدد في إيجاز ما يجب على المسلم فعله حين تسقط لقمة من يده، وهذه الجمل الست اقترنت بأدوات كثيرة تحتم الالتزام بالسنة وآدابها في تناول الطعام.

ومن هذه الأدوات: أداة الشرط "إذا"، وهي للتحقق، وكل من يتناول طعامًا يتساقط منه الكثير على الأرض أو المائدة، وبعد الطعام تبقى بقايا صالحة، ولكن يلقى بها كثير من الناس في سلال المهملات.

فتصبح مرتعًا للأوبئة والحشرات، والروائح الكريهة، ولذلك جاءت صياغة هذه الجمل جازمة حاسمة فجواب الشرط مقترن بلام الأمر، "فليأخذها"، ثم يأتي أمر آخر للحفاظ على الصحة البدنية، والصحة النفسية في قوله عليه الصلاة والسلام، "فليمط ما كان بها من أذى"، ثم بعد ذلك أتي الأمر الثالث في قوله، "وليأكلها.."، ثم يأتي النهي عن الإسراف والتبذير والبطر والجحود. الذي يؤدي إلى مسالك الشيطان، وقوله: "ولا يدعها للشيطان" جملة موجزة تشع بكل أطياف التحذير من الانزلاق إلى مهاوي الفساد، والمشاركة في إشاعة جَوِّ الترف والفساد، ولعق الأصابع رُبَّما يبدو غير مألوف في المجتمع المعاصر، حيث يتناول الناس الطعام بالملاعق، ولا يأكلون بأيديهم، ولكنَّ

المحافظة على السنة وآدابها تتمثل في الاقتصاد في الطعام، وعدم إبقاء بقايا الأكل في الأواني والملاعق، وفوق المناضد والمفارش، وقد أرشد الرسول ﷺ إلى ذلك في أسلوبه البديع، ونظمه البليغ، حيث قال محذرًا "إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه".

وقد روى أن ابن أبي ماسويه قال: "لو استعمل الناس هذه التوجيهات لسلموا من الأمراض والأسقام، لأن أصل كل داء التخم"، وقيل: إن قلة الغذاء يوجب رقة القلب، وقوة الفهم، وانكسار النفس، وضعف الهوى والغضب، وكثرة الغذاء يوجب ضد ذلك.

والحديث في رواياته الثلاث يوحي ويرشد إلى حتمية الاقتصاد في الغذاء، والبعد عن الإسراف، والحرص على عدم الإكثار من الطعام حتى لا يبقى منه شيء فيفسد، وهناك طوائف تتضور جوعًا، ولا تجد ما يسد رمقها.

يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه المِقْدام بن مَعْد يكَرِب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطن بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه))[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم لعق الأصابع والصحفة وإماطة الأذى عن اللقمة الساقطة وأكلها، وقد ذكر الفقهاء[2] أنه يسن أن لا يهمل المرء في الطعام ويلعق الصحفة فإنه لا يدري أين البركة، وإن وقعت من يده لقمة فليمط الأذى عنها

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٨٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٩٣٩).

(٢) الفتاوى الهندية، الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند ٣٣٧/٥، وبريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٤٣/٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم المصري ٣١٦/٢، والمدخل إلى الشرح الشريف، ابن الحاج العبدلي ٢٢٢/١، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، الشيخ علي العدوي ٤٦٢/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١٧٥/٣، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني الحنبلي ١٢٥/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ١٨٦/٨، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٦١٧/٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢١/٦.

ويأكلها ولا يدعها للشيطان، وفي هذا محافظة على النعم من الزوال والضياع، وتقييد لها بالشكر، فإن لم يستطع أكلها أطعمها حيوانًا ولا يتركها للشيطان.

وقال ابن حزم وبعض الفقهاء[1] إن لعق الأصابع من الطعام وإماطة الأذى عن الساقط من الطعام وأكله وعدم إلقائه فرض اتباعًا لهديه ﷺ في هذا الحديث، وأخذًا بظاهر الأمر فيه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، الشرط، والأمر، والنهي، والتعليل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إثبات البركة في الطعام.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الامتثال لأوامر النبي ﷺ.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل العمل بسنة النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والشرط، والأمر، والنهي، والتعليل:

١- **التوكيد**: حيث جاء في الحديث "إنكم لا تدرون" "إن الشيطان" ولا شك أن التوكيد أسلوب من أساليب الدعوة التي تساعد على إقناع المدعوين، وإشعارهم بأهمية ما يقوله الداعية.

٢- **الشرط**: جاء في روايات الحديث "إذا وقعت لقمة أحدكم" والشرط من أساليب الدعوة، وفيه لفت انتباه المدعوين إلى جواب الشرط لزيادة اهتمامهم به، وهو من قبيل التنويع في أساليب الدعوة، وبيان بعض المعاني التي يريد الداعية أن تكون واضحة في ذهن المدعو.

٣- **الأمر**: وقد ورد ذلك في أكثر من موضع في الحديث في قوله ﷺ: "فليأخذها" "فليمط" "فليأكلها" ومن المعلوم أن أسلوب الأمر يشعر المدعو بأهمية المأمور به، مما يستدعي مزيدًا من العناية والاهتمام بما أُمر به، والأمر أسلوب قرآني ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2].

(١) المحلى، ابن حزم ١١٧/٦، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٦١٧/٢.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

٤- **النهي**: حيث جاء في الحديث في قوله ﷺ "ولا يدعها" "ولا يمسح" والنهي من أساليب الدعوة حيث يتطلع المدعو إلى معرفة المنهي عنه، ليعمل على اجتنابه وعدم إتيان ما نهى عنه، ولذا فإن النهي من الأساليب الدعوية التي لا يستغنى عنها الداعية.

٥- **التعليل**: وهو أسلوب مهم من أساليب الدعوة حيث يساعد على إقناع المدعو، وقد علل النبي ﷺ في الحديث الأمر بلعق الأصابع بقوله: "إنكم لا تدرون في أيها البركة" قال صاحب تحفة الأحوذي: (والمراد أنه لا يدري في أية أصابعه تكون البركة حاصلة)[1] وقد جاء في القرآن في علة الصيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2] وفي النهي عن الزنا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[3] وفي تحريم الخمر ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[4]. قال د. يوسف القرضاوي: (وينبغي على الداعية أن يقتدي بالقرآن والسنة في تعليل الأحكام، وبيان حكمها وثمراتها في الأنفس والحياة، وربطها بالفلسفة العامة للإسلام، حتى تقع في النفس موقع القبول.

وقد وجدنا القرآن الكريم يذكر الحكم والمنافع من وراء العبادات ذاتها، مع أن الأصل فيها التعبد والامتثال لأمر الله تعالى، كقوله في الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[5] وفي الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[6] وفي الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[7] وفي الحج: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[8].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٥٦٤/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٤) سورة المائدة، آية: ٩٠.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٦) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٧) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٨) سورة الحج، آية: ٢٨.

فإذا كان هذا في الأمور التعبدية، فكيف بغيرها من المعاملات وشؤون الحياة؟ فهذا مطلوب في كل حين، ولكن طلبه في عصرنا ألزم، والحاجة إليه أوكد، لأن كثيرًا من الناس لم يعد يغلب عليهم التسليم، وإنما يغلب عليهم البحث والتساؤل لمعرفة الأسرار والعلل، ورحم الله امرءًا عرف زمانه، وخاطب أهله بما يعرفون.

وهناك محذورات ينبغي التنبّه لها:

وأود أن أنبه هنا في مقام تعليل الأحكام إلى بعض المحذورات التي يتورط فيها بعض الدعاة ومنها:

١- المبالغة في تعليل العبادات:

المبالغة في تعليل العبادات بأمور دنيوية، وربطها بها ربطة العلة بالمعلول، مع الغفلة عن حقيقة كبيرة يجب التنبيه عليها، وهي أن العبادات مطلوبة طلب الغايات والمقاصد، لا طلب الأدوات والوسائل، فهي مرادة لذاتها بغض النظر عما وراءها من منافع وثمرات. بل هي الغاية من خلق المكلفين كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] بل المقصود الأول من خلق هذا العالم كله علويه وسفليه: أن يعرف الناس ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا. كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[2].

والمبالغة في هذا الجانب قد تؤدي ببعض الناس إلى أن يقول: إذا كان هدف العبادات تربية الضمائر، وتزكية الأنفس، وتقويم الأخلاق، فعندنا وسائل أخرى توصلنا إلى هذا الهدف. وقد يقول بعض آخر ما قاله بعض الفلاسفة من قبل.

٢- التعليل بأمر غير جامع ولا مانع:

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) سورة الطلاق، آية: ١٢.

ومن المحذورات أن يعلل الحكم الشرعي بأمر غير جامع، بمعنى أنه لا ينطبق على كل الحالات، ولا مانع، بمعنى أنه ينطبق على غير المعلل مما لم يأخذ حكمه.

مثال ذلك: تعليل تحريم لحم الخنزير بأنه يأكل القاذورات، فقد يردّ رادّ بأن هذا لا ينطبق إلا على الخنازير السيئة التغذية، أما الخنازير التي تربى في حظائر خاصة، ويشرف عليها مختصون يعنون بأمرها، فلا يتفق معها هذا التعليل.

وكذلك إذا قال قائل: إنما حرم لحم الخنزير، لأن اعتياد اكله يورث فقدان الغيرة على النساء والحرمات، كما هو مشاهد لدى الأوربيين الذين يدينون بالمسيحية، فهذا التعليل قد ينقض بأن ذلك قد يكون مرده للبيئة والتربية أكثر من رده إلى لحم الخنزير، بدليل أن النصارى في صعيد مصر وفي البلاد الشرقية عامة لا تنقصهم الغيرة.

كما أن اليهود في الغرب، وهم يحرمون الخنزير، يسلكون في أمر الغيرة ما يسلكه مواطنوهم من المسيحيين.

ونحو ذلك: أن تجعل علة التحريم ما اكتشف من ديدان شديدة الخطر على صحة الإنسان كالدودة الشريطية أو الوحيدة. فقد قالوا: إن هذه الديدان توجد في لحوم الأبقار أيضًا، وقد أحل الشرع أكلها!

ولهذا لا يجوز للداعية المجازفة بالتعليل في مثل هذه الأمور ما لم يكن تعليلاً ثابتًا محكمًا مطردًا في كل الأحوال، تقوم عليه الأدلة العلمية الناصعة، التي لا مطعن فيها.

وإلا فحسب الداعية أن يقول: إن الله لم يحلّ إلا طيبًا، ولم يحرم إلا خبيثًا، ولم يشرع شيئًا إلا لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وعدم العلم بها لا ينفي وجودها، فإن علمنا أعجز من أن يحيط بكل حكمة الله تعالى في شرعه أو في خلقه.

وإذا كان العلم البشري - بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من نزول القرآن- قد اكتشف في لحم الخنزير ديدانًا خطرة، لم يكن يعلم أحد بها يوم قال القرآن في لحم الخنزير: إنه رجس. فما يدرينا ماذا سيكشفه العلم في الغد القريب أو البعيد؟

على أن هناك حكمة جلية في إخفاء الله تعالى بعض حكمه وأسرار شرعه وخلقه عنا نحن المكلفين. وذلك ليتم الابتلاء، وتظهر حقيقة العبودية للخالق، ويعرف من يتبع

الرسول ممن ينقلب على عقبيه، ويتبين من يطيع ربه، ومن لا يطيع إلا عقله، فهنامفرق طريق بين المؤمن وغير المؤمن.

٣- الاقتصار على التعليلات المادية:

من المحذورات في ذكر الحكم والعلل: الاقتصار على التعليل بالأمور المادية الحسية. وخصوصًا فيما يتعلق بالعبادات الشعائرية، كالوضوء والصلاة والصيام والحج ونحوها.

فالوضوء في نظر بعض الذين يتحدثون عن الإسلام أو يكتبون حكمته: النظافة والصلاة في نظر هؤلاء حكمتها: تمرين الجسم على الرياضة والحركة واتباع النظام. والصيام في نظرهم إنما فرض لإراحة المعدة شهرًا في كل عام.

والحج في نظرهم ليس إلا رحلة كشفية، للتدريب على احتمال المشاق.

وجهل هؤلاء إن مثل هذه التعليلات تفتح عليهم أبوابًا لا يقدرون على إغلاقها، فقد يقول لهم قائل: إنني أستطيع أن أحقق النظافة بغير الوضوء.

وقد يقول ثان: أنا أستطيع أن أمرن جسمي رياضيًا بغير الصلاة، بالتمرينات المنظمة المدروسة، يشرف عليها مدربون فنيون.

ويقول ثالث: إنني قادر على إراحة المعدة بغير الصيام.

ويقول رابع: إنني أستطيع أن أقوم برحلات كشفية أتدرب فيها على المشقات، ولكن بغير الحج إلى بيت معلوم في زمن معلوم.

وهكذا، تكون هذه التعليلات -إذا لم تصغ صياغة دقيقة حكيمة موزونة- سلاحًا في أيدي الذين يريدون أن يتفلتوا من تكاليف الدين وشعائره)[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: إثبات البركة في الطعام:

يتضح هذا في قوله ﷺ: "إنكم لا تدرون في أيها البركة" قال النووي: (معناه والله أعلم: إن الطعام الذي يحضره الإنسان فيه بركة، ولا يدري أن تلك البركة فيما أكله أو فيما بقي على أصابعه أو في ما بقي في أسفل القصعة أو في اللقمة الساقطة،

---

(١) ثقافة الداعية ٨٣-٨٨ باختصار.

فينبغي أن يحافظ على هذا كله لتحصل البركة، وأصل البركة: الزيادة وثبوت الخير والإمتاع به. والمراد هنا والله أعلم: ما يحصل به التغذية، وتسلم عاقبته من أذى، ويقوي على طاعة الله تعالى وغير ذلك)[١].

وإذا ثبتت البركة في الطعام فيجب المحافظة عليها قال الطيبي: (من سنن الأكل لعق اليد محافظة على بركة الطعام وتنظيفًا لها)[٢]. والبركة لا تحصل إلا بالإيمان والتقوى قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] وتحصل البركة أيضًا بالتسمية فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان النبي ﷺ يأكل طعامًا في ستة من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال رسول الله: أما إنه لو سمى كفاكم))[٤] وتحصل البركة أيضًا بالإضافة للتسمية بالاجتماع على الطعام ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله تعالى يبارك لكم فيه))[٥].

ثالثًا- من واجبات المدعو: الامتثال لأوامر النبي ﷺ:

إن الغاية التي يسعى إليها الداعية هي حمل المدعوين على الامتثال لأمر الله ورسوله ﷺ لذا كان من الواجب على المدعو أن يستجيب لما يسمعه من الأوامر التي ورد ذكرها في القرآن والسنة امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٦] وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٨٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٣٨/٨.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

(٤) أخرجه الترمذي ١٨٥٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥١٤).

(٥) أخرجه أبو داود، ٣٧٦٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣١٩٩).

(٦) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[١].

قال ابن كثير: (مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر، واتقوا الله في امتثال أوامره وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه)[٢].

وقد ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ قال: ((إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه))[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل العمل بسنة النبي ﷺ:

يتضح من سياق الحديث فضل العمل بسنة النبي ﷺ ففيها الخير والرشد، ومن يلتزم هدي النبي ﷺ في الطعام فإنه ينال البركة، ولا يجعل للشيطان على طعامه من سبيل، وقد قال الله في فضل طاعة النبي ﷺ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾[٤] وقال ﷺ: ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى))[٥]. وقال ابن عون: (ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا الناس عنه، ويدعوا الناس إلا من خير))[٦].

قال ابن عثيمين: (ومن آداب الأكل التي جاءت في الحديث أن الإنسان إذا فرغ من أكله فإنه يلعق الصحفة ويلعق أصابعه، يعني يلحسها حتى لا يبقى فيها اثر الطعام،

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٦٨/٨.

(٣) أخرجه البخاري ٧٢٨٨، مسلم ١٣٣٧.

(٤) سورة النور، آية: ٥٤.

(٥) أخرجه البخاري، ٧٢٨٠.

(٦) علقه البخاري قبل الحديث رقم ٧٢٧٥، قال ابن حجر: وصله محمد بن نصر المروزي في كتاب السنة، والجوزقي من طريقه، ووصله ابن القاسم اللالكائي في "كتاب السنة" من طريق القعنبي، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٦٥/١٣.

فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة، فهذان أدبان:

الأول: لعق الصحفة، والثاني: لعق الأصابع، والنبي ﷺ لا يأمر أمته بشيء إلا وفيه الخير والبركة.

ولهذا قال الأطباء: إنّ في لعق الأصابع من بعد الطعام فائدة وهو تيسير الهضم؛ لأن الأنامل هذه فيها مادة تفرزها عند اللعق بعد الطعام تيسر الهضم، ونحن نقول هذا من باب معرفة حكمة الشرع فيما يأمر به، وإلا فالأصل أننا نلعقها امتثالاً لأمر النبي ﷺ، وكثير من الناس لا يفهمون هذه السنة، تجده ينتهي من الطعام وحافته التي حوله كلها طعام، تجده أيضًا يذهب ويغسل دون أن يلعق أصابعه، والنبي ﷺ نهى أن يمسح الإنسان يديه بالمنديل حتى يلعق وينظفها من الطعام ثم بعد ذلك يمسح بالمنديل، ثم بعد ذلك يغسلها إذا شاء.

كذلك أيضًا من آداب الأكل: أن الإنسان إذا سقطت لقمته على الأرض فإنه لا يدعها؛ لأن الشيطان يحضر للإنسان في جميع شؤونه، كل شؤونك: من أكل، وشرب، وجماع، أي شيء يحضره الشيطان، فإذا لم تسمّ الله عند الأكل شاركك في الأكل، وصار يأكل معك، لهذا تنزع البركة من الطعام إذا لم يسم عليه، وإذا سميت الله على الطعام، ثم سقطت اللقمة، يعني طاحت من يدك؛ فإن الشيطان يأخذها، ولكن لا يأخذها ونحن ننظر؛ لأن هذا شيء غيبي لا نشاهده، ولكننا علمناه بخبر الصادق المصدوق ﷺ يأخذها الشيطان فيأكلها، وإن بقيت أمامنا حسًّا، لكنه يأكلها غيبًا، هذه من الأمور الغيبية التي يجب أن نصدق بها. ولكن رسول الله ﷺ دلنا على الخير فقال: (فيأخذها وليمط ما بها من أذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان)، خذها وأمط ما بها من أذى من تراب أو عيدان أو غير ذلك ثم كلها ولا تدعها للشيطان. والإنسان إذا فعل هذا امتثالاً لأمر النبي ﷺ وتواضعًا لله عز وجل وحرمانًا للشيطان من أكلها، حصل على هذه الفوائد الثلاث: الامتثال لأمر النبي ﷺ، والتواضع، وحرمان الشيطان من أكلها. هذه فوائد ثلاث، ومع ذلك فإن أكثر الناس إذا سقطت اللقمة على السفرة أو على سماط نظيف تركها وهذا خلاف السنة.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أنه لا ينبغي للإنسان أن يأكل طعامًا فيه أذى؛ لأن نفسك عندك أمانة، لا تأكل شيئًا فيه أذى، من عيدان أو شوك أو ما أشبه ذلك، وعليه فإننا نذكر الذين يأكلون السَّمك أن يحتاطوا لأنفسهم؛ لأن السمك لها عظام دقيقة مثل الإبر، إذا لم يحترز الإنسان منها، فربما تدخل إلى بطنه وتجرح معدته أو أمعاءه وهو لا يشعر"[١].

وعلى الدعاة إلى الله أن يبينوا للناس فضل العمل بسنة النبي ﷺ.

(١) شرح رياض الصالحين ١/ ٤٣١.

الحديث رقم (١٦٥)

١٦٥- الْعَاشِرُ: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قَامَ فينَا رسولُ اللَّه ﷺ بمَوْعِظَةٍ فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ محشورونَ إِلى اللّه تَعَالَى حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٣] أَلا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلائِقِ يُكْسى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبراهيم ﷺ، أَلا وإِنَّهُ سَيُجَاء بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمال فأَقُولُ: يارَبِّ أَصْحَابي، فيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقول كما قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهيدًا ما دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إِلى قولِهِ: ﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٧، ١١٨] فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مرْتَدِّينَ عَلَى أَعقَابِهِمْ مُنذُ فارَقْتَهُمْ» متفقٌ عليه[١]. «غُرْلاً» أَيْ: غَيْرَ مَخْتُونِينَ.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

غرلا: فسَّرها النووي، ومفردها أَغْرَل، والمؤنثة غَرْلاء[٢].

ذات الشمال: أي إلى جهة النار[٣].

مرتدين على أعقابهم: راجعين إلى الكفر كأنهم رجعوا إلى ورائهم، والأعقابُ مفردها عقب، وهو عظم مؤخر القدم[٤].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث الشريف بعض مشاهد يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٥]، وكثير من سور القرآن الكريم تموج بالمشاهد

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٥) واللفظ له، ومسلم (٥٨/٢٨٦٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٥٢٤١).

(٢) رياض الصالحين ١١٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٣٩٢/١١).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ع ق ب).

(٥) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

المتعددة التي تُعْنى بتصوير أحوال الناس يوم القيامة، وتتوالى عدة سور قرآنية لتعرض هذه المشاهد عرضًا يجمع بين الترغيب والترهيب، ويصور مشاهد الثواب، ومشاهد العقاب، ولنتأمل السور التالية تأملاً إيمانيًا وأسلوبيًا وبلاغيًا لندرك ماذا ينتظرنا في هذا اليوم الذي هو كما قال تعالى: ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1]، هذه السور هي الحاقة والمعارج ثم القيامة، والإنسان، والمرسلات، والنبأ، والنازعات، وعبس، والتكوير، والانفطار، والمطففين، والانشقاق، والبروج.

وفي هذا الحديث الشريف تتوهج ظاهرة أسلوبية لا تتكرر في كثير من الأحاديث، ولا ترد بمثل هذه الكثافة وهى ظاهرة، التناصُّ القرآني، فالحديث الشريف تزدان كلماته وجمله بالآيات القرآنية، وبعضها يأتي مكملاً لجمل الحديث الشريف، وشاهدًا على صدق كلام رسول الله ﷺ.

فالحديث موعظة بليغة كما يقول ابن عباس: وهذه الموعظة تبصر المسلمين بمصيرهم يوم القيامة، وينادي الرسول ﷺ الناس جميعًا في قوله: "يا أيها الناس: إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا.

ثم أردف هذا التحذير الذي يتضمن الحقيقة التي يغفل عنها كثير من الخلق فيظلون سادرين في غيهِّم، ويوم القيامة يجدون أنفسهم وقد افتقدوا ملابسهم وأموالهم وسُلبَت منهم زينة الحياة الدنيا، ورد الله إليهم الجزء الذي قطع في الختان، فهم يحشرون كما خلقوا أوّل مرة، ويعادون كما كانوا في الابتداء لا يفقد منهم شيء حتى الغُرْلة : وهى ما يقطع ساعة الختان من الصبي.

وبَعْد هذا النداء يأتي النص القرآني ليؤكد هذا الوضع الذي يبعث عليه الناس جميعًا حيث يقول الله عز وجل: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٧.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

وفي ختام الحديث: يأتي النص القرآني شاهدًا على حرص الرسول على أمته، وندائه لربه داعيًا ومستجيرًا: قائلاً: يارب أصحابي: فيقال له في أسلوب توكيدي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، ورغم هذا يحرص الرسول ﷺ على مصلحة أمته، ويترك أمرهم إلى الله عز وجل راجيًا لهم المغفرة والعفو لأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

وفي الحديث يرد التوكيد "بإن" ست مرات: لأن الأمر جّد ولا رجوع فيه: فكل نفس بما كسبت رهينة، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ولنتأمل مواضع التأكيد في الحديث: "إنكم محشورون، "إنا كنا فاعلين"، "إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم"؛ "ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي"، فيقال: "إنك لا تدري"، فيقال لي: "إنهم لم يزالوا مرتدين".

وظاهرة التكرار تومض في الحديث لتثبيت الخبر، وإنذار الناس ليعودوا إلى رشدهم، فالنداء يتكرر مرتين: نداء للناس لليقظة والعمل الصالح، ونداء لله للعفو والتسامح، وتتكرر، "ألا" الاستفتاحية مرتين: للحث على التنبيه واليقظة، والاستعداد لليوم الآخر.

وظاهرة الحوار بين محمد وربّه من أجل أمته، تعطي الأمل في نفوس الكثيرين للفوز بشفاعة النبي المختار في ضوء عملهم الصالح وعقيدتهم الصحيحة.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الموعظة، والنداء، والتوكيد، والترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تقرير حقيقة البعث والحشر.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان هيئة الناس في الحشر.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله إبراهيم عليه السلام.

سادسًا: من صفات النبي صلى الله عليه وسلم: الشفقة والرحمة بالأمة.

سابعًا: من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم: الإخبار ببعض المشاهد الواقعة يوم القيامة.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

يستنبط هذا من قول ابن عباس رضي الله عنهما: "قام فينا" ولاشك أن الخطبة من وسائل الدعوة المهمة حيث تعتمد على مخاطبة شرائح متعددة من المدعوين، وتعتمد على مخاطبة الوجدان، وعلى الوعظ وتذكير الناس بالأسلوب الحسن، وتعتمد الخطبة أيضًا على الترغيب والترهيب كما "أن الخطبة وسيلة جيدة للتبليغ، وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي، أو يعرف بعضهم فقط، ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معاني معينة يريد بيانها ولفت الأنظار إليها"(١).

١- **الموعظة**: وتعتبر الموعظة من أساليب الدعوة المهمة وقد جاء في الحديث "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة" حيث إن الموعظة ترقق القلب القاسي، وترد الفؤاد الجافي (ولابد أن يسخر الدعاة جميع وسائل التعليم والإيقاظ، كي ينصفوا الحق ويوصلوه إلى الخلق، وكم من مبتعد عن الجادة تكفيه في العودة إليها همسة ناصح أو صيحة زاجر فإذا هو راجع إلى رشاده مستقيم، وعمل الواعظين -في أغلب الأحيان- هو ذلك التذكير النافع. وهو تذكير لا يستغني عنه الناس يومًا)(٢).

---

(١) انظر:أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٧٤.

(٢) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي ص ٣٠٢.

وعلى الداعية أن يراعي البلاغة في موعظته، قال ابن رجب (والبلاغة في الموعظة مستحسنة، لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها والبلاغة هي التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة، وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأحلاها للأسماع، وأوقعها في القلوب)[١].

٢- **النداء:** جاء في الحديث "يا أيها الناس" ولا شك أن النداء أسلوب محبب للنفوس، وهو أدعى لانتباه السامعين، ويشعرهم بالقرب من الداعية، ويهيئ الأذهان لمعرفة ما بعد النداء.

٣- **التوكيد:** حيث جاء في الحديث قوله ﷺ: "إنكم محشورون" وقد جاء هنا مع أحد الحقائق وهي قضية الحشر والبعث للتدليل على أنه واقع لا محالة، ولاشك أن التوكيد يعطي مصداقية للخبر، وله دوره الرئيس في إقناع المدعوين.

٤- **الترهيب:** وهو يعتبر من أساليب الدعوة التي تقود النفس إلى الخير، ويكفكف تطلعها إلى الشهوات وجاء في الحديث "ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال" وفي هذا ترهيب من الردة في الدين، وتخويف من الابتعاد عن سنة النبي الأمين ﷺ والتخويف والترهيب بالنار يستغرق جزءًا كبيرًا من نصوص القرآن والسنة، فعلى الدعاة توظيف هذه النصوص والجمع بين الترغيب والترهيب في الدعوة.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تقرير حقيقة البعث والحشر:

لقد أكد النبي ﷺ هذه الحقيقة بقوله: "إنكم محشورون إلى الله" وقد تكاثرت النصوص القرآنية في تقرير حقيقة البعث والحشر، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١١١/٢.

(٢) سورة الحج، آية: ٥.

وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[(١)] وأمر الله نبيه أن يقسم على وقوع البعث، فقال جلّ شأنه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[(٢)].

قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن المشركين والكفار والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون فقل لهم: لتخبرن بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها وذلك على الله يسير أي: بعثكم ومجازاتكم)[(٣)]. وأخبر سبحانه أن حكمته وقدرته تأبى أن يترك الإنسان مهملاً عن الأمر والنهي والثواب والعقاب فقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[(٤)] وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(٥)].

قال ابن أبي العز الحنفي: (إن من نقله من النطفة إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم شق سمعه وبصره، وركب فيه الحواس، والقوى والعظام والمنافع وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية، أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته، ولا تعجز عنه قدرته)[(٦)].

---

(١) سورة طه، آية: ٥٥.

(٢) سورة التغابن، آية: ٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٣٦/٨.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١١٥.

(٥) سورة القيامة، آية: ٣٦-٤٠.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي الدمشقي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، شعيب الأرنؤوط ٥٩٦/٢.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان هيئة الناس في الحشر:

لقد أخبر النبي ﷺ في الحديث أن الناس يحشرون "حفاةً عراة غرلاً" قال ابن حجر: (حفاة: أي بلا خف ولا نعل قال ابن عبدالبر: يحشر الآدمي عاريًا، ولكل من الأعضاء ما كان له يوم ولد. فمن قطع منه شيء يرد حتى الأقلف، وقال أبو الوفاء بن عقيل: حشفة الأقلف موقاة بالقلفة فتكون أرق، فلما أزالوا تلك القطعة في الدنيا أعادها الله تعالى ليذيقها من حلاوة فضله)(١). ومن الآيات التي تبين حقيقة وهيئة الناس في الحشر قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(٢) (أي إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئًا كذلك نعيدهم بعد موتهم)(٣).

وورد في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالَ: يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ؟ قال: الأمر أشد من أن يهمهم ذاك))(٤) قال النووي: (والمقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم ولا يفقد منهم شيء حتى الغرلة تكون معهم)(٥).

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله إبراهيم عليه السلام:

حيث جاء في الحديث بأنه أول الخلائق يكسى يوم القيامة. وهذا فيه من الفضل ما فيه، وقد جاء في القرآن بيان لفضل نبي الله إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾(٦) وقال الله عنه أيضًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾(٧).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٩١/١١، ٣٩٢.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٨١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥٢٧، ومسلم ٢٨٥٩.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٦٤.

(٦) سورة النساء، آية: ١٢٥.

(٧) سورة الأنبياء، آية: ٥١.

وخصه الله ببناء البيت فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(١) وجعله الله أمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

وأمر نبينا ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام فقال جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣) وجعل الله من يعرض عن ملة إبراهيم عليه السلام من السفهاء فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤) وآتى الله ذريته الكتاب والحكمة فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾(٥).

وشرع لنا الصلاة في مكان قيامه وهو يبني البيت فقال الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ﴾(٦) ووصفه الله بأنه صديق نبي فقال جلّ شأنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(٧) وبأنه حليم منيب فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾(٨) وهذا بالإضافة إلى كونه أول الخلائق يكسى.

---

(١) سورة الحج، آية: ٢٦.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٠.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٣.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٣٠.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٤.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٢٥.

(٧) سورة مريم، آية: ٤١.

(٨) سورة هود، آية: ٧٥.

قال ابن حجر: (إن الحكمة في خصوصية إبراهيم عليه السلام بذلك لكونه ألقي في النار عريانًا، وقيل لأنه أول من لبس السراويل، ولا يلزم من خصوصيته بذلك تفضيله على نبينا محمد ﷺ لأن المفضول قد يمتاز بشيء يخص به، ولا يلزم منه الفضيلة المطلقة)[١]. وعلى الدعاة إلى الله إبراز مكانة الأنبياء وفضلهم، ليجد الناس فيهم القدوة الصالحة فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[٢].

سادسًا- من صفات النبي ﷺ: الشفقة والرحمة بالأمة:

تتضح شفقة النبي ﷺ في قوله: "يارب أصحابي" ولاشك أن نبينا الكريم شفوق رحيم على أمته، كيف وقد وصفه الله بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] ومما يؤكد على شفقته على أمته قوله ﷺ: ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة))[٤].

ومما جاء في الحديث أيضًا أن النبي رفع يديه وقال: ((اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك))[٥] قال النووي: (هذا الحديث مشتمل على أنواع من الفوائد، منها بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، واعتنائه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم، ومنها البشارة العظيمة لهذه الأمة، ومنها بيان عظيم منزلة النبي ﷺ عند الله تعالى وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ)[٦].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٤٩/٦.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٦.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٤) أخرجه البخاري ٨٨٧، و مسلم ٢٥٢.

(٥) أخرجه مسلم ٢٠٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٤١.

سابعًا- من خصوصيات النبي ﷺ: الإخبار ببعض المشاهد الواقعة يوم القيامة:

إن من خصوصيات النبي ﷺ إخباره ببعض ما يقع يوم القيامة، حيث أخبره الله تعالى بما سيقع يوم القيامة من تلك المشاهد والأحداث، وهذا لا يكون إلا للنبي ﷺ ومن دلائل نبوته، والحكمة في ذلك الاستعداد ليوم القيامة، وما فيه من أهوال وشدائد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من كانت عندَه مَظلمةٌ لأخيهِ فلْيَتحللهُ منها، فإنه ليس ثمَّ دِينارٌ ولا دِرهم، من قبل أن يُؤخذ لأخيه من حسناتهِ، فإن لم يكن له حسَناتٌ أُخِذَ من سيِّئاتِ أخيهِ فطُرِحَتْ عليه))[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يُخلَصُ المؤمنونَ من النارِ، فيُحبسونَ على قنطرة بينَ الجنة والنار، فيقتصُّ لبعضهم من بعضٍ مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنةِ، فوالذي نفْسُ محمَّد بيدِه لأحدُهم أهْدى بمنزله في الجنةِ منه بمنزلِهِ كان له في الدنيا))[2]

وقال ﷺ أيضًا: ((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))[3]، فكان في الإخبار عن هذه المشاهد منه ﷺ ليكون أدعى لدى الناس في الاستعداد والعمل الصالح.

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

يظهر هذا في أن المخالفين التاركين للعمل بالكتاب والسنة يؤخذ بهم ذات الشمال كما جاء في الحديث، ولقد حذر الله من مخالفة أمر نبيه فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4] وجعل الله طاعة نبيه من طاعته فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٤٢٠، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٩٧٢).

(٤) سورة النور، آية: ٦٣.

(٥) سورة النساء، آية: ٨٠.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٧٢٨٣.

الحديث رقم (١٦٦)

١٦٦- الْحَادِي عَشَرَ: عَنْ أَبِي سعيدٍ عبدِ اللَّهِ بنِ مُغَفَّلٍ ﵁، قال: نَهَى رسولُ اللَّه ﷺ، عَنِ الخَذْفِ وقالَ: «**إِنَّهُ لا يقْتُلُ الصَّيْدَ، ولا يَنْكَأُ الْعَدُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ، ويَكْسِرُ السِّنَّ**» متفقٌ عليه [1].

وفي رواية [2]: أَنَّ قريبًا لابْنِ مُغَفَّلٍ خَذَفَ، فَنَهَاهُ وقال: إِنَّ رسولَ اللَّه ﷺ نَهَى عن الخَذْفِ وقَالَ: «**إِنَّهَا لا تَصِيدُ صَيْدًا**» [3] ثُمَّ عادَ فقالَ: أُحَدِّثُكَ أَن رسولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم، نَهَى عَنْهُ، ثُمَّ عُدْتَ[4] تَخْذِفُ؟ لا أُكَلِّمُكَ أَبدًا.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مُغفَّل المزني: هو عبدالله بن مُغفَّل المزني كنيته أبو سعيد وقيل: أبو زياد وقيل غير ذلك.

له ولأبيه صحبة وقد مات أبوه في حياة النبي ﷺ قبل فتح مكة.

شارك في المغازي فشهد غزوة الحديبية وكان ممن بايع النبي ﷺ قال: إني لآخذ بغصن من أغصان الشجرة أظلِّلُ به النبي ﷺ وهم يبايعونه[5].

ولما أعلن النبي ﷺ أنه متوجه إلى تبوك لقتال الروم، ودعا المسلمين إلى التجهز للغزو، أتى عبدالله وجماعة من الصحابة الفقراء إلى النبي ﷺ ليجهزهم، فاعتذر لهم النبي بأنه لا يجد ما يحملهم عليه، فتولوا هو ومن معه ولهم بكاء شديد، حتى أطلق عليهم البكائون، ونزل قوله تعالى[6] ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[7].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٠) واللفظ له، ومسلم (١٩٥٤/٥٥).

(٢) أخرجها مسلم (١٩٥٤/٥٦) من رواية سعيد بن جبير.

(٣) عند مسلم زيادة: (ولا تنكأ عدوًا، ولكنها تكسر السنَّ وتفقأ العين) واختصره المؤلف.

(٤) لفظ مسلم: (ثمّ تخذف) بدل: (ثمّ عدتَ تخذف) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٣٦٠/١، رقم ٥٧٣).

(٥) أخرجه أحمد ٣٤/٥ رقم ٢٥٤٦، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ١٦٧/٣٤.

(٦) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٦٥/٢)، وتفسير الطبري (٦٢٤/١١)، والدر المنثور (٤٨٥/٧).

(٧) سورة التوبة، آية: ٩٢.

وفي عهد الخلفاء الراشدين ظلَّ قابضًا على راية الجهاد، فقد شارك في فتح مدينة تُسْتَر[(١)]، وكان أول من دخلها من المجاهدين.

وكان من فقهاء الصحابة وعلمائهم، فكان أحد العشرة الذين بعثهم عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقهوا أهلها، فنزلها واختط دارًا بها قرب المسجد الجامع وسكنها بعد أن كان يسكن المدينة.

روى عن النبي ﷺ أحاديث بلغت ٤٣ حديثًا، ولما مات أوصى بأن يصلى عليه الصحابي أبو برزة الأسلمي. وسنة وفاته ٥٩هـ وقيل غير ذلك[(٢)].

غريب الألفاظ:

الخذف: هو رَمْيك حصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك وترمي بها أو تتخذ مِخذفة من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة[(٣)].

ينكأ العدو: يكثر فيهم الجراح والقتل[(٤)].

الشرح الأدبي

إن الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها يعد من ألزم الواجبات التي يحرص عليها المسلم في منهجه الحياتي، وميزان حياة المؤمن هو التزامه بما أتى به محمد البشير النذير ﷺ، وما نهى عنه من سلوكيات وأقوال تتصادم مع تعاليم السنة والقرآن الذي

---

(١) بلدة معروفة من بلاد الأهواز بفارس فتحت ٢٠هـ في خلافة عمر بن الخطاب. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٢/٥٠٥).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٧/١٣-١٤)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٤١١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣/٣٩٥)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٣٧، والسير (٢/٤٨٣)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٤/٢٩٥)، والتهذيب (٢/٤٣٨)، والأعلام (٤/١٣٩)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٢/١٢٨١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ذ ف).

(٤) المرجع السابق في (ن ك أ).

أنزل من لدن حكيم خبير.

ونلمح في أفق هذا الحديث الشريف وميضًا من هدْي النبي ﷺ، وهو هدْي حكيم عميق، إذ يضع القدوة المثلى، ويحدد معالم الطريق، ويرشد إلى كيفية التعامل مع ظواهر الحياة، تعاملاً يتسامى فوق إلف العادة، وتحكم التقاليد، والحرص على سلامة إيقاع السلوك، وتوازن حركة الإنسان بين جموح العاطفة، ورزانة العقل، وصدق الشعور، ورقة الإحساس.

ويبدأ الحديث بجملة إخبارية من الراوي إذ يقول: نهى رسول الله ﷺ عن "الخذف"، والخذف كلمة غريبة ولكنها ليست ثقيلة على السمع، ولا ثقيلة في النطق، وليس بها تنافر حروف، فهي كلمة فصيحة دالة على الحدث، "فالخذف" كما يقول صاحب القاموس المحيط كالضَّرب وهو رميك بحصاة أو نواة أو نحوهما تأخذها بين سبابَتيْك: تخذف به أو بمخذفةٍ من خشب[(١)].

ثم يوضح الراوي سبب نهْي الرسول عن هذا العمل لأنه عمل غير مُتقن، وهو ليس أداة من أدوات الصيد التي تستعمل حفاظًا على الصيد، وعملاً بقول رسول الله ﷺ: "إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة"[(٢)].

وللصيد آداب وطرق.. يجب اتباعها حتى يظل الصيد بعيدًا عن إزهاق الروح، وإفساد الحياة ولذلك يأتي تعليل النهى عن الخذف في جملتين يأتيان في إطار التوكيد، حيث تبدأ كل منهما "بإن" المؤكدة مع اقترانها بالضمير العائد على الخذف، وعلى الرغم من اتفاق الجملتين في "التوكيد" فإنهما يتقابلان ويتضادان، فالجملة الأولى تأتي في أسلوب النفى وتتكون من جملتين فرعيتين، فعلهما مضارع "إنه لا يقتل الصيد، ولا ينكأ العدو"، أي لا يؤدي مهمة ناجحة، ولا يحقق الغرض المطلوب.

والجملة الثانية في بنائها وتكوينها اللغوي تتماثل مع الجملة الأولى، ولكنها مثبتة

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٨٠٣.

(٢) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

وليست منفيَّة.

والإثبات هنا ليس صيغة مُرْضية أو محَّببة، لأنه إثبات لبعض أوجه الضّرر والتشويه والفساد وهذا ما ينهي عنه رسول الله ﷺ، فالخذف الذي ينهي عنه رسول الله يقول: إنه يفقأ العين، ويكسر السن، وهذا الأثران الضّاران من معالم التشوه الإنساني.

وهما في سياق التصدي للعدو، ومجالدة الخصوم، لا يقودان إلى النصر الكامل، ولا يقصمان ظهر العدو، وقد يلحق هذا الأذى بالأبرياء، والأطفال، والشيوخ، والنساء، ولا يصيب الأعداء، ولنتأمل: ولنفتش عن السر الكامن في تماثل وتناظر الأفعال في الجملتين: فالأفعال كلها مضارعة على هذه الصورة المتحركة: "لا يقتل الصيد، لا ينكأ العدو، يفقأ العين، يكسر السن".

وهذه الأفعال الحركية تفصح عن استمرارية هذه الحالة وتحركها، ولكنها حركة داخل إطار الثبات الذي أفصحت عنه الجملتان الاسميتان، وهو ثبات مرفوض، لأنه من ظواهر الضعف والفساد، والتخاذل والكساد، ولذلك نهى عنه رسول الله ﷺ.

فقه الحديث

١-الخذف: قال الأزهري: الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع، وقال مثله الجوهري. وقال المطرزي: وقيل: أن تضع طرف الإبهام على طرف السبابة. وخص بعضهم به الحصى، ويطلق على المقلاع أيضًا. ورمي الجمار يكون بمثل حصى الخذف، وهي صغار، وحصى الخذف الصغار مثل النوى[1].

وقد اختلف الفقهاء في حكم الخذف:

- فمنهم من ذهب إلى أن الخذف محرم على الإطلاق، قال القاضي عياض: (نهى

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٩/٤٧ وانظر مراجعها: لسان العرب ومختار الصحاح والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، وفتح القدير ٢/٣٨١، وحاشية الجمل ٢/٤٦٢، وحاشية الدسوقي ٢/٥٠، و فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٤٧٩/٣ ص ٦٨.

عن الخذف؛ لأنه ليس من آلات الحرب التي يتحرز بها، ولا من آلات الصيد لأنها ترضّ[١] وقتيلها وقيذ[٢]، ولا مما يجوز اللهو به مع مافيه من فقء العين وكسر السن)[٣].

- ومنهم من نظر إلى ما يمكن أن يكون فيه من مصلحة، قال النووي: (في هذا الحديث النهي عن الخذف، لانه لا مصلحة فيه ويخاف مفسدته، ويلتحق به كل ما شاركه في هذا، ثم قال: وفيه أن ما كان فيه مصلحة أو حاجة في قتال العدو، وتحصيل الصيد فهو جائز، ومن ذلك رمي الطيور الكبار بالبندق إذا كان لا يقتلها غالبًا بل تدرك حية وتذكى فهو جائز)[٤].

وقال ابن حجر: ("صرح مجلي في الذخائر" بمنع الرمي بالبندقة[٥] وبه أفتى ابن عبدالسلام وجزم النووي بحلّه، لأنه طريق إلى الاصطياد. والتحقيق التفصيل: فإن كان الأغلب في حال الرمي ما ذكر في الحديث امتنع، وإن كان عكسه جاز، ولا سيما إن كان المرميّ مما لا يصل إليه الرمي إلا بذلك ثم لا يقتله غالبًا. وقال الحسن [البصري] بكراهة رمي البندقة في القرى والأمصار. ومفهومه أنه لا يكره في الفلاة، فجعل مدار النهي على خشية إدخال الضرر على أحد من الناس، والله أعلم)[٦].

وفي شرح منتهى الإرادات: (كره تقي الدين الرمي ببندق مطلقًا لنهي عثمان، قال ابن منصور وغيره: لا بأس ببيع البندق يرمى بها الصيد لا للعب)[٧].

---

(١) رضَّه: رضًّا: كسره فهو مرضوض ورضيض، المعجم الوسيط في (ر ض ض).

(٢) الموقوذ: الشديد المرض المشرف على الموت، والموقوذ من الشاء: التي وقذت بالعصا [أي ضربت] حتى ماتت، والوقيذ: الذي يغشى عليه لا يدري أميت هو أم حيّ. والشديد المرض المشرف على الموت. والوقيد من الشاء: الموقوذة. انظر: المعجم الوسيط في (و ق ذ)، و معجم لغة الفقهاء ٤٧٩.

(٣) إكمال المعلم ٦/٣٩٣ بتصرف.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٤٢.

(٥) قال ابن حجر: "وأما البندقة فمعروفة تتخذ من طين وتيبس فيرمى بها"، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٤٠/٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٤٠/٣-٢٤٤١.

(٧) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤١٨/٣.

هذا وقد ذكر الفقهاء ما يدل على جواز الرمي بالأحجار في حال القتال أو في حال التدريب، أو المسابقة بعوض[1].

٢-جواز هجران من خالف السنة:

قال النووي: (في الحديث هجران أهل البدع والفسوق منابذي السنة مع العلم وأنه يجوز هجرانه دائمًا، والنهي عن الهجران فوق ثلاثة أيام، إنما هو فيمن هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي، والتوكيد، والتعليل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان حرمة الخَذْف.

ثالثًا: من واجبات المدعو: بيان هدي النبي ﷺ في الأمور.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي، والتوكيد، والتعليل:

١- **النهي**: حيث جاء في الحديث "نهى رسول الله" والنهي من أساليب الدعوة التي ترهب المدعو، وتحجزه عن الوقوع في الخطأ، وتعطي دلالة على أهمية عدم إتيان الأمر المنهي عنه.

٢- **التوكيد**: لقد جاء في قوله ﷺ "إنه لا يقتل" والتوكيد يفيد في إقناع المدعو، ويدلل على أهمية ما يقول الداعية.

٣- **التعليل**: يعد التعليل من أساليب الدعوة التي تجيب على التساؤلات التي يمكن أن تدور في نفس المدعو، كما يعمل التعليل على إزالة اللبس أو الغموض أو التردد الذي

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٤٨/٩ ومراجعها: الشرح الصغير ٣٥٦/١، والمهذب ٤٢١/١، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣٨٤/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٤٢، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٤٠/٣.

قد يوجد لدى المدعو، وقد بيّن النبي ﷺ علة نهيه عن الخذف فقال: "إنه لا يقتل الصيد ولا ينكأ العدو..." وهذا البيان لعلة النهي حتى لا تبقى شبهة في ذهن السامع.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان النهي عن الخَذْف:

ورد النهي عن الخذف في هذا الحديث، قال ابن حجر: (والخذف أن يرمي بحصاة أو نواة بين سبابتيه، أو بين الإبهام والسبابة، أو على ظاهر الوسطى وباطن الإبهام، وقيل في حصى الخذف أن يجعل الحصاة بين السبابة من اليمنى والإبهام من اليسرى ثم يقذفها بالسبابة من اليمين قال المهلب: أباح الله الصيد على صفة فقال: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾[1] وليس المرمي بالبندقة ونحوها من ذلك، وإنما هو وقيذ، وأطلق الشارع أن الخذف لا يصاد به لأنه ليس من المجهزات، وقد اتفق العلماء -إلا من شذ منهم- على تحريم أكل ما قتلته البندقة والحجر. وإنما كان كذلك لأنه يقتل الصيد بقوة راميه لا بحده)[2].

ثالثًا- من واجبات المدعو: بيان هدي النبي ﷺ في الأمور:

يستنبط ذلك من قول ابن مغفل لقريبه لما رآه يخذف: إن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف، وهذا من أهم واجبات المدعو أن ينتفع في نفسه وينفع غيره، ويذكره بهدي النبي ﷺ وقد قال النبي ﷺ ((بلغوا عني ولو آية))[3] وقال ﷺ أيضًا: ((الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))[4].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما صمام الأمان في أي مجتمع، وهما أساس فلاح الأمة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٩٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٢٢/٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥.

ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[(١)]، وجعل الله من صفات المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[(٢)]، وتطبيقًا لهذا المبدأ قام الصحابي بالنهي عن الخذف مذكرًا بنهي النبي ﷺ عنه، وهذا ما يؤكد استجابة أصحاب رسول الله ﷺ وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد قال رسول الله ﷺ: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[(٣)].

قال النووي: (واعلم أن هذا الباب أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًا، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أو شك أن يعمهم الله تعالى بعقابه فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب فإن نفعه عظيم، لاسيما وقد ذهب معظمه ويخلص نيته، ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[(٦)]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩.

(٤) سورة الحج، آية: ٤٠.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٠١.

(٦) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1].

واعلم أن الأجر على قدر النصب، ولا يتركه أيضًا لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقًا، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته، وإن أدّى ذلك إلى نقص في دنياه، وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدوًا لنا لهذا، وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها)[2].

لذا ينبغي لكل مسلم أن يعمل على إحياء هذه الشعيرة الإسلامية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والالتزام بالأوامر الشرعية والانتهاء عما نهى عنه الشرع، والاستجابة لذلك طمعًا في رضا الله تعالى.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢ - ٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٥.

الحديث رقم (١٦٧)

١٦٧- وعنْ عابسِ بن ربيعةَ قال: رَأَيْتُ عُمَرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه، يُقَبِّلُ الْحَجَرَ (يَعْنِي الأَسْوَدَ) [١] ويَقُولُ: إني أَعْلَمُ أنَّكَ حَجَرٌ مَا تَنْفَعُ ولا تَضُرُّ، ولَوْلا أنِّي رأَيْتُ رسولَ اللَّه ﷺ، يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ، متفقٌ عليه [٢].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

إن كل مظاهر هذا الكون الفسيح تشهد بعظمة الله وقدرته، وتنطق بجلاله وعظمته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [٣]، وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [٤].

وفي ضوء هذا التوجيه القرآني نستجلي بعض أسرار هذا الحديث الذي يرويه عابس بن ربيعة ناقلاً موقف عمر بن الخطاب من تقبيل الحجر الأسود، وهو يُعدُّ من السنة الفعلية، حيث اقتدى عمر وتأسى برسول الله ﷺ في هذا الفعل الإيماني؛ والحجر في إدراكنا القريب جماد لا يسمع ولا يبصر، ولكن عمر رضي الله عنه يخاطبه، وكأنه يسمع كلمات عمر، ويعي ما يريد حيث يقول: إني أعلم أنك حجر ما تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

وفي الأساليب العربية كثيرًا ما يخاطب البلغاء الظواهر الطبيعية الجامدة،

---

(١) هذا التفسير من المؤلف.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠/٢٥١). أورده المنذري في ترغيبه (٦٨).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩٠.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

ويشخصونها وكأنها كائنات حية تبادلنا الود، وتصغى لكلماتنا، وتتفاعل مع نجوانا، ونبثها همومنا وشكوانا على سبيل الاستعارة، ومثل هذا كثير في الشعر والنثر، وهو دليل على الصحة النفسية والتذوق الجمالي، وبرهان على الوفاء الغامر لجميع المخلوقات، والبيان النبوي يقودنا إلى هذا الأفق من آفاق الجمال الأسلوبي في لغتنا العربية التي شرفها الله بنزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وما أرق هذا التعبير، وما أعظمه، وما أجمله حيث يروي أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن أُحدًا جبل يحبنا ونحبه"[(١)].

فخطاب عمر للحجر الأسود ومضة من وهج البيان النبوي في استجلاء معالم القدرة الإلهية التي أبْدعَتْ هذا الكون بما فيه من آيات باهرات تأسر أولى الألباب، وتدفعهم إلى بيان منبع الحكمة وفصل الخطاب.

وبيانُ عمر يتضمن جملتين: أولاهما خبرية تبدأ بالتوكيد، ويتوسطها التوكيد للدلالة على يقين عمر من أنه لا ينفع ولا يضر إلا خالق الكون، وقدم: النفع على الضَّرر، لأن بعض الناس يعتقدون خطأ أن بعض المخلوقات تجلب لهم النفع، فيتوهمون كثيرًا من الأمور، ويقبلون على كثير من السلوكيات المرفوضة، وتتحول عاداتهم الواهمة المثلومة إلى عقائد مزعومة؛ وقال الطبراني: إنما فعل عمر ذلك لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشى عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم الأحجار كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان، وقول عمر رضي الله عنه لا يقدح في أفضلية الحجر الأسود، ومكانته في التشريع الإسلامي، واحتفاء الرسول ﷺ به.

ولنتأمل صياغة الجملة الثانية حيث تعلن عن تسليم عمر للشارع في أمور الدين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيه، وهى قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله، ولو لم نعلم الحكمة فيه[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٨١، ومسلم ١٣٩٢.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣١٦، ٣١٧.

والجملة صيغت في قالب الجواب والشرط، وتضمنت التوكيد "بأن" مثل الجملة الأولى: وأداة الشرط هي "لولا"، وهي أداة امتناع لوجود، فتقبيل الحجر موجود بفعل رسول الله ﷺ، ويضيف عمر إلى التأكيد "بإن" الرؤية التي تعضّد موقفه، حيث شاهد رسول الله ﷺ وهو يقبل الحجر، ولذلك يمتنع جواب الشرط: وهو عدم تقبيل عمر، وثمرة هذه الصياغة هو التقبيل اتباعًا لا ابتداعًا، وفي رواية: ولكن رأيت رسول الله بك حَفيًا، رضى الله عن عمر ورزقنا اتباع سنة رسول الله ﷺ.

فقه الحديث

إن الطاعة الكاملة لما أنزل الله عز وجل وما شرع على لسان نبيه ﷺ من أهم سمات المسلم، وهذا ما ظهر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهو يعلم تمامًا أن الحجر لا يضر ولا ينفع ولكنه نفذ ما رأى رسول الله ﷺ يفعله.

وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه يستحب للطائف تقبيل الحجر الأسود بدون صوت إن استطاع ودون مزاحمة لأحد، فإن كان في الطواف زحام وخشي الطائف إيذاء الناس فالأولى أن يترك تقبيل الحجر الأسود واستلامه، لأن استلام الحجر سنة وترك إيذاء الناس واجب فلا يهمل الواجب لأجل السنة، فمن لم يستطع استلام الحجر وتقبيله يشير إليه بيده دون تقبيل اتباعًا لسنة النبي ﷺ، ومن لم يفعل ذلك فلا شيء عليه ومناسكه صحيحة.

---

(١) المبسوط، السرخسي للسرخسي ٩/٤، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٢/١٣٠، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي للإمام مالك بن أنس ١/٣٩٦، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل، وهو مطبوع بهامش مواهب الجليل شرح مختصر خليل، المواق ١٥١/٤، وإحكام الأحكام ٢/٧٠، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي للنووي ٨/٤٠، والغرر البهية في شرح البهجة الوردية، الأنصاري ٢/٢١٨، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو٣/١٨٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٥/٤، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩/١٦، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٧/١٠٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تقبيل الحجر الأسود.

ثالثًا: من مهام الداعي: بيان السنة والحث عليها بالطريقة العملية.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان حرص عمر رضي الله عنه على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

لقد استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الأسلوب، فأكد كلامه في قوله (إني أعلم أنك حجر) واستعمال الداعية لهذا الأسلوب يعطي دلالة على أهمية الأمر الذي يؤكد عليه، مما يجذب انتباه المدعو ويثير اهتمامه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تقبيل الحجر الأسود:

من السنة التي ندب الشرع إليها لمن زار البيت الحرام وطاف بالكعبة تقبيل الحجر الأسود، ومما يدل على ذلك استلام النبي صلى الله عليه وسلم له وتقبيله وتأسي عمر بذلك ويظهر ذلك في الحديث "ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك"، وبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن استلام الحجر سواء باليد أو بعصا أو تقبيل، تكفير للخطايا فعن ابن عبيد بن عمير عن أبيه أن ابن عمر كان يزاحم على الركنين زحامًا ما رأيت أحدًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يفعله فقلت يا أبا عبد الرحمن، إنك تزاحم على الركنين زحامًا ما رأيت أحدًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يزاحم عليه، فقال إن أفعل؟ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن مسحهما كفارة للخطايا))[1].

وفي فضله أيضًا روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجر ((والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق))[2].

---

(١) أخرجه الترمذي ٩٥٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٦٦)

(٢) أخرجه الترمذي ٩٦١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٧٦٨).

ثالثًا- من مهام الداعي: بيان السنة والحث عليها بالطريقة العملية:

إن البيان وإيصال الحقائق للمدعوين له طرق متعددة، من أهمها البيان بالطريقة العملية ليسهل على المخاطبين التأسي والاقتداء، وإنه لمن دقة ذكاء عمر وبالغ فقهه أن قرن قوله بالعمل فقال وقت تقبيله للحجر: "أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك" وهو بذلك يقتدي برسول الله ﷺ الذي بين للأمة تنفيذ الشرائع بالطريقة العملية فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر يقول لنا ((خذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه))[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان حرص عمر رضي الله عنه على الاقتداء بالنبي ﷺ:

لقد ضرب عمر بن الخطاب والصحابة رضي الله عنهم المثل في الاقتداء برسول الله ﷺ ومن هذا المنطلق استلم عمر رضي الله عنه الحجر مبينًا للناس أن استلامه اتباعٌ لفعل رسول الله ﷺ، قال الطبري: إنما قال عمر ذلك لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل في الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباعًا لفعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان[2]. وبذلك رأينا من عمر حرصه على الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وذبه عنها، وتحذير الناس من المفاهيم الخاطئة التي يلقيها الشيطان في قلوبهم.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل التأسي بالنبي ﷺ:

لقد أمرنا الله سبحانه بالاقتداء بنبيه ﷺ ورغبنا في ذلك فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[3] (والأسوة القدوة،

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٠٦٣ ص ٢٤٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ١٧٣٣).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/٥٤١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

وما يتأسى به ويُتَعزّى به، فيقتدى به في جميع أفعاله ويُتَعَزّى به في جميع أحواله، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر أي يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال)[١]. (فالواجب التأسي برسول الله ﷺ والاقتداء به في أعماله فالرسول الكريم مَثَلٌ في العبادة والشجاعة والإقدام والصبر والمثابرة على النوازل فهو المؤمن الواثق بالله المتوكل عليه، وفي ذلك إرشاد للناس حيث يجب عليهم أن يأتموا بالنبي ﷺ في كل شيء فهو المثل الأعلى المثل الكامل ﷺ)[٢].

لقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أرفع الأمثلة في الاقتداء المطلق برسول الله ﷺ مثل تقبيل عمر للحجر الأسود، والأمثلة في ذلك كثيرة - فعن سعيد بن جبير قال كنا مع ابن عمر حيث أفاض من عرفات إلى جمع فصلى بنا المغرب ومضى ثم قال الصلاة فصلى ركعتين ثم قال هكذا فعل رسول الله ﷺ[٣] وعن مجاهد قال: كنا مع ابن عمر في سفر فمر بمكان فحاد عنه فسئل لم فعلت؟ فقال رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت[٤].

لذا ينبغي على الناس دعاة ومدعوين أن يلتمسوا سنة رسول الله ﷺ ويقتفوا أثره، إحياءً لسنته ونقلها إلى من بعدهم. إضافة إلى محبة الله قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥] وعلو الدرجات ورفعة المنزلة يوم القيامة ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٦/١٤/٧.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، ٨٠/٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٢ رقم ٤٤٥٢، وقال محققو المسند إسناده صحيح ١٧/٨ - ١٨.

(٤) أخرجه أحمد ٣٢/٢ رقم ٤٨٧٠، وقال محققو المسند إسناده صحيح ٤٧٤/٨ - ٤٧٥.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٦) سورة النساء، آية: ٦٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

السنة هي وديعة الرسول ﷺ لدى الأمة وهي خير مصدر للتربية، ومن هديها ما يلي:

أولاً- التربية بالعبرة:

لقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب التربوي لتزويد المتربين بخبرة السابقين عليهم، حتى لا يقعوا في أخطائهم، ولهذا الأسلوب فائدة جليلة، وهي أن يستقي المتربي التجربة دون شقاء، وكذلك من فوائدها: معرفة أحوال السابقين من الأمم، يقول ﷺ: «فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»، وفي هذا نهي عن كثرة السؤال والاختلاف على النبي ﷺ؛ لأن ذلك كان سبباً في هلاك الأمم السابقة، وأدى بهم إلى التغيير والتبديل في دينهم.

إن التربية بالعبرة "أسلوب تربوي، يقوم على انتقال الذهن من قصة أو واقعة مشهودة أو محكية إلى ما يقابلها أو يشابهها أو يناظرها من أحوال الناس أو المتعلمين، أو إلى ما يتوقع أن تؤول إليه أحوالهم، أو أحوال شعب ما أو مجتمع ما، أو أمة ما، قياساً على هذه القصة، لأن مقدمتها وأحوال أبطالها تشبه ما عليه هذا الفرد المعتبر أو هذا الشعب أو المجتمع، فيجب أن يكون المصير والمآل متشابهاً؛ كما تشابهت المقدمات"[1].

ثانياً- التربية بالوصية:

وقد ورد هذا الأسلوب في قوله ﷺ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.....»، والمعهود في الوصية أنها تكون لمن قارب الموت، ولهذا فقد قال له الصحابة رضي الله عنهم: «كأنها مَوْعِظَةُ مودِّعٍ»، وقد كانت وصية ﷺ مرتكزة على الأمور الرئيسة التي عليها وحدة الأمة، فقد أوصى بتقوى الله تعالى، والسمع والطاعة لولي الأمر وإن كان الأمير عبداً حبشياً، وأوصى بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه والاعتصام بهما وترك المحدثات والبدع والضلالات.

---

(١) التربية بالعبرة، عبدالرحمن النحلاوي ص ١٧.

"والتذكير بالخير والحق والدعوة إليهما والتنبيه إلى الشر والضرر والنهي عنهما هو من صميم الأساليب التربوية الإسلامية للإنسان المسلم، والتي يحتاجها أي إنسان في كل زمان وفي كل مكان"[١].

ثالثًا- الترغيب والترهيب:

وقد ورد الترغيب والترهيب في قوله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»، كما يبدو أسلوب الترهيب في قوله: «لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللّٰه بَيْنَ وُجُوهِكُمْ». وذلك الأسلوب التربوي يبين به النبي ﷺ جزاء من أطاعه ويرغب في الطاعة؛ لأن جزاءها الجنة، وكذلك يرهب من عصيانه؛ لأنه يُدخل النار.

وفي حديث آخر يُرهب النبي ﷺ من اعوجاج الصفوف في الصلاة، لأنها سبب في اختلاف القلوب والوجوه، أي: اختلاف المذاهب والميول فيما بينهم؛ لأن الإنسان "مفطور على الإحساس باللذة والألم، وهو بذلك يرغب أن ينال كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه، من خلال الترغيب والترهيب"[٢].

رابعاً- التربية بالملاحظة:

من أهم وظائف المربي ملاحظة المتربين، والنظر إلى تصرفاتهم، فما وجد فيها من خير أثنى عليه طلباً للزيادة فيه، وتشجيعاً للمتربي، وما رآه سلوكاً خارجاً أو خاطئاً نهي عنه، ليرجع عما يفعل، ولذلك فقد اهتم بالرجل الذي أكل عنده بشماله، وعندما نهاه النبي ﷺ عن ذلك، وأمره أن يأكل بيمينه ادَّعى كبراً أنه لا يستطيع، فما كان منه إلا أن دعا عليه بأن لا يستطيع الأكل بها، وقد استجيبت الدعوة.

ولهذا الأسلوب دور كبير في توجيه المتربي إلى ما يفيده، ويعتبر "من أقوى الأساليب في نمو الإنسان المتوازن المتكامل الذي يؤدي حقه في الحياة، ويعرف ما له وما عليه.... وربما أتى المتربي أخلاقاً غير سوية، ولذلك فهو محتاج إلى مراقبة وملاحظة دائمة"[٣].

---

(١) فلسفة التربية في الحديث النبوي، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٣٢، ٣٣٣.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٣٩٣.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ٧٢٧/٢ بتصرف.

خامساً- التربية الوقائية:

لقد اهتم النبي ﷺ بكل صغيرة وكبيرة في حياة المسلم، ولهذا فإنه حرص على ما يفيده، ونهى عما يؤذيه، وما ذلك إلا لحبه الصادق للمسلمين، فقد أمر بإطفاء النار قبل النوم، وقال: «فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ»؛ وذلك لاحتمال اضطرامها ونشوب الحريق في البيت كله، وهذا ما يحذر النبي ﷺ صحابته الكرام منه.

وكذلك فقد نهى النبي ﷺ عن قذف الحصا بالإبهام، لأنه لا فائدة مجدية من ورائه، فهو يؤذي الإنسان لأنه كما قال ﷺ: «يَفْقَأُ الْعَيْنَ وَيَكْسِرُ السِّنَّ»، وإذا كان في التدريب على الرماية فائدة، فإنما تكون في حرب العدو أو الصيد، وهذا النوع من اللهو لا قيمة له، يقول ﷺ: «إنه لا يقتلُ الصيدَ ولا يَنكأ العدُوَّ»، ولوقاية المارَّة من الإصابة، فقد نهى النبي ﷺ عن قذف الحصا بهذه الطريقة.

إن الوقاية أصل من أصول التربية ، سواء في الأمور الجسدية أم الأخلاقية، وهي ليست إلا الحذر مما يؤدي إلى الضرر، وهذا المحصول نفسه ما تنتهي إليه في المجالات الفكرية والعقدية والأخلاقية والتشريعية"[1].

وهذه التحذيرات والتوجيهات، قدمها الرسول ﷺ على هيئة نصائح وإرشادات تحمل في طياتها الخوف، والإشفاق تجاه الفرد المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلم، وهي بمثابة جُرعة وقائية، إن أُخِذَت ستقي المجتمع من الأخطار المتوقعة لهلاك المحقق"[2].

سادساً- التربية بضرب المثل:

يضرب النبي ﷺ المثل في تشبيه أمر دعوته وتقريبها إلى عقول المتلقين، يقول ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ...»، ثم يشبه الذين أهتدوا بهديه كالأرض الطيبة التي آتت أكلها، والذين ضلوا عن سبيله ولم يفيدوا بهديه، بالأرض القيعان، التي لا تنتفع بالمطر، ولا تمسك ماءً، ولا تفيد الناس

---

(١) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، د. عبدالحليم عويس ٣١٩/١ بتصرف يسير.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني ص ٢٥٦.

ولا تشرب من آبارها البهائم.

وفي حديث آخر يشبه النبي ﷺ نفسه وصحابته بالرجل الذي أوقد ناراً فاجتمعت حولها الفراشات والجنادب، تريد أن تقع فيها، والرجل يذهبهن عنها، وهي تتفلت من يده.

والأمثال "تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس، فتقبله العقول؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن، إلا إذا وضعت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقيقة وتعرض الغائب في معرض الحاضر"[(١)].

سابعاً- من الأساليب التربوية: التربية بالهجر والإعراض:

وقد استخدم هذا الأسلوب عبدالله بن مغفل مع قريبه الذي لم يمتثل لنهيه عن الخذف، فنهاه سرًا، مذكراً إياه بحديث النبي ﷺ، ولكنه عاد إليه مرة أخرى، فقال له: «أُحَدِّثُكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْهُ ثُمَّ عُدْتَ تخذف لا أكلمك أَبَدًا»، وربما كان هجره لقريبه موقوتاً بانتهائه من سلوكه، وقد استخدم الصحابي الجليل هذا الأسلوب؛ لعلمه بفائدته الكبيرة في تقويم السلوك الخاطئ، والقضاء على التصرفات السيئة.

"ولا شك أن هذا الأسلوب سيكون فاعلاً... إذا لم يجد معه استخدام الأساليب التربوية الأخرى... وأصر الناشئ على ممارسة السلوك غير المرغوب فيه، ولكن شريطة أن يكون الهجر والإعراض موقوتين... ولا تزيد عن ثلاثة أيام؛ لأن ذلك يدخل في عموم نهيه ﷺ عن الهجر فوق ثلاثة أيام"[(٢)].

وفي الباب عناية ورعاية النبي ﷺ لأجل سلامة الإنسان وسلامة الحيوان، حين نهى عليه السلام عن الرمي بالخذف، وهي حصاة ترمى بالسبابة والإبهام، إما لصيد حيوان أو طير أو لإيذاء وممازحة ولأن الضبط فيها غير متقن، ولأن جمعها من الصغر بما لا يصيد، ولكنه قد يفقأ العين أو يكسر السن أو يدمي الوجه كان النهي عنه.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني ص ٤٢٣.

(٢) أصول التربية الإسلامية، أمين أبو لاوي ص ٢٠٤، ٢٠٥ بتصرف يسير.

ويلحق بهذا في زمننا الرمي بالنبل ومسدسات الخردة وغير ذلك من الألعاب النارية التي من شأنها إحداث بعض الحروق أو غير ذلك، ورمي السهام، كل هذا لا يقتل ولكنه يضيب الإنسان، فضلاً عن الترويع للآخرين، وهو من المنهي عنه شرعاً.

إن بيان هذا النهي للناشئة مما ينبغي اعتباره وعلينا أن نقدم للأولاد من اللعب ما ينمي الذكاء ويحرك القدرات العقلية ولا يضر الآخرين في نفس الوقت.

كما أن مثل هذه الوسائل الترفيهية بحق الأطفال هي وسائل لتبديد رأس المال لأن المنتج غير عربي ولا إسلامي في كثير من الأحيان، وليس له أي مردود إيجابي سوى فرصة الناشئة والتي يمكن استبدالها بحكمة بغيرها من وسائل الترفيه النافعة.



١٧- باب في وجوب الانقياد لحكم الله

وما يقوله من دُعِيَ إلى ذلك وأمرَ بمعروف أو نُهِيَ عن منكر

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[النساء: ٦٥]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[النور: ٥١].

وفيه من الأحاديث: حديث أَبي هريرة المذكور[١] في أول الباب قبله، وغيره من الأحاديث فِيهِ:

الحديث رقم (١٦٨)

١٦٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم: {للّهِ ما في السَّموات وَمَا فِي الأرض وإن تبدوا مافِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللّه} الآية [البقرة ٢٨٣] اشْتَدَّ ذلكَ عَلَى أَصْحابِ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فأَتوْا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ بركُوا عَلَى الرُّكَب فقالُوا: أَيْ رسولَ اللّه كُلِّفْنَا مِنَ الأَعمالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاَةَ وَالْجِهادَ وَالصِّيام وَالصَّدقةَ، وَقَدَ أُنْزلتْ عليْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلا نُطِيقُهَا. قالَ رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولوا كَمَا قَالَ أَهلُ الْكِتابَيْنِ مِنْ قَبْلكُمْ: سَمِعْنَا وَعصينَا؟ بَلْ قُولوا: سمِعْنا وَأَطعْنَا غُفْرانَك رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**»[٢] فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَومُ وَذَلقَتْ[٣] بها أَلْسِنتهُمْ، أَنَزلَ اللّه تَعَالَى في إِثْرِهَا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِليْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنونَ كُلٌّ آمَنَ باللّه وَملائِكَتِهِ وكُتُبه وَرُسُلِهِ لا نُفرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه وَقالوا سمعْنَا وَأَطعْنا غُفْرَانكَ رَبَّنَا

---

(١) تقدم برقم (١٥٦).

(٢) عند مسلم زيادة: (قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).

(٣) لفظ مسلم: (ذلت).

﴿إليك المَصيرُ﴾ فَلَمَّا فعلُوا ذلك نَسَخَهَا اللَّه تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لا يُكلِّفُ الله نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لا تُؤاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَو أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كَمَا حمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا مَالا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْت مَوْلانَا فانْصُرنَا عَلَى الْقَوِمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: نعَمْ. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بركوا على الركب: جلسوا على ركبهم[2].

اقترأها: قرأها[3].

ذلقت بها ألسنتهم: سهلت وانقادت، والمعنى: أكثروا من قراءتها واعتادوا قراءتها[4].

إثرها: بعدها[5].

نسخها: نسخه: أي أزاله وغيره وأبطله وأقام شيئاً مقامه[6].

---

(١) برقم (١٢٥/١٩٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر ك).

(٣) الوسيط في (ق ر أ).

(٤) الوسيط في (ذ ل ق).

(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣٤١.

(٦) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ن س خ).

الشرح الأدبي

تتجلى في هذا الحديث الشريف الصلة العضوية والموضوعية بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فالمصطفى ﷺ لا ينطق عن الهوى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾(١)، وألفاظ النبوة منبعها القلب المتصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، كما يقول الرافعي، فالبلاغة النبوية ليست من الوحى.. ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله.

والبيان النبوي لا ينفصل عن البيان القرآني: فهو يفصل مجملاً، أو يوضح مشكلاً، أو يخصص عاماً، أو يقيد مطلقاً، وهذه المعالم التي توضح جوانب الصلة بين القرآن والحديث النبوي الشريف... تتجلى وتسطع جوانبها في هذا الحديث النبوي الذي يعد نموذجاً لاندماج النص القرآني في سياق النص النبوي للإقناع والاستشهاد والاطمئنان، وهذا الحديثُ ينفرد بسمة بارزة في كتاب رياض الصالحين، حيث يتفرد وحده بباب من أبواب هذا الكتاب، وهو كما أورده الإمام النووي (باب في وجوب الانقياد لحكم الله تعالى ، وما يقوله: "مَنْ دعي إلى ذلك، وأُمر بمعروف أو نُهي عن منكر).

وتشرقُ في بداية الحديث ظاهرة ملفتة وهى: سرعة استجابة الصحابة رضوان الله عليهم لما تتنزل به الآيات من تعاليم وانقيادهم لحكم الله تعالى؛ ولذلك حينما نزلت عليهم هذه الآية: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾(٢).

فزعوا وأصابهم القلق لحرصهم على الطاعة، وشعورهم بأن مضمون الآية فوق طاقتهم، فكيف يحاسبون على ما يضمرونه ؟ وكيف يتحكمون في خواطرهم ووساوسهم، وهذا الفزع أشار إليه الراوي في بلاغة موحية حيث قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول

---

(١) سورة النجم، آية: ٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

الله ﷻ ، ثم تتحول هذه الشدة الشعورية ، وهذا الإحساس بالخوف وعدم تحمل هذه المسؤولية لأنها فوق الطاقة ، إلى حركة محسوسة تصور حجم هذا القلق ، حيث "بركوا على الركب" ، وهي عادة الخائف الوجل ، ولنتأمل صورة هؤلاء الجاثين على ركبهم ، وهم ينادون مستعطفين طالبين الرأفة.

والنداء تتصدره "أي" وهي حرف لنداء القريب ، والقرب هنا حسي ومعنوي ، يوحي بالاستعطاف ، وقد صرّح الصحابة بما يفزعهم ويقودهم إلى الإحساس بالتقصير في الطاعة حيث قالوا : قد أُنْزلت عليك هذه الآية ونحن لا نطيقها ، ويقول المازري ، "اعتقدوا أنهم يؤاخذون بما لا قدرة لهم على دفْعه من الخواطر التي لا تكتسب ، فلهذا رأوه من باب ما لا يطاق".

ولنتأمل كيف قابل رسول الله هذا الموقف بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وبالإقناع الجميل ، حيث واجههم باستفهام إنكاري ، ولكنَّه مقنع ومرشد إلى الطريق السويّ ، قال : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ، بل قولوا : سمعنا وأطعنا ، والتعبير بقوله : أتريدون أن تقولوا ، فيه إشعار بأنهم : لم يقولوا ذلك ، وهذا التعبير أقرب إلى الحكمة في الخطاب من قوله : أتقولون : مباشرة ، فتأمل دقة هذا الخطاب النبوي الذي يجمع بين الترغيب والترهيب؛ وبلاغة الحذف تتجلى في قوله : "سمعنا وعصينا" ، والتقدير سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ، وحَذْف متعلقات الأفعال يفسح المجال للتفسير المتعدد ، والتأويل الدلالي ، المتسع والمتنوع ، والأمر كذلك في قوله : سمعنا وأطعنا ، ولكن البون شاسع : بين السماع الرافض عند أهل الكتابين ، والسماع الوامض من أهل النورين : الكتاب والسنة : أوثق مصدرين ، وأطهر منبعين ، لكل مكلف بالدعوة من الثقلين.

ويتحول الخوف من التقصير إلى يقين في ظل رحمة العلي القدير ، حيث أعاد القوم قراءة الآية التي وجلت منها قلوبهم ، فاطمأنوا وانقادت بالاستسلام بها ألسنتهم ، وكافأهم الله بخواتيم سورة البقرة ، وبذلك انكشفت الكُرْبة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر. ويقول القرطبي في ختام تفسيره للآية الأخيرة في سورة البقرة : خرج هذا

مخرج التعليم للخلق كيف يدعون ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى قاعدة فقهية مهمة تعرض لها الفقهاء وهي قولهم: "التكليف على قدر الاستطاعة" ومثلوا لها بأمثلة عدة، فمثلاً اتفق الفقهاء[2] على مشروعية المسح على الخفين للمسافر وهو رخصة.

واتفقوا أيضًا[3] على جواز الفطر للمريض والشيخ الكبير والمسافر والحامل والمرضع التي تخشى على ولدها من التلف.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦ .

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٨/١ وما بعدها، وتبيين الحقاق ٤٥/١ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣١٨/١ وما بعدها، وشرح منح الجليل ١٣٤/١ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٩٧/١ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٩٨/١ وما بعدها، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو١٧٤/١ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ١٥٨/١ وما بعدها.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٠٢/٢ وما بعدها، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٩٦/٢ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٤٤٧/٢ وما بعدها، وشرح منح الجليل ١٢٠/٢ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١٨٥/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٦٨/٢ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٤٧٥/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٠٩/٢.

وكذا قصر الصلاة في السفر[1]، والمسح على الجيرة للمصاب، وغير ذلك من أحكام ورخص امتلأ بها التشريع الإسلامي تيسيرًا على الناس ورحمة بهم، فمثل هذه الأحكام كانت مستندة على قاعدة التكليف على قدر الطاقة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الالتزام بما ورد في القرآن الكريم.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الاستفهام، والتحذير، والدعاء.

ثالثاً: من تاريخ الدعوة: موقف أهل الكتاب مما جاء به الرسل عليهم السلام.

رابعاً: من واجبات المدعو: الاستجابة والانقياد لأوامر الله ورسوله.

خامساً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده وتخفيفه عنهم.

سادساً: من موضوعات الدعوة: وقوع النسخ في القرآن.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية، ورفع المشقة والحرج.

ثامناً: من خصائص الدعوة الإسلامية: الواقعية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الالتزام بما ورد في القرآن الكريم:

حرص الصحابة رضي الله عنهم كل الحرص على الالتزام بما جاء في كتاب الله تعالى شفقوا من عدم قيامهم بما أمرهم الله به أو الالتزام بما طلب منهم ((فأتوا رسول

---

(1) المبسوط، السرخسي للسرخسي ٢٣٥/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود ٩١/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٣٨/٢ وما بعدها، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ١٣٩/٢ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٤٠١/١ وما بعدها، والأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره للشافعي ٩٦/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي للنووي ٢١٠/٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٤٩/٥، والفروع، ابن مفلح ٥٤/٢، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٤٧/٢ وما بعدها.

الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق:الصلاة والجهاد والصيام والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها)) دفعهم إلى ذلك توجههم إلى ربهم رغباً ورهباً ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١] واستجابة لأمر الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الاستفهام والتحذير والدعاء:

إن من أساليب الدعوة في هذا الحديث الاستفهام والتحذير، وقد ورد هذا في قوله ﷺ مخوفاً لهم من قطيعة العصيان وامتناع قبول الأوامر (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم - أي اليهود والنصارى- سمعنا وعصينا)[٣].

الدعاء: وذلك في قوله: "غفرانك ربنا" وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٤] الآية، فالدعاء من الأساليب الدعوية المهمة لما له من أثر عظيم في حصول المطلوب، وترقيق قلوب المدعوين واستجابتهم.

ثالثاً- من تاريخ الدعوة: موقف أهل الكتاب مما جاء به الرسل عليهم السلام:

في حديث القرآن عن أهل الكتاب نجد إنصافه للمؤمنين منهم فقال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٥] هؤلاء الأكثرون لسان حالهم في استقبالهم أوامر الله، سمعنا وعصينا قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾[٦].

(١) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٣١٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٦) سورة النساء، آية: ٤٦.

لقد لعب اليهود والنصارى أدواراً مهمة في التكذيب والتشكيك، وزعموا أنهم لن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ حتى يأتيهم بمعجزات قد أتى بها الأنبياء السابقون، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1].

وقد نقض القرآن دعواهم وأبطلها... وأقام عليهم البراهين المتنوعة، كل واحد منها ملزم لهم بتصديق النبي محمد ﷺ في كل ما يقوله، قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

لقد تحداهم القرآن أن يثبتوا ذلك بطريق صحيح ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ فلم يستطيعوا إخراج التوراة، لأن ما فيها سوف يفضحهم ويكشف كذبهم.

ولا شك أن في هذا التحدي البرهان القاطع بصدق النبي ﷺ، أما النصارى فالبراهين الملزمة لهم بتصديق النبي محمد ﷺ كثيرة جداً منها: حادثة المباهلة مع نصارى نجران في مسألة المسيح ابن مريم، وإن عدم دخول النصارى في المباهلة تسليم منهم واعتراف بنبوة محمد ﷺ[3].

وقد حذر الله المؤمنين أن يحذوا حذوهم، وبين أن من مقومات الإيمان السمع والطاعة ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٣.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٣-٩٤.

(٣) انظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر عواض الألمعي ص ٢٨٢-٢٩٣.

وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(١)]. ومع بيان القرآن لمواقف أهل الكتاب تجاه الدعوة أمر الله ألا تعدو مجادلتنا معهم، المجادلة الحسنة إلا من اعتدى منهم وظلم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾[(٢)].

ولقد اشتمل خطاب القرآن الكريم لغير المسلمين – من أهل الكتاب وغيرهم- على ألطف الأساليب في جداله مع المخالفين واختار العبارات الرقيقة، لأن ذلك أدعى إلى الأنس بالخطاب وعدم إثارة العصبية، لذا كان خطاب القرآن الكريم لغير المسلمين قائماً على الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والترغيب والترهيب، واحترام الآخرين، واللين والرفق، وغير ذلك مما يبعث على الهداية والاستجابة وعدم النفور[(٣)].

وذلك كله يندرج تحت المنهج العام للدعوة والذي أمر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[(٤)].

رابعاً- من واجبات المدعو: الاستجابة والانقياد لأوامر الله ورسوله:

يتضح ذلك في استجابة الصحابة رضي الله عنهم لأوامر الله وانقيادهم لها في قوله فلما اقترأها القوم وذلّت بها ألسنتهم - أي أقرت وانقادت - وقالوا سمعنا وأطعنا، إذ أنه من صفات المؤمنين التسليم المطلق لأوامر الشرع ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[(٥)] (فلا يجدون في أنفسهم حرجاً من حكمه يصرفهم عن تحكيمه أو يسخطهم من حكمه بعد

---

(١) سورة النور، آية: ٥١.

(٢) سورة العنكبوت، آية : ٤٦ .

(٣) انظر: خطاب القرآن الكريم لغير المسلمين، د. محي الدين عفيفي أحمد ص ١١٢-١٢٦.

(٤) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٥) سورة النساء، آية: ٦٥.

تحكيمه)[1] إذ أن الإعراض من صفات المنافقين الذي وصمهم الله بالظلم والخروج عن طاعة الله قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

خامساً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده وتخفيفه عنهم:

من فضل الله تعالى على الأمة الإسلامية، أن خفف عليها وأحل لهم ما حرم على غيرهم، ومن الأمثلة على ذلك تحريم طيبات على بني إسرائيل جزاء ما اقترفوه من آثام وتلبسوا به من ظلم قال تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾[3].

ومن أمثلة فضل الله قوله ﷺ ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))[4] وعطاء الله لرسوله عطاء للأمة جمعاء، إلى غير ذلك من التخفيف في مجالات الشريعة.

وبذلك استجاب الله دعاء المؤمنين ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾[5] أي (ولا تثقل علينا من العمل ما لا نطيق فتعذبنا)[6] إضافة إلى تجاوزه عما صدر منهم بدون قصد أو نسيان استجابة

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ١١١/٥/٢.

(٢) سورة النور، الآيات: ٤٨-٥٠.

(٣) سورة النساء، آية: ١٦٠.

(٤) أخرجه البخاري، ٣٣٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج٤٢٧/٣/٢.

لدعائهم ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وقال رسول الله ﷺ ((إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[1].

سادساً- من موضوعات الدعوة: وقوع النسخ في القرآن:

الأصل في النسخ (أن يكون الشيء حلالاً إلى مدة ثم ينسخ فيجعل حراماً، أو حراماً فيجعل حلالاً، أو يكون محظوراً فيجعل مباحاً، أو مباحاً فيجعل محظوراً، والنسخ يكون في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والإباحة والمنع، وهو على ضروب، منها ما جاء في الحديث وهو أن يزال الحكم ويبقى المنسوخ متلواً، كما روى مجاهد ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾[2] قال نزيل حكمها ونثبت خطها)[3] وفي الحديث نجد أن الله نسخ ما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[4]، بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[5]، وذلك لون من ألوان رحمة الله عز وجل بالمؤمنين.

سابعاً- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية ورفع المشقة والحرج:

امتازت شريعة الإسلام باليسر والرفق بشهادة قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[6] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[7] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[8] ولذلك كان من قواعد الفقه العامة (المشقة تجلب التيسير)،

---

(١) أخرجه ابن ماجه، ٢٠٤٣. وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة، ١٦٦٢).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٦.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عز وجل واختلاف العلماء في ذلك، أبو جعفر النحاس١١/٤٢٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٧) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٨) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

و(المشقة مظنة الرخصة) و(ضبط المشاق المسقطة للعبادة مذكور في الأصول)[١].

ثامناً- من خصائص الدعوة الإسلامية: الواقعية:

وهذا واضح في الحديث حيث خفف الله عن الأمة وتجاوز لها عما جرى في نفسها بدون قصد وعزم، ووضع الإصر، والتكليف بما يطاق والتجاوز عما وقع من المكلف خطأً أو نسياناً أو تحت وطأة السيطرة والإكراه.

ويستدل من الحديث الذي معنا، أن الله عفا عن الأمة الإسلامية ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢] وعدم المؤاخذة عما يصدر من خطأ أو نسيان ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٣] وتخفيف الأثقال والتكليف في حدود المقدور ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[٤]. فشريعة الإسلام جاءت في نطاق القدرات البشرية إذ أنها من عند الله الذي يعلم ما يصلح للبشر، والذي يعلم السر والخافية[٥].

لقد راعى الإسلام الواقع في كل ما دعا إليه الناس من عقائد وعبادات وأخلاق وتشريعات.

ونشير إلى ما جاء في الحديث من الإشارة إلى مراعاة واقع الإنسان في العبادة والتشريع، فلقد جاء الإسلام بعبادات واقعية، لأنه عرف ظمأ الكائن الروحي في الإنسان إلى الاتصال بالله، ففرض عليه من العبادات ما يروي ظمأه، ويشبع نهمه، ويملأ فراغ نفسه، ولكنه راعى الطاقة المحدودة للإنسان، فلم يكلفه ما يعنته

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٣٥/٣/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٥) انظر: أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، د. حمد بن ناصر العمار.

ويحرجه، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1].

ومن الشواهد على ذلك مراعاة الإسلام للظروف الطارئة للإنسان كالسفر والمرض ونحوهما، فشرع الرخص والتخفيفات التي يحبها الله، وذلك مثل صلاة المريض قاعداً أو مضطجعاً على جنب حسب استطاعته، وتيمم الجريح إذا كان استعمال الماء للغسل أو الوضوء يضره، وغير ذلك، وهذه الرخص وغيرها، كلها رعاية لواقع الناس، وتقدير لظروفهم المتغيرة، وتيسير من الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2]، [3].

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٣) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ١٦٣-١٦٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الأسئلة في كثير من الأحيان مفاتيح للخير، وكم من سؤال سأله الصحابة فكان الخير فيه للأمة، وقد دلت الأسئلة على وحدة تكوين الإنسان ووجود قاسم مشترك في الغرائز والانفعالات، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالدين أو الخوف.

إن سؤال الخائف حق له، وإن الجهل بأمر ديني يوجب الاستفهام عنه، وإن إيضاح ما في السرائر خير من كتمها حتى لا تكون الضغائن وذلك فيما يلي:

أولاً- غرس روح الانقياد لله تعالى:

ويبدو ذلك جلياً من موقف صحابة رسول الله ﷺ، حين نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾(١)، وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يشتكون تكليفهم ما لا يطيقون، لأن المرء لا يمكن أن يتحكم في تفكيره وهواجسه، فكيف يحاسب عليه، إلا أن رسول الله ﷺ أمرهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾(٢)؛ حتى لا يكونوا مثل الهالكين السابقين من اليهود والنصارى، الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾(٣)، فما كان من الصحابة الكرام إلا أن ذلوا وخضعوا لأمر الله.

وبعد هذا النجاح في اختبار الله تعالى لهم في الخضوع له سبحانه عفا عنهم، وأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٩٣.

ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[١].

إن هذا الانقياد يدل على مدى تعظيم صحابة رسول الله ﷺ لجلال الله وأمره سبحانه، وحين يستقر تعظيم الله تبارك وتعالى تستقيم حياة الإنسان بشرع الله تبارك وتعالى؛ فالذي يعظم الله تعالى لا يقدم بين يدي قوله وقول رسوله، ولا يتردَّد في تصديق الأخبار والتزام الأوامر، وترك المنهيات، ولا يتعلق قلبه بغير الله... فيصفو اعتقاده، ويستقيم علمه[٢].

ثانياً- التربية على الدعاء:

من سمات التربية الإسلامية ربطها المتربي بالله تعالى، وحث النبي ﷺ المسلمين على اللجوء إليه، والدعاء له في كل الأحوال، ولهذا فقد جاءت آيات القرآن الكريم التي وردت في حديث هذا الباب تعليماً للمسلمين بعض الدعاء، بقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾، وهذه دعوات تعلم المؤمن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن يؤوب إلى ربه ويسأله دائماً، لأن البلاء لا يرفعه إلا الدعاء.

والدعاء ثمرة المعرفة بالله والإيمان بمنهج القرآن وفكرته، وشعور عميق بالعبودية والفقر والحاجة إلى الله، وضمان للنفس من الغفلة والطغيان والاعتداء؛ ففي غفلة النفس عن حقيقة عبوديتها لله وحاجتها إليه سبيل إلى طغيانها واعتدائها... والدعاء هو سبيل القوة الحقة، فلا يقضى على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بفقدان السند المعين... وفي إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته، وأنه يستمع إليه إذا شكا، ويجيبه إذا دعا، ويأخذ بيده إذا كبا، ويمده إذا ضعف، ويعينه إذا احتاج: إحساس يملأ النفس سكينة وراحة، ويخلق فيها القوة الحقة والعزم والثقة والرضا[٣].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) تربية الشباب، محمد عبدالله الدويش ص ٥٤ بتصرف.

(٣) منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٣٢٢-٣٢٥.

ثالثًا- من سمات التربية الإسلامية: إيجابية المتربي:

لم يكن المربي الأول يغلق باب المراجعة والمناقشة على صحابته الكرام؛ لأن ذلك من شأنه عدم إقناع المتربي بالمبدأ أو القيمة التي يؤمر بها، وفي هذا الباب تظهر إيجابية الصحابة رضوان الله عليهم، عندما نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾[١]، فذهبوا إلى النبي ﷺ وعبّروا له عن تخوفهم ووجدهم على أنفسهم بسبب هذه الآية؛ وذلك تأديب للمتعلمين المتربين على محاورة المعلم وسؤاله عما يريدون السؤال عنه، وأن لا يتقبل المتربي المعلومات دون تمحيص لها، وقد علم الصحابة بعد أن شكوا إلى رسول الله ﷺ أن هذه الآية إنما هي اختبار من الله تعالى وابتلاء؛ حتى لا يكونوا كاليهود والنصارى الذين قالوا سمعنا وعصينا، إنما كان جواب الصحابة رضي الله عنهم: سمعنا وأطعنا، حتى رفع الله عنهم هذا البلاء.

وفي الحديث دليل على أن من سمع شيئاً لا يعلمه فليراجع فيه حتى يعرفه ليتبين حقه من باطله، لأنه قد يكون فيه مصلحة لا يعرفها فيكون رده وجهله سبباً لحرمانه من تلك المنفعة، ولذلك قال العلماء: من جهل شيئاً عاداه، وكان رسول الله ﷺ يحض أصحابه على فهم أمور دينهم فيأمرهم أن يسألوا عما يجهلونه[٢].

رابعاً- من خصائص التربية الإسلامية: المرونة واليسر:

إن من مظاهر يسر التربية الإسلامية تسهيل التشريعات على المسلمين، ومراعاة طاقاتهم وقدراتهم، ولهذا فقد نسخ الله تعالى قوله: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾[٣]، ونزل قوله عز وجل: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾[٤]؛

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

(٢) المرشد النفيس، د. محمد صالح بن علي جان ص ٣٣٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

وذلك لضعف البشر وعجزهم، يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[(١)]؛ وذلك حين خفف على المسلمين هذا الحكم، وذلك لأن الإسلام إنما راعى بشرية الإنسان وضعفه وكلفه من العمل ما يستطيع؛ حتى يمكنه المداومة عليه.

إن التيسير روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية، وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان وكثرة أعبائه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه، وشارع هذا رؤوف رحيم، لا يريد بعباده عنفاً ولا رهقا، إنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل في المعاش والمعاد[(٢)].

لقد جاء الإسلام بالتيسير ورفع الحرج، (فليست العبادة فيه انقطاعاً عن الدنيا وأهلها، بل هي تفاعل مع الدنيا وأهلها، وفقاً لمنهج الله الذي أراده ديناً للناس كافة، ملائماً لكل الأزمان والأجيال والعصور، فالعبادة في الإسلام معتدلة ومقدورة لكل إنسان بكل سهولة ويسر)[(٣)].

خامساً- التربية على الانقياد لحكم الله:

إن الانقياد لحكم الله مانع من أي فراغ داخلي يسمح بغير حكم الله فمن لم يخضع لله خضع لغيره، ومن لم يرضى حكم الله رضي حكم غيره، وهذا يجلب على صاحب الشقاء والبلاء، ولهذا مدح الله المسلمين بأنهم: "قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير".



(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي ص ١٧٧.

(٣) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٢٣٤.

١٨- باب في النهي عن البدع ومحدثات الأمور

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلال﴾[يونس: ٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] أي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الأنعام: ١٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:٣١] والآيَاتُ فِي البَابِ كَثِيرةٌ مَعلُومَةٌ.

وَأَمَّا الأحادِيثُ فَكَثيرَةٌ جداً، وَهيَ مَشْهُورَةٌ فَنَقْتَصِرُ عَلَى طَرَفٍ مِنْهَا:

الحديث رقم (١٦٩)

١٦٩- عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا، قالت قال رسولُ اللّه ﷺ: «**مَنْ أَحْدثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فهُو رَدٌّ**» متفقٌ عليه[١].

وفي رواية لمسلمٍ[٢]: «**مَنْ عَمِلَ عملاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو ردٌّ**».

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

ردٌّ: أي مردود عليه يقال: أمر ردّ إذا كان مخالفاً لما عليه أهل السنة. وهو مصدر وصف به[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨/١٧) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٧٤). وسيكرره المؤلف برقم (١٦٤٩).

(٢) برقم (١٧١٨/١٨). أورده المنذري في ترغيبه (٧٤).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر د د).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ لأنه قليل لفظه: كثير معناه، فالإيجاز سر بلاغته، والوضوح منبع حكمته، وسهولة الألفاظ مطلع إشراقته، وكيف لا؟ وهو كما يقول ابن رجب الحنبلي: "أصل عظيم من أصول الإسلام"، كما أن حديث "الأعمال بالنيات"، ميزان للأعمال في باطنها، وهو ميزان للأعمال في ظاهرها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو مردود على عامله، وكذلك من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء.

فهذا الحديث بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره فهو غير مردود[١].

ومنطوق الحديث يموج بالدلالة الظاهرة، ومع ذلك تظل هذه الدلالة الظاهرة في حاجة للتأمل والكشف عن الدلالات الكامنة والمختبئة خلف الكلمات المشعة بكثير من المسائل والقضايا والاحتمالات.

فالحديث الذي وصف بأنه أصل عظيم من أصول الإسلام يتكون بناؤه اللغوي من جملة واحدة، وهذه الجملة أثارت كثيراً من خلافات وآراء الفقهاء حول المقبول والمردود من العبادات، وحول المقبول والمردود من المعاملات، وحول المقبول والمردود من مسائل العقيدة.

والجملة يفصح بناؤها اللغوي عن المنهج الإسلامي الصارم في ضبط المسائل العقدية والعبادية والمعاملاتية ، فالجملة الحديثية هنا صيغت في قالب: الشرط والجزاء، وهو قالب لغوي يجمع ثلاثة أطراف: أداة الشرط، وفعل الشرط، وجواب الشرط: والشرط في الإسلام معيار ومقياس لصحة كثير من الأمور، فكل مسألة وكل فريضة لها شروط أدائها ولها واجباتها، وفي ظل هذا المنهج نقرأ هذه الصياغة اللغوية قراءة مرتبطة بالمنهج، ومفصحة عن مبدأ الثواب والعقاب.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٧٦، ١٧٧.

وأداة الشرط "مَنْ" وهى للعاقل وفي ضوء المنهج الصحيح هو العاقل البالغ المكلف المسؤول عن أعماله، وهو من يمتلك القدرة على الإحداث والإضافة، ولكنه في ظل المنهج: إحداث مبتور، وإضافة موؤدة.

ولنتأمل الفعل "أحدث" وهو لفظ جامع يشمل كل ما يحاوله المبتدعون، والمشككون، والمدعون من تشويه لمعالم هذا الدين، وهم كثيرون ويظهرون في كل عصر.. وما زالوا يطلون بسمومهم من كهوفهم كالأفاعي، ولكن الله يحمي دينه وأولياءه، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والتعبير بلفظ "أحدث" أبلغ وأكثر إشعاعًا ودلالة من أي لفظ أخر مثل: عمل أو أضاف أو ابتدع، والمصطفى ﷺ يقول: "وشر الأمور محدثاتها".

والتعبير "بفى" وهى تدل على الظرفية والتمكن يفيد بأن هذا المحدث المرفوض يمكن أن يتغلغل في كيان الشريعة ويقتحم معالمها، حتى يظن الواهمون أن هذا المُحْدث من الأصول التي يجب الحرص عليها، وهذا أمر بالغ الخطورة.

وتأمل ما يفيض به لفظ "أمرنا" من المعاني: فالأمر هو الدين، ولفظ "الأمر" يوحي بالخصوصية التي تحتم عدم التفريط، والإضافة إلى "نا" الدالة على الجمع، تؤكد هذه الخصوصية وتضيف بُعْداً جديداً، وهو وجوب مقاومة كل بدعة، وكل محاولات المارقين الذين يُشوهون معالم الدين في مقالاتهم، وخطبهم وكتبهم وخططهم ومؤامراتهم.

ولفظ الإشارة "هذا": يضفي دلالة جديدة وهى البعد الحسِّي لهذا الأمر فكأنه لخصوصيته وتميزه ومَنَعته أصبح كائناً يشار إليه: وهو ماثل بفيوضاته وينابيعه في الكتاب والسنة، وفي ما استقر عليه علماء الأمة الأخيار، من كبار الأئمة المجتهدين.

وتأمل هذا القول "ما ليس منه"، إنه يفيد العموم والاستقصاء، في العبادات بكل فروعها، والمعاملات بكل أنواعها.

فقه الحديث

يعد هذا الحديث أساساً لرد كل ما هو مخالف لشريعة الإسلام من الأمور المستحدثة، والأحكام الخارجة عن روح التشريع وقواعده، وهو أحد الأصول التي يقوم عليها التشريع الإسلامي كما يقول ابن تيمية[١].

وقد استند الفقهاء على هذا الحديث في كثير من الأحكام، ومن تلك الأحكام مثلاً إبطال جميع العقود الممنوعة[٢] وعدم جواز الطواف بقبره ﷺ أو الاتكاء عليه[٣]، وفسخ البيع الواقع وقت صلاة الجمعة عند من يقول بذلك[٤]، وعدم جواز بناء مسجد بمقبرة أو إضاءة المقبرة بسرج أو قناديل[٥] وأداء صلاة العيد بأذان أو إقامة حيث تصلى بدونهما[٦] والطلاق في الحيض أو الطهر الذي يجامعها فيه[٧] وغير ذلك من أحكام امتلأت بها كتب الفقه الإسلامي.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من البدع ومحدثات الأمور.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثاً: من مهام الداعي: بيان الحقائق للمدعوين.

رابعاً: من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم.

خامساً: من واجبات المدعو: الالتزام بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٠٦/١، إعلام الموقعين ٢٨٩/١.

(٢) إحكام الأحكام ٢٦٩/٢.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٥٧/٨.

(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٢١٤/٤.

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر ٩٧/٢.

(٦) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٥٨/٣.

(٧) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ١٩١/٢، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٦٤/٣.

أولاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من البدع ومحدثات الأمور:

إن تحذير النبي ﷺ من البدع ومحدثات الأمور واضح في عموم الحديث: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ"، ففيه نهى عن البدع ومحدثات الأمور التي ليس لها أصل في الشرع، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[1]، إذ هما ضدان وبترك أحدهما يقع الآخر، والحق ما جاء به الكتاب والسنة نصاً واستنباطاً قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، أي الطرق المخالفة له ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[2]، أي عن دينه[3].

قال ابن حجر: (هذا الحديث معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده، فإن معناه: من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه"، وقال الطوفي: هذا الحديث يصلح أن يسمى نصف أدلة الشرع)[4].

وقال ابن رجب الحنبلي: (وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أن حديث الأعمال بالنيات ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله فهو مردود على عامله وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن الله ورسوله فليس من الدين في شيء"[5].

ففي هذا الحديث إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، وتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جارياً تحت أحكام الشرع موافقاً لها فهو مقبول، ومن كان خارجاً عن ذلك فهو

---

(١) سورة يونس، آية: ٣٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥٣.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ، ابن علان ص ٣٢١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٧/٥.

(٥) حامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٧٦/١.

مردود[1]، ولا قيمة لعمله، ويصدق فيه قول الله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[2]. فمن تقرَّب إلى الله بعمل، لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله، فعمله باطلٌ مردودٌ عليه، وهو شبيهٌ بحالِ الذين كانت صلاتهم عند البيت مُكاءً وتصدية، وهذا كمن تقرَّب إلى الله تعالى بسماع الملاهي، أو بالرقص، أو بكشف الرأس في غير الإحرام، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ورسولُه التقرُّب بها بالكلية.

وليس ماكان قربة في عبادة يكون قربة في غيرها مطلقًا، فقد رأى النبي ﷺ رجلاً قائمًا في الشمس، فسأل عنه، فقيل: إنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل وأن يصوم، فأمره النبي ﷺ أن يقعد ويستظل، وأن يتم صومه[3]، فلم يجعل قيامه وبروزه للشمس قربةً يُوفى بنذرهما. وقد روي أن ذلك كان في يوم جمعة عند سماع خطبة النبي ﷺ[4] وهو على المنبر، فنذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ما دام النبي ﷺ يخطب، إعظامًا لسماع خطبة النبي ﷺ، ولم يجعل النبي ﷺ ذلك قربة توفى بنذره، مع أن القيام عبادةٌ في مواضع أخر، كالصلاة والأذان و الدعاء بعرفة، والبروز للشمس قربةً للمحرم، فدلَّ على أنه ليس كلُّ ما كان قربة في موطن يكون قربة في كل المواطن، وإنما يتبع في ذلك ما وردت به الشريعةُ في مواضعها.

وكذلك من تقرَّب بعبادة نُهي عنها بخصوصها، كمن صام يوم العيد، أو صلَّى في وقت النهي[5].

---

(١) المرجع السابق ١/١٧٧.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٧٠٤.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ١١٨٧١، والطحاوي في "مشكل الآثار" ٣/٤٤، والخطب البغدادي في الأسماء المبهمة ص ٢٧٤.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٧٨.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يستنبط هذا من عموم الحديث الذي يخبر عن إبطال جميع الأمور المنهية والتي لا أصل لها في الدين، وعدم حصول ثمرتها المترتبة عليها، إذ أنه ما بني على باطل فهو باطل، وما بني على غير أصل فلا بقاء له، وبهذا أشار النبي ﷺ أن أي شيء ليس له سند ظاهر أو خفي من الكتاب والسنة فهو عمل باطل مردود[1]، وبيان بطلان العمل وعدم وجود ثمرة له في حد ذاته ترهيب من التدخل في دين الله والاختراع فيه. وإن الترهيب والتخويف من عقاب الله وانتقامه ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو سوط يساق به المتواني عن الطاعة إليها، فالمقصود الأصلي من الترغيب والترهيب هو طاعة الله عز وجل وفعل مراضيه ومحبوباته، وترك مناهيه ومكروهاته[2].

ثالثاً- من مهام الداعي: بيان الحقائق للمدعوين:

إن رسول الله ﷺ هو الأسوة والقدوة الحسنة أرسله ربه هادياً إلى صراطه المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[3]، وفي هذا الحديث بيان منه ﷺ إلى المعتبر من الأعمال، وهو ما كان معتمداً على أصل ديني، أما من عمل، أو أحدث أو سن في الإسلام رأياً لم يكن له من الكتاب والسنة سند ظاهراً أو خفي ملفوظ أو مستنبط فهو مردود عليه[4]. لذا ينبغي للداعية أن يجتهد في بيان الحقائق للمدعوين ولا يتوانى في ذلك متأسياً برسول الله ﷺ، لأن المدعو بحاجة إلى ذلك وتلك من المهام المنوطة بالداعية.

رابعاً- من خصوصيات النبي ﷺ جوامع الكلم:

إن الله تعالى حبا نبيه ﷺ بالنعم الكثيرة ومنها جوامع الكلم وخصه ببدائع

---

(١) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي ص ٢٠٠٥.

(٢) التخويف من النار، ابن رجب الحنبلي ص ٤٠.

(٣) سورة الشورى، آية: ٥٢.

(٤) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ "الكاشف عن حقائق السنن"، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار، وغيره ١/٢٩٤.

الحكم، وكما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((بُعثتُ بجوامِع الكلم))[1]، قال الزهري: (جوامع الكلم أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك، وجمع المعاني الكثيرة في الكليمات الجامعة الوجيزة، ومن هذه الجوامع حديث: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ"، ذلك الحديث والكلمات المعدودة، اعتبره العلماء أصلاً عظيماً من أصول الإسلام)[2]، وقال النووي: (هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات)[3]، إلى غير ذلك من النصوص التي تدلل على إعطاء النبي ﷺ (جوامع الكلم) وحاصله أنه ﷺ كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعنى[4].

خامساً- من واجبات المدعو: الالتزام بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

إن في مضمون ومفهوم هذا الحديث دعوة من النبي ﷺ إلى الالتزم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد أمرنا الله بذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[5]،أي ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله بالسؤال في حياته، أو بالنظر في سنته بعد وفاته ﷺ، هذا قول مجاهد والأعمش وقتادة وهو الصحيح ومن لم ير هذا اختل إيمانه[6]، إذ أن الاعتصام بالكتاب والسنة والالتزام بهما عاصم من الضلال والزلل فقال ﷺ: ((وإني قَدْ تَرَكْتُ فِيكُم ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٧٧، ومسلم ٥٢٣.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٥/١ - ٥٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١١٠٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٦٠/٥/٢.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٦٠/٥/٢.

كِتَابَ اللَّه))[(١)].

وفي هذا الحديث اقتصر على الكتاب لأنه مشتمل على العمل بالسنة لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[(٣)]، فيلزم من العمل بالكتاب العمل بالسنة[(٤)].

وفي حديث العرباض بن سارية يقول ﷺ: ((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْداً حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))[(٥)]، قال مالك: قال عمر ابن عبدالعزيز: (سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، وليس لأحد تبديلها، ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا)[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم ١٢١٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣٢.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) عون المعبود، العظيم آبادي ص ٨٥٣.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٦٠٧، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٨٥١).

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/١٢٣.

الحديث رقم (١٧٠)

١٧٠- وعن جابرٍ رضي الله عنه، قال: كان رسولُ الله ﷺ، إذَا خَطَب احْمرَّتْ عيْنَاهُ، وعَلا صوتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبهُ، حتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحكُمْ ومَسَّاكُمْ» وَيقُولُ: «**بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعةُ كَهَاتيْن**» وَيَقْرنُ بين أُصْبُعَيْهِ السبابَةِ وَالْوُسْطَى، ويَقُولُ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيرَ الْحَديثَ كِتَابُ اللَّه، وخَيْرَ الْهَدْى هدْيُ مُحمَّد ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدثَاتُهَا وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**» ثُمَّ يقُولُ: «**أَنَا أَوْلَى بُكلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ. مَنْ تَرَك مَالا فَلأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً، فَإِليَّ وعَلَيَّ**» رواه مسلم[1].

وعنِ الْعِرْبَاض بن سَارِيَةَ رضي الله عنه، حَدِيثُهُ السَّابِقُ في بابِ الْمُحَافَظةِ عَلَى السُّنَّةِ[2].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

العرباض بن سارية: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٥٧).

غريب الألفاظ:

منذر جيش: المنذر: المعلم الذي يعرف القوم بما يكون قد دهمهم من عدّو أو غيره وهو المخوف أيضاً[3].

أولى: أفعل تفضيل بمعنى الأحق والأجدر والأقرب[4].

ضياعاً: الضياع: العيال وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعاً، فسمى العيال بالمصدر كما تقول: مات وترك فقراً: أي فقراء[5].

---

(١) برقم (٨٦٧/٤٣). أورده المنذري في ترغيبه (٧٥).

(٢) تقدم برقم ١٥٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ذ ر).

(٤) الوسيط ١٠٥٧.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ض ي ع).

الشرح الأدبي

إن للخطابة أهمية قوية وتأثيرية في الإسلام، وهى فن أدبي يقصد به إلى التأثير في نفوس المتلقين عن طريق مخاطبة قلوبهم وعقولهم، وللخطيب أدوات تأثيرية: في مقدمتها جذب انتباه السامعين، وإيقاظ ضمائرهم، وإثارة مشاعرهم بما يلقيه الخطيب من عبارات لها إيقاعها المؤثر في صياغتها وفي نسيج كلماتها وحروفها، وفي طريقة إلقائها، وفي تلوين الصوت جهراً وهمساً، وعلواً وانخفاضاً وغير ذلك من وسائل تأثيرية متعددة، وتتسم خطابة المصطفى ﷺ، بالدقة والوضوح وعدم المبالغة، فالخطبة نسيج متلاحم من الفكر التشريعي الواضح على هدى التعاليم القرآنية.

وفي ضوء هذه الخصائص الأدائية لفن الخطابة نقرأ هذا النص النبوي البليغ وهو يصور شدة هول انتظار الساعة، فهي كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[1].

وبلاغة الحديث هنا ليست بلاغة قولية فقط.. ولكنها بلاغة توصيل، وبلاغة مراعاة مقتضى الحال، ومع بلاغة الكلمة تبهرنا بلاغة الإشارة، وبلاغة الهيئة وملامح الوجه التي تفصح عن الخطر، وتجسّد الإشفاق على الأمة من أهوال يوم القيامة، أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى.

ولنتأمل بداية الحديث: حيث يبدأ بوصف الراوي: لحال الرسول ﷺ وهيئته وهو يخْطب في سياق تذكيره للناس بيوم القيامة، وهذا الوصف يركز على الصفات الحسّية، ثم يسوق صورة بيانية وهى في إطار التشبيه التمثيلي توضيحاً للموقف، وجلاءً للصورة، وتأكيداً للرهبة والخشية.

ويأتي وصف هيئة الرسول ﷺ في صيغة شرطية وأداة الشرط "إذا" وجواب الشرط يتضمن ثلاث جمل تتآزر في تشكيل ملامح الهيئة التي كان عليها رسول الله وقت

---

(١) سورة النحل، آية: ٧٧ .

الخطبة، وهذه الهيئة تجسد تأثره بالموقف وانفعاله به، وحرصه الشديد على نجاة أمته.

كان رسول الله ﷺ إذا خطب: احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، وقال العلماء في تعليل هذا التغير، لما يتجلى على رسول الله ﷺ من بوارق الجلال، ولوامع أضواء الأنظار، وشهود أحوال أمته، وتقصير أكثرهم في امتثال ما يصدر عنه.

وتأتي الصورة التشبيهية لتوضيح هذا الموقف، ولتقريبه إلى الأفهام، حيث يصور ويمثل حاله ﷺ -في إنذاره بمجيء القيامة وقرب وقوعها، وتهالك الناس فيما يؤذيهم- بحال من ينذر قومه عند غفلتهم بجيش قريب منه، وهو يحذرهم قائلاً صبحكم العدو مغيراً عليكم ومساكم كذلك.

فكما أن هذا لشدة اعتنائه بحال قومه يرفع صوته، وتحمّر عيناه، ويشتد غضبه من تغافلهم عما يستأصلهم ويهلكهم. كذلك حال رسول الله ﷺ لشدة حرصه على أمته، وعظم رأفته ورحمته بهم، وخوفه عليهم من الساعة وأهوالها[1].

وبعد هذه المقدمة التوضيحية التي أضاء بها "الراوي" جو الحديث ومهّد لكلام رسول الله ﷺ نجد المصطفى ﷺ، يجمع في حديثه بين خاصيتين بلاغيتين وهما: بلاغة القول، وبلاغة الإشارة، فيقول مشيراً إلى قرب قيام الساعة: "بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى" ويقول: أما بعد: "والإشارة في الحديث فكر وفن، وقد أشار إلى ذلك، هند بن أبي هالة في سياق وصفه لمنطق رسول الله ﷺ حيث قال: إذا أشار.. أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه.

فالإشارة في الحديث النبوي كانت أحياناً بديلاً من اللغة، وليست وليدة اختناق الفكرة.

وللإشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة في إيضاح المعاني، وترسيخها في النفس، ودارس الحديث النبوي يرى من ذلك الشيء الكثير الذي يدل على اهتمامه

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢٧٤-٢٧٥.

البالغ ﷺ بوسائل الإيضاح في تعليم أمته، وشغل الحاسّة مع العقل.

وبَعْد هذا التوضيح والتصريح مع الإشارة البليغة في قوله: بعثت أنا والساعة كهاتين (السبابة، والوسطى) يرشد النبي الكريم ﷺ أمته إلى طريق النجاة، ويدلهم على المعالم الصحيحة لهذا الطريق، وفي إشارته عَبْر هذه الصيغة، "ويقرن بين أصبعيه السّبابة والوسطى" تلميح وإيحاء: بأنه ليس هناك نبي بينه وبين الساعة، فهو خاتم الأنبياء، كما أن ليس هناك أصبع بين السبابة والوسطى -كما يقول القاضي عياض- وفي ذلك توجيه وإنذار إلى كل عاقل مكلف بضرورة الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فهو خاتم النبيين وإمام المرسلين.

وهذه هي الإشارة الضوئية الكبرى على طريق النجاة، ثم يُفصِّل المصطفى ﷺ هذه المعالم والإشارات بَعْد الإبهام والإجمال. فيقدم خمس جمل مؤكدة، وكلها تشدد على ضرورة التمسك بالكتاب والسنة، والابتعاد عن مهاوي البدع، ومزالق الانحرافات، وتبدأ الجملة مؤكدة بإن، ثم تعطف عليها بقية الجمل مع حذف "إن"، ولكن يظل التوكيد سارياً في نسيج الكلمات، وترتيب الجمل يتسم بالتناسق ومراعاة البدء بالكتاب ثم السنة، ثم التنفير من كل ما يخالفهما، وفي مقدمة ذلك المحدثات في الدين، والبدع في المعتقدات والعبادات.

وبناء الجمل في هذا الجزء من الحديث فيه تناسق وجمال في الجملتين الأوليين، وكأن هذا التناسق اللغوي البديع صورة لتناسق العقل المؤمن، والقلب السليم: في استقبالهما لآيات الكتاب الكريم، والهدى النبوي الحكيم.

واختلف التناسق اللغوي في قوله: "وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة": لأن هيأة المعاني تغيرت، وملامح المضمون تبدلت، ولذلك لم تتماثل الصيغ اللغوية، ولم تتوافق إلا في التأكيد وبناء الهيكل اللغوي، المكون من "إن" المحذوفة واسمها وخبرها.

ومن أسرار التعبير وجمالياته: كلمة "الهدى"، حيث قال العلماء إنها ترد على وجهين في النطق حسب الضبط: فإن قلنا "إن الهَدىْ هَدْى محمد" بفتح الهاء وسكون الدال، فالمعنى: أحسن الطرق طريقه، والهَدْى هنا معناه الطريق، وإذا قلنا "الهُدي" بضم

الهاء، فمعناه الدلالة والإرشاد، وهو الذي يضاف إلى الرسل والقرآن والعباد.

ثم يُتّوج الحديث بخاتمة حاسمة جازمة تتضمن ثلاث جمل مشعة ببوارق النجاة، وأضواء النبوة، ووجوب اتباع المصطفى الحبيب، وما أجمل هذا التكليف الذي نأى عن صيغة الأمر حيث يقول الرسول، "أنا أولى بكل مؤمن من نفسه".

وليس المراد شخص محمد ﷺ ولكن تعاليمه وسنته، والاقتداء به، وحبّه الذي يؤكد حرص المؤمن على طاعة الله وطاعة رسوله، ولنتأمل كرمه عليه السلام حين قال: "من ترك ديناً أو ضياعاً -أي عيالاً- فإليّ وعليّ"، أي يقضى الدين ويعول الأبناء، وأما من ترك مالاً فلأهله، فورثته أحق به، وليس بعد هذا حرص على مصلحة الأمة، ولا غرو فهو الرحمة المهداة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم قضاء دين الميت من بيت المال[1]، فقد اختلف الفقهاء في قضاء دين الميت من بيت المال إن لم يكن في ماله وفاء تبعاً لاختلافهم في قضاء رسول الله ﷺ لأموال المدين الميت، فقد قيل كان يقضيه من سهم المصالح، وقيل كان يقضيه من ماله الخاص، فمن قال بالأول قال يقضي من بيت المال، ومن قال بالثاني قال لا يقضي من بيت المال، وهل القضاء كان واجباً عليه؟ وجهان، قال ابن بطال: وهكذا يلزم المتولي لأمر المسلمين أن يفعله بمن مات وعليه دين، فإن لم يفعل فالإثم عليه إن كان حق الميت في بيت المال يفي بقدر ما عليه وإلا فبقسطه.

الثاني: حكم البدعة، وقد سبق الكلام عنها تفصيلاً في الحديث رقم (١٥٧).

---

(١) شرح الخرشي ١٥٩/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٣٩٦/٣، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن ٢٢٨/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥/٦، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٢٨٤/٥، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٨٩/٢.

الثالث: انتقال تركة الميت إلى أهله بعد قضاء الديون، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن تركة الميت تنتقل إلى الورثة بوفاة المورث بما لها وما عليها من ديون، وأن أول ما يستخرج من التركة بعد تجهيز الميت ودفنه ديون الميت، ثم وصاياه، ثم يوزع الباقي على الورثة حسب الأنصبة المقررة شرعاً.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: اهتمام الصحابة ﷺ بتتبع أحوال النبي ﷺ.

ثانياً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثالثاً: من صفات الداعي: التفاعل مع قضايا الدعوة.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الإنذار.

خامساً: من وسائل الدعوة: الإشارة.

سادساً: من موضوعات الدعوة: قرب قيام الساعة.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثامناً: من موضوعات الدعوة: بيان خطر البدع والأمور المستحدثة.

تاسعاً: من خصائصه ﷺ: أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: اهتمام الصحابة ﷺ بتتبع أحوال النبي ﷺ:

اهتم الصحابة ﷺ بكل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو ما يظهر على ملامحه ﷺ من آثار الانفعالات النفسية وغيرها كاشتداد الغضب وغيره، وفي الحديث نجد أن الراوي سجل كل ما رآه من ذلك كاحمرار العين (واحمرت عيناه"، وكعلو الصوت "وعلا صوته" واشتداد الغضب "واشتد غضبه" ونبرة صوته

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي٦/٢٣٠، وتكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٨/٥٥٦، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٦/٤٠٦ وما بعدها، وشرح منح الجليل ٩/٥٩٣، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٦/٣ وما بعدها، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤/٧ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/٥٠٠، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤/٤٠٣ وما بعدها.

"كأنه منذر حرب"، وإشارته "أنا والساعة كهاتين" وحركة الأصابع المشار بها "ويقرن بين أصبعيه" إضافة إلى حفظه لكلماته ﷺ وذلك كله من بالغ اهتمام الصحابة رضي الله عنهم برسول الله ﷺ.

ثانياً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

لقد استعمل النبي ﷺ الخطبة في نشر الدعوة لكثرة فائدتها وعظيم جدواها ذلك أن الخطابة علم من العلوم المهمة التي تساعد على الاتصال الجماعي، وكانت الخطبة من أبرز الوسائل التي استعملها النبي ﷺ بعد الجهر بالدعوة مباشرة حين صعد على الصفا[1]، دلالة على اهتمامه ﷺ بالخطبة، لأنها من وسائل الاتصال مع المدعوين أو المخاطبين؛ لأن الخطبة تتنوع بتنوع موضوعها، ومن أبرز مجالاتها: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

ثالثاً- من صفات الداعي: التفاعل مع قضايا الدعوة:

يتضح ذلك من تفاعل النبي ﷺ مع خطبته، حيث ظهر أثر ذلك على ملامحه ﷺ، حيث احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه" لما يتجلى عليه من بوادر الجلال ولوامع أضواء الإنذار حتى يبدو "كأنه منذر جيش"، أي مخبر بجيش العدو الذي يخاف[2]، لذا ينبغي على الداعي أن يتفاعل مع القضايا التي يعالجها لما لذلك من آثار إيجابية على المدعوين، مما يدل على حضور الداعية وتأثره بالموضوع الذي يتناوله.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الإنذار:

إن لأسلوب الإنذار أثرًا فاعلاً في الدعوة إلى الله تعالى، وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب في إنذاره بمجيء القيامة وقرب وقوعها وتهالك الناس فيها بحال من ينذر قومه عن غفلتهم بجيش قريب منه يقصد الإحاطة بهم بغتة "حتى كأنه منذر جيش، يقول في إنذاره صبحكم ومساكم العدو مغيراً عليكم"[3].

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد غلوش ص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٢٢.

(٣) انظر المرجع السابق ص ٣٢٢.

خامساً- من وسائل الدعوة: الإشارة:

لا شك أن وسيلة الإشارة من الوسائل التي تعين على بيان المعاني وإيصالها للمدعو لذا كان النبي ﷺ يستعين بالإشارة والحركة فإذا أشار: أشار بيده، وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غض طرفه[1].

سادساً- من موضوعات الدعوة: قرب قيام الساعة:

وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث "بعثت أنا والساعة كهاتين"، قال القاضي عياض: "يحتمل أنه تمثيل لمقاربتهما وأنه ليس بينهما إصبع أخرى كما أنه لا نبي بينه وبين الساعة، ويحتمل أنه لتقريب ما بينهما من المدة وأن التفاوت بينهما كنسبة التفاوت بين الإصبعين تقريباً لا تحديداً"[2].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

لقد أمرنا الله تعالى بالتمسك بالكتاب والسنة في كثير من الآيات منها قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[4].

وبين النبي ﷺ في الحديث: أن خير ما يهتدى به هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ "فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، لأن في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ عصمة من الضلال والزلل، وفلاح ونجاح في الدنيا والآخرة؛ لأن الكتاب والسنة بيّنا المنهج الصحيح الذي يجب أن يتبعه المؤمنون، والذي من خلاله تتحقق طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

---

(١) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٤٢١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٦٦.

(٣) سورة النور، آية: ٥٤.

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

ثامناً- من موضوعات الدعوة: بيان خطر البدع والأمور المستحدثة:

لقد بيّن النبي ﷺ خطورة الأمور المستحدثة والبدع في قوله "وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة" ومن ضروب خطورة البدع:

أ. الابتداع ضلالة، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[1].

ب. الابتداع خروج عن اتباع النبي ﷺ وقد أمرنا باتباعه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2].

جـ. الابتداع تفريق للأمة الإسلامية، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[3].

د. الابتداع طعن في الإسلام، فكأن الإسلام لم يكمل، وكمل بالبدع، كيف؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[4].

هـ. الابتداع إعراض عن تحكيم الكتاب والسنة، واتباع الأهواء وتحكيم الأهواء لها، إذ أن الواجب كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[5][6].

تاسعاً- من خصائصه ﷺ: أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم:

لقد صرح النبي ﷺ بذلك في الحديث "أنا أولى بكل مؤمن من نفسه" وقد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم،

---

(١) سورة يونس، آية: ٣٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٦) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/٤٤٥ - ٤٤٧.

فحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم وجعله متكفلاً بفقرائهم وضياعهم، فقال ﷺ: "ما من من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1] فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه"[2][3]، قال الطاهر بن عاشور: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أي أولى بكل مؤمن من نفس ذلك المؤمن، أي هو أشد ولاية أي قرباً، وهو قرب معنوي يراد به آثار القرب من محبة ونصرة"[4]، فإذا كان الأمر كذلك فواجب على المؤمنين أن يكون رسول الله ﷺ أحب إليهم حتى من أنفسهم، وأن يكون حكمه أنفذ عليهم من حكم أنفسهم، وحقه أثبت لديهم من حقوق أنفسهم، وتكون أنفسهم فداء له، وأجسامهم وقاية له من كل شر"[5].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٨١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٣٨٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٨/٢١/٢٦٦.

(٥) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ٣/٢١/٧٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

من الآداب التربوية في هذا الباب:

أولاً: لم يلق رسول الله ﷺ ربه حتى نزل عليه قول الحق سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣]..

وقد أخذ الرسول ﷺ من الصحابة إقراراً وضحاً بيناً في حجة الوداع حين قال: (وإني مسؤول عنكم فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد إنك بلغت وأديت).

فنحن أمام دين كامل تام من حيث التلقي والكمال والبلاغ، كلمة اليوم ليست قاصرة على يوم التنزيل أو يوم التلاوة، بل كل يوم تتلى فيه هذه الآية هي مرادة في معناها، وكأن القرآن الكريم ينطق صباح مساء كل يوم بهذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [سورة المائدة:٣].

وإذا كان الدين قد كمل، والنعمة قد تمت فما علينا بعد إلا الاتباع لا الابتداع، وكل من رأى شيئاً يضاف إلى الدين، فقد افترى على الله كذباً، وخرج من ربقة الإسلام، لأنه يصف الله بهذه الصورة أو بهذا المعتقد وهو الجهل فضلاً عن مصادمته لنص القرآن.

والرسول ﷺ قد جمع في أحاديث الباب بين التعليم بالقول وبين استخدام الإشارة كوسيلة إيضاح ولم تكن الوسيلة من العجائب أو الغرائب، بل فرق بين إصبعيه السبابة والأوسط.

ثانياً- مصادر التربية الإسلامية: الكتاب والسنة:

ويبدو ذلك من قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا...»، وقوله: «فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَىُ مُحَمَّدٍ ﷺ». وفي ذلك توجيه من النبي ﷺ بالتزام كتاب الله وسنته؛ لأن فيهما النجاة والهدي في الدنيا والآخرة، وينبغي أن يهتم المربون بغرس هذه القيمة الجليلة في نفوس المتربين؛ وهي الاهتداء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ حتى لا تتنازعهم السبل وما أكثرها؛ ذلك بأن المصدرين لم يتركا صغيرة

ولا كبيرة في حياة المؤمن إلا أوردها.

فالقرآن الكريم منبع هداية وإرشاد، ويحتوي على آيات تهدي للحق، وتعاليم تعمق الوعي الأخلاقي، وتدعم القيم والمسئولية الاجتماعية، وتزكي النفوس، وتحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة...، وتعد السنة النبوية التطبيق العملي للقرآن الكريم في مجال التربية وفي غيرها من مجالات حياة المسلمين أفراداً وجماعات، لذا يرجع إليها المربون المسلمون عند تحديد أهداف التربية لصياغة الغايات النهائية والأهداف التربوية للتربية الإسلامية[١].

ثالثاً- التربية بالموعظة:

لقد كان ﷺ القدوة والمثل في أداء الخطبة، وقد روى جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلاَ صَوْتُهُ، ... حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، ...»، وفي ذلك دليل على قوة تأثير خطابته على المتلقين، بل إنهم ليشعرون أنهم يكادون يلقون الجيش، أو أن الأمر عظيم يكاد يحدق بهم.

والموعظة الحسنة من الأساليب التربوية الناجحة ذات الدور الكبير في التربية والإعداد والتوجيه وتصويب السلوك شريطة أن تكون بالأسلوب المحبب والوجه المقبول، فيستعمل التبشير والوعد بالخير مع النفوس المقبلة، ويستعمل الإنذار والوعيد مع النفوس المعرضة المدبرة[٢].

إن الخطيب القدير يصف الليل وصف الظهيرة فتحس أنك تحت أما الدجى، وتحت أجنحة الدباجير، ويصف النهر فتلمس ثياباً وأن تبتل وأنت ناد عن النهر، ويصف جيش الأعداء البعيد فتنظر إلى مطالع الجبال كأن الطلائع أقبلت والكتائب دنت[٣].

تلك هي براعة النبي ﷺ في موعظته لصحابته الكرام، وتربيته إياهم بالموعظة، ولقد استخدم إلى جانب هذه الإشارات الجسدية «احمرار العين، وعلو الصوت،

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٥١، ٥٢.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني ص ٣٨١.

(٣) هكذا حدثنا الزمان، عائض القرني ص ٢٢٣.

واشتداد الغضب»، استخدم الإشارة بيده أيضاً، فكان يقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وذلك استحضار للصورة أمام المتلقين، حتى يشعروا أن الساعة قد ألمت بهم، وتأكيداً على دنوها منهم، وبعثته في آخر الزمان.

إشارته بيده بهذا الشكل تعد وسيلة، تعليمية وتربوية، لها فائدة تتمثل في تقريب مستويات الخبرة للمتلقي، وتوفر الأساس المادي المحسوس للتفكير، وتقلل من أخطار التعلم اللفظي وتثير اهتمام المتربي، وتجعل الخبرات مترسخة[(١)].

وقد كان لحركته وإشاراته موضع كبير في إجادة الأداء، فحركته معبرة تلفت النظر، وتنبه الغافل، وتعين على الحفظ والتذكر، وعلى ذلك فاستخدام الرسول ﷺ للحركات المعبرة وسيلة تعليمية إنما لأنها أوقع في نفس السامع، وقد كان استخدام ﷺ للحركات المعبرة على عدة صور، من أهمها: تغير ملامح وجهه وتغير جلسته، والإشارة بالأصابع والإشارة باليد[(٢)].

رابعاً- من أهداف التربية الإسلامية: تحقيق التكافل الاجتماعي:

وقد أرسى النبي ﷺ هذا المبدأ، عندما قال: «مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ»، وفي هذا الحديث يؤسس ﷺ لواجب من واجبات ولي الأمر، التي يجب عليه التزامها؛ لأنها من واجباته الأساسية؛ ذلك الواجب هو كفالة اليتامى، بتسديد ديونهم، ورعايتهم والقيام عليهم، وليست هذه الرعاية من أجل منفعة عاجلة أو آجلة؛ بل إن من ترك أبناءه أغنياء فليس على ولي الأمر إلا حماية أموالهم، حتى يتسلموها حال كبرهم تامة غير منقوصة.

وقد عد الماوردي حفظ حقوق العباد ورعاية أموالهم من الواجبات الأساسية، التي يلزم الخليفة أو الإمام القيام بها؛ "لِتُصَانَ مَحَارِمُ اللَّهِ عَنْ الانْتِهَاكِ، وَتُحْفَظَ حُقُوقُ عِبَادِهِ مِنْ الإِتْلافِ وَالاسْتِهْلاكِ"[(٣)].

---

(١) طرق تدريس التربية الإسلامية، د. هدى الشمري ص ١٣١ بتصرف.

(٢) الوسائل التعليمية في القرآن والسنة والآثار عن الصحابة، د. عبدالرحمن بن محمد بلعوص العدد ١٣ ص٤٦٣.

(٣) الأحكام السلطانية، أبو الحسن الماوردي ص ١٦.

خامساً- التربية بالانفعال والحركات المعبرة:

ليس بالكلام المباشر وحده يوصل المربي المبادئ والمعلومات إلى نفوس المتربين؛ بل إن هذا الخطاب يحتاج إلى مدعمات سياقية، ليست لفظية، ولكنها حالية، تتعلق بحالة المربي أثناء أداء المعلومات إلى المتربين، ومن ذلك ما رود عن النبي ﷺ أنه كان «إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلاَ صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ. حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ»، إن احمرار العين وعلو الصوت واشتداد الغضب، وظهور المربي على هذه الحال المنفعلة أثناء الأداء يصبغ الحديث بصبغة الجدية، ويجعل نفوس المتلقين تستعد لكل ما يقال، وتستبين أهميته، بل إن ذلك له أكبر الأثر في تركيز المتربين واستيعابهم كل ما يقال.

إن أداء الخطاب يحتاج إلى استخدام هذه الأدلة الجادة في التربية؛ لأن المربي إذا وقع انفصال بين خطابه وبين حالته الشعورية -كأن يرهب المتربين من عاقبة ترك الصلاة وهو يبتسم أو يضحك- يورث في نفوس طلابه عدم الاقتناع بما يقول، وبالتالي إهماله، وهذا مؤداه أن يذهب جهده سدى لا جدوى من ورائه.

وهذه الطريقة في الأداء تؤدي إلى نجاح العملية التربوية؛ لأن التفاعل التربوي يمثل عنصراً مهماً في العملية التعليمية؛ حيث يعكس العمق والحيوية التي تكتسبها المعلومات والخبرات المنقولة للمتعلم، ويعكس المدى البعيد لأثر المتربي استيعاباً وتطبيقاً، هذا إضافة إلى الإسراع في العملية التربوية، بدون التفاعل بفقد المعلم صفته التربوية الإنسانية ويتحول إلى موظف رسمي لا فرق بينه وبين الموظف الذي يتعامل مع الأوراق والمعاملات اليومية[1].



(١) علم النفس الدعوي، د. عبدالعزيز طه النغيميشي ص ٢٥٣ بتصرف يسير.

١٩- باب فيمن سن سنة حسنة أو سيئة

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[الأنبياء: ٧٣].

الحديث رقم (١٧١)

١٧١- عَنْ أَبِي عَمْرٍو جَرِيرِ بنِ عبدِ اللّه ﷺ، قال: كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهارِ عِنْد رسولِ اللّه ﷺ فَجاءهُ قومٌ[1] عُراةٌ مُجْتابي النِّمار أَو الْعَباءِ. مُتَقلّدي السُّيوفِ عامَّتُهمْ (بل كلهم)[2] مِنْ مُضرَ، فتمعَّر وجهُ رسولِ اللّه ﷺ، لِما رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقة، فدخلَ ثُمَّ خرج، فأَمر بلالًا فأَذَّن وأَقامَ، فصلَّى ثُمَّ خَطبَ، فَقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خلقكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الآية: ﴿إِنَّ اللّه كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وَالآيَةُ (الأُخْرَى)[3] الَّتِي فِي آخر الْحشْرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّه ولْتنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمتْ لِغَدٍ﴾ تَصدَّق رَجُلٌ مِنْ دِينارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمرِه حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشقِّ تَمْرةٍ. فَجاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كادتْ كَفُّهُ تعجزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجزتْ، ثُمَّ تَتابعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيابٍ، حتَّى رَأَيْتُ وجْهَ رسولِ اللّه ﷺ، يَتهلَّلُ كَأَنَّهُ مذْهَبَةٌ، فقال رسولُ اللّه ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّةً حَسنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وأَجْرُ منْ عَمِلَ بِهَا مِنْ[4] بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ ينْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيءٌ، ومَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سيِّئَةً كَانَ عَلَيه وِزْرها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بعْده، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزارِهِمْ شَيْءٌ**» رواه مسلم[5].

---

(١) عند مسلم زيادة (حفاة)، وليست عند الحميدي فلم يوردها المؤلف.

(٢) قوله: (بل كلهم) لا يوجد في الصحيحين، وهو عند الحميدي في جمعه (١/٣٢٧، رقم ٥٠٦)، وكذا عند المنذري في ترغيبه.

(٣) الزيادة لا توجد عن مسلم.

(٤) (من) لا توجد عند مسلم.

(٥) برقم (١٠١٧/٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (٩٤).

قَوْلُهُ: «مُجْتَابِي النِّمارِ» هُو بالجيمِ وبعد الأَلِفِ باء مُوَحَّدَةٌ. والنِّمَارُ: جمْعُ نَمِرَة، وَهِيَ: كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ مُخَطَّط. وَمَعْنَى «مُجْتابيها» أَي: لابِسِيهَا قَدْ خَرَقُوهَا فِي رؤوسهم. « والْجَوْبُ »: الْقَطْعُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أَيْ: نَحَتُوهُ وَقَطَعُوهُ. وَقَوْلُه «تَمعَّرَ» هو بالعين المهملة، أَيْ: تَغَيرَ. وَقَوْلُهُ: «رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ» بفتح الكاف وضمِّها، أَيْ: صَبْرتَيْنِ. وَقَوْلُهُ: «كَأَنَّه مَذْهَبَةٌ» هو بالذال المعجمةِ، وفتح الهاءِ والباءِ الموحدة[1]، قَالَهُ الْقَاضي عِيَاضٌ[2] وغَيْرُهُ. وصَحَّفَه بَعْضُهُمْ فَقَالَ: «مُدْهُنَةٌ» بدَال مهملةٍ وضم الهاءِ وبالنون، وَكَذَا ضَبَطَهُ الْحُمَيْدِيُّ[3]، والصَّحيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الأَوَّلُ. وَالْمُرَادُ بِهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ: الصَّفَاءُ وَالاسْتِنَارُة.

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: هو الشَّليل بن مالك بن قسر اليماني.

وهو سيِّدُ قبليته، كان إسلامه قبل السنة العاشرة من الهجرة، وقد بايع النبي ﷺ على النصح لكل مسلم ((فما حجبه النبي ﷺ عن ذلك، ولا رآه ﷺ إلا تبسّم في وجهه))[4]، وقد بسط له النبي ﷺ عرض ردائه، وقال: "على هذا يا جرير فاقعد"، وقال النبي ﷺ عنه لأصحابه: ((إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه))[5]، وقال ﷺ: ((يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفجّ، رجلٌ من خيرِ ذي يَمَن، على وجههِ مسحةُ ملك))[6] وقال له النبي ﷺ ((ألا تكفيني ذا الخلصة؟ -وهي الكعبة اليمانية التي كانت باليمن وقيل إنها اسم الصنم نفسه- فقال جرير: يا رسول الله إني رجل لا أثبتُ على الخيل، فصكَّ رسول الله ﷺ في صدره، وقال ((اللهم ثبّته،

---

(١) الترغيب والترهيب، المنذري (١/١١٣).

(٢) مشارق الأنوار (١/٣٣٩).

(٣) الجمع بين الصحيحين (١/٣٢٧).

(٤) أخرجه البخاري ٣٨٢٢، ومسلم ٢٤٧٥.

(٥) مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/٢٧٢.

(٦) أخرجه أحمد ٤/٣٦٠ رقم ١٩١٨٠، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٣١/٥١٦.

واجعله هاديًا مهديًا)) فقال جرير: فخرجت في خمسين من قومي فأتيناها، فأحرقناها[1].

وكان ﷺ حسن الصورة، قال فيه عمر بن الخطاب ﷺ: جرير يوسف هذه الأمة، وقال له: يرحمك الله، نِعْمَ السيد كنتَ في الجاهلية، ونعم السيد أنت في الإسلام، وقدّمه عمر بن الخطاب في حروب العراق على جميع جيله وقد نهى علي بن أبي طالب ﷺ عن سب جرير ﷺ وقال، جرير منّا أهل البيت وقد سكن الكوفة، وأرسله عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى معاوية بن أبي سفيان ﷺ، فلما وقعت الفتنة بين الرجلين -عليهما الرضوان- خرج جرير إلى قرقيسيا، وسكن بها حتى مات.

وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث بلغت نحو مائة حديث. وتوفي سنة ٥٤هـ، وقيل ٥١هـ[2].

غريب الألفاظ:

صدر النهار: أوله[3].

مجتابي النمار: فسّرها النووي[4].

العباء: كساء مشقوق واسع بلا كمين يلبس فوق الثياب[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٠) ومسلم (٢٤٧٦).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٢٢/٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٨٥-١٨٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٢٠-١٢١)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٤٤٥/١-٤٤٧)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٩٦/١-٢٩٧)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (١٢٨٩/١-١٢٩٠)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥٢٩/١-٥٣٠)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٥٦٢/١-٥٦٤).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ص د ر).

(٤) رياض الصالحين ١١٩.

(٥) الوسيط في (ع ب أ).

تمعَّر: فسَّرها النووي[١].

الفاقة: الحاجة والفقر[٢].

ديناره: الدينار: عملة نقدية من الذهب ووزنها ٤,٢٥ جرامًا[٣].

درهمه: الدرهم: قطعة نقدية من الفضة ووزنها ٢,٨١٢ جرامًا. أي ما يزيد قليلًا عن ثلاثة جرامات من الفضة إلا ربعًا[٤].

صاع: الصاع: وحدة من وحدات المكاييل وهو عند جمهور العلماء يساوي ٢١٧٢ جرامًا، أي ما يقل قليلًا عن الكيلو جرامين والربع[٥].

بره: البر -بالضم- القمح[٦].

صُرَّة: ما يجمع فيه الشيء ويشد[٧].

كومين: فسَّرها النووي[٨].

كأنه مُذهبة: فسَّرها النووي[٩].

الشرح الأدبي

إن المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا؛ ومن أضواء هذا الحديث المشعة بالرحمة والبر والتعاون نقتبس كثيرًا من الدروس الحياتية، والخبرات العملية، والتعاونية في سبيل التعاون على البر والتقوى، وثمرة هذا الحديث المطوَّل

---

(١) رياض الصالحين ١١٩-١٢٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف و ق).

(٣) معجم لغة الفقهاء ١٨٩.

(٤) انظر معجم لغة الفقهاء ١٨٥.

(٥) انظر معجم لغة الفقهاء ٢٤١، ٤١٩.

(٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٥٦.

(٧) الوسيط في (ص ر ر).

(٨) رياض الصالحين ١٢٠.

(٩) رياض الصالحين ١٢٠.

تُقَدمُ إلينا في خاتمته وكأنها القطوف الدانية، وهي الجزاء الأوفى لمن سنَّ سُنَّة حسنة في الإسلام، والعقاب الأشد لمنْ سن سنَّة سيئة في الإسلام، ولكن حين نتأمل متن الحديث نجده قد مهّد لهذه القضية بمهاد واقعي عملي، ثم بشاهدين من آيات القرآن الكريم يقيمان الدليل على أن الإنسان أخو الإنسان لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره.

ويجيء هذا التمهيد في صورة سرْديّة واقعية إذ يحكي الراوي هذا المشهد في حضرة رسول الله ﷺ، حيث كان بعض الصحابة في صدر النهار أي أوله، وهذا تعبير جميل المحيا. يتفق مع طبيعة هذا الجَمْع الذي حَضَر إلى رسول الله ﷺ كما قال بعض العلماء للتشرف برؤياه، واستمطار الفيوض الإلهية من سحب مُحيّاه، وبينما هم في هذا المجلس المنير بكلمات المصطفى المجتبى وسنته الشريفة، جاءه أي جاء إلى الرسول ﷺ ولم يقل جاءنا، أو جاءهم، وإنما المجيء كان لرسول الله، طلبًا للمعونة والهداية والبر، ولكن الذين جاءوا كانوا من الفقراء وصوّرهم الحديث تصويرًا واقعيًا فيه دقة الوصف، وبراعة اللفظ، وواقع هؤلاء القوم يغني فيه الحال عن المقال، فهم عراة، والعُرْى هنا كناية عن شدة الفاقة، فليس لديهم ما يسترهم في حياتهم من المال أو الجاه، أو القليل من متع الحياة، وليس على أجسادهم إلا "النّمار"، جمع نمرة. وهي كساء من صوف مخطط يلبسه الفقراء من الناس؛ وقوله مجتابي "النمار أو العباء" فيه رصد دقيق لهيئة هؤلاء القوم: لأن ما يلبسونه قطعة واحدة من الصوف الخشن، وقد قطعوها أو خرقوها لتدخل في رءوسهم، وهم على الرغم من هذه الفاقة الشديدة يتقلدون سيوفهم، إيحاءً بأن المسلم يجب أن يظل قويًا عزيزًا حتى في أشد حالات الفاقة.

وما أعظم موقف المصطفى ﷺ، وما أرق قلبه، وما أسمى عاطفته.. وهو يرى هؤلاء القوم وهم من مضر، والمضريون مشهورون بالقوة والمنعة؛ فكيف بهؤلاء القوم المضريين وقد تكالبت عليهم الأيام، وعضهم الفقر بنابه، ولذلك شعر الرسول ﷺ بالأسى لحالهم، والعطف عليهم لما حلّ بهم، وظهر هذا الشعور على وجهه حيث تغير، وحَسَب رواية الحديث، تمعَّر وجه رسول الله ﷺ.

ومادة الفعل اللغوية: "مَعَر"، تتفق وحالة هؤلاء الفقراء، فالفعل: "أمعر": معناه: افتقر

وفنى زاده، وحين نقول: "أمْعَرت الأرض": أى لم يكن فيها نبات أو قلّ نباتها، ويقولون: معَّر وجْهَهُ أى: غيره غيظًا فتمعَّر، ويقولون: به مُعْرة: أى اللون الذي يضرب الحُمْرة، والمعور: المُقَطَّب غضبًا[١].

ويحكي الراوي ويصور ما قام به رسول الله ﷺ تجاه هؤلاء الناس حيث يقول: "فدخل ثم خرج فأمر بلالًا فأذن وأقام فصلى ثم خطب"، وهذه الجمل في صياغتها تنقل الحدث، وترصد الحركة، وتفصح عن شدة وسرعة اهتمام الرسول بأمر هؤلاء القوم، فالعبارة لا تتجاوز سطرًا واحدًا، ولكنها تتضمن سبعة أفعال ماضية، وهى في تواليها تضع مشهدًا متكاملًا لما قام به الرسول ﷺ لإنقاذ هؤلاء الناس ومن على شاكلتهم من طوائف الأمة في كل زمان وكل مكان، والأفعال تتوالى على هذا النمط، (فدخل، ثم خرج، فأمر، فأذّن، وأقام، فصلّى، ثم خطب، فقال).

وحروف العطف هنا تتصدرها: "الفاء"، وهى للترتيب والتعقيب، ولها هنا دلالة الإسراع لإنقاذ هؤلاء القوم من فاقتهم وعوزهم، وحرف العطف "ثم" يأتي في موقعه الملائم "فدخل أي بيته ثم خرج" وذلك يوحي بالأناة والتمهل والتفكير في أمر هؤلاء الناس، وبعد أن خرج أمر بلالًا فأذن بلال، وعطف فعل الإقامة على الأذان جاء بالواو، لتدل على الأناة بين الأذان والإقامة حسب الوقت الذي حددته السنة النبوية الشريفة.

وبدأ المصطفى ﷺ الخطبة بآيات من القرآن الكريم تقرر أن الناس جميعًا أبوهم واحد، وأمهم واحدة "آدم وحواء" قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة: مَعَر. ص٤٧٧.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

(٣) سورة الحشر، آية: ١٨.

وآية سورة النساء تختم بقوله سبحانه: "إن الله كان عليكم رقيبا" ووجه مناسبة هذه الآية للموقف الخاص بهؤلاء القوم أصحاب الفاقة، كما يقول صاحب دليل الفالحين: "إن فيها اتحاد الناس في خلقهم من نفس واحدة، ثم الأمر باتقاء الأرحام، وقرنه باتقاء الله الدال على أن صلتها من الله تعالى بمكان، وختمها بقوله تعالى:"رقيبا"، لتحمل هذه المراقبة كل غنى على سد خُلة المحتاج لا سيما الرحم، لأن من رأى شقيقه، ورحمه في غاية الحاجة ولم يصله، كان قاطعًا لرحمه وقرابته غير متق لله ولا مستحضر لكونه رقيبًا عليه.

والآية الثانية: في الخطبة اقتبسها الرسول ﷺ من سورة الحشر؛ فيها غاية الحث على ما في الآية التي قبلها وهى الأولى من سورة النساء.

وجاء الأمر بالتصدق في صياغة خبرية في قوله: تصدّق رجل، والخبر هنا أبلغ من الأمر، لدلالته على الوقوع، وكذلك للإيحاء بعدم الإجبار على التصدق، وجَعْل هذا الفعل الخيري في دائرة الاختيار، لمزيد من الصِّدق وحسن النية، وسلامة القصد، وتحديد منابع الصدقة، جاءت صياغته متآلفة مع الصدق الشعوري، والإسراع في إخراج الصدقة لإنقاذ أصحاب الفاقة، وجاء التنوع متواليًا متواصلاً، لا توقف تواصله حروف العطف، بل جاءت هذه المنابع المتنوعة متدفقة مسرعة على هذا النحو، تصدق رجل أى: ليتصدق رجل: من ديناره ، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة،وجاء "رجل" في صيغة النكرة: لأنه وضع موضع الجمع لأن المراد كل الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ ومَنْ في هذا الجزء من الحديث للجنس والتقدير، ببعض ما عنده من هذا الجنس، وفي هذا الجزء كذلك بلاغة الحذف، : فقيل كل نوع من هذه المصادر والمنابع يسبقه لفظ رجل: والتقدير: تصدق رجل من ديناره، ورجل من درهمه، ورجل من ثوبه... إلخ، أي: تصدق رجل مِنْ ... إلخ.

والإيجاز من سمات بلاغة النبوة، وهى البلاغة الإنسانية التي خضعت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، ولقيت دعوة الرسول الكريم الاستجابة الفورية من الصحابة رضي الله عنهم: وبدأ بالتصدق رجل من الأنصار، ولم يحدد اسم الرجل.. لأن العبرة هنا

تتمثل في الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ والتعاون والتنافس من أجْل إنقاذ ضعاف المسلمين، وذوي الحاجات، الذين وقعوا فريسة الفقر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[1]. وتهلل وجه رسول الله حتى صار كأنه "مذهبة" لما توهج به ملامحه من صفاء واستنارة.

والحديث خير درس في التكافل الاجتماعي، والرسول هو القدوة الحسنة، فقد كان أجود بالخير على الناس من الريح المرسلة، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، حتى مات وليس عنده درهم ولا دينار، وقد أوقف كل أرض كانت قد صارت إليه من الغنائم على رعاياه الضعاف من هذه الأمة، لأن معونة هذه الطبقات المحتاجة حماية للأمة من الفتن، وحفظ لكيانها الاجتماعي من الانحلال، بل في ذلك إنشاء قوة عظيمة للأمة، فعسى أن يكون منهم نوابغ ورجال مؤمنون نافعون.

ولا عجب أن اهتم القرآن والرسول بتلك الطبقات المحتاجة، وجعل الصدقة عليها من سُبل الإيمان والحياة الطيبة، التي تكفل للفرد والجماعة سعادة الدنيا والآخرة.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكمين فقهيين:

الأول: حكم البدعة، وقد سبق الكلام عنها في الحديث رقم (١٥٧).

الثاني: حكم الصدقة وسؤال الصدقة بالنسبة للفقير المعدم، حيث اتفق الفقهاء[2] على أنه يجوز للفقير المعدم، والمدين المغرم، أن يسأل الصدقة للقيام بما عليه من واجب سداد الدين، والإنفاق على أهله ونفسه عند العجز عن الكسب لمرض

---

(١) سورة المعارج، آية: ٢٤.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود٤٨/٢، بريقة محمودية في طريقة محمدية وشريعة نبوية في سرية أحمدية، محمد بن مصطفى الخادمي ٢٢٧/٣، الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، الأنصاري للأنصاري ٨٣/٤، حاشيتا قليوبي وعميرة ٢٠٠/٣، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٧٢/٢، المغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ٢٧٨/٢.

أو غيره، أو عند عدم كفايته، وإن كان الأفضل له أن يستعفف عن السؤال وأن يلجأ إلى الله ويستعين بالصبر حتى يفرج الله عنه، ويحرم سؤال الصدقة للغني القادر على الكسب والإنفاق على نفسه وأهله، وإذا سأل الصدقة لم يعط منها، وكره الحنابلة[1] سؤال الصدقة في المسجد والتصدق على السائل فيه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: من صفات الداعية: الشفقة والتأثر لأحوال المدعوين.

ثالثًا: من مهام الداعية: حث المدعوين على بذل الصدقة وإعانة إخوانهم المحتاجين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة رضي الله عنهم لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم.

خامسًا: من صفات المدعوين: الاستجابة والمسارعة إلى بذل الخير.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل السنة الحسنة في الإسلام.

سابعًا: من وسائل الدعوة: جمع الناس والخطبة.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الاستشهاد بالقرآن الكريم والترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم:

لقد كان حرص الصحابة رضي الله عنهم على مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم من الأمور التي تواترت واشتهرت. فقد كانوا رضوان الله عليهم يهجرون الأوطان والأهل والأرض والمال من أجل لقائه والجلوس بين يديه، يتعلمون أمور دينهم ويقتدون به في سائر أحواله ويقتبسون من نوره ويتشرفون بصحبته وهو ينشر الإسلام ويقيم دولته. وهذا الأمر لا يحتاج إلى تدليل وبرهان حتى ندلل عليه ونبرهن، وإنما ذكرناه لكونه ورد في هذا الحديث كما هو واضح من قول جرير بن عبدالله رضي الله عنه: "كنا في صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وقد قال الله تعالى في صفة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ

(١) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٣٧٢.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[١].

ولشدة حبهم وحرصهم على هذه المجالسة ذكّر النبي ﷺ الأنصار بها لما علم أنهم غضبوا من إعطائه ﷺ المؤلفة قلوبهم أموالاً كثيرة ولم يعطهم شيئًا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ((أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. فقالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا))[٢].

ثانيًا- من صفات الداعية: الشفقة والتأثر لأحوال المدعوين:

إن الداعية لا يعيش لنفسه فقط، وإنما يعيش أيضًا في مجتمع إنساني تختلف فيه أحوال الناس غنىً وفقرًا وقوة وضعفًا ونحو ذلك. وهو إزاء هذا الاختلاف يتأثر بظروف أهل الحاجة والفقر والعوز، لأنهم أولى الناس بتأثره واهتمامه وعنايته. وهو بهذا الاهتمام وتلك العناية يدعو المدعوين -ولو بطريق غير مباشر- إلى سد حاجة المحتاجين وإغناء ذوي الفقر والعوز. وهو يفعل هذا اقتداء بإمام الدعاة محمد ﷺ الذي كان عونًا للفقراء والمساكين، كما يتضح في هذا الحديث من قول جرير رضي الله عنه: (فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة. (وتمعر: أي تغير)[٣]. وقال القرطبي: (تغيّر لما شق عليه من فاقتهم)[٤].

وقد كان هذا شأن النبي ﷺ مع المحتاجين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك. حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال: من يضيف هذا الليلة رحمه الله))[٥].

---

(١) سورة النور، آية: ٦٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣١٤٧، ومسلم ١٠٥٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٦.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٢/٣.

(٥) أخرجه البخاري ٣٧٩٨، ٤٨٨٩، ومسلم ٢٠٥٤.

ثالثًا- من مهام الداعية: حث المدعوين على بذل الصدقة وإعانة إخوانهم المحتاجين:

إن النفس البشرية تحتاج إلى التذكير دومًا بماعليها فعله والقيام به، فهي وإن كان الأمر ماثلاً أمام عينيها إلا أنها تكون أسرع في الاستجابة إذا ذكرت به ونبهت عليه. وهنا يأتي دور الداعية الذي عليه أن يسارع إلى تذكير المدعوين وحضهم على الإنفاق على المحتاجين وبذل العون لهم. وعندما يقوم الداعية بهذا فإنه يكون أدّى مايجب عليه وذكّر الأغنياء بأن يؤدوا ماعليهم تجاه الفقراء، كما أنه ساعد الفقراء في التوصل إلى سدّ خلتهم وحاجتهم، وكل هذا يعود على المجتمع بالأمن والسلام والمحبة والتوادّ. لذا حث النبي ﷺ، وهو إمام الدعاة، المدعوين وحضهم على بذل الصدقة، فقال: (تصدق رجل من ديناره): قال ابن علان: (خبر بمعنى الأمر وهو أبلغ لدلالته على الوقوع، أي ليتصدق)[1].

وقد كان النبي ﷺ يحث أصحابه على الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، فعن ثمامة بن حَزْن القشيري قال: شهدت الدار يوم أصيب عثمان فاطّلع عليهم اطّلاعةً فقال: "ادعو صَاحِبَيْكم اللذين ألّباكم عليَّ، فدُعيا له فقال: نشدْتُكما الله أتعلمان أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ضاق المسجد بأهله فقال: من يشتري هذه البقعة من خالص ماله، فيكون فيها كالمسلمين وله خير منها في الجنة؟ فاشتريتها من خالص مالي، فجعلتها بين المسلمين وأنتم تمنعوني أن أصلي فيه ركعتين ثم قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة لم يكن فيها بئر يستعذب منه إلا رُومة، فقال رسول الله ﷺ من يشتريها من خالص ماله فيكون دلوه فيها كدُلِيِّ المسلمين وله خير منها في الجنة؟ فاشتريتها من خالص مالي، فأنتم تمنعوني أن أشرب منها. ثم قال: هل تعلمون أني صاحب جيش العسرة؟ قالوا: اللهم نعم"[2].

وفي رواية للترمذي: هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٣٢٦.

(٢) أخرجه أحمد ٧٥/١ رقم ٥٥٥، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٥٥٨/١-٥٥٩ واللفظ له، والترمذي ٣٧٠٣ وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٢١).

نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون فجهزت ذلك الجيش قالوا: نعم. ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: اللهم نعم، وأشياء عددها[(١)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: امتثال الصحابة لأوامر النبي ﷺ:

إن الله عز وجل اصطفى محمدًا ﷺ، واصطفى له أصحابه الذين كانوا خير القرون والأجيال، وإنما استحقوا ذلك لكونهم أشد الناس اتباعًا له، فكان إذا أمرهم ائتمروا وإذا نهاهم انتهوا. وممّا يدل على ذلك هذا الحديث، فقد أمرهم النبي ﷺ بالصدقة "فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفُّه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس...".

وقد كان الصحابة أسرع الناس امتثالاً لأمر النبي ﷺ وقد فاضت الأحاديث بذلك، من ذلك ما رواه يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله ﷺ حتى انتهى بعضهم دون الأعراض إلى جبل بناحية المدينة، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ وقد كان حنظلة بن أبي عامر الثقفي هو وأبو سفيان بن حرب، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود فعلاه شداد بالسيف حتى قتله. وقد كاد يقتل أبا سفيان، فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم حنظلة تغسله الملائكة فسلوا صاحبته. فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهائعة فقال رسول الله ﷺ فذاك قد غسلته الملائكة[(٢)].

خامسًا- من صفات المدعوين: الاستجابة والمسارعة إلى بذل الخير:

إن من الصفات الطيبة التي يجدر أن يتحلى بها المدعو، الاستجابة لدعوة الإنفاق والمسارعة إلى الإنفاق، وكذلك يكون شأنه في فعل الخير، لأن هذا يدل على حسن إسلامه وصدق إيمانه، ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم أسرع الناس إلى فعل الخير وذلك واضح في قول الراوي: "فجاء رجل من الأنصار بصرّة.... ثم تتابع الناس.. حتى رأيت وجه

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٦٩٩ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩١٩).

(٢) أخرجه ابن حبان ٧٠٢٥ والحاكم ٣/٢٠٤-٢٠٥ والبيهقي ٤/١٥ وقال محقق صحيح ابن حبان: حديث صحيح.

رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة".

قال القرطبي: (شبه صفاء وجهه بإشراق السرور بصفاء هذاالماء المستنقع في الحجر أو بصفاء الدهن، وسروره بذلك فرحٌ بما ظهر من فعل المسلمين ومن سهولة البذل عليهم ومبادرتهم لذلك، وبما كشف الله من فاقات أولئك المحاويج)[١].

والمسارعة إلى فعل الخير من صفات المؤمنين، قال تعالى عن المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[٢] ولما نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[٣] جاء أبو طلحة ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله يقـول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بَيْرَحاء[٤] وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: ((بخٍ ذلك مال رابح ذلك مال رابح...))[٥].

فإذا ما اتصف الناسُ بالتنافس في فعل الطاعات، فهذا يُحدث إقبالاً على الخير وإكثارًا منه ونشرًا للفضائل والصفات الطيبة، وسدًّا لحاجات الفقراء والمساكين، كمايتضح في هذا الحديث، فيتضح من قول الراوي: "ثم تتابع الناس...".

وقد قال الله عن الجنة وهي التي يتوصل إليها بالطاعات: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[٦].

قال القاسمي: (أي فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى. قال ابن جرير: التنافس أن ينفس الرجل على الرجل بالشيء يكون له، ويتمنى أن يكون له دونه. وهو

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦٣/٣.

(٢) المؤمنون، آية: ٦١.

(٣) آل عمران، آية: ٩٢.

(٤) بيرحاء: بئر من آبار المدينة أو ارض محببة إلى ابي طلحة.

(٥) أخرجه البخاري ١٤٦١، ومسلم ٩٩٨.

(٦) سورة المطففين، آية: ٢٦.

مأخوذ من الشيء النفيس، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه وتشتهيه. وكأن معناه في ذلك: فليجدّ الناس فيه وإليه. فليستبقوا في طلبه ولتحرص عليه نفوسهم[١].

وقال الرازي: إن مبالغته تعالى في الترغيب فيه تدل على علوّ شأنه، وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم، لا في النعيم الذي هو مكدّر سريع الفناء)[٢].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتنافسون في فعل الطاعات، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت: ((اليوم أسبق أبابكر إن سبقتُه يومًا، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله قال: وأتى أبوبكر رضي الله عنه بكل ما عنده فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا))[٣].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل السنة الحسنة في الإسلام:

إن المبتدئ بالخيرات له فَضْلٌ كبير، فهو من ناحية قد حاز قصب السبق بفعله هذا، كما أنه في الغالب قد تغلّب بعد جُهدٍ على بعض المعوقات التي كان يمكن أن تعيقه عن المسابقة إلى هذا الفعل، كما أنه أصبح قدوة لغيره لأن يفعلوا مثله، لهذا كان له أجر عظيم، كما هو واضح في قول النبي ﷺ: ((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء)).

قال النووي: (فيه الحث على الابتداء بالخيرات، وسن السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات. وسبب هذا الكلام في هذا الحديث أنه قال في أوله "فجاء رجل بصرة كادت كفه تعجز عنها، فتتابع الناس" وكان الفضل العظيم للبادي بهذا الخير والفاتح لباب هذا الإحسان)[٤].

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٤/٢٢٠.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ١٧/٩٧.

(٣) أخرجه أبو داود ١٦٧٨، والترمذي ٣٦٧٥، وحسنه الألباني (صحيح أبي داود ١٤٧٢).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٤٦.

ومن هذا القبيل ما فعله الصحابي خبيب بن عدي رضي الله عنه حينما قدمته قريش بمكة للقتل فقال لهم: دعوني أصلي ركعتين ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي من جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو[1].

وقال القرطبي مبينًا أوجه تفضيل الصحابة رضي الله عنهم على من جاء بعدهم: (ثامنها: أن كل خير وفضل وعلم وجهاد ومعروف فعل في الشريعة إلى يوم القيامة، فحظهم منه أكمل حظ وثوابهم فيه أجزل ثواب، لأنهم سنُّوا سنن الخير، وافتتحوا أبوابه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة"، ولا شك في أنهم الذين سنُّوا جميع السنن وسابقوا إلى المكارم)[2].

وقال ابن حجر عن بعض فضل خديجة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم: (ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن، لما ثبت أن "من سنَّ سنة حسنة..." وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق بالنسبة إلى الرجال، ولا يعرف قدر ما لكلٍّ منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله عز وجل)[3].

وبالمقابل فإن من سنّ سنة سيئة وابتدأ بها فقد اقتحم باب شرٍّ بجرأته وسهله على غيره، وأزال جدار الهيبة الذي كان يحجز الناس عنه، ومن ثم كان المبتدئ بهذه السنة السيئة عليه وزره ووزر من عمل بها، لأنه مهدها لهم وعبّد طريق فعلها واقترافها.

سابعًا- من وسائل الدعوة: جمع الناس والخطبة:

أما جمع الناس فهذا واضح من قول الصحابي "فأمر بلالاً فأذن" ولاشك أن الأذان

---

(١) أخرجه البخاري ٤٠٨٦.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ١/٥٠٢ - ٥٠٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/١٧١، وقد ذكر ابن حجر هذا الكلام بعد قولٍ للقرطبي صاحب المفهم، لكن لا ندري هل هذا من كلام القرطبي أم من كلام ابن حجر؟ وهذا الكلام غير موجود في المطبوع من المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٦/٣١٩.

جمع للناس للصلاة، وهذا ما جاء في الحديث "ثم صلَّى" أما الخطبة "ثم خطب" فقد كانت وسيلة مباشرة تناسب الموقف الذي لا يناسبه إلا الإسراع إلى التصدق على هؤلاء المحتاجين والمبادرة إلى إغنائهم وسد خلتهم.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الاستشهاد بالقرآن الكريم والترغيب والترهيب:

فقد بدأ النبي ﷺ خطبته بذكر آيات من القرآن تذكر بالأخوة وتذكر بيوم القيامة وما أعده الإنسان لذلك اليوم، وقد كان هذا الاستشهاد في موضعه، والنبي ﷺ سيد البلغاء، وقد استجاب المدعوون لما ندبهم إليه رسول الله ﷺ.

أما الترغيب والترهيب فهو في آخر الحديث، فقد رغب النبي ﷺ في فعل السنن الحسنة والابتداء بالخيرات وبيّن أجر من فعل ذلك وثوابه العظيم، ومن ناحية أخرى رهّب من الابتداء بالأمور المستقبحة والمبتدعات لما في ذلك من العقاب الوخيم لمن فعل ذلك.

قال القرطبي: (يُفيد الترغيب في الخير المتكرر أجره بسبب الاقتداء، والتحذير من الشر المتكرر إثمه بسبب الاقتداء)[١]، وقال ابن الجوزي: (فليجتهد الإنسان في فعل خير يلحقه ثوابه بعد موته، وليحذر من فعل شر يدركه إثمه بعد تلفه)[٢].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٢/ ٦٣.

(٢) معاني الصحيحين ١/ ٢٥٤ [مخطوط] نقلا عن تعليق د. فؤاد عبدالمنعم أحمد على الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨/ ١٧٨.

الحديث رقم (١٧٢)

١٧٢- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**ليس مِنْ نفْسٍ تُقْتَلُ ظلْمًا إلاَّ كَانَ عَلَى ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دمِهَا، لأَنَّهُ كَان أوَّل مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ**» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

غريب الألفاظ:

الكفل: النصيب[٢].

الشرح الأدبي

إن حياة الإنسان أمانة استودعها الله إياه، وهو مكلف بالحفاظ على هذه الحياة، وعدم ارتكاب ما يلقي بالنفس إلى التهلكة، وعدم الإقدام على قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، والجنايات في نظر الإسلام هي المحظورات الشرعية التي زجر الله عنها بحد أو تعزير، وهي إما إتيان فعل منهي عنه، أو ترك فعل مأمور به، فإن ذلك في نظر الإسلام جريمة لما يترتب عليها من الضرر الكبير في نظام الجماعة، أو بعقائدها أو بحياة أفرادها، أو بأموالهم وأعراضهم ومشاعرهم، وقد شُرع العقاب على الجريمة لمنع الناس من اقترافها، ما دام النهي عن الفعل أو الأمر بإتيانه لا يكفي وحده لحمل الناس على إتيان الفعل أو الإقلاع عنه[٣].

وفي ضوء هذا المنظور الإسلامي للحفاظ على النفس الذاتية والغيرية نستجلي أسرار الحديث وجمالياته التعبيرية، لأن جريمة القتل العمد من أكبر المحرمات، وأخطر الجرائم، وأشدها إخلالاً بالأمن، وأكثرها تسببًا للاضطراب والفوضى في المجتمع،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢١) واللفظ له، ومسلم (٢٧/١٦٧٧). أورده المنذري في ترغيبه (٩٦).

(٢) الوسيط في (ك ف ل).

(٣) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ص ٨٧-٨٨.

ولذا كانت من السبع الموبقات التي عدها النبي ﷺ في حديثه الشريف.

ومنطوق الحديث يضاعف من حجم جريمة القتل، ويضاعف من عقابها، لأن القاتل الأول وهو قابيل ابن آدم ، يتحمل وزر كل دم أزهق بغير حق، فكل جرائم البشرية تعود إلى منبعها الأول، وهو الذي سن سنة سيئة في التاريخ الإنساني، ومن هنا يرتبط هذا الحديث بوشائج موضوعية ومصيرية بالحديث السابق، وهو يعد أنموذجًا تطبيقيًا للوجه المرفوض الذي يؤصل للسنن السيئة، وهو عليه وزْرها ووزْر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، وابن آدم القاتل هو الذي استن سنة سيئة.

ولذلك يقول رسول الله في هذا الحديث: "ليس من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها".

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الجامع، وأول ظاهرة أسلوبية تتمثل في أسلوب القصر الذي غلّف صياغة هذا الحديث الشريف، وأسلوب القصر يؤكد أن المسؤولية تقع على من سن سنة سيئة وهو أول من سن القتل ظلمًا، وكل من ارتكب جناية أو ابتدع ذنبًا أو اقترف إثمًا، وقلده مَنْ بعده في ذلك فلابد أن يتحمّل وزْر ما جَنته يداه، وما أشاعته سلوكياته من آثام انقاد فيها لهواه، والحرف "من" في منظور النحاة: حرف زائد ولكن له وظيفة بلاغية أسلوبية: فهو لتأكيد استغراق النفس، ويدل على الاستقصاء: أي ليس هناك نفس آلت إلى هذا المصير إلا وابن آدم يتحمل وزر دمها ويلحق به العقاب الأليم.

وبناء الفعل للمجهول "يُقْتل" يوحي بأن القاتل يحاول التخفي، ويتستر دائمًا على جريمته، ولكن مهما فعل فإن دم القتيل لن يفارق سيرته ولا ظله، وسيظل يطارده حيًا وميتًا وكيف لا.. والقاتل الأول يتحمل ويحمل بعض دم هذا القتيل، وهي قصة تتكرر في كل جيل، وكل مكان. وقوله "ظلمًا" احتراس : لأن القتل يمكن أن يكون في ساحة المعركة فيفوز الإنسان بالشهادة، ويمكن أن يقتل الإنسان قصاصًا، وهناك القتل "الخطأ" وهناك القتل "شبه الخطأ" .

وعدم التصريح باسم قابيل لأنه معروف لكل ذي لب، ولا يخفى على ذي عينين،

واسم القاتل ليست له ثمرة نافعة في هذا السياق، وقد يكون عدم التحديد للإيحاء بأنَّ كل مَنْ قام بمثل هذا العمل فهو يقتدي بقابيل، وعليه الوزْر الذي نشب بأظفاره في سيرة ابن آدم الأول، والحديث يدعو إلى المؤاخاة بين المسلمين، وإلى أن يحافظ المسلم على أخيه المسلم، فكل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، كما أوصى بذلك المبعوث رحمة للعالمين، محمد ﷺ الصادق الوعد الأمين.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرمة القتل بغير حق.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من سن السنن السيئة.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: المحافظة على النفس.

رابعًا: من أساليب الدعوة: القصر والترهيب والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرمة القتل بغير حق:

لقد صان الإسلام النفس البشرية، وعمل على الحفاظ عليها بكل طريق ممكن، وحرم الاعتداء عليها ظلمًا وعدوانًا، يتضح ذلك من قول النبي ﷺ "ليس من نفس تقتل ظلما..".

وقد تضافرت النصوص من القرآن والسنة بتحريم القتل بغير حق ظُلمًا وعدوانًا، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1] أي: (بسبب جناية القتل هذه شرعنا لبني إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض بمحاربة شرع الله، فكأنما قتل الناس جميعًا فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله، وأنه من امتنع عن قتل نفس حرمها الله فكأنما أحيا الناس جميعًا، فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمات الناس كلهم)[2].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٢) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء ١١٢.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكبائر قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور))[١].

قال عبدالله البسام: (حرص الشارع الحكيم الرحيم على بقاء النفوس وأمنها فجعل لها من شرعه حماية وصيانة، فجعل أعظم الذنوب بعد الشرك قتل النفس التي حرّم الله قتلها، وبهذا حفظها من الاعتداء عليها)[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من سنّ السنن السيئة:

إن الإقدام على فعل السنن السيئة والمسارعة إليها لأمر خطير جدًا، فهو يهوّن من شأن اقتراف المعصية والذنوب، فضلاً عن العمل على شيوعها وانتشارها في المجتمع، ومن ثم يستحق من فعل ذلك العقاب الشديد، ذلك واضح في عظم الذنب الذي ينال ابن آدم القاتل، حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن ابن آدم الأول "كان أول من سن القتل".

قال القرطبي: (وقوله: "لأنه أول من سن القتل" نصٌّ على تعليل ذلك الأمر؛ لأنه لما كان أول من قتل، كان قتله ذلك تنبيهًا لمن أتى بعده، وتعليمًا له. فمن قتل كأنه اقتدى به في ذلك، فكان عليه من وزره. وهذا جار في الخير والشر؛ كما قد نصّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدِّم بقوله: ((مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا وَثَوَابُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))[٣].

وبهذا الاعتبار يكون على إبليس كفلٌ من معصية كل من عصى بالسجود؛ لأنه أول من عصى به. وهذا - والله أعلم - ما لم يتب ذلك القاتل الأول من تلك المعصية؛ لأن آدم عليه السلام أول من خالف في أكل ما نُهي عنه، ولا يكون عليه شيء من أوزار من عصى بأكل ما نهي عنه، ولا شربه ممن بعده بالإجماع؛ لأن آدم عليه السلام تاب من ذلك، وتاب الله

(١) أخرجه البخاري ٢٦٥٣، ومسلم ٨٨.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ١٦٦/٥ - ١٦٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٠١٧، من حديث جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه.

عليه، فصار كأن لم يجن؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. والله تعالى أعلم.

وابن آدم المذكور هنا هو: قابيل، قتل أخاه هابيل لما تنازعا تزويج إقليمياء، فأمرهما آدم أن يقرّبا قربانًا، فمن تُقبل منه قربانه كانت له، فتُقبل قربان هابيل فحسده هابيل فقتله بغيًا وعدوانا. وهكذا حكاه أهل التفسير)[(١)] [(٢)].

قال ابن حجر: (قال المهلب: هذا الباب والذي قبله في معنى التحذير من الضلال واجتناب البدع ومحدثات الأمور في الدين، والنهي عن مخالفة سبيل المؤمنين انتهى. ووجه التحذير: أن الذي يحدث البدعة قد يتهاون بها لخفة أمرها في أول الأمر، ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده، ولو لم يكن هو عمل بها، بل لكونه كان الأصل في إحداثها)[(٣)].

وقد جاءت نصوص من الكتاب والسنة تحذر من ابتداع السنن السيئة وإحداثها.

قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[(٤)].

قال مجاهد: حملهم ذنوب أنفسهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئًا[(٥)].

وقال النبي ﷺ: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا))[(٦)].

---

(١) عند الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة المائدة.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين ٤١/٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣١٥/١٣، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٣.

(٤) سورة النحل، آية: ٢٥.

(٥) أخرجه ابن جرير ٢٠٠/١٤ وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤١/٩.

(٦) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: المحافظة على النفس:

إن المحافظة على النفس البشرية من القضايا التي أولتها الدعوة الإسلامية أهمية كبرى، ودعت إلى المحافظة عليها بسن التشريعات التي تكفل حمايتها وصيانتها من الاعتداء عليها، كما هو واضح في الحديث. فقد نصّ الحديث على حرمة القتل ظلمًا، لأنه رتب على ذلك الإثم والذنب، والمحافظة على النفس من الضرورات الخمس التي جاء الشرع بحفظها، وخاطبت الدعوة المدعوين ليحافظوا عليها[1].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب))[3]. (إن حفظ النفس هو المقصد الضروري الكلي الثاني، ومعناه: المحافظة على حق النفس البشرية في الحياة والسلامة والصحة والكرامة والحرمة الجسدية والعقلية والروحية، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[4]، ويقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[5].

ولأجل حفظ النفس شرعت أحكام شرعية كثيرة منها: منع القتل بغير حق، وتشريع القصاص ومنع التمثيل والتشويه، ومعاقبة المحاربين وقطاع الطرق الذين يستخفون بحرمة النفس الإنسانية وكرامتها، ومنع حرق أجساد الموتى، ولزوم إكرامها بالغسل والتكفين والدفن، وكذلك منع الاستنساخ البشري والتلاعب بالجينات والمتاجرة بالأعضاء والخلايا البشرية، والنهي عن التشريح بلا مصلحة شرعية لازمة ومعتبرة، هذا وقد أمر الله عز وجل بأخذ ما تقوم به النفس وتحيا من لزوم تناول

---

(١) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ٦٠.

(٢) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري ٦٧، ومسلم ١٦٧٩.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

(٥) سورة التين، آية: ٤.

الغذاء السليم والعلاج القويم، والشراب والكساء)[١].

رابعًا- من أساليب الدعوة: القصر والترهيب والتعليل:

أما القصر فأداته في الحديث "ليس وإلا" النفي ثم الاستثناء، وهذا يوضح خطورة ما فعله ابن آدم الأول الذي قتل وتجرأ على ذلك، ومن ثم استحق العقاب العظيم.

أما الترهيب فإنه يستنبط من مضمون الحديث، فإنه يرهب من خطورة القتل نصًّا، ويفهم منه خطورة سن الأمر السيئ الذي لا يقتصر على فاعله الأول فقط، بل يمتد ليشمل أيضًا من فعله بعده، وهذا بدوره يضيف ذنبًا إلى الفاعل الأول، لأنه كان البادئ بذلك.

وأما التعليل فواضح من قوله ﷺ "لأنه أول من سن القتل" وفائدة هذا التعليل الترهيب من ابتداع الأمور المستقبحة، والابتداء بها، والجرأة على اقتحامها.

---

(١) المقاصد الشرعية: تعريفها وأمثلتها وحجيتها، د. نور الدين بن مختار الخادمي ص ٩١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

الإسلام يجعل الفقراء في ذمة الأغنياء، وأولى الناس بحل مشاكلهم ولي أمر المسلمين، فإن لم تحل مشكلة الفقراء في حدها الأدنى - المطعم والمشرب والملبس - أثم الجميع، ومن أسس التربية في هذا الباب:

أولاً- غرس خلق البذل والعطاء:

وذلك من خلال وقوفه ﷺ خطيباً في الناس، من أجل أن يتصدقوا من أموالهم لهؤلاء الفقراء الذين جاءوا من مضر، وعليهم علامات الفقر المدقع، فتمعر وجهه ﷺ وخطب في الناس: «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»، حَتَّىٰ قَالَ: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، وبهذا يبين النبي ﷺ أن العطاء ليس له حد أدنى؛ فكل إنسان يمكنه أن يتصدق مما معه، وإن كان ما يملك صاعاً من تمر أو بر، بل ولو لم يكن عند المرء إلا تمرة واحدة، فإنه يتصدق بنصفها.

وأصل العطاء في الإسلام أن المرء يثق بما عند الله تعالى، وأنه سوف يزيد المال إذا تصدق منه، وكذلك فإن سد حاجة المحتاج من المبادئ الإسلامية الأصيلة التي غرسها الإسلام في نفوس المسلمين، حتى لا يكون فقير ولا محتاج ولا جائع بين المسلمين إلا وعنده ضروريات الحياة الأساسية من الطعام والكساء.

إن من يقضي حوائج الآخرين ويفرج كربهم، إنما يدَّخر ذلك لنفسه ولعقبه من بعده، فالأيام دول، وخير ما يُدَّخر لتقلبات الزمان هو المعروف الذي يبذله الإنسان لأخيه الإنسان[1].

والبذل والمساعدة والمعونة من أفضل الأعمال وأكثرها نبلاً، وأجلها فائدة، وهذه السجايا الرفيعة يبعث عليها حب الخير للناس، وإيثار الصلاح لهم، وهذه الأفعال الحميدة تعود بنفعين: نفع على فاعلها في اكتساب الأجر، وجميل الذكر، وحسن

(١) موسوعة مكارم الأخلاق، ١٥/٢٦.

الثناء، ونفع على المُعَان بها، في التخفيف عنه، والمساعدة له، في تفريج كربته، وكشف غمته، وإدخال السرور إلى قلبه[1].

ثانياً- التربية بالممارسة العملية:

وذلك في موقف الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين من خطبته ﷺ وتذكيره بحاجة هؤلاء المحتاجين، فما كان إلا أن قام كل واحد منهم إلى ما يملك، وعلى قدر استطاعته، فأعطى مما لديه، فجاء رجل من الأنصار بصرة كبيرة تكاد يده تعجز عن حملها، ووضعها، ثم ما لبث الصحابة أن تصدقوا بالطعام والثياب، حتى اجتمع كومان من الطعام والثياب، وتلك ممارسة للفضيلة وليس مجرد إيمان قلبي بها.

إن الصحابة الكرام ضربوا بفعالهم المثل الأروع في البذل والعطاء وإغاثة الملهوف، فحق على كل مسلم أن يتأسى بهم، وبما صنعوه مع هؤلاء الفقراء، الذين قدموا من مضر، وعليهم علامات الفاقة والعوز.

ولا شك أن الممارسة العملية "من طرق التربية الفعّالة، وميزتها أن التغير في السلوك يجيء في أعقاب حدث يهز النفس كلها هزاً، فتكون أكثر قابلية للتأثير، ويكون التوجيه والتغير في السلوك أفعل وأعمق وأطول أمداً في التأثير من تلك التوجيهات والتغيرات العابرة التي تأتي على البارد بغير انفعال ولا حدث يهز المشاعر"[2].

إن التعليم بالعمل والممارسة مبدأ تربوي هام في التربية الإسلامية؛ فالإيمان قول وعمل، وقد مارس الجيل الأول من المسلمين السنة الشريفة بغيرة وإيمان، وذلك لقربهم من ينبوع الوحي،وراح الجيل الثاني (التابعون) يحاكي الصحابة في ممارستهم السنة، وهكذا دواليك حتى يومنا هذا[3].

---

(١) السابق، ١٥/٢٩.

(٢) منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي مدكور ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٣) فلسفة التربية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٣٧.

ثالثاً- التربية على التكافل الاجتماعي:

إن موقف النبي ﷺ الذي سلكه مع فقراء مضر يدل دلالة قاطعة على منهج التربية الإسلامية في إرساء مبدأ التكافل الاجتماعي بين أفراده، فالغني يساعد الفقير، ولا يتركه يتكفّف الناس، لأن المسلم أخو المسلم ومن أعان أخاه المسلم في كربته فإن الله في عونه، ولهذا فقد علم الصحابة الكرام هذا المبدأ ودعوه، وترسخ في نفوسهم، فأخرجوا من مالهم لمساعدة الفقراء، حتى أن أحدهم جاء وهو يحمل صرة أعياه حملها ليقدمها إلى هؤلاء المساكين.

ولقد حث النبي ﷺ كل مسلم على هذا المبدأ، مهما كانت درجة غناه أو فقره، حتى الذي يملك ثمرة واحدة، فعليه أن يقسمها بينه وبين أخيه الجائع ليسد حاجته، ويشبع جوعه.

لقد جاء الإسلام بهدي ورحمة، وتعاليم تعالج مشكلات الفرد والمجتمع علاجاً يقتلع الداء من الجذور، لا مجرد علاج سطحي بمسكنات وقتية، تخفّف الألم ساعة من الزمن، ولا تستأصل جرثومة المرض... إن نظرة الإسلام إلى الفقر وعلاجه له، ووسائله في علاجه، ورعايته لحقوق الفقراء، وكفالته لحاجاتهم المادية والأدبية تجعله مذهباً متميزاً من كل مذهب آخر[1].

رابعاً- التربية بالترهيب:

لقد رهّب النبي ﷺ من أن يكون المرء أسوة لغيره في عمل الشر، وذلك بمجاهرته به، وسنّه للناس، فقال ﷺ: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْماً إلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْها...»، وذلك أنه كان أول من شرع القتل وعلمه للناس، فاستحق أن ينال وزر القتلة جميعاً من بعده؛ دون أن ينقص من وزرهم شيء، وذلك الترهيب وجهه النبي ﷺ حتى لا يقع أحد في هذه الجريمة المنكرة، فيكون وزره مضاعفاً إذا اقتدى به أحد غيره.

---

(١) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٦، ٧.

إن الترهيب "هو العنصر الذي يمثل القوة الصادّة عن الانحراف إلى سبيل الشر، التي ينهى عنها الإسلام؛ وذلك لأن إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما أو القيام بعمل ما، من شأنها أن تقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل، وأن تضعف من قوته، وتجعله قلقاً حذراً.... وعلى مقدار نمو الحذر من جهة من الجهات تخبو جذوة الأطماع والأهواء المتأججة نحوها، وبالتكرار والمعالجة المتتابعة تنصرف النفس انصرافاً نهائياً، وتكتسب خلق الزهد والعفة عن المحارم، مهما كانت إجراءاتها آسرة، ومثيرة لرغباتها وأهوائها"[1].



(١) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، عبدالرحمن حبنكة الميداني ص ٢٥٥.

٢٠- باب في الدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾[القصص: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[النحل: ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[المائدة:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[آل عمران:١٠٤].

الحديث رقم (١٧٣)

١٧٣- وعن أَبي مسعودٍ عُقبَةَ بْن عمْرٍو الأَنْصَارِيِّ ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مثلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

الشرح الأدبي

إن الترغيب في عمل الخير من أهم معالم المنهج الإسلامي، وقد وعد الله سبحانه كل من يُقْدم على عمل الخير أن يضاعف له الثواب إلى سبعمائة ضعف، وهو يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

وما أجمل هذه الكلمة "الخَيْر" وما أعظم دلالاتها، إنها تتوهج وتشع بكل عمل صالح جليل، وكل سلوك بشري نبيل، وكل قول صادق جميل، وما أكثر الطرق التي يرتادها الصالحون لعمل الخيرات، وما أجلّ النتائج التي تبزغ كالشموس من آفاق المكرمات والمساعي الطيبات، والحديث الشريف يقودنا إلى دروب الخير المضيئات، وإلى حقول الهدى المثمرات، وهي دروب الذين يخشون ربهم، حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠

(١) برقم (١٣٣/١٨٩٣). أورده المنذري في ترغيبه (١٩٤).

أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[1].

ولنتأمل في ضوء هذا التصور الإسلامي لمصطلح "الخير" وما تتجمع حوله من دلالات وما تنطلق منه من إشعاعات، لنتأمل دلالته في سياق هذا الحديث الشريف الذي يتسم بالإيجاز والبلاغة، فالحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة، وهي جملة شرطية، "من دل على خير فله مثل أجر فاعله"، ومنطوق الحديث يعد الدال على الخير بالأجر والثواب الذي يقوم به فاعل الخير.

ومفهوم الحديث يتضوأ بمدلول لابد أن يفطن إليه الناس وهو: أنه لا يدل على فعل الخير إلا من كان فعل الخير أو قوله من سماته في الحياة قولاً وفعلاً وسلوكًا.. ولذلك يستحق الأجر على هداية الغير إلى الخير، والخير كما جاء في أساس البلاغة، هو العمل الكريم، وهو من صفات رسول الله ﷺ، فرسول الله خيرته من خلْقه، ويقال: هو من أهل الخير، والخير هو الكرم، ويقال: هو كريم، الخير والخيم: وهو الطبيعة[2].

وألفاظ الحديث قليلة في مبناها كثيرة في معناها.. وأداة الشرط "مَنْ" للعاقل، وهي تفصح عن طبيعة ذلك الدال على فعل الخير، وهي العقل والعلم والحكمة، والموعظة الحسنة المرغبة.

والفعل "دل" ترشد مادته اللغوية إلى أن النائي عن فعل الخير كالتائه في مفازة متشعبة ومترامية الأطراف، وحين يجد من يرشده إلى "الخير"، يهتدي إلى الطريق الصحيح بفضل الدليل الصادق الأمين.

واختيار لفظ "على" أعمق في دلالته من لفظ "إلى" في هذا السياق لأن "على" تفصح عن وضوح الدلالة، وعن تحديد هذا الخير الذي استُدل عليه، أما "إلى" فالمدلول يحتاج إلى جهد حتى يصل إلى المدلول عليه، وهو "الخير" المراد، ومجيء كلمة "خير" في صيغة النكرة يعطي للمدلول اتساعًا في التصور والمفهوم.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧-٦١.

(٢) انظر: أساس البلاغة للزمخشري، مادة (خ ي ر).

فكل فعل جميل أو قول كريم هو خير عميم، ويأتي جواب الشرط حاسمًا جازمًا، حيث يَعُد هؤلاء الدالين على فعل الخير بأن لهم أجرًا مساويًا لأجر من فعل الخير أو اتصف به، وكلمة "فاعله" تفصح عن حتمية القيام بفعل الخيرات واتباع النصيحة، والاستجابة لكل من يدل على الخير، استجابة لأمر الله عز وجل: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الدلالة على الخير.

ثانيًا: من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده.

رابعًا: من أهداف الدعوة: نشر الخير في المجتمع.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الدلالة على الخير:

إن الإسلام يحث على نشر الخير بين المدعوين، وذلك للفوائد العميمة والمنافع الكثيرة التي تعود على الفرد والمجتمع من وراء ذلك، ومن طرق نشر الخير الدلالة عليه، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في الحديث في قوله ﷺ "من دل على الخير فله مثل أجر فاعله"، فقد رتب الشرع الثواب على الدلالة على الخير فدل ذلك على فضله. والحديث له قصة. فقال أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أُبْدِع بي[2] فاحملني فقال: ما عندي. فقال رجل: يا رسول الله أنا أدلُّه على من يحمله. فقال رسول الله ﷺ: ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله))[3].

قال النووي: (فيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٢) هو بضم الهمزة ومعناه: هلكت دابتي وهي مركوبي، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم)[١].

وقال الصنعاني: (دلّ الحديث على أن الدلالة على الخير يؤجر بها الدال عليه كأجر فاعل الخير. والدلالة تكون بالإشارة على الغير بفعل الخير، وعلى إرشاد ملتمس الخير على أنه يطلبه من فلان والوعظ والتذكير وتأليف العلوم النافعة، ولفظ خير يشمل الدلالة على خير الدنيا والآخرة، فلله در الكلام النبوي، ما أشمل معانيه وأوضح مبانيه، ودلالته على خير الدنيا والآخرة!)[٢].

ولا شكَّ أن الدلالة على الخير من قبيل نفع الناس وحب الخير لهم، وقد قال النبي ﷺ ((أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخٍ في حاجةٍ أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة- شهرًا... ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام))[٣].

ثانيًا- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن الداعية لا يدخر جهدًا في دلالة المدعوين على ما ينفعهم، لأنه يحب الخير لهم ولأنه قائدهم إلى الفلاح للدنيا والآخرة، وهو معلمهم ومرشدهم وهو في هذا يقتدي بالنبي ﷺ كما في هذا الحديث، وذلك واضحٌ في إخبار النبي ﷺ أن من دلَّ على خير كان له مثل أجر فاعله، ولا شك أن هذا نفع للمدعوين للدَّال على الخير والمدلول عليه، فضلاً عمن حَصَل له الخير.

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥. وقال ابن الجوزي: "فيه إشكال: وهو أن يقال: الدلالة كلمة تقال وفعل الخير إخراج مال محبوب، فكيف يتساوى الأجران؟ فالجواب: أن المثلية واقعة في الأجر، فالتقدير لهذا أجر كما أن لهذا أجرًا.. وإن تفاوت الأجران". معاني الصحيحين ٤٠٢/١ مخطوط، نقلًا عن تعليق الدكتور فؤاد عبدالمنعم علي، الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ١٧٧/٨ - ١٧٨.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ص ٩٤٦ - ٩٤٧.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٣٦٤٦/١٢، وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة ٩٠٦).

وقد وصف الله تعالى ما يبلغه رسول الله ﷺ للمؤمنين بأنه ﴿يُحْيِيكُمْ﴾، ولاشك أن هذا أعظم النفع والفائدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١] ففي ذلك "تنبيه على أن دعاءه إياهم لا يكون إلا إلى ما فيه خير لهم وإحياء لأنفسهم"[٢].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم))[٣] قال ابن عثيمين: (كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان منهم النصيحة لأقوامهم، يعلمونهم الخير ويدلونهم عليه ويحثونهم عليه، ويبينون الشر ويحذرونهم منه، وهكذا يجب على أهل العلم وطلبة العلم أن يبينوا للناس الخير ويحثوهم عليه، ويبينوا الشر ويحذروهم منه؛ لأن علماء هذه الأمّة ورثة الأنبياء، فإن النبي ﷺ ليس بعده نبي ختمت النبوة به، فلم يبق إلا العلماء الذين يتلقون شرعه ودينه، فيجب عليهم ما يجب على الأنبياء من بيان الخير والحث عليه ودلالة الناس إليه، وبيان الشر والتحذير منه)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله على عباده:

خلق الله الخلق وتفضل عليهم سبحانه بنعمه الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى، فهم يحيون بفضله ويدخلون الجنة بفضله، ويثيبهم على العمل بفضله كما هو واضح من هذا الحديث أن الله أعطى - بفضله ومنّه-من دلَّ على خيرٍ، أعطاه ثواب من فعله، دون أن يشترط في ذلك أن يفعله، قال النووي: ((والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا))[٥].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور، مج٤/٩/٣١٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٤) شرح رياض الصالحين ١/٩٦٠.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

والله سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم والمن الكثير على عباده. قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] قال القرطبي: (إن الجنة لا تنال ولا تدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله)[2].

وقال النبي ﷺ لأصحابه: ((لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة: قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضلٍ ورحمة))[3] فالله فضله على عباده عظيم لا يحصى ولا يعدُّ.

رابعًا- من أهداف الدعوة: نشر الخير في المجتمع:

جاء الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضيق إلى السعة، ومن الظلم إلى العدل، وفي جملة واحدة: إنما جاء الإسلام بالخير للبشرية جمعاء، وخير دليل على ذلك أنه لم يكتف بدعوة المدعوين إلى فعل الخير لينالوا الثواب المترتب على ذلك فقط، وإنما دعاهم أيضًا إلى أن يدلُّوا غيرهم على الخير، لينالوا ثواب من فعله، وفي هذا تحفيز مابعده تحفيز إلى فعل الخير.

إن جعل الثواب لمن دل على الخير حافز للمدعوين على نشر الخير وإشاعته في المجتمع والتعاون على ذلك والتكاتف.

قال عبدالله البسام: (وحديث الباب يدل على أن من دلّ على خير، سواء أكان من خير الدنيا أو خير الآخرة أن له من الأجر مثل أجر من فعل، من غير أن ينقص من أجر المقتدي به شيء، وإنما هو أجر بسبب كونه قدوة في الخير وأسوة في عمل الإحسان. ومن أفضل الأعمال الصالحة التي يتعدى نفعها وتبقى ثمارها هو العلم النافع، الذي هو شرع الله تعالى من أصوله وفروعه، وما أعان على فهمه، فمن نشر هذا العلم فقد

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج٩/١٧/٢٥٧.

(٣) أخرجه البخاري ٥٦٧٣، ومسلم ٢٨١٦.

ضرب بسهم وافر من القدوة الحسنة، والدلالة على الصراط المستقيم، وقدأخرج الناس - بإذن الله تعالى - من ظلمات الجهل إلى نور العلم والهداية والرشاد، ونال بهذا عظيم الأجر من الله تعالى فقد قال ﷺ: ((لأنْ يَهدِيَ اللهُ بكَ رجُلاً خَيرٌ لكَ من أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَم))[1][2].

وقد جاءت نصوص من الكتاب والسنة تحضّ على نشر الخير بين الناس. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[3] قال ابن عاشور: (الضمير في ﴿وَتَعَاوَنُوا۟﴾ للمسلمين، أي ليُعن بعضكم بعضًا على البر والتقوى، وفائدة التعاون تيسير العمل وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصر حتى يصبح ذلك خلقًا للأمة)[4].

وقال النبي ﷺ:((لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم))[5].

قال النووي: (السلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين... ،ورفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله، لا يتبع فيه هواه ولا يخصّ أصحابه وأحبابه به)[6].

ولا شك أن هذا كله يؤكد أن إفشاء السلام من طرق نشر الخير في المجتمع وإشاعته بين الناس، ولذلك حضّ عليه النبي ﷺ وحثّ عليه.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٠١، ومسلم ٢٤٠٦.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٢٦٦/٦.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢.

(٤) التحرير والتنوير، مج٣/٦/٨٧-٨٨.

(٥) أخرجه مسلم ٥٤.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٠، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٠٣-١٠٤.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

لقد رغب النبي ﷺ في الدلالة على الخير وبذل الوسع في ذلك وإنفاق الجهد فيه، بأن جعل لمن دل على الخير ثواب من فعله، وفي هذا تحفيز وشحذ لهمم المدعوين وتشجيع لهم على فعل الخير والدلالة عليه والتنافس في هذا المجال.

الحديث رقم (١٧٤)

١٧٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِم شَيْئًا، ومَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا ينقُصُ ذلكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الدعوة إلى الله هي مفتاح كل خير، ومغلاقُ كل شر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر من معالم شخصية المسلم ومعالم منهجه الحياتي، فهو على قدر استطاعته - يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

والمؤمن في استقباله للمعروف هاش باش، لا يقبِّح معروفًا، ولا ينصر منكرًا، وهو في استقباله للمنكر رافض في ظلال النية الصادقة، والعزيمة المحققة على محو هذا المنكر وتغييره إما باليد في حال القدرة على التغيير، أو رفض هذا المنكر وتغييره بنشر الوعْي بين جماهير الأمة وإرشادهم إلى الطريق الصحيح بما يملك الداعية من طلاقة لسان، وعذوبة بيان، وقوة تأثيرية، وخبرة معرفية شرعية.

وإذا لم يملك المسلم القدرة على التغيير باليد أو إصدار القرار والقوانين التي تغير، فليخاطب الناس ولينشر بينهم الوعى الصحيح، وليرشدهم إلى الطريق السوي، والمنهج الجلي.

وإذا لم يملك هذا الداعي القدرة المادية، ولم تكن لديه القدرة البيانية، والخبرة العلمية، والملكة الدعوية فليس أمامه إلا الإنكار بالقلب، فالشعور مَرْصد المؤمن، وميزان استجابته للأشياء.

---

(١) برقم (١٦/ ٢٦٧٤). أورده المنذري في ترغيبه (١٩٧). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٨٤).

ومن حديقة هذا الحديث الشريف نقتطف هذه الثمرات الدانية التي نضجت في دوحة هذا الحديث المباركة، وهذا الحديث مشحون بكثير من الطاقات المحفزة إلى فعل الخير، والدعوة إلى الله بالحسنى مثل الحديث السابق.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف، وهى جماليات تنبع من حسن اختيار الألفاظ، ودقة موقعها من نظم الجملة، ودرجة التحامها بباقي كلمات الحديث الشريف والبلاغة كما قال: عبدالقاهر الجرجاني هى: توخي معاني النحو بين الكلم.

وأول ظاهرة أسلوبية في هذا الحديث هي صياغته في قالب الجملة الشرطية، فهو يتكون من جملتين شرطيتين، أولاهما تبشر الداعين إلى الهدى بالأجر الجزيل مثل أجر الذين تبعوهم، والثانية تنذر العاصين والملحدين الداعين إلى الضلال، وهم يبوءون بالخسران المبين، ويلحق بهم الإثم والويل والثبور.

وكلمة "هدى" موجزة ولكنها تتسع في مدلولها لتشمل كل عمل من أعمال البر، والعبادات، والمعاملات والعقائد، وكلمة "إلى" ترشد إلى ضرورة الحركة في الدعوة، وإلى قصدية التوجه الصادق والمسعى الحميد إلى نَشْر الهدى والتعبير بالفعل كان في قوله "كان له من الأجر" يتجاوز الوظيفة الإعرابية للفعل وهو فعل ماضٍ ناقص.

و"كان" هنا ليست ناقصة الدلالة، وإنما في هذا السياق تفيد الثبات وتأكيد الحكم لأنه قضاء الله وحكمه.

و "له" في هذا السياق المبشر تفيد الملكية والاختصاص، وهى تقابل "عليه" في سياق الإثم، وفي قوله "مثل أجور" من تبعه، جاءت كلمة "أجور" جمعًا لترشد إلى مضاعفة أجر الداعي إلى الهدى، وأن هذا الأجر يتزايد كلما زاد عدد المستجيبين لهذه الدعوة، وعدد الذين اهتدوا، وزادهم الله هدى.

وعبر بقوله، "من تبعه" لأن اتباع الخير واجب، والاتباع في الشرع يفيد أن المتبوع على حق، وفي اللغة يقولون تابعه على كذا: أي: وافقه عليه، ويقولون تبعت النحل تُبَّعها وهو يَعْسوبها الأعظم . وتبعت الأغصان الريح.

والحديث تكمن دلالته في اتكائه على عنصر المقابلة بين جناحي المعنى المراد توصيله. فالطرف الأول يتمثل في الدعوة إلى الهدى واتباع هذه الدعوة، ثم الأجر الذي يتضاعف بعدد المدعوِّين، والطرف الثاني المقابل للأول والموازي له هو الدعوة إلى "ضلالة" ثم الإثم الذي يلحق بهذا الداعي، ويتزايد كلما زاد عدد الضالين والمغضوب عليهم، وهذان الطرفان المتناقضان يمثلان بؤرة الصراع بين الخير والشر، وبين الهدى والضلال.

والتضاد اللفظي الذي يجسد هذا الصراع يتجلى في هذه الثنائيات الضدية: "هُدىً - ضلالة"، و"الأجر - الإثم"، و "أجور- آثام"، و"كان له - وكان عليه".

والتعبير بقوله "كان له" في سياق الدعوة إلى "الهدى" يوحي بالملكية والاختصاص والمثوبة والتكريم والتعبير بقوله: "كان عليه في سياق الدعوة إلى ضلالة" يفصح عن شدة الوزر، وتحمل عقاب الدعوة إلى ضلالة، لأنه لم يكتف بأنه يسنّ سنة سيئة في الإسلام ، بل حاول الدعوة إلى الضلال .. فعليه وزر دعوته ووزر كل من عمل بها مهما تكاثر العدد ، وتعددت البيئات ، وتوالت الأزمنة.

والتعبير بقوله "من الأجر" في سياق "الهدى"، يشير إلى التبشير بالثواب والترغيب في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

والتعبير بقوله "من الإثم" في سياق الضلالة للتحذير من هذه الدعوة، والإفادة أن العقاب ملازم للإثم: والتعبير بالإثم: لتذكير صاحبه بجرمه، وتنفيره منه، والإثم يستلزم العقاب الأليم.

والتوازي الأسلوبي بين طرفي الحديث في قوله: "لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا". وقوله: "لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا"، فيه إيحاء بالعدالة في الحساب، وأنه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]. وقال سبحانه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[2].

(١) سورة الزلزلة: ٧-٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الدعوة إلى الهدى وشناعة الدعوة إلى ضلالة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الاعتصام بالكتاب والسنة.

ثالثًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الدعوة إلى الهدى وشناعة الدعوة إلى ضلالة:

إن الدعوة إلى الهدى لها أجر عظيم، كما أن الدعوة إلى الضلالة عليها إثم عظيم، وهذا واضح جليٌّ في الحديث "من دعا إلى هدى ... ومن دعا إلى ضلالة..." فإن من دعا إلى هدىً لم ينل ثواب ذلك فقط، وإنما يناله أيضًا مثل ثواب من تبعه، فهذا فضل عظيم ومنقبة كبرى. ومن ناحية أخرى فإن من دعا إلى ضلالة لم يلحقه إثمه فحسب، وإنما يحمل أوزار من تبعه وعمل بضلالته كذلك، وهذا خزي كبير وعار أليم.

قال النووي: (فيه أن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه، سواء كان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقًا إليه، وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو غير ذلك)[1].

وقال ابن هبيرة: (إن قوله ﷺ: "من دعا إلى هدى" فإن هدى هنا نكرة، يعني هدىً من الهدى، فإنّ ذلك الداعي له أجر دعائه، وأجر دعاء كل داع يدعو إلى الله إلى ذلك الهدى بعده، ولا أرى أن رسول الله ﷺ أتى بذكر هدى نكرة إلا إشارة منه إلى أن هدى الله عزوجل كبيرٌ واسعٌ، فيكون منه ما لم يكن قد ذكر إلى أنه يستنبط من الأذكار المروية، ويعرف من آثار الله في عباده، ودلائله في صنائعه، والفوائد من كتابه والأسرار في كلام رسول الله ﷺ فيكون ذلك الهدى الذي يدعو إليه العبد له أجره، وأجر كل من يدعو به.

وأما الضلالة: فإن من يدعو إليها بكلمة خبيثة أو عقد إشكال أو نابضة شك أو

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٨٣، وانظر: فتح الباري: ٣١٥/١٣.

طليعة حيرة؛ فإنه عليه إثمها وإثم كل من يضل بها إلى يوم القيامة، ليؤخذ منه ما يؤخذ، ثم يبقى له بقية، وينهض به إلى الخير والسلامة"[١].

وقد جاء في القرآن الكريم الإخبار بعاقبة الداعين إلى الضلالة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[٢]. فقد أخبر (أنهم غير ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين وهم الأقوام الذين أضلوهم وسولوا لهم الشرك والبهتان على وجه التأكيد بحملهم ذلك)[٣].

وأكد النبي ﷺ هذا المعنى، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: ((سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القومُ ثم إن رجلاً أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي ﷺ: من سن خيرًا فاستُنَّ به كان له أجره ومن أجور من يتبعه غير منتقصٍ من أجورهم شيئًا، ومن سنَّ شرًا فاستُنَّ به كان عليه وزره ومن أوزار من يتبعه غير منتقصٍ من أوزارهم شيئًا))[٤].

فعلى الداعية أن يحذر من الضلالة والدعوة إليها، ويؤيد ويعضد الدعوة إلى الهدى والرشاد.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الاعتصام بالكتاب والسنة:

إن الاعتصام بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هو طريق الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة. كما أن الخسران يكون بعدم التمسك بهما، لهذا حضّ الرسول ﷺ على التمسك بالكتاب والسنة وحذر من البعد عنهما. وذلك واضح في قوله ﷺ "من دعا إلى هدى ... ومن دعا إلى ضلالة..." فالهدى ما كان من القرآن الكريم والسنة والضلالة

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٧٨/٨.

(٢) العنكبوت، الآيتان: ١٢-١٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مج٢٢١/٢٠/٨.

(٤) أخرجه أحمد ٣٨٧/٥ رقم ٢٣٢٨٩، وقال محققو المسند: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن ٣٢٥/٣٨.

ما خالف الكتاب والسنة.

ولقد أمر الله الأمة بالاجتماع واتحاد الكلمة وجمع الصف على أن يكون أساس هذا الاجتماع الاعتصام بالكتاب والسنة، ونهى عن التفرق وبين خطورته على الأمة في الدارين. ولتحقيق ذلك أُمرنا بالتحاكم إلى كتاب الله تعالى في الأصول والفروع ونهينا عن كل سبب يؤدي إلى التفرق.

فالطريق الصحيح إلى النجاة هو التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فإنهما حصن حصين وحرز متين لمن وفقه الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

فقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبل الله، وحبل الله هو عهد الله أو هو القرآن كما قال المفسرون، إذ العهد الذي أخذه الله على المسلمين هو الاعتصام بالقرآن والسنة. فقد أمر الله تعالى بالجماعة ونهى عن التفرق والاختلاف. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾[2] وهذا شامل لأصول الدين وفروعه الظاهرة والباطنة.

وإن ما جاء به الرسول ﷺ يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا تحل مخالفته، وإن نص الرسول ﷺ على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[3] فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٠.

وطاعة رسوله ﷺ، وزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له.ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[1].

قال ابن كثير: (أطيعوا الله، أي اتبعوا كتابه، وأطيعوا الرسول أي خذوا سنته، وأولي الأمر منكم أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله. وقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. قال مجاهد: أي إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[2] فما حكم به الكتاب والسنة، وشهدا له بالصحة فهو الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: ردوا الفصل في الخصومات والجهالات إلى الكتاب والسنة، ومن لا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنًا بالله ولا اليوم الآخر. وقوله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: وأحسن عاقبة ومآلاً كما قال السدي وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب)[3]. وفي كتاب الله آيات كثيرة وردت

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) سورة الشورى، آية: ١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيقك سامي بن محمد السلامة ٢/٣٤٥-٣٤٦.

في وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة والرجوع إليهما في كل الأمور)[١].

ثالثًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق:

إن المدعوين بحاجة دومًا إلى أن تكون الحقائق أمامهم واضحة جلية، وهذه إحدى مهام الداعية، وهو في هذا يقتدي بالنبي ﷺ كما هو مستنبط من هذا الحديث الشريف، فقد بيّن النبي ﷺ جزاء الداعي إلى هدى والداعي إلى ضلالة، وبيّن حقيقة أن جزاءهما لا يكون محدودًا بفعلهما فقط بل يكون ممتدًا أيضًا ليشمل الجزاء المترتب على من اتبعهما، فيكون جزاؤهما عظيمًا جدًا.

قال ابن عثيمين: (في هذا دليل على أن المتسبب للشيء كالمباشر له، فهذا الذي دعا إلى الهدى تسبب فكان له مثل أجر من فعله، والذي دعا إلى السوء أو إلى الوزر تسبب فكان عليه مثل وزر من اتبعه)[٢].

وقد كان بيان الحقائق مسلك الأنبياء مع المدعوين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾[٣].

ومن هذا القبيل ما رواه سهل بن سعدالساعدي رضي الله عنه قال: ((مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يشفَّع. فسكت رسول الله ﷺ ثم مرّ رجل فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين. هذا حري إن خطب ألا ينكح وإن شفع ألا يُشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله، فقال رسول

---

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، إعداد نخبة من العلماء ٢٩٣-٢٩٥.

(٢) شرح رياض الصالحين ٤٦٢/١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.

الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا))[١].

قال ابن حجر: (إن جهة تفضيله إنما هي لفضله بالتقوى، وليست المسألة مفروضة في فقير متق وغني غير متقٍ بل لا بد من استوائهما أولاً في التقوى)[٢]. ومن هذا القبيل أيضًا ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ))[٣].

قال النووي: (هذا حديث عظيم الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه ﷺ جمع فيه مايخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم)[٤].

فعلى الداعية أن يبين الحقائق للمدعوين حتى تتضح لهم، فيأتوا من الأعمال ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ويجتنبوا من الأفعال ما يكون لهم خزيًا في الدارين.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

لقد رغب النبي ﷺ في الدعوة إلى الهدى بأن أخبر بثوابها الجزيل، وخوف ورهب من الدعوة إلى الضلالة بأن أنبأ بإثمها العظيم. وبهذا الأسلوب حث المدعوين على التزام الهدى والدعوة إليه وحثهم كذلك على تجنب الضلالة والدعوة إليها والعمل بها.

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٠٩١، ٦٤٤٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٨٢/١١.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٣٥، ومسلم واللفظ له ٢٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٩.

الحديث رقم (١٧٥)

١٧٥- وعن أَبي العباسِ سهل بنِ سعدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أن رسولَ اللَّه ﷺ قال يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لأعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا**[1] **رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّه عَلَى يَدَيْهِ، يُحبُّ اللَّه ورسُولَهُ، وَيُحبُّهُ اللَّه وَرَسُولُهُ**» فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا. فَلَمَّا أصبحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رسولِ اللَّه ﷺ: كُلُّهُمْ يَرجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فقال: «**أَيْنَ عليُّ بنُ أَبي طالب؟**» فَقِيلَ: يا رسولَ اللَّه هُو يَشْتَكي عَيْنَيْه قال: «**فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ**» فَأُتِي بِهِ، فَبَصقَ رسولُ اللَّه ﷺ في عيْنيْهِ، وَدعا لَهُ فَبَرأَ، حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجعٌ، فأَعْطَاهُ الرَّايَةَ. فقال عليٌّ رضي الله عنه: يا رسول اللَّه أُقاتِلُهمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، وَأَخْبرْهُمْ بِمَا يجِبُ مِنْ حقِّ اللَّه تَعَالَى فِيهِ، فَواللَّه لأَنْ يَهْدِيَ اللَّه بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمَ**» متفقٌ عليه[2].

قوله: «يَدُوكُونَ»: أَيْ يخُوضُونَ ويتحدَّثون، قوْلُهُ: «رِسْلِكَ» بكسر الراءِ وبفَتحِهَا لُغَتَانِ، وَالْكَسْرُ أَفْصَحُ.

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة من بني الخزرج، الأنصاريُّ، الساعديُّ يكنى بأبي العباس، ويقال: أبو يحيى المدني.

حكى ابن حبان أنه كان اسمه حزنًا فغير النبي ﷺ كعادته في تغيير الأسماء السيئة إلى الحسنة اسمه من حزنٍ إلى سهل، وكان يصفر لحيته.

وهو من مشاهير الصحابة، وله رواية، وروى له الجماعة، له في كتب الحديث (١٨٨) حديثًا. توفيَّ رسولُ الله ﷺ وسهل ابن خمس عشرة سنة، وعاش حتى أدرك الحجاج بن يوسف، وامتحن معه، وعذبه الحجاج عذابًا شديدًا بالحديد، روى عن سهل أبو هريرة، وسعيد بن المسيب، والزهري، وغيرهم.

---

(١) (غدا) لا توجد عند مسلم في هذه الرواية، وإنما هي عند الحميدي في جمعه (١/٥٥٠، رقم ٩٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦/٣٤) واللفظ له. وسيكرره المؤلف مختصرًا برقم (١٣٨١).

ومات سهل رضي الله عنه بالمدينة المنورة، وقيل هو آخر من مات بالمدينة، وكان ذلك سنة (٨٨) وقيل (٩١)، ومات وهو ابن مائة سنة، وقيل ابن إحدى وتسعين سنة[1].

غريب الألفاظ:

يدوكون: فسرها النووي[2].

على رسلك: رسلك: بكسر الراء وبفتحها لغتان والكسر أفصح. والرسل: الرفق والتؤودة. يقال: افعل كذا على رسلك: اتئد ولا تعجل[3].

الشرح الأدبي

إن مشاهد السيرة النبوية تحفل بجلائل الآثار، وعظائم الأمور والأخبار، وكل مشهد من هذه المشاهد يدعو إلى التأمل العميق، والتتبع الدقيق، ومن أجل هذه المشاهد ما يرصد وقائع الفتوح، وملاحم الغزوات، وقصص البطولات، ومآثر الشهداء.

وهذا الحديث تصور كلماته العطرة، بعض مشاهد السيرة النضرة، وتقدم لشباب الإسلام أنموذجًا فذًا للبطولة والفداء، وغزوة خيبر هي مَيْدان الاختبار، وهي الشاهد على فروسية هذا البطل المغْوار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سار المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى خيبر في المحرم سنة سبع من الهجرة، بعد رجوعه من الحديبية، وهذه الغزوة تمثل إحدى حلقات الصراع بين المسلمين واليهود في عصر النبوة، وهم لا ميثاق لهم ولا ذمة، وفي هذه الغزوة كان شعار أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يامنصور أمت أمت.

وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته، وكانت بيضاء إلى بعض حصون خيبر، فقاتل فرجع ولم يكن فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٠٨، ٣٠٩)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥٧٥/٢، ٥٧٦)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٥٤٨)، تهذيب الكامل (٣٢٤/٣، ٣٢٥)، السندي (٣٣٢/٢٤)، الأعلام (١٤٣/٣).

(٢) رياض الصالحين ١٢١.

(٣) رياض الصالحين ١٢١، والوسيط في (ر س ل).

رضي الله عنه فقاتل، فرجع ولم يكن فتح وقد جهد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. ويبدأ الحديث في سرد وقائع تسليم الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا لا يَعْني اعتراضًا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لأنهما قاما بدورهما وأبليا بلاءً شديدًا، وكلهم من الصحابة الأخيار.

والقسم في بداية الحديث في قوله "لأعطين الراية غدًا"، يفصح عن نية المصطفى صلى الله عليه وسلم الصادقة، وعزيمته القوية في تحقيق النصر على اليهود بمشيئة الله سبحانه، وبمواصلة حصار خيبر، وفتح باقي حصونها بعد الكفاح والنضال والجهاد الذي قدمه الشيخان، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وتنكير لفظ رجلاً لتعظيم ذلك الرجل ولتعظيم الدور الذي سيقوم به، وتتمثل في هذا الحديث معجزتان من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولى في قوله "يفتح الله على يديه"، وقد تحقق النصر المبين على يهود خيبر بمشيئة الله تعالى، وشجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستبسال جنود الإسلام وفتح الله على يَدي عليٍّ خيبر كما أنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم. والفتح المبين، والنصر على الأعداء في أي عصر وأي مكان مرهون بمَنْ يمسك الراية ويتولى القيادة، ومن معالمه وصفاته القيادية أنه رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، والمراد من محبة العبد لله ورسوله، امتثال أوامرهما، واجتناب مناهيهما، والمراد من محبة الله للعبد توفيقه لمرضاته وإنابته، وشجاعة الصحابة وإخلاصهم نَجِدهُ في شوقهم إلى معرفة ذلك الرجل، وكلهم يتمنى أن يكون هو ذاك، وهو الذي يُعْطي الراية، ويدور حوار بين المصطفى صلى الله عليه وسلم وهؤلاء الصحابة المتشوفين إلى الفوز بهذا الشرف الكبير، ويقول رسول الله أين علي بن أبي طالب، فيقولون: هو يشتكي عينيه، وتتجلى المعجزة الثانية وهي شفاء علي بن أبي طالب: حيث دعا له الرسول فَبَرَأ كأن لم يكن وجع.

ويدور الحوار بين القائد الأعلى نبي الأمة صلى الله عليه وسلم، وحامل الراية الفارس الفقيه علي بن أبي طالب، الذي جمع الوصفين، وحاز الشرفين المتلازمين، حيث حظى بمحبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فهم يحبونه وهو يحبهم.

ويتوجه علي بن أبي طالب بالسؤال والاستفهام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واثق من

النصر والفتح، لأن الرسول بشره بذلك فيقول: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، أى: هل أظل أقاتلهم حتى يدينوا بالإسلام؟

وتأتي إجابة رسول الله ﷺ لتوضح المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله حتى في أشد حالات القتال والصراع، ويأمره رسول الله بالتدرج في إقناع الناس، وتعريفهم بمعالم الدين الجديد، والابتعاد عن العنف، ويبدو هذا المنهج في قوله: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم": أي تمهل، وتأن في الحركة، ولا تدمّر بيوتهم، ولا تحرق أشجارهم، ولا تقتل أطفالهم ولا نساءهم ولا شيوخهم، والتعبير بقوله: "ثم" قبل قوله: "ادعهم إلى الإسلام": يرشد إلى التمهل وإعطاء الوقت الكافي لهم للتفكير في الإقبال على الدين الجديد راضين مقتنعين.

ويتضح الأمر ويزداد جلاء حين يأمره رسول الله أمرًا صريحًا بضرورة تثقيفهم وتعريفهم بالإسلام حيث قال: "وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه". وحتى لا يظن أن الحرب لا تكون إلا للغلبة وتحصيل الغنائم، يقسم رسول الله ﷺ موضحًا أن الهداية والتعريف بالإسلام هما هدف المسلم، وهما ثمرة المغازي والفتوحات: يقول المصطفى لعلي بن أبي طالب، ولكل من يتصدى للدعوة ويدافع عن حياض الإسلام، ويحمي حمى الدين. "فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم".

وحين نتأمل صياغة الحديث الشريف نجد أن الجمل تتوالى وتتلاحق ويكثر العطف بحرف "الفاء" وهو للترتيب والتعقيب، وذلك في المواقف التي تستدعى السرعة والتنفيذ، ويتجلى ذلك في لهفة الصحابة على من يعطي الراية، وفي سؤال الرسول ﷺ عن علي: "فقال: أين علي"؛ وفي إجابة الصحابة، "فقيل: يا رسول الله...الخ"، وفي قوله: "فأرسلوا إليه"، وفي سرعة واستجابة سريعة: يقول الراوي: "فأتي به"، وهنا كلام محذوف، وتفصيل يوحي به المقام، ويغني عنه السياق، ولم يمهله رسول الله ﷺ، ولكن في لحظة شفى، وقيل فأعطاه الراية، فقال علي، فالعطف بحرف "الفاء" يصور سرعة الحركة، وتوالي الأحداث، وحرص الصحابة على سرعة الاستجابة لأوامر رسول الله ﷺ.

وقد قام علي بن أبي طالب بما أمره به رسول الله ﷺ، بعد أن أدّى أبو بكر

دوره، وأدّى عمر دوره في هذه الغزوة، وقد صدق الشاعر أبو الفضل الوليد حين صور فضل الصحابة الأجلاء- فقال:

صحابته الأبرار خير صحابة ... وأنصاره الأبطال والشرفاء

فمن كأبى بكر عفافًا وحكمة ... وتقوى إذا ما عُدّت الرؤساء؟

ومن يشبه الفاروق تحت عباءةٍ ... هرقل اشتراها والحرير كساءُ؟

لقد كان جبارًا فصار بعدْله ... أبًا للرعايا فاغتنى البؤساء

ومن مثل عثمان تُقًى وتعبدًا ... إذا عُرض القرآن والشهداء؟

ومن كعليٍّ نجدةً وبلاغةً ... تمناهما القواد والخطباء

به ثبت الإسلام واعْتز أهله ... فدانت له الفرسان والأمراء[1]

وقد شاء الله أن يجلي اليهود عن خيبر في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، حيث أرسل الفاروق إلى "يهود" فقال: "إن الله عز وجل قد أذن في جلائكم، قد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان: فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود، فليأتني به، أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليتجهز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم[2]، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[4].

---

(١) انظر: ديوان أبي الفضل الوليد، دار الثقافة.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ص ٣٧١/٣.

(٣) سورة الحج، آية: ٤٠.

(٤) سورة الحج، آية: ٣٨.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال، وقد اتفق الفقهاء[1] على أنه إذا دخل المسلمون دار الحرب فحاصروا مدينة أو حصنًا، شرع لهم دعوة الكفار إلى الإسلام، فإن امتنعوا دعوهم إلى الجزية إن كانوا ممن تقبل منهم الجزية.

ولكن هل تجب عليهم الدعوة؟ اختلف الفقهاء في ذلك على ثلاثة آراء، فذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يجب دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن لم تبلغهم الدعوة، ولا يجب إن بلغتهم لكن يستحب، وذهب المالكية والهادوية إلى أنه يجب تقديم الدعوة لمن بلغتهم الدعوة ومن لم تبلغهم، وذهب البعض إلى أنه لا تجب الدعوة مطلقًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على أن يكونوا ممن يحبهم الله ورسوله ويحبون الله ورسوله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

رابعًا: من صفات الداعية: الحرص على هداية الناس.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التوكيد والتشويق والسؤال والجواب والأمر والقسم.

---

(١) المبسوط، السرخسي ٣٠/١٠، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود١٠٠/٧، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٨١/٥ وما بعدها، وشرح معاني الآثار، الطحاوي ٢٠٩/٣، وشرح منح الجليل ١٤٤/٣ وما بعدها، وأحكام القرآن، ابن العربي ١٤٧/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٦٤/٨، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣١/٦، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة ١٧٢/٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٠/٣، والفروع، ابن مفلح ١٩٧/٦، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٢٧٢/٧ وما بعدها، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٤٣/١٦ وما بعدها.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على أن يكونوا ممن يحبهم الله ورسوله ويحبون الله ورسوله:

إن المؤمن يحرص أشد الحرص على محبة الله ورسوله، وعلى أن يعمل من الأعمال ما يوصله إلى أن يحبه الله ورسوله، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم، وهم أكمل المؤمنين إيمانًا، أشد الناس حرصًا على الأمرين معًا. كما هو واضح من قول الصحابي: "فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها" بعد أن سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً... يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله" وجاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "فتطاولنا لها"[1].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((ما أحببت الإمارة إلا يومئذ فتساورت لها[2] رجاء أن أدعى لها))[3] وفي حديث بريدة رضي الله عنه: ((فما منا من رجل له منزلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تطاولت أنا لها ورفعت رأسي لمنزلة كانت لي منه))[4].

وذلك لأن حب الله ورسوله من الإيمان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[5].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما....))[6].

وقال عبدالله بن هشام رضي الله عنه: ((كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي

---

(١) أخرجه مسلم ٣٢-٢٤٠٤.

(٢) معناه تطاولت لها: أي حرصت عليها: أي أظهرت وجهي وتصديت لذلك ليتذكرني، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧٠.

(٣) أخرجه مسلم ٣٣-٢٤٠٥.

(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢١٠/٤، وانظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٦٤/٦.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٦٥.

(٦) أخرجه البخاري ١٦، ومسلم ٤٣.

ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر))(١).

فعلى الداعية أن يدفع المدعوين إلى فعل الطاعات التي تدل على أنهم يحبون الله ورسوله.

قال العز بن عبدالسلام: (محبة الله وسيلة إلى أن يعامله العبدُ معاملة المحبّ لحبيبه، في المبادرة إلى طاعته والمسارعة إلى كل ما يرضيه واجتناب كل ما يسخطه والتحرز من أسباب سخطه والاحتياط لأسباب رضاه، مع البكاء والقلق والشوق والأرق وغير ذلك من آثار المحبة، وينبغي أن تكون آثار محبته أشد من آثار كل محبةٍ وأعظم، وأن لا يشبهها شيء، كما أن المحبوب لا يشبهه شيء، وهو السميع البصير)(٢).

(ومحبة رسول الله ﷺ أشرف من محبة سائر العباد، وهي وسيلة إلى أن يطاع طاعة المحبوب، وكلما قوي التعلق بالحبيب قوي حب المتعلقين به والمنتسبين إليه)(٣).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: دلائل نبوة النبي ﷺ:

(أجرى الله تبارك وتعالى على يدي أنبيائه ورسله من المعجزات الباهرات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات ما يدل على صدْق دعواهم أنهم رسل الله، وكي تقوم الحجة على الناس فلا يبقى لأحدٍ عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾(٤))(٥).

ومن دلائل نبوة النبي ﷺ في هذا الحديث إعلامه بأن الله تعالى يفتح حصون خيبر على يدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وشفاء النبي ﷺ عيني علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد أن كان يشتكيهما، قال النووي: (في هذا الحديث معجزات ظاهرات لرسول الله

---

(١) أخرجه البخاري ٦٦٣٢.

(٢) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال ٥٩.

(٣) المرجع السابق ٦٠.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٥) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح ١/٥٢٠.

ﷺ قولية وفعلية، فالقولية إعلامه بأن الله تعالى يفتح يدي علي، فكان كذلك، والفعلية بصاقه في عينه وكان أَرْمَدَ فَبَرأَ من ساعته)[١]. فهاتان معجزتان تدلان على نبوة محمد ﷺ وأن الله بعثه للناس وأيده بالمعجزات.

وقد كثرت الوقائع التي تدل على نبوة النبي ﷺ كثرة بالغة وقد ألف فيها العلماء كتبًا مستقلة[٢]، ومن هذه الدلائل مارواه أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آيةً، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما[٣].

قال القاضي عياض في باب خصائصه ﷺ ومعجزاته: (نيتُنا أن نثبت في هذا الباب أمهات معجزاته ومشاهير آياته لتدل على عظيم قدره عند ربه، وأتينا منها بالمحقق والصحيح الإسناد وأكثره مما بلغ القطع أو كاد... وإذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله- لم يمتر في صحة نبوته وصدق دعوته)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو ابن عمّ الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة البتول رضي الله عنها، وسيف الله المسلول، له فضائل كثيرة ومناقب عديدة في الإسلام، كما هو واضحٌ في هذا الحديث، فقد أعطاه النبي ﷺ الراية؛ فدل هذا على أنه يحبه الله ورسوله وأنه يحب الله ورسوله. فكان هذا منقبة له.

قال ابن هبيرة: (إنّ هذا حق لا شك فيه فإن عليًا رضي الله عنه كان يحب الله ورسوله،ويحبه الله ورسوله، لأنه كان من المؤمنين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٧١.

(٢) مثل كتاب دلائل النبوة للبيهقي كما أفردها ابن كثير بالذكر في البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير بمساحة كبيرة تحت عنوان: كتاب دلائل النبوة ٨/٧٠٠، ٨٥/٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٨٦٨، ومسلم ٢٨٠٢.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٧٣/١.

وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[١]، وممن شهد له رسول الله ﷺ أن حبّه إيمان وبغضه نفاق[٢])[٣].

وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مناقبه كثيرة، قال ابن حجر: (قال أحمد وإسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في عليّ)[٤].

من ذلك قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في فضائل علي رضي الله عنه: ذكرت ثلاثًا قالهن له رسول الله ﷺ: لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول له وخلّفه في بعض مغازيه، فقال له علي رضي الله عنه: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فتطاولنا لها فقال: ادعو لي عليًا.. ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾[٥] دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: ((اللهم هؤلاء أهلي))[٦].

قال النووي: (وفيه فضائل ظاهرة لعلي رضي الله عنه وبيان شجاعته وحسن مراعاته لأمر رسول الله ﷺ وحبه الله رسوله وحبهما إياه)[٧].

قال السيوطي: (وعلي رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأخو رسول الله ﷺ بالمؤاخاة. وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين رضي الله عنها وأحد السابقين إلى الإسلام،

---

(١) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٢) أخرجه مسلم ٧٨.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم ٢٤٩/١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٩/٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٦١.

(٦) أخرجه البخاري ٢٧٠٦ مختصرًا، ومسلم ٣٢-٢٤٠٤ وهو لفظه.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧١.

وأحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين والخطباء المعروفين، وأحد من جمع القرآن وعرضه على النبي ﷺ، وهو أول خليفة من بني هاشم وأبو السبطين، أسلم قديمًا بل قال ابن عباس وأنس وزيد بن أرقم وسلمان الفارسي وجماعة: إنه أول من أسلم، ونقل بعضهم الإجماع عليه ... وشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأحدًا وسائر المشاهد إلا تبوك، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استخلفه على المدينة. وله في جميع المشاهد آثار مشهورة، وأعطاه النبي ﷺ اللواء في مواطن كثيرة)[١].

فما أجمل أن يعالج الداعية فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبلاءه في الإسلام وعلو مكانته فيه، لكي يقتدي به المدعوون.

رابعًا- من صفات الداعية: الحرص على هداية الناس:

إن من أهم الصفات التي يتحلى بها الداعية حِرصه على هداية الناس إلى الحق، والأنبياء عليهم السلام -وهم أئمة الدعاة- إنما مهمتهم هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على القيام بهذه المهمة كلما أمكن ذلك، كما هو واضح في الحديث، وذلك في قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم"، فالنبي ﷺ أخبر عليًا أن هداية رجل واحد إلى الإسلام أفضل من أنفس الأموال وأقيمها.

قال البغوي: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك أجرًا وثوابًا من أن تكون لك حمر النعم)[٢].

قال ابن حجر: (يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله)[٣].

وقال النووي: (وفي هذا الحديث فضيلة العلم والدعاء إلى الهدى وسن السنن الحسنة)[٤].

---

(١) تاريخ الخلفاء جلال الدين السيوطي، وهي طبعة مصورة ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) شرح السنة ١١٢/١٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٤٦/٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧١.

وقد قال الله تعالى عن إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب وهم من سادة الدعاة: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[١].

ومن الأمثلة البليغة لحرص الداعية على هداية الناس ولو كان ذلك بقتله، ما أخرجه مسلم عن قصة الغلام والراهب والساحر والملك الكافر، وفيه قول الغلام للملك: ((إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ماهو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهمًا من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني. فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل الملك ذلك فقال الناس: آمنا برب الغلام. فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس))[٢].

فعلى الداعية أن يبذل جهده وطاقته لهداية الناس.

خامسًا- من أساليب الدعوة: التوكيد والتشويق، والسؤال والجواب، والأمر والقسم:

أما التوكيد فقول النبي ﷺ "لأعطين هذه الراية غدًا..." ليؤكد أنه يعطي الراية لرجل توافرت فيه هذه الصفات.

أما التشويق فقوله ﷺ: "لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله علي يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله" فالنبي ﷺ أبهم الصحابي ليشوقهم إلى أن يكونوا جميعًا إياه يوضح هذا "فبات الناس يدوكون" فإن عيّنه النبي غدًا عرفوا قدره ومكانته وفضله.

قال البغوي: (يدوكون أي يخوضون وأصله من الدوك، شبه الأمر فيه بمن دقّ شيئًا ليستخرج لبّه ويعلم باطنه)[٣]، وقد عيّنه ﷺ عن طريق السؤال: أين علي بن أبي طالب؟

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧٣.

(٢) أخرجه مسلم ٣٠٠٥.

(٣) شرح السنة ١١٢/١٤.

أما الجواب فقد كان مترتبًا على سؤال عليّ ﷺ: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فبين له النبي ما يفعله.

والأمر هو قول النبي ﷺ "انفذ على رسلك"، وأما القسم فقول النبي ﷺ: "فوالله..." ليؤكد أهمية هداية الناس إلى الإسلام وإدخالهم فيه وجعلهم يعتنقونه.

الحديث رقم (١٧٦)

١٧٦- وعن أنسٍ رضي الله عنه أَنْ فَتًى مِنْ أَسْلَمَ قال: يا رسُولَ اللَّه إِنِّي أُرِيد الْغَزْوَ ولَيْس مَعِي مَا أَتجهَّزُ (بِهِ)[1]؟ قَالَ: «ائْتِ فُلانًا، فإِنه قَدْ كانَ تَجهَّزَ فَمَرِضَ» فَأَتَاهُ فقال: إِنَّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يُقْرِئُكَ السَّلامَ وَيَقُولُ: أَعْطِنِي الذي تجهَّزْتَ بِهِ، فقال: يا فُلانَةُ أَعْطِيهِ الذي تجَهَّزْتُ بِهِ، ولا تحْبِسِي مِنْهُ[2] شَيْئًا، فَواللَّه لا تَحْبِسِينَ مِنْهُ شَيْئًا فَيُبَارَكَ لَكِ فِيهِ. رواه مسلم[3].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين، وهو تاج حياة المؤمنين، ففي ميدان الجهاد تبزغ كل شموس العبادات، ومن قلب المجاهد تنطلق أفراس القوة، ومعالم الفتوة، فهو يحمي بدمه شهادة التوحيد، ويصون باستشهاده حرمات المساجد، وأعراض المسلمين، وتاريخ الإسلام، ومعالم العقيدة، فالإسلام، كما يقول الرافعي: دين يعلو بالقوة، ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم، ويستفرغ همته في ذلك، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة، أن هذه إنما هى قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها، وتلك تعمل للتفريق، والإسلام يعمل للمساواة، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس الاستعباد، وغلبة الفضيلة في ظل الإسلام وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية[4].

---

(١) (به) لا توجد عند مسلم، وإنما هي عند الحميدي في جمعه (٢/٦٤٦ رقم ٢١٢٦).

(٢) لفظ مسلم: (عنه) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه.

(٣) برقم (١٣٤/١٨٩٤). وسيكرره المؤلف برقم (١٣١٠).

(٤) انظر: وحي القلم للرافعي، ج١.

وفي ضوء هذا التوجه لمعيار القوة في الإسلام، وفلسفة الجهاد وبواعثه، نقرأ ونستكشف أسرار التعبير في هذا الحديث الشريف: فالحديث يصور مشهدًا من مشاهد الفداء، والاستعداد للجهاد دفاعًا عن العقيدة وترسيخًا لمبدأ القوة الإيمانية.. ويبدأ الحديث بمحاورة بين النبي ﷺ وفتى من قبيلة أسلم وهي قبيلة مشهورة: وبعد الإسلام كان بها كما يقول الرواة: خلق كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من العلماء ورواة الحديث، وتبدأ المحاورة بنداء رقيق مهذب من الفتى وكأنه استنجاد برسول الله حيث نادى: يارسول الله ثم يؤكد مَطْلبه ويَعْرِض حاجته، ويحدّد مطلبه بالإرادة دليلاً على صدق العزيمة، فيقول: إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به، ويدرك الرسول ﷺ: صدق نيته وصحة عزيمته: فيدله على الطريق الصحيح ويأمره بالذهاب إلى أحد الصحابة ليستعين بعدته للغزو: لأنه ألم به مرض أقعده عن الخروج إلى الجهاد.

وأسلوب المصطفى ﷺ يفصح عن الاستعداد القوي لهذا الرجل قبل مرضه ولكن فاجأه المرض: حيث يقول الرسول مؤكدًا "فإنه قد كان تجهز فمرض"، فاجتماع المؤكدات: "إنَّ" "وقَدْ" ومجيء الفعل "كان" مع صيغة تفعّل في تجهّز، كل هذا يعلن عن قوة استعداد الرجل، ولكن يفاجئه المرض، والعطف بالفاء في قوله: فمرض، يفصح عن مداهمة المرض له.

ويتولى العطف بالفاء في قوله: "فمرض، فأتاه: فقال": للدلالة على سرعة الحركة، وتشوق هذا الفتى الأسلمي للقتال في سبيل الله، ومع هذه اللهفة، وذلك الشوق لا ينسى الفتى أدب التحية في الإسلام، ولا ينسى حُسْنَ الطلب، وجمال اللقاء: ويتجلى ذلك في مبادرته للرجل قائلاً: رسول الله ﷺ يقرئك السلام: وهذه الجملة تشعر بالاطمئنان، والراحة والسكينة، وذلك من سمات الأدب النبوي الذي تربى عليه الصحابة الأخيار، لينُ الحديث، وصدقُ القول، وبشاشة المُحَيَّا.

ولم يتوجه هذا الفتى بالأمر مباشرة إلى ذلك الرجل المريض مراعاة لشعوره، ولكن جعل الأمر بالإعطاء في دائرة قول رسول الله ﷺ حيث بدأ بالسلام ثم ثنى وقال:

ويقول: أعطني الذي تجهزت به، واختيار مادة "العطاء" لها مدلول نفسي وفني وأسلوبي فالعطاء هبة عن رغبة واختيار وليس قسْرًا، ولم يقل له سلّمني أو هات ما عندك، وإنما قال له: أعطني، وهذا من أدب الحوار في الإسلام، ومن سمات بلاغة الحديث حيث يراعى مقتضى الحال، والقاعدة تقول: لكل مقام مقال، ويستجيب هذا الصحابي من فَوْره ويأمر امرأته أن تعطيه كل عُدّة الحرب، وينهاها أن تحبس شيئًا ويقسم بأنها إذا حبست شيئًا لن يبارك لها الله فيه، إنه مشهد من مشاهد الإيثار والعطاء، والصدق والوفاء.

فقه الحديث

قال النووي: (في الحديث أن ما نوى الإنسان من صرفه في جهة برٍّ فتعذرت عليه تلك الجهة، يستحبّ له بذله في جهة أخرى من البرّ ولا يلزمه ذلك ما لم يلتزمه بالنذر)[1].

كما يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي في باب الجهاد، وهو شرط وجوب الجهاد، فلا يجب الجهاد إلا على مستطيع من ناحية الركوب والزاد، وإذا فقدت هذه الأشياء فلا يجب الجهاد، لكن إن وجدها بملك أو بذلٍ وجب عليه الجهاد[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الجهاد في سبيل الله.

ثانيًا: من واجبات الداعية: الدلالة على فعل الخير.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على تنفيذ أمر النبي ﷺ.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على البذل في سبيل الله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الجهاد في سبيل الله:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وهذا يظهر في قول أنس رضي الله عنه: إن فتى من أسلم قال: "يا رسول الله إني أريد الغزو وليس معي

---

(١) شرح صحيح مسلم، مج٧/١٢، ٣٥.

(٢) أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري ١٧٩١٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ١١٥/٤.

ما أتجهز به"، فحرص الصحابة على الجهاد في سبيل الله مضرب الأمثال.

وقد كان صحابة رسول الله ﷺ حريصين على الجهاد امتثالاً لأمر ربهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

وحرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد نابع من إيمانهم بالله رسوله، ورغبة فيما عند الله تعالى، وقد أخبر الله بما أعده للمجاهدين في سبيله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2]، قال ﷺ: ((إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض))[3].

ومما يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد في سبيل الله، بكاء الرجال حزنًا على حرمانهم من الجهاد، قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾[4].

قال مجاهد: نزلت في بني مقرن من مزينة.

قال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر؛ من بني عمرو بن عوف: سالم بن عوف، ومن بني واقف: هرمي بن عمرو، ومن بني مازن بن النجار: عبدالرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى، ومن بني المعلى: سلمان بن صخر، ومن بني حارثة: عبدالرحمن بن يزيد، أبو عيلة، وهو الذي تصدَّق بعرضه فقبله الله منه، ومن بني سلمة: عمرو بن عَنَمةُ وعبدالله بن عمرو المزني.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٩٠، ٧٤٢٣.

(٤) سورة التوبة، آية: ٩٢.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة (تبوك): ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبدالرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبدالله بن المغفل المزني، وبعض الناس يقول: بل هو عبدالله بن عمرو المزني، وهرمي بن عبدالله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[1].

قال لي مَنْ أُحِبُّ والبيْن قد حَلَّ ودمعي مرافِقٌ لشهيقي
ما تُرى في الطريق تصنع بعدي؟ قلتُ: أبكي عليك طول الطريق

هذا والله بكاء الرجال.. بكاؤهم على موطن يفوز فيه الإنسان المسلم بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة في سبيل الله"[2].

فحرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وإخلاصهم جعلهم يفتحون البلدان وينشرون الإسلام ويدعون إلى الله على بصيرة.

ثانيًا- من واجبات الداعية: الدلالة على فعل الخير:

إن من واجبات الداعية التي تستنبط من هذا الحديث، الدلالة على فعل الخير، ويظهر هذا من قوله ﷺ: (ائت فلانًا فإنه قد كان تجهز فمرض).

حيث دلّه ﷺ على من يجهزه للجهاد في سبيل الله، والدلالة على فعل الخير كان صفة من صفات النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٩٩/٤-٢٠٠، والسيرة النبوية، ابن هشام ١٥٧/٤-١٥٨.

(٢) فرسان النهار من الصحابة الأخيار، د. سيد بن حسين العفاني ٣٣٧/١.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[(١)]، قال القرطبي: (يسارعون في الخيرات التي يعملونها مبادرين غير متثاقلين)[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[(٣)]، فيجب على الداعية أن يسارع إلى الخير ويدل على فعله.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على تنفيذ أمر رسول الله ﷺ:

إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا حريصين أشد الحرص على الامتثال لأوامر النبي ﷺ، ويظهر ذلك في قول أنس رضي الله عنه فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ويقول: (أعطني الذي تجهزت به، فقال: يا فلانة أعطيه الذي تجهزت به ولا تحبسي منه شيئًا).

وقد كان صحابة رسول الله ﷺ حريصين على تنفيذ أمر رسول الله ﷺ لأنهم يعلمون أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[(٤)]، وقد أمرهم ربهم بالامتثال لأمر رسوله ﷺ وتنفيذه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[(٥)]، فعلى الداعية أن يبين للمدعوين مدى حرص الصحابة رضي الله عنهم على تنفيذ أمر الرسول ﷺ والاقتداء به وأن يدعوهم إلى اتباع سنة رسول الله ﷺ والاقتداء به، وانتهاج نهج صحابة رسول الله ﷺ.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على البذل في سبيل الله:

يتضح ذلك من قول الرجل الذي أرسله إليه رسول الله ﷺ: "يا فلانة أعطيه الذي تجهزت به ولا تحبسي منه شيئًا، فوالله لا تحبسي منه شيئًا فيبارك لك فيه".

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢/٤/١٧٦ - ١٧٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٤) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٥) سورة الحشر، آية: ٧.

والبذل في سبيل الله له ثواب عظيم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١]، قال ابن كثير: (هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف)[٢].

أما البخل وهو عدم الإنفاق في سبيل الله ومسك اليد عنه فهو صفة المنافقين، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٣]، "ويقبضون أيديهم" أي: عن الإنفاق في سبيل الله[٤].

فينبغي على الداعية أن يبين للمدعوين فضل الإنفاق في سبيل الله وبركته، وسوء البخل وعاقبته.

ويدل على فضل الإنفاق في سبيل الله حرص الصحابة رضي الله عنهم عليه، فهذا أبو بكر رضي الله عنه ينفق جميع ماله في غزوة تبوك وعمر رضي الله عنه ينفق نصفه.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: وَاللهِ، لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا))[٥].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٩١/١.

(٣) سورة التوبة، آية: ٦٧.

(٤) المرجع السابق ١٧٢/٤.

(٥) أخرجه الترمذي ٣٦٧٥، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي).

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يجهز جيش العسرة من ماله الخاص، فعنه رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((مَن جهَّزَ جيشَ العُسرةِ فلهُ الجنة، فجهَّزتُه))[1]. لذا كان للبذل ثمرات تمثلت في حل مشكلة ذوي الحاجات بين الصحابة رضي الله عنهم كما أنها كانت سببًا في تنفيس الكرب، والمشاركة الوجدانية، والمساعدة المادية، وهذا يعبر عن حقيقة الأخوة الإيمانية في الواقع، ويبرز معاني الوحدة القائمة بين المؤمنين[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٧٨.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تبناك وآخرون ٥/٤٧، ٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

إن روح الجماعة تؤثر على الأفراد لا محالة، وأن العقل الجمعي يفرض نفسه لا إرادياً على آحاد الأفراد، وقد حث الرسول ﷺ على أن يتوجه أفراد المجتمع إلى فعل الخير، فمن تعذر عليه ذلك لضيق ذات اليد أو لعجز معرفي ودعا غيره إلى فعل هذا ففعل كان له من الأمر مثل أجر من حثه على هذا من غير أن ينقص من أجره.

وكما أن الداعي إلى الخير يؤجر كما يؤجر فاعله، فإن الداعي إلى السوء يتحمل وزر كل سوء دعا إليه، وإن وقع من غيره. وقد نص الرسول ﷺ على أنه ما من نفس تقتل إلا وكان على ابن آدم الأول كفل منها، لأنه أول من سن القتل. وعلى الإنسان أن يتصور ما يلحق به من أجر و وزر من جراء فعله. ومن وسائل التربية ما يلي:

أولاً- التربية بالترغيب:

لقد رغَّب النبي ﷺ في الدلالة على الخير والدعوة إليه بقوله: «مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»؛ حتى يصير الأمر بالمعروف والدعوة إلى الخيرات سلوكاً محموداً لدى المسلمين، فإنهم إن يفعلوا ذلك فإن الله سيثيبهم بمثل أجر المستجيبين لدعوتهم، دون نقص من أجور العاملين عند الله.

ولعلَّ الإنسان إذا أمر بالدعوة إلى الخير دون إيماء بالثواب، لعله يتقاعس ولا يسعى إلى ما أمر به، ولكن النبي ﷺ هنا لم يتبع أسلوب الأمر، لاسيما والأمر يخص الآخرين ولا يخص الشخص نفسه، فربما سأل سائل. وماذا يفيدني إذا دللت على الخير؟ وماذا يصيبني سوى إرهاق نفسي من أجل الآخرين؟

من أجل تجنب هذا الشعور لدى المسلم بأنه يعمل دون أجر، فقد رغَّب النبي في هذا الفعل، دونما أمر، بل اكتفى ببيان الثواب؛ لأنه يستند إلى ما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في النعيم والرفاهية، وللترغيب وعد يصحبه، وإغراء بمصلحة أو متعة آجلة مؤكدة[1].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٤.

وأي ثواب أفضل من ثواب الله وأجره!

ثانياً- التربية بالترهيب:

ويتبدّى ذلك في الترهيب من الدلالة على الشر والدعوة إليه بقوله: «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»، وذلك تخويف من مغبة الوقوع في الدعوة إلى الشر، فذلك فعل الخاطئين، الذين يحبون أن يشيع الفساد في المجتمع، بأن يدعوا إليه بالقول أو الفعل، فيقتدى بهم ضعفاء النفوس، ويقتدى بالآخرين غيرهم، حتى يعم ذلك الضلال الذي دعا إليه الفاعل الأول، وهو يحصد ذنبه وذنوب هؤلاء جميعاً، دون أن تنقص آثامهم.

فأي مجازف ذلك الذي يدعو إلى الضلالة بعد ذلك الترهيب من جانب النبي ﷺ، بعد أن أطلع المسلمين على عقاب الله لتلك الفعلة المشينة؟ إنه إن يفعل ذلك بعد هذا الترهيب، فإنه يستحق العقوبة العاجلة والآجلة.

ولقد ثبت لعقلاء الناس "أن الحضارة الغربية بإشاعتها الفاحشة وإبرازها للفتنة والغواية عرَّضت مجتمعاتها لأخطار كبيرة؛ تتمثل في انهيار الأسرة وكثرة الأبناء الذين لا يُعرف لهم آباء، بالإضافة إلى انتشار جرائم الجنس والسرقة والقتل، وقد عجزت قيادات الحضارة الغربية عن معالجة هذه الأخطاء"[1].

وذلك كله من جراء الدعوة الأولى للفساد، ولهذا كان تخويفه ﷺ وترهيبه من الدعوة إليه، وإشاعته.

ثالثاً- التربية بالتشويق:

وذلك سبيل سلكه رسول الله ﷺ في غزوة خيبر، عندما قال لأصحابه: "لأُعطِيَنَّ الرَّايةَ غداً رَجُلا يَفتَحُ اللّهُ عَلى يَدَيْهِ"، "فباتَ النَاسُ يُدوكُون ليلَتَهمْ أيُّهم يُعطاها؟" أي يختلفون فيما بينهم ويموجون، ويضربون الاحتمالات، مطلعين إلى ذلك السعيد الذي ينال هذا الشرف الكبير، وتنفتح على يديه خيبر.

---

(١) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ٢٨٦، ٢٨٧.

ولقد اتبع هذا النبي هذا الأسلوب لهدف بعيد؛ لعله أراد إعلاء همة أصحابه بالاشتياق لهذا الأمر والاستعداد له، ثم بإعلاء شأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لما قدم في سبيل نشر الدعوة من تضحيات، ولما له من سبق في الإسلام.

وقد فعل ﷺ ذلك؛ لأن التشويق نوع من التحفيز، له علاقة بالترغيب،.. فعند حصول الرغبة في الشيء والقناعة به، والتطلع إلى نيله، يمكن أن يحصل الشوق إلى رؤياه[1].

رابعاً- التربية على علو الهمة:

ويظهر ذلك في اهتمام الصحابة بمن سيعطي الراية، عندما أخبرهم النبي ﷺ بأنه سيعطيها رجلاً "يفتح الله على يديه" إن هِمَمَهم العالية المتطلعة إلى المعالي؛ جعلت كلا منهم يرجو أن يكون هذا الرجل.

وحين دعا داعي الجهاد وتجهز الناس للحرب، جاء فتى إلى النبي ﷺ وقال: "يا رسول الله، إني أريد الغزو، وليس معي ما أتجهز به..."، فقد أبت همته العالية أن يقعد متكئاً على فقره وعوزه؛ إنما سعى للغزو والجهاد؛ حتى ينال الثواب في الدنيا والآخرة، فكانت عاقبة نيته الحسنة أن دله رسول الله ﷺ على صحابي لديه عدة الحرب ولكنه مريض، فذهب إليه وأخذ العدة وحارب، ولم يستسلم للظروف الصعبة التي قد تمنع الكثيرين ممن ضعفت هممهم عن التغلب عليها.

خامساً- التربية بالممارسة العملية:

ليس بالقول وحده وصلت المبادئ التربوية إلى الأمة، ولكن الممارسة العملية كانت من الأساليب التربوية الكثيرة التي منها نتعلم، وبها نقتدي، ويتبدى ذلك في موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستجابته للنبي ﷺ عندما أمره بحمل الراية، وأيضاً في موقف الصحابي الذي أراد الجهاد وأعوزه المال والعدة، فذهب إلى النبي ﷺ وشكا إليه، ما أصابه، وتلك ممارسة عملية لإبلاغ القائد في المعركة بكل ما يجري لأفراده

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني ص ٢٢٣.

جيشه، حتى يتمكن من حل مشكلاتهم؛ مثلما فعل النبي ﷺ مع ذلك الرجل، بأن دلَّه على ما يتجهز به

هذا، ويعد أسلوب التربية بالممارسة العملية من أهم أساليب التربية الإسلامية؛ وذلك لأن الدين الإسلامي دين عمل، شريطة أن يكون العمل قريناً للعلم.... وهو دين يجعل العمل أساساً للنجاح أو الخسران في الدنيا والآخرة[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٧٧.

٢١- باب في التعاون على البر والتقوى

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[المائدة: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر: ١-٢] قَالَ الشافعي كلامًا معناه: إنَّ النَّاسَ أَوْ أكثرَهم في غفلة عن تدبر هذِهِ السورة.

الحديث رقم (١٧٧)

١٧٧- عن أَبي عبدِ الرحمن زيدِ بن خالدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ جهَّزَ غَازِيًا في سَبِيلِ اللَّه فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا في أَهْلِهِ بخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا**» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

زيد بن خالد الجهني: يكنى أبا عبدالرحمن، وقيل أبا طلحة.

سكن المدينة، وشهد الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح.

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن عثمان، وأبي طلحة، وعائشة رضي الله عنهم وروى عنه ابناه خالد، وأبو حرب، ومولاه أبو عمرة، وعطاء بن رباح، وعطاء بن يسار وغيرهم. وبلغت أحاديثه التي رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم ٨١ حديثًا، واختلف في مكان ووقت وفاته وسنه اختلافًا كثيرًا، فقيل إنه توفي بالمدينة وقيل بمصر، وقيل بالكوفة.

وكانت وفاته سنة ٧٨هـ قال البغوي: مات سنة ٦٨هـ وقيل مات قبل ذلك في خلافة معاوية رضي الله عنه بالمدينة[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٣) واللفظ له، ومسلم (١٨٩٥/١٣٦). أورده المنذري في ترغيبه (١٨٦٥). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٠٨).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٢٤٩)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٣٥٥/٢)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٤٤٩)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٧٦/٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٦٤/١-٦٦٥، والأعلام للزركلي (٥٨/٣).

غريب الألفاظ:

خلف غازيًا: قام عنه بما كان يفعله بعده[١].

الشرح الأدبي

يفتتح النووي بهذا الحديث الشريف: باب التعاون على البر والتقوى، وقمة التعاون تكون في مواجهة الأعداء الذين يتربصون بالأمة الدوائر، والذين يُهَدِّدون ديار الإسلام، وهذا الحديث له صلة عضوية وموضوعية بالحديث السابق، ويعد مكافأة لذلك الرجل المريض الذي أعطى عدته وجهازه، الفتى الأسلمي، وكأنه قام بالغزو والجهاد ، وهذا الحديث يؤكد ذلك الجزاء الأوفى فالنبي محمد ﷺ يحض أمته على التضامن والتساند إذا ما دعا داعي الجهاد في سبيل الله، فيجعل لمن يجهز الغازي ويهيئ له الأسباب والوسائل ببذل المال أو غيره من سلاح وعتاد مثل أجر الغازي، وكذلك من قام على أولاد المجاهدين وأهليهم، وتعهد بيوتهم بالرعاية والنفقة حتى ينتهي القتال، فله مثل أجر المجاهدين ولا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئًا، وهكذا تصبح الأمة عند الخطر كتلة واحدة مترابطة متعاونة، يعمل كل فرد منها على قدر طاقته في الميدان الذي يجيده، وهو يطمئن ويعتقد أن له أجر الجندي في ميدان القتال.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين شرطيتين، وهذا البناء يشي بتحقق الجزاء، فالجملة الأولى تعد وتبشر كل من شارك في الإعداد للجهاد بالمال والسلاح والطعام ورفع الروح المعنوية، والقضاء على الشائعات والعمل على توحيد الصفوف، وهذا الذي يحث ويحض على الجهاد وتجهز المجاهدين له أجر المجاهد، وجواب الشرط جاء مؤكدًا "بقد" التي تدل على التحقيق: حيث قال رسول الله "فقد غزا" أي: كأنه قام بالغزو في سبيل الله، وفي هذا التعبير اللغوي استعارة تبعية من تشبيه التسبُّب في الغزو بالغزو الواقع بجامع تساوى الأجر في كل. واستعير الغزو للتسبب واشتق منه غزا بمعنى: تسبب في الغزو أو شجع عليه.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ل ف).

وقوله: "في سبيل الله" قيد لصفة الغازي: وقيد للأجر الذي يستحقه من يجهز ذلك الغازي، لأن الذي يغزو في سبيل جاهه أو قبيلته، أو استرداد ملك له أو طمعًا في الثروة والمكاسب المادية أو توسيع رقعة ملكه ... فهو ليس في سبيل الله، وكل من يشارك في ذلك يتحمل وزْره وتبعته، والجملة الثانية جاءت على نسق الجملة الأولى وهي شرطية كذلك، ولكنها تلقى الضوء على حماية الجبهة الداخلية، وتجعل الغازي مطمئنًا على ماله وولده، ويقاتل وهو على يقين أن أولاده في خير، ولذلك قال رسول الله "في أهله بخير"، وهذه الخيرية صفة جامعة مانعة تشمل كل أنواع الرعاية والحماية.

وفي رواية أخرى يتأكد ذلك الجزاء الأوفى "من جهز غازيًا في سبيل الله فله مثل أجره، ومن خلف غازيًا في أهله بخير أو أنفق على أهله فله مثل أجره"، وهذا الثواب الجزيل مرده إلى الفعل الجميل، لأن الجهاد هو ذروة سنام الدين كما ورد في الحديث الشريف، "وذروة سنامه الجهاد"[١]، فهو أفضل الأعمال بعد الفرائض: وفي الصحيحين عن أبي ذر ﵁ قال: "قلت يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله"[٢].

وللحديث رواية أخرى حيث روى ابن ماجه من حديث عمر بن الخطاب ﵁ بلفظ ((من جهز غازيًا حتى يستقل كان له مثل أجره حتى يموت أو يرجع))[٣]، وقال العلقمي: أفادت هذه الرواية: أن الوعد المذكور مرتب على إتمام التجهيز، وهو المراد بقوله: حتى يستقل وأنه يستوي معه في الأجر إلى أن تنقضي تلك الغزوة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي، ٢٦١٦ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢١١٠).

(٢) أخرجه البخاري، ٢٥١٨، ومسلم، ٨٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٧٥٨، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه، ٦٠٣).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٧٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الإعانة على الجهاد في سبيل الله.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان ما يحصل به الخير.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد بالمال في سبيل الله.

خامسًا: من مهام الداعية: حث المدعوين على التعاون والتكافل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الإعانة على الجهاد في سبيل الله:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث الإعانة على الجهاد في سبيل الله وذلك في قوله ﷺ "من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا" ففي هذا بيان لأهمية إعانة الغازي على الجهاد في سبيل الله، لما لذلك من الثواب العظيم الذي يعادل ثواب الغزو، وذلك؛ لأن الغازي لا يتأتى منه الغزو إلا بعد أن يكفي ذلك العمل فصار كأنه يباشر معه الغزو[1].

والإعانة على الجهاد لها ثواب عظيم تكون بالمال وغيره× لأن المال يجهز به الجيش من عداد وأدوات ولوازم الحرب كما فعل ذو النورين عثمان رضي الله عنه عندما جهز جيش العسرة، وكان الرسول ﷺ يدعو لمن يجهز جيش العسرة فقال ﷺ ((من جهز جيش العسرة فله الجنة))[2] والإعانة قد تكون معنوية، بأنه يخلف المجاهد في أهله ويحمل مؤونتهم، يحريض على القتال كما كان يحرض الرسول المسلمين في حفر الخندق[3].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب الترغيب حيث رغب ﷺ في تجهيز الغازي في سبيل الله، وكذلك خلفه في أهله، وأن من يفعل ذلك كأنما غزا، ومن ثم

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٥٩/٦، ٦٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٧٨.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٣٤، ومسلم ١٨٠٥.

فإن لهذا الأسلوب أثره الطيب على نفوس المدعوين.

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان ما يحصل به الخير:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أن من واجبات الداعية بيان ما يحصل به الخير حيث بيّن رسول الله ﷺ أن من لا يستطيع الجهاد لعذر يستطيع أن يحصل على أجر الغازي يتجهيزه بما أنعم الله عليه من مال، ومن لا يملك مالاً باستطاعته أن يخلف غازي في أهله بخير، فيكون قد بيّن ﷺ ما يحصل به الخير للجميع، فعلى الداعية إلى الله أن يقتدي به ﷺ في بيان ما يحصل به الخير.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد بالمال في سبيل الله:

من موضوعات الدعوة فضل الجهاد بالمال، وهذا يستنبط من قوله ﷺ "من جهز غازيًا...) فالتجهيز يكون بما يحتاجه من سلاح وعداد للحرب.

فمن رحمة الله بعباده أنه لم يضيق عليهم فيما فرضه عليهم، بل جعل التيسير سمة ظاهرة من سمات دين الإسلام، ويتضح الأمر بجلاء في هذا الحديث، حديث زيد بن خالد رضي الله عنه: (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا... إلخ) في هذا دليل على مشروعية تجهيز الغزاة في سبيل الله، وأن ذلك يقوم مقام الجهاد في سبيل الله، وأن الجهاد أنواع وأصناف متعددة منها:

النوع الأول: الجهاد بالمال: وهذا ما أشار إليه الحديث سابقًا، ويتحقق بإحدى حالتين في الغالب:

الحالة الأولى: أن يجاهد المؤمن بنفسه وماله في سبيل الله فيقوم بشراء السلاح وشراء ما يحتاجه من زاد وراحلة ونحوه، ويخرج بنفسه معتمدًا على ماله في النفقة وإعداد العدة، وهذا ما أكده القرآن الكريم وأمر به في كثير من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ١٠ - ١١.

الحالة الثانية: أن يجاهد بماله دون نفسه في سبيل الله، وهذا ما تضمنه حديث زيد ويكون الجهاد بالمال مُسْقِطٌ على صاحبه فريضة الجهاد بالنفس عند عدم القدرة على الجهاد بالنفس كمرض أو عذر مانع ولتحقيق مثل أجر المجاهد إذا قام المجهز بإعطاء المجاهد جميع التكاليف من نفقة وتجهيزات، بل قد يكون الجهاد بالمال بتجهيز الغزاة في بعض الأماكن والأزمان في حق بعض الأشخاص أولى من الجهاد بالنفس، وذلك مثل أن يوجد شباب لهم خبرة وتدريب ومعرفة بالمسالك والدروب، وليس معهم ما يتجهزون به للجهاد، ويكون صاحب المال له قدرة على الإنفاق في سبيل الله، وله خبرة بطرق تنمية المال، وليس له معرفة بأمور الجهاد في سبيل الله، فجهاده بالمال بتجهيز من ذكرنا أولى وأنفع للأمة من جهاده بنفسه بمفرده.

إن كثيرًا من البلدان الإسلامية في هذه الأيام أحوج ما يكون للمال لتجهيز المجاهدين للدفاع عن النفس والعرض والدين وما يجب الدفاع عنه عمومًا.

إن الفرض الواجب حاليًا تجهيز المدافعين لمقاتلة المحتلين الغاصبين لبلدان المسلمين، إنه يجب على أصحاب الأموال، والقادرين على الإنفاق، تجهيز من يقدرون على تجهيزه بما يستطيعون، من عتاد وتأهيل وتدريب، ووقف أرصدة مالية لمن يرونه أهلاً للجهاد في سبيل الله في اي بقعة من بقاع الأرض، ويكون الواجب أشد وجوبًا وأعظم أجرًا في الإنفاق لإعانة وتجهيز المدافعين عن أنفسهم ودينهم وأهليهم أمام قوات الاحتلال الغاصبين.

إن الفرض الواجب على القادرين على الجهاد في سبيل الله لا يسقط إلا على من قام بالجهاد بنفسه وماله، أو بتجهيز غيره للجهاد تجهيزًا كاملاً من ماله الحلال ابتغاء مرضاة الله، ودون أي مقابل أو عرض من عرض الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

النوع الثاني: الجهاد بالنفس في سبيل الله، قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ

(١) سورة الليل الآيتان: ١٩ - ٢٠.

إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١].

وهو الأصل، والجهاد بغير النفس كالمال ونحوه فرع عن الأصل، وقد يقوى الفرع ويضعف الأصل، فيقوم الأقوى مقام الأضعف وينوب عنه في أداء الواجب تحقيقًا لبذل الجهد المقدور عليه في سبيل الله.

وقد بين فضل الجهاد بالمال المولى عز وجل في قوله: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[٢].

قال السعدي: (أي كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية في جهاد الكفار)[٣].

وبين فضل الجهاد في سبيل الله النبي ﷺ فقال: ((من أنفق نفقة في سبيل الله كُتب له سبعمائة ضعف))[٤].

فينبغي على الداعية إلى الله أن يبيّن للمدعوين أن المال نعمة منّ الله بها عليهم، وأن عليهم استخدامها فيما يرضيه ويُعلي دينه، وعليهم عدم استخدامها فيما يغضبه ويوجب سخطه.

خامسًا- من مهام الداعية: حث المدعوين على التعاون والتكافل:

إن من مهام الداعية حث المدعوين على التعاون والتكافل، وتظهر هذه المهمة في بيانه ﷺ طريق التعاون والتكافل في تحقيق الجهاد في سبيل الله، إما بالنفس وهو

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٤.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٨٥، ٢٨٦.

(٤) أخرجه الترمذي ١٦٢٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٣٢٦).

الغازي، أو بالمال وهو المجهز له، وإما بالرعاية وهو من يخلفه في أهله، وهو يحقق التعاون والتكافل.

فالإسلام دين شامل ينظم علاقات المجتمع كلها، ويهتم بارتقائها إلى أعلى مستوى من التعامل الرفيع والتعاون البديع، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] أي لاخير في كثير من المتناجين إلا من أمر منهم بصدقة أو معروف، وهو كل ما أمر الله به من أعمال البر والخير، أو إصلاح بين المختصمين ليعودوا إلى ألفتهم واجتماع كلمتهم، وهؤلاء إذا ابتغوا بأعمالهم رضاه أثابهم أجرًا عظيمًا، وتظهر فائدة التكافل في الجهاد بأنه يوجب سدّ حاجة المحتاجين ممن لا يستطيعون القيام بعمل يسد عجز العاجزين، كما أنه يربي النشء تربية تظهر فيهم القوة، والحرص على الموت قبل الحرص على الحياة[2].

فحري بالداعية حث المدعوين على التعاون والتكافل داخل المجتمع الإسلامي ودعوتهم إلى البر والخير.

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٢) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، دار إشبيليا، الرياض: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ص ٢٤٧، وموسوعة القيم ومكارم الأخلاق ١٢/٣٦، ٣٧.

الحديث رقم (١٧٨)

١٧٨- وعن أَبِي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم، بَعَثَ بَعْثًا إلى بَني لِحيانَ مِنْ هُذَيْلٍ فقالَ: «**لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا، وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

غريب الألفاظ:

البعث: الجيش[٢].

لينبعث: ليخرج[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يفتح صفحة مضيئة من صفحات البطولة والجهاد، وما أعظم هذه الصفحات، وما أكثرها في تاريخ الإسلام الذي شاده المسلمون، ورووا بدمائهم حقول العقيدة، وأشجار الإسلام، وهذه الصفحة تكتب سطورها المجيدة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد أن ينشر الإسلام في بني لحيان من هذيل، وأن يَهْدي هذه القبيلة إلى نور اليقين، وأن يخرجهم من ظلمات الوثنية وأسْر الشياطين.

ويبدأ الحديث بصيغة التوكيد من الراوي في قوله: "إن رسول الله بعث بعثًا إلى بني لحيان من هذيل".

والتعبير بالفعل الماضي "بعث" هو من باب التعبير عن المستقبل في صيغة الماضي: لأن الراوي يحكي عما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم فعله، وكيف يكون إرسال البعث قبل تنظيمه؟

---

(١) برقم (١٨٩٦/١٣٧). أورده المنذري في ترغيبه (١٨٦٧).

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ب ع ث).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٥.

ولفظ "البعث": من الألفاظ الدالة على الحدث، وهو هنا يُوحي بالغَزو والبدء في التحرك لفتح بلاد بني لحيان.

والدلالة اللغوية تؤكد ذلك: لأن البعث معناه الرسول: والجمع بُعَثان، والبَعْث: من دلالاته: بَعْث الجند إلى الغزو، والبعث: هم القوم المبعوثون المشْخَصُون.

والبعث كذلك: يكون بعثًا للقوم يبعثون إلى وجه من الوجوه مثل السَّفْر والرَّكْب، وقولهم: كنت في بعث فلان أى في جيشه الذي بعث معه؛ والبعوث: الجيوش[1].

وصيغة الأمر في قول رسول الله ﷺ تفيد الوجوب في قوله: لينبعث من كل رجلين: أحدهما، والأجر بينهما، وهذا الحديث يعد ثمرة للحديث السابق: فقد وعد الرسول ﷺ بأنه "من خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا"، وفي هذا الحديث يتأكد هذا الوعد الحق في قوله: "والأجْر بينهما": أي أجرهما متساوٍ في الفضل والمقدار.

والتعبير بالكناية يغلف أسلوب الحديث: فقوله ﷺ: "لينبعث من كل رجلين" لايقصد منه تحديد الرجلين ولكن المراد لينبعث من كل قبيلة نصف عددها من الرجال، ويمكن أن يكون تحديد لفظ "الرجلان" للإشارة بأن النساء والأطفال والشيوخ والعجزة لا يجب عليهم القتال: فهم خارج دائرة الأمر بالانبعاث. وقوله: "الأجر بينهما"، إشارة إلى المساواة التامة بين من قاموا بالغزو دفاعًا عن الإسلام، ونشرًا لعقيدة الإسلام، وبين هؤلاء الذين جهّزوهم أو خلفوهم في أهلهم بخير، وحافظوا على أموالهم وأعراضهم، وكل ممتلكاتهم.

وفي هذه الإشارة التي تحدد من كل رجلين رجلاً، إرشادٌ إلى وجوب الجهاد على الرجال البالغين المكلفين القادرين، وإرشادٌ إلى ضرورة أن لا يذهب الجميع إلى ساحة الجهاد، بل لابد أن يبقى مجموعة من الرجال لصيانة الأعراض، والمحافظة على الحرمات، والقيام بمسؤولياتهم تجاه أطفالهم ونسائهم، وما يحتاجه المجتمع في حركته التي تُقوِّى جبهته الداخلية، وتصد أي تسلل للمعتدين، وتحيط أي فتنة داخلية.

---

(١) انظر: لسان العرب في (ب ع ث).

فما أعظم هذا التخطيط النبوي، وما أدقَّ وما أعمق هذه الرؤية الشمولية في أشد المواقف حرجًا، ولا غرو، فالمصطفى ﷺ هو القائد الهادي، والبشير النذير، والسراج المنير، يعرف كيف تدار الأمور، وكيف تساس الجيوش، وكيف تعد الفتوح، وقد أمده الله بجندٍ من عنده، فنصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، قال الله عز وجل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل التعاون على البر والتقوى.

ثالثًا: من واجبات المدعو: الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

من أساليب الدعوة التي تستنبط من هذا الحديث أسلوب الأمر ويظهر في قوله ﷺ "لينبعث..." وهو من الأساليب الدعوية المهمة في الدعوة إلى الله تعالى، حيث إنه يدل على أهمية المأمور به وضرورة استجابة المدعو له.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل التعاون على البر والتقوى:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث فضل التعاون، وذلك في قوله ﷺ "لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما" حيث أراد الرسول ﷺ حصول الجهاد والمحافظة على الأمن في المجتمع المسلم وذلك؛ لأنه لو خرج جميع الرجال لأحدث ذلك فراغًا في البلاد والمدن مما يغري بالسطو والاحتلال، ومن ثم فإنه ينبغي توخي الحذر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾[2] أي لا تخرج السرايا

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

(٢) سورة النساء، من آية: ٧١.

إلا بإذن الإمام ليكون متجسسًا لهم، عضدًا من ورائهم، وربما احتاجوا إلى درئه[١].

فخلف بعض المسلمين في الأهل حال الحرب، حث عليه النبي ﷺ، وفعله مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين خلفه رسول الله ﷺ في أهله في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله أتدعني مع النساء والصبيان، فقال ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))[٢]. لذا ينبغي مراعاة هذه الأمور.

ثالثًا- من واجبات المدعو: الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ:

من واجبات المدعو المسلم الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ وقد طالب الله سبحانه أمة الدعوة بأن يستجيبوا للرسول محمد ﷺ؛ لأنه يدعوهم لما يحييهم في الدنيا حياة طيبة، ويعطيهم في الآخرة رضا الله[٣] فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٤].

والاستجابة المأمور بها في هذا الحديث، عدم خروج جميع الرجال للجهاد، لما فيه من حماية المجتمع وأمنه وسلامته، فلابد من الاستجابة له؛ فينبغي على الداعية إلى الله أن يبيّن للمدعوين أهمية الاستجابة والامتثال لتوجيهات النبي ﷺ لأن طاعة النبي من طاعة الله التي فيها النعيم المقيم في الآخرة، والتي هي الحياة الدائمة، ومن تمام طاعة الله طاعة رسوله وتحقيقها، ولن يحصل ذلك إلا عن طريق الاتباع والحرص على الكمال فيه[٥].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٧٣/٥/٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٠٦، ومسلم ٢٤٠٤.

(٣) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ١٥.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ٣٩٠/٢.

الحديث رقم (١٧٩)

١٧٩- وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ لَقِيَ ركْبًا بالرَّوْحَاءِ فقال: «مَنِ الْقوْمُ؟» قالُوا: المُسْلِمُونَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قال: «رسولُ اللّه» فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قال: «نعمْ وَلَكِ أَجْرٌ» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الروحاء: موضع في طريق الجحفة يعرف اليوم باسم (الشُفَيّة) وهي من عمل الفُرْع تبعد ٧٤ كم عن المدينة المنورة وتقع على الطريق المعبد بين المدينة وبدر[2].

الشرح الأدبي

إن أسلوب الحوار من سمة الأدب النبوي، ومن خصائص المنهج الإسلامي في الدعوة إلى الله، والحوار بالحسنى يحدث تفاعلاً بين المتحاورين، وتجاوبًا مقنعًا بين المتحادثين، وهو يشحن العقول بطاقات التأمل والتدبير، ويملأ القلوب بباقات الأحاسيس والتفكير، ويحدث تقاربًا في الرؤى المتباعدة، وينشئ تواصلاً بين الخواطر المتصادمة.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، ندرك أنه حوار واقعي، ينبع جماله السردّي من واقعيته التي صنعت الحدث، وحددت المكان، ولا يصنع الحدث إلا من خلال الشخصيات، ولا يَعْمر المكان إلا بتفاعل الشخصيات مع الأحداث، وفي هذا الحديث ينشأ هذا الحوار القصير الجميل بين رسول الله ﷺ وجماعة من المسلمين الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يتعرفوا على رسول الله

(١) برقم (١٣٣٦/٤٠٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٢٨٤).

(٢) أطلس الحديث النبوي ١٩٦.

ﷺ، وبؤرة الحوار تركزت حول شعيرة الحج، بعد أن تعرف رسول الله على القوم، وهم عرفوا رسول الله ﷺ، وفي الحديث إشارة صريحة إلى تحديد مكان الحوار وهو "الروحاء"، وهى محل بقرب المدينة، وزمان الحوار كان في حجة الوداع، كما يقول العلماء حيث لقى رسول الله ركبًا بالروحاء في حجة الوداع.

ومن سمات أدب التحية في الإسلام أن الرسول ﷺ هو الذي بدأ بالسلام على الركْب، ثم بدأهم بالسؤال: من القوم.

ولم يقل: من أنتم ؟ لأن السؤال عن انتمائهم وليس عن نسبهم ولا قبيلتهم: فالإسلام هو معيار الأخوة والافتخار، وما أجمل قول الشاعر:

أبى الإسلام لا أب لي سواه ... إذا فخروا ببكر أو تميم

ولذلك لم يقل لهم: من أي قوم أنتم؟ وتجيء الإجابة مناسبة للسياق ومطابقة لمقتضى الحال حيث قالوا: "المسلمون" وفي هذه الإجابة حذف ومجاز: فالتقدير نحن قوم من المسلمين: ولكن جاءت الإجابة بالأهم وبالثمرة المطلوبة: "المسلمون"، والكلام فيه مجاز مرسل: حيث أطلق الكل وأراد البعض، فقد أرادوا أن يقولوا: نحن قوم من المسلمين.

وفي سياق سؤال القوم للرسول ﷺ: جاء سؤالهم عن شخصه وليس عن قومه: فقالوا: من أنت ؟ لأنه هو الذي بادرهم بالسؤال: وقد اطمأنوا حين أجابوه.. ولم يجدوا في وجهه تغيرًا بل وجدوا ارتباطًا واطمئنانًا وبريقًا يشدهم ويجذبهم، ولم يحدد الرسول ﷺ اسمه: بل حدّد صفته، لأن الصفة هي التي تناسب الموقف، وتزيد القوم اطمئنانًا وسكنًا وأمنًا قال "رسول الله"، ونتيجة لهذا السكن الذي حل في قلوبهم.. فرح القوم.. واستبشروا، والحديث أجمل ذلك لأنه من فضول الكلام، وتسأله امرأة من الركب معها صبى صغير "ألهذا حج" وهذا السؤال هو مركز فكرة الحديث الشريف، فيبشرها رسول الله ﷺ ويقول: "نعم".. وتزداد البشارة ويقول: "ولك أجر"، فالحج صحيح، ولكنه تطوع.. ولا يغني عن حجة الإسلام، ولفظ "الحج" يعطي دلالة "القصد" ولكن هذا القصد تخصص بالقصد إلى عظيم، أو القيام بأمر كبير: وهو قَصْد الكعبة والطواف حولها قبل الإسلام، والعرب كانوا يدركون أن في الحج معنى

تكفير الذنوب، وهو المعنى الذي عرف للكلمة في دلالتها الإسلامية فيما بعد، ولكن الحج في الإسلام له أركانه وواجباته وسننه، وتطورت دلالة كلمة "الحج" في الإسلام بكل ما تحمل هذه الشعيرة من آداب وقيم وتعاليم، وقد ورد الفعل "حج" وما اتصل به في ثلاث عشرة آية في القرآن الكريم.

وهذا الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وهذه المرأة يشع بمدلول كلمة الحج في الإسلام، وينبئ عن إدراك هذه المرأة لدلالة وثمرة الحج وهو قصد البيت الحرام لأداء النسك، وثمرته تتمثل في قول المصطفى ﷺ "من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كما ولدته أمه"[1] فاللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

فقه الحديث

إن الحج أحد الأركان التي بني عليها الإسلام، وهو فرض على المستطيع فقط ويسقط عن العاجز عنه لمال أو صحة أو غير ذلك.

والحج فرض عين على المسلم البالغ العاقل المستطيع فمن شروط وجوبه البلوغ، ولكن إذا كان مع الرجل أو المرأة ولدها غير البالغ فهل يحج معها وهل يكون حجه صحيحًا؟

اتفق الفقهاء[2] على أن الصبي إذا حضر الحج كان لوليه أن يحرم ويلبي عنه

(١) أخرجه البخاري١٥٢١ ، ومسلم ١٣٥٠.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود١٢٠/٢ ، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٤٠/٢، والمدونة الكبرى رواية سحسنون عن ابن القاسم، الإمام الأصبحي ٣٩٩/١، وحاشية الدسوقي ٥/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله المغربي ٤٨٧/٢ وما بعدها، والأم، الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد وعادل أحمد، وغيره ١٢١/٢ ، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٧/٧، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ٢٣٦/٣ ، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٠٧/٢ وما بعدها، والفروع، ابن مفلح ٢١٢/٣ ، وشرح منتهى الإرادات، البهوتي ٥١٣/١، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١/٤، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠/٨ ، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية١٧/ ٢٨.

ويحج معه ويكون الثواب لوليه، لأن من شروط الحج البلوغ، فإذا بلغ وجب عليه حجة الفريضة، وشذت طائفة[1] فقالت إذا حج الصبي أجزأه ذلك عن حجة الإسلام، ولم يلتفت العلماء إلى قولها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات الداعية: السؤال عن هوية المدعو إذا اقتضت الحاجة.

ثالثًا: من واجبات المدعو: اغتنام الفرص.

رابعًا: من خصوصيات النبي ﷺ: جوامع الكلم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحج.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإعانة على الطاعة.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

يظهر أسلوب السؤال والجواب في هذا الحديث في أكثر من موضع هي فقال: "من القوم"؟ قالوا المسلمون. فقالوا من أنت؟ قال: "رسول الله"... فقالت ألهذا حج؟ قال: "نعم ولك أجر" وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب المهمة في الدعوة من أجل استجلاء الأمور واستبانتها.

ثانيًا- من واجبات الداعية: السؤال عن هويّة المدعو إذا اقتضت الحاجة:

إن مما يجب على الداعية فعله استجلاء الأمور والسؤال عما يجهل إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لأن الرسول ﷺ سأل "من القوم؟" يخشى أن يكونوا من العدو فيخونوا أو يغدروا، أما إذا لم تدع الحاجة إلى ذلك فلا حاجة له أن يسأل، لأن ذلك قد يكون داخلاً فيما لا يعنيه و((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))[2].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٧/٧، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧١/٤، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠/٨، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية٢٨/١٧.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي،١٨٨٦).

ولكن إذا دعت الحاجة فيسأل حتى يكون على بينة من الأمر وعلى بصيرة[(١)].

وذلك لأن الداعية له طاقة معينة في المعرفة ولن يحيط بكل شيء، ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى، لذا يجب على الداعية البحث عن إجابات لما يجهل، ومن ضمن وسائل الكشف عن المجهول السؤال، وللسؤال مزايا متعددة من توفير للجهد والوقت والمال، كما أن فيه تحصيل منفعة ودفع مضرة في أمور الدنيا والدين[(٢)].

ثالثًا- من واجبات المدعو: اغتنام الفرص:

من واجبات المدعو التي تظهر من هذا الحديث اغتنام فرصة وجود العالم، لأن القوم لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رسول الله، جعلوا يسألونه فينبغي على المدعو أن يغتنم فرصة وجود الداعية من أجل أن يسأله عما أشكل عليه لما في ذلك من منفعة كبيرة للمدعو[(٣)]. وليس أدل على ذلك من اغتنام للفرصة فعل ابن عباس رضي الله عنهما عندما علم بمبيت المصطفى ﷺ عند خالته ميمونة فذهب وبات قال: ((بت في بيت ميمونة ليلة والنبي ﷺ عندها لأنظر كيف صلاة رسول الله ﷺ بالليل))[(٤)].

فقد حرص ابن عباس رضي الله عنه على أن يتعلم من النبي ﷺ وضوءه وصلاته وكيفية ذكره وقد تعلم أيضًا في هذه الليلة دعاء "اللهم اجعل في قلبي نورًا ..." كما ذكر العلماء أن فيه دليلاً على جواز السهر من أجل التعلم[(٥)].

رابعًا- من خصوصيات النبي ﷺ جوامع الكلم:

ويظهر هذا في قوله ﷺ "نعم ولك أجر" حيث أجاب ﷺ السائلة بقليل من الألفاظ لبيان ما تريد معرفته دون استطراد. وذلك من جوامع الكلم وهو من خصوصيات النبي ﷺ التي فضّله الله تعالى بها على غيره من الأنبياء، فكان يتكلم

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٢/٣٧٦، ٣٧٧.

(٢) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هشام علي أحمد ص ١٢٣ بتصرف.

(٣) انظر: المرجع السابق ٢/٣٧٧.

(٤) أخرجه مسلم ٧٤٥٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٤٨٢، ٤١٣، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ٢/١٧٨.

بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني[١]. وقد جاءت السنة مؤكدة على هذه الخاصية.

عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي المغانم وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون))[٢]. والله عز وجل قد أعطى المصطفى ﷺ مفاتيح الكلام، وهو ما يسره له من البلاغة والفصاحة، والوصول إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات والألفاظ التي أغلقت على غيره وتعذرت عليه قال العز بن عبدالسلام: (ومن الخصائص أنه بعث بجوامع الكلم واختصر له الحديث اختصارًا وفاق العرب في فصاحته وبلاغته)[٣].

فينبغي على الداعية أن تكون إجابته قصدًا دون استطراد ما دام القليل من الكلام يؤدي المراد، وخير الكلام ما قل ودل.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الحج:

ويظهر هذا من سؤال المرأة عندما قالت: ألهذا حج؟ فقال ﷺ "نعم ولك أجر".

والحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو فرض على المسلم القادر مرة واحدة في العمر قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[٤] وهو من أفضل الأعمال وأكثرها ثوابًا قال رسول الله ﷺ ((أفضل الجهاد حج مبرور))[٥] وقال ﷺ: ((الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[٦]. لأنه اقترن بالشوق إلى لقاء الله عز وجل؛ لأن

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٤١٨، ١٣/٢٦١.

(٢) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ١/٤٥٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٩٧.

(٥) أخرجه البخاري ١٥٢٠، ٢٧٨٤.

(٦) أخرجه البخاري ١٧٧٣، ومسلم ١٣٤٩.

المحب مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة، والبيت مضاف إلى الله عز وجل، فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة، فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل بالجنة، والإنسان في الغالب الأعم يشتاق إلى ربه أشد شوق، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه فلا يجده إلا الحج. لأجل ذلك فإنه ينبغي للداعية أن يبين للناس فضل الحج وثوابه.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإعانة على الطاعة :

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث فضل الإعانة على الطاعة حيث بيّن رسول الله ﷺ للمرأة التي تسأل عن حكم حج ابنها أن حجه صحيح، ولها أجر، جزاءً لها على إعانة ابنها على الحج الذي لا يجب عليه لأنه ليس مكلفًا.

والإعانة على الطاعة لها ثواب عظيم، ومن ذلك ما ورد عنه رسول الله ﷺ في قوله: ((من جهز غازيًا في سبيل فقد غزا ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا))[1] حيث جعل للمعين على الجهاد ثواب المجاهد، فحري بالداعية أن يبين فضل الإعانة على الطاعة وثوابه.

وفي الحديث فائدة تتمثل في: أن فعل المرأة مع صبيها يعد تمرينًا على التعلم، وفعل الطاعات[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٤٣، ومسلم ٤٩٠٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣٧.

الحديث رقم (١٨٠)

١٨٠- وَعَنْ أَبي موسى الأَشْعَرِيِّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**الخَازِنُ المُسْلِمُ الأَمِينُ الذي يُنَفِّذُ ما أُمِرَ بِه، فَيُعْطِيهِ كَامِلاً مَوفَّرًا، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَيَدْفَعُهُ إِلى الذي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ المُتَصَدِّقَيْنِ**» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية[2]: «**الذي يُعْطِي مَا أُمِرَ بِهِ**» وضَبَطُوا «**المُتَصدِّقَيْنِ**» بفتح القاف مع كسر النون على التَّثْنِيَةِ، وعَكْسُهُ عَلَى الجمْعِ وكلاهُمَا صَحِيحٌ.

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

موفَّرًا: أي كاملاً تامًّا من غير نقصان[3].

الشرح الأدبي

إن البناء اللغوي في هذا الحديث كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا: وهو كما يقول الجاحظ: كلام ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام.

والحديث يتكون من جملة لغوية واحدة طرفاها: المبتدأ والخبر: فهي جملة اسمية تأخذ صفة الثبات: فالصفة التي يحض عليها الحديث لابد أن تكون مستقرة دائمة وهي صفة الأمانة والإخلاص في الإعطاء، ولذلك يجسد التشكل اللغوي ثبات المعنى المراد، فالصفة مستقرة، والحدث لا يتغير بتغير الزمن، ويعرض الحديث لصفة الأمانة، والعطاء عن طيب نَفْس، وعدم إبطال الصدقات بالمنِّ والأذى.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٨)، ومسلم (١٠٢٣/٧٩) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (١١٤٩).

(٢) أي بدل: (ينفذ) كما في الرواية التي تقدمت تخريجها، وفيها: (الأمين الذي ينفذ، وربّما قال: يعطي).

(٣) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي في (و ف ر)، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٣١.

ويبدأ الحديث بقول رسول الله ﷺ: "الخازن": وهو القائم على حراسة المال والمكلف بإعطاء الصدقة لمن يستحق، وهذا الخازن يرصد الحديث الشريف له عدة صفات تميز شخصيته، وتحدد نمط هذه الشخصية وأبعادها في ظلال المنهج الإسلامي، فالخازن كما حدد مقومات شخصيته الرسول ﷺ "مسلم، أمين، ينفذ ما أمر به، يعطيه كاملاً موفرًا، طيبة به نفسه، يدفعه إلى الذي أمر له به".

وهذا الخازن الذي يتمتع بهذه المقومات الشخصية في مجال إعطاء الصدقة هو أحد المتصدقين: أي يكتب له ثواب الصدقة، ولكن هذا الثواب يقل ويكثر حسب تعبه، وبقدر بشاشته في الإعطاء، وبقدر تمتعه بالصفات السابقة.

وجماليات الأداء الأسلوبي تكشف عن أسرار كثيرة في تقديم المعنى، وإضاءة العلاقات الحميمة بين أطراف العلاقة الإنسانية الجميلة القائمة على التعاطف والعطاء والمحبة، بين المتصدق، والمتصدق عليه، والذي يتولى تقديم الصدقة. وأول صفة لهذا "الخازن" هي الإسلام، ثم الأمانة، فقد يكون مسلمًا ولكنه يفتقد صفة الأمانة: فينقص من العطاء، ويستأثر بأجوده أو ببعض منه طمعًا وشحًا وحسدًا.

والتعبير بقوله: "ينفذ ما أمر به" يرشد إلى أن إعطاء الصدقة كاملةً يدخل دائرة الوجوب ولا مجال فيه للاجتهاد، فهذا الخازن ليس إلا منفذ لما يُؤمْر به، وفي ذلك اقتداء بالأسوة الحسنة، بنبينا محمد ﷺ، اتباعًا لقول الله عز وجل على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وتحديد لفظ "أُمِرَ" في صيغة الفعل الماضي المبني للمجهول، يؤكد أن الإعطاء الكامل أمر واجب التنفيذ، ولا يأتي الأمر من شخص محدد بل هو أمر شامل يلتزم به كل خازن أمين، لأن هذا أمر شرعي، وليس أمرًا يخضع للمناسبة أو السياق أو الزمن أو البيئة، واختيار صيغة المضارع في قوله "ينفذ" يوحي باستمرار الصفة وتجددها، وكذلك صيغة المضارع في قوله "يعطيه" يوحى باستمرار صفة العطاء،

---

(١) سورة يوسف، آية: ٥٥.

والعطف بالفاء يرشد إلى سرعة العطاء، ومجيء لفظ "كاملاً" بمادته اللغوية، ونصبه للحالية يؤكد حتمية الأمانة الكاملة، ثم يأتي لفظ "موفّرًا" منصوبًا وهو حال ثان ليؤكد عمق الأمانة، وحتمية إيصالها غير منقوصة ماديًا أو معنويًا، والحال الثالثة: تتعلق بالخازن نفسه، في قوله "طيبة بها نفسه"، أي يخلو ذلك الخازن من الحسد والحقد والضغينة وهو يعطي، وهذه حالة نفسية يحرص عليها الإسلام، فالظاهر لا يكفي، وإنما لابد من الوازع القلبي، والشعور بالغبطة ساعة العطاء، والتعبير بالفعل "يدفعه" يومئ إلى طريقة الإعطاء وهي: الهمة والنشاط والخفة، وكأنه دَيْن يجب أداؤه، والعطف "بالفاء" يوحي بالسرعة وعدم التراخي، وصيغة المضارع تنبئ عن الاستمرار والتجدد مع كل فعل مماثل، في أي زمن، وفي أي بيئة إسلامية، وهذا من سمات الشمول والاستيفاء في البيان النبوي، ويختم الحديث بالثمرة المرجوة حيث تتم فائدة الكلام السابق، ويتضوأ الإشعاع الذي توهجت به الصفات السابقة للخازن الأمين المسلم، وثوابه الجزيل: هو أنه يرقى إلى درجة أحد المتصدقين، وهو عند الله من المقبولين الفائزين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فقهي يتعلق بأجر الوكيل في الصدقة، وقد ذكر الفقهاء[1] أن الوكيل في الصدقة أحد المتصدقين إذا أمضاه بشرطه، وله من الثواب مثل ثواب من تصدق دون أن ينقص من ثوابه شيء، ويحق له أن يأخذ أجره من الصدقة من تحت يده فيقبض من نفسه، قال ابن رجب: (والوكيل في الصدقة لا يأكل منها شيئًا لأجل العمل). والحديث يدل أيضًا على أن المشاركة في الطاعة توجب المشاركة في الأجر.

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٣/٦، والفروع، ابن مفلح ٦٠٨/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ١٩٦/٤، وقواعد ابن رجب ص ١٣١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي ٣٣٩/٥.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الأمانة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الطاعة والامتثال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية سلامة القلب ونقاء الصدر.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

خامسًا: من واجبات الداعية: الحرص على نفع المدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الأمانة:

إن ما يستنبط من عموم هذا الحديث فضل الأمانة حيث ذكر ﷺ ذلك في قوله "الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أُمر به، فيعطيه كاملاً موفرًا طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذي أُمر له به أحد المتصدقين" الحديث.

فبيّن ﷺ أن المسلم المؤتمن الذي يؤدي الأمانة كاملة كما أُمر، يكون له مثل ثواب المتصدق، وهذا دليل على فضل الأمانة، وعلى فضل التنفيذ وعدم التفريط فيها[1]، لأنه من الأمانة الاهتمام بأن يحفظ المستأمنون ما تحت أيديهم من حقوق لغيرهم حتى يؤدوها إلى أصحابها وهي على حالتها حينما استؤمنوا عليها، ما لم يكن مرور الزمن يغير منها بصفة طبيعية معلومة، والأمانة مرتبطة بمبدأ الحق لذا تجدها مدفوعة بمبدأ الحق تجاه حقوق الآخرين، كما يجب التنويه إلى أن الأمانة يجب أداؤها إلى الذين لا يملكون وثائق تثبت حقهم عليها وهم أصحابها[2].

والأمانة في الإسلام فضل عظيم، فقد جعل الله سبحانه من علامات الفلاح أداء الأمانات قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾[3] قال السعدي: (أي مراعون ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها)[4].

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٢/٣٨١.

(٢) الوجيز في الأخلاق الإسلامية ٢٧٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٩٧.

وقد أمر بها رسول الله ﷺ فقال: (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)[١] والأمانة صفة مميزة لأصحاب الرسالات، فقد كان كل منهم يقول لقومه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[٢] فينبغي على الداعية أن يبيّن للمدعوين فضل الأمانة وأهميتها لهم، حتى تعم الأمانة في التعامل وتعم الثقة بين المسلمين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الطاعة والامتثال:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث فضل الطاعة والامتثال، ويظهر هذا في قوله ﷺ "الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أمر به" حيث أطاع وامتثل لأمر ولي أمره فيما أؤتمن عليه، والطاعة والامتثال لولي الأمر واجبة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[٣].

وقال رسول الله ﷺ: ((على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة))[٤]. قال الشيخ العراقي: (هذا الحديث مفيد لوجوب طاعة الأمراء والعلماء وأولي الأمر، و السبب في ذلك اجتماع كلمة المسلمين، فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم، ويستنتج من ذلك أن من أطاع الأمير فقد أطاع الله، لأنه أطاع الرسول ﷺ ومن أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله، وتجب الطاعة في ما يقتضيه العلم والمعروف، وحرمت طاعتهم في غير ذلك[٥]. فينبغي على الداعية بيان وجوب طاعة ولاة الأمر في غير معصية الله، وفضل إعانتهم على البر والتقوى، حيث بيّن هذا الحديث أن من أعان على البر كان له مثل

---

(١) أخرجه الترمذي ١٢٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٠١٥).

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٤) أخرجه البخاري ٧١٤٤، ومسلم ١٨٣٩.

(٥) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين بن الحسن، عبدالرحمن بن الحسين العراقي، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، الإمام الشوكاني ٢٧١/٧.

ثواب فاعله أو الآمر به.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية سلامة القلب ونقاء الصدر:

إن من موضوعات الدعوة التي في هذا الحديث أهمية سلامة القلب ونقاء الصدر ويدل على ذلك قوله ﷺ "طيبة به نفسه".

وسلامة القلب ونقاء الصدر من الأمور التي دعا إليها الإسلام قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1] قال السعدي: (إذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده)[2].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: ((قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب، صدوق اللسان. قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد))[3].

فسلامة القلب ونقاء الصدر[4] تفرض على المسلم أن يتمنى الخير للناس، ويكره لهم الشر، فينبغي على الداعية أن يدعو المسلمين إلى سلامة القلب ونقاء الصدر من الغل والحسد، حتى لا يحمل أي منهم لأخيه حسدًا أو غلاً أو كراهية.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

إن من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب الترغيب ويدل على ذلك ترغيبه ﷺ في أداء الأمانة على الوجه المطلوب أداؤها عليه.

---

(١) سورة يونس، من آية: ٥٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٢٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤٢١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٩٧).

(٤) شرح سنن ابن ماجه ٣١١/١.

وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة الضرورية في الدعوة إلى الله حيث يقوم الداعية بتشويق المدعو إلى الاستجابة للدعوة وقبول الحق والثبات عليه، وبيان أن ذلك له فيه فائدة في الدنيا والآخرة[١].

خامسًا- من واجبات الداعية: الحرص على نفع المدعوين:

إن مما ينبغي للداعية أن يحرص عليه نفع المدعوين، ويظهر حرصه ﷺ على نفع المدعوين في هذا الحديث في أنه بيّن فضل أداء الأمانة كاملة وثواب ذلك، وبين أن ذلك فيه نفع للمؤدي.

والحرص على نفع المدعوين فيه محبة الخير لهم كما يحبه الإنسان لنفسه، ويقول رسول الله ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))[٢] يقول الصنعاني: (إنه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب أحدكم لأخيه في الإسلام ما يحب لنفسه من الخير، والقيام بذلك يحصل بأن يحب له مثل حصول ذلك من جهةٍ لا يزاحمه فيها، بحيث لا تُنقص النعمة على أخيه شيئًا من النعمة عليه، وذلك سهل على القلب السليم، عسر على القلب الدغل، عافانا الله)[٣]؛ فينبغي للداعية أن يحب الخير لإخوانه المسلمين، ويحرص على نفعهم، لأن ذلك يدل على كرم النفس، وصفاء القلب، وتقدير المسؤولية الملقاة على عاتقه.

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧، ٤٣٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٣) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، إسماعيل الصنعاني ٢/٦٣٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

قد يتعذر على الإنسان القيام بفعل ما، فيقوم غيره به، كالجهاد مثلاً، ويقوم صاحب العذر برعاية أهل القائم بالفعل فيكون في الأجر معه سواء. والسنة النبوية تلفت النظر إلى مسؤولية المقيم تجاه المسافر، والحاضر تجاه الغائب، فليست الفرصة متاحة لإساءة استخدام غيبة رب البيت، بل العلاقة محددة شرعاً: "ومن خلف غازياً في أهله في غزا". والتفاوت الاجتماعي في العمل من هدي القرآن والسنة، فلم يرب الإسلام أبناءه على القتال، ولم يربهم على العمل الدنيوي، بل فاوت بين أفراد المجتمع لاستقامة مسيرة الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [سورة المزمل:٢٠]. من المفاهيم التربوية نذكر:

أولاً- التربية الجهادية:

إن الجهاد في سبيل الله من الأعمال العالية في الإسلام، ولهذا فقد خصّها النبي ﷺ ببيان فضلها في كثير من الأحاديث، وفي هذا الباب يعمم النبي ﷺ ثواب الجهاد؛ ليصل إلى الذين يجهزون الغزاة بالعدة والعتاد، يقول ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا»، بل ويشمل الثواب الذين يقومون على أُسر المجاهدين بالرعاية أثناء الحرب، يقول ﷺ: «وَمَنْ خَلَّفَ غَازِياً فِي أَهلِهِ بخيْرٍ فَقَدْ غَزَا».

وقد حثَّ النبي ﷺ على إعانة المجاهدين، تعميقاً لقيمة الجهاد في سبيل الله، وتربية للمسلمين على تقديم العون والمساندة للمجاهدين بكل السبل، وعلى قدر الإمكانات، فمن لم يستطع الجهاد فأمامه أن يجهز الغزاة، ومن لم يقدر على تجهيزهم، فإن أمامه فرصة أخرى لينال الثواب؛ وهي أن يتعهد أهل المحارب بالرعاية حال غيابه.

إن على المربين أن يغرسوا حب الجهاد في نفوس المتلقين؛ لأن "منزلة الجهاد منزلة عظيمة، ومرتبته مرتبة كريمة، لا يحظى بأجرها وثوابها إلا الصادقون المتقون، الذين سلكوا الطريق القويم، مهتدين بآيات رب العالمين، ومقتدين بسنة النبيين، فوفاهم الله أجرهم وآتاهم ثوابهم، فكانوا من المنعمين الخالدين في جنات رب العالمين"[1].

ثانياً- غرس خلق التعاون في نفوس المتربين:

إن المرء قد يقبل على العمل، ولكن يعجزه القيام به وحده، ولهذا فقد اهتم النبي ﷺ بحث المسلمين على التعاون فيما بينهم، خاصة في الجهاد في سبيل الله، يقول: «مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللّهِ فَقَدْ غَزَا...»، ويقول: «لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا. وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا»، وذلك إذا كانا فقيرين لا يستطيعان التجهيز بالعدة والدابَّة للحرب، فلا مانع أن يتعاونا ويجمعا إمكاناتهما المحدودة، ليجهزا أحدهما، وحينها يكون الأجر للطرفين.

وذلك المسلك القويم دعا إليه القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[2]. ولا يخفى على ذي بصيرة ما في التعاون من فائدة كبيرة تعود بالنفع على المجتمع بأسره، فتنجز الأعمال الكبيرة التي تعيي الأفراد من القيام بها، تنجز هذه الأعمال بالجماعة، وقد قال ﷺ: «يدُ الله مع الجَمَاعَةِ»[3].

والتعاون خلق يحرص عليه المؤمن، بتقديم العون إلى الناس، ولا تتحكم فيه مشاعر شخصية، أو مواقف عارضة[4].

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ٢٨٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) أخرجه الترمذي ٢١٦٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٧٦٠)

(٤) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخذندار ص ١٥٤.

ثالثاً: التربية بالحوار والمناقشة:

وهو من الوسائل البارزة في أحاديث هذا الباب، فإن رسول الله ﷺ لقي ركباً بالرَّوحاء، فدار هذا الحوار:

قال ﷺ: «مَنِ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ. فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللّهِ» فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيّاً فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ. وَلَكِ أَجْرٌ».

إنها طريقة مثلى لاستقاء المعلومات ومعرفة المجهولات، وفي سؤال المرأة وإجابة رسول الله سبيل تربوي إلى التعليم بالحوار، فإن المرأة عندما جهلت شيئاً من أمر دينها لم يسكتها الحياء عن السؤال، ولكنها سألت فأجابها المربي الأول ﷺ بما تريد.

وعلى المعلم المسلم أن يعوّد طلابه الحوار والمناقشة..... وعليه أن يكون واسع الصدر، فيرد على كل استفساراتهم وأسئلتهم بإجابات صحيحة ومناسبة لمستوياتهم؛ حتى يكونوا على وعي واقتناع بما يلقيه عليهم،وحتى يفيدهم بذلك[1].

رابعاً- تربية الأطفال على أداء العبادات:

وذلك في سماحه ﷺ للطفل الصغير بالحج، بل بشَّر أمه بأن لها أجراً عند الله تعالى؛ لأنها ربَّت ابنها على العبادة والتعلق بشعائر الله، وفي ذلك من الدعوة إلى تربية الأولاد وتنشئتهم على عبادة الله منذ الصغر، حتى يشبوا وقد شبَّ الإيمان في قلوبهم.

وحيث إن الحج مثل الصوم والصلاة يعود الطفل على هذه العبادات ليعتاد الصلة بالله تعالى ومناجاته، والاستجابة لأوامره، وليتهيأ للتكيف الذي ينتظره عند بلوغه، فلا يجده صعباً وشاقاً عليه، وإنما مألوفاً لديه، والحج يجمع مشقات العبادة كلها، بالإضافة إلى أنه يجمع لذاتها جميعها، فإذا ما حج الصبي، فهذه بشارة على سلوك الطاعة لله في المستقبل إن شاء الله[2].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨٢ بتصرف يسير.

(٢) المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٢٣٥.

خامساً- غرس خلق الأمانة في نفوس المتربين:

الأمانة من شيم المؤمن التي ربى النبي ﷺ عليها أصحابه الكرام، ورغب فيها ترغيباً، فقد عدّ الخازن الأمين الذي يتحلى بالأمانة من المتصدقين، رغم أنه لم يتصدق على صاحب المال الأساسي، والطرف الثاني المراد تسليم المال إليه، يقول ﷺ: "الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ مَا أُمَرَ بِهِ ... أَحَدُ الْمُتَصَدِّقِينَ".

والأمانة شاملة لكل ما استرعى الله تعالى للإنسان من جوارح، وأداؤها واجب شرعي، يتحتم على كل مسلم أن يحفظها، ولا يخون حتى من خانه[(١)].

ولقد حرص النبي ﷺ على تعميق قيمة الأمانة في نفوس المسلمين؛ لأن وجودها في المجتمع يعني السلامة والصفاء، ونقيضها الخيانة التي هي سبب الأزمات والغش والخديعة، إذ يرتبط بفقدان الأمانة قلة الإنتاج في الأعمال، وضعف المستوى في الأداء، في مختلف الحرف من الأعمال، وفقدانها تكسد التجارة وتتعثر بين الناس؛ لانعدام الثقة في المعاملات[(٢)].



---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ١٩٢.

(٢) المرجع السابق ١٩٢.

٢٢- باب النصيحة

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: إخبارًا عن نوحٍ ﷺ: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾[الأعراف: ٦٢]، وعن هود ﷺ: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف: ٦٨].

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (١٨١)

١٨١- فَالأَوَّلُ: عن أَبِي رُقَيَّةَ تَمِيمِ بنِ أَوْس الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» **قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»** رواه مُسْلم[(١)].

ترجمة الراوي:

تميم بن أوس الداري: هو تميم بن أوْس بن خارجة، ويكنى أبا رقية، بابنةٍ له تسمى رقية لم يولد له غيرها.

وهو صحابي، مشهور في الصحابة، كان نصرانيًا، وراهب أهل عصره، قدم المدينة وأسلم في سنة تسع من الهجرة، وقد حدّث عنه النبي ﷺ على المنبر بقصة الجسّاسة في أمر الدجال[(٢)].

وقد أقطعه النبي ﷺ قرية عينون "بفلسطين" وكتب له كتابًا بذلك وكان قد سكن المدينة ثم انتقل منها إلى الشام بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان كثير التهجد، فقد قام ليلة حتى أصبح بآية من القرآن، فيركع، ويسجد ويبكي وهو يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[(٣)]، وكان

---

(١) برقم (٩٥/٥٥). أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٣٧).

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٤٢.

(٣) سورة الجاثية، آية: ٢١.

يختم القرآن في سبع.

وقال فيه ابن سيرين: إنه كان ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ. وهو أول من أسرج السراج بالمسجد، وأول من قصَّ القصص في عهد عمر بن الخطاب فأَذِن له.

وكان له كرامات، شهد بعضَها عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، ومنها أنه ذات يوم خرجت نار بالحرَّة، فجاء عمرُ إلى تميم، فقال له: قم إلى هذه النار!؟ فقال تميم: يا أمير المؤمنين! ومَنْ أنا؟ وما أنا؟ فلم يزل به حتى قام معه، فانطلقا إلى النار، فجعل تميم يحوسها بيده حتى دخلت الشِّعَب، ودخل تميمُ خلفها، فجعل عمر يقول: ليس مَنْ رأى كمن لم يَرَ!! قالها ثلاثًا[1].

وقد روى عن النبي ﷺ جُلة أحاديث بلغت ١٨ حديثًا.

وتوفي بفلسطين سنة ٤٠هـ، وقبره ببيت جبرين[2].

لأئمة المسلمين وعامتهم: أئمة المسلمين: من يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات. وعامة المسلمين: من عدا ولاة الأمر[3].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، وعليه مدار الإسلام -كما قال العلماء- وقيل: هذا الحديث أحد أرباع الإسلام؛ وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، تطل علينا معان متجددة، ونقتبس من دلالات كلماته الإفرادية، ومن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي، ٨٠/٦.

(٢) طبقات ابن سعد (٤٠٨/٧-٤٠٩)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٤٣)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٩٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٤٢٨/١-٤٢٩، والأعلام للزركلي (٨٧/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء لرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس، ومجدي السيد أمين (٣٩٨/١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٥٩/١)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٤٤٢/٢-٤٤٨)، وموسوعة عظماء حول الرسول (٥٢٥/١-٥٢٧).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٧٨/٩.

دلالاته التركيبية إشعاعات معرفية، وتوجيهات نبوية، وقيم سلوكية، ومنارات روحية.

وأول ما يلفت انتباه القارئ والمتلقي: هو صيغة الحوار في هذا الحديث الشريف: وفي ظلال هذا الحوار يتوهج حرص الصحابة على الاستفادة والتعلم، ونتعلم نحن المسلمين جميعًا من توجيهات المصطفى ﷺ ومن حرصه على الإفهام والتوضيح والتصريح بعد التلميح، والتفصيل بعد الإجمال، والجملة الأولى: الدين النصيحة، في أدائها الأسلوبي، وجمالها اللغوي تتضمن عدة دلالات إفرادية لكل من لفظ الدين، ولفظ النصيحة ثم تتضمن دلالة تركيبية تومئ إلى الثمرة المرجوة من التوجيه النبوي الكريم، ولنتساءل: ما الدلالة اللغوية لكلمة الدين؟ وكيف ترتبط هذه الدلالة المتنوعة بالآفاق والمقاصد المطلوبة في الحديث الشريف حين نتعرف على المدلول اللغوي للفظ "النصيحة".

إن كلمة "الدين" تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه فنقول "دانه"، وتارة من فعل متعد باللام: فنقول: "دان له"، وتارة من فعل متعد بالباء فنقول، "دان به"، وباختلاف الاشتقاق تختلف الدلالة التي تعطيها الصيغة فإذا قلنا: "دانه دينًا"، عنينا بذلك أنه ملكه، وحكمه وساسه، وقهره، فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك، والتصرف بما هو من شأن الملوك: من السياسة والتدبير والحكم والقهر والمحاسبة والمجازاة ومن ذلك ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[1]، أي يوم المحاسبة والجزاء، وفي الحديث: "الكيِّس من دان نفسه"[2] أي: حكمها، وإذا قلنا دان له، أردنا أنه أطاعه وخضع له: فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة والورع وعبارة "الدين لله"، يصح أن يفهم منها كلا المعنيين: الحكم لله، أو الخضوع لله، وهذا المعنى الثاني ملازم للأول ومطاوع له، "دانه فدان له"، أي قهره على الطاعة فخضع وأطاع، وإذا قلنا "دان بالشيء" كان معناه: أنه اتخذه دينًا ومذهبًا: أي اعتقده: أو تخلق به، فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التي يسير

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين ١/١٢٥ رقم ١٩١، والترمذي ٤/٦٢٨ رقم ٢٤٥٩، وابن ماجه ٢/١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠.

عليها المرء نظريًا أو عمليًا.

ولا يخفى أن هذا الاستعمال الثالث تابع أيضًا للاستعمالين قبله: لأن العقيدة التي يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلتزم اتِّباعها.

فكلمة الدين في دلالاتها المتعددة في لغتنا وفي عقيدتنا الإسلامية تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعًا وانقيادًا، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرًا وسلطانًا، وحكمًا وإلزامًا وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، أو المظهر الذي يعبر عنها[1].

ومن منطق الخضوع والانقياد، يشعر المسلم تجاه خالقه بالحب والتسليم المطلق، والاقتناع والرضا بكل ما يصدر عن الخالق عز وجل: من أقوال وأفعال وأحكام، فالدين له أثره الذي لا ينكر في تهذيب سلوك الإنسان، وتقويم نفسيته، وكل سلوك غير سوي، وكل انحراف عن الصراط المستقيم، ليس بينه وبين الدين ارتباط مهما ادعى الأدعياء، وتقوَّل المتقوِّلون: يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

وهذا السلوك الإسلامي يتبع من "النصيحة الخالصة"، التي جعلها الرسول عماد الدين وقوامه، وقال "الدين النصيحة"، وهذا الأسلوب من باب "الحصر المجازى، دون الحقيقي"، لأنه أريد المبالغة في مدح النصيحة حتى جعلت كل الدين، وإن كان الدين مشتملاً على خصالٍ كثيرة غيرها، كما عليه شراح السنة النبوية.

وحين نتأمل الدلالة اللغوية لكلمة "النصيحة" نجد أنها لا تتصادم مع الدلالة المرادة في الحديث الشريف وهى التوجيه والإرشاد، والإيمان بالله إيمانًا صحيحًا، واتباع ما

---

(١) انظر: كتاب الدين د. محمد عبدالله دراز بتصرف، وانظر: لسان العرب، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي في (دي ن).

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥٣.

مر به الله في كتابه، وما جاء به نبيه من أوامر ونواهٍ، وتصفية العقيدة من كل ما يشوبها، والحرص على أداء العبادات أداءً مكتملاً دون خلل أو نقصان أو ابتداع.

فالنصيحة كلمة جامعة: معناها: حيازة الخير للمنصوح له: ويقال: إنها من وجيز الأسماء، ومختصر الكلام، وأنه ليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوفى العبارة عن معنى هذه الكلمة.

والنصيحة في اللغة لها دلالتان: إحداهما أنها مأخوذة من نَصَح الرجُل ثوبه: إذا خاطه: وهنا بلاغة وجمال أسلوبي تعبيري: حيث شبه فعل الناصح فيما يتحراه للمنصوح له بسد الخَيَّاط خلل الثوب وإصلاحه، فالنصيحة التي جلى معالمها رسول الله ﷺ في بيانه الرائع الجامع: تصلح الخلل الذي يتسرب إلى عقيدة المسلم وسلوكه ومنهجه في الحياة، وتصحح موقفه من ربه، وتؤصل علاقته بالقرآن الكريم، وبرسول الله ﷺ وتقيم جسرًا من المودة والمحبة والصداقة والمشورة الصالحة بين المسلم وأئمة المسلمين وعامتهم، وكأن كل فرد منهم يقوم بنصيحة الآخر في صدق ومحبة، ومودة وإخلاص.

وأما الدلالة اللغوية الثانية: فقد قيل إن النصيحة مأخوذة من نَصَحْتَ العسل إذا صفيته من الشمع، وفي هذه الدلالة جمال أسلوب، وجمال سلوكي، وجمال تتوهج به هذه الحملة المضيئة التي تفوه بها الحبيب الناصح الأمين: محمد بن عبدالله الذي أرسله الله رحمة للعالمين، حيث قال: "الدين النصيحة".

فقد شبه تخليص القول والفعل من الغش بتخليص العسل من الخلط، وفي ضوء هذه الدلالة اللغوية نقول: إن الإيمان بالله، وبكتابه، وبرسوله، يجب أن يكون صحيحًا جميلاً كالعسل المصفى في ظل النصائح الهادية، والتوجيهات الراشدة، التي تصدر من أرباب النهى، وأصحاب البصائر، وأُولي العلم الذين يدركون: متى ينصحون، وكيف ينصحون، وبماذا ينصحون، والنصيحة لأئمة المسلمين، لا تكون بالمبالغة في بيان أخطائهم، ولكن، بمعاونتهم على الحق، وطاعتهم وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، والحرص على إصلاح أخطائهم، وإرشادهم بالحسنى إلى المنهج الصحيح، والنصيحة لعامة المسلمين آفاقها متعددة، ومقاصدها متنوعة،

ومراميها متسعة وفي ضوء الدلالة اللغوية: يحرص الناصح على إرشاد العامة إلى كل ما يجبر الخلل الذي يراه في أفعالهم وأقوالهم، ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى يُصفيَّ أقوالهم، ويهذب أفعالهم، ويجمل سلوكهم، وتصبح أعمالهم كالعسل المصفَّى، وكالثوب الجميل: في ظل النصيحة الصادقة الخالصة.

ورحم الله عبدًا، جعل نُطْقه ذكرًا، وصمته فكرًا، ونظره عَبَرًا، وحركته تعبدًا، ويسلم الناس من لسانه ويده. اللهم آمين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خصوصية النبي ﷺ في جوامع الكلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان منزلة وأهمية النصيحة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان حرص الصحابة رضي الله عنهم على فهم ما غاب عنهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والسؤال والجواب:

فالإخبار من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على تبليغ دعوته للمدعوين وقد ورد ذلك في الحديث من قوله ﷺ "الدين النصيحة"، حيث أخبر النبي ﷺ بحقيقة لا يستغنى عنها المسلم، وهى النصيحة وأهميتها وحاجة الفرد والمجتمع إليها، لما في ذلك من الخير العظيم، أما السؤال والجواب (فهو أسلوب دعوي يجذب المدعوين ويلفت انتباههم، فضلاً عن وضعهم في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة ما يكون من إجابة)[1]، ويظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ : (الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال... إلخ).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خصوصية النبي ﷺ في جوامع الكلم:

(قد اختص الله تبارك وتعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ دون غيره من الأنبياء عليهم السلام بخصائص كثيرة، تشريفًا وتكريمًا، مما يدل على جليل رتبته وشرف منزلته

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، د.عبدالرحمن حبنكة ٢/٥٩.

عند ربه)[١]، وكان من ذلك اختصاصه ﷺ بجوامع الكلم (فكان ﷺ يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني)[٢]، وقد دلت السنة المطهرة على هذه الخاصية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((فضلت على الأنبياء بست)) ثم ذكر ﷺ من ذلك: ((أعطيت جوامع الكلم))[٣] وقد ظهرت هذه الخصوصية في الحديث من قوله ﷺ: "الدين النصيحة".

وقد بين النووي ذلك فقال نقلاً عن الخطابي إن: (النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ويقال: هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان منزلة وأهمية النصيحة:

(مما لاشك فيه أن النصيحة شأنها عظيم فهي لب الدين وجوهر الإيمان، بها يكون صلاح المجتمع؛ إذ تشاع فيه الفضيلة، وتستر فيه الرذيلة، من قام بها على وجهها يستحق الإكرام لا اللوم والاتهام، لما فيها من التواصي بالحق وبالصبر ونحوهما مما يكفل حياة مستقرة للمجتمع الإسلامي)[٥]. (والنصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً، وتشمل النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم)[٦]. وقد أشار نص الحديث إلى تعظيم النبي ﷺ لأمر النصيحة وذلك في قوله ﷺ الدين النصيحة: (أي أن النصيحة عماد الدين وقوامه

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ١/٤٤٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٢٦١.

(٣) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٠.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٨/٣٥٠٨.

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٢٢.

كقوله ﷺ "الحج عرفة"[١] أي: عماده ومعظمه عرفة)[٢] (وذلك أن المسلمين إذا تركوا التناصح والتشاور فيما بينهم فسد حالهم وضيعت كثير من السنن الحميدة وحلت محلها البدع الخبيثة ونقضت عرى الإسلام عروة بعد عروة وحل الشقاق والفساد محل الود والوفاق)[٣].

وقد ذكر الله في كتابه عن الأنبياء عليهم السلام أنهم نصحوا لأممهم فقال الله عز وجل إخبارًا عن نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[٤]، وقال تعالى إخبارًا عن هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾[٥]، وقال تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٦]، ومن تمام الأخوة المناصحة، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٧].

قال ابن رجب (يعني إن من تخلف عن الجهاد لعذر، فلا حرج عليه بشرط أن يكون ناصحًا لله ورسوله في تخلفه فإن المنافقين كانوا يظهرون الأعذار كاذبين، ويتخلفون عن الجهاد من غير نصح لله ورسوله... والنصح لله يقتضي القيام بأداء واجباته على أكمل وجوهها، وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصح لله بدون ذلك، ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة الواجبة والمستحبة، ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات على هذا الوجه وترك المحرمات والمكروهات على هذا الوجه أيضًا...، وأما النصيحة لكتاب الله، فشدة حبه وتعظيم قدره إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، وشدة العناية لتدبره والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه

---

(١) المستدرك ٣٥/١ رقم ١٧٠٣، والترمذي ٢٢٧/٣ رقم ١٨٩، والنسائي ٢٥٦/٥ رقم ٣٠١٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٠.

(٣) النصيحة ومكانتها في الإسلام، الأمين الحاج محمد أحمد ص ٩.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

(٦) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٧) سورة التوبة، آية: ٩١.

عنه، ويقوم به له بعدما يفهمه.

وأما النصيحة للرسول ﷺ في حياته، فبذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته، وبذل المال إذا أراده والمسارعة إلى محبته. وأما بعد وفاته: فالعناية بطلب سنته، والبحث عن أخلاقه وآدابه، وتعظيم أمره، ولزوم القيام به، وشدة الغضب، والإعراض عمن تدين بخلاف سنته، والغضب على من ضيّعها لأثرة دنيا، وإن كان متدينًا بها....

وأما النصيحة لأئمة المسلمين فحب صلاحهم ورشدهم وعدلهم، وحب اجتماع الأمة عليهم، وكراهة افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عز وجل، والبغض لمن رأى الخروج عليهم ...، وأما النصيحة للمسلمين، فأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم...، ونصرتهم على عدوهم، ودفع كل أذى ومكروه عنهم)[١]، (فحاجة الإنسان للنصيحة كحاجته للأكل والشرب والهواء، لا غنى له عنها؛ لأنها هي التي تبين الطريق وتبصر الإنسان بأخطائه وما يحيط به من مخاطر ومهالك، والمسلم كله محتاج إلى النصح حاكمًا كان أو محكومًا، رجلاً كان أو امرأة، عالمًا أو متعلمًا، صديقًا كان أو عدوًا.

وما النصيحة إلا كلمة طيبة وموعظة حسنة، فهي إذن تحتاج إلى شروط وأهم تلك الشروط: الإخلاص، والعلم بما ينصح به وينهى عنه، والرفق، والتلطف بمن ينصحهم ويذكرهم ولو كانوا من أئمة الكفر ودعاة الضلال، فقد وصى الله موسى وهارون عندما أمرهما أن يذهبا إلى فرعون بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٢]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٣]، فكيف إذن بأخوة العقيدة ورفقاء الدرب؟)[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٢٢٠-٢٢٢.

(٢) سورة طه، آية: ٤٤.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٤) النصيحة ومكانتها في الإسلام، الأمين الحاج، ٧٠٦.

وقد أفرد ابن رجب رسالة في الفرق بين النصيحة والتعيير أورد فيها شروطًا للنصيحة (قال فيها نقلاً عن: الفضيل إن المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير ورحم الله الشافعي إذ يقول في هذا المعنى:

تَعَمَّدني بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِي وَجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَه

فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنَ التَّوْبِيخِ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَه

وَإِنْ خَالَفْتِني وَعَصَيْتَ قَوْلِي فَلاَ تَغْضَبْ إذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَه)[1]

فعلى الداعية أن يراعى شروط النصيحة عند القيام بحقها لما في ذلك من إحلال الرحمة والود مكان القسوة والشقاق، وفي ذلك عظيم الفائدة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان حرص الصحابة رضي الله عنهم على فهم ما غاب عنهم:

ورد في الحديث حرصهم رضي الله عنهم على معرفة ما غاب عنهم وذلك في قولهم رضي الله عنهم قلنا لمن؟ وكان حرصهم رضي الله عنهم في ذلك نهجًا يُحتذى به؛ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ((كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك))[2] .

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالحرص على فهم ومعرفة ما غاب عن المرء حتى يكون على بصيرة من دينه فيعبد ربه على هدى وبينة، فقال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3]، قال السعدي: (إن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إلى العلماء في جميع الحوادث، وفي ضمنه، تعديل لأهل العلم، وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأنه

---

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير، ابن رجب الحنبلي، بدون تاريخ طبع، المكتبة القيمة، مصر والسودان ص ٣٩. والأبيات للإمام الشافعي من ديوان قافية الهاء.

(٢) أخرجه البخاري ٨٩.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٣.

بذلك يخرج الجاهل من التبعة)[1]. وقد أكد النبي ﷺ على الرجوع إلى العلماء وسؤالهم فقال: «ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٤.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنة الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣٢٥)، والعيّ: الجاهل.

الحديث رقم (١٨٢)

١٨٢-الثَّاني: عَنْ جرير بْنِ عبدِ اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَايَعْتُ رَسولَ اللَّه ﷺ علَى: إِقَامِ الصَّلاَةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكلِّ مُسْلِمٍ. متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧١).

الشرح الأدبي

حين نتأمل متن هذا الحديث.. تأملاً فاحصًا ندرك أن كلماته كلها.. تخلو من البيان النبوي، فليس لرسول الله ﷺ في نظمه كلمة واحدة، ولكنه مع ذلك يُعدُّ من السنة النبوية الشريفة، لأن السنة النبوية الشريفة، إما قول أو فعل أو تقرير أو هيئة أو صفة.

وإذا أطلق الحديث أريدُ به، ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خَلْقِية أو خُلُقيَّة، وقد يراد به ما أُضيف إلى صاحبى أو تابعي، ولكن الغالب أن يقيد ما أريد به غير النبي ﷺ.

وهذا الحديث: بَيْعة صادقة، وعهد مُوَثَّق: من صاحبى جليل، هو جرير بن عبدالله لرسول الله ﷺ، وقد شرُفَتْ هذه البيعة الخيِّرة بموافقة وتأييد المصطفى ﷺ.

وهى ليست بيعة بالحكم، ولا بالولاية. ولكنها بيعة أعم وأشمل، إنها بيعة في عنق كل مسلم، وهي التعهد أمام رسول الله ﷺ بإقامة أركان الإسلام، والمحافظة عليها، وهي بيعة لها شروطها ولها آدابها، ولها مواثيقها، والتعبير بقوله: "بايعت" أقوى وآكد في الالتزام، من قوله: تعهدت أو التَزْمتُ، لأن البيعةَ تتضمن كل وسائل الولاء والاتباع والتنفيذ والالتزام، والمحافظة، ولم يكَن جرير أو من يُبَايع: بل في القرآن الكريم تخليد وتسجيل "لبيعة الرضوان" في سورة الفتح، وهى بيعة كاملة باتباع

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦/٩٧) ولفظهما سواء، وسيعيده المصنف برقم ١٢١٥. أورده المنذري في ترغيبه (٣٤١٢).

الإسلام : والذود عنه، والوقوف في وجه أعدائه، وصد كل من يحاول تشويه معالم الدعوة، والفوز بإحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشّهادة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

وفي سورة الممتحنة يأتي تفصيل لبيعة النساء، ويأمر الله رسوله ﷺ، بمبايعتهن والاستغفار لهن، يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وتأكيدًا لهذه البيعة يصوغها الراوي في صيغة المتكلم، والجملة الفعلية، "بايعتُ"، والمبايعة كانت لرسول الله ﷺ؛ ومواثيق البيعة تتمثل في ركنين كبيرين من أركان الإسلام، وهما الصلاة، والزكاة، ثم النصح لكل مسلم، ومن أسرار الجمال التعبيري قوله: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفي سياق الصلاة: جاء بقوله: "وإقام": لأن الصلاة تحتاج إلى حركة وجهد وعزيمة، وتتضمن قيامًا وركوعًا وسجودًا، وقراءة، وخشوعًا وهذا للفظ الذي يتضمن الهمزة الزائدة في أوله يرشد إلى ضرورة النصح والعمل على ضرورة أن تظل الصلاة منارة المؤمن، ونبراسه المضيء الذي لا يخبو وهجه، والفعل: "أقام الصلاة" يؤدي دلالة أعم وأشمل من قولنا: قام بالصلاة، ولفظ: "إيتاء"، مناسب للزكاة: لأنها إعطاء، وإعانة للفقراء والمحتاجين.

ولفظ "إقامة" مصدر، وكذلك لفظ "إيتاء" مَصْدر، ولذلك إيحاء ودلالة حيث تظل إقامة الصلاة مَصْدرًا للمسلم في كل أمور حياته، وكذلك إيتاء الزكاة يظل مصدر للتراحم والمودة والتكافل بين المسلمين.

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٨.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ١٢.

والنصح لكل مسلم جملة موجزة تتضمن قبسًا من قوله ﷺ، "الدين النصيحة" صلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه الكرام الأخيار.

فقه الحديث

النصح للكافر: قال ابن حجر: (التقييد بالمسلم للأغلب، وإلا فالنصح للكافر معتبر بأن يُدْعى إلى الإسلام ويشار عليه بالصواب إذا استشار. واختلف العلماء في البيع على بيعه ونحو ذلك، فجزم أحمد أن ذلك يختصّ بالمسلمين، واحتج بهذا الحديث)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: البيعة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة والزكاة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل النصيحة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان الحافز الحقيقي في النصح لكل مسلم..

خامسًا: من صفات المدعو: الحرص على الالتزام بفعل الطاعات.

أولاً- من وسائل الدعوة: البيعة:

البيعة هي (المعاقلة والمعاهدة على الأمر)[2] وقد بين الحق تعالى أهمية ذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[3] أي (أوفوا بما بايعتم به النبي ﷺ على الإيمان والنصر)[4]، فالبيعة من الوسائل الدعوية الهامة التي تبين أهمية ما بويع عليه، بما يسترعي ذلك انتباه المدعوين وحثهم على الامتثال لما بويع عليه، وقد ورد في الحديث ما يدل على ذلك في قول الراوي: "بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٦٩، وانظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٢٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٨.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/٩٧.

والنصح لكل مسلم".

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة والزكاة:

قد أشار الحديث إلى ذلك في قول الراوي: بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. فالصلاة والزكاة من أركان الدين ودعائمه وقد بين النبي ﷺ ذلك فقال: ((بني الإسلام على خمس)) ثم ذكر من ذلك ((إقام الصلاة وإيتاء الزكاة))[1]، وقد أمر الحق تبارك بهما في عدد من الآيات فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[2] وما ذلك إلا لعظم أهمية ومكانة الصلاة والزكاة فالصلاة هي آكد أركان الإسلام، والفارق بين الكفار والمسلمين. وهي عمود الدين، لقوله ﷺ: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد))[3]، لذا كانت أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلاَتِهِ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»[4].

وهي كما قال النبي ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ لِلَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»[5]. (وهذه الصلوات الخمس تؤدي في أوقاتها المعينة التي حدّدها الله فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[6].

---

(١) أخرجه البخاري ٨.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٤٣، ٨٣، ١١٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢١١٠).

(٤) أخرجه النسائي ٤٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي، ٤٥١).

(٥) أخرجه النسائي ٤٦١، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي، ٤٤٧).

(٦) سورة النساء، آية: ١٠٣.

ولها ركعات معدودة تؤدي بها هذه الصلوات الخمس دائمًا، وقد داوم عليها رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم- مدة حياته، حتى في الحروب، وتواترت أخبارها تواترًا لا يعرف لأي عمل أو عبادة في ملة من الملل، وفي دور من أدوار التاريخ، وتوارثتها الأمة جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة من غير فترة يوم واحد، حتى في أدق ساعاتها وأعظم محنها وأزمانها.

وهذه الصلوات الخمس بأوقاتها وركعاتها، وجبات روحية، شرعها الخلاق العظيم، المبدع الحكيم، الذي ليس بطبيب النفوس فحسب، بل هو خالقها العليم وصانعها الحكيم كذلك، فلابد من الإيمان والخضوع لحكمتها وتشريعها، ولابد من التمسك بها، والعض عليها بالنواجذ، والإتيان بها في أوقاتها، التي لا يعلم أسرارها وما يظهر فيها من تجليّات وإشراقات، وما يتنزل فيها من بركات ورحمات، وما يوجب فيها التعبّد لله والسجود له مخالفة لعبّاد الشمس والكواكب، ولعبّاد الأحجار والنار، وقد خضعت الأجيال البشرية، والعقول السليمة، لتوجيهات أطباء البشر ووصاياهم وتحديداتهم، وهم من بني جلدتهم، وفي مستواهم البشري، لتجارب محدودة، أو تخمينات مظنونة وما ظنك بالرب الحكيم؟ ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[2])[3].

وقد كانت الصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية، غريزة الافتقار والضعف والطلب، وغريزة الالتجاء والاعتصام، والدعاء والمناجاة، والاطّراح على عتبة القوي الغني، الجواد الكريم، الرؤوف الرحيم، الحافظ المانع، المعطي الباذل، العليم الخبير، السميع المجيب، واستجابة لغريزة الشكر والوفاء، وغريزة الحب والحنان، وغريزة الخضوع والتواضع، والعبودية والتذلل، فهو في ذلك كالسمك لا يعيش إلا في

---

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

(٢) سورة الملك، آية: ١٤.

(٣) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ٢٣، ٢٤.

الماء، وإذا أخرج من الماء لم يزل في حاجة إلى الماء، وفي حنين وفي فرار والتجاء إليه، وذلك معنى قول رسول الله ﷺ: «وجعل قرة عيني في الصلاة»(١). وقوله لمؤذنه بلال: «يابلال أقم الصلاة، أرحنا بها»(٢))(٣).

وفي ذلك بيان على عظم وأهمية الصلاة كآكد أركان الإسلام، وفي ذكر الزكاة في نص الحديث يكون الإشعار بمكانتها وأهميتها، فهي الركن الثالث في الإسلام، وقد أمر الله تعالى بأدائها وإخراجها لحكم جليلة وغايات نبيلة، "فحكمتها الأساسية الأولى، هي حكمة تزكية النفس من الشح والحرص، والأثرة وحب المال، ومنع حقوق الفقراء وقسوة النفس، وتزكية المال وتنميته، وحلول البركة فيه برضا الله سبحانه وتعالى وقبوله، وبفضل مواساة الفقراء الضعفاء، وانعطاف قلوبهم ورقتها، ودعائهم.

وقد ذكر الله هذه المصلحة الأساسية، ونوه بها في القرآن، ويكاد القرآن يقتصر عليها، فقال مخاطبًا للرسول ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾(٤) وقال مقارنًا بين الربا والزكاة: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾(٥) وقد أخرج أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقي من أموالكم))(٦).

وتلي هذه المصلحة الأساسية مصلحة الجماعة والمجتمع، وهي كفالة المجتمع، الكفالة اللازمة الضرورية، وسد حاجات الفقراء الطبيعية البدائية، وتهيئة كل عضو

---

(١) أخرجه النسائي ٣٩٤٠، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٣٦٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود ٤٩٨٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٧١).

(٣) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ٢٩.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٥) سورة الروم، آية: ٣٩.

(٦)أخرجه أبو داود، ٤٦٦٤، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود، ٣٦٣).

من أعضاء المجتمع لأسباب الحياة الشريفة التي يستطيع بها القيام بحقوق الله وحقوق النفس، والوصول إلى الكمال المطلوب، والغاية المطلوبة من كل فرد مسلم)[(١)].

ومن أجل تحقيق هذه المصالح، رهَّب الحق تبارك وتعالى من تَقَاعَس عن أداء الزكاة ومنع إخراجها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[(٢)] وقد أكد النبي ﷺ على ذلك فقال: ((ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمى عليه في نار جهنم فيجعل صفائح، فيكوى بها جنباه وجبينه، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة))[(٣)].

ثالثًا- موضوعات الدعوة: بيان فضل النصيحة:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة في هذا الحديث بيان فضل النصيحة، من حيث حاجة كل مسلم إليها، وهذا ما ورد في الحديث من قول الراوي ((والنصح لكل مسلم)) وقد بين النبي ﷺ أن من حقوق المسلم على المسلم ست ثم ذكر منها ((وإذا استنصحك فانصح له))[(٤)].

والنصيحة كما ذكرها ابن رجب عن أبي عمر: (تعني كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً)[(٥)] (ومتى قام أهل العلم والفضل بواجب النصح فيما بينهم ومناصحة من هم في حاجة إلى ذلك. اتضحت معالم الدين واستنارت النفوس بأحكامه وحكمه وأسراره وارتفع مؤشر الوعي الديني والثقافي بين أفراد

---

(١) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ١١٢، ١١٣.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤-٣٥.

(٣) أخرجه مسلم ٩٨٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢١٦٢.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٢٢.

المجتمع وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾(1))(2).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان الحافز الحقيقي في النصح لكل مسلم:

هذا مما يستنبط من نص الحديث، وفي بيان حقيقة هذا الحافز قال أبو الحسن الندوي: (إن الإيمان بالآخرة وتمثل ما فيها من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء، وللكفار من عقاب، هو الحافز الحقيقي للدعاة في دعوتهم وبذل نصحهم، وهو الذي يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صفو عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطانًا على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون ذلك موجبًا لدعوتهم وإنذارهم وسببًا لقلقهم وإشفاقهم، فيقول القرآن عن نوح عليه السلام- وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾(3).

ويقول عن هود عليه السلام - وهو من أقدم الأنبياء، وقد بعث في قوم تهيأت لهم أسباب العيش، وتوسعت لهم الدنيا، وطابت لهم الحياة-: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(4).

ويقول عن شعيب عليه السلام -وقد بعث في قوم لانَ لهم العيش وانتشر في أرضهم الخصب-: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾(5))(6).

---

(1) سورة العصر.

(2) النصيحة شروطها وآدابها، د. عبدالرب نواب الدين، ط/1، دار القلم، بيروت: ١٤١٥هـ ص ١٥٦.

(3) سورة هود، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(4) سورة الشعراء، الآيات: ١٣٢-١٣٥.

(5) سورة هود، آية: ٨٤.

(6) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، أبو الحسن الندوي، ٦٥- ٦٦، بتصرف يسير.

فعلى الداعية أن يعي بقلبه وعقله هذا الحافز فلا يترك وسعًا ولا يبقى جهدًا إلا ويبذله في النصح لكل مسلم.

خامسًا- من صفات المدعو: الحرص على الالتزام بفعل الطاعات:

يستنبط هذا مما ورد في الحديث من مبايعة الراوي للنبي ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، وفي الحرص على الالتزام بفعل الطاعات لبيان على تحقيق الاستجابة لله وللرسول وفي ذلك عظيم الأجر، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾(١) وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٢).

قال السعدي: (لما بيّن تعالى، الحق من الباطل، ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، فذكر ثوابه، وغير مستجيب، فذكر عقابه فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الحالة الحسنة، والثواب الحسن. فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها. ومن الثواب العاجل والآجل، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)(٣). فعلى المدعو أن يحرص على أداء الطاعات وفعل المأمورات، إرضاءً لرب العباد؛ وفي ذلك دخول الجنات وعلو الدرجات.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٦.

(٢) سورة الرعد، آية: ١٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٧٠.

الحديث رقم (١٨٣)

١٨٣- الثَّالثُ: عَنْ أَنَس رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

يُرسي هذا الحديث الشريف قاعدة إسلامية راسخة تقوم على أسس الأخوة الإيمانية، وهذه القاعدة ثابتة الأسس، قوية الأركان: لأنها شُيِّدت على دعائم الأخوة الإسلامية.

وجوهرها "الحبُّ" وهذا الحب ليس محصورًا في مشاعر ذاتية، وفنية، وليس رهين عواطف تحكمها العصبية، أو يؤطرها الهوى، والنزعات الشخصية، وإنما ذلك الحب يتسامى، ويتحصن بالإيثار، والتوازن، انطلاقًا من القاعدة التي تقول: المؤمن مرآة أخيه. واسترشادًا بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢].

والحديث في بنائه اللغوي: يبدأ بالنفى، وهو ليس نفيًا لشيء مكروه، ولكنه نفى للإيمان ، وهذه البداية تثير الانتباه وتدعو للتفكير واليقظة، والتساؤل: وماذا بعد قوله صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم" فالجملة لم يكتمل معناها وكلمات الحديث تتراص وتتآزر كالبنيان المرصوص يشد بعضها بعضًا، والحديث يعد جملة دلالية واحدة، تتضمن في جوانبها المشرقة عددًا من الجمل التي تتكون منها الدلالة الكبرى للحديث، وهى المحبة الخالصة لكل مؤمن.

فالحب من أمارات الإيمان ولفظ "أحدكم" عام وشامل : وكاف الخطاب هنا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥/٧١) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٤٣).

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

يتوجه بها الرسول ﷺ إلى كل هذه الملايين التي أنعم الله عليها بالتوحيد، وأظلها بالإسلام، وثبتها بالإيمان في كل عصر، وكل جيل، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

و"حتى" تفيد الغاية وهي توحي بأن المؤمن مهما جد في إيمانه، ومهما قطع الأشواط في هذا السبيل فإنه لن يفوز بالإيمان الكامل إلا إذا وصل إلى مرتبة الإيثار، والإحساس بالغير.

والفعل المضارع في قوله ﷺ "حتى يحب" يوحي باستمرار هذا المنهج، وذلك السلوك، وتجددهما، وهذه مرتبة لا يبلغها إلا من ينتصر على نفسه، وعلى رغباته الدنيا، وعلى "الأنا" المتحكم في ذاته، والتعبير بلفظ "لأخيه" فيه دلالة على رابطة الإيمان القوية، فإن الروابط القائمة على قيم الإسلام أقوى من روابط النسب، وصلات العصب، لأن المؤمنين إخوة في ظل المنهج الإسلامي، والتعبير بقوله "ما يحب لنفسه"، واسم الموصول، "ما" يتضمن كل ما يتمناه الإنسان لنفسه، وهذا السلوك يحدث توازنًا بين أفراد المجتمع الإسلامي.

ويوثق الروابط بين أبناء الأمة، والطريق إلى محبة الناس، وإيثارهم، والانتصار على شح النفس هو محبة رسول الله ﷺ. والذين يحبهم رسول الله ﷺ قد حدد معالم شخصيتهم في قوله ﷺ: "ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم منِّي مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطأون أكنافًا، الذي يألفون ويؤلفون"[1] وهذه الصفات الثلاثة تعد معالم مضيئة للمؤمن الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه وهذه الثلاثة وإن ائتلفت ورجع بعضها إلى بعض فإنها تتميز وتنفرد كل واحد بشيء من المعنى فقوله: "أحاسنكم أخلاقًا" كلمة شاملة لكل ضروب الأخلاق التي تستوعب كل صلات الإنسان بغيره، ومن القول والفعل، ومن الصدق، والوفاء والبر والعدل، والكرم، والمروءة والنجدة، والإيثار والمعونة، وصلة الأرحام، ومساعدة الضعيف والإعانة على

(١) صحيح ابن حبان ٢/٢٣٥ رقم ٤٨٥، ومسند أحمد ٢/١٨٥.

نوائب الدهر، وغير ذلك مما لا يستطاع حصره، وتشمله كلمة الأخلاق، وكلمة "أحاسنكم" جمع أحسن، والمطلوب ليس الخلق الحسن، وإنما الخلق الأحسن.

ومن أمارات الحب ودلائله التي يدعو إليها الحديث: هذه الصفة الإيمانية التي تقرب المؤمن من مجلس رسول الله يوم القيامة، وهو شرف لا يسمو إليه شرف آخر، ورتبة لا تعلوها رتبة، والطريق إليها أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

وأن تكون من الذين قال فيهم المصطفى ﷺ "الموطأون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون"، ورسول الله ﷺ الذي يجعل هذا الخلق سبيل الوصول إلى محبته ومجالسته هو نفسه ﷺ مثل رائع في هذا فقد كان يفيض بالرأفة والرحمة، وكان عليه السلام على خلق عظيم، وبهذا وصفه ربه: قال سبحانه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وقال جل شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وكأنه عليه السلام يدعو أمته لأن تكون على شاكلته ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: أسلوب الترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية حب الخير للمؤمنين.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: ترسيخ الإيثار في النفوس وتحريرها من الأنانية.

رابعًا: من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: أسلوب الترهيب:

و(الترهيب (أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة وإيثارها البعد عن الخوف والخطر وذلك من خلال تخويفها وتهديدها)[3]. وهذا ما ورد في الحديث من الترهيب في عدم اكتمال إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ١/٢٣٢.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية حب الخير للآخرين من المؤمنين:

إن مما يستنبط من هذا الحديث أهمية حب الخير للمؤمنين؛ لأجل تحقيق التلاحم والتماسك بين المسلمين، ويظهر ذلك في قوله ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وقد بين ابن حجر ذلك فقال: (والمحبة إرادة ما يعتقده المرء خيرًا والخير كلمة جامعة تعم الطاعات والمباحات الدنيوية والأخروية، وتخرج المنهيات)، وقال نقلاً عن النووي: (إن المحبة هي الميل إلى ما يوافق المحب، وقد تكون بحواسه كحسن الصورة، أو بفعله إما لذاته كالفضل والكمال، وإما لإحسانه كجلب نفع أو دفع ضر)[١].

وقد أمر الحق تبارك وتعالى نبيه بذلك فقال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢] قال السعدي: أي: (ألن لهم جانبك، وحَسِّن لهم خلقك، محبة، وإكرامًا، وتوددًا)[٣]. وفي ذلك قال ابن رجب: (إن هذا كله من جملة النصيحة لعامة المسلمين التي هي من جملة الدين كما قال ﷺ ((الدين النصيحة))[٤])[٥] (وإن من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكرهه لنفسه)[٦]، (فإذا زال ذلك عنه انتفى عنه كمال الإيمان)[٧]، وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله ((لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير))[٨].

وفي حب الخير للآخرين من المؤمنين امتثالاً لقوله ﷺ ((مثل المؤمنين في توادهم

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/ ٧٤.

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٨.

(٤) أخرجه مسلم ٥٥.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٣٠٥.

(٦) المرجع السابق ٣٠٣.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/ ٧٤.

(٨) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٣٥، وقال محقق الصحيح: إسناده صحيح.

وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))[١] وقد رغب النبي ﷺ في ذلك فقال: ((فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه))[٢] قال النووي: (وقوله ﷺ "وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه" هذا من جوامع كلمه ﷺ وبديع حكمه، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها، وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه)[٣]. وفي ذلك بيان على أهمية حب الخير للآخرين من المؤمنين.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: ترسيخ الإيثار في النفوس وتحريرها من الأنانية:

إن مما يستنبط من الحديث فيما يتعلق بأهداف الدعوة: ترسيخ الإيثار في النفوس وتطهيرها من الشح والأنانية ومن الشواهد على ذلك ما ورد في قوله ﷺ "حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه": (فالإيثار دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، به تحصل الألفة والمحبة بين الناس، وهو دليل سخاء النفس وارتقائها، فضلاً عن كونه طريقًا موصلاً إلى الفلاح لأنه يقي الإنسان من داء الشح فيكون سببًا في عتق الإنسان من النار)[٤] (والإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، ورغبةً في الحظوظ الدينية. وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة)[٥] وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٦] أي: (يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك)[٧].

---

(١) أخرجه مسلم ٣٠٦.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩٤.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح ٣/٦٤٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٩/١٨/٢٦.

(٦) سورة الحشر، آية: ٩.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٧٠.

(وقد أتى رجل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسلَ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله ﷺ ((ألا رجل يضيفه هذه الليلة، يرحمه الله؟)) فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله عز وجل، أو ضحك من فلان وفلانة))، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

قال ابن القيم: (وضابط الإيثار: أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يخرم عليك دينًا، ولا يقطع عليك طريقًا، ولا يفسد عليك وقتًا يعني: أن تقدمهم على نفسك في مصالحهم، مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين، ...، وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحدًا، فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم...، ولا يستطاع الإيثار إلا بثلاثة أشياء أولها: تعظيم الحقوق؛ فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حق رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي، ثانيها: مقت الشح. فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار؛ فإنه يرى أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار. ثالثها: الرغبة في مكارم الأخلاق وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره؛ لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق)[2].

رابعًا- من صفات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من المهام الأساسية التي يضطلع بها الداعية، إرشادَ المدعوين ودلالتهم إلى ما يتحقق به إيمانهم، وقد ورد ذلك في الحديث من قوله ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى

---

(١) أخرجه البخاري ٤٨٨٩، ومسلم ٢٠٥٤.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٥٥-٥٨ بتصرف يسير.

يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وقيام الداعية بذلك وحرصه عليه يكون من باب النصيحة التي أمر بها النبي ﷺ: فعن تميم الداري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))[١].

قال النووي: (... وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم)[٢].

وفي دلالة المدعوين إلى ما يتحقق به إيمانهم عظيم الأجر وذلك لقوله ﷺ: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا))[٣].

(ومما لاشك فيه أن الداعية مُتبع النبي الكريم ﷺ في مهمته الإرشادية... وقد كان ﷺ شديد الحرص على هداية الناس وتعليمهم وتزكيتهم وإرشادهم إلى ما ينفعهم...، وقد استمر ﷺ في أداء هذه المهمة الجليلة مشمرًا عن ساعديه، باذلاً كل ما في وسعه مستخدمًا جميع الأساليب والوسائل المشروعة المتاحة له في سبيل ذلك بتوفيق الله تعالى حتى لحق بالرفيق الأعلى صلوات ربي وسلامه عليه، وما أكثر المواقف في سيرته المطهرة التي يتجلى فيها حرصه الشديد على إرشاد المدعوين وإخراجهم من الظلمات إلى النور وإبعادهم عن كل ما يعرضهم لغضب الرب وعذابه)[٤]، وكان من ذلك صعوده ﷺ على الصفا ((فجعل يُنادي: يا بني فِهر، يا بني عَديّ -لبطونِ قُرَيشٍ- حتى اجتمعوا، فجعلَ الرجلُ إذا لم يَستطعْ أن يَخرجَ أَرسل رسولاً لِيَنظرَ ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: أرأيتَكُم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٤) انظر: الحرص على هداية الناس، د. فضل إلهي، ١٧، ١٩.

تريدُ أن تُغيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلاَّ صِدقًا. قال: فإني نذيرٌ لكم بينَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ...))[1].

فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في حرصه على إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[2] وفي ذلك كامل الفائدة وجزيل الثواب.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٧٧٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

حب الخير للآخر فرض كحب الإنسان الخير لنفسه، ولا يكمل إيمان المؤمن حتى يعيش هذا الشعور وعلينا كعلماء إسلام أن:

١/ نقدم النصيحة للآخرين إذا قصروا بحق هذا الدين وذلك بعد التزامنا الذاتي، حتى لا تخالف أقوالنا وأفعالنا فلا نجد صدى لدعوانا.

٢/ الإكثار من بيان منزلة السنة ومكانتها وتصحيح مفهوم العمل بها وإقامة الدليل على حجيتها والدفاع عن الشبهة المثارة بحقها.

٣/ تقديم النصح لولي الأمر بصيغة العموم ولكل مسؤول في أي موقع حتى لا يكون مما لا يحمد من جراء عدم النصح.

٤/ ينبغي مراعاة آداب النصح من حيث: توفر العلم بما ينصح به، وكون الناصح ملتزماً بما يدعو إليه وينصح به، وكذلك عدم إحرراج المنصوح، فلا يقدم النصيحة في الملأ، لأنها في الملأ تكون نصيحة للمنصوح، كما أن التلطف في الخطاب مطلوب حتى لا تكن النفرة من المنصوح وأظهار الأثر المترتب على الاستجابة، لأن النفس تميل إلى الخير العاجل. ومن المفاهيم التربوية ما يلي:

أولاً- التربية بالنصيحة:

إن النصيحة من أساليب التربية التي امتاز بها الأسلوب النبوي في التربية مثلما سادت هذه الطريقة لدى الأنبياء السابقين، يقول تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[1]، ويقول على لسان هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[2].

ولقد جسدت هذه الطريقة جوهر الإسلام في التواصي بالحق، ولهذا فقد قال ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»؛ لأنها تبرز صحة المجتمع، وترابطه وتآزره فيما بين أفراده،

(١) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٦٨.

والنصيحة من أسس الإسلام التي كان الصحابة الأولون يبايعون الرسول ﷺ عليها في أول إسلامهم، ولهذا قال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلاَةِ، ...، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

وهذه الطريقة في التربية طريقة قديمة قدم الإنسان نفسه، فقد ارتبطت بالتعليم منذ أقدم العصور، على أساس أن المربي هو الشخص الذي يمتلك المعرفة، والمتعلمين ينتظرون أن يتلقوا بعضاً مما عنده، بهدف إفادتهم ونموهم السوي في كل جوانب حياتهم[1].

ثانياً- التربية بالحوار والمناقشة:

وهذا من الأساليب التي بدت في محاورته لصحابته؛ عندما قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، فسألوه: «لِمَنْ» فأجابهم: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ ...».

ولقد استخدم النبي ﷺ؛ هذا الأسلوب بكثرة في تربية المخاطبين وتوجيههم، وإعدادهم إعداداً إسلامياً صحيحاً، وهو أسلوب يدفع المتعلم إلى المشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم، والتساؤل عما لا يدركه من حقائق، وهو طريقة لا يمكن أن يكون المتعلم فيها سلبياً أو مصدقاً لما يسمعه دون فهم وإدراك؛... وهذا يحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه لما يلقى إليه؛ ليتمكن من فهمه، ثم الإجابة عليه، فإذا كان الاستفهام تقريراً فمعنى ذلك أنه يحمل المخاطب على الاعتراف، وينزع منه الإجابة[2].

ثالثًا- التربية على الوفاء بالعهد:

من أخلاق المسلم التي يحرص عليها دائماً رغم كل الظروف: الوفاء بالعهد؛ فتلك هي الصفة التي تكشف عن معادن الرجال وتمكن الإيمان من قلوبهم، ولهذا كانت مبايعة النبي ﷺ عهداً ملزماً لصحابته بالوفاء به طيلة حياتهم، فهذا جرير بن عبدالله رضي الله عنه يقول: رضي الله عنه: « بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلاَةِ، .....». ثم عدَّد بنود المبايعة التي أبرمها مع رسول الله عندما أعلن إسلامه، وقد مدح الله تعالى الذين يوفون بالعهود

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد ص ١٩٥.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني ص ٤٤٦، ٤٤٧.

في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ﴾[(١)]. وهي من صفات المؤمنين.

قال محمد الغزالي: (إذا أبرم المسلم عقداً فيجب أن يحترمه، وإذا أعطى موثقاً فيجب أن يلتزمه، ومن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التي قالها، ينتهي إليه كما ينتهي الماء عند شُطآنه، فيعرف بين الناس بأن كلمته ميثاق غليظ، لا خوف من نقضها، ولا مطمع في اصطيادها؛ فالعهد لابد من الوفاء به، كما أن اليمين لابد من البرّ بها، ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير، وإلا فلا عهد في عصيان، ولا يمين في مأثم)[(٢)].

رابعاً- التربية على خلق الإيثار:

من واجبات المؤمن تجاه أخيه المؤمن أن يربط بينهما خلق الإيثار، الذي حرص النبي ﷺ على تعميق جذوره في نفوس صحابته، حتى ربطه بالإيمان في قوله ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، وذلك هو المنهج الرباني الذي دعا إليه القرآن وعضدته السنة الشريفة، يقول تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[(٣)]، وتلك هي صفات المؤمنين الأولين لمن أراد أن يتأسى.

إن الخدمة الجليلة التي تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند تهذيب السلوك، بل إنها وظيفة إيجابية أعمق أثراً في كيان الجماعة، ذلك أنها تربط قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم، لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الحوار[(٤)].



---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ٥٤.

(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

(٤) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ١٥٦.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات